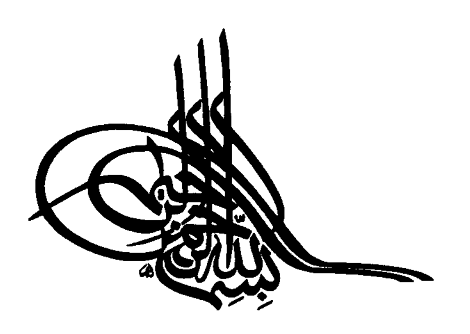


الإمام الداعية الحبيب

أحمد مشهور الحداد

صفحات من حياته ودعوته

الإمام الداعية الحبيب

أحمد مشهور الحداد

صفحات من حياته ودعوته

تأليف

حامد بن أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد



دار الفتح للدراسات والنشر

□ الإمام الداعية الحبيب أحمد مشهور الحداد، صفحات من حياته ودعوته.
تأليف: حامد أحمد مشهور الحداد.
الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
قياس القطع: ١٧×٢٤ سم.
عدد الصفحات: ٦٣٩ص.



عمّان، العبدلي، عمارة جوهرة القدس، ط B2
ص.ب ١٨٣٤٧٩ عمّان ١١١١٨ الأردن
هاتف: ٤٦٤٦١٩٩ (٠٠٩٦٢٦)
البريد الإلكتروني: sales@alfathonline.com
موقعنا على شبكة الإنترنت: www.alfathonline.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

بقلم السيد العلامة عمر بن حامد الجيلاني

الحمد لله القائل: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١]، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد المنبئ بأن طائفة من أمته لا يزالون يدعون إلىٰ دينه وهم بالحق ظاهرون، فتحققت نبوءته في أمته فحمل منهم رجال مختارون دعوته مشرقين بها ومغربين، فهدىٰ الله بهم أمماً كانوا في الغواية والشرك سادرين، وبلغوا بدعوته ما بلغ الليل والنهار، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأطهار، وصحابته الأبرار، وعلىٰ من دعا بدعوته في جميع الأعصر والأمصار.

وبعد:

فإن الله وقد أوجب علىٰ المكلف أن يتعلم من أمر الدين ما يحصل به النجاة، جعل أمر التوسع في معرفة الفقه في الدين مخصوصاً بطائفة تفقهه وتحقق مسائله ثم تتصدر لإفادة الناس وإفتائهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وكما أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ كل قادر عليه، أمر أن تتصدىٰ له جماعة تجمع شرائطه وتحسن القيام به، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وجرى هذا في أمر البلاغ والدعوة، فقد أوجب النبي ﷺ كما في خطبة حجة الوداع التبليغ علىٰ كل سامع: «بلغوا عني ولو آية»[١]، وخص الله جماعةً بالاشتغال بأمر الدعوة نفسها عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

وأثنىٰ الله علىٰ هذه الأمة من الدعاة فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وجاء وصف هذا الداعي في تفسير الحسن البصري رحمه الله لهذه الآية: (هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلىٰ الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين).

* * *

وفي تاريخنا الإسلامي أعلام من الدعاة برزوا في ميادين الدعوة وحققوا له نصراً عظيماً، ففتحوا للإسلام دياراً بلا جيوش، خفقت فيها أعلامه، واستظل الناس تحتها ونعموا بعدل الإسلام فاطمأنت قلوبهم به، وتمسكوا بأهدابه، وتأدبوا بآدابه، وكانوا من المدافعين عنه.

---

(١) صحيح البخاري: حديث (٣٤٦١).

وما أحوج المعنيين بدراسة شؤون الدعوة الإسلامية إلىٰ أن ينظروا في سير هؤلاء الدعاة المصلحين الذين حفلت بذكر سيرهم دفاتر التراجم والأخبار، وأن يتعرفوا علىٰ المناهج التي سلكوها في دعوتهم ويتخذوها سبيلاً يسيرون عليه، مع ملاحظة اختلاف الزمان والمكان. إنه لا يجوز اطّراح سبل هؤلاء الدعاة الصالحين ولا التنكب عنها، فكم ظهرت دعوات توفر لها من الوسائل المادية ما يمكن أن تحقق بها الكثير من النجاح ولكنها أخفقت أو قلّ نفعها، لأنها فقدت خصائص هؤلاء الدعاة واطّرحت مناهجهم.

* * *

إن من أعلام هؤلاء الدعاة الناجحين في هذا العصر شيخنا العلامة الحبيب الداعي إلىٰ الله علىٰ بصيرة، السيد أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد، رحمه الله تعالىٰ، وأجزل له المثوبة لقاء ما أسلف من دعوة الناس وهدايتهم.

ليس الحبيب أحمد بحاجة إلىٰ التعريف به مني، أو الحديث عن شخصه الكريم، فهو في غنىً تام عن ذلك.

وإذا استطال الشيء قام بنفسه ... وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولكني سأقتصر في الكتابة هنا علىٰ موضوعين:

الموضوع الأول: عن معرفتي الخاصة به، وعما يربط بينه وبين سيدي الوالد من علاقة كان سداها ولحمتها إخوة في الله، وصحبة درس لا تنسىٰ، حسبما رغب إليّ صاحب هذا السفر الكريم.

والموضوع الثاني: عن هذا الكتاب الذي حبره يراع نجله وتلميذه السيد الباحث الشاعر الناثر السيد حامد بن أحمد مشهور الحداد.

الموضوع الأول:

لقد عرفت الحبيب أحمد المشهور قبل أن أراه، فمنذ أن أدركت كنت أستمتع بما كان يقصه سيدي الوالد لي ولأخويّ عبد القادر وعبد الله وللمقربين إليه من تلاميذه عن أدوار حياته ولا سيما أول أيام درسه.

فرسخ اسم الحبيب أحمد المشهور في ذهني وتمنيت لقاءه.. وكان قد جمع بين الحبيب أحمد المشهور وسيدي الوالد أخوة في الله وصحبة في طلب العلم لدىٰ شيخهما العلامة الكبير السيد علوي بن طاهر الحداد في بلاد (بوقور) بأندونيسيا، وكان يوليهما عناية خاصة، ويكلفهما بمقابلة نسخ بعض مؤلفاته وهو يهيئها للطبع. ورباط الإخوة في الله وصحبة الدرس لا تعدو عليها يد النسيان، ولا تطمسها السنون مهما تقادمت العهود..

وفي إحدىٰ سنيّ العقد الثامن من القرن الماضي أرسلني سيدي الوالد في آخر جمعة من شهر رجب إلىٰ بلاد (قيدون)، وفوجئت بالحبيب أحمد المشهور يعظ الناس بعد صلاة الجمعة فكدت أطير من الفرح، وكنت في آخر صفوف مسجد الشيخ سعيد بن عيسىٰ العمودي، وعدت إلىٰ سيدي الوالد وبشرته، وتمنىٰ لقاءه، ولكن الحبيب أحمد عاد مسرعاً إلىٰ مهجره، ثم تمت له ولسيدي الوالد لقاءات في بلاد الحرمين الشريفين تُكتب وقائعها بماء الذهب.

ثم كان أول لقائي به في شهر محرم عام ١٣٩١هـ في مدينة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ومما تخلّد في ذهني قوله لي ولأخي عبد القادر: عجّلت بزيارتي للمدينة لألقاكم بها.

وتوالت تلك اللقاءات، وانتظمنا في سلك تلاميذه والآخذين عنه، والله المحمود علىٰ ذلك، ولو ذهبت أصف ما يجري في مجالسه من مباحث علمية يثيرها، وفرائد فوائد يمليها، وأفهام في نصوص الشرع يفتح الله عليه بها، لاستغرق ذلك صفحات كثيرة.

الموضوع الثاني:

هذه الدراسة لحياة الحبيب أحمد المشهور التي قام بإعدادها نجله وتلميذه الأستاذ الباحث المحقق السيد حامد بن أحمد، وبذل فيها جهداً عظيماً.

لقد أتىٰ في هذه الدراسة علىٰ جوانب مهمة من حياة والده وشيخه، وهو عمل مشكور، كان ديناً علىٰ أبنائه وتلاميذه يجب التعجيل بوفائه، فقام السيد حامد بقضائه موفًّىٰ، وهو خير من يقوم به، فالحبيب أحمد أبو جسمه وروحه والابن ألصق الناس بأبيه، لا سيما إذا قارن هذه البنوة انتظام في حلقات الدرس والتحصيل، فيعرف من خبايا حياته ما لا يعرفه سواه، ويطّلع علىٰ ما لا يمكن لغيره معرفته، وأهل البيت أدرىٰ بما فيه.

وعندما يكتب الابن عن أبيه.. قد تجنح به عاطفته فيسرف في الثناء، ويبالغ في الوصف، إلا أن السيد حامد الدارس لحياة أبيه وشيخه قد ألجم قلمه بلجام الإنصاف، كما صرح بذلك في صدر رسالته، بل الملاحظ أنه يحجز قلمه عن الاسترسال إذا كان الكلام يجري مجرىٰ المديح والثناء، فجزاه الله خيراً علىٰ صنيعه الجميل.

وما تزال جوانب من حياة الحبيب أحمد المشهور وأمثاله من العلماء

والدعاة بحاجة إلىٰ دراسة قياماً بما يجب لهم علىٰ تلاميذهم، ولتكون معالم يهتدي بها السائرون في دروب الدعوة والتبليغ.

مقومات النجاح للداعي:

سأتحدث بإيجاز عما أفدته وعلقته وأنا أقرأ هذه الرسالة القيمة مما يمكن وصفه بمقومات النجاح الذي حصل للحبيب أحمد مشهور في دعوته.

لقد وضع الحبيب أحمد عُمُداً متينة قام عليها هذا الصرح العظيم، أذكر أهمها، محيلاً ـ من أراد الإحاطة بجوانبها، والتوسع في بحثها ـ إلىٰ قراءة هذه الدراسة.

أولاً: الاهتمام بالنواحي العلمية:

اهتم الحبيب أحمد بهذا الجانب اهتماماً عظيماً.

ففتح المدارس الدينية.

وأقام الدروس العلمية.

وألف المؤلفات في عدد من العلوم الشرعية.

وقام بوظيفة الخطابة سنواتٍ علىٰ منبر مسجد (ناكاسيرو).

وأنشأ المكتبة الإسلامية بمدينة (كمبالا) بأوغندا.

وفتح بيته لاستقبال المستغيثين والإجابة علىٰ أسئلتهم.

ثانياً: العمل بالعلم:

إن نجاح الداعي إلىٰ الله دليلٌ صادق علىٰ استقامته. إن الناس لا تستجيب لمن لا تصدّق أفعاله أقواله.. لقد عني الحبيب أحمد بتعميق هذا الجانب في نفوس طلابه، وكان لهم خير مثال، كما حرص علىٰ تحليتهم بالخلال الفاضلة والآداب المرعية، والسمت الحسن. وهي خلالٌ يكون لمن تجمل بها أثرٌ بالغ في قلوب المخاطبين، حتىٰ قبل أن يفوه الداعي بدعوته، وقد جاء في مسند الإمام أحمد من حديث أسماء بنت يزيد رضيَ الله عنها، أن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلىٰ، قال: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله»[1].

إذا رؤوا يشهـر ذكـر الله فهو لهم سيما علىٰ الجباه
يعرف معناهم بلا اشـتبـاه من حيث ما يعرف ذو الجلال

ثالثاً: حَمْلُ همِّ الناس:

يلاحظ في أدواردعوة الحبيب أحمد المشهور حمله هموم الأمة، ويظهر ذلك في سعيه المتواصل في إصلاح شؤون أهل تلك البلاد، وتحمله المشاق في إيصال الخير إليهم. فيذهب بنفسه راكباً دروب المخاطر إلى أدغال أفريقيا الشرقية وغاباتها، رافعاً لواء التوحيد في سماء تلك القارة السوداء، حتى وصل هو وزميله الداعي إلى الله الشريف سعيد البيض إلى حيث المتعصبون من النصارىٰ في جنوب السودان، في (جبا) و (واو)، وكم

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم (٢٧٠٥٢)، (٢٧٠٥٤).

سمعناه يخص أهل تلك المواطن بدعواته ويضرع إلى الله في أشعاره أن يصلح الله شؤونهم.

رابعاً: تعاونه مع من يعمل في مجال الدعوة:

لقد وضع الحبيب أحمد المشهور يده مع كل من يعمل في ميدان الدعوة إلىٰ الله وتفاعل معهم، وأعطىٰ كل ذي حق حقه، ولم ينتقص جهد داعٍ مهما كان ضئيلاً. ولم يُلغ مكانة عامل، ونحن نراه وهو يتحدث عند وصوله إلىٰ أرض (الاروما) و (الوديغو) يثني علىٰ من جاء إليهم من الدعاة قبله الذين أدخلوا تلك القبائل إلىٰ الإسلام، ويقدّر عدد تلك القبائل بنحو مئة ألف مسلم.

ونجده يرثي الداعية إلىٰ الله في (كينيا) الشيخ عبد الله بن محمد بارعيده، ويبرز في رثائه دوره في هداية الناس وتعليمهم في (كينيا).

خامساً: التعرف علىٰ أحوال المدعوين:

من لوازم نجاح الداعي معرفة أحوال المدعوين ومواطن الخلل عندهم، ويقوم بإصلاحها ويبحث عن حاجاتهم، ويساعدهم علىٰ قضائها. ويتحدث إليهم بلسانهم، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

لقد وصل الحبيب أحمد المشهور إلىٰ قلوب أولئك الأفارقة وصقلها وصاهرهم من أجل أن ترفرف راية التوحيد في تلك الديار ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

سادساً: الاستغناء عن الناس:

اشتغل الحبيب أحمد المشهور ببعض الأعمال التجارية لتعينه علىٰ أمر حياته ودعوته، واستغنىٰ بها عن الناس، وصبر علىٰ ما ناله من الجُهّال. قال لي مرة ـ وقد بدأت الاشتغال ببعض الأسباب ـ: لقد ولجتُ مجال التجارة من أجل صيانة الوجه عن الحاجة إلىٰ أحد، وتعاملت مع عامةٍ لا يعرفون لأهل العلم أقدارهم، وصبرت علىٰ ذلك.. وأوصيك بالصبر.

إن استغناء الداعي عن الآخرين في أمر معاشه وتسيير دعوته يحميه من الوقوع تحت تأثير الممولين ومجاملتهم، ويجعل له الاستقلال في آرائه، واتخاذ الخطوات التي يراها مناسبة لدعوته. وهو في كل ذلك متأسٍ بالرعيل الأول من سلف الأمة من العلماء والدعاة، ويرحم الله أحمد شوقي وهو يقول في منظومته «دول العرب وعظماء الإسلام»:

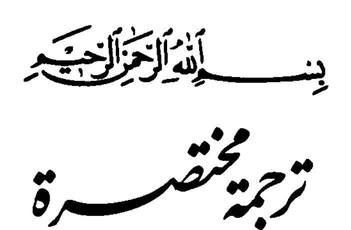
كان رسول الله رب مال وتاجراً ميسر الأعمال
يضرب في حزن الفلا وسهله بمال نفسه ومال أهله

رحم الله شيخنا العلامة الداعي الحبيب أحمد المشهور، وبارك الله في أبنائه وتلاميذه، وشكر الله لنجله الحبيب حامد قيامه بهذا الواجب.. وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

عمر بن حامد بن عبد الهادي الجيلاني

في مكة المكرمة، ١٧ ذو القعدة ١٤٢٢هـ



لسيدي العلامة الداعي إلىٰ الله والدال عليه السيد الشريف الحبيب أحمد مشهور بن طٰه الحداد رحمه الله

هو الشريف السيد أحمد مشهور بن طٰه بن علي بن عبد الله بن طٰه بن عبد الله بن طٰه بن عمر[١] بن علوي بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علوي بن أحمد[٢] بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الفقيه أحمد بن عبد الرحمن بن علوي[٣] بن محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله ابن سيدنا المهاجر أحمد بن عيسىٰ بن محمد النقيب ابن الإمام علي العريضي ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر بن الإمام السجّاد زين العابدين علي بن الإمام الحسين السبط وريحانة الرسول ابن ليث الله الغالب مفرق الكتايب باب مدينة العلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابن السيدة الزهراء البتول سيدة نساء العالمين ابنة سيدنا ومولانا وسيد الأولين والآخرين حبيب رب العالمين سيدنا محمد خاتم النبيين صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

---

(١) شقيق الإمام قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد.

(٢) أول من لقب بالحداد.

(٣) عم سيدنا الفقيه المقدم.

ولد ببلدة (قيدون) بحضرموت سنة ١٣٢٥ هجرية، وتربىٰ ونشأ في بيئة علم وصلاح في كنف ورعاية أمه الشريفة الصالحة القانتة صفية بنت الإمام الحبيب طاهر بن عمر الحداد التي ألحقته برباط العلم الشريف بقيدون، وفي رحابه تلقىٰ علومه علىٰ عميه وشيخيه الإمامين العلامتين عبد الله وعلوي ابني طاهر بن عبد الله الحداد وعليهما تخرج.

وكان شيخه الحبيب علوي بن طاهر يستصحبه معه في بعض رحلاته، فأخذه لزيارة (تريم) وفيها أخذ عمن لقيه بها من أكابر العلماء كالحبيب العلامة عبد الله بن عمر الشاطري والحبيب العلامة عبد الباري بن شيخ العيدروس، وغيرهم، ولما سافر إلىٰ إندونيسيا استصحبه معه وهو دون العشرين، وهناك أخذ عن جملة من علماء السادة العلويين وغيرهم كالحبيب العلامة محمد بن أحمد المحضار والحبيب العلامة المعمر علي بن عبد الرحمن الحبشي والحبيب العارف بالله عبد الله بن محسن العطاس والحبيب العلامة علوي بن محمد الحداد.

ثم عاد إلىٰ قيدون ولازم شيخه الحبيب عبد الله بن طاهر يقرأ عليه مع قيامه بالتدريس في الرباط فانتفع به طلاب العلم نفعاً عظيماً.

وإضافة إلىٰ مَنْ سبق ذكرهم أعلاه ممن أخذ عنهم فلا ننسىٰ أن في طليعة من يعتز بالأخذ عنهم أيضاً عم والده العلامة الحبيب صالح بن عبد الله الحداد، كما أخذ عن الحبيب أحمد بن محسن الهدار. وأدرك رحمه الله الحبيب العلامة أحمد بن حسن العطاس في سن مبكر وصلّىٰ خلفه ويروي عنه بالإجازة العامة التي أجاز بها أهل عصره.

أما بقية من أخذ عنهم رحمه الله من المشائخ أو من أجازه أو استجازه فسيأتي ذكرهم بالتفصيل إن شاء الله.

وكان الحبيب العلامة عمر بن أحمد بن سميط آخر من أخذ عنهم من مشائخه أخذاً كاملاً، رحمهم الله جميعاً، آمين.

كانت الفترة التي تلت عودته من إندونيسيا إلىٰ مسقط رأسه (قيدون) حافلة بالنشاطات العلمية والأدبية والاجتماعية والأخذ والتلقي والتحصيل. وقد وهبه الله من عين الميراث النبوي أوفر نصيب فمضىٰ علىٰ نهج آبائه وأسلافه بتوفيق من الله وبعون منه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك النهج حتىٰ بدت آثار تلك الوراثة في نشر لواء الدعوة بعد أن استقر به المقام في ربوع إفريقيا الشرقية، حيث عمت دعوته أغوارها ونجودها وأثمرت مساعيه الحميدة وأينعت وآتت أكلها، بعد أن هيئته العناية الربانية لذلك، فمن مدارس تنشأ ومعاهد علمية تقام لمحاربة الجهل والأمية، ومساجد تؤسس ليذكر فيه اسم الله ويتلو فيها التالي، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت]، إلىٰ جولات بين الغابات والأدغال لا تنقطع، إلىٰ السعي في الإصلاح بين الناس.

رحلة عمر طويلة خطاها سيدي علىٰ دروب الحياة المليئة بالمتاعب والمصاعب، إنها رحلة شاقة ما حاد بها عن طريق الحق وما ضلّ فيها وما غوىٰ، إلىٰ أن لبىٰ نداءَ ربه ولحق بالرفيق الأعلىٰ في عشية يوم الأربعاء الموافق ١٤ من شهر رجب الفرد سنة ١٤١٦ هجرية.

إنها رحلة يصعب عليّ حصر وقائعها وأحداثها في محاولاتي المتواضعة

التي قمت بها أداءً لما يجب عليَّ وإن أبنتُ بعض فصولها، أو حددت بعض جوانبها في لمحات خاطفة.

وحسبي أنَّ ما عجزت عن حصره من نشره للعلم وخدمته للدعوة ومحاربته للمذاهب والمبادئ الهدامة، وقيامه بالدفاع عن العقيدة، وخدمته للإسلام، سيسجله التاريخ في صفحات من نور ستظل علىٰ مدىٰ الأيام مقرونة باسمه في سجل الخالدين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمدُ لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام علىٰ سيِّدنا محمد بن عبد الله المبعوث إلىٰ الخلق كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً، القائلِ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم»[١]، والقائلِ: «إنما بُعثت معلماً»[٢]، والقائلِ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهديه ومشىٰ علىٰ نهجه واقتفىٰ أثره.

وبعـد:

فإن من أبرز صفات الكمال في الإنسان العلمُ والأخلاق، وهي من القواعد التي يقوم عليها بناء الأسس العقائدية والعبادات والمعاملات التي يكتمل بها بناءُ كيان شخصية المسلم. والعلماء ورثة الأنبياء، ولذا فإن

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٣٤٩٨) (٣٩٧٣)، مسلم (٢٤٠٦).

(٢) رواه ابن ماجه: (٢٢٩).

(٣) رواه البيهقي في «الشعب»: (١٠: ١٩٢)، وأحمد في «المسند»: (٢: ٣٨١).

دورَهم في المجتمعات الإنسانية هو دور الريادة والقيادة والدعوة والإرشاد، وهذه المجالات تحتاج إلىٰ تحقيقٍ دقيق وبحثٍ طويل إذا كنا نريد أن نقفَ علىٰ الصورة الصادقة لعنصر شخصية الداعية أو ناشر العلم والمعرفة بين الناس، ونحن لا نريد في هذه العُجالة تحليلاً يستقصي كل تلك الأدوار مجتمعةً، وإنما سنكتفي بما ندرك معه أهميَّتها بدون استغراق في الإيضاح والبيان، وبصورةٍ أقرب إلىٰ تحقيق رغبة الكثير من المهتمين بشؤون الدعوة والدعاة، وخاصةً في ذلك الجزء من القارة الإفريقية أو الجزء الشرقي منها، الممتد من مقديشو وحتىٰ الكونقو، الذي ظل مهملاً ردحاً من الزمن، بمنئاً عن الدنيا الواسعة التي انتشر الإسلام في أقطارها ونَعِمَ أهلها بالأمن والسلام والرخاء والعدل والمساواة واتسعت أمامهم آفاق الحياة لعدة قرون.

ثم جاءت الحملات الصليبية بعد ذلك فكانت أشد وقعاً وخطراً يوجه إلىٰ الإسلام والمسلمين، وكان من آثارها أن ظهرت دعواتٌ شتىٰ تقف تحت ألوية كثيرة لمحاربة العقيدة الإسلامية وبث موجات الإلحاد والتحلل بين صفوف المسلمين في مجتمعاتهم، وازداد خطر الاستعمار علىٰ الشعوب المتخلفة، وجاءت قبله البعثات التبشيرية ممثلةً في الكنائس التي عملت جاهدةً لتمهّد له وتعمل بنشاط دائب علىٰ محو الإسلام ودعوته والقضاء عليه وعلىٰ كل أثر له في حياة الإنسان الإفريقي، وهذا ما يستوجب تحديدَ الملامح الحقيقية التي ينطلق منها دور العلماء والدعاة الذي ينتشر به الإسلام وكيف يكون الدفاع به عن حماية العقيدة، حتىٰ لا تضيع مظاهر الإسلام الحقيقية في ذلك المجتمع.

إننا نقرأ الكثيرَ من البحوث عن الدعوة والدعاة والكثيرَ من المؤلفات عن انتشار الإسلام في القارة الإفريقية وغيرها، الكثيرَ والكثيرَ من الكتب التي تتحدث عن الإسلام وتراثه وثقافته وحضارته وأثر ذلك في المجتمع الإفريقي، ومؤتمراتٍ تعقد ومنظماتٍ تُقام ومجامعَ بحوثٍ تؤسَّس، وكل ذلك لم ولن يجدي المواطن الإفريقي شيئاً وذلك لأنها لم تطبق علىٰ أرض الواقع.

إن الأغلبية الساحقة من المسلمين في ذلك المجتمع المتخلف علمياً وفكرياً وحضارياً ليسوا بحاجة إلىٰ من يحدثهم عن انتشار الإسلام وقدمه بتلك الربوع، ولا إلىٰ من يحدثهم عن الديمقراطية في الإسلام وتحرير الرقيق ومحاربة الاستعمار، إلخ. . .

إنهم بحاجة إلىٰ إعداد الفرد المسلم وبناء كيانه بكل مقوماته الأصلية وروحه الحقيقية التي لا يهتم بها الكثير من الدعاة، ويقصُر عن الإحاطة بها الكثير من المسلمين، إنهم بحاجة إلىٰ من يعلمهم أركان الإسلام المجهولة لديهم وفرائضه المضيعة، وقيمه ومبادئه المفقودة.

والكثير من رجال الدعوة وحملة العلم في تلك المنطقة من القارة لم يهتموا بتسجيل نتاج مجهوداتهم العلمية والأدبية والفكرية، ولا ما يقومون به من نشاطاتٍ مختلفة، ولا ما يلقَونه من صعاب ومشاق ومتاعب في سبيل نشر الإسلام وثقافته وآدابه، لكي يعرفَ الناس ذلك ويتحدّثوا عنه، وليعرفه من لم يعرفه من قبل، بل يَدَعون أفعالهم وأعمالهم تتحدث عنهم وهي تحتل مكانتها المشرفة علىٰ صفحات التاريخ.

وليس من السهل أن تعد ترجمةً لشخصيةٍ علمية ما لم تحط إحاطةً كاملة

بكل جوانب وحياة تلك الشخصية ومالها من وقعٍ مؤثر في مجالها العلمي في دنيا الناس.

وحينما اهتم أصحاب السير والتراجم بتسجيل تراجم وسير رجالات الإسلام من علماء ودعاة وغيرهم جعلوا لذلك ضوابط وروابط لم يتعدوا بها أمانةَ النقل وشرف الكلمة.

وفي بعض الحالات إذا حاول الدارس لحياتهم أن يرسم بعض الملامح لشخصيةٍ من الشخصيات التي تحتل مكانةً مميزةً في نفسه من خلال ما يعرفه عنها فربما وجد أنه أمام بعض المعوقات التي يخيل له معها أن اختلافَ المعايير والمفاهيم للقيم العلمية والأخلاقية من أهم تلك المعوقات.

ولكن عندما يضعها أمام هذه الضوابط والروابط يستطيع أن يصل إلىٰ الحقيقة الثابتةِ ثباتَ تلك المفاهيم والقيم التي لا تتغير ولا تتبدل، وإنما يتغير الإنسان. ومن هنا يكون التقبُّل لها أو عدمه نابعاً من هذا التغيير وماهيته.

ودراسة كل هذه العوامل أمرٌ لا بد منه، بحسب تأثيرها ونتائجها، ذلك لأن الحياةَ العلمية والفكرية والنشاطاتِ الأدبية والثقافية تمر بمراحل يعتريها ضعفٌ وركود وقوةٌ ونشاط، وقد تعتريها مظاهرُ الخمول ويعتريها الاضمحلال، وقد تبلغ أحياناً إلىٰ أرقىٰ مراحل النضوج والازدهار العلمي والفكري والثقافي، وهذا مما يضاعف التساؤلاتِ التي تجعل الحصول علىٰ الإجابة عليها تكتنفها بعض التحفّظات عند تحديد معالم تلك الشخصية من حيث نشأتها وما انصبغت به في شتىٰ اتجاهاتها ومناحيها من صبغة علمية وفكرية وثقافية وخلقية، هذا عندما تكون الترجمة أو الدراسة تتعلق بالجانب العلمي والأخلاقي.

وإذا تطلَّب الأمرُ أن تكون الدراسة أوسع بحيث تشمل كل أطوار الحياة ومراحلها التي مر بها بدايةً ونهايةً فإن هذه الدراسة بلا شك ستكون مهمةً صعبة، حيث يتعين معها البحث عن معلوماتٍ احتوتها رحلة عمر قد تكون طويلة وقد تكون فيها جوانب مجهولة.

وعندما تظل حياة العلماء والدعاة مرتبطةً بروح الإسلام السارية فيها علمياً وأخلاقياً وسلوكياً فلا يمكن فصلها أو عزلها عنها بحالٍ من الأحوال.

وربط القول بالعمل وربط العلم بالممارسة العملية يجعل ممارستهم محاطةً بسياج من الأخلاق والمبادىء التي تحول دون التناقض في المفاهيم.

وفي بعض المجتمعات الإسلامية نجد مزيجاً عجيباً من علماء ورجال دعوة تجمعهم عقيدةٌ واحدة وتفرقهم ألوانٌ من التفكير وأنماط في أساليب الدعوة ونشر العلم، وهذا ما يحدث معه بلبلةً قد تجعل لكل عالم أنصاراً وأتباعاً، ولكل داعية تلاميذه ومريديه، عندما تخضع المعايير والمفاهيم لنوازع الهوىٰ.

وهل بعد ذلك من عجبٍ أن نشاهد ما نقع فيه من تمزّق وتفرّق وتعصب مَقِيت، وهذا ما يُلزِم كل من يريد أن يترجم لشخصيةٍ علمية؛ أن يتوخّىٰ الحقيقة لمعرفة الظروف والوقائع والأحوال التي تكتنف حياة تلك الشخصية وتستقصي كل الجوانب المحيطة بها، بصدقٍ وأمانة.

وحين يجد الدارس نفسه أمام شخصيةٍ لأقرب الناس إليه وأعزهم وأعظمهم منزلةً عنده فعليه أولاً أن يكون صادقاً مع نفسه، أميناً فيما ينقله للناس وللتاريخ عن ذلك الإنسان، بحيث لا يدع لعواطف الأبوة أو البنوة أو

القرابة أو الرحم والصلة إلىٰ نفسه سبيلاً. ولقد فكرتُ طويلاً قبلَ أن أمسك قلمي لأسجّل به علىٰ الطرس ولو إلمامةً بسيطة عن حياة سيدي الوالد العلاّمة الداعية أحمد مشهور بن طٰه بن علي الحداد طيّب الله ثراه، حيث لم أعرف إلا النزرَ اليسيرَ عن مراحل حياته الأولىٰ، وهي التي كانت مليئةً بالنشاط والتحصيل العلمي والفكري والأدبي والسعي في الأخذ والتلقّي والاستفادة من الشيوخ الكبار والأئمة الأعلام، سواء من لازمهم ملازمةً كاملةً وتتلمذ عليهم أو ممن أخذ عنهم خلالَ رحلاته إلىٰ أندونيسيا والحرمين الشريفين وشرق إفريقيا وغيرها.

* * *

لمحة موجزة عن بدء حياته

عرفتُ سيدي رحمه الله بادىءَ ذي بدء دؤوباً علىٰ بث العلم ونشر الدعوة والوعظ والتوجيه والإرشاد حيث ما حل وأينما نزل، وفي تلك الربوع بصورة خاصة حيث أصبح من أقطاب الدعوة فيها، وبالرغم من أخذه بالأسباب في ممارسته لبعض الأعمال التجارية صوناً للعلم وحفظاً لكرامته فإن ذلك لم يشغله عن المهمة التي أصبح مهيأً لها وهو لا زال في غضّ الشباب، فكان اشتغاله بالعلم والتحصيل هو السمةَ الدالة عليه، ولن أتعدىٰ الحقيقة إذا قلت إنني ما كدت أقف أمام الجانب العلمي في حياته حتىٰ وجدتُ نفسي أمسك بمفتاح شخصيته الفذة، إنه مفتاح العلم والدعوة الذي فُتحت به القلوب المظلمة فاستنارت، والنفوس الضالة فاهتدت، والعيون العمياء فأبصرت، والآذان الصماء فاستجابت.

وإذا لزمني أن أتحدّث بعد ذلك عن كل ما عرفته عنه رحمه الله وأن أوضحَ ما يجب عليّ توضيحُه، فإن جانب الدعوة سيحتل الحيزَ المهم مما عرفته من معلوماتٍ عنه، وإن كنتُ قبل ذلك عرفته عالماً محققاً يتصدىٰ للفتوىٰ ويجيب علىٰ المسائل التي ترد إليه بالإجابات الشافية، والردود الوافية، عازفاً عن وظائف القضاء التي عُرضت عليه. عرفته خطيباً مفوَّهاً وواعظاً مؤثراً، وأديباً مبرزاً وشاعراً مُجيداً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخشىٰ في الله لومةَ لائم.

عاشَ حياته في تلك الربوع متنقلاً بين كينيا وتنزانيا وأوغندا، في بيئاتٍ

حافلة بالفوضىٰ وفساد الحياة العلمية والأدبية والثقافية والاجتماعية، فلم يحدَّ ذلك من مضيه نحو الهدف والغاية التي تحمّل الكثير من المتاعب والمشاق من أجلها. وهو عندما يجد نفسه أمام فئاتٍ من الناس أثرت تلك الأوضاع علىٰ سير حياتهم وانعكست علىٰ تفكيرهم العلمي والأدبي والثقافي والاجتماعي، باعتبار أن الإنسان يتلوَّن بلون الأُطُر البيئية التي يعيشها، فإنه كان يدرك أن ذلك وإن حدّ من النشاط العلمي والأدبي لقلة من يتطلّع إلىٰ العلم والمعرفة أو ينشد الثقافة والأدب، لا يقلل من أهمية الدعوة واتساع نطاقها بل وترسيخ بناء قواعدها بحسب الإمكانيات المتاحة. وقد بلغ من قوة التأثير من الوعظ أن إقبال الناس علىٰ مجالسه وندواته التي يقيمها عادةً في شهر رمضان المبارك وبعض المناسبات الأخرىٰ لا يقتصر علىٰ فئةٍ معينة من الناس، ولا علىٰ مستوىً معين ولا علىٰ نمطٍ معين من المواعظ، فهو يخاطب الناسَ علىٰ قدر عقولهم ومستواهم الفكري ودرجةِ استعدادهم لفهم ما يقول.

هذا بخلاف مجالسه العلمية الخاصة بدروس الفقه والحديث والتفسير والأدب وإن كانت محدودةً علىٰ قدر روّادها، ولكنها كانت ذات أثرٍ بالغ، فقد أينعت ثمارُها، وآتت أكلها، برغم أنني هنا لا أستطيع أن أعطيَ أكثر من هذه الإشارة إليها.

ربما لا تفي هذه الصورة وغيرها من الصور التي رسمتها علىٰ صفحات هذا الكتاب، ووضعتها بين يدي القارىء بما يجب أن تكون عليه من وضوح الرؤية عندما لا يجد في تضاعيفها إلا أشتاتاً تثير التساؤلاتِ أكثر مما تشفي الغليل، ولعل ما يستوقف قلمي ويحدُّ من إقدامي علىٰ إيضاح العديد من

الوقائع؛ أو سرد الكثير من الروايات التي تتوارد علىٰ ذهني من هنا وهناك مع بعد المسافات بيني وبينها؛ هو أنني لا أريد أن أنشرَ أو أستعرض إلا ما يمكن أن تستخلص منه عبرةٌ أو فائدة، مع تحرّي الحقيقة ونقلها بكل أمانةٍ وصدق، أو عندما أجدُ أمامي صورةً تدل علىٰ نفسها ولو في أبياتٍ من الشعر كهذه الأبيات التالية التي هي من ضمن قصيدةٍ وداعيّةٍ مقدمة إلىٰ سيدي الوالد، من العالم الأديب الشاعر الشيخ برهان بن محمد مُكَلاَّ القُمْريِّ، عندما أزمع سيدي علىٰ الرحيل من مدينة زنجبار إلىٰ الوطن بعد إقامةٍ لم تدم طويلاً ولكنها كانت عامرةً بدروس الوعظ والعلم والأدب وما كان من ثمرة تلك الدروس مما أشار إليه الشيخ برهان بقوله:

ومن بُعدكم عني أرىٰ في بعادكم ... ضروباً من الوحشاتِ تنتابُ ساعاتي

فمَن لي بقول الوعظ بعدَ ارتحالكم ... وتنسيقِ آدابٍ وتفسيرِ آياتِ

أجَدْتُم بتجويد القراءاتِ مثلما ... أجدتم بآداب اللغىٰ بين ساداتِ

ولم أنسَ هاتيك القراءاتِ حينما ... أمَمْتُم أناساً عند تلك الجماعاتِ

إلىٰ أن قال:

فأشعارُكم أبدت لذهني نبوغَكم ... بصدقٍ ولا كالشخص في نور مرآة

وفي بداية حياته ونشأته وتحصيله العلمي تأثر تأثُّراً كبيراً بشخصياتٍ عظيمة مؤثرة وموفَّقةٍ في توجيه طلابها ومريديها للوجهة السليمة التي تصقل مواهبهم وتؤهلهم باستعدادهم الفطري ليروا الناسَ فيها بالمقياس العلمي والأخلاقي والسلوكي؛ لتنعكس هذه الرؤية بأثرها وتأثيرها علىٰ كل متعلقٍ بهم.

ومن هنا لم تقف به همته عند الحد الأدنىٰ من العلوم والمعارف في المرحلة الأولىٰ من تاريخ حياته العلمية، بل تجاوز كل الصعاب بكفاءةٍ ممتازة ومثابرةٍ واجتهاد و جد، اجتاب به المسافاتِ البعيدة، وصولاً إلىٰ أندونيسيا وإفريقيا الشرقية، وهو متزودٌ بما يؤهِّله للقيام بأعباء التدريس التي بدأ بها تحتَ رعاية شيخه وعمه الحبيب العلاّمة عبدالله بن طاهر الحداد في رباط العلم الشريف بمسقط رأسه (قيدون)، ذلك الرباط الذي نهل من حياضه وارتوىٰ من مَعينهِ، ثم قيامه بنفس الأعباء في أندونيسيا تحت رعاية وتوجيهات شيخه وعمه الحبيب العلامة علوي بن طاهر الحداد.

وبعد ذلك كانت الانطلاقة نحو الدعوة، فعُمرت كل أوقاته ومُلئت كل ندواته بالنشاطات العلمية والأدبية والوعظية، وأصبحت من السمات الدالة علىٰ شخصه، وهكذا نجد أن حبه للعلم وحرصه علىٰ حضور جلساته مهما تحمل من صعابٍ في سبيل ذلك، يؤكدها سيدي العلامة الحبيب محمد بن أحمد الشاطري رحمه الله تعالىٰ في تقديمه لديوان سيدي رحمه الله بقوله:

«وصاحب الديوان رحمة الله عليه لا يزال ماثلاً أمامنا عندما نستعرض في أذهاننا تلك الجلساتِ الأسبوعيةَ من علمية وأدبية مزدهرةً بالأبحاث والمحاورات العلمية والمساجلات الأدبية التي قضيناها وإياه حقبةً من الدهر لا تقل عن عشرين سنة، ولعمري لئن غاب شخصه فما غابت مآثره».

ولقد رأيت سيدي رحمه الله في بعض أطوار حياته التي صحبتُه فيها عازفاً عن مظاهر الشهرة وحب الجاه، وعن زخارف الدنيا وترف الحياة مع توفر الكثير من الأسباب أمامه، ولكنه دائماً يجد نفسه أينما اتجه محاطاً بكل المحبة والتقدير والإجلال في حله وترحاله.

عرف بعض الحكّام فعرف لهم حقهم ولم يسعَ إليهم تملُّقاً، عرفوه فسعَوا إليه إجلالاً لمكانته وفضله، عرفَ أصحابَ الجاه وأرباب المقامات الدنيوية والاجتماعية فلم يتطلع إلىٰ ماهم فيه من ترفٍ ونعيمٍ ووجاهةٍ وشهرة، وعرفوه فقدّروه واحترموا مكانته العلمية وما خلعه الله عليه من هيبةٍ ووقار، وما توَّجه به من خشية العلم وشرفه، فقصدوه وترددوا علىٰ مجالسه ليمنحهم من علمه وحكمه وتوجيهاته ونصائحه وإرشاداته أقصىٰ ما يستطيعه، ابتغاءً لمرضاة الله وثوابه.

ومن خلال كل ذلك فقد كانت له نشاطاتٌ أخرىٰ أدبية وثقافية واجتماعية احتل بها المكانة المرموقة ونال بها المزيد من التقدير والإعجاب، مع ما كان يتمتع به من خصائصَ أخرىٰ جعلت منه علماً بارزاً من أعلام نشر الدعوة وخدمة الشريعة والدفاع عنها ومقاومة الدعوات الهدامة التي ابتُليت بها الأمة الإسلامية في الكثير من أقطارها كالقاديانية والشيوعية وغيرها.

لقد كان لاستمرار الوجود العربي في إفريقيا الشرقية دورٌ كبيرٌ في نشر الوعي الديني والثقافي والحضاري بين المواطنين من أفارقة وغيرهم، وخاصةً في المدن الرئيسية مثل مقديشو، وبراوه، ولامو، وممباسا، ودار السلام، وزنجبار، والجزيرة الخضراء، وجزائر القمر، وغيرها من القرىٰ والمدن علىٰ امتداد الشريط الساحلي، وأثر الوجود العربي أيضاً في أوغندا وإن جاء متأخراً إليها فهو من الأهمية بمكان، وخصوصاً مركز الدعوة في كمبالا عاصمة أوغندا، ومقر سيدي الرسمي إبّان إقامته في كمبالا.

ولئن كان هذا الدور الرئيسي قد ظل مقصوراً علىٰ تلك المواقع المحدودة فإن لأولئك الذين انتدبوا أنفسهم لنشر الإسلام والدعوة إليه في

الأدغال والغابات دوراً لا يقل أهميةً عن دور المعاهد والمدارس من حيث مجابهتهم وصمودهم أمام البعثات التبشيرية بإمكانياتها الهائلة.

ولقد بدأ دور سيدي الوالد رحمه الله يتفاعل في نشر الدعوة بربوع إفريقيا الشرقية بعد أن تتابعت رحلاته إلىٰ هذه الربوع، فعرف أوضاعها وتعرف علىٰ أهلها وعلىٰ غيرهم من الجاليات المقيمة بها علىٰ اختلاف جنسياتهم ومعتقداتهم عن كَثَب، وبعد أن اطّلع علىٰ أوضاعهم الحضارية والاجتماعية، ومستوياتهم العلمية والفكرية، وتعرّف علىٰ بقايا هنا وهناك لا زالت أشد صلابةً وأقوىٰ عوداً في ثباتها علىٰ عقيدتها وهي القلة، وأدرك عدم قدرة الأغلبية علىٰ مجابهة حملات التبشير، وما تبثه من سمومٍ وما تنشره من عوامل الفرقة لإفساد العقول والأفكار الآخذة في التقهقر المؤدي لعدم التحمل علىٰ الصمود طويلاً أمام حضارة الغرب الزاحفة وفكره وثقافته، مع خلوّها من الجوانب المهمة الخاصة بالسلوك والأخلاق والعقيدة والتشريع؛ هذه الجوانب التي تشكل بالنسبة للمجتمعات الإسلامية الأسسَ والمناهجَ والقيمَ والمبادىء التي ترتكز عليها حياتُها وعزتها وكرامتها، وكيف أخذت الشخصية الإسلامية تتلاشىٰ شيئاً فشيئاً، فأصبحت تلك المجتمعات تتخبط في متاهات الجهالة والتخلّف بعد أن استجابت فيما مضىٰ لدعوة الحق ودخلت في دين الله أفواجاً.

* * *

الإسلام دينُ الفطرة

أدرك سيدي رحمه الله أن إنسانَ هذه المنطقة سهلُ الانقياد خاصةً فيما يتصل بالعقيدة الإسلامية ومبادئها، وأن الإسلامَ وهو دين الفطرة أقربُ ما يكون من غيره من الأديان إلىٰ عقول الإفريقيين وأفكارهم، لأنه عندما تلجُ إلىٰ أفكارهم حقيقةُ هذا الدين وسماحته يشعرون بالفطرة أنه ليس فيه ما يعطّل حركة العلم والتقدم والتطور، ومن هنا يتضح زيف تلك الصور التي تضعها أمامهم البعثات التبشيرية، وتنكشف لهم أباطيلُ الدعايات المضللة، والأفكار الإلحادية، وهذا ما يقلق بال الغرب ويزعج بعثاته التبشيرية، ويقوي من عزيمة الدعاة.

وبعد أن أدرك سيدي رحمه الله أن الدعوة الإسلامية وهي تتعرض للهجمات القاسية التي تشنها الكنائس المدعومة من الغرب ومؤسساته الاحتكارية، والأوكار الصهيونية والمستشرقين بكل فئاتهم، لا بد لها من الدعم المادي والمعنوي فقد سعىٰ سعيَه من أجل أن تكونَ الدعوة في أيدٍ أمينةٍ ومخلصة توجّهها التوجيه الصحيح، وتسعىٰ في أن تجعل منها قضيةَ دعوةٍ إيمانية من كافة جوانبها، لا قضيةَ دعايةٍ وارتزاق، وأنها بحاجةٍ ملحة إلىٰ دعاةٍ من الطراز المميز الذي يفقه روح الإسلام ويدرك حقيقة الإيمان.

لأن الداعيةَ الحق هو الذي يعرف كيف يؤدي رسالته ويقوم بمهمته ويسعىٰ بجد وإخلاص وبالحكمة والموعظة الحسنة، ويكفيه شرفاً أن يكون ممن وصفهم الله سبحانه وتعالىٰ بأجلّ وصف: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى

﴿ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ويالهُ من شرف ويالها من دعوة، ويالها من فضيلة، عائدُها وثمرتها خيرُ الدنيا والآخرة.

ورحمَ الله فضيلةَ الشيخ الجليل أبي الحسن الندوي الحسني إذ يقول: يجب علىٰ دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية الاحتفاظ بالبقية الباقية من الإيمان في نفوس الجماهير، والمحافظة علىٰ الجمرة الإيمانية من أن تنطفي.

أما ما يتصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وجنود الدعوة إلىٰ الله، فإنه يركز في هذا الحديث الموجز علىٰ نقطةٍ واحدة وهي: أنه يجب أن يكون الدعاة يمتازون عن الدهماء والجماهير، ويمتازون عن دعاة النظم الجديدة[1] والفلسفات الجديدة، والفلسفات السياسية والاقتصادية، بقوة إيمانهم وحرارة قلوبهم، وزهدهم في زخارف الدنيا وفضول العيش، ونهامة المادة، ومرض التكاثر... فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم ويحملوهم علىٰ إيثار الدين علىٰ الدنيا والآجلة علىٰ العاجلة وتلبية نداء الضمير والإيمان علىٰ نداء المعدة والنفس والشهوات وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت أو كادت تنطفي إلا إذا شعر الناس فيهم بشيءٍ لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم، فإنّ الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين علىٰ الإجلالِ لشيءٍ لا يجدونه عندهم، فالضعيف مفطورٌ علىٰ احترام القوي... والفقيرُ علىٰ احترام الغني... والأميُّ مفطورٌ علىٰ احترام العالم، حتىٰ اللئيمُ مفطورٌ علىٰ احترام الكريم.

---

(١) الجديدة هنا ـ لعلها ـ الحديثة.

ويقول: أما إذا رأىٰ الناسُ علماء ودعاةً لا يقِلُّون عنهم في حبّ المادة والجري وراءها والتنافس في الوظائف والمناصب والإكثار من الثراء والرخاء، والتوسّع في المطاعم والمشارب، وخفض العيش ولين الحياة، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم وحقاً في الدعوة إلىٰ الله وإيثار الآخرة علىٰ الدنيا والتمرد علىٰ الشهوات والتماسك أمام المغريات، وقد قيل: «إنّ فاقدَ الشيء لا يعطيه»، وكذلك القلبُ الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان، وإنّ الموتَ لا يُنشيء الحياة، وإن البرودةَ لا تعطي الحرارة. . . إلىٰ آخر ما قال.

وما كنتُ أريدُ أن أتوسَّع في الحديث عن حركة الدعوة والدعاة كي لا يصبح من المعاد المكرر إلا بالقدر الذي يبرز أن الاعتبارَ بالأعمال لا بالأقوال، وقد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يختار الدعاة، فمن يتوفّر عندهم العلم بالكتاب والسنة ثم البصيرة الاجتهادية فهم أهل الدعوة وأحق بها، لأنهم أقدرُ علىٰ ترسيخ العقيدة وتعميق القيم الروحية في نفوس من يُقبلون علىٰ الإسلام مختارين، وليس ذلك بكثرة عددٍ ولا عدة، وإنما بقوة الإيمان وصدق العزيمة وخلوص النية.

إن البعثات التبشيرية بكثرة عددها وعدتها لم تكن أقوىٰ من الجهود الفردية ولا أقوىٰ في فعاليتها من جهود المجتمعات الإسلامية يومَ أن كانت شيئاً مذكوراً في تاريخ الدعوة والدعاة إلىٰ أن جَهلت حقيقةَ رسالة الدعوة وفقدت حسن التصرف في القيام بمهامها نتيجةَ التخلف والقصور الذي ما برحت تعاني منه حتىٰ أصبحت أشلاء متناثرة، وهنا مكمن الخطر.

وإن من يعرف الحقيقةَ التي عليها المسلمون في تلك الأماكن النائية من الأدغال والأحراج لا بد وأن تتصاعد زفراته وتفيضَ عيناه من الدمع حزناً

وحرقةً لما يعانونه من الفقر والبؤس والمرض والجهل والتخلّف، وقد عرف سيدي الوالد كلَّ ذلك وعاشه واقعاً حياً من خلال رحلاته المتتابعة إلىٰ تلك النواحي، فما وهن عزمُه، وما ضعفت همته، وما وقفت دعوته، يعينه ويشد من أزره في ذلك جنودٌ مجهولون ورجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يزدهم ذلك إلا إصراراً علىٰ تخطي كل العقبات والصعاب التي تقف أمامهم ويقف من خلفها بعثاتُ التبشير ورجالُها المزوَّدون بكل الإمكانيات والطاقات المعنوية والمادية التي تمكّنها من التحرّك بكل حرية، وتسهّل لها مهامّها وفق ما تريد وكيفما تشاء وحيثما تريد.

وبينما نرىٰ رجال الدعوة في بعثٍ جديد يعملون جاهدين بعون الله واعتماداً عليه، لانتشال هذا الإنسان المغلوب علىٰ أمره من براثن الوثنية والهمجية، والارتقاء به إلىٰ المستوىٰ الذي يشرق معه نورُ الإيمان علىٰ قلبه ويعتلي به إلىٰ مستوىٰ الإنسان الذي كرّمه الله بالعلم والعقل؛ نرىٰ الواقعَ الأليم الذي فرضه الاستعمار وبعثاته التبشيرية علىٰ الإنسان الإفريقي وحرصه علىٰ أن يبقىٰ هذا الإنسان في ليلٍ دامس وظلام لا يطلع معه فجر، وظلماتٍ بعضها فوق بعض لا يشرق معها نور، وإن ادّعوا زوراً وبهتاناً أنهم حرّروه من الرق، وخلّصوه من الجهل والتخلف الذي لا زال يلقي بظلاله ومخلّفاته في كل وقتٍ وحين، تمثله صورٌ من أبشع صور الظلم والاستعباد والاستبداد والاستغلال.

ومن هنا تكون مهمة الداعية صعبةً وشاقة، ولقد كان سيدي الوالد رحمه الله وصحبه الكرام لا يبارحهم الإحساسُ بواجبهم نحو الدعوة ونشر الإسلام بين تلك الجماعات المغلوبة علىٰ أمرها، حتىٰ في أحلك الأوقات،

ومن عرف المناطقَ التي وصلوا إليها يدرك أن الدورَ الذي كانوا قائمين به ليس بالهين أو السهل، ولكنه ليس بالأمر المستحيل متىٰ توفّرت الرغبة الصادقة والعزيمة القوية والإرادة التي يمكن معها مخاطبةُ تلك المجتمعات البدائية بدون كللٍ أو ملل، وبالحكمة والموعظة الحسنة، وهكذا كان سيدي رحمه الله وأسكنه فسيحَ جناته حين يخاطب أولئك الناس ويدعوهم إلىٰ الإسلام، يجذبهم باللين والرفق، ويشعرهم بأن الإسلامَ هو دين الفطرة، وأن علاقةَ المؤمن بالمؤمن إنما تقوم علىٰ الإخاء والمحبة والتكاتف والتعاون، وأن الحرية والعدالة والمساواة من أبرز ما يتميز بها الإسلام من مميزات، وأن لا فرقَ بين إنسانٍ وإنسان إلا بالتقوىٰ، ويبسِّط لهم ذلك علىٰ قدر عقولهم، وهذا ما كان يجعلهم يشعرون بالرغبة الصادقة والراحة النفسية وهم يعتنقون هذا الدين الذي يحفظ للفرد قيمته الذاتية وكرامته وإنسانيته، ويضع للمجتمع المسلم دستوره الذي يدعو إلىٰ التمسُّك بالقيم والأخلاق والمثل العليا.

وقد لا يُدرك الإنسانُ البدائي فهمها جملةً واحدة، وقد يستعصي علىٰ من هو أعلىٰ مستوىً عقلياً وفكرياً إدراكُها لفترةٍ من الزمن قد تطول وقد تقصر.

ولكننا ندرك أن هذا وذاك بعد أن يدخلا في دين الإسلام الذي ينمّي الروح الإيمانية لدىٰ معتنقيه ويربيهم علىٰ الفضائل والقيم وتهذيب النفوس من دون إكراه أو إغراء مادي كما هو شأن ودأب البعثات التبشيرية، يشعران بالتحول العظيم الذي يطرأ علىٰ حياتهما مما يؤكد أن الرغبةَ التي دعتهما للدخول في الإسلام لم تكن نزوةً عابرة، أو رغبةً وقتية ترتبط بغرضٍ معين أو هدفٍ محدد أو بمصلحة مادية، بل هي العقيدة التي تحمل في طياتها

تلك المثل التي يتحكم وقع صداها ويؤثر علىٰ سلوكيات وتصرفات صاحبها، فيتحدىٰ بها كل الإغراءات المادية والحياتية التي تضعها أمامه بكل يسرٍ وسهولة البعثاتُ التبشيرية ودهاقنتها وقِسّيسوها ورهبانها.

وهذا مما أثار حنقَ أحد رجال الكنيسة الكبار وغضبه ولم يستطع أن يكظم غيظه حينما وقف أمام كوخ من الأكواخ البسيطة التي تُقام داخل الغابات لتؤدىٰ فيها الصلاة وتُقام فيها الشعائر الدينية، وتُرَدَّد في داخلها ومن حولها كلمة التوحيد، وينطلق في أجوائها نداء الحق: (الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إلٰه إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله...) في اليوم والليلة خمسَ مرات.

فيقول: (إنّ هذه الأكواخ علىٰ بساطتها وبدائيتها وقلة إمكانياتها لا شك أنها تقف سداً منيعاً أمام جهودنا في تحدٍّ صامتٍ لا نستطيع التغلّب عليه، فكيف السبيل إلىٰ الحدّ من نشاطها)، يقول ذلك بتحسّر وألم وهو يدرك أن من يقفون وراءها لا يملكون إلا الإيمانَ بالله، والإخلاصَ في الدعوة، والصدق في القول والعمل، ويدرك أن الإسلامَ يملك القدرة الفائقة علىٰ الصمود والتصدي والتكيف مع المجتمعات والناس في كل الأقطار، بينما لا يستطيع هو ولا من هم خلفه أن يقفوا أمام هذا التيار الإيماني، وهم يدركون أن الإسلامَ يشكل منهجاً إنسانياً متكاملاً للفرد والجماعة، ويدركون أن دعائم الإسلام تقومُ علىٰ: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وثوابتَ لا تتغير ولا تتبدل.

وليس كذلك ما ينشرونه من تعاليم المسيحية المحرفة، التي يكتفون منها في الغالب بمجرد اعتناقها بدون إلزام معتنقيها بأية تكاليف دينية.

إذاً فإن عداءهم وحقدهم علىٰ الإسلام لم يأت من فراغ. . . ولكنهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وهذه القصة التي رويتها باختصار ذكرها لي الداعية السيد عبد القادر بن أحمد الجفري رحمه الله الذي عاش سنيناً طويلة في أوغندا وتنزانيا وكينيا، وبالتحديد منذ عام ١٣٣٢هـ، باذلاً نفسَه ووقته وماله في سبيل الدعوة إلىٰ أن لحق بالرفيق الأعلىٰ سنة ١٩٧٧م بالقاهرة، ودفن بها.

* * *

انتشار الدعوة في أوغندا

وخلال إقامة سيدي في أوغندا واستقراره في العاصمة (كمبالا) كان يتمتع بمنزلةٍ رفيعة ومكانةٍ مرموقة في قلوب الناس علىٰ اختلاف جنسياتهم وطبقاتهم ومذاهبهم، واستطاع بما له من نفوذٍ روحي مؤثر أن يقضي علىٰ الكثير من العادات السيئة، وأن يُبطل الكثيرَ من التقاليد المذمومة المتوارثة بين المسلمين في تلك النواحي بسبب الجهل وقلة الدعاة وضعف الوازع الإيماني.

وقد التفت حوله النخبة الممتازة من مسلمي أوغندا أمثال الشيخ شعيب الذي كان راهباً أو قسيساً ثم هداه الله إلىٰ الإسلام، والشيخ علي كلمبا، وغيرهم ممن أسهموا في نشاط «مركز التبليغ والدعوة»، وكان للتقدير والاحترام المتبادل بينه وبين عيدي أمين رئيس الجمهورية الأثر الكبير والدعم المعنوي البالغ الذي زاده تمكيناً في مجال الدعوة في أوغندا.

وقبل وبعد ذلك يأتي دور الأمير بدر بن نوح المؤثر، وهو الدور الرئيسي الذي كان يستند عليه سواء في مجال الدعوة أو في المجالات الأخرىٰ المتعلقة بالنشاطات العلمية والثقافية والاجتماعية.

وقد اتخذ من منبر مسجد (ناكاسيرو) في العاصمة منطلقاً آخر للتوجيه والإرشاد، والدعوة إلىٰ التحلي بالأخلاق والآداب الإسلامية، ومحاربة المبادىء الهدامة. وهكذا فقد كان منذ أن وصل إلىٰ أوغندا حتىٰ غادرها وهو يدعو إلىٰ الله علىٰ هدىً وبصيرة.

وقبل أن يتخذ من مسجد (ناكاسيرو) منطلقاً رئيسياً للدعوة مكث قبل ذلك بصحبة صديقه الحميم الداعية الإسلامي الكبير الشريف سعيد بن عبدالله البيض فترةً في مدينة (أروا)، قام خلالها بوضع حجر الأساس لمسجد الرياض ومدرسة حياة الإسلام، ومسجدين في منطقة (أرينقا) غربْ النيل، واعتنق الكثير من سكان هذه المنطقة الإسلام علىٰ يديه، ويمكن القول أنه من هنا كانت نقطة البداية بتوفيقٍ وعونٍ من الله سبحانه وتعالىٰ.

ففي مدينة (أرينقا) وفي عام ١٩٦٦م افتتح مسجد التقوىٰ ومدرسة النور الإسلامية، ولكثرة من اعتنق الدين الإسلامي في هذه المنطقة فقد أطلق عليها البعض «محافظة المسلمين».

وهناك الكثير من المساجد والمدارس أسّست تحت رعايته رحمه الله، وله رحلاتٌ عديدة مع الشريف سعيد البيض إلىٰ تلك الجهات، وأول رحلةٍ قاما بها إلىٰ أوغندا، سنة ١٩٤٩ـ١٩٥٠م بصحبة الداعية الإسلامي الشيخ عبدالله بارعَيده والشيخ الأمين، وصلوا فيها إلىٰ شرق شمال أوغندا موطن العراة: كراموجا، وغربي كينيا: كوسومو وما حولها.

ووصل مع الشريف سعيد إلىٰ الحدود الشرقية الجنوبية للكونغو، ودخلوا بعضَ الأدغال بها، كما وصلوا إلىٰ جنوب السودان: (جوبا) و (واو)، وقد كان لتلك الرحلات وما أعقبها من رحلاتٍ أثرها وتأثيرها علىٰ أهل تلك المناطق، ولا زالت الآثار دالةً وشاهدةً على ذلك، ولعل الأجيالَ التي ستجيء من بعدهم عندما تشاهد تلك الآثار تصغي علىٰ مسمع من الزمن إلىٰ لسان حالهم وهي تردد قول الشاعر:

تلك آثارُنا تدلُّ علينا ... فانظروا بعدَنا إلىٰ الآثارِ

وفي مسجده بـ (ناكاسيرو) أقام الدروس الدينية المنتظمة، وكانت المواعظ الدينية التي يلقيها يومياً عقب صلاة الظهر تترجم إلىٰ اللغة المحلية يترجمها الشيخ عبدالله كامو ليغيبا.

ومن أبرز تلامذته، الشيخ شعيب سيما كولا السابق ذكره والذي لازمه كثيراً طيلة إقامته في (كمبالا)، وكانت للعلاقات المتينة التي بينهما أثرها وتأثيرها في نشر الوعي الإسلامي، إلىٰ أن أصبحَ فيما بعد وبما اكتسبه من العلم أول مفتٍ لمسلمي أوغندا، ومنهم الشيخ محمد لوبووا، والشيخ علي كلومبا، والشيخ قاسم سيموجوا، والشيخ آدم رمضان.

أما المكتبة الإسلامية التي أسسها في كمبالا فقد عادت بالفائدة العظيمة علىٰ روّادها من طلاب العلم والمعرفة من المسلمين.

وبرغم أننا لم نتمكن من معرفة كل نشاطاته العلمية والإصلاحية خلال المدة التي أقامها في تلك المنطقة التي شهدت الكثيرَ من الأحداث والاضطرابات إلا أن هذا النزرَ اليسيرَ يُبرز لنا الأثرَ الذي تركه في أعماق النفوس التي بددَ الإسلام ظلمتها، وأزاحَ الإيمانُ ضلالَها، فبقي معها رغمَ قسوة الظروف التي تعاني الكثير منها لتعيش في رحاب الإيمان وتحت راية التوحيد، تتحدّىٰ الزحفَ التبشيري الشرس، وتقاوم هجماته بصدقِ الإيمان وقوةِ العقيدة.

وطيلة إقامته في أوغندا كان رحمه الله دائبَ النشاط، وقد رَئِسَ وفد أوغندا لدىٰ رابطة العالم الإسلامي عدةَ سنوات، لا رغبةً في الرئاسة ولكن أداءً للواجب، وهو يضم بين أعضائه شخصياتٍ وطنيةً مرموقة، فتشرّف به الوفد، ولم تزده رياسة الوفد شرفاً كما كان يظن أعضاء الوفد الأوغندي، بل زادت

هي به شرفاً، وكيف رأيته وقد كنت مرافقاً له وهو يتبادل زيارات التعارف مع أعضاء الوفود الأخرىٰ التي تقابله بالإجلال والاحترام، كعالمٍ وداعية لا كرئيس لوفد أوغندا لأنه لم يكن يريد بالرياسة للوفد شيئاً يكمل به نقصاً، ولم يكن يريد بالدعوة شيئاً يسد به خلة، بل ما كان يريد بذلك رحمه الله إلا وجهَ الله سبحانه وتعالىٰ.

ولكنه لم يتخلَّ عن المهمة التي تستحوذ علىٰ جل تفكيره، فلم يكتفِ بحضور الجلسات الرسمية ليلقيَ كلمةً يشارك بها الوفودَ مجاملة، وإنما رأيته يشرح للمسؤولين في الرابطة الأوضاعَ التي يعاني منها المسلمون في شرق إفريقيا، واحتياجاتهم للدعم المادي والمعنوي الذي يستطيعون أن يقاوموا به هجمات التنصير الشرسة وإرسالياته التي أخذت تغزو المجتمع المسلم في أعالي النيل مما يشكل خطراً كبيراً علىٰ مستقبل الإسلام إذا ما امتد هذا الخطر ليشمل مناطقَ أخرىٰ آهلةً بالسكان المسلمين.

وقد رأيتُ بعد ذلك الداعيةَ الإسلامي السيد عبد القادر بن أحمد الجفري يشرح بعض الأخطار التي كان سيدي يوليها جلَّ اهتمامه، ويدعمها بالدلائل والوثائق ويقدمها إلىٰ الشيخ محمد سرور الصبان رئيس رابطة العالم الإسلامي آنذاك ونائبه الشيخ صالح قزاز رحمهما الله، وللمسؤولين والمهتمين في البلاد الإسلامية التي زارها، ومن بينها بعض دول الخليج ومصر وليبيا وعاد منها بخفَّيْ حنين.

وقد كان سيدي رحمه الله ببعد نظره وثقته بالله سبحانه وتعالىٰ يكره كرهاً شديداً استجداء العونِ الماديِّ من أي جهةٍ كانت مساعدةً للمشاريع والمبرَّات التي يقوم بتنفيذها مع صحبه ممن وفقهم الله للعمل معه، ولكنه

يقبل المساعدات التي يقدمها المحسنون من تلقاء أنفسهم ويحثهم على استمرار البذل والعطاء ابتغاء مَرضاة الله.

وعندما ندرك أن مهمةَ الدعاة في هذه البلاد صعبةٌ جداً، وهذا مما يحد من نشاطها إذا ما قِيست بدعوة التبشير والتنصير وما لديهما من إمكانياتٍ ضخمة فلا بد أن نقدّر للدعاة العاملين جهودهم المضنية، وأن نسجل لهم بكل فخرٍ واعتزاز مواقفهم المشرفة التي لا زال علماءُ العالم الإسلامي ومنظماته وحكوماته يجهلونها؛ وإن علموا عنها لم يعيروها أي اهتمامٍ يذكر.

وكلما نسمعه أو نقرأه فيما يُكتب عن الإسلام والمسلمين في شرق إفريقيا إنما هو حديثٌ أو وصفٌ إجمالي عن دخول الإسلام إليها فحسب، أما كيف دخل ومتىٰ انتشر ومن هم الذين قاموا بنشره وبثّوا تعاليمَه ودافعوا عنه وأقاموا صروحه وأشادوا بنيانه؛ فما أكثر مَن كتب عن انتشار الإسلام في شرق إفريقيا وعن الصِّلات العربية القديمة بها، ما أكثرَ من كتب عن ذلك بما يشبه الأساطيرَ لاعتمادهم في أخذ معلوماتهم من مصادر غير موثقة، وجُلّها مصادر استعمارية لم يتعدوا بها المدن والمناطق المحيطة بها والتي لا زال الإسلام في معظمها بخير إن شاء الله. ولكن حتىٰ هذه المدن التي تحتاج إلىٰ من يرعىٰ شؤونها التعليمية وإلىٰ من يهتم بالمدارس والمساجد فيها، وإقامة الشعائر الدينية ونشر الوعي الديني ومحاربة الجهل والبدع والخرافات والعادات السيئة المتفشية في بعض الأوساط، والمحافظة علىٰ القيم الإسلامية الأصلية: لا أحدَ ويا للأسف يهتم بذلك.

* * *

هذه المجتمعات ومقاومة التحدي

وهذه المجتمعات لا تستطيع مقاومةَ التحدّي المضاد لقيمنا وأخلاقنا الإسلامية بنفسها كما يجب، إذاً لا بد من وجود قياداتٍ علمية وتوجيهية تواجه الأفكار والقيم والمبادىء المخالفةَ للدين والعقيدة. ووضعُ المسلمين في هذه البلاد يختلف عن أوضاع المسلمين في مجمل الأقطار الإسلامية، والأقطار التي يوجد بها مسلمون ويخضعون لحكوماتٍ غير إسلامية. وهنا لا بد لنا من وقفة فاحصة نستعرض من خلالها وضع المجتمعات الإسلامية في هذه المنطقة فهي:

أولاً: قد شَاهَدتْ أولَ ما شَاهَدتْ الإسلامَ دعاةً وتجاراً جاءوا به فدعوا تلك المجتمعات إليه فاستجابت لدعوتهم، رغبةً لا رهبة، ولم يكونوا غزاةً ولا مستعمرين، وظلت الدعوة محدودةً في خط سير معين، واتسع نطاق نشره باتساع الفرص التي تتيحها الظروف لهم، ومع ما حققوه من إنشاء مجتمعاتٍ إسلامية اتسمت ببعض سمات الحضارة الإسلامية، وحققت الكثير من المكاسب التي ساعدت علىٰ قيام شبه دويلاتٍ إسلامية، إلا أنها عندما بدأت تواجه بعضَ الصعاب لم تستطع أن تصمد لقلة إمكانياتها لتقيم حضارةً إسلاميةً واسعة وكياناً إسلامياً قوياً يضمن بقاءها، ويقف في صموده ونضاله ضد جيوش الغرب المستعمرة وبعثاته التبشيرية ومظاهر الحضارة الغربية وآثامها ونظرياتها، وسائر المذاهب والمبادىء المادية والإلحادية والإباحية.

ثانياً: عدم رغبتها أو عجزها عن إقامة علاقاتٍ وطيدة بينها وبين المجتمعات والشعوب والحكومات العربية والإسلامية، إلا ما كان من أمر بعض الدويلات كدولة الصومال واستنجادها بسلطان عُمَان كلما تعرّضت لهجمات البرتغال، أو اتصال (موتيسا) ملك أوغندا بخديوي مصر وطلبِ عونه في نشر الإسلام في أوغندا كما ذكر ذلك في رواياتٍ يطول شرحها وليس هنا موضعها.

ثالثاً: عدم وجود تطلّع إلىٰ بناء الشخصية الإسلامية ووحدة الفكر والثقافة علىٰ منهج الكتاب والسنة، ذلك المنهج الذي يوفق بين العلم والأخلاق، وبين الدنيا والاخرة، وبين الروح والمادة، وربما يعود ذلك إلىٰ قصور مداركهم العلمية والفكرية، مع أننا إذا نظرنا إلىٰ خارج هذه المنطقة المحدودة عبر التاريخ الإسلامي رأينا كيف كان أولئك الدعاة الأوائل يحملون معهم عبر المسافات المتنائية كلمةَ التوحيد التي لا زال صداها يتردد في أجوائها آناء الليل وأطراف النهار، وكيف قامت علىٰ مفهومها شعوبٌ متنوعة الأجناس متعددةُ اللغات، وبرزت منها أجيالٌ لم تستسلم ولم تضعف أمام أعداء الإسلام، ولم تَحنِ رؤوسها لمستعمر كما شاهدنا ذلك في أندونيسيا وماليزيا والفلبين، ولم تُرهبها قوىٰ الظلم والشر وقد رفعت ألويةَ الدعوة وراياتِ الأخوة والمساواة رغم كل الصعاب.

ومن المميزات التي امتاز بها أولئك الدعاة قوةُ العزيمة وقدرتهم علىٰ الاندماج في المجتمعات المختلفة والتأثير عليها وبلورتها. ومن منهج الإسلام في بناء العقيدة وتقويم الشخصية نجدُ أن الإسلام ـ كما يقول الأستاذ أنور الجندي الكاتب الإسلامي المعروف ـ قد كشف عن صفحةٍ

في التاريخ الإنساني لا تزال تهزّ النفوس وتُعجز المعللين والباحثين، فإن سرعةَ انتشار الإسلام واستطاعته في خلال فترة تقل عن قرنٍ من الزمان تحقيقَ نصر يبسط به جناحه من حدود الصين إلىٰ حدود فرنسا ما زال معجزاً للباحثين بمقاييس المذاهب المادية، ومازال عجباً في تقدير الناظرين أن تنتصرَ الجيوش الإسلامية القليلة العدد علىٰ الجيوش الضخمة، وقد جاوز هؤلاء جميعاً تقديرَ قيمة العقيدة التي طرحها الإسلام في العالمين ومدىٰ إعجازها الذي يفوق كل المقاييس والمقدرات. . . وقد صوّر هذا (ألفرد كانتول سميث) حين قال: إن المسلمَ يحس إحساساً جاداً بالتاريخ، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشرُ في الأرض علىٰ مقتضاه، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقعَ الأرض في إطاره، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو اجتماعي وكل شعور فردي أو اجتماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابلٌ للتحقيق. اهـ.

هنا يجبُ أن نتعمّق بنظرتنا قليلاً إلىٰ المجتمع الذي نحن بصدد الحديث عنه، والذي ظل سيدي رحمه الله يبذل في مجال الدعوة كل ما يستطيع بذله، وقد عانىٰ كثيراً بسبب انعدام الوعي الكامل لدىٰ ذلك المجتمع، الذي جعله غير مدرك للنظام الذي وضعه الله والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض، فضعفت لديه القوة والمناعة التي تصد عنه الأخطارَ المحدقة به، إن هذه النظرة تؤدي بنا إلىٰ واقع مؤلم في مجمله، فعندما نتفحص صوره الشاحبة نجدها ذاتَ ألوانٍ متعددة ونجد في بعضها

بقيةً مما ترك الأسلاف، وقد كـان سيدي رحمه الله وهو يتعهّد البعض منها بالرعاية والعناية يرىٰ فيها امتداداً لدعوتهم؛ بل يرىٰ فيها الأمل، لأنها الأقدر من غيرها علىٰ العطاء، والأكثرُ تأهيلاً من أولئك الذين لم يكن اندماجهم في المجتمعات إلا بسبب التأثر بها لا بالتأثير عليها، وذلك لعدم أهليتها.

وقبل أن نأتي علىٰ آخر صورة من تلك الصور لنتلمس الواقع نقول: إن ذلك العطاء ربما ظلّ محدوداً، وقد لا يكفي لبلورة الدعوة لكي تعطي قوةً دافعـةً لمستقبل أفضل إلا بمقدار بعدهم أو قربهم من ذلك النظام الذي وضعه الله لعباده ومنهجه الذي ارتضاه لهم. والإسلام منذ بزوغه وحتىٰ الآن وإلىٰ أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها قادرٌ علىٰ الصمود أمامَ كل التحديات التي تواجهه، إذاً فلتكن الآمال معلقةً عليهم والمسؤوليةُ منوطةً بهم.

أما الصورة الأخيرة: وهي تمثل الفئاتِ التي لا زالت علىٰ بدائيتها، وهي جزءٌ من الواقع المؤلم الذي أشرنا إليه، ويقع البعض منها داخل إطار النشاط التبشيري، فجـلاء ما عليها من تراكماتٍ صعبٌ جداً، ولكنه ليس بالأمر المستعصي إذا توفرت الإرادة القوية والعزيمة المخلصة كما سبق أن أشرنا إلىٰ ذلك أيضاً.

ولعلنا نصل الآن بعد أن أوضحنا باختصار ما يجب إيضاحُه إلىٰ أن إنسان هذه المنطقة علىٰ اختلاف مستوياته الدينية والفكرية والثقافية ظل يعتمد اعتماداً كلياً علىٰ ما يقدّمه له رجالُ العلم والدعوة من التوجيه المباشر، فإذا تقلّص نشاطهم لسببٍ أو لآخر ـ والأسباب كثيرة ومن أهمها

قلة الإمكانيات المادية ـ أو ابتعد عنه العلماء فترةً أو افتقد الدعاة؛ يحصل له ما يشبه النكسة كما نشاهد ذلك حالياً في صوماليا، وفي كينيا، وفي تنزانيا، وأوغندا وغيرها، ولا مجالَ للمقارنة بين واقع المنطقة اليوم وما شهدته مدنها الرئيسية إبّان ازدهار دولة العلم والأدب والثقافة والفكر، مثل زنجبار، والجزيرة الخضراء، ودار السلام، ولامو، وممباسا، وجزر القمر، وقوة انتشار الدعوة من حولها.





مشاهدُ من سيرة حياة المترجم
واهتمامه بنشر الدعوة



مشاهد من سيرة حياته واهتمامه بنشر الدّعوة

وقد كان سيدي الوالد رحمه الله يحزّ في نفسه كلما شاهد حالَ المسلمين من حوله وما وصلوا إليه من ضعفٍ وتفكك وانتشار الجهل فيما بينهم بصورة مخيفة بسبب تقلّص نشاط الدعوة، لذا فإنه وبعد أن غادر أوغندا وعاد إلىٰ كينيا وكبُـرَ به السن صرفَ اهتمامه إلىٰ تفقّد أحوال حديثي العهد بالإسلام ومساعدة بعض المدارس الإسلامية الأهلية علىٰ النهوض ببعض واجباتها، وبناء وإعمار بعض المعاهد والمساجد بما يتوفَّر لديه من دعمٍ مادي، يجودُ به من وفقهم الله للبذل في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، وظلت أوقاته رحمه الله حافلةً بالنشاط المستمر إلىٰ آخر أيام حياته، وكان كثير التنقل بين إفريقيا والحجاز، مؤدياً لنسك الحج لما يقرب من أربعين حجةً، منها حجتان تكبّد فيهما بعض المصاعب في وجهته إلىٰ البلاد المقدسة عبر أوغندا والسودان، وحجةٌ واحدةٌ سلك فيها طريقَ البر من مسقط رأسه (قيدون) ساراً بالعبر، فنجران إلىٰ الطائف إلىٰ مكة المكرمة، ومن خلال هذه الرحلات المتتابعة إلىٰ الحرمين الشريفين كانت له رحلاتٌ غيرُها إلىٰ حضرموت موطنه الأول، وإلىٰ الحبشة، وأندونيسيا، وماليزيا، وعُمان، ومصر، وبعض دول الخليج العربي الأخرىٰ، وإلىٰ السودان مروراً.

وطالما التقىٰ بالعديد من رجالاتِ العلم والأدب والفضل في كل البلاد

التي زارها، وما أكثر تلامذته ومن أخذوا عنه؛ بل ومريديه من بقاع شتىٰ من العالم كفرنسا وبريطانيا وأمريكا والهند وباكستان واليمن وبنغلاديش وكندا وألمانيا وإسبانيا.

أما من دخلوا في دين الإسلام علىٰ يديه في شرق إفريقيا فإنه يعتبر ذلك من أعظم مِنَنِ الله عليه، فقد جنّد نفسَه وصحبه الكرام لخدمة الإسلام والعقيدة، مستشعراً دائماً قولَ جدّه الأعظم ﷺ للإمام علي بن أبي طالبٍ عليه السلام: «لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النَّعَم»[1]، وطالما سمعته رحمه الله يكرر أبياتاً شعريةً في مجالسه وندواته من قصيدة للإمام الحبيب محمد بن أحمد المحضار جواباً علىٰ قصيدة امتدح بها الحبيب محمداً سنذكرها إن شاء الله في موضعها، مكتفين بذكر هذه الأبيات لمناسبتها للمقام هنا وما فيها من إشارةٍ إلىٰ الدعوة إلىٰ الله، وهي:

ألا يا أحمدٌ لا زلتَ ترقىٰ	ذرىٰ العلياء من فوق السّنامِ
ونلتَ سعادةَ الدارين جمعاً	ونادتك العنايةُ بالمرامِ
وإحيا ما أُميتَ من المعالي	وقامت بك في ذاك المقامِ
وأمطرَ أرضَ قلبكِ ربُّنا مِن	سحائبَ جَودُهَا بالغيثِ هامي
وروحانيّةً من سِرِّ طٰهَ	تُمِدُّك في القعودِ وفي القيامِ

والإشارة إلىٰ الدعوة هي في قوله: وقامت بك في ذاك المقام، كما كان يقول سيدي رحمه الله.

وإذا أردتُ أن أحددّ بكل وضوح ملامحَ الجانب العلمي والأدبي

---

(١) تقدم تخريجه في المقدمة، وهو متفق عليه.

والاجتماعي والثقافي لشخصيته الفذة فلا بد من العودة إلىٰ أيام صباه، وهي بداية بزوغ ملامح هذه الشخصية حينما صلىٰ خلف الإمام العلامة الحبيب أحمد بن حسن العطّاس، فاختزنت ذاكرته سماعَ صوت ذلك الإمام بكل وعي وإدراك وهو يتلو فاتحة الكتاب وسورتي الفجر و(والليل إذا يغشىٰ) وإلىٰ اهتمام وعناية ورعاية وتوجيه أمّه الصالحة القانتة الشريفة صفية بنت الحبيب طاهر بن عمر الحداد، ثم بعد ذلك الوقوف أمامَ الكثير مما تركه من النصوص النثرية والشعرية بمادتها العلمية والأدبية وبأساليبها العذبة، وسلاسة صياغتها، وقوة ألفاظها، وروعة بلاغتها، التي تدل أيضاً علىٰ مقدرةٍ نادرة وفكرٍ نيّر مكّنه من الفهم والاستيعاب والتحصيل، مما حدا بعمَّيْه الإمامين العظيمين عبد الله وعلوي ابني طاهر بن عبد الله الحداد أن يولياه عنايةً خاصةً وهو لم يزل في بداية الطلب والتحصيل، فيوجّه إليه شيخه الحبيب عبد الله بن طاهر الحداد منظومةً حثّه فيها علىٰ مواصلة الطلب والجد، والاجتهاد لبلوغ الأرب، لمّا تفرّس فيه النجابة وأنه سيكون له شأن، قال فيها:

يــا أحمــدَ المشهــور	يــا إبــنَ أهــل النــور
داوم علــىٰ الــدروس	واتــرك هــوىٰ النفــوس
وارْقَ مــراقــي العلــم	وكُــن مِــن أهــل الفهــم

وكان شيخُـه الحبيب علوي بن طاهر قد استصحبه معه عام ١٣٤١ هجرية إلىٰ أندونيسيا وهو دون العشرين، فاكتسب من هذه الصحبة ـ علىٰ قصرها ـ المزيدَ من العلم والمعرفة، وعلىٰ يدَي عمَّيْـه المذكورين تخرّج، وعليهما أخذ الفقـهَ وعلوم العربية والتفسير والأصول والتاريخ والتصوّف، ومما يدلنا

علىٰ نضوجه المبكر وهو لا يزال في ريعان الشباب شهادةُ شيخهِ ومربّيه الحبيب علوي له عند ذكره لبعض المناسبات التاريخية في كتابه الشامل، وهي الاحتفال الذي أقيم بمناسبة وصول الماء المجلوب إلىٰ (قيدون) من أحد الينابيع القريبة منها وهو (غيل بويرده) في يوم الخميس الخامس عشر من شهر رجب ١٣٤٦ هجرية وما قيل فيها من قصائد ومواعظ، حيث قال:

ومنها قصيدةٌ غرّاء أنشاءها الألمعي الأريب واللوذعي الفاضل الأديب أحمد مشهور بن طٰه بن علي بن سيدنا الجد عبد الله الهدّار الحداد العلوي الحسيني مطلعها (برقت خوافقُ أنسنا المتجدّدِ) قال فيها:

عملٌ من الخيراتِ مقصودٌ به ... وجهُ الإلٰه ونفعُ أمّةِ أحمدِ
وعلىٰ جَبينِ الدهر أصبحَ غُرّةً ... تبدو به كالكوكب المتوقّدِ
فتحٌ به (قيدونُ) أخصبت الرُّبىٰ ... روِيَتْ وقال لسانُ حالتها: قَدِ
مِن بعدِ ما مرّت بها حُقَبُ الظمأ ... عادت فجاشت بالزلال المُزبدِ

وقبل ذلك بقليل وهو دون سن العشرين حظي بوسام الشرف الذي ظل يعتز به ويفخر، ممثَّلاً في قصيدةِ الإمام الحبيب محمد المحضار التي أشرنا إليها، وحديثُ هؤلاء الأئمة ليس من جزاف القول ولا بريق الألفاظ، ولا يتوهَّم المتوهِّمُ أنه كذلك، ولكنه أنفاس علوية، وفراسة إيمانية، ونظرات نورانية. وأي شهادةٍ وأي وسامٍ أعلىٰ وأسمىٰ من شهادة ووسام إمامَين عظيمين كان لهما أبلغ الأثر والتأثير في مجال حياته ومستقبل دعوته ومرساها ومجراها العلمي.

ربما رأيتني أُحجُم عن ذكر بعض ما سمعته عنه أو رأيته منه رحمه الله خشيةَ أن تكون عوامل النسيان قد مسّته، أو عدمُ الإدراك والفهم التام لما

سمعته ورأيته يقف دون التعبير عنه تعبيراً لا يشوبه الشك أو الوهم أو العجز، ولكنني لن أتوقف عن تحرّي الصحة في كل ما أستطيع تسجيله من مجمل ما سمعته عنه إبراءً لما أنا مطالَبٌ به من أداء الواجب، وإبراز ما أستطيع إبرازه من ذكرياتٍ تتعلق بتلك الصورة التي لم تختلف رؤيتي لها منذ أن رأيتها، بل أراها تتجدّد وتبدو أكثر وضوحاً كلما ازداد ذهني استدراكاً لها، وكلما اتسع فكري لاستيعاب رؤاها المتعددة الجوانب، وكلما ازدادت معرفتي لها كلما ازدادت وضوحاً في عيني.

* * *

ولن أكتفيَ بما أقرأه أو أسمعه من كلمات الثناء والإعجاب تتحدّث بها الألسن أو تخطها الأقلام لربط حلقات تلك الذكريات بعضها ببعض، ولكنني سأورد ذكر كل ما أجده من نصوص نثرية أو شعرية أو أدبية كانت أو علمية، وما يفوتني إدراكه ممَّا عبثت به أيدي الضياع وعوامل أخرىٰ لم يسلم منها الكثير من تراث الآباء والأجداد سأشير إليه ولو باقتضاب، بانتظار ما قد تسعف الأيام القادمة بالعثور عليه.

وأما ما سأجيءُ به هنا من النصوص أو من الذكريات التي ظلت عالقةً بذهني أو بوجداني فإنها ـ علىٰ قلتها ـ لاتحتمل التأخير حتىٰ تكتمل كل الحلقات، فربما يكون من أسباب ذلك التأخير أن يأتيَ وقتٌ لا أقدر فيه علىٰ ما أستطيعه الآن، وقد أكون راضياً بعض الرضىٰ بأن أواصل ما وُفّقت علىٰ جمعه وتسجيله بآخر مرحلةٍ من مراحل حياة سيدي يوم أن استدعاني قبلَ يومين من دخوله في غيبوبة وأعراض المرض الذي انتقل فيه إلىٰ جوار ربه، استدعاني فجئته مسرعاً ووجدته يردد بصوتٍ خافت وهو مسترخٍ علىٰ

فراشه قراءةَ سورة (الفيل)، ثم بعد ذلك يقرأ سورة (قريش)، وقد حاول أن يحدّثني عن مفاهيم ظهرت له في معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، وعن معنىٰ الإيلاف وما قاله أهل التفسير حول ذلك، ثم طلب إحضارَ أحد التفاسير وكان كثيراً ما يميل إلىٰ تفسير البيضاوي، وفي هذه اللحظات حضر الدكتور محمد البار وهو من أحب تلامذته المقربين إليه، وأشار إليه أن يدلي بما يظهر له أو بما اطّلع عليه من أقوال المفسرين، ولكن وللأسف الشديد لم تساعد الحالة التي كان فيها علىٰ استمرار الحديث.

* * *

ومكمَنُ القول هنا أن آخر عهد بمذاكرة العلم الذي قضىٰ جل عمره في تحصيله وبثه والحث عليه هو علم التفسير، وكثيراً ما تطرأ علىٰ باله خاطرةٌ أو يتبادر إلىٰ ذهنه مفهوم وهو يتلو آيةً أو آياتٍ قرآنيةً في الصلاة، فلا يكاد ينتهي من صلاته حتىٰ يبينها لنا أولاً، ثم يطلب مقابلتها بقول أحد المفسّرين.

وهذه الخواطر والمفاهيم والكثير مما لم يتيسّر لنا جمعُه الآن أو نشره... كتلك الخطب المنبرية الجمعية وغيرها من الخطب التي كان يلقيها في مناسباتٍ شتىٰ، والفتاوي الفقهية وبعض الرسائل والمحاضرات والأحاديث الدينية والأدبية التي هي بلا شك من الغُرَر في أبوابها، أما ذخائره من المفاهيم القرآنية التي كثيراً ما كان يسجلها فلو استطعنا العثور عليها ولمَّ شتاتها لوجدنا أمامنا ما نعتز بتقديمه إلىٰ المكتبة القرآنية الشيء الكثير.

* * *

وهذه هنا إحدىٰ رسائله المختصرة، وباعثُ تحريرها ـ كما يقول رحمه الله ـ يتعلق بموضوع ترجمة القرآن الحرفية وكتابتها في إحدىٰ المجلات الإنجليزية، ورداً على المتذرعين ببعض الحجج الواهية في ذلك، وهذا بعض ما قاله رحمه الله:

«وإذا نظرنا إلىٰ ما يفيده ذلك التفسيرُ الشبيه بالترجمة العامة رأيناه لا يتعدّىٰ ما تخمّر في رأس ذلك الكاتب وترجمتهِ بلغةٍ قاصرة لا تفي بوسع معاني كتاب الله المجيد المعجز، بل تختزلُها أحياناً فتُظهِرها بغير إبداعه وإعجازه وروعته، وتمثله بغير حقيقته التي تعجز عنها لغته الواسعة، وتكسوه ثوب العجمة الذي نفاه عنه مُنزله جل وعلا فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

إن دونَ ما يحاوله ذلك المترجم في تلك المجلة أو الصحيفة لَعقبةً كَأداءَ لا يستطيع أن يقتحمها بعُجمته ورطانته، وإن له لمندوحةً إلىٰ تأليف رسائلَ تُبين عن حقيقة الإسلام وأغراضه ومقاصده، شارحةً لشرائعه وروافده، داعيةً عباد الله إلىٰ دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، عارضةً عليهم حقيقة الإسلام، قاطعةً كل زور عليه أو بهتان، فإذا فرغ من تأليفها ترجمها ونشرها بكل مكان، ويدع القرآنَ بروعته وبلاغته وإعجازه وعربيته، فسِرُّ القرآن في عربيته كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]، وأبىٰ الله إلا أن يكون عربياً وأن يُسمَع بنظمه العربي، وأن يُؤثّر بتلاوته العربية، ويتذكّر به السامع، ويصحَو علىٰ جرسه الغافل.

وقد يسّر الله القرآنَ بلسان النبي العربي للذكر، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]، وخاطب به مع عربيته خطاباً عاماً للنـاس كافة فقال: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]، فالقرآن نور، والنورُ لا يُترجم.

واملأ الليل بما شئتَ من أنوار الكهرباء فهيَ لا تغني عن نور النهار ولا تقوم مقام الشمس ولا تؤدي وظيفةَ الشمس، ففوق ما في الشمس من ضياء فيها الحرارة التي يكون بها النماء، وفي الحرارة سر الحياة. والقرآن روحٌ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، والروح لا يُترجَم، ولهذه الروحانية التي في القرآن ترىٰ الذين يسمعونه يحسونها ويخشعون لها، وهذا ما جاء في القرآن عنها. قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]. وسر القرآن في تلاوته قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩٢] فتراه أمرَ بالتلاوة وجعلها سرَّ الهداية، ولسرها قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فماذا ترىٰ من هذه الترجمة المختزلة باللغة الناقصة التي قد تقل ألفاظ ترجمتها عن ألفاظ القرآن لضيق نطاقها، ولذلك سميتُ ترجمتها مختزلةً،

أتُراها تؤدّي معاني القرآن برونقها وجزالتها، وتبين حجته بكمال نصوصها وبرهانه بكل استقامة، وتنقل معانيه مع خصائص نظم القرآن المعجز، وتكون مظهرةً لنوره وروحانيته القدسية، أم صارفةً عنه وداعيةً إلىٰ الاستغناء عن ورود مناهله؟! إنها لخدمةٌ معكوسة للقرآن ومضادةٌ لما يدعو إليه من توحيد لغته وتفضُّله تعالىٰ بتيسيره وتسهيل وظيفته في العالم كله مع أنه بلسانٍ واحدٍ من ألسنة أبنائه، وهذه أممُ الإسلام عرباً وعجماً في مشارق الأرض ومغاربها وعلماؤها منذ عهد التأليف تتبارىٰ في تفسير القرآن بلغته العربية، قياماً بحق التبليغ، وتنافساً في إبراز ما أودع فيه من المحاسن وسر الإعجاز، وتقرُّباً إلىٰ الله بذلك، وجمعاً علىٰ دائرة الوحي المحمدي ومصدره الأصلي ومعينه الفياض.

فإن قال قائلٌ: إن إخواننا من المسلمين الذين لايفهمون العربية وكذلك الأجانب ينتظرون قرآناً ويتربصون ترجمتنا! ليعرفوه كما عرفناه بلساننا حتىٰ تتم الدعوة إليه في داخل العالم الإسلامي وخارجه، فعلينا أن نسعىٰ ببيانه ونشر دعايته بينهم لنكون من المفلحين، وفاءً بالميثاق الذي أخذه الله علىٰ الذين أوتوا الكتاب أن يبينوه ولا يكتموه.

فالجواب سهلٌ بيّنه لهم القرآن، ورفع عن المسلمين جميعاً من الأعاجم كلفةَ التفسير والترجمة كما رفع عن المؤمنين جميعاً النفر العام لتعلم فقه الإسلام، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فاكتفىٰ ببعثةٍ من الطلاب تتعلم الفقه والنذارة وتبلغه إلىٰ قومها، فترىٰ في كل مركز من مراكز العالم الإسلامي طوائفَ من

جميع الأمم الإسلامية تنفر إليه لتأخذَ منه ما تنفع به قومها إذا عادت إليهم، فهذا هو النظامُ الإلهي الذي وضعه ربُّ العالمين من يوم قام الإسلام للمسلمين، وعليه درجوا إلىٰ يومنا هذا، ودعوته تدوي في الأقطار بنشر محاسن الإسلام وتحليله في عيون بنيه، وتحبيب شعائره وأواصره إليهم، حتىٰ يعودوا مسلمين متماسكين بعروة الإسلام وإن اختلفت لغاتهم وتباعدت منازلهم. . . » إلخ.

ثم قال في آخر هذه الرسالة التي دعمها بالحجج والأدلة:

«وقد خرجتُ عن خلاصة المحاورة في حكم كتابة القرآن بالأحرف العربية في الجرائد الإخبارية بالاستطراد إلىٰ الترجمة والتفسير، لاتحاد موردهما وخطريهما ونزوعهما عن قوسٍ واحدة، وأدليت بحجتي ماثلةً ناقلاً في أثنائها جملاً عمن كتب في هذا الشأن من أهل العرفان، وأنّ القرآن يحمي نفسه واللهُ حافظه».

* * *

أما كتابه «مفتاح الجنة» فقد صدرت الطبعة الأولىٰ منه سنة ١٣٨٩ هجرية الموافق ١٩٦٩م، بالقاهرة، وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥ هجرية الموافق ١٩٧٥م، وصدرت الطبعة الثالثة سنة ١٤١٣ هجرية الموافق ١٩٩٣م، قدّم له في الطبعة الأولىٰ فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء بمصر بقوله:

«الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله الأكرمين، وأصحابه البررة وجميع التابعين.

وبعـد: فهذا «مفتاح الجنة» يقدّمه الأخ العلاّمة الجليل الداعي إلىٰ الله الحبيب السيد أحمد مشهور الحداد إلىٰ إخوانه المسلمين، رجاءَ أن يفتح به أبواب جنة النعيم، لمن يتقبّله بقلبٍ سليم، وينهض بالدعوة إلىٰ الله علىٰ نهجه القويم». ثم قال:

«أَلَمَّ صديقُنا السيد الفاضل في هذه الرسالة الوجيزة بمباحث هامة تتعلق بكلمتي الشهادة اللتين بهما النجاة والسعادة في الآخرة والأولىٰ، وهي من أهم مباحث أصول الدين التي لا غنىٰ عن معرفتها لمن ينبغي أن يقوم مقام صدق في الدعوة إلىٰ الحق وإلىٰ سبيل المؤمنين، مع ما اقتضته المناسبة من آراء وبحوث، وتنبيه وإرشاد وتحذير، [ثمرةَ علمٍ ودراسةٍ وتجارب]، فأوضحَ وأسهب، وأشار وألمع، في بيانٍ صادق، وأسلوبٍ رصين. أمتع الله به ونفع بآثاره، وأثابه علىٰ ما أسدىٰ من الخير للإسلام والمسلمين، نعيماً خالداً في جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وإنَّ الله لمع المحسنين».

وقد تُرجِمَت هذه الرسالة أو هذا الكتاب إلىٰ اللغات: الانجليزية والأُردية والألمانية، وهنالك رسالةٌ أخرىٰ في تاريخ تدوين السنة النبوية، وهي أيضاً ثمرة علمٍ ودراسة، وبرغم اختصارها فقد أوضحَ فيها وأسهب، وستعد للطبع إن شاء الله.

ومن إنتاجه العلمي المبكر في بعض العلوم: شرحٌ لمنظومة الشيخ سعيد بن نبهان «الدرة اليتيمة» في النحو، و«السُّبحة الثمينة نظم مسائل السفينة» في الفقه، وقد قام بشرحها وطبعها الشيخ محمد علي باعطية.

ومن الرسائل الجديرة بالاهتمام والنشر رسالة «المِسكُ الفائح في أحكام الصيد والذبائح»، وهناك رسائل أخرىٰ عديدة قد تكون صغيرةً في حجمها

ولكنها عظيمةٌ في فائدتها، منها رسالة «فائدة الصوم» باللغة السواحلية. وله رحمه الله إسهاماتٌ عديدةٌ في تنشيط الحركة العلمية والأدبية والثقافية سواءٌ في موطنه الأول ومسقط رأسه (قيدون)، أو في بلاد المهجر وبالأخص في إفريقيا الشرقية، إلىٰ جانب الدعوة ورسالتها التي أصبح أحدَ رموزها.

* * *

نبذةٌ من خُطبه الجُمعية ومواعظه

ولمّا كان للمسجد دوره المؤثر في حياة المجتمعات الإسلامية فقد اتخذ من منبره مصدراً للتوجيه ومناراً للهداية والدعوة إلىٰ الله، وقاعدةً ينبثق منها منهج القيم والمثل والأخلاق التي يدعو إليها الإسلام. ومنه يخاطب الفردَ والجماعة مرشداً وواعظاً، كما في هذه الخطبة التي يقول فيها:

«الحمدُ لله القائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت، الميسِّر لها من فضله الواسع ما طلبت، الذي يُجِير ولا يُجار عليه، وكل من في الكون محتاجٌ إليه، أحمده حمدَ من شاهد منته في طَوله، وقوته في حَوله، وظهورَه في مجالي أسمائه، وبطونه في أسرار قَدَره وقضائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مذعنٍ لعظمته وكبريائه، صابرٍ علىٰ بلائه، شاكرٍ لنعمائه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ابتعثه بالدين الجليّ، والبرهان المُضِيّ، والكتاب العربي، فانكشفت به الظُّلم وتمت النعم، ونُجِّينا من عذاب جهنم، صلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه، وتابعيهم علىٰ صدقِ قدم، أوصيكم عبادَ الله وإيّايَ بتقوىٰ الله.

أيها الناس:

عنت الجنة فأين طالبها، وهانت النار فكثر راغبها، وحُمد الصمت فندر فاعله، وخِيف الكلام فزاد قائله، حُفّت النار بالشهوات والفضولُ منها، وحُفّت الجنة بالمكاره فابتعد الناس عنها، وقد ورد عن نبينا محمد صلىٰ الله

عليه وآله وسلم أنه: «يأتي علىٰ الناس زمانٌ يكثر خطباؤه، ويقل فقهاؤه»[١]، صدق رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فهذا هو الزمن الموعود الذي تسوَّر المسلمون فيه حدودَ الشريعة، وتركوا مدارسَ العلم ومعاهده مضيعة، واستغنوا بالبقول عن المن والسلوىٰ، واشتروا من فضول الحديث لهوا، فخلت المدارس، وضاعت المجالس، وخرج الماء من غير منابعه، وذُكر العلم في غير مرابعه، وقيل ماذا قالت الإذاعة، ولم يعلموا لماذا عُملت تلك الصناعة، وأنها من أشراط الساعة[٢]، ومَن هم سماسرة تلك البضاعة، إنها لخدعة الصبي بالماء، وصدٌّ عن مصادر وحي السماء، أخبار ملفقة، وروايات منمقة، جعلوها حزوباً لهم وأوراداً، وتعمدوا بها أوقات الفضيلة ضِراراً وإرصاداً، وظنوا ما يصدر عنها كالذي يصدر عن دوائر علمية ومعاهد دينية، هيهات هيهات ما بين المصادر، وبين الطاعات والمناكر، وبين ما أسست دعائمه علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان، وعلىٰ شفا جرفٍ هار من أغراض بني الإنسان.

فاتقوا الله يا عبادَ الله في أوقاتكم الغالية أن تذهب سدىٰ، في غير نفع ولا هدىٰ، وتحرَّوا رياض الجنة فارتعوا فيها، وهي حِلَق الذكر ومجالسُ العلم وأبناء الصلاح، وخذوا دينكم عن أقطاب العلم وأهل الورع ودعاة

---

(١) هو جزء من حديث عند الطبراني في «الكبير»: (٣:١٩٧) (٣١١١)، ولفظه: «إنكم قد أصبحتم في زمان كثير فقهاؤهُ قليل خطباؤهُ، كثير معطوه قليل سُؤّاله، العمل فيه خير من العلم، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه، كثير سؤاله قليل معطوه، العلم فيه خير من العمل».

(٢) إن لكل خطبة يلقيها مناسبة خاصة أو واقعة حال.

لفلاح، فلكم بهم السند العالي، المُلحِق الأولَ بالتالي، تلحقوا بهم في الدنيا والأخرىٰ، وتدخلوا في دائرة أبو الزهرا.

إن أحسن الكلام بياناً وظهوراً، وأشفاه لأدوىٰ النفوس بطوناً وظهوراً كلام من أنزل القرآن هدىً ونوراً: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]. اهـ.

* * *

قد لا يغني التلميح عن التصريح عند الموعظة، وخاصةً مع الذين قست قلوبهم فأغواهم الشيطان وأضلهم وأعمىٰ أبصارهم، وتحكمت فيهم العادات ولعبت بهم الشهوات. إنّ أكلَ (القات) قد انتشر ضررُه، واستفحل خطره، في مجتمع فقير مادياً وثقافياً كالمجتمع المسلم الكيني، وارتياد مسارح اللهو والخلاعة أصبح شراً وبيلاً يهدّد القيم والأخلاق الإسلامية، ومحاربة كل ذلك بالوسائل المتاحة لرجال العلم والدعوة من أوجب الواجبات، وخاصة في ذلك المجتمع الذي ضعفت فيه النوازع الإيمانية عربه وعجمه إلا من رحم الله..».

وسنرىٰ في الخطبة التالية أن سيدي رحمه الله يرىٰ أنه لا بد مما لا بد منه، من التصريح بدلاً من التلميح في الكشف عن مكامن الخطر وعن كل ظاهرةٍ من ظواهر الفساد والشر، وإن جاء ذلك باختصارٍ شديد مراعاة لحرمة المكان، والتزاماً بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذه هي الخطبة:

«الحمدُ لله الذي تنشرح بذكره الصدور الحرجة، وتنفتح بشكره الأبواب المرتجة، وتفيض علىٰ أودية القلوب مياه رحمته فتكتسح أدرانها، ويحيي مواتها الطبيعي وتخرج عصفها وريحانها، أحمده حمد من ألقىٰ إليه قياده، وملأ بتوحيده فوآده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا يُرجىٰ ولا يُخشىٰ سواه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه، ابتعثه بخير ملةٍ ومنهاج، واختصه بالإسراء والمعراج، فرحّبت بمقدمه أهل السماوات، وأذعنت لشرفه جميع المخلوقات، وفرضت عليه وعلىٰ أمته خمس صلوات، بخمسين في القدر والمثوبات، اللهم صل وسلم علىٰ سيدنا محمدٍ وآله صلاةً ترضيك وترضيه وترضىٰ بها عنا يا رب العالمين.

عبادَ الله، أوصيكم ونفسي بتقوىٰ الله، فقد أفلح المؤمنون وفازوا، ومضوا علىٰ قصد السبيل وجازوا، ونظروا إلىٰ عنصر خلقتهم الطينية وبشريتهم السلبية فرأوها ضعيفةً لا قوة لها، ذليلة لا عزة لها، خاليةً خاويةً إلا بما يفيضُه الله عليها، جاهلةً فقيرةً إلا مما يسديه خالقها إليها، تشعر بالنقص والخلوة والافتقار، وتحرص علىٰ جمع المال والحطام وزيادةٍ علىٰ ما يسد الاضطرار، فلا تقف في كسبها عند حد، بل لا تزال منهومةٌ بالأهواء والشهوات والسدد. وهيهات أن يقوم المال بسد ذلك الجشع المبني علىٰ الطمع، الناشىء عن الوهم والهلع، كما ورد عن سيد الأحباب: «ولن يملأ فم ابن آدم إلا التراب»، ويتوب الله علىٰ من تاب، ألا وإن السعيد من تخلّص من هفوات الطبع، وترقّىٰ في مدارج الشرع، وزكّىٰ نفسَه من زبد الباطل، وأقبل علىٰ مولاه خير قابل، وصرف ما زاد علىٰ ضرورته من

المال، في وجوه البر والكمال، بما هو عدةٌ للحق، أو قوةٌ علىٰ العدو، أو صلةٌ لمن انقطعت بهم الحبال، وثنىٰ قوّته إلىٰ طاعة الله عز وجل وصالح الأعمال، وبذل علمه للطالبين وتعليم الجهّال، وجاهه ورياسته لإصلاح ذات البين ونصرة الضعيف وزين الخصال، فويلٌ لمن كان ماله وعلمه أو جاهه وزراً عليه، يدوسه بين يديه ورجليه.

وعجباً لمن يكدح نهاره في مشاق الأعمال لنيل شيء من المال، فإذا ناله صرفه في شر مآل، شراباً بَلَغَه، أو (قاتاً) يمضغه، أو مسرحاً للهّو والخلاعة يبلغه، يا بئسها خلةً وسجية، وسفاهة وعنجهية، زلّ بها الطريق، وهوىٰ بها إلىٰ نار الحريق، وأساء بها إلىٰ نفسه وأهله، وتعرّض لكفران نعمة ربه وفضله، وقد شرفه بالدين المحمدي، وهداه إلىٰ نور الإسلام الأبدي، فهلا رجع بنفسه إلىٰ رشده وحَمَاها[١]، وصفّاها من قاذورات اللهو وحُماها[٢]، وظهر عضواً عاملاً في المجتمع الإسلامي، أنموذجاً لأمةِ النبي التُهامي، الأمةِ المرحومة، والثلةِ السابقة الموسومة، يتقدمها خيرُ نبي، اندرج في عقد نبوته كل عربي وعجمي، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واغتنموا بقية الأعمار، واهتبلوا مواسم الرضىٰ بالإنابة والاستغفار، فهذا رجبٌ قد أقلع شراعه، وهذا شعبان قد لاح شعاعه، مبشراً بشهر الله مطلاعه، جعلنا الله من حضورها الفائزين بعظيم أجورها.

إنّ خير ما نطق به لسان، وأسفرت عنه حلبة بيان، كلام الله الواحد

---

(١) أي: حرسَها.

(٢) الحُمَىٰ جمع حُمَـةٍ، كثُبَـة، وهي سمُّ العقرب وضُرّها.

المنان: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨١-٨٢]».

مصنفاتٌ أخرىٰ:

لن يحول عدم العثور علىٰ بعض الرسائل والتراجم التي كان الوالد رحمه الله يذكرها عن الاستمرار في البحث والتقصي. وإن مما يحسن الإشارة إليه مما فاتنا العثور عليه ترجمةٌ للحبيب عبد الله بن طاهر الحداد[١]، و«رسالةٌ في فائدة الصوم» باللغة السواحلية، وترجمتان عظيمتان لإمامين جليلين، إحداهما ترجمة مؤلف «النفحات السرية شرح العينية» للحبيب أحمد بن زين الحبشي، والثانية ترجمة مؤلف «منهل الوُرّاد» للحبيب أحمد بن أبي بكر بن سميط. وقد بعث بهما إلىٰ الشيخ بكري رجب البابي الحلبي من علماء سوريا المشرف علىٰ طبع الكتابين علىٰ نفقة المحسن الكبير الشيخ سراج الكعكي أحسن الله إليه وغفر له جزاء محبته لأهل العلم والفضل، ولكن لعذرٍ غير مقبول اختصر الشيخ بكري البابي الترجمتين كما أشار في مقدمة كتاب «منهل الوُرّاد» إلىٰ ذلك بقوله:

---

(١) هذه الترجمة كثيراً ما كان رحمه الله يحدثنا عنها، وقد أتحفنا أحد مريديه ومحبيه وهو الأخ الفاضل محمد أبو بكر باذيب بجواهر من أنفاس سيدي الحبيب عبد الله ابن طاهر رحمه الله، التقطها سيدي الوالد من خلال مجالسه ودروسه مسطرة بقلم سيدي في نحو من ثلاث ملازم، وهذا مما يبعث في نفوسنا الأمل في العثور علىٰ تلك الترجمة وغيرها من التراجم والرسائل إن شاء الله تعالىٰ.

«أما بعد:

فقد بعث إلينا فضيلة الأستاذ أحمد مشهور الحداد بترجمتين عظيمتين، أحدهما للسيد الإمام أحمد بن أبي بكر بن سميط مؤلف «منهل الوُرّاد»، والثانية للسيد الإمام أحمد بن زين الحبشي مؤلف «النفحات السرية»، كلاهما شرحان علىٰ قصيدتين للسيد الإمام عبد الله بن علوي الحداد، وهاتان الترجمتان حافلتان بما للسيدين من مآثر مقدسة.

ولما كان الطبع يخضع لنظام قانوني ومراقبة؛ وكانت الترجمتان فيهما إطالةٌ أُجيز لنا ما اختصرناه وأثبتناه وافياً بالمقصود». اهـ.

وقد وضع ملخص كل ترجمة في موضعه، ولم نعثر علىٰ أصول الترجمتين المذكورتين.

لا زال الحديث موصولاً سواء عن الدعوة أم عن الجانب العلمي من حياته رحمه الله. واستكمالاً للفائدة سنذكر إن شاء الله من كلماته ومواعظه ومن كتابه «مفتاح الجنة» ما يتيسر لنا بدءاً بما أتحفنا به أخينا الأريحي السيد محمد بن عبد القادر بن حسين السقاف مما سجّله في مجموع «الدرر النفيسة المقتطفة من مجالس شيوخنا الأنيسة».

* * *

مختاراتٌ من كلماته ومواعظه

الكلمة الأولىٰ:

وهذه كلمةٌ موجزة ألقاها رحمه الله عقب كلمةٍ شاملة لسيدي الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف بمنزل السيد الفاضل محسن بن علوي السقاف بجدة، في ٢٤/ ٣/ ١٣٩٨هـ.

قال فيها:

«هذه المواعظ إنما هي سحبٌ تهطل عليكم، وفيما قاله الأخ عبد القادر كفاية، لقد تفنن وأتىٰ لكم بكل خلق حسن، وما بقي علينا إلا أن نعي ذلك، ونجتهد.

أن نتخلّق بالأخلاق التي ذكرها، ونسير بهذه السير التي ذكرها، ونحاسب أنفسنا علىٰ ذلك ونكلفها ونندم ونطالب أنفسنا مطالبةً جدية بذلك من الآن، فلا نكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد:١٦]، هذا خطر! وإلا من أين با نسمع مثل هذا الكلام العجيب، والدر الرصين، الكلام الذي يحي القلوب، نعوذ بالله من أن نكون ممن قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد:١٦]، إيش حالهم هؤلاء! قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد:٢٣]، نسأل الله الحفظ

والسلامة، ولا جمعنا في هذا المحل ولا رزقنا حسنَ الاستماع إلا وهو يريد لنا خيراً إن شاء الله.

لو لم تُرِدْ نيل ما أرجو وأطلبه　　　من فضل جودك ما ألهمتني الطلبا

الحمد لله ولا حاجة أن أتكلم بعد الذي سمعتموه، هذا شيء شوفوه من نفحات الله سبحانه وتعالىٰ علينا، ولا تأتي هذه الفوائد إلا من أهلها، أين نحن من مثل هذه المواعظ، وهذا الكلام المتراسل، إنها لموائد وفوائد وعوائد وبركات وغيوث تتنزل علىٰ قلوبنا، الله يحققنا بها ظاهراً وباطناً، والكلام طويلُ الشعب، طويل الذيول، وفيما سمعتموه كفاية. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، يا لها من نعمة، كلنا موافقين عليها، وكلنا قابلوها، وكلنا نعتقدها، فالقبول والاعتقاد خيرٌ كبير، ألسنا قابليها! ألسنا معتقديها! بقي علينا التمني والسعي لها، وكلُّنا يتمنىٰ ذلك إلا من خلف؛ وهو الذي ذهب نور الإيمان من قلبه، نسأل الله أن يحققنا بهذه الأخلاق التي ذكرها الأخ عبد القادر وننال منها النصيب الوافي إن شاء الله. إنه ولي ذلك والقادر عليه».

* * *

الكلمة الثانية:

أما الكلمة الثانية فقد ألقاها أيضاً في الحفل الكبير الذي أقامه السيد محسن بن علوي السقاف في منزله العامر بجدة في ١٤٠١/١٢/٤هـ

قال سيدي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته:

«امتثالاً لأمر أخي عبد القادر، مع الحالة التي أنا فيها الآن لأنني تكلفت

الحضور هذه الليلة. . وأشعر بشيءٍ من التعب لا ينطق معه لساني، ونحن الليلة كلنا في ضيافةٍ نبوية علوية، وفيوضاتٍ ربانية، أجراها الله علىٰ يد أخينا عبد القادر، فشفىٰ الغليل وأبرأ العليل، وأتىٰ بما لا يُزاد عليه من الحِكَم والنصايح، وقد قيل: «لا عطرَ بعد عروس»، وأرجو منكم يا إخواني أن تعوا هذه النصائح والدرر، وتطبقوها بالعمل، لا تجعلوا القول ينطبق عليكم كما قال قائلهم في التقوىٰ: ما أكثرَ قائلها وما أقل العاملَ بها.

والذي أرجوه منكم ومن نفسي أيضاً أن نقابل هـذه النصائح بالتطبيق، وذلك دليلُ القبول، وإلىٰ هنا أقف سائـلاً منكم إعذاري عن القول أو عن الإسهاب في المقال، لأنني بحمد الله اقتنعت واشتفيت بما سمعته من كلام أخي عبد القادر وفيه الكفاية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وإنني أدعو الله سبحانه وتعالىٰ، بحقّ ما جمعنا في هذا الجمع المبارك وفي هذه الليلة الفاضلة لياليَ العشر من شهر ذي الحجة، وفي هذا البلد بلد الحرمين الشريفين، أن يمنَّ علينا بصالح العمل، وأن يمنَّ علينا بما منَّ الله به علىٰ أسلافنا، وأن يحقق ذلك فينا حتىٰ نراه في أنفسنا وفي أولادنا وفي إخواننا، وأن يبدل إن شاء الله ضعفَنا بالقوة، وجهلَنا بالعلم، وغفلتنا باليقظة، حتىٰ ننال ما ناله الصالحون المقربون بمنه وفضله وكرمه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* * *

الكلمة الثالثة:

وهذه الكلمة الثالثة المنقولة من مجموعة «الدرر النفيسة»، ألقاها سيدي في الاحتفال السنوي الذي عقده السيد الفاضل علي بن عبد الله السقاف بمنزله العامر بجده في ٢٦/ ١٢/ ١٤٠٤هـ.

قال سيدي:

«الحمد لله علىٰ هذه النفحات، ونسأل الله أن يديمها علينا، «ألا إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرّضوا لها»[1]، وهذه أسواقها، وهذه ميادينها. الحمد لله الذي وفقنا لذلك ولهذه المجالس.. وهذا الاجتماع وفيه هذا الجمع بحمده سبحانه وتعالىٰ، كم نسمع في هذه المدارس من دروس ونصائحٍ، وذكرياتٍ طيبة وجميلة، فيالها من مجامع وقد تعرّضنا لها، وليست مخصوصةً بوقت دون وقت، ولكنها من باب الوهب الإلهي الفائض علىٰ الأمة من فوق المقسوم، فالتعرّض لها يكون في مواطنها وفي مجامعها وفي محاضرها مثل محاضرنا هذه الطيبة التي كانت ختام الحج، ختام المناسك، تعبّر عن شكرنا لله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما وفّقنا لذلك، وتعبر عن اجتماعنا للمذاكرة، وتذكّر صفاتِ السلف وطريقتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وكم نجني منها من فوائدَ ونفحاتٍ للمستبصر وللمعتبر.

نعم إن هي إلا مواكب ومواسم، المعبَّر عنها بالنفحات، تتنزل فيها الرحمات وتسري فيها سريانَ الفضل والجود بين الإخوان من العارف والعالم

---

(١) جزء من حديث أخرجه الحافظ الطبراني في «الأوسط»: (٢٣٥٦)، (٦٢٤٣)، و«الكبير»: (١ : ٢٥٠) (٧٢٠)، (١٩ : ٢٢٣) (٥١٩).

والفاضل والخاشع إلىٰ سائر الإخوان، سريان فضل، وسريان جود، وسريان مودة، وسريان إفاضة، وهذه كلها توجد في مثل هذه المجامع، مجامع فاضلة لا يوفق لها ولا يحضرها إلا موفق، وهي موكبٌ نبوي، وموكبٌ علوي، وهي محاضر يدار فيها كأس المودة والعلوم وكأس المعارف، هذه هي الكأس التي يذكرها السلف، ديرت عليهم الكؤوس وشربوها، هذه الكؤوس شربناها وارتشفناها وذقناها بمفاهيمنا وحلّت محل الرضاء والقبول، وحلّت محل الإمداد والإفاضة علينا حتىٰ سرنا نطرب لها ونذوقها ونتواجد لها، هذه هي الكؤوس التي تسمعونها يديرونها لنا الحداة، فالحداة يحدوننا بكلام السلف وبمواجيدهم وبأسرارهم، وهي كؤوسٌ نشربها. . ونستشفُّها بأروحنا وبقلوبنا، وتتنعّم بها الآذان وتمتلىء كلها، وتكون ما شاء الله تبارك الله صلاتٍ كاملةً بيننا وبينهم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله». اهـ.

* * *

الكلمة الرابعة:

الكلمة الرابعة ألقاها رحمه الله في رَوْحَة آل بن طه بجدة، بتاريخ ٢٩/ ٣/ ١٤٠٥هـ.

واستهلها بقوله:

تمتَّع من شميم عرار نجد فما بعدَ العشيةِ من عرارِ

ثم قال: «لا نحب أن يختلف الكلام، وما سمعتوا من حبيبنا عبد القادر فيه تنشيطٌ لأرواحنا وفيه ترويض لنا ولأنفسنا حتىٰ تسلك الطريق بهذه الدعوة وهذا التوجيه الجميل، وكما سمعتم ما كان عليه أسلافنا من حسن

نية ثم عمل ثم سلوك، ويجمع ذلك كله ثلاثُ كلماتٍ اختصروها لنا، وهي: شريعة، وطريقة، وحقيقة.

الشريعة: هي ظاهر الأحكام، صلاة، عبادة، مثل ما ذكروه من شروط وأركان.

وطريقة: وهو الإخلاص وكمال الأدب فيما تعمله من صيام وقيام وتلاوة قرآن، وكل الأعمال الصالحة يُقال لها طريقة، سُميت طريقةً لأنها توصلك إلىٰ المقصود إلىٰ الآخرة.

وبعد الطريقة حقيقة، الحقيقة إذا وصلتها انكشف لك الأمر، ويظهر لك شيءٌ من النور الذي يطمئن به الخاطر ويطمئن به البال، ولابد للإنسان أن يعرفَ هذه الثلاث الأشياء ويسلكها، أما إذا يريد الطريقة بلا شريعة فلا يجدها، وأن يريد الحقيقة بلا طريقة لا يدركها، وكلها أمورٌ يستطيع الإنسان إدراكها بتوفيق الله. إنما الأعمال أكثرها عادية، ما تحتاج إلىٰ تكليف ولا مشقة، وهي طريقة أصحاب اليمين، فإذا أردنا الخلافة التي ذكرها لنا حبيبنا عبد القادر؛ استخلافاً عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم؛ إنما بسلوك هذه الأعمال بالمستطاع، تعمل أولاً بالشريعة ما استطعت، أي: تحسن النية، ثم بآدابها حتىٰ تغوص، ثم تعمل الأوامر وتترك النواهي، ثم بعد ذلك ينكشف لك الأمر وتطمئن، ويظهر لك شيءٌ من عالم الملكوت وأنواره، فيطمئن القلب، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]. اليقين شيءٌ كبيرٌ، علىٰ الإنسان أن يحرص علىٰ كمال الإيمان وعلى كمال اليقين في قلبه، وعلىٰ كل الحقائق الثابتة التي ذكرها حبيبنا عبد القادر، الحقائق الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، وهي حقائق الإيمان،

حقائق الرسوخ، حقائق الآخرة، حقائق أركان الإيمان، كما سمعتموها، حقائق العلوم التي لا تُبدَّل وضد حقائق الأشياء الفانية، ما خلقنا للفانيات. .

وليست للغواني والأغاني ولا للشهواتِ الدنيوية
ولا للفانياتِ بأيٍّ معنىٰ ولكن للأمورِ العلوية

فالفانياتُ هذه كلها لماذا سميت فانيات؟ المال يفنىٰ والحياة تفنىٰ، والبحار تفنىٰ، كلها فانية، وسمّاها الله لهواً ولعباً، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦]، فانياتٌ تلعب بها ساعةً وتلهو بها ثم تذهب عنك، أو أنت تذهب عنها، وهكذا كلها الحياة الدنيا إنما هي لهوٌ ولعب، إذا تحققنا الأمر عرفنا حقيقته.

فيجبُ علينا العمل بالثلاث: نقيمُ أمورَ الشريعة بما استطعنا، ثم بآدابها، ونغوص فيها مع الآداب الكاملة، ثم نصل الحقيقةَ، إيمانَ حارثة، وإيمانَ الصحابة رضيَ الله عنهم، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»، وقال الإمام الحداد:

فما أُرجِّي اليومَ كشفَ كربةْ إلا أن صفا لي مشربُ المحبةْ
ونلتُ من ربي رضا وقربةْ يكون فيها قطعُ كل الأسبابْ
علىٰ بساط العلمِ والعبادةْ والغيبُ عندي صار كالشهادةْ
هذا لعَمْري منتهىٰ السعادةْ سبحان ربّي مَن رجاهْ ما خابْ

دائماً أنا أذكر قول بعض العارفين: «إن أكثرَ الناس يخرجون من الدنيا من غير معرفة كاملة»، مؤمنين، ليش فاتتهم المعرفة الكاملة؟ لأنه فاتتهم حقيقة الإيمان، وحقيقة اليقين، ونحن دائماً نسمع يا إخوان من كلام السلف الحقيقة،

إيش الحقيقة؟ معنىٰ الحقيقة الشيء الثابت الذي لا يتغير، سواءٌ كانت معلوماتٍ أو في أمور غيبية التي أخبرنا بها رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فينبغي لكل واحدٍ منكم أن يهتم بنفسه يفكر في هذه الأشياء حتىٰ ينال منها نصيب.

وسمعتُ أنا عن الحبيب أحمد بن حسن العطّاس كان يقول في تقسيم هذه القواعد: «شريعة، وطريقة، وحقيقة»، وكان يقول: «إسلام، وإيمان، وإحسان»، كلها مطابقة، ويقول: «عبادة، وعبودية، وعبودة»، كلها تتفق علىٰ معنىً واحد، هذه كلها مفاهيم وألفاظ جميلة، نبغي قَسْمنا منها، أما من ليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ:

علىٰ نفسه فليبكِ مَن ضاع عمرُه   وليسَ له منها نصيبٌ ولا سَهْمُ

علينا أن ندخل إلىٰ الطريقة بالإخلاص والتأمل والحضور، وبالآداب التي ذكرها لكم حبيبنا عبد القادر، ومنها بَا نصل إن شاء الله إلىٰ الحقيقة، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، إنما هي مطالبُ نتوجّه بها إلىٰ الله ومنه التوفيق.

وكلامي هذا إنما هو امتثالٌ للأمر، وإلا فإن ما قاله أخينا عبد القادر فيه الكفاية، علينا أن نتفهم كلامه حقيقةً، ونعود إلىٰ بيوتنا بنيات صالحة.

اللهم يا مَن وفّق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفّقنا للخير، وأعنّا عليه يا ربَّ العالمين». اهـ.

* * *

الكلمة الخامسة:

أما الكلمة الخامسة فقد ألقاها سيدي رحمه الله في الحفل الكبير الذي

أقامه السيد طٰه بن محمد السقاف لقراءة قصة المولد النبوي الشريف بمنزله العامر بجده في ٢٦/ ٢/ ١٤٠٧هـ.

قال سيدي:

«الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. يقول الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١-٣].

هذه السورة من السور القصار، لكن تحمل من المعاني ومن الأسرار ما لا يعبِّر عنه معبِّر، فيها يمتنّ الله علىٰ نبيه صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم بالعطاء والفضل الكبير بقوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾، العطاء بمعناه العام، والله سبحانه وتعالىٰ أعطاه كل شيء، والكوثر قال العلماء في تفسيره معانيَ كثيرة، فمنها الحوض المورود كما وردت فيه الأحاديث، ربنا يجعلنا إن شاء الله من الواردين عليه.

ومنها الخير الكثير والفضائل الكثيرة، وكلها تدخل تحت الكوثر، ومنها الذرية المباركة والنسل المبارك الكوثر الكثير، والله بارك فيهم. المعنىٰ العام هو: إنا أعطيناك الخيرَ الكثير الذي يشمل خيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة، أعطاه الله إياه وفوّضه إليه، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾، كما تعطي الواحدَ شيئاً وتفوّضه إليه، وما دام الله أعطاه الكوثرَ فهو يفرّق منه ويقسم علىٰ من وفّقه الله له، والمناسب للزمان والمكان، وهو القاسم صلواتُ الله وسلامه عليه وعلىٰ آله.

والعطية الثانية في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾

[الضحى:٥]، فهذا العطاءُ ليس فيه تعكير، وليس فيه تشويش، عطاءٌ مطلق، وقد فوّضه الله سبحانه علىٰ الكون كله، هذا هو العطاء الجزيل الذي يسرُّ حبيبنا محمداً صلىٰ الله عليه وآله وسلم ويسرُّنا من ورائه، كما قال قائلهم:

قرأنا في الضحىٰ ولسوف يعطي فسَرَّ قلوبَنا ذاك العطاءُ
وحاشا يا رسولَ الله ترضىٰ وفينا مَن يُعذَّب أو يُساءُ

فالعطاء من الله لنبيه ـ اللهم صلِّ عليه ـ مزيةٌ كبرىٰ، وحسبك ما ورد في حديث الشفاعة يوم القيامة عند ما يسجد فيناديه المولى: «ارفع رأسك وسل تعط، واشفع تشفع»، ثم لا يكتفي بهذا حتىٰ يشفّعه الله في فصل القضاء، ويسأل من الله سبحانه وتعالىٰ أن لا يبقىٰ أحدٌ من أمته في النار، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلىٰ آله، فيأتيه النداء من قِبَل الحق بتفويض آخر لمالك خازن النار فيخرج من في قلبه مثقالُ ذرةٍ من التوحيد، حتىٰ يقول مالكٌ: «ما عاد أبقيت شي من غضب ربك يا محمد»[1].

الشاهد أن العطاء من الله لنبيه مسألةٌ كبيرة تجعلنا نثق ونفرح ونُسرّ بحبيبنا اللهم صلِّ عليه وعلىٰ آله، وندخل إن شاء الله في شفاعته، واستفتحت بهذه الكلمة لِمَا انعقد في الخاطر من انشراح في مثل هذه المجالس المنعقدة بين إخواننا في جدة، وفي هذا الشهر، ربيع في ربيع في ربيع، جاد علينا خيره، وأشرق علينا نوره، ربيع يالك من ربيع، متكرر علينا كل عام، ويتكرر علينا في

---

(١) كما جاء في الحديث الذي رُوي عن ابن عباس رضيَ الله عنهما: «فما أزال أشفع حتىٰ أعطىٰ صكاكاً برجال قد بعث بهم إلىٰ النار، حتىٰ إن مالكاً خازنَ النار ليقول: يا محمد ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة» رواه الطبراني في «الكبير» (١٠: ٣١٧) (١٠٧٧١)، و«الأوسط» (٣: ٢٠٨) (٢٩٣٧)، والبيهقي في «البعث».

كل حين، ثمرةٌ ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، الحمد لله علىٰ هذه النعمة، وقد صدّرت بهذا الكلام لِمَا وقر في خاطري، ولِمَا أشعر به في كل محضر أحضره وأنظر إلىٰ إخواني هؤلاء، كلهم علىٰ مشهدٍ واحد ومقصدٍ واحد، وتشوّق وتلهف لهذه الفضائل كلها، ولا شك أن من جدَّ وجد، وأن من سعىٰ نال، وأن من نوىٰ فلكل امرء ما نوىٰ». اهـ.

* * *

الكلمة السادسة:

وقال رحمه الله هذه الكلمة السادسة في الحفل السنوي الذي أقامه السيد الفاضل علي بن عبد الله السقاف بمنزله العامر بجدة، والذي وافق مساء يوم الجمعة ٢٠/ ١٢/ ١٤٠٧هـ، عقب كلمة الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف.

واستهلها بقوله:

«القولُ واحد، واللسان واحدة، لسانٌ محمدية، لسانٌ نبوية، لسانٌ سلفية، سمعتموها ووعتها آذانكم، وما بقي معنا إلا التحقّق بها. ومن كمال الصفات التي ينبغي للإنسان أن يحققها ويعمل بها وهي: تعلّق، وتخلّق، وتحقّق، ثلاثة أشياء. يبتدىء أولاً من التعلّق، التعلّق بالله وذكره كما ذكر لكم الحبيب عبد القادر، التعلّق بالسلف وبذكرهم، واستَمدَّ من مددهم، وادْعُ لهم، ويبقىٰ دائماً ذكرهم في قلبك، ثم بعد ذلك التعلّقِ، التخلُّقُ وهو التخلق بشيءٍ من أخلاقهم أسلُكْها وامشِ عليها، وهذا هو ثمرة التعلّق، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، فإذا تخلّق بالأخلاق الحسنة وصل الحقيقة وانكشفت له الأمور، وارتفع عن قلبه الحجاب، وشاهد الأنوار، وهذه كلها

سهلةٌ لمن وفقه الله سبحانه وتعالى وأراد له الخير، يتعلّق ويتخلّق ثم يتحقّق، الله يوفرها كلها لنا أجمع إن شاء الله، وما بقيَ معنا إلا حسن الاستماع وتلقّي ما يَرِد في هذه الحضرة المباركة من وارداتٍ وبركات، الحمدُ لله اجتماعات جمعتكم عليها حسنُ النية وحسن الطوية، وحضور الرجال الذين أمددنا الله بوجودهم، الحمد لله علىٰ هذه النعمة، الحمد لله علىٰ هذا الفضل، ذلك من فضل ربي. ما بقيَ معنا إلا حسنُ التلقّي، والدخولُ في أحد الأربعة الذين ورد فيهم: «كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك»[١].

كن عالماً، إذا قدّر الله لك العلمَ وسعيتَ وجدّيتَ أصبحت عالماً فقد سبقت لك السابقة.

أو كن متعلّماً، إذا ما أدركتَ رتبة العلماء، كن متعلّماً يسأل عن دينه وعن أحواله، كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً.

ثالثُ رتبة كن **مستمعاً** إذا حضرتَ المجالس الطيبة، واحرص علىٰ حضور مجالس العلم واستمع فيها، والمستمع شريكُ القائل، والمستمع يحصل له ثمرة الاستماع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. إن في ذلك لذكرىٰ من تلك الآيات والمواعظ والمذكرات، إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب، وهبه الله القلبَ الطيبَ الصافي، أو ألقىٰ سمعه ولم يغفل وهو شهيدٌ حاضرُ القلب، وبحضور القلب يستفيد ويستمدّ وتَرِد عليه الواردات.

---

(١) رواه البيهقي وابن عبد البر عن أبي بكرة مرفوعاً، ورواه أبو نعيم والطبراني وآخرون. «كشف الخفاء»: (١:١٦٧)، ولفظه فيه: «اغد عالماً. . .» الحديث.

المرتبة الرابعة: **المحبة**، وهذه مرتبة العاجز، ومع ذلك فهو داخل في الدائرة، لأنه يحب أهلَ العلم ويحبّ أهل الصلاح ويحب أهل الفضل، ويمدّهم ويساعدهم، والمحبة ما هي مجرّد قولٍ باللسان فقط، يحبهم من يساعدهم علىٰ نشر الدعوة، ويساعدهم علىٰ فعل الخير.

فهؤلاء الأربعة كلهم ناجون ومشتركون في الأجر والثواب، الله يجعل لنا منها نصيب إن شاء الله، العالم والمتعلم والمستمع والمحب، ولا تكن الخامس فتهلك إذا لم تكن واحداً من هؤلاء الأربعة، لا عالماً ولا متعلماً ولا مستمعاً ولا محباً، فإن في الخامس الهلاك والعياذ بالله. اللهم احفظنا وسلمنا يا الله وبارك لنا في هذه المجامع، والربُّ جواد والجواد لا يبخل، وقد تعرّضنا وقد قمنا وقد انطرحنا بين يديه، والمدد حاصل، والرحمات حاصلة، والبركات حاصلة، وكل واحد يأخذ علىٰ قدر مشهده».

ثم قال رحمه الله:

«وكثيرٌ من أسلافنا إذا جلسوا في بعض المجالس يلتمسون من الله التوبة لأنها من مواطن القبول، والتوبة معناها الرجوع إلىٰ الله، وترك ما كان عليه الإنسان من مخالفاتٍ ومن معاصٍ، وينوي أن لا يعود إلىٰ المعصية، وكلنا متلبسين بالمعاصي، من منا سالمٌ من المعاصي؟ فعلينا أن نتوب في هذه الساعة ونجزم بالتوبة، ونعقد عليها، والباقي علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ نتوب إلىٰ الله من ذنوبنا السالفة والحاضرة، ونرجو أن يحفظنا في المستقبل ويوفقنا للثواب إن شاء الله. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٩٠]. لنقول كلنا: تبنا إلىٰ الله . .

اللهم تُب علينا توبةً نصوحاً، وزكِّنا بها قلباً وجسماً وروحاً، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه».

* * *

الكلمة السابعة:

أما الكلمة السابعة والأخيرة مما نقلناه من مجموع «الدرر النفيسة» فقد جاءت تذييلاً على كلمة السيد الفاضل جعفر بن علوي بن محمد المحضار التي ألقاها في الحفل السنوي الذي أقامه السيد محسن بن علوي السقاف في منزله العامر بجدة، وكان ذلك يوم الجمعة ٢٧/ ١٢/ ١٤٠٧هـ.

قال سيدي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته:

«الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله علىٰ ما وفقنا لحضور هذا المجلس المبارك وهذه المناسبات الطيبة، وهذه التنزلات الإلهية فيه، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

لقد سمعتم ما انهلَّ علىٰ أخينا جعفر من وارداتِ الغيب وكلام السلف، والحقيقة إنه كلامٌ يُضَنُّ به علىٰ غير أهله، ولا يُفشىٰ إلا لأهله، وإن شاء الله نرجو أن نكون من أهله.

والسرّ الذي ذكره هو من أسرار الله الغيبية، سُمي سراً لأنه لا يدرك بالنظر، ومنه تظهر آثاره بعد وقوعه، ومنه ما يبدو لصاحب السر من أمور الغيب فيخبر عنها، ومنه ما يَرِد إليه من بشائر ومبشرات فيخبر عنه، ومنها ما يُستجاب له من الدعوات وهكذا.

وأنواع السر كثيرة، ولا يُفشىٰ إلا لأهله كما ذكر أخينا جعفر في كلام الإمام الحداد الذي لا يُنشر إلا عند من يعرفه:

إنّا لنعلمه ولم نَحْظَ به ذَوقاً لما مَعَنا من التشتيتِ

قال السيد عبد الله مدهر: إن الإمامَ الحداد قد وصفه وعرفه ولكنه في تلك الحالة يشتغل في الدعوة إلىٰ الله، وهو التشتيتُ الذي ذكره، ما هو مثل تشتيتنا، قال: «لما معنا من التشتيت» من نشر الدعوة، والاشتغال بها وبالإصلاح العام. ومن نفعه للعام ممّا وقف به عن إفشائه، وإلا فقد عرفه، وقد يكون مراده بالسر مقاماً أعلى لا يزال الإنسان يطلبه، لأنه كلما ارتقىٰ إلىٰ مرتبةٍ تظهر له مرتبةٌ أخرىٰ، والجود والفضل والمراتب غيرُ متناهية، وهكذا كلما نال مرتبةً طلب ما هو فوقها إلىٰ ما لا نهاية، قد يُحمل قوله: «ولم نحظ به» من المراتب التي لا تتناهىٰ، وعلىٰ كل حال فقد سمعنا ما لذّ الاستماع له، ورجونا الله سبحانه وتعالىٰ أن يفتحَ لنا في هذا السرّ حتىٰ نذوقه إن شاء الله.

يا ربّ أصلح قلوبنا حتىٰ نذوق هذا السر، وأنزل علينا من سر ذلك السر، حتى تحيا قلوبنا، ونذوقَ ما ذاقه أهل المعرفة والحمية من كل عارفٍ وصل، وعلىٰ كل حال هذه المجالس هكذا تضم من كل نوع، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٢]، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ثم ذكر الأخ جعفر الذِّكر، وذكر قولَ الإمام الحداد الذي قال فيه:

وإن رمتَ أن تحظىٰ بقلبٍ منوَّرٍ نقيٍّ عن الأغيار فأعكف علىٰ الذكرِ
وثابِرْ عليه في الظلام وفي الضِّيا وفي كل حالٍ باللسان وبالسّرِّ

فـإنـك إن لازمتـه بتـوجُّـهِ   بدا لك نورٌ ليس كالشمسِ والبدرِ
ولكنـه نـورٌ مـن الله واردٌ   أتىٰ ذكره في سورة النور فاستَقْرِ

تكفينا هذه الأبيات في فضل الذكر، طريقةٌ سهلةٌ قريبة، أقرب من كل شيء يوصلك إلىٰ هذه المراتب.

وإن رمتَ أن تحظىٰ بقلبٍ منوَّرٍ   نقيٍّ عن الأغيار فاعكف علىٰ الذكرِ

ثم يبدو لك النور الذي تصل به إلىٰ حضرات القدس، وتنكشف لك به الحجب، وترىٰ به ما يرىٰ المقرّبون مما يطمئن به البال، فاعكف علىٰ الذكر، والذكر معروفٌ بأنواعه، حرّره لنا العلماء كما رووه عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وتركه عجز، وتركه بطالة، وتركه تقصيرٌ من الإنسان، بعد ما يظهر لك في الكلمة الواحدة تأتي بها أو في جملة أو في فصل من فصوله، أو في حزب من حزوبه تنال به المراتبَ العزيزة من غير رياضة، ومن غير مجاهدة، ومن غير كَدّ، ومن غير نكد، تحصل علىٰ هذه المراتب العالية، فلماذا تترك الذكر؟ بينما الواجبُ تجعله ديدنك، وتجعله طريقك دائماً، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]، هذه سبيلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إذا تريد ما عنده. قد جعل لك الأسماءَ تدعوه بها، وهي المفاتيح، فإذا أردت أن تصل إلىٰ الحضرة فهل تركب سيارة، أو تمشي تركض؟ لا، إنما تدعوه وتذكره بهذه الأسماء، فتصل إلىٰ حضرة الحق سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهي مفاتيح، والذكر أيضا هو مفتاح، والذكر هو نورُ السريرة، والذكر هو الذي يجمعك بالمذكور وهو الله سبحانه وتعالىٰ، فأوصي نفسي وأوصيكم أيها الإخوان بالمداومة علىٰ الذكر، بسائر أنواعه، وخصوصاً ما حرّره العلماء

الأخيار رضيَ الله عنهم في كتبهم، وفي أورادهم، وفي مجامعهم، فلازموه وهو سهلٌ علىٰ من يسّره الله عليه، وهو الذي يبعث النور، وهو يبعث الدواعي، وهو الذي يحرّك الأشياء، لكن نحتاج إلىٰ التوفيق، يا ربّ بالتوفيق، اللهم يا مَن وفّق أهلَ الخير للخير وأعانهم عليه وفّقنا للخير وأعِنّا عليه، وعلىٰ كل حال هذه كلمة قلتها كمُلحقٍ لكلام الأخ جعفر، وانبساطٍ في الكلام، وسيتِمّه ويوفيه حبيبنا عبد القادر جزاه الله خيراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



من كلام سيّدي الوالد رحمه الله

من كلامه في قول الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، قال رضيَ الله عنه:

«فبشِّر عبادي يا محمد، والبشـارة هنا هي الإخبار بخير، والإخبار بما يسُرّ، مِمَّن هذه البشـارة؟ من الله عز وجل الذي بيـده ملكوتُ كل شيء، فبشّر عبادي المنتسبين إليَّ بالعبودية والإنابة والتوجّه، الذين يستمعون القول؛ أي: قولَ الإرشاد، قول الإصلاح، قول الهداية، قول العلم، وهذه المواعظ وهذه المجالس، وغيرها من مجالس الخير، فيتّبعون أحسنه، إذا استمعوا يتّبعون أحسنه من المأمورات ومن المنهيات، إذا أمرهم بأمر أو نهاهم عن نهي أو أرشدهم إلىٰ الخير يتبعونه، فهذه هي فائدة الاستماع لقول القائل، ولخطبة الخطيب، ولحكمة الحكيم، وهل هو مجرّد إصغاء الأذن؟ لا ليس مجرّد إصغاء الأذن والاستحسان فقط، وإن كان في ذلك خير، ولكنّ البشارةَ الكاملةَ برضىٰ الله سبحانه وتعالىٰ الذي هو خير الأماني وخير المطلوبات وخير الفضائل هي الاستماع بالإصغاء والمتابعة الكاملة».

* * *

ومن كلامه نفع الله به في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤]، قال رضيَ الله عنه:

«نرجو الله أن يجعلنا من عباد الرحمن، إضافةَ تشريف ونسبةً شريفة، يا خيرَ عبودة، والاتجاه والتشريف إلىٰ الرحمن سبحانه وتعالىٰ من الذي يقدر يقابلها، وأي شيء أفضل من هذه العبودية:

لا تدعُني إلا بيا عبدها ‏ ‏ ‏ ‏ فإنه أفضلُ أسمائي

اللهم اجعلنا عبيداً لك لا لأنفسنا، ولا للدنيا، ولا للشيطان، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، أي: لا تطيعوه فيما يدعوكم إليه من معصيتي ويدلكم علىٰ سلوك طريق الغواية.

اللهم اجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، أول صفةٍ من صفاتهم التواضعُ والتخلّق بالأخلاق الحسنة لا يرفع أحدٌ رأسه ولا يتكبّر، كما في قصة حكيم لقمان حيث قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧] يمشي علىٰ الأرض هوناً وذلك يكون من عدم الكبر، لأن الكبرَ هو البلاء والعياذ بالله، لا يجتمع الكبر والإيمان في قلب المؤمن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، وكبرت بالكبر المصائب والعياذ بالله، ما أحلىٰ النفس المتواضعة، وما أجلّها بالقرب من الله، وما أدعاها إلىٰ التآلف، ولا يكون التآلف إلا بالتواضع، تواضعوا ولا تتكبّروا، كما جاء في الحديث عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ما أحسن التواضعَ في الإنسان لا سيما لمن هو أسنُّ منه، ولأهل الفضل والعلم ولأهل الخير والصلاح، ماذا يضيرك إذا تواضعتَ لهم وخاطبتهم بالكلمة الطيبة؟ فإذا كنتَ كذلك وجبت المحبة، وتُبُودِلت المودة، وحصل التآلف، وكل ذلك نتيجة التواضع، وإذا خاطبهم الجاهلون، بفحش القول قالوا سلاما، دفعاً للشر، وطلباً للثواب، ﴿وَٱلَّذِينَ

يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، طمعاً في رضاه، وطمعاً في رحمته، وطمعاً فيما يفيض علىٰ المتعلّقين به من الأنوار والبركات ومن القوة ومن كل خير.

كانوا مع الله، وشربوا من كأس محبته، وباتوا سجداً وقياماً يتلذّذون بالعبادة ويتلذّذون بالطاعة، لا يغلبهم النوم ولا يغلبهم الشيطان ولا تغلبهم الشهوات، جذبتهم الرعاية الإلهية، وسقاهم من كأسه المحبة، وظهرت لهم أنوار القرب، اللهم اجعلنا منهم».

* * *

ومن كلامه رحمه الله وأسكنه فسيح جناته في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال رضيَ الله عنه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي: عملوا بجد واجتهاد، ﴿فِينَا﴾ أي: في عبادتنا والقرب إلينا، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: طريقَ المعرفة إلينا حتىٰ يعرفونا، يعرفوا جلالنا وكمالنا. قال بعضهم: طرق المعرفة إلىٰ الله علىٰ عدد أنفاس الخلائق، الإنسان يصل إلىٰ الله بطرقٍ كثيرة، يصل إلىٰ الله بالإيمان، يصل إلىٰ الله بالعلم، يصل إلىٰ الله بالذكر، يصل إلىٰ الله بالخوف من الله، بالعفّة، بترك الحرام، هذه هيَ السبيل، أي سبيلُ الوصول إلىٰ الله، فالذكر سبيل، والعلم سبيل، والجهاد في سبيل الله سبيل، وكل هذه السبل موصلةٌ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ».

ثم قال نفع الله بعلومه: «نحنُ نؤمنُ بالله، ولكنّا ما عرفنا الله حق معرفته، ومتىٰ عرفناه حق المعرفة تطمئنُّ قلوبنا وتخشعُ جوارحنا ويُستجاب دعاؤنا،

ونعمل بموجب ما يتطلب الإيمان من أعمال الطاعة، ونستمر عليها دائماً، فإذا فعلنا هذا قويَ إيماننا وانطرح النور في قلوبنا، وصرنا من المؤمنين الثابتين المقرَّبين عند الله سبحانه وتعالى، فإذا رآنا ربنا مقبلين عليه أقبلَ علينا.

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] قال رضيَ الله عنه:

«المحرومُ مَن حرم معنىٰ هذه الآية ولم يتأملها، وهذا القرآن الكريم كتابٌ من الله إلينا بواسطة نبينا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فلابد أن نتفهمّه ونسأل عن معانيه لأن لا يكون حجةً علينا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، شهادةٌ من الله لنفسه أن ما في الوجود خالقاً ولا رازقاً غيره، والملائكة شهدوا بشهادة الله أن لا إله إلا هو، وأولو العلم يعرفون الألوهية أنه الخالق والمدبر والمحيط، فشهادتهم مربوطةٌ بشهادة الله، وكل واحدٍ علىٰ قدره من العلم شهد بشهادة الله، وشهد بشهادة التوحيد، الشهادة الكاملة المنجية من العذاب والمقربة إلىٰ حضرة الله سبحانه وتعالىٰ، وكل مؤمن وكل مسلم لازم يأخذ بهذه الشهادة».

* * *

ومن كلامه نفعَ الله به في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، قال رضيَ الله عنه:

«خطابٌ من الله سبحانه وتعالىٰ للنفس المطمئنة، وما هي النفس المطمئنة؟ النفس المطمئنة هيَ التي اطمأنت للعمل الصالح، اطمأنت بالتوحيد، اطمأنت بالأذكار، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، النفسُ المطمئنة هي التي اطمأنت بالأعمال الصالحة فصارت هذه الأعمال محبوبةً لها ومرضيةً عندها راضيةً بها، فلهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر:٢٧-٢٨]، هنا كانت مطمئنةً بدينها مطمئنةً ببرها وبأعمالها وصلاتها وبكل ما يقربها إلىٰ الله، صافيةً مهذَّبة، فإذا حال وجهها عن الدنيا يقول لها الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر:٢٨]، عن حالكِ التي كنتِ فيه بما ترينه من ثواب الله، ومن تقرّبك إلىٰ الله، ومن الأنوار التي أمامها، مرضيةً عند الله سبحانه وتعالىٰ، وما جزاؤها؟ ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ الذين رحمتهم وكانوا عبادي حقاً، عبادَ الله حقيقة، ما هم عباد الشيطان ولا عباد الأنفس، عباد الله حقاً، فذلك شرف عظيم أن تقبل عبودية ادخلي في عبادي المرضيين، في عبادي الصالحين، في عبادي الأولياء، في عبادي المرفقين، وادخلي جنتي، هذا جزاؤها تدخل الجنة التي عرضها السماوات والأرض». ثم قال نفع الله به:

«إنك لن تصلَ إلىٰ النفس المطمئنة حتىٰ تجاهد نفسك، النفسُ أصلُها أمارة بالسوء، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣]، النفس ما تحب إلا السوء، ما تحب إلا راحتها، ما تحب إلا اللغو، ما تحبّ إلا الاستعلاء والطغيان، هذه طبيعة النفس، فإذا هذّبها الإنسان صارت النفسَ اللوامة، هي نفسٌ واحدة ولكن تترقىٰ من حالٍ إلىٰ

حال، أولاً كانت أمارةً بالسوء، فزجرْتها وهذّبْتها وخوفْتها، صارت تلومك علىٰ بعض الأشياء، فسُميت النفس اللوامة، قال تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢]، التي تلومك إذا فعلت المحرَّمات فتخلِّي الباطل وراءك، وتخلِّي الشبهات وراءك، والأضاليل وراءك، فتدخل في النفس المطمئنة التي اطمأنت مثل نفوس الأولياء والصلحاء والأخيار والطيبين وأهل الطاعة ومن تقرّب إليهم ومن جالسهم ومن جالس العلماء وأهل الفضل، وكم في الأمة المحمدية من أهل النفوس المطمئنة اطمأنت وحنَّت تلك النفوس إلىٰ ربها فأدخلها الله في عباده وفي جنته، الله يجعل لنا حظاً من تلك النفس إن شاء الله». ثم قال رحمه الله:

«روي في بعض الآثار أن الله لما خلق النفس وطبيعتها وما فيها من الهوىٰ وأراد سبحانه أن يعرّفها قدرته وأن يبين مراتب الناس وطباع الأنفس وطباع الأهوية وتعريفهم أن النفس لا تلين إلىٰ الحق إلا بتهذيبها ومجاهدتها، فخلقها وطبيعتها الخشنة وعلائقها الدنيوية النفسية وعلائق الهوىٰ، وكانت أمامه، فقال لها يا نفس: فسكتت، فقال لها: أقبلي، فأدبرت، فقال لها: أدبري، فأقبلت، أظهرت عصيانها لربها وخالقها من أول مرة، فقال الله: بعزتي وجلالي لأعذبنك عذاباً تعرفين به قدر نفسك، فغمسها في بحر الجوع كذا سنة، فلما أخرجها وهي تنتفض وأقامها أمامه قال لها: يا نفس. قالت: لبيك يا رب، فجاءت هرولة، فقال لها: أقبلي، فأقبلت هرولة، فقال لها: من أنا؟ قالت: أنت الله الذي لا إله إلا أنت خالقٌ كل شيء، هذا مثل ما روي في بعض الآثار».

وذكر قول الحق سبحانه وتعالىٰ حاكياً عن نبي الله يوسف ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ

نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، فلهذا ينبغي للإنسان أن لا يترك أمر نفسه، فالأكابر يخافون من أمر النفس هذا، والإمام الحداد يقول:

يا ويحَ نفسي الغويةْ ... عـن السبيـل السَّـويـةْ

أضحَـت تـروِّجْ عليـهْ ... وقصدُها الجاهْ والمالْ

يـا ربِّ قـد غَلَبتنـيْ ... وبـالأمـانـي سَبَتْنـيْ

وفـي الحظـوظ كَبَتْني ... وقيّـدتنـي بـالاكبـال

قـد استعنتُـك ربّـي ... علـىٰ مـداوةْ قلبـيْ

وحـلِّ عُقـدةِ كَـربـيْ ... فانظر إلىٰ الغَمْ يَنْجالْ

* * *

ومن كلام سيدي رضيَ الله عنه في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت:٣٠] الآية، قال رحمه الله تعالىٰ:

«اللهم اجعلنا ممن قالوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قولاً حقيقياً وأقرُّوا بالربوبية أنه لا إله إلا الله باللسان وبالقلب، أكثر ما يطلب الإنسان في الدنيا هذه الضيافة، وعاد شيء أحسن من هذه الضيافة، وهذه البشارة يُسعىٰ في الدنيا ويُجتهد؟! والمقصد هي الآخرة، وقبل ما يخرج منها لا يدري مقبل علىٰ أي شيء، فالمؤمن الذي قال (ربي الله) اعترف لله بالربوبية وعبَدَه ثم استقام علىٰ الشريعة وعلىٰ الطريقة الحسنة ربنا ما يخيبه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]، وتنزل عليه الملائكة، بعضهم قالوا: إن الله يرسل الملائكة إلىٰ العبد المؤمن إذا كان في حالة المرض وفي حالة الموت فتبشّره بلقاء

الرب الكريم، وتريه أعماله الصالحة، ويعطونه السلام من الله والبشرىٰ ألاّ تخافوا من المستقبل ولا من سؤال الملكين، ولا تحزنوا علىٰ ما فات وإن خلفت عيال من ورائك، الله سبحانه وتعالىٰ بايتولاهم وبايصلحهم، الله يتولىٰ الصالحين، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، تلك الساعة وهو في سكرات الموت يحصل علىٰ هذه البشرىٰ، هذه هي السعادة وهذه الخاتمة السعيدة، والبشارة تجيء من فوق عند المقابلة وعند الخروج من الدنيا ثم تقول الملائكة نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا نتولاكم ونصرفكم ونلهمكم وحفظةً لكم، وفي الآخرة كذلك نتولاكم.

أَعـطِ المعيّـةَ حَقَّهـا ... والـزم لهـا حُسن الأدبْ
واعلَـم بـأنـك عبـدُهُ ... فـي كـل حـالٍ وهـو رَبْ

وإذا اعتمدت علىٰ الله واتخذته وكيلاً كفاك سبحانه ـ ربُّ المشرق والمغرب ـ بقوته وقدرته لا إله إلا هو، ليس له منازع، فاتخذه وكيلاً، اعتمد عليه في أمورك واطمئن بوعده، يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

ولمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرَّجا مني لعفوكِ سُلّما
تَعـاظَمنـي ذنبـي فلمـا قـرنتُـهُ ... بعفوك ربي كان عفوكَ أعظما

يقول: لما عَظُمَ ذنبي وسُدَّت الطرق عليّ جعلتُ الرجاء في الله طريقاً لي، ما معي عمل خالص، والقلب قاسي، ولما عَظُم ذنبي لقيت عفوَ ربي أكبر وأعظم من ذنبي، هكذا المؤمن يجعل الرجاء في ربه ويعتمد عليه سبحانه وتعالىٰ، والرجاء لا يكون إلا ممن أحبه ودعاه؛ فيرجو ربه ويخاف عذابه».

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه في قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] الآية.

قال رحمه الله:

«﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فصلت: ٣٣] ، دعا الناس إلىٰ عبادة الله، ودعا الغافلين إلىٰ ذكر الله، ودعا الكافرين إلىٰ الإسلام والإيمان، ودعا بسائر الدعوات التي تقرّب الناس إلىٰ ربهم وتجمعهم علىٰ ربهم وعلىٰ دينهم، هذه الدعوة التي بعث الله بها النبيين والمرسلين وجعلها سائقهم وقائدهم إلىٰ جنات النعيم، عليها أُقيمت القِبلة وانتشرت الملة، فلا أحدَ أحسنُ قولاً من الذي دعا بهذه الدعوة إلىٰ الله وجهر بها ونشرها بين الناس، فالدعاة هم نوّاب خير المرسلين صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فمن أحسن قولاً ممن هذه صفتُه ودأبُه الذي هو دأب الأنبياء والمرسلين ودأبُ عباد الله الصالحين، فهم الفائزون بالثواب العظيم ومن تبعهم ومن اهتدىٰ بهداهم إلىٰ يوم الدين.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، دعا الناس، من القرب إلىٰ الله وإلىٰ طاعة الله وإلىٰ عبادة الله وإلىٰ توحيد الله وإلىٰ كل ما يقرِّب إلىٰ الله من أمور الدين التي أتىٰ بها سيد المرسلين صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ حتىٰ يؤكد ما قاله فعله، لأن الإنسانَ إذا دعا بدعوة الإسلام وعمل بها كانت أوقع في النفوس وأدعىٰ إلىٰ القبول، لأنه لا يَفيض الإناءُ إلا إذا امتلأ، فالداعي إلىٰ الله إذا كان عاملاً بما دعا به استجاب له الناس وعرفوا أنه صادق في قوله، لأنه يدعو بما هو حق، فالعمل الصالح هو من أعظم شروط الداعي إلىٰ الله، ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال: ربيَ الله، آمن بالله، ووحّد الله، وقال ذلك وملأ قلبه بتوحيد ربه ومعرفته، وجهر بذلك في

النوادي والبوادي وفي كل مكان، نشراً للدين وإغاظةً للمشركين، ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، هذا ميزانٌ من الله أعطاه للعامل وللعاقل، إلىٰ أين توصلك الحسنة وإلىٰ أين توصلك السيئة، الحسنة ترفعك درجاتٍ وتقربك إلىٰ الله وتقرّبك إلىٰ الخير وتحبّبك إلىٰ الناس وتحبّبك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وبالعكس السيئة تردك إلىٰ أسفل السافلين وتبعدك من حضرة الحق سبحانه وتعالىٰ، فبمجرد ذكر الحسنة والسيئة يعرف التفاوت بين الأمرين والحث علىٰ عمل الحسنة ومجانبة السيئة حتىٰ في الدعوة.

وذكر هنا هذه الدعوة لمناسبةٍ ولحكمةٍ خفية، وهو أن الداعي إن يدعو بدعوة حسنة بلطف يستجذب قلوب الناس ويدعوهم بالحسنىٰ ويدع لهم، ويأتي الغافل فيبش في وجهه ولا يأتي بكلام ينفره، هكذا شأن الداعية إذا أراد أن يجذب الناس إلىٰ الخير ويدعوهم إلىٰ الخير، يلين لهم جانبه، ويأتي بالكلام الطيب حتىٰ يقبلوا عليه، هكذا يقول الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وهذا خُلُقٌ ثاني إذا وقع بينك وبين أحد صراع أو نزاع أو مخاصمة ، لا تستعجل علىٰ الشر ولا تستعجل علىٰ البطش، ادفع بالتي هي أحسن حتىٰ يعرف إن كان مقصِّراً فإن كلمْتَه بالحسنىٰ يندم ويتراجع، فالله أمر المؤمنَ أن يدفع بالتي هي أحسن، وبهذا تنتظم الدعوة، وهكذا صفات الداعين فلا تجعل الانتقام من طبيعتك، إنما الانتقام من طبيعة السِّباع.

وأروي في هذا قصة: أن إعرابياً جاء إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وقد قرض أبياتاً من الشعر حكيمةً جميلة، فلما أعادها علىٰ نفسه

قال: والله هذه الأبيات لا يقولها أحدٌ ولا أقدّمها لأحدٍ إلا لمحمدٍ الذي يعرف الكلام، فأتىٰ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا محمد إني قُلت أبياتاً صغتها وقرضتها ولا أرىٰ لها كفؤاً غيرك وأحب أن تستمع إليها، فقال له النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «قل يا أخا العرب»، فقال:

فحَيِّ ذوي الأضغانِ تُسلىٰ نفوسُهم ... تحيتُك الحسنىٰ فقد يُرفَعُ الثِّقلْ
فإن هتفوا بالقول فاعفُ تكرُّماً ... وإن خنسوا عنك المقالَ فلا تَسَلْ
وإنّ الذي يؤذيكَ منه استماعُه ... كأنّ الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

فالنبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم استمع إليه ثم قال له: «أحسنت يا أخا العرب، وأنت ادنُ مني أتلو عليك شيئاً من القرآن»، فدنا من النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم فتلىٰ عليه هذه الآية: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]».

ثم قال سيدي رحمه الله: «نحن الآن بين دعاةٍ مختلفين، دعاةِ حق ودعاةِ هدىً ودعاةِ رحمة ودعاةِ شفقة، وبين دعاةٍ آخرين، دعاةِ شر ودعاةِ شقاق ودعاةِ فتنة، كلهم مسلمون وكلهم يقولون نحن دعاةٌ إلىٰ الله، الفرقُ بينهم أن الداعيَ إلىٰ الهدىٰ عندما يأتي إلىٰ قوم أو جماعةٍ ينصحهم ويدعوهم ويذكّرهم بالله وبرحمة الله، يذكرهم برسول الله وبدعوة رسول الله ويحثّهم علىٰ التعاون وعلىٰ الأخوة الإسلامية ويحثهم علىٰ العفو، فتلين قلوبهم وتخشع وتزيد المحبة ما بينهم، وأما الداعيةُ الآخر فيجيء إلىٰ أمةٍ مسلمة فيعظهم بطريقته الخاصة، وينصحهم بعد أن يوصمهم بالشرك والبدع وغير ذلك من التهم التي تشتت ولا تجمع بين المسلم وأخيه، وصاحبته وبنيه، فتنة وشقاق، ما هكذا دعوة الإسلام، وفي الحديث عن

النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من شق علىٰ أمتي فاشقق عليه»[١]، ما هكذا الدعوة!

أورَدَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِلْ ما هكذا يا سعدُ تُورَدُ الإبـلْ

دعاةٌ يفرقون بين المسلمين ويقطعون ما بينهم عرىٰ المودة والأخوة والمحبة، وقد قال فيهم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «إنّ فيكم دعاةً واقفين علىٰ أبواب جهنم، من أجابهم أوردوه فيها»[٢]، أو كما قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم، الله يردنا إليه مرداً جميلاً، حتى نكون دعاة مخلصين، هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلّين، إنه سميع قريب».

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه في بعض معاني التحصّن والتعوّذ من الشيطان الرجيم بسورة الناس، قال رحمه الله تعالىٰ:

«الربوبية وصفٌ عظيمٌ إذا كنت تتعوّذ برب الناس الذي يربّيك ويتولاك، فتتحصّن به وتقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وفوق هذا ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، الربوبية والملك والقوة. والمقصودُ والمنتهىٰ في

---

(١) من حديث رواه مسلم (١٨٢٨)، ولفظه عنده: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه. . .» الحديث.

(٢) من حديث حذيفة بن اليمان في ذكر فتن آخر الزمان عند الشيخين؛ البخاري (٣٤١١) ولفظه: «دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: صفهم لنا يا رسول الله؟ فقال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. . .» الحديث، ومسلم (١٨٤٧).

لحضور، وفي إلقاء القِيادِ إليه لا إله إلا هو، الذي لا يُعبد غيره، ولا يُقصد سواه، وليس له شريكٌ ولا مضاد.

فالله أمرنا أن نتحصّن من الشيطان الرجيم ووسوسته بهذه الثلاثة الأسماء، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]. ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، وعداوته ظاهرة، وما يأتينا إلا في الصلاة وفي الأوقات الفاضلة وفي مواطن الحضور ومواطن العبادة ومواطن الخير، حتىٰ يفسد علينا صلاتنا ويفسد علينا حضورنا، حتىٰ يشغلنا عن ذكر الله وعن لذة المناجاة وعن طلب القرب من الله، لتكون عبادتنا كلها وسوسة، ولكن الله علّمنا التحصين العظيم، وهو التحصين بالثلاثة الأسماء وهي من أوصافه، الربوبية والملكية والألوهية، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

لِمَ سُمّي الخناس؟ لأنه يخنس ويغيب إذا ذكرتَ الله وتقوَّيتَ بالله، فبالذكر يهرب ويخنس، ولكن يبقىٰ متخفياً. فإذا غفلتَ قليلاً عاد، وإذا رآك تذكر الله سكت واختفىٰ، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥] في مكان داخلَ صدورهم، أي في قلوبهم وفي خواطرهم، الله سبحانه وتعالىٰ سلّطه يجري في الإنسان مجرىٰ الدم، ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، المُوَسْوِسُون نوعان: منهم من الجن ومنهم من الإنس، كما قال الله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]، فالتعوّذ حتىٰ من شياطين الإنس، فهناك شياطين الإنس إذا حضروا مجلسَ خير يثقل عليهم، فيصدون الناس عن الحضور وعن الاستفادة مما يجري فيه من النفع وما يحصل من الاستفادة.

يا رب الناس، يا مالك الناس، يا إلٰه الناس، اكفِنا واصرِف عنا شرَّ الوسواس الخناس، من الجِنة والناس، يا ربّ العالمين».

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٤]، قال رحمه الله:

«يقول الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ينبهنا الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية علىٰ سبيل السلامة وسبيل النجاة في هذه الحياة، لأن الإنسان في هذه الحياة عندما يوجد فهو معرَّضٌ لأمرين، إما سلامة وإما ندامة، بمقتضىٰ ما سبق في الأزل من شقاوة أو سعادة، فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد، فالله ينبهنا في هذه الآية ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ السعيد الذي تزكّىٰ، يعني الذي صفّىٰ نفسه وصفّىٰ قلبه بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وبذكر الله وبالأعمال الصالحة، فيتزكّىٰ ويتخلّص من الآثام، ويتخلّص من المعايب، ويتخلّص من كل ما يباعده عن الله سبحانه وتعالىٰ، وأعظم شيء يُصفّىٰ به القلب هو نور الإيمان، والإيمان هو كمال التصديق بما جاء به رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم من الدين، فالإيمان هو شجرة النجاة وشجرة الحياة وشجرة السعادة التي يعبر عنها بكلمة الشهادة وكلمة التوحيد: (لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله)، فإذا صفّىٰ الإنسان قلبه وصفّىٰ نفسه بالتوحيد والإيمان دخل في التزكية واستحق الفلاح واستحق الرعاية من الله سبحانه وتعالىٰ، وكل واحدٍ يستطيع أن يزكي نفسّه، وتزكيتها بالأعمال الصالحة والنيات الصالحة وباتباع الشرع الشريف، هذا هو طريق التزكية وطريق التصفية، وهو دليلُ الفلاح ودليل السعادة، وبالعكس والعياذ بالله،

الذي يترك نفسه هملاً ولا يصفّيها ولا يجتهد في تزكيتها يذهب وراء شهواتها ولذاتها وما يكسبه من الآثام حتىٰ يكون شقياً.

اللهم اجعلنا من عبادك السعداء واجعلنا من الذين كتبتهم في فريق السعداء، إنك ولي ذلك والقادر عليه».

* * *

وقال رضيَ الله عنه:

«ذكرَ الله في القرآن الكريم أقسامَ الخلق وأنواع الخلق في مقرأ واحد، وهم أربعة أقسام، **الأول**: كافرٌ كامل، **والثاني**: مؤمنٌ ولكنه بين بين وإلىٰ الخير أقرب، **والثالث**: المنافق، **والرابع**: الطايع الذي يجعل نفسه لله.

أما الكافر فهو الذي قال الله فيه: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، كسبه كله في الدنيا، ومطالبه كلها دنيوية، ما يطلب المغفرة وما يطلب الجنـة وما يطلب رضىٰ الله، وما له في الآخرة من خلاق؛ أي: من نصيب، وجزاؤه العذاب الأليم، فهذا من القسم الأول.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠١-٢٠٢]، وهم من القسم الثاني، يطلب حسنةَ الدنيا من متاعه ومعيشته والمال والعيال حتىٰ المرأة الصالحة من حسنات الدنيا، وفي الآخرة حسنة، الجنة ولقاء الله ورضوان الله، ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، هؤلاء يجمعون بين طلب الدنيا والآخرة، قال الله: ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ ﴾، كلٌّ

حسب كسبه واجتهاده، الذين يجتهدون في أعمال الآخرة يكون ثواب الآخرة كثيراً، والذين يجتهدون في أعمال الدنيا يجدون ثوابهم في الآخرة قليلاً ولكنهم أحسن حالاً من الأولين.

وفي القسم الثالث: يقول الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، يعجبك ظاهر قوله وقلبه مليءٌ بالنفاق، يجادل بالباطل والزور، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وهذا هو المنافق.

والقسم الرابع: وصفهم الله سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، يبيع نفسه وماله وعمره كله في طاعة الله، كمثل الصدّيقين والشهداء والصالحين، الذين يدركون أن الدنيا ما هي إلا ممر وما هي إلا كالطريق إلىٰ الوطن الموصل إلىٰ لقاء الله وجزائه».

* * *

وقال رضيَ الله عنه:

«﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لكلمة الإيمان وكلمة الشهادة، وبيّنها لنا بمعناها الكامل، ومعنىٰ التوحيد فيها والإخلاص لله تعالىٰ، إنها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، الإيمان كشجرةٍ طيبة، وما هي الشجرة الطيبة؟ قال بعض المفسّرين إنها النخلة، لأنها طيبةٌ بموجب أوصافها، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾؛ أي: عروقها ثابتةٌ في الأرض، وفروعها ممتدة نحو السماء، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ثمرها الجيد، فكذلك شجرة الإيمان في قلب المؤمن كشجرة

النخلة أصلها ثابتٌ في أعماق القلب من الإيمان بالله بلا شكٍّ ولا ارتياب، والإيمان بجلاله وعظمته وبكل ما يستحق سبحانه وتعالىٰ، أصلها ثابتٌ في قرارة النفس، وفرعها ممتدٌ نحو السماء زاهرٌ بالأعمال الصالحة، تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربها، هذه شجرة الإيمان في القلب، تعطي أكلها وثمرتها في كل وقت، وما هو أكلها وما هي ثمرتها؟ العبادة، والصلاة، والصيام، والقراءة، والجهاد في سبيل الله، وتعليم الدين ونشره في كل وقت، فالمؤمن له من الإيمان ثمرةٌ يجتنيها بإذن ربها بتوفيق الله سبحانه وتعالىٰ. اللهم يا موفق أهل الخير للخير وأعانهم عليه وفقّنا للخير وأعنّا عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٦]، اللهمّ احفظنا وسلّمنا، وهي كلمة الشرك وكلمة الكفر، كأن تجعل لله شريكاً أو نصيراً، أو تنفي صفاته أو تجحده والعياذ بالله، كالملاحدة والكفار والمشركين، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ في قلب الكافر، والشجرة الخبيثة يمثلون بها شجرة الحنظل، طعمها مر، فهي مثال الشرك، ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾؛ أي: استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها، وكذلك الكافر والمشرك ليس لاعتقادهم قرار؛ لأنهم يعتقدون اعتقاداتٍ ضالة، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم:٢٧] ـ المؤمنون ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، وهو قول (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله)، إذا ثبت في قلب المؤمن فهو مؤمنٌ حقاً، وهو المطمئن في الحياة الدنيا، يعبد الله علىٰ يقين وعلىٰ حكمة بعيداً عن الأوهام ووسوسة الشيطان، وعلىٰ نور في منهاجه وطريقه، والقول الثابت هو كمال الإيمان وكمال اليقين وكمال المعرفة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في القبر عندما ينزل فيه، فيسعد وتظهر له ثمرة

الإيمان عند سؤال الملكين عندما يسألانه ويقولان له: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فالسعيد يقول: الله ربي ومحمدٌ نبيّي. . . إلىٰ آخره كما ورد في الحديث، فيقولان له: نم نومة العروس إلىٰ يوم القيامة، وإن كان شقياً أو كافراً والعياذ بالله أو منافقاً فيقول: آه آه، وتظهر له صورة النبي صلىٰ الله عليه وآله ويُقال له: من هذا؟ فلا يطمئن، ويتلجلج فيها ولا يعترف بالإيمان في تلك الساعة، لأنه في الدنيا كان متشككاً وكان مرتاباً، وهكذا فإن كلمة الشهادة توجب الثباتَ في دار الدنيا وفي القبر وحين البعث».

* * *

ومن كلامه رحمه الله تعالىٰ في قول النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضعٌ وستون شعبة»[1] الحديث، قال رضيَ الله عنه:

شعبة: يعني قسم أو نوع من الأنواع، وبهذا أتىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ سبيل التمثيل. والإيمان أنواعٌ كثيرة، منها ما هو من أعمال القلب، ومنها ما هو من أعمال البدن، ويدخل فيها أعمال اللسان وغيرها من الأعضاء.

فأعمال القلب مثل الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وغيرها مما هو مذكورٌ في العقائد، والإيمان باليوم الآخر ويدخل فيه سؤال القبر والبعثِ والنشور والحِساب والميزان والصراط والجنة والنار، والإيمان والتصديق بالرسالة، ويدخل فيها محبته صلىٰ الله عليه وآله وسلم وتعظيمه والصلاة عليه واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه ترك الرياء

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

والنفاق والعجب، والتوبة والخوف والرجاء والتواضع وترك الكبر، فهذه كلها من أعمال القلب. ومن أعمال اللسان التلفّظ بكلمة التوحيد وتلاوة القرآن وتعلّم العلم وتعليمه والدعاء والذكر والاستغفار. ومن أعمال البدن الطهارة واجتناب النجاسة وستر العورة والصلاة من فرض ونفل والزكاة وفك الرقاب والجود وإطعام الطعام وإكرام الضيف والصيام فرضاً ونفلاً والحج والعمرة، وكذلك يدخل في أعمال البدن الطواف والاعتكاف والهرب من الإثم والهجرة من دار الكفر والوفاء بالنذر وأداء الكفّارات، ومنها ما يتعلق بالنكاح وما يترتب عليه، والقيام بحقوق الوالدين ورعاية الأسرة وصلة الرحم وطاعة أولي الأمر المسلمين والرفق بالخدّام».

ثم قال رحمه الله:

«كم هي هذه الشعب التي أخبرنا النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، علىٰ سبيل التمثيل أن الإيمان بضعٌ وستون شعبة، أما إذا أردنا حصرها فهي أكثر بكثير من ذلك، وكلها يباشرها الإنسان وكلها يعمل بها الإنسان».

ثم قال رحمه الله:

«إن هذه الأعمال كلها لا تقبل إلا بالتوحيد، وأفضل هذه الشعب قول لا إله إلا الله، اعتقاداً وعملاً، «وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١]، كما قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم».

ثم قال سيدي:

«والحياء خُلُق، وطبيعة تحمل الإنسان علىٰ اجتناب القبيح وتحجزه عن

---

(١) جزءٌ من الحديث الذي تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

المعاصي، ومن أحسن الأعمال الحياءُ من الله، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»، قالوا: يا رسول الله كيف ذلك قال: «تحفظوا الرأس وما حوىٰ والبطن وما وعىٰ وأن تذكروا الموت والبلا، فمن فعل ذلك فقد استحيَا من الله حقَّ الحياء»(١). ومن الحياء من الله أن لا يراكَ حيث نهاك، لا يراكَ إلا وأنت في الطاعة وحيث أمرك، وهذا مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقال رضيَ الله عنه:

«بحسب ما تعمل من الأعمال الصالحة يجيك المدد من الله سبحانه وتعالىٰ، يزداد علمك، ويزداد قبولك عند الناس، ولكن ينبغي أن تتحرك، تتعلّق بربك، تنظر إلىٰ جوده وإحسانه وكرمه، وإذا علم الله منك صدقَ إقبالك أفاضَ عليك النور والبركة والعلم والفهم، وكساك ثوبَ القبول، من رآك احترمك، حتىٰ الحيوانات تحترمك، فضلاً عن بني آدم، هكذا كانوا سلفنا وهكذا كانوا السابقين من أهل الإيمان الكامل، كانت البلاد تتحرّك بهم، والمجالس تتعطّر بهم، والمحافل تتنوّر بهم، لأنهم استأنسوا بقرب الله والتلقّي من الله، ومن أسرار الله، فألبسهم ثوبَ القبول والنور، وصاروا محبوبين من الله، إن دعوه استجابَ لهم، وإن طلبوه أعطاهم، فبحسب ما يستطيع الإنسان يعمل من الأعمال، من ذكر وتلاوة القرآن والصلاة والتخلّق بالأخلاق الحسنة وحسن المعاملات مع الله ومع الناس، وبحسب ما يعمل يأتي إليه المددُ من الله».

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم: (٤: ٣٢٣)، وأحمد: (١: ٣٨٧)، بألفاظ مقاربة.

وقال رضيَ الله عنه في معنىٰ الإجازة وفضل الدعوة إلىٰ الله:

«يقول الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف:١٠٨]، قل يا محمد، وهذه كلمة أمرٍ من الله سبحانه وتعالىٰ، وفيها معنىٰ التكريم والتثبيت من الحق سبحانه للنبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ويدخل فيها معنىٰ الإجازة، إجازة العلماء بعضهم لبعض، وإجازة المشايخ لتلامذتهم ومريديهم، الإجازة هي ركنٌ عظيم وشرطٌ كبير خصوصاً في علم الحديث، ومعناها التمكين للشيء في النفوس، ومبادلة الأسرار بين الأخيار.

مثلاً إذا قال لك الشيخ: اكتب هذه المسألة وحرّر، معناها: أنه راءٍ منك أهليةً، راءٍ أنك أهلُ لذلك، فأمرك بالكتابة، أو قال لك: أجزتك في هذا الدعاء أو في هذا الذكر أو في هذا الكتاب، فمعناه: أنه رآك أهلاً لذلك الأمر المجاز فيه، وقد يكون فيه سرٌّ وقوةٌ تسري منه إليك، ولهذا قالوا: ما يظهر سر الدعاء وسر الأذكار وسر التلاوة وسر الأسماء إلا بالإجازة، ففي معنىٰ ﴿قُلْ﴾ إشارة إلىٰ ذلك بأنه يأمره ويقول إنه أهلٌ لذلك، و﴿سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقي، طريق دعوتي وتبليغي، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً، وما هي سبيله؟ ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: علىٰ حجةٍ قائمة ومعرفةٍ وبيان، ثم قال: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، اتبعني في نشر الدعوة إلىٰ الله وفي نهج السبيل الذي هو فيه، فالذي ينهج هذا السبيل هو مع النبي ويظفر بمعية النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وهذه مرتبةٌ عظيمة، ما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظّ عظيم».

ثم قال رحمه الله:

«فالدعوة إلىٰ الله تلحقك بالنبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، لكن علىٰ

هدىً وبصيرة بعيداً عن الكبر والاستخفاف بالمسلمين والنيل من معتقدات الأمة المحمدية، الأمة المرحومة التي قال فيها النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أمتي لا تجتمع علىٰ ضلالة»[١] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

اللهم اجعلنا من حَمَلة هذه الرسالة، المتّبعين لرسوله، المهتدين بهديه، المستمدين من مشكاة النبوة، حتىٰ نمشي علىٰ بصيرة وعلىٰ خير سيرة، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه حاثاً علىٰ لزوم الأدب في مجالس العلم وعاتباً علىٰ الذين لا يصغون إلىٰ الكلام أثناء الدرس، قال رحمه الله:

«نعوذ بالله من الجهل، الجهل أكبر مصيبةٍ يبتلىٰ بها الإنسان، وهو النار التي يحرق بها دينه ومروءته وأخلاقه، فنحن مأمورون بالإصغاء والاستماع إلىٰ كلام الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فبماذا تحيا القلوب وتطمئن؟ وبأي شيء تنتعش إذا لم تحي بسماع كلام الله سبحانه وتعالىٰ وتنتعش بالإصغاء إلىٰ أحاديث رسوله صلوات الله عليه وعلىٰ آله! إذا لم تستجلب الرحمة بسماع القرآن وسماع حديث رسول الله؛ وإذا لم يستجب الإنسان إلىٰ ذلك فليبكِ علىٰ قلبه، يبكي علىٰ دينه، يبكي علىٰ مروءته، يبكي علىٰ حياته، والعياذ بالله.

هل شيءٌ أفضلُ من كلام الله أو من كلام رسول الله أو من مجلسٍ يُذكر فيه اسم الله أو يُذكر فيه رسوله؟! مجلسٍ تحفّ به الملائكة وتتنزل فيه

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»: (١٢: ٤٤٧) (١٣٦٢٣) بهذا اللفظ.

الرحمة وتتغشاه السكينة، مجلسٍ يكون فيه رضىٰ الله، فإذا أعرض عنه الإنسان وانشغل بما هو دونه خرج منه والعياذ بالله وهو مدبرٌ شبيهٌ بأهل النفاق، ومن شأن المنافقين والعياذ بالله الإعراض عن الله، الإعراض عن رسول الله، الإعراض عن دين الله، الإعراض عن شرع الله، الإعراض عن أهل الله، يُضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء، اللهم اهدنا فيمن هديت، برحمتك يا أرحم الراحمين».

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه قوله:

«العلم علمان: علمٌ كسبي وعلمٌ وهبي، **العلم الكسبي**: الذي يطلبه الإنسان بفكره وبعقله وبالتعلّم، مثل هذه العلوم علوم الدنيا وعلوم الشريعة وعلوم الأحكام كلها يدركها بالكسب وبالتعلم وبالقراءة وبالفهم وبالعقل، ويُقال لها العلم الكسبي، **والعلم الوهبي**: الذي يكون من قبل الوهب من الله سبحانه وتعالىٰ من غير تعلم، هو يعلمك ويلقيه في قلبك، الفهم والعلم بمعاني الآيات ومعاني الأسماء والصفات ومعاني العلوم كلها، هذا يقال له العلمي الوهبي، وكذلك يُقال له العلم اللدنيّ، ومنه علم الكشف، وعلم الإلهام يدخل في ذلك، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

* * *

ومن كلامه رضيَ الله عنه في معنىٰ النور، قال رضيَ الله عنه:

«النور هو الدلالة والبرهان وكل ما يبين الأشياء، مثل الشمس في النهار، والقمر في الليل، فالشمس والقمر نوران يُظهران الأشياء، والعلم

نور، لأنه يبين لك الحلال من الحرام، والخطأ من الصواب، وبالمعنىٰ العام النور هو ما يبين الأشياء ويظهرها، والنبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم نورٌ، وأصل النور منه، وهو الذي أخرجنا من الظلمات إلىٰ النور، صلىٰ الله عليه وآله وسلم».

قال رضيَ الله عنه:

«العالم أو المرشد أو الشيخ مثل الطبيب، الطبيب يعطي المريض الدواءَ المناسبَ لحالة المريض فإذا جاء من يشتكي عند الطبيب وجعاً في رأسه مثلاً فلا يعطيه العلاج قبل معرفة مكمن الداء، وهكذا العالم والشيخ والمرشد، يكون دائماً حريصاً فيما يقدمه من نصح وتوجيه وإرشاد أن يكون مناسباً لوقائع الأحوال ومناسباتها، وقد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في بعض الأحاديث يخصّ بعض الفضائل عن بعضها بما يتلاءم وحال السائل».

* * *

من كلامه رضيَ الله عنه في ذم النفس قال:

«النفسُ الأمّارة بالسوء هي التي لعبت علينا، وهي التي مالت لنيل الشهوات، فإذا نحن أهملناها وما حليناها ولا جاهدناها مالت بنا إلىٰ الشهوات، وخصوصاً أنّ أبواب الشر مفتوحة أمامها، والشيطان قائدُها، والدنيا زخرفها، والملاهي دليلها، والناس في بحرٍ لجيّ من الغفلة، وما هناك واعظ ولا راعي من رجال الفضل والدين من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم».

* * *

وقال رضيَ الله عنه:

«الناس الطيبون الموفقون يغتنمون الوقت ما بين المغرب والعشاء في قراءة القرآن وفي قراءة كتب العلم وفي المذاكرات العلمية حفظاً للوقت ولهذه الساعة، قال بعضهم في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:٦] إنه بين المغرب والعشاء، ويبارك الله للإنسان في بعض الأعمال ويكتب من العباد الصالحين وخصوصاً ما بين المغرب والعشاء، وقد وردت فيه آثار منها صلاة الأوابين وفضلها، تصلىٰ بعد سنة المغرب، وهي ركعتان أو أربع أو ست إلىٰ عشرين ركعة».

* * *

وقال رضيَ الله عنه:

«الملائكة هم حرّاس الكون، ملائكةٌ في الملأ وملائكة في الكون كله، بهم تنظم معايش العباد، فللسحاب ملائكة يحركونه، وللمطر ملائكة يصرّفونها، ولك أنت يا إنسان ملائكة يصرّفونك، كل واحدٍ عليه حفيظ يحفظه، وله ملائكة يحصون سيئاته وحسناته، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [قٓ:١٨]، وكل إنسانٍ له ملائكةٌ يحفظونه وهو لا يدري أنه في حفظ الله، ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١]، هؤلاء الحفظة يمنعون عنك النوازل والطوارىء، وإذا أراد الله أن ينفذ أمره وقف الملائكة، ويجب علىٰ كل مؤمنٍ معرفة عشرة منهم؛ وهم: جبريلُ أمين الوحي، وميكائيل أمين الأرزاق والأمطار، وإسرافيلّ الموكّل بنفخ الصور، وعزرائيل الموكّل بقبض الأرواح، ومنكر ونكير الموكّلان بسؤال القبر، ورقيب وعتيد الموكلان بكتابة الحسنات والسيئات، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار».

وقال سيدي رضيَ الله عنه:

«ليغتنم الإنسان وقته ما دام في صحة، ويحفظ رأسَ ماله وهو عمره وأوقاته وأنفاسه، فإذا رماه في الفضول والملاهي والغفلة أضاعه وخسره، فبقدر الاستطاعة يغتنم الإنسان عمره ويجعله مطية إلىٰ رضىٰ الله وجنته، والغفلة هي المصيبة الكبرىٰ، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١]».

* * *

وقال رضيَ الله عنه:

«الآداب هيَ زهـرة العمل، لا يتم العمل إلا بالتـزام الأدب، والأدب هو من الإحسان، والإحسان هو أحد أركان الدين الثلاثة التي سأل عنها جبريل سيدنا محمداً صلىٰ الله عليه وآله وسـلم فيما رواه لنا أهل الحديث عن سيدنا عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه، والمؤمن إنما يكمل إيمانه بهذه الثلاثة الأركان، ولا يقوم الدين إلا بها، وهي الإسلام والإيمان والإحسان، فالأدبُ هو زينة العمل وهو سببٌ من أسباب قبوله، وكل عملٍ لا بد أن يصاحبه الأدب، فللـزكاة آدابها، وللحج آدابـه، ولتـلاوة الـقرآن آدابها، وسائر الأعمال الخيرية لها آدابها، وللمسجد آدابه، إن الإنسان إذا دخل المسجد يعرف أنه في بيت الله وأن المساجد لله، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]، فإذا دخلت بيـتَ الله يجـب عليك أن تعظمه في بيته، تعرف أنه مطّلع عليك، وأنك في حمىٰ الله سبحانـه وتعالىٰ، وأنك زائره في بيته، وكما ورد في الحديث: «المساجد بيوتي،

وعمّارها روادي»(١) أو كما قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فإذا كنت ضيفَ ربك في مسجده، أو زائره في بيته؛ فالزم الأدبَ واجلس بأدب واخرج بأدب، ولا ترفع صوتك، وإذا سمعتَ من يبيع ويشتري فيه فقل له: لا أربحَ الله بيعك، وإذا كان ينشد ضالة فقل له: لاردَّ الله ضالتك، هكذا ورد عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، لأن المساجدَ إنما يُذكر فيها اسمُ الله ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧]، من هوله ومن فزعه فنحن مقبلون علىٰ هذا اليوم.

اللهم ارزقنا الأدبَ في كل ما يقربنا إليك وإلىٰ رسولك المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم».

* * *

ومن كلام سيدي في دعاء القنوت، قال رضيَ الله عنه:

«القنوتُ نصفه دعاء ونصفه ثناء، ومعنىٰ القنوت الرجوع إلىٰ الله والابتهالُ إليه سبحانه وتعالىٰ، وأول ما نطلب منه الهداية، فنقول: (اللهم اهدنا فيمن هديت)، أن تدلّنا وتهدينا فيمن هديتَ قبلنا، علىٰ طريق الخير، وأن تسلك بنا الطريق المستقيم ونهج سيد المرسلين سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله

---

(١) لعله حديث قدسي، لم نعثر على تخريجه. وفي «تفسير ابن كثير»: (٣: ٢٩٣) عن قتادة قوله: ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة: (إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضأ فأحسن الدفع ثم زارني في بيتي أكرمته، وحق على المزور كرامة الزائر). رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره». اهـ.

وسلم، وتقبلنا كما قبلتهم وترضىٰ عنا كما رضيتَ عنهم، وأدخلنا فيهم يارب مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وإذا كان الله سبحانه وتعالىٰ يقول لنبيه في حق الأنبياء: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام:٩٠] يا محمد، فنحن نقول: (اللهم اهدنا فيمن هديتَ) من العارفين بالله من الأولياء من الصالحين، فإذا دخلت الهداية في القلب حصل المقصود، ولله در القائل:

وإذا حلَّتِ الهدايةُ قلباً نشطت للعبادةِ الأعضاءُ

إذا دخلت الهداية القلبَ تحرّكت الأعضاء للعبادة والإقبال علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وللعمل الصالح، والهداية من أعظم النعم حينما تحل في القلب، وإذا لم تحالفه الهداية والعياذ بالله فهذا هو البلاء، وهذه هي الشقاوة، أغواه الشيطان فيمن غوىٰ، فأصبح في حزبه ومن جنوده.

ثم نطلب منه سبحانه وتعالىٰ العافية، وهي كلمةٌ جامعةٌ تشمل الأمراض الحسية والمعنوية، أمراض القلوب، أمراض الأجسام، أمراض الشك، وسائر الأمراض، نطلب من الله سبحانه وتعالىٰ أن يعافينا في من عافىٰ ممن سبقنا وبرزوا وظهروا بالصحة الكاملة، صحة الإيمان، صحة العرفان، صحة المذهب، صحة العقيدة، صحة الطريقة، و(عافنا فيمن عافيت)، تطلب من الله أن يعافيك من الأمراض الظاهرة والأمراض الباطنة، قال الله تعلىٰ في حق المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة:١٠] أي: شك، ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ ﴾ [البقرة:١٠] نفاقاً، ومن أمراض القلب الحسد، ومن أمراض القلب الشك في الله، ومن أمراض القلب عداوة الصالحين، ومن أمراض القلب عدم احترام المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

فإذا منّ الله عليك بالعافية الحسية والمعنوية، الظاهرة والباطنة وعافاك من الزلل والزيغ تطلب منه سبحانه وتعالىٰ وقد هداك وعافاك أن ينظر إليك ولا يولِّيَك أحداً سواه، وترفع أكف الضراعة إليه وتقول: (وتولّنا فيمن تولّيت) من عبادك الصالحين، ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أخرِجنا اللهمَّ من ظلمات الكفر والشرك والرياء والنفاق والعجب، إلىٰ نور العبادة والصلاة والقرآن والتلاوة والطاعة والأذكار، وبارك لنا فيما أعطيتَ، مَنّاً منك يا رب، أعطيتنا الهداية، وأنعمتَ علينا بالعافية، وأكرمتنا بالولاية، فبارِك لنا يا ربُّ فيما أعطيت، واجعل البركةَ تسري في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وعقولنا وقُوّاتنا وفي أبنائنا وفي كل ما أعطيتنا من أمور الدنيا والدين. (وقنا شرَّ ما قضيت)، فالقضاء أمرٌ لا مردَّ منه خيره وشره، وأعطِنا خيرَ ما قضيت حتىٰ نبقىٰ دائماً تحت العناية وتحت اللطف والرعاية.

بعد هذه الدعوات العظيمة، تُثني علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وتقول: (فإنك تقضي ولا يُقضىٰ عليك، وأنه لا يذلّ من واليت)، ولا يُقهر، ولا يُقدَر عليه وأنت وليُّ أمره، (ولا يعزُّ من عاديت) وأنت صاحبُ العزة والعظمة، (فلك الحمدُ علىٰ ما قضيت، نستغفرك ونتوبُ إليك)، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».

* * *

وكثيراً ما كنا نسمعه وهو يتحدّث في مواطنَ كثيرةٍ عفوَ الخاطر بما تطمئن به نفسه وينشرح به صدره، مع توخّي الاختصار وعدم التكلّف في استعمال المحسّنات اللفظية والجُمل البلاغية، فتأتي الكلمة أقربَ إلىٰ لغة التخاطب الجارية بين العامة، لتكون أقربَ إلىٰ الأفهام، وأسرعَ إلىٰ التجاوب والقبول، وتحقيقاً للهدف والغاية، كما مَرَّ معنا في الكلمات السالفة التي حفظها لنا وأتحفنا بها أخونا الفاضل محمد بن عبد القادر بن حسين السقاف، والابن البار محمد بن مصطفىٰ أبو نمي سبط سيدي الوالد، وقد رأينا كيف كان رحمه الله يتحدّث فيها وفي غيرها عن الأخلاق الفاضلة والتمسّك بها، وعن محاسبة النفس والحث علىٰ طلب العلم والاجتهاد والمثابرة علىٰ تحصيله، والحرص علىٰ حضور مجالس الذكر، لما تتنزّل فيها من نفحات، واستجابةً لقول الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» الحديث، ولما تحصل فيها من فوائد، ولما تُستَشَفّ من خلالها من نصائح وحكم للمستبصر والمعتبر.

كما تحدث رحمه الله عن الحداة في مجالس أهل الفضل، وعن المواجيد التي تنبعث في النفوس عند سماع ذلك الحداء، وعن الأذواق والمشاعر والأحاسيس التي تتفاعل مع كوامن المحبة وعلامات الرضىٰ والقبول.

وقد أشار إلىٰ ما لهذه المجالس من أثر علىٰ تنشيط الأرواح وترويض النفوس والتذكير بما عليه السلف الصالح من حسن النيات التي يتبعها العمل ثم السلوك.

وكثيراً ما كان يتحدّث بإيجاز عن معاني هذه الكلمات الثلاث وهي: الشريعة، والطريقة، والحقيقة، وإلىٰ غيرها من مصطلحات القوم: كالتعلّق،

والتخلُّق، والتحقق، كما مرّ معنا، ويتوسّع في شرح المعاني في مجالسه الخاصة.

وجُلّ أحاديثه ومواعظه لا تخلو من الاهتمام بالدعوة والاشتغال بها والحث علىٰ الذكر وملازمته، وكثيراً ما كان الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف يطلب منه تلقينَ الحضور في المحافل العامة كلمةَ التوحيد التي طالما لقّنها الأعدادَ الكثيرة والجموعَ الغفيرة من الذين اعتنقوا الإسلام علىٰ يديه في مدن وقرىٰ ومجاهل إفريقيا الشرقية.

وقد أصاب فضيلة السيد محمد علوي المالكي عينَ الحقيقة في كلمته التي ألقاها في الحفل التأبيني حيث وصفه بقوله: «كم جاهد في سبيلها ـ أي: كلمة التوحيد ـ وكم لقنها، وكم عمرَ بها المجالس، وكم أطلق بها الألسنة، وكم أدخل فيها من أدخل، هذه كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله هي التي كانت معه وهو الذي كان معها وجاهد في سبيلها حتىٰ كانت معه في نعشه وكانت معه في تشييعه»[١].

* * *

إن مناسبات الاحتفاء بقراءة قصة المولد النبوي الشريف لها طابعها الخاص، وكلماتها المميزة، إذ أن لكل مقامٍ مقال، وطالما سمعناه يتحدث في الكثير منها.

ولنستمع إلىٰ نبذةٍ مختصرةٍ من كلمةٍ ألقاها رحمه الله في إحدىٰ المناسبات بعد قراءة قصة المولد النبوي الشريف، قال رحمه الله:

---

(١) فقد كانت الجموع الغفيرة ترددها من خلفه إلىٰ مدفنه في قبره رحمه الله.

«ما فائدة الاجتماع إلا الانتفاع، والانتفاع هنا هو أن تؤثر فينا هذه المجالس، وهذه الشمائل التي نسمعها يجب أن تؤثر في سيرتنا، وتؤثر في هممنا، وتؤثر في عزائمنا علىٰ متابعته صلىٰ الله عليه وآله وسلم ظاهراً وباطناً، والتخلّق بأخلاقه، كما كان أسلافنا كذلك يفعلون، حتىٰ نلحق بركبهم، حتىٰ نصير مثلهم، وحتىٰ لا نتخلّف عنهم، ينبغي لنا أن نجتهد في التخلّق بأخلاقه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، والاستماع إلىٰ شمائله في حَضَرنا وسفرنا وفي بيوتنا وفي كل المواطن كما كان سلفنا، وهو قدوةٌ لنا صلواتُ الله وسلامه عليه وعلىٰ آله.

وبدلاً من أن تذهبَ بعض أوقاتنا في سماع الأخبار والصحف والقراءات الفارغة وغيرها لنجعل لنا من تلك الأوقات حصةً لقراءة أحاديث رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وسيرته، ومعرفة شمائله، وسيرة أسلافنا نَعمُر بها أوقاتنا ومجالسنا.

ثم قال رحمه الله: «فمن أين يأتيك المدد إذا لم تستمدَّ من هذا النور المبين ومن شمائله وأخلاقه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وتعكف عليها وتحرص كما تحرص علىٰ دنياك، وكما تحرص علىٰ أمور أخرىٰ لا تُسمن ولا تغني من جوع».

ثم تكلّم عن العقيدة الإسلامية، وذكر عقيدةَ الإمام الحداد وحثَّ علىٰ قراءتها وحفظها، فهي خلاصةُ ما قاله أهل السنة والجماعة مما تعصم به دينك ويقينك واعتقادك، كما أشار إلىٰ عقيدة الإمام الغزالي رضيَ الله عنه.

ثم قال رحمه الله:

«إنّ محبة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم لا بد من إقامة البينة عليها:

والدعاوىٰ مالم تقيموا عليها بـيّنـاتٍ أبـنـاؤهـا أدعـيـاءُ

وما هي البينة هنا؟ إنها اتّباعنا له في آثاره وفي كل ما جاء عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك كل الخير، ثم يكثر الصلاةَ عليه، فالصلاة عليه صلىٰ الله عليه وآله وسلم رابطةٌ تربطك به، فأنت تطلب من الله أن يصلي علىٰ النبي، والله سبحانه وتعالىٰ يجازيك علىٰ هذه الصلاة، فما هذه التجارة الرابحة الكريمة، إذا صليتَ عليه مرةً واحدةً فقد غنمتَ مغنماً كبيراً، هذا المغنم هو الصلاة من الله سبحانه وتعالىٰ: «من صلّىٰ عليَّ صلاةً واحدة صلىٰ الله عليه بها عشراً».

ثم قال رحمه الله: «علينا أن نتحقق بحقائق هذه الاجتماعات، وتكون ثمرة الاستماع إلىٰ الشمائل التحوّل من فوق إلىٰ فوق، ومن رتبة إلىٰ رتبة، أما الوقوف علىٰ حالةٍ واحدة فهذا الجمود لا يليق بنا، فعلىٰ المؤمن أن يتحوّل ويترقّىٰ كل يوم إلىٰ زيادة، قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من كان يومه مثل أمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون» والعياذ بالله».

ثم اختتم كلامه رحمه الله بقوله: «الله يمدّنا من عنده بمددٍ كبير، المدد الضافي الذي يوصلنا بحبيبنا محمدٍ صلّىٰ الله عليه وآله وسلم».

(فائدة): قال سيدي رحمه الله تعالىٰ في أحد الاجتماعات التي تُعقد لقراءة قصة المولد النبوي الشريف بعد الجلوس من المقام:

«لو قال لنا قائلٌ: تسلّمون علىٰ مَن في القيام؟ نقول: نسلّم علىٰ من نصلّي ونسلّم عليه ونحن في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، الصلاة كلها لله، فإذاً نحن نقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

من الذي صرفنا عن الأذكار وذكر التوحيد إلىٰ السلام عليه ثم الصلاة والسلام عليه وعلىٰ آله؟ مع أن الصلاةَ خالصةٌ لله كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه:١٤]، ما قال لنا نذكر النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ونسلم عليه، فما أقيمت الصلاة إلا لله، ولا نذكر فيها إلا الله، ولكن الحبيبَ هو الواسطة ورحمةٌ للعالمين، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، لمَّا أدينا العبادة المفروضة علينا في هذا العالم الكثيف، صلّينا وسلّمنا عليه لينقلنا إلىٰ عالم الملكوت، وعالم الملكوت أقربُ الناس إليه إلىٰ الله هو الحبيب صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم:٩]، ما أحدٌ أقرب إلىٰ الله منه. ومَن أمرنا الله أن نخاطبه في الصلاة ونقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، فلا شك أنه تبلغه صلاتنا وسلامنا، ثم نقول: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين...». اهـ.

* * *

صفحاتٌ أخرىٰ من مفاهيمه رضي الله عنه

وقبل أن ننتقل إلىٰ جانبٍ آخر من الجوانب التي لا زالت أمامنا سنمضي من خلال الصفحات التالية مع ما جمعَ أشتاته الابنُ البار عدنان ابن علي مشهور، وهو ما عثر عليه من مفاهيم سجّلها سيدي رحمه الله بقلم يده مما يظهر له من معاني في مواضيع شتىٰ.

نبدؤها بقوله رحمه الله تعالىٰ:

«ظهر لي من قول الحبيب عبدالله الحداد في قصيدته: (بشِّر فؤادَك بالنصيب الوافي) أنه خطابٌ للسالك الصادق، وذلك أنه ماشي في الطريق يروم الوصولَ والقربَ من مقاعد القرب وشهود الجمال المشرقة أنواره، والوقوف علىٰ منص الجمع إلىٰ آخر الأوصاف المأمور بها في تلك القصيدة الغراء الجامعة».

* * *

وقال رحمه الله:

«ظهر لي من التشبيه في الصلاة الإبراهيمية بقوله: (كما صليت علىٰ سيدنا إبراهيم)، وفي تبعية الدعاء في قوله: (اللهم اهدنا فيمن هديت) وقوله: (أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وفي كل ما شاكلها من صيغ الدعوات؛ أن المرمىٰ في ذلك كله هو الاستناد إلىٰ دعاءٍ قد استجيب، وصلاةٍ قد قُبلت،

والتماسِ أن يكون ما رجاهُ من الدُّعاء قد صحّ قبوله، وإعرابٍ للمدعو تعالىٰ بأن كرمه قد أُلف وعُهد للمخلصين من الداعين، وهو علىٰ منوالهم يدعو وبهم يتوسّل ويقتفي أثرهم في الدخول إلىٰ حضرة القرب والوصول، ويأمل من وراء ذلك أن يكون مثلهم وفي عدادهم، وفيهم الأنبياء والمرسلون والشهداء والصدّيقون والعباد الصالحون، فهو يريد أن يلحق بقافلتهم ويحمد ما أتحفوا به من خلع القبول فيرجو مثلها، وذلك أدعىٰ في إخلاصه وآمَنُ لقلبه وأبعث له علىٰ الإخلاص، لأنهم ما أتحفوا بالقبول واستُجيبت دعواتهم إلا لما أخلصوا وصدقوا الوجهة، ففي ذلك من حسن المرامي وإنهاض الهمم وترويح النفس ماليس بالقليل فوق ما يقتضيه من الاتّباع والأسوة».

* * *

وقوله رحمه الله: «من فَتْح الفَتّاح عليّ أنّ في تكرير القرآنِ سيرَ الأنبياء وأحوالهم انتقاءً لخير ما يجري في العالم، إذ الأنبياء خلاصة المصطفين، وأخبارهم خلاصة أخبارهم، والحديث عنهم أحسن الحديث كما هو وصف القرآن: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، ولا هناك ما يداني سِيرَهم ويقتضي رضىٰ الله مثل اتباعهم واستماع نصائحهم، لذلك جعله الله متعاقباً في أثناء القرآن لتحتذيه العقول ويتأسىٰ به الهداة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وأيضاً فالقرآن هدىً، وقادة الهدىٰ وأساطينهم هم الأنبياء والمرسلون، إذاً فلا بد من اتباعهم والجري علىٰ منوالهم في معرفة قصصهم وما كانوا يدعون به أقوامهم.

ومن المُسلَّم أن البشرَ لا يجنحون إلىٰ التأسي بالملائكة بل بمن كان من جنسهم، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾

[الأنعام:٩]، إذاً كانت تلك السير أحق ما يذكر للمقتدين ونبراس هدايةٍ يستضيئون بها في سلوكهم وتسليكهم إلىٰ رب العالمين».

* * *

وقال رحمه الله وأسكنه فسيح جناته:

«ظهر لي في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يسٓ:٣٩] أن التشبيهَ في قوله: كالعرجون القديم هو علىٰ ما يظهر للعين من القمر حتىٰ يشابه العرجون لا علىٰ حقيقة الأمر، وذلك شائعٌ في لغة العرب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] تمثيلٌ لما يبدو للعين».

* * *

(فائدة): قال سيدي:

«فهمتُ من قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن عائشةَ رضيَ الله عنها وهو: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف» أن ضربَ الدفوف يكون مسنوناً أحياناً إن كان لإعلاءِ السنة وإحيائها وإعلاء كلمة الله وذكره، كالموالد والحضرات الذكرية، وذلك أنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم أمرَ بثلاثة أشياء وفي سياقٍ واحد عطف الثاني والثالث علىٰ الأول ليشمل الثلاثةَ معاً، وأقل ما يُحمل الأمرُ علىٰ الندب، فالمأمور به هنا من هذه الثلاثة مندوبٌ ومسنونٌ بلا خلاف، الأول إعلان هذا النكاح الشرعي، لأنه من سنن سيد المرسلين، وإعلانه وسيلةٌ إلىٰ ظهوره وشيوعه، وللوسائل حكمُ المقاصد، والثاني جعلُه في المساجد، لأن

المساجد مواضع الاحترام والبركة والعبادة، فناسب أن يكون ذلك النكاح الشرعي فيها، والثالث ضرب الدفوف عليه للتنويه بفضله وخطره، فلها حكمُه من المسنونية والأهمية، وإذا جعلنا الإعلانَ هو المأمورَ به في أنواعه الثلاثة فلا بأسَ إذا كان ضرب الدفوف في المساجد، لأنه مسنونٌ كعقد النكاح إذا كان بوجهٍ لائق، ويؤيده ما أباحه صلىٰ الله عليه وآله وسلم للحبوش الوافدين عليه أصحاب النجاشي الملك المسلم من عَرضهم أفراحهم في مسجده صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وما فعلوه من نشر رماحهم وقفزهم بها ورفع أصواتهم بألحانهم، كل ذلك بمشهدٍ من رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وأصحابه، حتىٰ السيدة عائشة كانت تنظر إلىٰ عرضتهم من ورائه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة، وهذه وإن كانت واقعةَ حال فهي دليلٌ علىٰ جواز عمل الأفراح المسنونة في المسجد، وهل الدفوف إلا نوع أدواتها، وإذا راعينا جانبَ الإجلال في المساجد وتنزيهها من بعض المندوبات كالتحاكم فحكمُ المسنونية بضرب الدفوف باقٍ في غير المساجد إذا أُريد به إظهار شعار الإسلام كما قرّر ذلك الأصوليون في قاعدة (للوسائل حكم المقاصد)، حتىٰ في مثل الكذب المحرم إذا كان فيه نجاةٌ للمسلم المظلوم».

* * *

وحولَ ليلة النصف من شعبان قال سيدي رحمه الله:

«بسم الله، إن هذه الليلة عظيمةُ الخطر، جليلة الأثر، ليلةٌ مباركة، يُـفرَق فيها كل أمرٍ حكيم، جعلها الله من كل عام ليلةَ النصف من شعبان مضرِباً لفرق الأمور الكونية علىٰ ما سبقت به أقداره الأزلية، وإرادته العلية، تصير إليها

دوراتُ القدر علىٰ أيدي المسخَّرين من الملائكة الكرام، وما حُدّد لهم من أقضيةٍ وأحكام، ونقضٍ وإبرام، وتدابير مرسومة من الملك العلّام، شؤون يبديها ولا يبتديها، وعلىٰ أيدي ملائكته وجنوده يجريها، ومظاهرُ جلال وجمال، وعظمةٍ وتعالٍ، تأخذها القوىٰ علىٰ مقدار، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، علىٰ أنه المطلق الواسع لا تغلطه المسائل، ولا يشغله شأن عن شأن، وإنما التحديد والتقدير لما سواه من بَرِيّته، كلٌّ علىٰ قدر موهبته من ملائكته وإنس وجان، وجنود لا يعلمها إلا هو، ليظهر بهم سرّ التقدير وكمال التدبير، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]. ولأجل أن يُقبل عباده إليه رغباً ورهباً ومما رزقهم ينفقون، ولإحسانه يتشوّفون؛ ضربَ مواسمَ الرضىٰ والقبول والفضل والعدل»[(١)].

* * *

ومن مفاهيمه التي فاتنا الكثيرُ منها يقول سيدي رحمه الله:

«جرىٰ ذكرٌ لقول الحبيب عبدالله الحداد من قصيدة: (وسقاني من رحيق بالبديد)، فتساءلنا عن البديد ما هو لغةً ومراداً، فراجعنا «القاموسَ المحيط» فذكر له عدةَ معاني، منها الحاجة، والمِثْل، والنظير، ورأينا أقربَ ما يفسَّر به كلام الحبيب: المِثْل، فكأنه يقول: وسقاني من رحيق بمثل ما سقيته، فهنا مبادلةٌ للمحبة وتعاطي كأسها بين المحبين، علىٰ منوال قول بعضهم:

---

(١) ملحوظة: لقد أوردنا ما وجدناه من هذا المبحث الذي يبدو من سير الحديث أنه له بقية.

نـديمـي غيـرُ منسـوبٍ إلىٰ شـيءٍ مِـنَ الحَيْـفِ
سقـانـي مثلَمـا يشـربْ كفعـلِ الضيـفِ للضيـفِ

ويؤيد ذلك ما استهلَّ به القصيدة من قوله:

زارني بعدَ الجفا ظبيُ النجودِ عنـبريُّ العَـرْفِ ورديُّ الخدودِ

فهنا زيارةٌ مأمولة من حبيبٍ مرتقب جاء بعد جفاءٍ وهجران، وشبّهه في خفته ولطفه ورشاقته ونفوره بظبي النجود، وشبّه عرفَ طِيبهِ بالعنبر الذكيّ، وبهجةَ خدودِهِ بالورد البهيّ، ثم عرّج علىٰ أمنية الزيارة وأنشودتها وهي الوصال». اهـ.

* * *

وعلىٰ ضوء مفاهيمه القرآنية والإلهامات التي يمُنّ الله بها عليه يقول سيدي رحمه الله:

«ألهمني ربي جلّ وعلا وأنا أتلو القرآنَ في شهر رمضان من سورة البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٨] في سياق كفرهم بالله مع قيام الحجة عليهم في أنفسهم وفي الآفاق؛ أن الذي خلقهم من عدمٍ ولم يكونوا شيئاً مذكوراً قد مرّت عليهم أعصرٌ وهم في طيّ الخفا والعدم، فأوجد الله أسبابَ وجودهم باجتماع أبويهم وبروزهم من العدم، وبواسطة نطفة قذرة تكوّنت من الغذاء الذي تجمّع من الماء، وأين كان الماء قبلَ نزوله من السحاب، فبواسطة هذه الأسباب المتفرقة خرج هذا البشر السوي العاقل مع تسلسل الأسباب من أصل وجودها الأول الذي يهتدي الفكرُ إليه، إلا أنه من

قدرة قادر حكيم، وعنه يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨]، فالإعادة الثانية للحشر أهون من الأولىٰ، لاجتماع موادها وأسباب تركيبها، وصدقَ الله إذ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، وله المَثَلُ الأعلىٰ في السمٰوات والأرض، وهذا دليلٌ قاطعٌ علىٰ صحة الإعادة، لا يمتري فيه ذو عقل، كان عدماً فوُجد، ثم صار عدماً فوُجدَ مرةً أخرىٰ».

* * *

وهنا أيضاً يقول سيدي:

«ظهر لي عند قوله تعالىٰ في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] بعد أن ساق من دلائل الوحدانية والألوهية في الآفاق ما هو أقرب آيـةٍ إلينا وأعمها نفعاً، من ضياء الشمس ونور القمر، هاتان الآيتان اللتان يترتب علىٰ وجودهما صلاح الأرض وساكنيها من الإضاءة والنور لأهل الأرض أجمعين، وتقدير عدد السنين والحساب بتاريخ الأيام والساعات والدقائق والثواني، علىٰ ضبطٍ تام لا يتخلّف ساعة فلكية بأعوامها وشهورها وأيامها وساعاتها ودقائقها وثوانيها، وما دون ذلك تدور أعصرٌ ودهورٌ لا تقصّر عن مواقيتها لحظةً، مفصَّلةً تفصيلاً يبهر الألباب، لقوم يعلمون، يحكمون العلم فيعرفون الإجمال والتفصيل، فالشمس والقمر آيتان اثنتان، وكم في وجودهما وجريهما وتنقلهما في الفلك الأعلىٰ من الحِكَم والمنافع والغرائب، ذلك التفصيل الذي يعرفه أهل العلم فيتيقنون أنه يصدر عن خالقٍ حكيمٍ عليم، لا صدفة

تطرأ، ولا طبيعة جامدة محصورة فيما هي فيه، أفبعد هذا من بيان علىٰ وجود الرحيم الرحمن؟! وما بعدَ بيان القرآن من بيان». اهـ.

* * *

ومما فتح الله به عليه وظهر له في هذه الآية الكريمة من سورة التغابن: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥-٦]، قوله رحمه الله تعالىٰ:

«يُفهم من تنبيهه وتقريره تعالىٰ إلىٰ نبأ الذين كفروا من قبل فاستحقوا العذاب فذاقوا وبالَ أمرهم أي: عقوبةَ كفرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ أليم أنّ استحقاقهم لذلك العذاب كان ناشئاً عن خبث طواياهم وسوء ظنهم وعماية قلوبهم، إذ شاهدوا البشريةَ ولم يشهدوا الخصوصية التي عبّر عنها سبحانه وتعالىٰ بقوله مبيناً سرّ التخصيص: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، أطلق موسوع المنة ومفادها من وجوه عديدة التي منها التهيئة والإعداد للنبوة وتلقي الوحي من حضرة الوحدانية، ولا يكون ذلك إلا بصفاء الجوهر وانعدام الكثافة البشرية المجبولة علىٰ الظلم والجهالة والاختيال والكنود وحبّ الشهواتِ المتنوعة في الطبع البشري، وتنسيق الارتباط والتلاؤم بينها وبين الروح وجوهريته، وتلك الصفات الكريمة مطبوعةٌ في الأنبياء وممزوجةٌ بجبلاّتهم، عليها فُطروا، وبها كانوا معصومين، كما قال تعالىٰ في سيدنا موسىٰ عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، فتأمل سرَّ الاصطناع فهل كان لغيره ممن لم ينبّأ (١) لمكافحة أنوار الحق».

---

(١) هنا في الأصل: بياض.

لا زلنا مع المفاهيم القرآنية التي سجّلها هنا بما فتح الله عليه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يا فتّاحُ يا عليم:

«﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد:١٧] من السحاب أو من جانب السماء، فإنّ المبادىءَ منها، الضوء والنوء والرياح، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ وهي المواضع التي يسيل فيها الماء وينحدر بكثرة، ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي يعلم الله تعالىٰ أنه نافعٌ غير ضار، وبمقدارها في الصغر والكبر، فكل وادٍ يجري بما اتسع له، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ رفعه، والزَّبَد: رغوة الغليان، ووصف الزبد بكونه رابياً لكونه يطفو علىٰ ظهر الماء، ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعم الفلزّاتِ والجواهرَ كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها من المعادن التي تُصهر بالنار، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي لطلب زينةٍ أو متاع كالأواني وآلاتِ الحرب والحرث، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل زبد الماء وهو خبثه، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾، فإنه تعالىٰ مثّل الحق في إفادته وثباته بجوهرين من الماء: **الذي ينزل من السماء** فتسيل به الأودية علىٰ قدر الحاجة والمصلحة فيُنتفع به أنواع المنافع. **والذي يمكث في الأرض** بأن يثبت بعضُه في منابعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلىٰ العيون والقنىٰ والآبار كما جاء في الحديث، ومثّل الحق بالفلزّ (الجوهر المعدن) الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدةً متطاولة، ومثّل الباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزَبَدها، وبيّن ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ

جُفَآءً﴾ أي: يرمي به السيل وترمي به الفلز المذابة، وأما ما ينفع الناس كالماء وخلاصة الفلز فيمكث في الأرض وينتفع به أهلها.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]، في هذه الآية الكريمة ضرب الله مثالاً للحق والباطل من الأقوال والأعمال يبين ثباتَ الحق ونفعه وإفادته، وبضرب المثل تتبين الحقيقة، لأنه يُريك المتخيلَ محققاً والمعقولَ محسوساً، ولأمرٍ مَّا أكثر الله في كتبه الأمثالَ وفشت في كلام الأنبياء والحكماء، ويُستعار لكل حالٍ أو قصةٍ أو صفةٍ لها شأنٌ وفيها غرابة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]».

* * *

وقال رحمه الله تعالىٰ:

«عَلِمَ الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ أنَّ أنفسَنا تميلُ إلىٰ الراحة والدعة وتأمر بالسوء والمظنّة، وتفوتها بسبب ذلك مغانمُ كبيرةٌ من أرباح العمر مما قد تقدِّمُ به علىٰ ربّها في الدار الآخرة وهي مفلسةٌ خاسرة، وتقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]، وليس هناك مستعتبٌ ولا مجالٌ للعمل ولا كرَّةٌ للرجوع إلىٰ الدنيا، وقد جاءنا النذير وقامت علينا الحجة ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، فهذا رسول الله يدعونا، وبالقرآن والسنة يحدُونا، وهما بين أيدينا محفوظاتٌ إلىٰ يوم الدين، فهل أجبنا دعوته؟! كمن قال عنهم الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، أو ممن قال عنهم حين دعتهم رسلُهم: ﴿ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٩]، وممن قيل فيهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

فهذه قوارعُ ترجف لها الأفئدة، إذا عرضنا أنفسَنا علىٰ دعوة حبيبنا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم وجدناها بجانبٍ ونحن بجانب، تنادي بالجهاد بنوعَيه الأصغر جهادِ الكفار والأكبر جهادِ النفس، فماذا كان حظّنا منهما، هل عددنا أنفسنا من جنود الله وأهبنا بكل صوتٍ يستنجد بنا من إخواننا المسلمين وبرزنا في الميادين نخوضُ المعامع؟! هل طالبنا أنفسَنا باتباع السنة قولاً وعملاً ونية! لا بل بالعكس، أصابنا الوهن كما في الحديث، بل صرنا نفرح بالنكبة تصيب بعضَ إخواننا المسلمين، فأين نحن من مفاد حديث: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(١)، وحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرالجسد بالسهر والحمىٰ».

صار ميزاناً للعزة والعلا عندنا المال، فاتخذناه إلٰهاً وعجلاً يُعبَد كما قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لكل أمةٍ عجل، وعجل أمتي الدرهم والدينار»، يا لها من نكسةٍ أتينا بها علىٰ عز الإسلام من أساسه وحَسِبْنا أننا أحسنا صنعاً، وأروي في معرض العبرة قول الإمام الحدّاد من قصيدة:

---

(١) متفق عايه؛ البخاري (١٣)، مسلم (٤٤).

تفيضُ عيوني بالدموع السواكبِ ومالِيَ لا أبكي علىٰ خيرِ ذاهبِ

هذا واقعنا، فما المخرج من هذا المأزق الحرج الذي قد ورَّطْنَا فيه أنفسنا وأبناءنا وأتباعنا؟! وهل يكفينا مجرَّد القول! لا، لا، لا بد أن نجرِّد من أنفسنا نياتٍ صالحة، وعزائم قوية، كلما أصبحنا وكلما أمسينا، ونَصْدُق اللهَ في ذلك ونسأله التوفيق والثبات، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

* * *

ومما بدا له رحمه الله في قوله تعالىٰ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الشورىٰ: ٢٨]، يقول سيدي:

«إنّ الغيثَ هو الذي يحصل به الغياث والإسعاف، من كل مددٍ حسي أو معنوي ينزل من خزائن الجود الفياضة علىٰ كل موجود، من لدن الرحيم الودود.

وتتلقىٰ هذا الغياثَ الدائم والمددَ المتواصل الأودية القابلة من جدوب وقلوب علىٰ قدر قابليتها واتساع مساحتها، ومساحتُها تتلقىٰ من أول متلقٍّ للفيض الأول، ومظهرِ الرحمة التي عمّت العوالم، سيدِنا ومولانا وحبيبنا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

فإذا تلقّت هذه الأودية القابلة من قلوبٍ وجدوبٍ ما أُفيض عليها من الوادي الكبير ألقته وأفاضته علىٰ النفوس الظامئة والجدوب الماحلة فأحيتها بإذن الله، واهتزت بأشجار وزروع التوحيد والإيمان، وربت وانتعشت بزهور

المعارف وثمار الأعمال الصالحة، وأنبتت من كل زوجٍ بهيج من سائر العلوم والمواهب، ومستقرّها ومغرسها القلوب».

* * *

وفي هذه الأسطر الموجزة يبيّن سيدي ما يبدو له بأنه ليس في قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نحن أحق بالشكّ من إبراهيم»[١] اعترافٌ بالشك علىٰ نفسه، ولا علىٰ إبراهيم، لكن فيه نفيُ الشك عنهما، يقول:

«إذا لم أشكّ أنا في قدرة الله تعالىٰ علىٰ إحياء الموتىٰ فإبراهيم أولىٰ بأن لا يشك، وقال ذلك علىٰ سبيل التواضع والهضم من النفس، وكذلك قوله: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ أخي يوسف لأجبتُ الداعي»[٢]، وفيه الإعلامُ أن المسألةَ من إبراهيم لم تَعرِض من جهة الشك ولكن من قِبَلِ زيادة العلم بالعِيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال، فأحبَّ أن يترقىٰ من علم اليقين بذلك إلىٰ عين اليقين، وأن يرىٰ ذلك مشاهدةً، وقيل: إنما شكّا في أنـه هل يجيبهما إلىٰ ما سألا، وحاشاهما من الشك في قدرة الله علىٰ إحياء الموتىٰ».

* * *

ومع آخر ما تيسّر جمعه للابن عدنان مما سجّله سيدي من خواطر ومفاهيم؛ نمضي مع هذه الخاطرة التي تناول فيها قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، قال:

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٣١٩٢) (٤٢٦٣)، مسلم (١٥١).

(٢) متفق عليه؛ البخاري (٣١٩٢)، (٤٤١٧)، مسلم (١٥١).

«يأمر ربنا جلَّ وعلا حبيبه محمداً صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن يُثير عواطفَ أصحابه وأمته ويحثّهم علىٰ الاعتماد علىٰ الله والأُنس به وحسنِ الرجاء فيه، فيكون اهتمامُهم في طلب رضاه، وفرحُهم وسرورهم في نيل فضله ورحمته، وفضلُه ورحمته غايةُ ما يَسُرّ ويُفرِح المؤمن، ومن فضله ما ذُكر في الآية التي قبلها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]». انتهىٰ.

* * *

ومما يرويه سيدي العالم الفاضل عبد القادر بن عبد الرحمن الجنيد في كتابه «العقود الجاهزة والوعود الناجزة، في تراجم الشخصيات البارزة» عن سيدي الوالد رحمه الله أنه ذكر يوماً (الأحدية والوحدانية والواحدية) فقال رضيَ الله عنه:

الأحَـديـة: مظهـرُ الـذات المقـدّسـة المستحقـة لجميـع الكمـالات، **والوحدانية**: هي مظهرُ الأسماءِ والصفات: الخالق، الرازق، المبدع، والمعطي، والمانع، **والواحدية**: هي مظهر الأفعال: الحياة والموت، والنفع والضرّ والمنع والإعطاء.

فأنوارُ الأحدية لا يطّلع عليها أحد، ولا يقوىٰ علىٰ مشاهدتها بشرٌ إلا الحبيبُ الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وأنوارُ الوحدانية هي التي يشاهدها العارفون، وهي غايتهم ومنتهىٰ آمالهم، فيشهدون في المخلوقات سرَّ خالقها، وفي المربوبات سرَّ ربها، وهكذا. ونورُ الواحدية يشاهده أيضاً الأولياء، وكلُّ من صفا باطنه شاهد أنوارَ الأفعال في العباد، وليست الأنوار

ألواناً تُدرك بالبصر من الحُمرة والصفرة والخُضرة وغير ذلك، ولكنها دلالاتٌ تُقذف في القلوب، فالنور هو ما يدلّ القلبَ علىٰ الهدىٰ والخير، والمعصيةِ والشر، فالعارفُ بالله يعرف بقلبه ويرىٰ به آثارَ أسماء الله وصفاته في كل شيء، حتىٰ في الجمادات، وبه يسمع تسبيحَها له سبحانه وتعالىٰ، وإقرارَها له بالوحدانية، وخضوعَها وإذعانها له بالألوهية، والوليُّ يعرف بقلبه ويرىٰ به آثارَ الأفعال في العباد مِن طاعة ومعصية في الدنيا. . أما في الآخرة فالأفعال تتجسّم إما نوراً أو ظلمة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] بعد أن كانت في الدنيا بيضاء، فالسواد هو من أثر الأفعال السيئة، فما يَعرِف به قلبُ العارف وقلبُ الولي هي الدلالة التي يقذفها المولىٰ سبحانه وتعالىٰ في قلب ذلك العارف وذلك الوليّ».
انتهىٰ.

❋ ❋ ❋

كتاب مفتاح الجنّة

وكتابه «مفتاح الجنة» يجده قارئه كما وصفه فضيلة العلاّمة الشيخ حسنين محمّد مخلوف مفتي مصرَ السابق وعضو هيئة كبار العلماء في تقديمه للكتاب الذي سبق ذكره.

وقد افتتح سيدي كتابَه بقوله رحمه الله:

«وبعد:

فهذه رسالةٌ وجيزةٌ في التنبيه علىٰ ما اشتملت عليه (كلمة التوحيد والشهادة) من علوم، ودلّت عليه من أعمال ورسوم، أقدّمها إلىٰ قُرّائي المتعطّشين إلىٰ فهم حقائق الدين، وخاصة قُطّان أوغندا المؤمنين، آملاً أن تحلَّ في قلوبهم محلَّ الرضا والقبول، وتبلَّ منهم صدىٰ التلهُّف إلىٰ ذلك المنهل المعسُول، وسمّيتها: «مفتاح الجنة»، رجاءَ أن تَفتح لمن يعتقدها ويعمل بمضمونها أبوابَ جنة الرضوان والخلود، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وضمّنتُها ـ علىٰ قصوري وتقصيري ـ ما يجبُ علىٰ المكلَّف معرفته من معاني التوحيد وثمراته، وما زخرت به كلمة الشهادة من علوم ومعارف، وإشاراتٍ وأعمال، مع استطراد في بعض الأحيان ـ اقتضاه الحال ومسَّت إليه الحاجة ـ إلىٰ مباحث هامة، تبصرةً وتنويراً، فإن أصبتُ المحزّ فمن فضل الله الجواد، وإن زللتُ فالرجاء أن لا أُحرم ثوابَ الاجتهاد، وإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىءٍ ما نوىٰ، والله المسؤول في الإعانة والقبول».

وقد استهلَّ الرسالة بكلمة التوحيد ومعناها:

١ ــ كلمة التوحيد ومعناها:

(لا إلٰه إلا الله) جملةٌ جليلةٌ في معناها، مختصرةٌ في مبناها، عظيمةٌ في أثرها، مشرَّفةٌ في قدرها، مشرقةٌ في نورها، فريدةٌ في فضلها، أربعُ كلماتٍ بها قامت الملّة، وعليها وُضعت القِبلة، وبها جاء كل كتابٍ أنزله الله علىٰ كل رسولٍ من رسله الكرام، وبها النجاةُ من النيران، والفوزُ بالنعيم الخالد في الجنان، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وبصحة الاعتقاد واليقين بمعناها والإذعانِ به؛ يتحقق **الإيمان**، وعلىٰ أساس النطقِ بها صدقاً والعملِ بمقتضاها حقاً يقوم **الإسلام**.

وبالجمع بين صحّة الاعتقاد والاستسلام لحكمها والانقياد تشرق في القلوب -حقيقة **الإحسان**.

وكما تُسمّىٰ كلمةَ التوحيد تُسمّىٰ كلمةَ الشهادة، وكلمةَ الإخلاص، وكلمةَ الحق، وكلمةَ الصدق، وكلمةَ العهد، وكلمةَ الإيمان، وكلمةَ التقوىٰ، والكلمةَ الطيّبة، والكلمةَ الباقية، وكلمةَ الله العليا، وكلمةَ الشفاعة، وثمنَ الجنة، و«مفتاح الجنة».

وهي أولُ ما يدخل بها العبدُ في دين الإسلام[١]، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلىٰ الجنة والنعيم المقيم، كما في الحديث الذي رواه أبو داودَ والحاكمُ وأحمد عن معاذ بن جبل: «مَن كان آخرُ كلامه في الدنيا لا إلٰه إلا الله دخل الجنة»[٢]، فهي أول واجبٍ وآخرُ واجب.

فمن قالها موقناً بها مصرّاً عليها سعدَ بدخول الجنة كما في الحديث، ومن استكبر عنها جحوداً أو إشراكاً دخل النار وبئس القرار، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومعنىٰ (لا إلٰه إلا الله): لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، والله عَلَمٌ علىٰ الذات الأقدس، الواجبِ الوجود، المتّصفِ بجميع صفات الكمال والجلال، المنزّهِ عن جميع سماتِ الحدوث، وعن الشريك والنظير والمثال، وعمّا لا يليق بمجده وعظمته من الصفاتِ والأحوال، فهو الإلٰه الواحدُ الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كُفُواً أحد، لا إلٰه إلا هو سبحانه، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ [التغابن: ١].

---

(١) أي مع الشهادة بالرسالة المحمدية، وهي من مقتضاها كما سيأتي.

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٢٢٠٨٧)، (٢٢١٨٠)، والحاكم في «المستدرك»: (١: ٥٠٠).

٢ ـــ العِلمُ الباحث في معناها وأدلّتها:

ويندرجُ كلُّ هذا الذي ذكرناه إجمالاً؛ وما ذكره أئمةُ علم التوحيد في كتبهم تفصيلاً: في معنىٰ هذه الكلمة المشرّفة.

وقد تكفّلَتْ ببيان ذلك كله وإثباتِه بالبراهين القطعية آياتُ الذكر الحكيم، وأحاديث النبيّ الكريم، عليه أفضلُ الصلاة والتسليم، ومنها استَمدَّ علماء فن التوحيد مباحثه في باب الإلٰهيات والنبوات والسمعيات، وأفاضوا في ذلك إفاضةً تشفي الصدور، وتملأ القلوبَ بالنور، وسمّوه: علمَ التوحيد، وعلمَ العقائد، وعلمَ أصول الدين.

ولهذا العلم الصدارةُ في ميدان العلوم، وعليه المعوَّل، وبنوره اهتدىٰ المؤمنون، ومن مَعِينه ارتوىٰ العارفون، وهو وعلوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتصوّف من العلوم الشرعية التي لا يَستغني عنها طلّاب العلم والعرفان، ومَن عَلِمَ القدرَ الواجبَ معرفتُه منها كان علىٰ بينةٍ من أمره وبصيرةٍ في دينه وكان من الفالحين.

ولا شكّ أن أساسَ ذلك كلِّه معرفةُ الواحد الأحد جلّ جلاله، واليقينُ بوحدانيته وسائر صفاته العلية وأسمائه الحسنىٰ، وبتنزُّهه عمّا لا يليق بجلاله، وهذه المعرفة هي الغاية القصوىٰ والمنهل الأصفىٰ، ويعبَّر عنها برسوخ الإيمان في القلب.

والإيمان: نورٌ يقذفه الله في قلب عبده، تُشرق به زجاجته، فيرىٰ ما شاء الله أن يرىٰ من مكنونات العلوم والأسرار كأنه عيانٌ ومشاهدة، فينشأ عن ذلك التبتُّل إلىٰ الله تعالىٰ والإخلاصُ له، والطمأنينة بذكره، والخوف

منه، والرجاءُ فيه، والتحلّي بالأخلاق الكريمة، والتخلّي عن الصفات الذميمة، والإقبالُ علىٰ الطاعات، والانكفافُ عن المعاصي والسيئات، والفوز بقربه تعالىٰ ورضاه، وتلك هي السعادة العظمىٰ.

٣ ـ الإلٰه الحق هو الله تعالىٰ وحده:

والإلٰه الحق هو الله تعالىٰ الواجبُ الوجود، الخالق البارىء المصوّر، الرزاق المحيي المميت، المدبِّر الحكيم الذي أحسنَ كل شيءٍ خلقه، وأبدع كل شيءٍ صنعه، وأحكمَ كل أمر دبَّره، وقضىٰ كل شيءٍ قدّره، فهو وحدَه الإلٰه الحقُّ الأزليُّ الأبدي، المستحق للعبادة ظاهراً وباطناً، المنزَّه عن كل نقص، له الصفاتُ العليا والأسماء الحسنىٰ والعظمة والجلال، لا شريكَ له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا إلٰهَ سواه، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

٤ ـ افتقار الكائناتِ كلِّها إلىٰ الله تعالىٰ:

وجميعُ الكائنات تنادي علىٰ نفسها بالعجز والافتقار إلىٰ الله تعالىٰ القويِّ القادر، في وجودها وبقائها وجميع شؤونها، وتشهد بلسان حالها أنه تعالىٰ الإلٰه الحق ربّ العالمين، لا شريكَ له في ألوهيته وربوبيته، ولا في

صفاته وأفعاله، ولا في الخلق والإيجاد، ولا في الإحكام والتدبير، بل الله وحدَه هو الخالق والمهيمن والقادر والمدبّر والفاعل المختار الحكيم، جلّت قدرته، وعظمت مِنّته، وسَمَت حكمته، ودلّت عليها صنعته القائمة علىٰ نواميس مُحكَمة، وأحكامٍ مقدَّرة، والتي أبدعها كلَّها بيد قدرته علىٰ أتم حال، وأكمل نظام، فمصنوعاته الفاخرة، ومخلوقاته الباهرة، ومبدَعاته الزاهرة، التي ملأ بها أرضَه وسماواتِه ناطقةٌ بقدرته ووحدانيته وعظمته وجلاله وعلمه القديم، شاهدةٌ له سبحانه بالتدبير الحكيم.

وقد أحسنَ من قال:

فوا عجباً كيف يُعصىٰ الإلٰهُ ... أم كيف يجحدُه الجاحدُ
ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أثرٌ شاهدُ
وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلّ علىٰ أنه واحدُ

وهذه الآية الدالة علىٰ وحدانيته هي وجودُ كل شيءٍ علىٰ حالةٍ تُؤذن بالافتقار وجوداً وبقاءً إلىٰ من صنعه علىٰ تلك الهيئة، وفطره علىٰ تلك الفطرة التي تجري علىٰ أحسن تقدير، لم تتشعّب به إراداتٌ مختلفة، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

* * *

لا زلنا في الصفحات الأولىٰ من هذه الرسالة التي ضمّت بين دفّتيها

خمسين مبحثاً، بدءاً بمبحث: (كلمة التوحيد ومعناها)، وانتهاءً بمبحث (الجهاد في سبيل الله وتمنّي الشهادة).

٥ ــ جهلُ المشركين وضلالُهم:

وما زَعمَ الألوهيةَ أو الربوبيةَ أحدٌ من خلقِ الله كالأحمقين اللعينين النمرود وفرعون؛ ولا زعَمَهما زاعمٌ لكائنٍ من الخلق كالكواكب والأحجار والحيوان وغيرها: إلا وآثار النقص والعجز والافتقار، والحدوث والانقهار؛ ظاهرةٌ علىٰ الزاعم لها من الآدميين وعلىٰ من ادُّعيت له من غيرهم، ولا ينكرُ ذلك إلا جاهلٌ أو مكابرٌ أحمق، فما أعظم فريةَ المشركين وأخفَّ عقولَهم وأجهلَهم بعظمة ربهم الذي خلقهم فسوَّاهم، يجعلون له شريكاً في الألوهية والربوبية والمُلك والعظمة والتصرُّف في الكون وتدبيره: عبداً مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً، لا يملكُ لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ثم يعبدونه من دون الله! ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧-١١٨]، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣].

كيف والكائناتُ بأسرها من حيوان ونبات وجماد وسماء وأرض وما

فيهما يراها أولئك الجاحدون بأعينهم عاجزةً مقهورةً في أمور أنفسها فضلاً عن أمور غيرها، لا تقدر علىٰ شيء، ثم يعبدونها! ولكنهم عموا وصمُّوا عن الحق واتبعوا أهواءهم فضلّوا السبيل، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد كشف الله عن ضلال المشركين في عبادتهم الأصنام بمَثَلٍ بليغ ضربه وأسرهم بالتبصُّر فيه، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

والذبابُ مخلوقٌ ـ مع صغره ـ وضعفه يحتوي علىٰ رأس وعينين وجناحين وأعضاء، وهي علىٰ غايةٍ من الدقة والإحكام، ويتدرّج في نموه ويتوالد ويمضي في الهواء في كل اتجاه، ويتغذّىٰ بما يسطو عليه من الغذاء، فهو من دلائل إبداع صنع الله وقدرته الباهرة.

ولما عبد المشركون الأصنامَ من دون الله أظهرَ اللّٰهُ عَوارهم وفسادَ عقولهم وفاحشَ جهلهم بمَثل ضربه لهم، فقال: إنّ هذه الأصنامَ التي تعبدونها بالغةٌ من العجز والضعف مبلغاً يستحيل معه أن تخلق ذباباً علىٰ ضعفه وحقارته ولو اجتمعت وتعاونت علىٰ خلقه، وذلك مالا يمكنُ إنكاره، فكيف تعبدونها والعبادة إنما تكون للإلٰه القادر علىٰ الخلق والإيجاد؟!

ومن بالغ عجزها أنها لا تستطيع أن تستنقذ من الذبابِ الحقيرِ الضعيفِ ما يسلبه منها من الطيب والعسل اللذين تَضمَّخ بهما، تكرمةً لها من عَبَدَتِها الجاهلين ولا أن تنتصف منه لنفسها، فكيف تشركونها مع الله وتعبدونها مع

هذا العجز الفاضح عن الانتصاف من أضعف خلق الله! ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، (الطالبُ) لِمَا سُلب منه وهو الأصنام، (والمطلوب) منه ردُّ المسلوب وهو الذباب[1]، ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرفوه حقّ معرفته، وما عظّموه حق تعظيمه، وما وصفوه حقّ وصفه حيث أشركوا به أصناماً عاجزةً أشد العجز عن الانتصاف لنفسها من أضعف الخلق وأحقره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قادرٌ غالب، فهو الحقيق بالعبادة وحدَه، لا شريكَ له، فكيف تتخذون العاجز المغلوبَ المقهورَ شبيهاً له ومعبوداً مثله! وفي الحديث القدسي قال الله عزّ وجل: «ومن أظلمُ ممّن ذهبَ يخلق كخلقي! فليخلقوا ذرةً أو ذبابةً أو حبةً».

٦ ــ دلالة الكائنات علىٰ القدرة الإلهية:

وقد أثبت العلمُ الصحيح والبراهينُ القاطعة أن الكونَ كلَّه علويَّه وسفليّه، ناطقَه وصامتَه: مترابطُ الأجزاء، متناسقُ التركيب، متفاعلُ القوىٰ، لو انحرفت ذرةٌ واحدةٌ منه عن سَنَنها الذي رُسم لها والذي خُلقَت لأجله قيدَ شعرةٍ لاختل نظام العالم وتناثر عِقد إحكامه، ووقعت السماواتُ علىٰ الأرض، فالعوالم كلها لا تزال ولن تزال متماسكةً مترابطةً متجاذبة، تؤدي وظائفها التي خُلقت لأجلها علىٰ أتم نظام وتدبير وإحكام إلىٰ الوقت الموعود.

فمَن الخالقُ لكل ذلك؟ ومَن هو واهبُ هذه القوة العظيمة؟ ومن هو المحرِّك للأفلاك في السماوات والمُجري لها في مَداراتها والحافظ لسيرها

---

(١) وقيل: الطالب عابد الصنم، والمطلوب: الصنم، والأول أظهر.

ونظامها والقائمُ بتدبيرها منذ وُجد العالم؟ والممسكُ للسماواتِ أن تقعَ على الأرض؟ ومن هو المُجري للفُلْك في البحار وللسحاب في الأجواء والمدبِّر للكائنات الأرضية كلها؟ والحفيظُ على ما اشتملت عليه السمواتُ والأرض من أفلاكٍ ونجوم نيرات وأممٍ مختلفة الأجناس واللغات والطبائع؛ ومصنوعاتٍ بديعة الصنع محكمةِ التدبير تؤدّي وظائفها بإحكام طوال الدهور؟ أليسَ هو اللهَ رَبَّ العالمين؟! العليمَ القديرَ المدبّر الحكيم مالك الملك كلِّه بلا شريك ولا معين! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، لا إله إلا هو سبحانه.

وكذلك أودع الله تعالى في الإنسان والحيوان من سرِّ الحياة والتكوين ما لا يقدر عليه سواه، وإذا حاول أمهرُ المصوّرين والصانعين محاكاةَ شيءٍ منهما فلن يكون إلا في الصورة فقط، أما بعثُ الحياة والاستعداد للنموّ والحركة فلن يستطيعه أحدٌ من الخلق، وإنما هو الله وحدَه سبحانه، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وكذلك جمعُ الخواصّ والمنافع التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته كما علم وأراد لن يستطيع أحدٌ من الخلق إيجادَ خاصةٍ منها لشيءٍ لم يُرد الله سبحانه وتعالى أن تكونَ له، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ

شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣]، فهل للشركاء الذين أقامهم المشركون للعبادة من دون الله قدرةٌ علىٰ شيءٍ من ذلك؟! كلا؛ بل هو الله العزيز الحكيم، لا ربَّ سواه، ولا معبودَ إلا إياه.

٧ ــ تسبيحُ الكائناتِ بحمدِه تعالىٰ:

وكذلك كل ما في الوجود ناطقٌ بلسان حاله بقدرته تعالىٰ ووحدانيته، وحكمته وتدبيره في صنعه، وبافتقاره إليه في وجوده وكينونته وبقائه، ناطقٌ بحمده تعالىٰ علىٰ ما أفاضَ من نِعَمِه وإحسانه وجوده وكرمه سبحانه، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ لأنه ليس بالجارحة؛ بل بلسان الحال؛ وهو أفصحُ وأصدقُ في هذا البيان، لا يحتمل كذباً ولا رياءً ولا تأويلاً، بل قال بعض المحققين إنه تسبيحٌ حقيقةً بنطقٍ وبيان، وقد أقدرَ الله بعضَ أصفياء عباده علىٰ فهم تسبيح بعض الحيوان والجماد كداودَ وسليمانَ ومحمدٍ عليهم الصلاة والسلام، قال رسولُ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لمّا استقبلني جبريلُ عليه السلام بالرسالة جَعلتُ لا أمرُّ بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال: السلامُ عليك يا رسولَ الله»[1]، وقال ابن مسعود رضيَ الله عنه: «كنا نأكلُ مع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ونحن نسمعُ تسبيحَ الطعام»[2]، وقال أنسٌ رضيَ الله عنه: أخذ النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم كفّاً من

---

(١) رواه البزار في مسنده برقم (٢٣٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٣٣) من حديث ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح.

حصىً فسبَّحن في يده حتىٰ سمع التسبيح، ثم صبّهن في يد أبي بكرٍ فسبَّحن، ثم في أيدينا فما سبّحن»[١].

وقال تعالىٰ في شأن داودَ عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، وقال: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠]، أي: سبّحي معه، فكان إذا تخلّل الجبالَ وسبّح تجاوبه بالتسبيح علىٰ نحو ما يسبح. وكلام النمل لسليمانَ عليه السلام منصوصٌ في القرآن بصورةٍ واضحةٍ لا تدع مجالاً للشك أو التأويل، فتبارك الله أحسنُ الخالقين، وجلَّ أن تناله الظنون والأوهام وهو المَلِك المتعالي، أو تحيطَ به الجهاتُ وهي من خلقِه، أو تعتريه سماتُ الحادثات وهي محلُّ التغيير والفناء، أو يشركه أحدٌ في ذاته أو صفاته أو أفعاله، وهو المنفردُ بالوحدانية في كل ذلك، سبحانه وتعالىٰ عمّا يصفون.

٨ ـ كلمة التوحيد وحقها علىٰ العباد:

واعلم أيها الأخ أن جميعَ العلوم الدينية ووسائلها ترجع إلىٰ شرحِ هذه الكلمة المشرَّفة وبيانِ حقّها علىٰ العباد وما يتبعُه من أمور العبادات والمعاملات، اعتقاداً وقولاً وعملاً، وقد تقدّم شرحُ معناها.

أما حقّها فاعلم أنه التصديقُ بمعناها تصديقاً يقينياً، والإقرارُ بها إقراراً صادقاً، والخضوعُ للألوهية خضوعاً كاملاً، بالتزام العبادة والطاعة، والانقياد لجميع الأوامر والنواهي، فيشتركُ في القيام بحقّها القلبُ واللسانُ والجوارح.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»: (١٢٤٤).

وهي في جملتها ميثاقٌ بين العبد وربه علىٰ القيام بحقّها، والتزامٌ من العبد بذلك ما دام في الدنيا طمعاً في النجاة والفوز في الأخرىٰ إذا وفىٰ به.

وقد قيل لوهب بن منبّه: أليس مفتاحُ الجنة (لا إله إلا الله)؟ قال: «بلىٰ، ولكن لكل مفتاحٍ أسنانٌ لا يُفتح إلا بها». ومن أسنانه لسانٌ طاهرٌ من الكذب والغيبة، وقلبٌ خاشعٌ طاهرٌ من الحسد والخيانة، طاهرٌ من الحرام والشبهة، وجوارحُ مشغولةٌ بالخدمة، طاهرةٌ من الآثام، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فمن صدَّق بها بجَنانه، وأقرَّ بها بلسانه، وقام بموجَبها بجوارحه: سعدَ في دنياه وآخرته، وكان مؤمناً حقاً، ومسلماً صدقاً، ومن لم يصدّق بها بقلبه فهو كافرٌ مخلَّدٌ في النار، ومن أقرّ بها بلسانه ولم يصدّق بقلبه فهو منافقٌ مخلّدٌ في النار، ومن صدّق بها بقلبه وأقرّ بها بلسانه ولكنه لم يقم بموجبها بجوارحه فهو مؤمنٌ عاصٍ يعذَّب علىٰ عصيانه ما شاء الله أن يعذَّب، ولا يخلد في النار.

ومن ثمرات التصديق القلبي والإقرار اللساني بهذه الكلمة المشرّفة أن العبدَ لو عاش طولَ عمره جاحداً وحدانيةَ الربّ تعالىٰ وعظمتَه وجلاله وقدرته، يعبد الصنمَ ويخضع للوَثَن؛ ثم قالها مؤمناً مقرّاً بها: عصمَ مالَه ودمه، وخرج من ذنوبه وآثامه كيوم ولدته أمه، لأنّ الإسلامَ يجُبُّ ما قبله، والتوبة تمحو الذنوب، وفي الحديث: «أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابُهم علىٰ الله»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٠) (٢١) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما.

وحق الإسلام: ما شرعه الله من القصاص، والحدود، فلا تمنع كلمةُ الشهادة قائلَها بعد أن التزم بأحكامها من إقامة الحدّ عليه قتلاً أو قطعاً أو تعزيراً إذا فعل ما يُوجبه من قتلٍ أو زنىً أو سرقةٍ أو إضرار، فذلك حقّ الإسلام.

وإنما قال: (وحسابُه علىٰ الله) لأنّ الإقرارَ ظاهر، والتصديقَ والإذعانَ في السرائر، ولا يطّلع عليها إلا من يعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور، ولم نُؤمَر بالتنقيب عن القلوب، وإنما أُمرنا بالعمل بالظاهر، رحمةً من ربّ العالمين.

* * *

ملاحظةٌ

هنا أود أن أقفَ قليلاً لكي أوضحَ للقارىء الكريم أنني كلما حاولت أن ألخِّص أو اختصرَ نصَّ أي مبحثٍ من مجموع المباحث التي احتوت عليها هذه الرسالة بدءاً بأول مبحث فيها: أجدُ نفسي عاجزاً عن تنفيذ هذه المحاولة الصعبة، لأن ذلك يتطلّب مقدرةً علميةً تساعد علىٰ عملية التلخيص أو الاختصار من دون أن تفقد رصانة الأسلوب وبراعة الكلمة وروعة العرض، والتي هي في مجملها كما قال فضيلة الشيخ حسنين في مقدمته: «ثمرة علمٍ ودراسةٍ وتجارب»، ولا يسعني وقد جعلتُ الهدفَ والغايةَ من كتابة هذه الترجمة هو إبراز الجانب العلمي في حياة سيدي الوالد رحمه الله إلا أن أمضيَ بعون الله وأواصل الكتابةَ مع ما بقي من مباحث بنفس الأسلوب الذي بدأت به، وهنا أكون قد حققت ولو جزءاً يسيراً من الهدفِ الذي أسعىٰ إليه، ورغبةِ الكثير من محبيه ومريديه، خاصةً وأنه قد فاتنا معظم إنتاجه العلمي، وليس بكثيرٍ أن تحتوي هذه الترجمة علىٰ مجموع محتوى رسالة «مفتاح الجنة»، ولا أرىٰ فيما أقدمتُ عليه ما يخالف لحدمًا كتبَ التراجم، ولم تتغلّب عليَّ هذه الفكرة التي أقدمتُ عليها إلا بعدَ أن خطوتُ خطواتٍ فشلتْ معها كل محاولةٍ للتلخيص أو الاختصار كما أوضحتُ آنفاً، فعودةً إلىٰ استكمال مابدأنا به من المباحث رجاءَ النفع والفائدة.

* * *

٩ ـ توقف الإسلام على الجمع بين الشهادتين:

ثم إن جميعَ الأحكام المترتبة علىٰ هذه الكلمة الطيبة في الدنيا والآخرة لا يظفر بها إلا من جمعَ بين الشهادة بها والشهادة بالنبوة والرسالة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدِنا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فمن أقرَّ بشهادة التوحيدِ لله تعالىٰ وأنكرَ الشهادة بالرسالة له صلىٰ الله عليه وآله وسلم فليس من أهل التوحيد، بل هو كافرٌ بالله كالذي ينكر التوحيد، مكذِّبٌ لخبرِ الله عن رسوله ولأمره بالشهادة له بالرسالة وبطاعته واتباعه وسلوكٌ طريقه وتحذيره تعالىٰ من مخالفة أمره، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران:٣١]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

ولا تتم الشهادة بالرسالة لمحمّدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم حتىٰ يعتقد عمومها إلىٰ كافة الخلق من العرب والعجم والإنس والجن، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، فمن نفىٰ عمومَ رسالته أو قال إنه رسولٌ إلىٰ العرب خاصةً فقد كفرَ، لما سمعتَ من الآياتِ الصريحة بعمومها.

وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعثت إلىٰ الناس كافّة»[١]، وكاتب ملوك العالم يدعوهم إلىٰ الإسلام ما أمكنه التبليغ.

وانتشرت دعوة الإسلام في كافة أنحاء الدنيا ومختلف أُممها من أنواع البشر، وأقبلت عليه برغباتٍ صادقة، وقلوبٍ واعية.

وأذكر للمناسبة أبياتاً من قصيدةٍ قلتُها في دعوته صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وهي:

ولقد هبطتَ إلىٰ البلاد معلِّماً ... كالغَيثِ طبّقَ عَرضَها والطُّولا

أو كالمُنيرةِ في ضُحاها لم تَدَعْ ... ليـلاً ولا نجمـاً ولا قِنْـدِيـلا

وتركتَها سمحاءَ لامعةَ الصُّوىٰ ... جرَّت علىٰ كتب السماءِ ذيولا

دارت مع المَلَوَينِ واتخذت لها ... جندَ الحقيقةِ مسعداً ومديلا

وسفيرُها القرآنُ يهدي للتي ... منهـاجُهـا أقـوىٰ وأقـومُ قِيـلا

١٠ ـ دلائل وجود الله ووحدانيته:

علمتَ أن كلّ ما حواه الوجود من مبدعاتٍ كاملة ومخلوقاتٍ مختلفة، سماويةٍ وأرضية، وحيوان ونبات وجماد؛ دلائلُ علىٰ القدرة الإلٰهية، وحَسْبُ العاقل أن يفكّر فيها وفي صنعها وإحكامها ليستدلّ بها علىٰ وجود الله وقدرته الباهرة، ويخضعَ لجلاله وعظمته وكماله وحكمته، ويعبده حق عبادته، وكلها مثبوتةٌ في الكتاب والسنة، ومرقومةٌ في صحائف الوجود.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»: (١٢: ٤١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١: ٢٢٢)، ولفظه: «أرسلت إلى الخلق كافة». وأحمد في «مسنده»: (٢٧٤٢، ٩٣٢٦، ٢٢١٩٠).

ومن القضايا البديهية أن كل مصنوعٍ لا بد له من صانع، وكل حادثٍ لا بد له من محدِث.

فهل يقبل العقلُ أنَّ داراً انتصبت بنفسها من غير بانٍ ومهندس، وأنَّ فُلكاً وُجد من غير صانع ماهر، وأن السمٰواتِ مرفوعةٌ بنفسها وأفلاكَها متحركةٌ بإرادتها؟ كلاّ، وهل يقبل عقلٌ أن تقوم هذه المملكة العظيمة المحكَمة في السماء والأرض بلا صانع قادرٍ حكيم؟! كلا ثم كلا، بل كل ذلك بخلقه تعالىٰ وقدرته وحكمته وحدَه لا شريك له في شيءٍ من ذلك.

قيل لأعرابي: ما الدليلُ علىٰ وجود الإلٰه تعالىٰ؟ فقال: سبحان الله! إنّ البعرَ ليدل علىٰ البعير، وإن أثر الأقدام يدل علىٰ المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، ألا يدل ذلك علىٰ وجود العليّ القدير؟!

وسأل بعضُ الزنادقة الإمامَ أبا حنيفةَ رضيَ الله عنه عن دليل وجود الباري عزّ وجل، وتهدّدوه إن لم يقنعهم، فقال: دعوني فإني مفكّرٌ في أمرٍ عجيب قد أُخبرتُ عنه، ذكروا لي أنّ سفينةً في البحر موقرة، فيها أنواعٌ من المتاجر وليس بها أحدٌ يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواجَ العظام حتىٰ تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، قالوا: هذا شيءٌ لا يقوله عاقل، قال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكَمة ليس لها صانع؟! فبهت القوم ورجعوا إلىٰ الحق وأسلموا علىٰ يديه.

ومما جاء في القرآن الكريم من الآيات الداعية إلىٰ وجود التأمل والتفكّر في بدائع الصنع الإلٰهي في كل شيءٍ كائن للاستدلال بها علىٰ قدرة

الصانع ووجوده ووحدانيته في مملكته: قولهُ تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾[الأنبياء:١٦]، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق:٥-٧]، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية:١٧-٢١]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد:٢٤]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

١١ ــ قصيدةٌ رائعةٌ للإمام عبدالله بن جَعْفَر مُدْهِر:

وإليكَ قصيدةً عصماءَ في مجال التنويهِ بعظيم صُنع الله والتنزيهِ لكماله وجلاله، والتذكير بنعمائه ونواله، للسيد الإمام عبد الله بن جعفر مدهر العلوي، نذكرها بنصّها لترابط دراري نظمِها، وأخذِ معاني بعضها برقاب بعض، واشتمالها علىٰ لطائفَ ومعارفَ ونظام، تهيم في فهمها الأفكار، وتسكر الأرواحُ من أُنسها وقدسيتها بغير مُدام، وتزكو طِيباً من ريّا نفحاتِ مسك ذلك الختام، فلا عتبَ إذن علىٰ المحبّ إذا أطنبَ في نعتها ولا ملام، ولا إذا تمنّىٰ أن يدنو من مضاربِ خيامها ويحظىٰ برشف الحُمَيّا وكشف اللثام، وها هي القصيدة:

بانت القدرةُ من ربٍّ قديرِ ... وتجلّت فهيَ نورٌ فوقَ نورِ
صدعَ الحقُّ بما أوضحَه ... صاحبُ القوةِ والشأنِ الكبيرِ
هذه النيرانُ لاحت للهُدىٰ ... في دُجىٰ الليل فجدُّوا في المسيرِ

إنّ موسىٰ قد كفَتْه قبلَها   خيرُ نارٍ أُوقدت من خيرِ طُورِ
سبقت أرواحُ قومٍ عطشوا   فارتووا من ذلك الماءِ النَّمِيرِ
وسَقَوا جمرَ النوىٰ خمرَ الهوىٰ   فتداوَوا من جِمارٍ بخُمُورِ
وتبقّوا بينَ أحوالٍ فهُم   بينَ أفراحٍ وطِيبٍ وسُرورِ
وحضورٍ وحبورٍ ورضا   وقُصورٍ وجِنانٍ وزُهُورِ

* * *

قفْ علىٰ أبوابه معترِفاً   في مقامِ البائسِ العبدِ الفقيرِ
باسطَ الكفِّ إلىٰ ذي كرمٍ   واسعِ المعروفِ توّابٍ غفورِ
مُتعالٍ دائمٍ منفردٍ   صمَدٍ مقتدرٍ بَرٍّ شكورِ
وعليٍّ وعظيمٍ قاهرٍ   ورفيعٍ وسميعٍ وبصيرِ
وحليمٍ وكريمٍ مُحسنٍ   ورَؤوفٍ ولطيفٍ وخَبيرِ
جَلَّ ذو القدرةِ في قدرتِهِ   عن نَدِيدٍ وسَمِيٍّ ونَظِيرِ
وتعالىٰ عن صباحٍ ومَسا   هو فيهِ أو عَشِيٍّ أو بُكورِ
ومكانٍ وزمانٍ يحتوي   منه تكييفَ قديمٍ وأخيرِ
أو بدوٍّ أو نهاياتِ مدىٰ   أو عديدٍ من سنين أو شهورِ
أو عيونٍ أو ظنونٍ أدركت   أو دهورٍ فهو خَلّاقُ الدهورِ

* * *

يا نجومَ الليل مَن ردَّكِ مِن   جانبِ المشرقِ عقبىٰ أن تَغُوري
مَن سواه صاحبُ العزّ الذي   قال بالقدرةِ للأفلاكِ دُوري

يا هلالاً عاد كالعرجونِ مَن خلَّ عن جسمك لألاء البدورِ
قل لهٰذي الشمس مَن عرَّفها طُـرْقَهـا بيـن ورودٍ وصـدورِ
تقطـعُ الـدنيـا نهـاراً واحـداً ويكِلُّ الريحُ منها في المسيرِ

* * *

إنّ في الأرضِ كآياتِ السما بيّنـاتٍ ظهـرتْ أيَّ ظهـورِ
مِـن ثمـارٍ مـن نبـاتٍ طـالـعٍ من سيولٍ من غَمامٍ من بحورِ
مـن جبـالٍ أُنـزلـت مـن بَـرَدٍ لاقت الشمسَ فذابت بالحرورِ
ونهـارٍ بعـدَ ليـلٍ دامـسٍ وظـلامٍ آخـرَ الصبـحِ المنيـرِ
وحيـاةٍ وممـاتٍ فيهمـا يستـوي حـالُ صغيـرٍ وكبيـرِ

* * *

كلُّ ذا بالكاف والنون جرىٰ فهْوَ مـن غيـرِ لُـغُـوبٍ وفتـورِ
يـا خَفِـيَّ اللطـف يـا ديّـانُ يـا ذا العَطا ياجابرَ العظم الكسيرِ
يـا غيـاثَ المستغيثيـنَ ويَـا ملجأ اللاجي وأمنَ المستجيرِ
يا ملاذي كن ملاذي واكفني كلَّ سوءٍ يا نصيري كن نصيري
واكفنـا مِـن هَـمّ دنيـانـا ومِـن شدّة الموتِ ومن نار السعيرِ
وصـلاةُ المَلِـكِ الأعلـىٰ علـىٰ أحمدَ المختارِ تكرارَ العصورِ

* * *

قال بعضُ العارفين: من طلب دليلاً علىٰ وحدانية الله فالحمارُ أعرفُ

بالله منه، فلا يكن نظرُك إلىٰ الموجوداتِ نظرَ الطفل الرضيع أو الجامدِ الجاحد، يراها أمام بصره هياكلَ ماثلة، بل نظرَ المعتبر الرشيد، يشهد الصانعَ في الصنعة، ويشهد المكوِّن في الأكوان، فإن استعظم خلقها وتكوينها فخالقها أعظم وهو بكل شيءٍ محيط، ولله درّ من قال:

كـل مـا تـرتقـي إليـه بـوهـمٍ ... مِـن جـلالٍ وقـدرةٍ وسنـاءِ
فـالـذي أبـدعَ البَـرِيّـةَ أعلـىٰ ... منـه سبحـانَ مبـدِعِ الأشيـاءِ

* * *

١٢ ـ أثر التوحيد وكلمته المشرَّفة:

إن التوحيدَ أعظم النعم وأنفعُها في الدنيا والآخرة، فعلىٰ من أنعم الله عليه به أن يعرف قدرَ تلك النعمة ويسعىٰ في حفظها ورعايتها ودوام الشكر عليها والاغتباطِ بها، وأن يجتهدَ في تقوية توحيده بملازمة الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة التي هي فروعُ التوحيد وثمراتُ الإيمان، مع اجتناب أضداد ذلك من الأخلاق السيئة والمعاصي.

وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1]، والمعاصي بريدُ الكفر، وعند فقد التوحيد والإيمان لا ينفع شيءٌ من الأعمال ولو كان عمل الأولين والآخرين، وحيث بقيَ مع الإنسان توحيده وإيمانه فلا يضرُّه

---

(١) متفق عليه، البخاري: (٢٤٧٥)، (٦٧٨٢)، (٦٨١٠)، (٦٨٠٩)، (٥٥٧٨)، (٦٧٧٢)، ومسلم: (٥٧).

شيءٌ ولو قارف المعصية، فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها من كان في قلبه مثال ذرةٍ من إيمان.

وإن للشهادتين أثراً عظيماً في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتقوية الرابطة الاجتماعية، فإن في شهادة أن لا إله إلا الله تحريراً للعقول من الأوهام، وتطهيراً للنفوس من أدران الشرك، وسُمُوّاً بها من حضيض العبودية لغير الله تعالىٰ، ومن الانحطاط إلى رذيلة عبادة الأصنام والحيوان والإنسان، وبها جمعُ القلوب علىٰ معبودٍ واحد، وتوجيهُ الوجوه إلىٰ قبلةٍ واحدة، ولهذا التوحيد أثره الطيب في جمع القلوب وتعاون بني الإنسان علىٰ الخير والصلاح. كما أن في شهادة أن محمداً رسولُ الله والإيمان برسالته وكتابه القويم تقويةً للأخلاق، وإصلاحاً للنفوس، وأسوةً حسنةً في جميع الشؤون.

فهاتان الكلمتان هما كنزُ المؤمن ورأس ماله، ومرجعُ سعادته في الدنيا والآخرة لمن تحقق بمقتضاهما واستنار بسناهما فيما يلزمه من جانب التوحيد والتعلّق بالجانب الأقدس، واستلهام واردات إمداداته، والتعرّض لنفحات وصله وصِلاته، وفيما يلزمه من جانب الاتباع لرسوله الأكرم والعروة الوثقىٰ والأسوة الحسنة، في سائر المعاملاتِ الدينية والدنيوية، وفي صلاح المعاش والمعاد والقلب والقالب والفرد والمجموع، فعلىٰ قطب هاتين الشهادتين يدور صلاحُ بني الإنسان في الدارين.

واعلم أن لهذه الكلمة المشرّفة شطرين أحدُهما نفيٌ، وهو قولك: (لا إله)، والآخرُ إثباتٌ وهو قولك: (إلا الله)، فإذا صدر النفي معقَّباً بالإثبات فمعناه من المسلم تقريرُ التوحيد في القلب بهذه الكلمة الشريفة المنافي للشرك الأكبر الذي يقدح في أصل الإيمان. ويتأكّد بتكرارها قلباً ولساناً،

قال عليه الصلاة والسلام: «جدّدوا إيمانكم بلا إلٰه إلا الله»[١]، والمنافي أيضاً للشرك الأصغر وهو الرياء في العبادة وحبّ التعاظم علىٰ الخلق والاستعلاء عليهم، وغير ذلك من كل عملٍ يُلاحِظ فيه العامل نظرَ الناس ويشتهي ثناءهم وتعظيمهم والمنزلةَ عندهم، وفي الخبر: «الشركُ في أمتي أخفىٰ من دبيبِ النمل»[٢]، وهذا الشرك الأصغر لا يقدح في أصل الإيمان الذي يدور عليه أمر النجاة ولكن يقدح في كماله، فكلمة (لا إلٰه إلا الله) تنفي الشركَ الأكبرَ والأصغر من الناطقِ بها المخلِص اعتقاداً وعملاً، وفي تقديم النفي وهو (لا إلٰه) تخليةٌ للقلب عن تلك الخفايا والأدران ثم تحليته وعمارته بأنوار التوحيد والإيمان بذلك الإثبات وهو (إلا الله)، فلا جرمَ أنّ في ملازمة الذكر وتكريره حصولَ تصفية الفؤاد وتطهيره، وتزكيته من الشوائب وتنويره، وتوفّرَ الحسنات بأعداد الذكر، كل تهليلةٍ بحسنة ومضاعفة الواحد بعشرة إلىٰ أضعافٍ كثيرة، فإذا لاحظ الذاكرُ أنها آيةٌ من القرآن وقصدَ القراءةَ مع الذكر كُتب له ثوابُ التلاوة.

ومن لطائف الإشارة أن كلمة الشهادة حروفها جوفية ليس فيها شيءٌ من الحروف الشفهية، للإشارة إلىٰ الإتيان بها من خالص الجوف وهو القلب لا من الشفتين، وأنه ليس فيها حروفٌ معجمة؛ بل مجردة من النقط، إشارةً إلىٰ التجرّد من كل معبودٍ سوىٰ الله، وأنّ (لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله) سبعُ كلمات، وللعبد سبعة أعضاء، وللنار سبعة أبواب، فكل كلمةٍ من هذه السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة عن كل عضو من الأعضاء السبعة.

---

(١) رواه أحمد (٨٦٩٥) وإسناده جيد كما قال الهيثمي في «المجمع»: (١: ٥٢).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك»: (٢: ٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٧: ١١٢)، (٩: ٢٥٣)، والحكيم الترمذي في «النوادر»: (٤: ١٤٧-١٥٠).

١٣ ــ تنبيهٌ مهم:

حيث علمتَ أن الإلٰهَ هو المعبود بحق، وأن العبادةَ لا تكون لغيره، ويعبَّر عنها بغايةِ الخضوع والتذلّل لجلال الله وعظمته، وأداءِ الأعمال الشرعية عبوديةً له واستسلاماً، ودعائه والاستعانة به في المُلماتِ تضرّعاً وابتهالاً، والخوفِ والرجاء منه، والرغبةِ والرهبةِ والحبِّ والإخلاص له، والتألّه والالتجاء إليه، والتوكل والاعتماد عليه، إلىٰ غير ذلك من واجبات ربوبيته وجلاله، ذلك المعنىٰ الرباني والشعور الديني الذي لا تعنو وتخنع وتسخُو به نفسُ المؤمن إلا لمولاها وخالقها عبوديةً وعبادةً وعبودةً؛ فاعلم أنه لا ينافي العبادة والاستعانة به تعالىٰ تعاطي الأسباب الحسية والمعنوية في دائرة ما أباح الله لعباده منها، كتناول الدواء والاستشفاء بآيات الله وأسمائه، والاستعانة في غير مذلةٍ بشخص لقضاء مصلحةٍ مشروعة، كالتماس الدعاء من مسلم والتوسّل به فيما لا يعدو مقدرته وطورَه إلىٰ الله تعالىٰ، وذلك بالتوجّه إليه تعالىٰ في قضاء ما رامه المتوسِّل من مطالب الدنيا والآخرة كما وعد بذلك في حديث: «ما تقرَّب إليَّ المتقرِّبون بمثل أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقرّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يبصر به ورجلَه التي يمشي بها ويده التي يبطِش بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه»[1]، ولا يطلب المتوسِّل من المتوسَّل به الإيجادَ والإنشاء، لأن ذلك لله تعالىٰ وحده وليس في مقدرة العباد وطورهم.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

ومثل خفض الجناح لوالديه من الذلّ والرحمة، ولِين الجانب والتواضع للمسلمين، وتوقير أولي العلم والصلاح والشرف والتأدُّب لهم؛ لا يقدحُ كل ذلك في توحيد المسلم ما دام مستيقناً أن هذه كلها أسبابٌ لا ثمرةَ لها ولا تأثيرَ إلا بإذن الله تعالىٰ ومعونته، وما دام يرُدُّ كل النتائج والآثار إلىٰ الله تعالىٰ ولا ينسب منها شيئاً إلىٰ المخلوقين إلا علىٰ سبيل التسبُّب والمجاز، فلا تسمّىٰ هذه عبادةً، ولكنها من تعاطي الأسباب وتبادل المنافع والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، ومعلومٌ أن التعاونَ إعانةُ كلٍ للآخر، وهي في حدود مقدرة الآدميين لا تتجاوز السببَ والمجاز، وربُّنا يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وفي الخبر: «والله في عَونِ العبد ما دام العبدُ في عون أخيه»[١]. هذا هو اعتقادُ أهل السنة والجماعة والسواد الأعظم من الأمة المحمدية، وعليه عملُهم من لَدُنِ القرون الثلاثة إلىٰ يومنا هذا، ومقرَّرٌ في كتبهم المستفيضة شرقاً وغرباً، فراجعها إن شئتَ.

وقد يلتبس علىٰ بعض الناس موجَب المنع ومقتضىٰ الجواز في عملٍ من أعمال المكلفين لخفاء العلة، فيحكم بحرمة انحناء الرأس عند تقبيل يد الوالد أو عالمٍ صالح مثلاً زعماً منه أنه تحيةٌ وتعظيمٌ مختصٌّ به الله، ولظاهر ما في حديث: «إن الرجلَ منّا يلقىٰ أخاه فينحني له؟ قال: لا، قال: فليلتزمه؟ قال: لا، فال: أفيأخذُ بيده؟ قال: نعم»[٢].

ولكن ينبغي تدقيق النظر في مثل ذلك فيعلم أنه ليس كل انحناءٍ يُقصَد

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٢٨).

به التعظيم، فقد يكون ذريعةً لغيره، فالانحناء عند التقبيل إنما هي وسيلةٌ عاريةٌ عن معناه الذي يقتضي الحرمة، وفسّر العلماءُ المنهيَّ عنه في الحديث بالذي يقصد به نفسُ التحية والتعظيم كما هو تحيةٌ عند بعض الأمم.

١٤ ـ واقعة حال:

وذكر سيدي رحمه الله واقعةً جرت له مع بعض الذين يستكثرون من وسائل الشرك بسبب الجهل والإفراط في الغلوّ والتشدّد الممقوت وسوء الظن بعباد الله الذين لا يعبدون إلا الله وحدَه لا شريكَ له، مخاطباً إياه بقوله: «أما نحن فلا نكفّر من أمَّ قبلتنا، ونُحسن ظننا في كل موحِّدٍ بالله سبحانه وتعالىٰ، ونعلم أن التعظيمَ الحق إنما هو لله وحدَه، وأن هذه الانحناءات لا للتعظيم بل لحاجاتٍ مشروعة وآدابٍ مرعية».

١٥ ـ لا بد للدخول في الإسلام من النطق بالشهادتين:

قدّمنا أنه لا بد في الإسلام من الشهادتين اعتقاداً، فلا يعد مسلماً من شهد لله بالوحدانية وجحدَ الرسالة، ونقول هنا: إنه يشترط لمن أراد الدخول في الإسلام أن ينطق بالشهادتين معاً بلفظِ (أشهد) أو بترجمته، وهي اللفظ الدال علىٰ العلم اليقيني والإذعان القلبي والتصديق الواقعي، حتىٰ كأنّ ما عمله وأيقنَ به أمرٌ مشاهد محسوسَ، فيقول: «أشهدُ أن لا إلٰه إلا الله، وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله»، فلا يكفي قوله: (لا إلٰه إلا الله) بلا شهادةٍ ولا اعتراف، ولا قوله (محمدٌ رسول الله) بدون ذلك.

وينبغي لمن يُسلم علىٰ يديه أحدُ الناس أن يلقّنه الشهادتين أو مرادفهما

من لغـةٍ أخرىٰ بما يفيد معناهما وإنكارَ ما يخالفهما وعـدمَ التردد فيهما، مع التبرّي من كل دينٍ يُخالف دينَ الإسلام، وإذا جاءه من يريد الإسلامَ فليبادر بتلقينه الشهادتين ولا يؤخّره ولو كان علىٰ المنبر في خطبة الجمعة فينزل ريثما يلقّنه الشهادتين ثم يعود، ولا تبطُل خطبته، فإن التأخيرَ رضاً ببقائه علىٰ الكفر وقد جاء مستسلماً، والرضا بالكفر كفرٌ، وقد تخترمه المنية قبل التلقين، وفي ذلك خطرٌ عظيم.

ولا يأخذ علىٰ تلقينه الشهادتين ودعوته إلىٰ الإسلام أجراً، فإن ذلك واجبٌ وأجره علىٰ الله، وأخذ الأجر عليه من العبد مساومةٌ في الدين وتنفيرٌ من الإسـلام وحرمانٌ من الثواب الجـزيل، ومن أسـلم علىٰ يديه أحدٌ فله الجنة، لقوله صلىٰ الله عليه وآله وسـلم: «من أسـلمَ علىٰ يديه رجلٌ وجـبت له الجنة»[1].

١٦ــ أول ما يجبُ تعليمه:

وأول ما يجب تعليمُه لمن دخل في الإسلام الأمورُ الضرورية التي لا يقومُ الإسلامُ إلا بها، كأركان الدين، والعلمُ بوجوب الصلوات الخمس وكيفية فعلها وشرائطها ومواقيتها والطهارة لها، وكالعلم بوجوب الزكاة والقدر الواجب منها والوقت الذي يجب فيه، والعلم بوجوب صوم رمضان وشـرائط الصـوم ومبطلاته، والعلم بوجوب الحـجّ علىٰ المسـتطيع وما به الاستـطاعة، وسائر المناسـك، والعلم بوجوب الواجبات العينيـة، وبتحريم

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»: (١٧: ٢٨٥) (٧٨٦)، و«الأوسط»: (٤: ٣٤) (٣٥٤٦)، و«الصغير»: (١: ٢٦٧) (٤٣٩).

جميع المحرّمات التي هـو عُرضةٌ للوقوع فيها، كالزنا واللواط وشرب المسكر والخيانة والقتل والسرقة والكذب والغيبة والنميمة وأشباه ذلك، وكالعلم بما تمسّ إليه حاجته الضرورية من شروط صحة البيع والشراء، والمعاملات والنكاح، وما إلىٰ ذلك، ليعمل بذلك عملاً صحيحاً.

وكل ذلك بالحكمة والرفق مع الحرص علىٰ التأليف واجتذاب القلب وإزالة الشُّـبَه والشكوك التي أثارها في نفسه أعداءُ الإسلام قبل إسلامه، ببيانٍ واضح مدعَّم بالدليل، لترسخ في نفسه الحقائق الإسلامية، وتزولَ الوساوس الشيطانية والأباطيل الكيدية.

ومن أهم الأمور معرفةُ ما يجبُ لله تعالىٰ وما يستحيل وما يجوز، معرفةً راسخةً يقينية، ويعينه علىٰ ذلك دراسة عقيدةٍ جامعةٍ علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة كعقيدة حجّة الإسلام الغزالي وعقيدة الإمام عبدالله بن عَلَوي الحدّاد، وكذا معرفة أسماء نبيّنا صلىٰ الله عليه وآله وسلم، واسمِ أبيه وأمه، وأنه وُلد بمكةَ وبُعث بها، وهاجرَ إلىٰ المدينة وتُوفي ودُفن بها، والإلمام ببعض معجزاته وفضائله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وغير ذلك مما لا يسع مسلماً جهلُه أو مما يحسن علمُه.

وهاكَ نصَّ عقيدة الإمام الحداد، وآثرتُها بالذكر لاختصارها واشتمالها علىٰ ما لا بدَّ منه من خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة، فخذها بقوةٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين:

١٧ ـ عقيدة الإمام الحدّاد[١]:

قال نفعَ الله به:

«الحمدُ لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

وبعد:

فإننا نعلمُ ونعتقدُ ونؤمن ونوقن ونشهدُ أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له، إلٰهٌ عظيم، مَلِكٌ كبير، لا ربَّ سواه، ولا نعبدُ إلا إياه، قديمٌ أزلي، دائمٌ أبدي، لا ابتداءَ لأوليّته، ولا انتهاءَ لآخريّته، أحدٌ صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا شريكَ له ولا نظير، وليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير.

وأنه تعالىٰ مقدَّسٌ عن الزمان والمكان، وعن مشابهة الأكوان، لا تحيط به الجهات، ولا تعتريه الحادثات، مستوٍ علىٰ عرشه علىٰ الوجه الذي قاله، وبالمعنىٰ الذي أراده، استواءً يليقُ بعزّ جلاله، وعلوّ مجده وكبريائه، وأنه تعالىٰ قريبٌ من كل موجود، وهو أقربُ إلىٰ الإنسان من حبل الوريد، وهو علىٰ كل شيءٍ رقيبٌ وشهيد، حيٌّ قيومٌ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، بديعُ السموات والأرض وإذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له (كن) فيكون، الله خالقُ كل شيءٍ وهو علىٰ كل شيءٍ وكيل.

---

(١) شرح هذه العقيدة الأستاذ فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر، وطبع بمصر مراراً مع العقيدة، وانتفع بهما خلقٌ كثير والحمد لله.

وأنه تعالىٰ علىٰ كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ عليم، قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً، وأحصىٰ كل شيءٍ عدداً، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] ويعلمُ السرَّ وأخفىٰ، ويعلم ما في البر والبحر، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأنه تعالىٰ مريدٌ للكائنات، مدبرٌ للحادثات، وأنه لا يكون كائنٌ من خير أو شر أو نفعٍ أو ضُرّ إلا بقضائه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يحرّكوا في العالم ذرةً أو يسكّنوها دون إرادته لعجزوا عن ذلك.

وأنه تعالىٰ سميعٌ بصيرٌ متكلمٌ بكلامٍ أزليّ لا يشبه كلامَ الخلق، وأنّ القرآنَ العظيم كلامُه القديم وكتابُه المنزَل علىٰ رسوله ونبيه محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وأنه سبحانه الخالقُ لكل شيءٍ والرازقُ له والمتصرّف فيه كيف يشاء، ليس له في ملكه منازعٌ ولا مدافع، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وأنه تعالىٰ حكيمٌ في فعله، عادلٌ في قضائه، لا يُتصوَّر منه ظلمٌ ولا جَور، ولا يجبُ عليه لأحدٍ حقّ، ولو أنه سبْحانه أهلكَ جميعَ خلقِه في طَرفة عينٍ لم يكن بذلك جائراً عليهم ولا ظالماً لهم، فإنهم مُلكه وعبيدُه، وله أن يفعلَ في ملكِه ما يشاء، وما ربك بظلّامٍ للعبيد، يثيبُ عباده علىٰ

الطاعات فضلاً وكرماً، ويعاقبهم علىٰ المعاصي حكمةً وعدلاً، وأن طاعته واجبةٌ علىٰ عباده بإيجابها علىٰ ألسنة رسله عليهم السلام.

ونؤمنُ بكل كتابٍ أنزله الله، وبكل رسولٍ أرسله الله، وبملائكة الله، وبالقَدَر خيره وشره.

ونشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، أرسله إلىٰ الجنّ والإنس والعرب والعجم بالهدىٰ ودين الحق ليظهرَه علىٰ الدِّين كله ولو كره المشركون، وأنه بلَّغ الرسالة وأدَّىٰ الأمانة ونصحَ الأمَّة وكشفَ الغُمَّة وجاهد في الله حق جهاده، وأنه صادقٌ أمين، مؤيَّدٌ بالبراهين الصادقة، والمعجزات الخارقة، وأنّ الله فرضَ علىٰ العباد تصديقَه وطاعته واتِّباعه، وأنه لا يَقبلُ إيمانَ عبدٍ وإن آمنَ به سبحانه حتىٰ يؤمن بمحمّدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم وبجميع ما جاء به وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، ومِن ذلك أن يؤمنَ بسؤال منكَرٍ ونكير للموتىٰ عن التوحيد والدين والنبوة، وأن يؤمنَ بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المعصية، وأن يؤمنَ بالبعث بعد الموت وبحشر الأجساد والأرواح إلىٰ الله تعالىٰ والوقوفِ بين يدي الله تعالىٰ وبالحساب، وأنّ العبادَ يتفاوتون فيه إلىٰ مناقَشٍ ومسامَح وإلىٰ من يدخل الجنة بغير حساب.

وأن يؤمنَ بالميزان الذي تُوزن فيه الحسنات والسيئات، وبالصراط وهو جسرٌ، ممدودٌ علىٰ متن جهنم، وبحوض نبينا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم الذي يشرب منه المؤمنون قبلَ دخول الجنة، وماؤه من الجنة.

وأن يؤمنَ بشفاعة الأنبياء ثم الصدّيقين والشهداء والعلماء والصالحين والمؤمنين، وأن الشفاعةَ العظمىٰ مخصوصةٌ بمحمدٍ صلىٰ الله عليه وآله

وسلم، وأن يؤمنَ بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد حتىٰ لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان.

وأنّ أهلَ الشرك والكفر مخلَّدون في النار أبدَ الآبدين، لا يخفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون.

وأن المؤمنين مخلَّدون في الجنة أبداً سرمداً، لا يمسَّهم فيها نصَبٌ وما هم منها بمخرَجين.

وأنَّ المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم علىٰ ما يليق بجلاله وقُدس كماله، وأن يعتقد فضلَ أصحاب رسولِ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وترتيبهم وأنهم عدولٌ أخيارٌ أمناء لا يجوز سبُّهم ولا القدحُ في أحدٍ منهم، وأن الخليفةَ الحق بعدَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أبو بكرٍ الصديق، ثم عمرُ الفاروق، ثم عثمان الشهيد، ثم عليٌّ المرتضىٰ رضيَ الله عنهم، وعن أصحابِ رسول الله أجمعين، وعن التابعين بإحسانٍ لهم إلىٰ يوم الدين، وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين». انتهىٰ.

فهذه هي العقيدة السديدة، الموافقة للكتاب والسنة الحميدة، التي لا يسع مسلماً ذكراً كان أو أنثىٰ جهلُها، ولا يصحُّ الإيمانُ بدون اعتقاد معانيها، ولا يشترط أن يحسنَ كل إنسانٍ التعبيرَ عنها، إذ الاعتدادُ بما يشتمل عليه القلب.

١٨ ــ فضائلُ الكلمة المشرَّفة:

ويحسُن أن نشيرَ هنا إلىٰ طرائف من فضائل تلك الكلمة الشريفة وما في ذكرها من اللطائف والأسرار المنيفة، فمِن ذلك ما صحَّ عن النبي صلىٰ

الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من كان آخرُ كلامه من الدنيا لا إلٰهَ إلا الله دخلَ الجنة»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس علىٰ أهل لا إلٰه إلا الله وحشةٌ في قبورهم، وكأني بهم وقد خرجوا من قبورهم ينفضون الترابَ عن رؤوسهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[٢] [فاطر: ٣٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلا الله»[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: «إني أنا الله لا إلٰهَ إلا أنا، من أقرَّ لي بالتوحيد دخل حصني، ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي»[٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «جدِّدوا إيمانكم»، قالوا: وكيف نجدّد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إلٰه إلا الله»[٦]، وقال عليه الصلاة والسلام: «سبحان الله نصفُ الميزان، والحمدُ لله تملؤه، ولا إلٰه إلا الله ليس لها دون الله حجاب»[٧]، وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «مَن شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وأن عيسىٰ عبدُ الله وكلمته ألقاها إلىٰ

---

(١) تقدم تخريجه أول «مفتاح الجنة».

(٢) الطبراني في «الأوسط»: (٩: ١٧١) (٩٤٤٥)، (٩: ١٨١) (٩٤٧٨).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والحاكم: (١: ٤٩٨).

(٤) الترمذي (٣٥٠٩).

(٥) ابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد».

(٦) تقدم.

(٧) الترمذي (٣٥١٨).

مريم وروحٌ منه، والجنةَ حق والنارَ حق؛ أدخله الله الجنة علىٰ ما كان منه من العمل»[١]، وفي روايةٍ لمسـلم: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله عليه النار»[٢].

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من قال لا إلٰه إلا الله مخلِصاً دخل الجنة»، قيل: يا رسول الله وما إخلاصُها؟ قال: «أن تحجزَه عن محارم الله»[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لقّنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله؛ فإنها تهدم ما كان قبلها من الخطايا»[٤]، وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم لمعاذ: «يا معاذ ما من عبدٍ يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرّمه الله علىٰ النار»[٥].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حرّم علىٰ النار من قال لا إلٰه إلا الله يبتغي بذلك وجهَ الله»[٦]، وقال عليه الصلاة والسـلام لأبي هريرةَ رضيَ الله عنه: «اذهب فمَن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهدَ أن لا إلٰه إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشّره بالجنّة»[٧].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥).

(٢) مسلم (٢٩).

(٣) الطبراني في «الأوسط»: (٢:٥٦) (١٢٣٥).

(٤) الشق الأول من هذا الحديث رواه مسلم (٩١٦)، وزيادة «فإنها...» الخ رواها أبو يعلى في «مسنده»: (٧٠)، والبزار.

(٥) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢٠).

(٦) رواه البخاري (٤١٥)، ومسلم (٣٣) من حديث طويل عندهما.

(٧) مسلم (٣١).

وجاء أعرابيٌّ إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلمَ فقال: يا رسولَ الله ما الموجِبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار»[١].

وجاء أن موسىٰ عليه السلام قال: يا ربِّ علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك، قال: «يا موسىٰ، قل لا إلٰه إلا الله»، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: «يا موسىٰ لو أن السماواتِ السبعَ وعامِرَهن والأرضين السبع في كِفّة ولا إلٰه إلا الله في كِفّة لمالت بهن لا إلٰه إلا الله»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حقُّ الله علىٰ العباد وما حق العبادِ علىٰ الله؟» قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: «فإنّ حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذِّبَ من لا يشرك به»، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل فقال: بشِّر أمّتك أن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخلَ الجنة»، قلت: «يا جبريل، وإن سرقَ وإن زنىٰ؟» قال: نعم، قلت: «وإن سرق وإن زنىٰ؟» قال: نعم، قلت: «وإن سرق وإن زنىٰ؟» قال: نعم، وإن شرب الخمر»[٤].

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»: (٥٥٨٥)، (٧٤١٠).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى»: (١٠٦٧٠) (١٠٩٨٠)، والحاكم (١: ٧١٠) (١٩٣٦).

(٣) رواه البخاري (٢٧٠١)، بخلف يسير في اللفظ عما هنا.

(٤) رواه البخاري (٧٤٨٧).

١٩ ـ حسنُ الخاتمة وسوءُها:

إن الموتَ علىٰ التوحيد والإسلام هو غاية سعادة الحياة وربح تجارتها، ولا يزال المسلمُ متضرِّعاً وسائلاً من الله أن يتوفّاه مسلماً، وبذلك وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده فقال مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وحكىٰ تعالىٰ عن إبراهيمَ أنه وصّىٰ بنيه وعن يعقوب أنه وصّىٰ بنيه أيضاً عليهما السلام بالموت علىٰ الإسلام، فقال تعالىٰ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢].

وعلىٰ الإنسان أن يجتهدَ حقَّ الاجتهاد في حفظ إسلامه وتقويته بامتثال أوامر الله تعالىٰ، فإن المضيِّع لأوامر الله متعرِّضٌ للموت علىٰ غير دين الإسلام، فإنّ تركَه الامتثالَ دليلٌ علىٰ استهانته بحق الدِّين.

وعليه أن يجانبَ المعاصيَ والآثام، فإنها تُضعف الإسلامَ وتزلزلُ قواعدَه وتعرِّضه للسَّلب عند الموت، وأن لا يزالَ سائلاً من الله حسنَ الخاتمة، والموتَ علىٰ الشهادة، وخائفاً وَجِلاً من سوء الخاتمة، فإنها القاصمة، والله مقلِّب القلوب، يهدي من يشاء ويُضلّ من يشاء.

واعلم أن كثيراً ما يُختم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة والزكاة الواجبة، والذين يتتبعون عورات المسلمين، والذين ينقصون المكيال والميزان، والذين يخدعون المسلمين ويغشّونهم ويلبّسون عليهم في أمور الدين.

ومنهم الذين يغضّون من مكانة السنة النبوية ويدعون إلىٰ انتقاصها بإلقاء

الريب والشكوك فيها، وهي أعظم مجموعةٍ من الآثار النبوية في التاريخ الإنساني، فإنه لم يُحفظ لنبيٍّ من الأنبياء من الأقوال والأعمال والأحوال ما حُفظ لنبينا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وقد حوت السنة من الأحكام التشريعية والتنظيمات الاجتماعية والمعاني الفذّة الواسعة والمعارف الجامعة ما لم يجتمع في أي مجموعةٍ غيرها.

وقد عُنِيَ أئمة الحديث بتدوينه وتمحيص رواياته أسانيد ومتوناً تمحيصاً كاملاً، حتىٰ ميّزوا صحيحها وبينوا سقيمها، وقدّموا للأمة صفوتها التي يُعتمد عليها في التشريع الإسلامي، وفيما به الاقتداء والاهتداء لأمة المسلمين من سُنَن النبي الأمين صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وقد تبع هؤلاء الملبِّسون أعداءُ الإسلام المستشرقين في هذه الدسيسة الخبيثة، واستدلوا بحديثٍ لا يصح وهو: «ما جاءكم من حديثٍ فاعرضوه علىٰ كتاب الله، فما وافقه فمني وما خالفه فليس مني»، ذكره جولد تسيهر في كتابه «العقيدة والشريعة»، وهو كذبٌ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وإنما الذي صحَّ عنه عليه السلام: «لا ألفينّ أحدكم متكئاً علىٰ متكىء، يصل إليه عني حديثٌ فيقول: لا نجدُ هذا الحكمَ في القرآن! ألا وإني أوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه»[١].

وأخرج أبو داودَ عن العِرباض بن ساريةَ السُّلمي مرفوعاً: «أيحسبُ أحدُكم متكئاً علىٰ أريكته أن الله تعالىٰ لم يحرّم شيئاً إلا في القرآن، ألا وإني قد أمرتُ ووعظتُ ونهيتُ عن أشياء إنها كمثل القرآنِ أو أكثر، وإن الله

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٣)، وأبو داود (٤٦٠٤)، وابن ماجه (١٣).

تعالىٰ لم يُحلّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضربَ نسائهم ولا أكلَ ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم»[١].

٢٠ ــ السنة، الأصلُ الثاني من أصول التشريع:

وإذا علمتَ أن السنةَ هي أقوال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وأفعاله وتقريراته فاعلم أنها وحيٌ غيرُ متلوّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، والكتابُ هو القرآن، والحكمة هيَ السنة، أنزلها عليه بوحيه وإلهامه، وإنما يمتاز عنها القرآن بأن ألفاظه العربية منزلةٌ من عند الله، وأنه معجزٌ للبشر لا يأتي أحدٌ بمثله ولا بمثل أقصر سورةٍ منه، وأنه معجزةٌ باقيةٌ علىٰ وجه الدهر، محفوظةٌ من التغيير والتبديل، إلىٰ خواصّ كثيرة للقرآن ليست للسنة من تعلُّق الثواب بتلاوته، وعدم جواز روايته بالمعنىٰ، ولا مسّ ما كُتب فيه ولا حمله مع الحدث، ولا كذلك الأحاديث سواء كانت قدسيةً أو غيرها.

والسنة:

هي بيانٌ وشرحٌ للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيّن صلىٰ الله عليه وآله وسلم وفصّل وأوضحَ بقوله وفعله وتقريره ما أجملَ في الكتاب، كعدد الركعات في الصلوات، وأوقاتها وشرائطها وسننها، ونُصُب الزكوات فيما تجب فيه

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٥).

الزكاة، وكذلك ما يتعلّق بالصوم والمناسك في الحج والعمرة من أركان وشروط ومفسدات وغير ذلك، كما جاء في السنة أحكامٌ لم يُنَصَّ عليها في الكتاب تفصيلاً في أبواب المعاملات، وآدابٌ وأخلاقٌ وفضائلُ ينتظم بها أمرُ الناس في الحياة أُثِرَت عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم وأمرنا الله تعالىٰ بالتأسي به فيها كما قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فيصير العبد الطائع المقتدي بالحبيب الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم محبوباً لله لمحبته لحبيبه.

وما أحسنَ قولَ مجنون ليلىٰ:

رأىٰ ليلىٰ فأعرضَ عن سواها ... محبٌّ لا يرىٰ حسناً سِواها
لقد ظفرتْ يداه ونال مُلكاً ... إذا كانت تراهُ كما يَراها

وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم عامٌّ في كل ما أمر به ونهىٰ عنه كما في الآيات الأخرىٰ والأحاديث الكثيرة.

ومنها قولُه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ»، قيل: ومن يأبىٰ يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ»[1]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فقد أمر الله تعالىٰ في كتابه باتباع سنة نبيه إيجاباً وتكليفاً، فلا يصحّ الإيمانُ إلا باتباعه، وإنكارُ العمل بالسنن كفرٌ لأنه إنكارٌ لما في القرآن.

ولهذا عُني المسلمون بالأحاديث من عهد الصحابة إلىٰ يومنا هذا، فدوّنوها كما قدمنا وتناقلوها روايةً وكتابة، وبحثوها درايةً علىٰ أبلغ وجهٍ في الحفظ والضبط والتحرير والتمحيص، فلا يغضُّ من قدر السنة ويجافيها إلا ضعيفُ الإيمان بصاحبها، خارجٌ عن جماعة المسلمين في منهاجهم وعقيدتهم؛ بل جاهلٌ بالإسلام أو عدوٌّ له مبين.

٢١ ـ تنبيهٌ:

كما أنه لا بد لمن يريد استنباطَ الأحكام الشرعية من الأصلين الكتاب والسنة من الإحاطة بهما علىٰ الوجه المبيّن في علم أصول الفقه، لا بد مع ذلك من التمكّن من اللغة العربية الفصحىٰ وأساليبها البلاغية وعلومها المعروفة، فإنها العُدة الضرورية لفهم الكتابِ العربي المبين ـ البالغ في علوٍّ أساليبه وطرائق بيانه حدَّ الإعجاز ـ والسننِ المأثورة عن أفصح ناطقٍ بالضاد وعن أصحابه أهل السنن وأئمة البيان والبلاغة.

ولا يجوز لمن فقد هذه الوسائل كلاً أو بعضاً أن يتصدىٰ لهذا المقام الخطير فيَضِلّ ويُضِلّ ويأثم الإثمَ الكبير.

٢٢ ـ فتنة ترجمة القرآن الحرفية:

فتنةٌ نائمةٌ لعنَ الله من أيقظها! هَذَىٰ بها بعضُ من لا يقدُر القرآنَ حقَّ قدره ولا يؤمن بإعجازه، فأخذ يترجم القرآنَ بإبدال لفظٍ بلفظٍ من اللغة المترجَم بها، وزعمَ ذلك ترجمةً مماثلةً للقرآن تحكيه وتؤدّي ما يؤدّيه، وهو زعمٌ باطلٌ بداهةً، فإنها قاصرةٌ عن الوفاء بمعانيه ومقاصده ومراميه، مجرَّدةٌ من خصائصه البلاغية وأسرار إعجازه، خاليةٌ من الروعة والجلال، فأين البيانُ من البيان، وأين البلاغة والإعجاز في هذا الهذيان؟! وقد أعجز الله مُنزِل الكتاب عامةَ الخلق عن الإتيان بمثله ولو بلغةٍ أخرىٰ فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولهذا اتفق العلماء علىٰ عدم إمكان ترجمة القرآن ترجمةً حرفيةً تماثله وتؤدّي معانيه ومقاصده وتحمل أسراره وخصائصه، وما أتىٰ به المجترئون في هذه التراجم بعيدٌ كل البعد عن القرآن بل عبثٌ ظاهرٌ بقدسيته، وكأني بهم يقصدون بتراجمهم الاستغناءَ بها عن القرآن وتقلُّصَ ظله وانتهاكَ حرمته وحرمانَ الناظرين فيها من شهود روعته وجمال أسلوبه وقدسية بيانه وجلاله المَهِيب.

وقال إمام الزمن الحبيب الجهبذ أحمد بن حسن العطّاس رحمه الله: إن كلامَ الله وكلامَ رسوله موضوعٌ لمخاطبة القلوب والقوالب والأشباح والأرواح والصور والمعاني، وجاءوا ليترجموا القرآنَ بعدُ باللغة الجاوية والهندية وغيرها، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، مشيراً بذلك إلىٰ وجود العِوَج في كلام البشر مهما بلغوا من الكمال دون كلام الله تعالىٰ.

أما الترجمة الحرفية بدون المثل فهي ـ وإن كانت أقلَّ خطراً من السابقة ـ لا تفي أيضاً بالمعاني المرادة من الآيات ولا تحمل الخصائصَ البلاغية وأسرارَ الإعجاز القرآني، وفيها كثيرٌ من الأخطار السابقة.

فمن أراد ترجمةَ القرآن حرفياً فإنما أرادَ تغيير إعجازه وتبديلَ مقاصده وهدمَ عربيته التي شاءها الله تعالىٰ وقامت بها الجامعة الإسلامية العربية، وما سمعنا عن السلف منذ عصر النبوة فما بعده تعرُّضهم لهذه الترجمة، إبقاءً علىٰ جلال القرآن وخصائصه ولغته التي نزل بها من عند الله تعالىٰ علىٰ قلب سيد المرسلين بلسانٍ عربيٍّ مبين.

ولذلك لمّا رام بعضُ الناس في مصرَ ترجمةَ القرآن هذه الترجمة قامت عليه قيامة العلماء وتناوشته أقلامُ النقد من كل صوت[١].

ولا يظن أحدٌ أن الترجمة الحرفية ضروريةٌ لتبليغ الدعوة الإسلامية، ولو كان الأمرُ كذلك لعمل بها الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهو مرسَلٌ إلىٰ العرب والعجم جميعاً، ولَنَصَّ القرآنُ علىٰ طلبها، ولَقَام بها العلماء في الصدر الأول حين تبليغ الدعوة، وإنما المطلوبُ شرعاً تبليغُ أحكام الإسلام وتعاليمه ومحاسنه ونشرُ أعلام التوحيد ودلائله كما يشير إليه القرآن والسنة النبوية، ولذلك لم يُـقدِم علىٰ نشر الترجمة أحدٌ في تلك العصور الزاهرة.

أما ترجمةُ معاني القرآن بأي لغةٍ وترجمةُ أقوال ثقات المفسّرين فهيَ

---

(١) وللعلامة المحقق الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي شيخ شيوخ الأزهر الشريف رحمه الله تعالىٰ رسالةٌ قيمةٌ في الرد عليه وتبيان حكم الترجمةِ الحرفية وأنها باطلة وترجمةِ المعاني وإنها جائزة، فراجعها إن شئت.

مطلوبةٌ ممن يُحسِن الترجمة علىٰ الوجه الذي لا يُخلّ بالمقصود، ليعرف بها من يجهل العربية أو لا يحسنها من أهل اللغات الأخرىٰ حقيقةَ الدعوة الإسلامية وما جاء فيها من معاني الآيات القرآنية، وذلك ما جرىٰ عليه المسلمون منذ تصدّي العلماء لتفسير القرآن.

٢٣ ـ التهاون برُتَب الدِّين:

ومما يُلحق بهذه الفتنة وينافي التمسّك بالأحكام والآداب الشرعية المندرجة في سلك العبادة الموفية بحق الألوهية تسوُّر بعض المتوسّمين في بعض البلاد منصبَ الفتوىٰ الدينية وحلِّ مشاكلها المتجددة وهم لم يُلمّوا بقواعد الأصول ولم يدرسوا الفقهَ علىٰ شيخ محقّق في كتبه المعروفة، ولم يحظَوا بشهادةٍ ولا إجازةٍ من أهلها في الإقراء فضلاً عن الإفتاء، بل لو وكلتَ إلىٰ أحدهم قراءةَ آيةٍ أو حديثٍ أو عبارةٍ قد لا يحسن قراءتها ولا إعرابها؛ فضلاً عن تحليل معانيها، فكيف الاستدلال بها! بينما ترىٰ المتصدِّرين للفتوىٰ في بلاد الإسلام الأخرىٰ المأهولة بعلمٍ لاينالون تلك المرتبةَ إلا بعد ممارستهم للعلوم الشرعية وعرضهم علىٰ محك الاختبار والامتحان واستشارة أولي النظرِ فيهم وشهادتهم لهم بالأهلية، فهناك يرتّبهم الحاكم وينتظم بهم شمل الشريعة ويتفيأ الناسُ ظلَّ عدالتها.

وترىٰ حكّام القوانين الأخرىٰ لا يرشَّحون للقضاء بها حتىٰ يُفنوا جلَّ شبابهم في الدراسة والبحث، ولا يكفي في ذلك ترشيحُهم حتىٰ ينالوا شهادة الخبراء بالكفاية، وهذا فيما هو من نتيجة آراء الرجال، فما بالك في الشريعة المطهَّرة التي هي من وحي الله تعالىٰ.

فهل تدري كيف يولُّون في منصب الإفتاء في هذه الناحية! إنهم يلتقطون المفتيَ من الطريق السابلة ويُسندون[١] إليه من أمر الشريعة ما لا يخطر له علىٰ بال! فيخبط خبطَ عشواء، ويركب متن عمياء، ويأتي بالفواقر التي لا يُرقع خرقُها ولا يُسد ثلمُها، وصدق رسولُ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إذ يقول: «إنّ الله لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبقِ عالماً اتّخذ الناسُ رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلّوا وأضلّوا»[٢].

وفي هذا الحديث غايةُ التحذير من استفتاءِ الجاهل والأخذِ بقوله، وغايةُ الوعيد لمن أفتىٰ بغير علم، والتسجيلُ عليه بأنه ضالٌّ مضل، ولو علم هؤلاء الغواةُ بخطورة موقفهم وإشرافهم علىٰ شفيرِ جهنم لانكَفُّوا عن هذا الموقف الرهيب.

عن عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ قال: «أدركتُ عشرين ومائةً من الأنصار من أصحابِ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، يُسأل أحدُهم عن المسألة فيردُّها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، حتىٰ ترجعَ إلىٰ الأول».

---

(١) يعني بها رحمه الله إفريقيا الشرقية كينيا، وتنزانيا، وأوغندا. . . ونراه هنا يعبر عن واقعة حال لم يشأ أن يفصحَ عنها واكتفىٰ بالتلميح عن التصريح، للتحذير من مغبتها ونتائجها، فهو من موقعه يرىٰ أن السكوتَ عنها لا ينبغي منه بصورة خاصة، ومن كل العلماء والدعاة بصورة عامة، وإن كان هذا الاستنكار لا يغير من الأمر شيئاً، لأن الدولة التي تصدر التشريعات والنظم والقوانين دولةٌ غير مسلمة وليس للإسلام من يرعاه أو يحمي شريعته في ظل سلطتها، وهو لا يملك إلا أن يقول: اللهم إني بلّغت، اللهم فاشهد.

(٢) رواه البخاري (١٠٠).

وعن الشعبيّ والحسن وأبي حُصَين التابعين قالوا: «إنّ أحدَكم يفتي في المسألة ولو وردت علىٰ عمرَ بن الخطاب لجمع لها أهلَ بدر».

وقد مثّل الإمامُ الغزالي لمثل هؤلاء المغرورين بعجوزٍ سمعت أنّ رجالَ الحرب أُثبتت أساميهم في ديوان السلطان فلبست الدرعَ وحملت السلاح ونهضت إلىٰ مجلس السلطان فأمر باختبارها وتعريتها عن السلاح وتجربتها في القتال والمبارزة، فلما وقع المغفر عن رأسها وخلع الدرع عن بدنها انكشفت عن عجوز فقيل لها: هذا استهانةٌ بالمَلِك، فتؤخذ وتقدَّم للنكال، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

٢٤ ــ الكفر والجحود:

الآن وقد أتينا علىٰ طرفٍ مما يجبُ معرفته من مباحث التوحيد والإيمان، ينبغي أن نشيرَ إلىٰ طرفٍ مما يتعلّق بضدهما وهو الكفر والجحود، وبضدّها تتميزُ الأشياء، وفي بيانه تبصرةٌ للناظرين، وتحذيرٌ من الشر والفتنة، ووقايةٌ من غضب الله وعقابه، فنقول:

إن الكفرَ هو الجهلُ الأكبر والظلم الأشنع، والتغطيةُ علىٰ أصل الفطرة التي فطر الله الناسَ عليها، والخروجُ عن سبيلها، فأي جهل أدهىٰ وأمرّ من جهلِ مَن لا يعرف ربَّه ولا يوحِّده، ويجعل له مِن خَلْقه شريكاً ونداً، كيف لا يعرف من خَلَقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره وسوَّاه وأودع فيه العقلَ وقوةَ الإلهام، ويأبىٰ أن يؤمنَ بآياته البيّنات ويذعن للحق المبين!

يشاهِدُ في كل ناحيةٍ من نواحي هذا الكون جميعَ الأشياء تنادي بلسان

حالها علىٰ ما في خلقها وصنعها من براعةٍ وإبداع ثم لا يهديه عقلُه إلىٰ معرفة ذلك الخالقِ العظيم القديرِ الحكيم الذي أبدعها وأخرجها من العدم إلىٰ الوجود.

من الذي أوجد المعادنَ وأودع الخواصّ فيها وفي الأحجار والأشجار، وركّب الفحمَ والهيدروجين والأوكسُجين والآزوت والصوديوم والكالسيوم وغيرها من المواد التي لا حياةَ لها ولا عقل، وجعلها قواماً لكائناتٍ حية وذواتِ منافعَ عظمىٰ، فمتىٰ يهتدي هذا المطموسُ القلبِ إلىٰ العلم الصحيح والعقل الرَّجيح وقد تغشّىٰ بظلمة الجهل في أول أمره، وتغطّىٰ بشملة الكفر طول عمره، وخالفَ فطرةَ الإسلام المفطورَ عليها بقلبه وقالبه وجوارحه، لغمرها بظلمات الخضوع والعبادة لغير الله، وفيه وفي أمثاله يقول الإمام الحداد:

وتثبَّـــطَ المتشكّكــــون ... وكــأنهــم ليســوا هنــا

سُحقاً لمَن يشكُّ في الـ ... ـحـــقّ وقـــد تبيّنـــا

فمن أظلمُ ممن يقضي حياته ظالماً كل شيءٍ حتىٰ نفسَه وجوارحه وعقله، وسوف تشهد عليه بإجرامه وسوء تصرّفه في محكمة الله العادلة حتىٰ الأرضُ التي مشىٰ عليها وسكن علىٰ ظهرها عاصياً لله، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٥٤]، أي: لأنفسهم ولغيرهم، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[الزخرف: ٣٩].

جحدَ الكافرُ النعمَ التي غمره الله بها من كل جانب وسخّرها له ومكّنه من استخدامها، فاستخدم عقله في غير مرضاةِ الله واستهان بمقام ربه، فكان كمن أُعطي سيفاً صقيلاً ليتجمّل به في المعارض ويضربَ به رؤوسَ الأعداء ويقيمَ به شوكةَ الأمن والعدل فذهب به إلىٰ الأحجار وأكوام التراب والأقذار وأخذ يضربها بحدِّه يمنةً ويسرة، فهل أدلُّ علىٰ حمقه وهوسه من فعله هذا؟!

بينما نراه يحكم بالكنود والكفران علىٰ من تناسىٰ ما عليه لصاحبه من معروف، ويرمي بالبغي والتمرّد علىٰ الحكومة موظفاً يخالف مصالحها أو رعوياً يتعدىٰ قانونها، فقل لي بالله: هل هناك بغيٌ أو كفرٌ أعظم من كفر من لا يؤمن بالله الذي خلقه ورزقه وعلّمه وأنطقه ويأبىٰ أن يقرّ له بالألوهية! وقد يشرك معه أحداً من خلقه ويُعرض عن توحيده وطاعته وامتثال أمره! ولن يضرَّ الله بذلك شيئاً وإنما بغيه وكفره علىٰ نفسه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٣].[(١)]

٢٥ ــ ذوو الكفر كثيرون:

وأشد الكافرين عتياً: الملاحدة الدهريون، الغارقون في غيابات الجحود المطبوع علىٰ قلوبهم وجباههم بطابع الشقاء والكنود، كهؤلاء الشيوعيين الذين لا يقتصرون علىٰ جحود الخالق وإنكار الرسل وما أتوا به؛ بل يتعدّون إلىٰ الإيقاع بالمؤمنين عتواً وعداوة، وإغراقاً في الكفر والقساوة، ويقذفون دينهم بكلماتٍ يرتجف القلبُ من ذكرها خطراً، ويرتعد القلم من تسطيرها حذراً.

ومنهم المشركون الذين يجعلون مع الله إلٰهاً آخر، ومنهم الذين ينسبون له أولاداً وصاحبة.

---

(١) **ملحوظة**: وأمامَ ما يُقال عن الإسلام من أقاويل وتهمٍ باطلة تروّج لها بعثاتُ التبشير وإرسالياتها فإننا نرىٰ سيدي رحمه الله في هذه المباحث التي تتوالىٰ معنا تِباعاً ينذر ويحذّر بحس ووعي الداعيةَ من الدسائس والمؤامرات وتعدّد مصادرها، كما رأيناه يحذّر من التهاون برُتَب الدين، ويتحدّث حديثاً مستفيضاً فيما يتعلّق بعد ذلك بالكفر والجحود وأنواع الشرك والإلحاد والمجازفة بالتكفير.

ومنهم الحلولية الذين يزعمون أن الله يحلّ في بعض الأجسام فيجعلون ذلك الجسمَ إلٰها يعبدونه ويحبونه كحبّ الله ويصنعون له صوراً وتماثيل يحنون أمامها رؤوسهم ويركعون لها ويسجدون.

ذكر ابن كثير في «تفسيره» قال: «يُؤتىٰ باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وعُـزَيراً، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يُؤتىٰ بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يُـؤتىٰ بالمشركين فيقال لهم: لا إلٰه إلا الله فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إلٰه إلا الله فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إلٰه إلا الله فيستكبرون، فيقال: خذوا ذات الشمال، قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير، قال أبو العلا: ثم يُـؤتىٰ بالمسـلمين فيقال لهم: ما كنـتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله، فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عِدْلَ له، قال: فيتعرّف لهم تبارك وتعالىٰ وتقدّس ويُنجي المؤمنين».

٢٦ ـ أنواع الشرك:

ولمّا كان الشرك يجامع الكفر في ستر الحق المبين، وكان منه أكبر يخرج صاحبه عن الملّة، وأصغر لا يخرج صاحبه عن أهل القبلة، كالرياء وبعض المعاصي التي أُطلق عليها اسم الشرك: حَسُنَ إيرادُ ما ذكره بعض المحققين في الشرك حيث قال:

«ثم إن أنواعه ـ والعياذ بالله ـ ستةٌ:

الأول: شرك استقلال، وهو إثبات إلٰـهَين مستقلين، كشرك المجوس.

الثاني: شركُ تبعيض، كشرك النصارىٰ الذين قالوا إنّ الله ثالثُ ثلاثة والآخران عيسىٰ وأمه.

الثالث: شركُ تقريب، وهو عبادة غير الله ليقرّب إلىٰ الله زُلفىٰ، كشرك متقدّمي العرب حين عبدوا الأحجارَ وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

الرابع: شركُ تقليد، وهو عبادة غير الله تبعاً كشرك الجاهلية ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

الخامس: شرك الأسباب، كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم علىٰ ذلك.

السادس: شرك الأغراض، وهو العملُ لغير الله.

فحكمُ الأربعة الأُوَل: الكفرُ بالإجماع، وحكمُ السادس: المعصية من غير كفر، وحكمُ الخامس: التفصيل، فمن قال في الأسباب العادية إنها مؤثرةٌ بطبائعها كالنار في الإحراق والماء في الريّ والطعام في الشبع والضرب في المضروب فهو كافرٌ، ومن اعتقد أنها تؤثر بقوةٍ أودعها الله تعالىٰ فيها فهو مبتدع.

ومنهم طائفةٌ إباحيةٌ تحسب نفسها في عداد المسلمين وهي في واقعها تنابذ الإسلام وتجافي تعاليمه عقيدةً وعملاً وتباهي بالتشبّه بأعداء الإسلام في عامة أمورهم وسائر عاداتهم، بل تُغالي في التشبّه بهم فيما حرّمه الإسلام قطعاً كبيع الخمر وشربه وأكل لحم الخنزير، وليس لها من العلاقة بالإسلام إلا التلفّظ بالشهادتين مجاراةً وتقليداً للمسلمين مع استبطان ما يضادهما في كل حال.

وهؤلاء لا تنفعهم كلمة التوحيد مهما قالوها ما داموا علىٰ الجحود القلبي والإنكار العملي إلا أن يتوبوا إلىٰ الله مما اجترحوا ويثوبوا إلىٰ الهدىٰ والرشد، فيعتقدوا معناها يقيناً وصدقاً، ويعملوا بموجَبها حقاً، فعند ذلك يقبل الله توبتهم، والله تعالىٰ غفورٌ رحيم.

ومنهم طائفة القاديانية، وهم أشدّ بلاءً علىٰ الإسلام من كثيرٍ من الطوائف المارقة الضالة، وهم أتباع الدجال اللعين أحمد غلام المرزا صنيعة الإنكليز ويدُهم المدسوسة، الذي ادّعىٰ الألوهيةَ والنبوة والمسيحيةَ والمهدوية والتجديدَ والإسلامَ في إطارٍ واحد، فما هذا التلاعب والفتون! وقد أجمع المسلمون علىٰ أن من ادّعىٰ النبوة بعد سيدنا محمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم فهو كافرٌ عنيد، وقد ادَّعاها مسيلمة الكذّاب لعنه الله وسَجاح المرأة والأسود العنسي وغيرهم، فأخزاهم الله وفضحهم، وذلك قبلَ انتشار الإسلام، أما اليوم وقد تعاقبت الأجيال علىٰ عقيدة الإسلام وأصبح من الضروري اعتقادُ أن محمداً خاتم النبيين كما نطق به القرآن وبيَّنته السنة فيأتي هذا اللعينُ مهاجماً نبوةَ خاتم الأنبياء وآخرهم محاولاً كسرَ ختمها المنيع، ونقضَ لبنتها الأخيرة، متحدّياً بذلك العالمَ الإسلامي بكفره ودجله وتسويلاتِ شيطانه، كائداً بذلك الإسلام ناصراً لأعدائه في كل مقام، بل هو ألعن وأخبث من مسيلمة الكذّاب وغيره ممن ادعىٰ النبوة، لأنه تظاهر بالإسلام فاستخفَّ أوباشاً كتب الله عليهم الشقاوة فأوردهم النار، وبئس الوِرْدُ المورود، وساعدتهم علىٰ ذلك مناسباتٌ شتىٰ وأصابع خفية ونشراتٌ تخرج من أوكار اليهود ومباءات كيد الإسلام.

وقد اتخذ لهم ذلك اللعين بدلَ البيت الحرام محجّاً ومشاعر في بلدة

قاديان، يريد بذلك طمسَ معالم الدين وجرحَ عواطف المسلمين وإرضاء سادته الإنكليز وأعوانهم من الخائنين كما هي ماثلةٌ إلىٰ الآن تفضح نفسها، ويكفي في دحضهم أنهم خالفوا صريحَ الكتاب والسنة وما اجتمعت عليه الأمة كما هو ثابتٌ في رسائل دجّالهم اللعين ونشراتهم المطبوعة، بل وأجمع المسلمون في عصرنا هـٰذا علىٰ أن فرقة القاديانية مرتدةٌ كافرةٌ ليست من الإسلام ولا من المسلمين في شيء، وصدرت ضدّهم بذلك أحكامٌ مسجلةٌ واضحةٌ وضوحَ الشمس في رابعة النهار.

ولما انكشف للعالم الإسلامي عوارهم، ولصق بجباههم ومن اتبعهم عارهم، عمدوا إلىٰ النواحي الحديثة العهد بالإسلام كأوغندا فروّجوا فيها كفرهم وضلالهم، وبنَوا لذلك مساجد هي للكفر مراصد، وأصدروا صحفاً ونشراتٍ عنوانها إسلاميٌّ وباطنها الضلال والكفر، وطبعوا تفسيراً للقرآن بالأحرف اللاتينية مملوءاً بالدسائس علىٰ مقتضىٰ نِحلتهم، ولم يعلموا أن للدين حافظاً، وأن وراءَ الأشبال ليوثاً تحميها، وأن في أولئك المستجدّين في الإسلام من هم أشدّ غيرةً علىٰ دينهم وتمسكاً به ممن توارثوا الإسلام عن جدودهم، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وانْخَرمت عهودهم.

ولقد رأوا كيف انتدب لهم شيخٌ من علماء أوغندا فألجمهم بالحجج الدامغة يوم تحدَّوه بالمناظرة وضربوا لها موعداً معلوماً، فحضرَ وحضرَ الجمعُ الغفيرُ من المسلمين وغيرهم، ولكن سرعان ما تقهقر أولئك المارقون ولاذوا بالفرار، وسجّلت عليهم ذلك اليوم فضيحةُ الأبد والعار، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

٢٧ ـ جريمة الإلحاد في الدين:

ومما يتفرّع من الكفر ويلازمه في حدودٍ كثيرة الإلحادُ في دين الله، وهو ـ كما يقتضيه لفظُه ـ الميلُ والانحرافُ عن جادة الحق إلىٰ الباطل اعتقاداً وعملاً، والتهاون والاستخفاف بما تدلّ عليه نصوصُ الكتاب والسنة، يُقال: ألحد إلحاداً إذا مال عن القصد والاستقامة، وألحد في دين الله وأسمائه وصفاته، حاد عن الحق فيها، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصّلت: ٤٠]، وقال: ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإلحادُهم في الأسماء اشتقاقهم لأصنامهم أعلاماً من أسماء الله تعالىٰ كاللات من لفظ الله، والعُزّىٰ من العزيز، وإلحادُهم في الآيات تكذيبُ أنها من عند الله، كما قالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، أو صرفها عن معانيها الجليلة بضروب من التأويلات الفاسده، وإلحادهم في الصفات كإطلاق وصف الربوبية والألوهية من صفات الحق التي لا تُنسب إلا إليه علىٰ غيره كما حكىٰ القرآن عن اليهود والنصارىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

ومثلهم من جرىٰ علىٰ شاكلتهم كالقاديانية والبهائية، وهذا إلحادٌ مكشوفٌ ينادي علىٰ نفسه بالبوار، وأن أصحابه كفّارٌ من أهل النار.

٢٨ ــ أنواعٌ من الإلحاد:

١) ومن الإلحاد ما درجَ عليه بعض الفرق الضالة من تأويل اسم الصلاة والزكاة والصوم والحج والجنة والنار ونحو ذلك مما جاء في القرآن والسنة بتأويلاتٍ باطلة مضادةٍ لما قصده الشارع من معاني هذه الأسماء، ومانعةٍ من العمل بها كما أراد وأمر، وتأويل آيات القرآن بتأويلاتٍ يأباها المأثور من تفسيرها، وتأباها بلاغته والقواعد الشرعية العامة، بل تأباها العقول السليمة كما أوضح ذلك ثقات المؤرخين فيما رووه عن الفرق الضالة كالبغدادي في «الفَرْق بين الفِرَق»، وابن حزمٍ في كتابه «الملل والنحل»، وغيرهما.

ومن الملاحدة: الإسماعيلية، والباطنية، والقرامطة، وغلاة الشيعة، وكلهم مارقون من الإسلام مروقاً ظاهراً لاشك فيه.

وأغلبُ هذه الفرق حين عجزوا عن تحريف القرآن وتبديله كما حُرّفت الكتب السماوية بأيدي الأحبار والرُّهبان فلم يستطيعوا أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه آيةً أو كلمةً أو حرفاً لضمان الله تعالىٰ حفظَه من ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ لجؤوا إلىٰ تأويله حسب أهوائهم تلك التأويلاتِ الباطلة كيداً للإسلام والمسلمين، وابتغاءَ الفتنة في الدين، ولٰكنّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين، فقد قيَّض الله تعالىٰ لدينه وشريعته وكتابه وأحاديثِ رسوله أئمةً ثقات في كل قرن نفوا عن ذلك زَيفَ المبطلين وتحريفَ الغالين بما بحثوه ودوَّنوه وأوضحوه ونقلوه عن صاحب الرسالة صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وعن أصحابه والتابعين وأئمة المسلمين، وبما

حققوه من المباحث اللغوية والحقائق الشرعية، وبما محّصوه من الأحاديث النبوية تمحيصاً وافياً دقيقاً بذلوا فيه أقصىٰ الجهد والطاقة، فكانت علومُهم وأعمالهم نبراسَ هدايةٍ ومصباحَ نورٍ أضاء العالمَ الإسلاميَّ كلَّه، وأنار الطريقَ لمن يقصد العلمَ والعملَ ومعرفةَ كتاب الله والأحاديث النبويةِ، وكان ذلك حجةً داحضةً لمزاعم أولئك المحرّفين المؤولين.

فليعتمد المسلمون في دينهم وفي العمل بشريعتهم وفي فهم نصوصها وأحكامها علىٰ ما أوضحه هؤلاء الأئمة وبينوه، وليحذر المسلمون أشدّ الحذر من أولئك المبتدعين المارقين وتأويلاتهم الزائفة التي ينشرونها بين العامة، فإنها جميعها فتنٌ وضلالات.

٢) ومن الإلحاد ما درج عليه حديثاً بعض الكاتبين في التفسير، خالوا فتخيّلوا أنهم علىٰ حظٍّ من العلم يتيح لهم تفسيرَ القرآن علىٰ نحو جديد لم يعرفه القدامىٰ من المفسّرين، ولقبوا أنفسهم بالمجدّدين فأوّلوا سجودَ الشمس بدورانها، والملائكةَ والجنَّ بقوىً مسخَّرة، والطيرَ الأبابيل بمرض الجُدَري، ونحو ذلك، بحجة أنهم لم يُبصروا سجودَ الشمس ولاوجودَ الملائكة والجن ولا هذا الطير في عالم الشهادة، ومادام الأمرُ كذلك يجبُ صرفُ الكلام عن ظاهره وحملُه علىٰ هذه المعاني المزعومة التي لم تتسع عقولهم لغيرها.

وغاب عنهم أن عدمَ رؤية الشيء بالحاسة لا ينفي وجودَه، وكم في الوجود من أشياءَ لا تُرىٰ بالعين وإنما تُرىٰ آثارُها كالأرواح والكهرباء والطاقات ونحوها مما وراء المادة.

كما غاب عنهم ما قاله أئمة التفسير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ

﴿يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩﴾ [الرعد:١٣]، وما جاء من الآيات والأحاديث في عالم الملائكة وعالم الجنّ، وما قاله المفسّرون عن الملائكة وحقيقتهم والجنّ وحقيقتهم، وكلام الملائكة مع ربهم والجنّ مع النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ومع بعضهم البعض، وعن الطير الأبابيل في سورة الفيل، وفيه ما يشفي العِلّة ويروي الغُلة ويريحُ من ذلك العناء، وكأني بهؤلاء يجحدون وجودَ الملائكة والجنّ في العالم، وذلك بريدُ الكفر الصريح.

٢٩ ــ تحذيرٌ من المجازفة بالتكفير:

واعلم أن واجبَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد في أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة، وإذا اقتضىٰ الأمرُ المجادلةَ يجب أن تكون بالتي هي أحسن كما قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وذلك أدعىٰ إلىٰ القبول، وأقربُ للحصول علىٰ المأمول، ومخالفته خطأٌ وحماقة.

فإذا دعوتَ مسلماً يصلي، ويؤدّي فرائضَ الله، ويجتنب محارمه، وينشر دعوته، ويشيد مساجده، ويقيم معاهده، إلىٰ أمرٍ تراه حقاً ويراه هو علىٰ خلافك، والرأيُ فيه بين العلماء مختلفٌ قديماً إقراراً وإنكاراً، فلم يطاوعك في رأيك فرميته بالكفر لمجرّد مخالفته لرأيك: فقد قارفتَ عظيمةً نكراء، وأتيتَ أمراً إدّاً نهاك عنه الله ودعاك إلىٰ الأخذ فيه بالحكمة والحسنىٰ.

وقد انعقد الإجماعُ علىٰ منع تكفير أحدٍ من أهل القبلة إلا بما فيه نفيُ الصانع القادر جلّ وعلا، أو شركٌ جليٌّ لا يحتمل التأويل، أو إنكارُ النبوة، أو إنكارُ ما عُلم من الدين بالضرورة، أو إنكارُ متواترٍ أو مجمعٍ عليه ضرورةً من الدين.

والمعلوم من الدين ضرورةً ــ كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، والبعث في اليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار ــ يكفر جاحده، ولا يُعذر أحدٌ من المسلمين بالجهل به إلا مَن كان حديثَ عهدٍ بالإسلام؛ فإنه يُعذر إلىٰ أن يتعلّمه، ثم لا يُعذر بعدُ.

والمتواتر: الخبرُ الذي يرويه جمعٌ يُـؤمَن تواطؤهم علىٰ الكذب عن جمعٍ مثلهم، إما من حيث الإسناد كحديث: «من كذب عليَّ متعمِّداً فليَتَبَوَّأ مقعده من النار»[1]، وأما من حيث الطبقة كتواتر القرآن، فإنه تواتر علىٰ البسيطة شرقاً وغرباً، درساً وتلاوةً وحفظاً، وتلقاه الكافة عن الكافة طبقةً عن طبقة، فلا يحتاج إلىٰ إسناد.

وقد يكون تواتُـرَ عملٍ وتوارُث، كتواتر العمل علىٰ شيءٍ من عصر النبوة إلىٰ الآن ، أو تواترَ علم، كتواتر المعجزات، فإنّ مفرداتها وإن كان بعضها آحاداً لكن القدرَ المشتركَ منها متواترٌ قطعاً في علم كل إنسانٍ مسلم.

وإنّ الحكمَ علىٰ المسلم بالكفر في غير هذه المواطن التي بيّنّاها أمرٌ

(١) حديث متواتر، بل هو أشهرها. . رواه البخاري (١٠٧)، ومسلم (٣)، والترمذي (٢٦٥٩) (٢٦٦١) (٣٧١٥)، وأبو داود (٣٦٥١)، والنسائي (٥٩١٤) في «الكبرى»، وابن ماجه (٣٠).

خطير، وفي الحديث: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»، رواه البخاري عن أبي هريرة[١].

ولا يصح صدورهُ إلا ممن عرفَ بنور الشريعة مداخلَ الكفر ومخارجَه والحدودَ الفاصلةَ بين الكفر والإيمان في حكم الشريعة الغرّاء، فلا يجوز لأي إنسانٍ الركضُ في هذا الميدان، والتكفيرُ بالأوهام والمظانّ، دون تثبُّت ويقين، وعلم راسخ متين، وإلا اختلط سيلُها بالأبطح، ولم يبق مسلمٌ علىٰ وجه الأرض إلا القليل.

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصي مع الإيمان والإقرار بالشهادتين، وفي الحديث عن أنس رضيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «ثلاثٌ من أصل الإيمان: الكفُّ عمّن قال لا إلٰه إلا الله، لا نكفّره بذنبٍ ولا نخرجه عن الإسلام بالعمل، والجهادُ ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخرُ أمتي الدجّال، لا يبطله جورُ جائرٍ ولاعدلُ عادل، والإيمانُ بالأقدار». أخرجه أبو داود[٢].

وكان إمامُ الحرمين يقول: لو قيل لنا فَصِّلوا ما يقتضي التكفيرَ من العبارات مما لا يقتضي لقلنا هذا طمعٌ في غير مطمَع، فإن هذا بعيدُ المدرَك، وعرُ المَسلَك، يُستمَدُّ من أصول التوحيد، ومن لم يُحط علماً بنهايات الحقائق لم يتحصّل من دلائل التكفير علىٰ وثائق.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٠٤).

(٢) في «سننه»: (٢٥٣٢).

لذلك نحذّر كل التحذير من المجازفة بالتكفير في غير المواطن السابق بيانها، لأنه جِدٌّ خطير، والله الهادي إلىٰ سواء السبيل وإليه المصير.

٣٠ ـ حُرمة المسلم ومكانته:

واعلم أن الإسلامَ جامعةٌ كبرىٰ للمسلمين، تربط الشرقيَّ منهم بالغربي، والأسودَ بالأحمر، جمعت أوزاعهم رابطتُه، وألّفت بين أشتاتهم أخوّته، فكانوا به كالجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائرُ الجسد بالسهر والحمىٰ، وكالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، تتكافأ دماؤهم، ويسعىٰ بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ واحدةٌ علىٰ من سواهم، ويهتم القاصي منهم بالداني، ويفرح كلٌّ منهم لما نال إخوانه من خير وهناء، ويحزن لما نابهم من شرٍّ وعناء، ويدعو كلُّ واحدٍ لإخوانه بظهر الغيب وفي المجامع وعلىٰ درج المنابر، ويدعو علىٰ أعداء الإسلام من كل باغٍ وفاجرٍ ومفسدٍ وكافر.

وهو خيرُ شعارٍ للمسلم، به يشرف ويعتز في كل موطن، ويغضب أشدَّ الغضب إن غُمز إسلامه أو مُسّ دينه، ويبذل في صَونه وحمايته نفسه ونفيسَه، لأنه أعزُّ جوهرٍ لديه، وأعظمُ نعمةٍ منّ الله بها عليه، كما قيل:

نحنُ في رَوحٍ وراحةْ وحبور واستراحةْ
نعمةُ الإسلام أعلىٰ نعمةٍ حلّتْ بساحةْ

ممثّلةً في كلمة الشهادة (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله)، معصومٌ بها دمه وماله، سعيدٌ بها حاله ومآله، مرعيةٌ بها حقوقه وحدوده، نافذةٌ بها عقوده وعهوده، لهذا وجب علىٰ المسلمين الاتحادُ والتآلف والتعاون والتناصر،

والوقوفُ صفاً واحداً في وجه أعداء الإسلام وكائديه ومبتغي الشرّ لأهله، والتضحيةُ بالنفوس والأموال في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزازاً للإسلام وأهله في كل مكان.

٣١ ـ سباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفر:

ولأجل ما بيّنا كانت كراهةُ المسلمين محرّمةً، ومقاطعتُهم ومدابرتُهم محرّمةً، وكان سبابُ المسلم فسوقاً وقتاله كفراً إذا استُحِل.

وكفىٰ رادعاً في هذا الباب حديث سيدنا خالد بن الوليد رضيَ الله عنه في سريته إلىٰ بني جُذيمة يدعوهم إلىٰ الإسلام، فلما انتهىٰ إليهم تلقَّوه فقال لهم: أسلموا، فقالوا: نحن قومٌ مسلمون، قال: فألقوا سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله، وما بعدَ وضع السلاح إلا القتل، ما نحن بآمنين لك ولا لمَن معك، قال خالد: فلا أمانَ لكم إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقةٌ منهم وتفرّقت بقيةُ القوم. وفي رواية: انتهىٰ خالدٌ إلىٰ القوم فتلقَّوه، فقال لهم: ما أنتم؟ أي: أمسلمون أم كفار؟ قالوا: مسلمون، قد صلّينا وصدّقنا بمحمدٍ صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وبنينا المساجدَ في ساحتنا وأذّنا فيها. وفي لفظ: لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا: صَبَأنا، قال: فما بالُ السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قومٍ من العرب عداوةً فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوا، قال: استأسروا، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرّقهم في أصحابه، فلما كان السَّحَر نادىٰ منادي خالد مَن كان معه أسيرٌ فليقتله، فقتل بنو سليمٍ مَن كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار رضيَ الله عنهم وأرسلوا أسراهم، فلما بلغ النبيَّ صلىٰ

الله عليه وآله وسلم ما فعل خالدٌ قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنعَ خالد»، قال ذلك مرتين[١].

وقد يقال أن سيدنا خالداً فَهِمَ أنهم قالوا ذلك علىٰ سبيل الأنَفة وعدم الانقياد إلىٰ الإسلام، وإنما أنكر عليه صلىٰ الله عليه وآله وسلم العجلةَ وعدمَ التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المرادَ من قولهم: «صبأنا». وقد قال عليه الصلاة و السلام: «نعمَ عبدُ الله أخو العشيرة، خالدُ بن الوليد سيفٌ من سيوف الله سلَّه الله علىٰ الكافرين والمنافقين»[٢].

وكذلك قصة سيدنا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله وابن حِبّه فيما رواه عنه البخاري عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامةَ بن زيد يقول: بعثنا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ الحرقة، فصبَّحْنا القومَ فهزمناهم، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إلٰه إلا الله، فكفَّ الأنصاري عنه وطعنته برمحي حتىٰ قتلته، فلمّا قدمنا بلغ النبيَّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إلٰه إلا الله؟!» قلت: كان متعوّذاً، فما زال يكرّرها حتىٰ تمنّيت أني لم أكن أسلمتُ ذلك اليوم، وفي روايةٍ أخرىٰ: أن رسولَ الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال له: «ألا شققتَ عن قلبه فتعلمَ أصادقٌ أم كاذب؟!» فقال أسامة: لا أقاتلُ أحداً يشهد أن لا إلٰه إلا الله[٣].

وقد سُئل عليٌّ رضيَ الله عنه عن المخالفين له من الفِرَق أكفارٌ هم؟

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٤٦) وقال: حسن غريب.

(٣) متفق عليه؛ البخاري (٤٠٢١)، (٦٤٧٨)، ومسلم (٩٦).

قال: لا، إنهم من الكفر فرّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال: لا، إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً، فقيل: أي شيءٍ هم؟ قال قومٌ أصابتهم الفتنة فعَمُوا وصمّوا.

ونعم ما قاله بعض الأئمة العارفين في معيار المؤمن: إن الصفاتِ كلَّها المحمودةَ والمذمومةَ في طبع كل إنسان، لكنّ الصفاتِ المحمودةَ في حق المؤمن مطلقة، والصفاتِ المذمومةَ في حقه مقيدة.

فإذا وُصف المؤمنُ مثلاً بالإيمان فهو الإيمانُ بالله ورسوله، وإذا وُصف بالشكر فهو الشكر لله، وهكذا في سائر الصفات المحمودة، وإن وُصف بالصفات المذمومة فهي مقيدة، فإذا قلت: كافرٌ مثلاً؛ فمعناه كافرٌ بالجبت والطاغوت، وإن قلت: شحيحٌ فهو شحيحٌ بدينه، وهكذا سائرُ الصفات المذمومة إذا وصفتَ بها مؤمناً قَيِّدْها، وأما الكافر فهو بعكس المؤمن، فالصفاتُ المذمومة في حقه مطلقة، والصفات المحمودة في حقه مقيدة، فإذا قلت: كافرٌ فمعناه كافرٌ بالله تعالىٰ، وإن قلت: شحيحٌ فهو شحيحٌ بما أوجبَ الله عليه، وإن وصفته بالأوصاف المحمودة وقلت مثلاً: مؤمنٌ فهو مقيَّدٌ يعني مؤمنٌ بالجبت والطاغوت، وإن قلتَ: محسنٌ فهو محسنٌ للشيطان، وهكذا الأوصاف الحسنة إذا وصفته بها تقيِّدُها.

٣٢ ـ مثلٌ ضربَه الله لكلمتي التوحيد والكفر:

يقول تعالىٰ مجده: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ

مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ . يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

إن الغرضَ من المثل تشبيهُ الخفي بالجلي، والغائبِ بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، فيتأكد الوقوفُ علىٰ الحقيقة، ويصير الحسُّ مطابقاً للعقل، وذلك هو النهاية في الإيضاح، ولضرب المثل أثناء الخطاب والإرشاد أعظمُ وقعٍ في النفوس وتأثيرٍ في القلوب، ولذلك يألفه الناس ويجري بينهم ويشيعُ في أحاديثهم، ألا ترىٰ أنّ الترغيبَ في الإيمان والتوحيد إذا كان مجرّداً عن ضرب المثل لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد إذا مُـثّل بالنور أوبشجرةٍ طيبة، وإذا كُرِّه في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قُبحه في العقول كما يتأكّد إذا مُثّل بالظلمة أو بشجرةٍ خبيثة، ولهذا المعنىٰ ضربَ الله مثلاً لكلمة التوحيد والإيمان وتفرُّع الأعمال منها وانبثاق الأنوار والمعارف عنها وبركتها ونموها بشجرةٍ طيبةٍ في نباتها البهيّ وثمرها الشهيّ.

﴿أَصْلُهَا﴾ الذي تقوم عليه، ﴿ثَابِتٌ﴾ ضاربٌ بعروقه في الأرض، لا تزعزعه العواصف ولاتميل به المحاولات، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها، ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ صاعدٌ في جو السماء نمواً وحياة وزهواً، ومع هذا ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ أثمارها، ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ لا ينقطع جناها كاملةً حسنةً، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ وحسنِ تقديره وتهيئته، وقد فُسّرت في بعض الأخبار بالنخلة لتوفر شروط التمثيل بها في المقصود، فكذلك كلمة التوحيد والإيمان في قلب المؤمن طيبةٌ في لفظها ومعناها، لما تنبىء عنه بلفظها السديد من شرف التوحيد، وتُورثه في القلب من يقين يُضيء زواياه، فيطيب حسُّه ومعناه.

﴿أَصْلُهَا﴾ الذي تقوم عليه معرفةُ الله جلّ وعلا وإفرادُه بالوحدانية والعبادة، وذلك الأصلُ بصحة بيانه وقوة برهانه ﴿ثَابِتٌ﴾ في أعماق القلوب ضاربٌ بأشعة أنواره إلىٰ قرارة اليقين والطمأنينة فيه، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ الزهيّ نامٍ صاعدٌ إلىٰ السماء سُمُوقاً وقربةً، ﴿تُؤْتِيٓ﴾ هذه الشجرة الإيمانية ﴿أُكُلَهَا﴾ وثمارها الجنية التي تغذّي الروح والجسم، ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ يتجدّد إنتاجها، ويتنوع جناها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ وحسنِ تولّيه، أعمالاً صالحة، وأخلاقاً حسنة، وعلوماً نافعة.

فالمؤمنُ لايزال يُرفع له عملٌ صالحٌ آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ولايزال رابحاً علىٰ مولاه ما دامت شجرةُ إيمانه مُخضرَّةً وارفةَ الأغصان، ولن يهلك علىٰ الله إلا هالك.

وقال تعالىٰ في كلمة الكفر والشرك : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ في لفظها ومعناها المزوَّر المفترىٰ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ﴾ في نباتها وثمرها، ومثّلوا لذلك بالحنظلة، ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ قُطّعت عروقها واستؤصلت، ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ إذ هيَ غيرُ ثابتةِ الأصل ولا نابتةِ الفرع، بل طافيةٌ سابحةٌ علىٰ وجه الثرىٰ، مالها من قرار، كذلك الكفر لاأصلَ له ولا فرع، لانبنائه علىٰ الزور والبهتان والشرك الذي ليس له حقيقة، وكيف تصحّ الشركة في شيءٍ من الوجود وهو كله فعلُ واحدٍ قهار. وخبثُ الكفر والشرك يسري إلىٰ حسّ الكافر ومعناه، ولذلك صار نجساً كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، أي: ذوو نجس بقذر الكفر، وفوق ذلك لايتطهّرون ولا يغتسلون من الجَنابة ولايجتنبون النجاسات، فهي ملابِسةٌ لهم في كل حين.

وعن ابن عباس: «نجاسةُ أعيانهم بالكفر والله تعالىٰ طيِّبٌ لايقبل إلا

طيباً، فلا يصعد للكافر كَلِمٌ ولا يُتقبَّل منه عمل، وتكون أعماله يومَ القيامة هباءً منثوراً، كما قال تعالىٰ في جزاء الكافرين: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]».

وقوله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ وهو كلمة التوحيد: لا إلٰه إلا الله، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قبل الموت بالهداية والتوفيق إلىٰ طيّب القول والعمل، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ في القبر، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سُئل المؤمن في القبر يشهد أن لا إلٰه إلاالله وأن محمداً رسول الله»، فذلك قولهُ تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ .[1]

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: المشركين، لايهديهم إلىٰ الجواب بالصواب في القبر، ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من التوفيق والخذلان والتثبيت وضدّه، علماً منه بمن يستحقها، فلا مانعَ لما أعطىٰ ولا رادَّ لما قضىٰ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ومن دعائه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «يا مثبِّت القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك»[2].

٣٣ ــ الشُّهُود:

الشهود هو الحضور والمعاينة، وعند القوم: نظرٌ خاصٌ للبصيرة، وقربٌ معنويٌّ مقرونٌ بعلم اليقين وحق اليقين، فمن حماه الله من حجاب البعد

---

(١) أخرجه الأربعة؛ الترمذي (٣١٢٠) بلفظ مقارب، وأبو داود (٤٧٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٢١٨٣) (٢١٨٤)، (١١٢٦٣) (١١٢٦٤) (١١٢٦٥)، وابن ماجه (٤٢٦٩).

(٢) أخرج هذه الرواية الترمذي (٣٥٨٧)، والمشهور: «يا مقلب...»، أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، (٣٥٢٢)، والحاكم (١: ٧٠٦،٧٠٧)، (٢: ٣١٧).

والغفلة وتقرّب إلىٰ الله بالإحسان المذكور في الحديث: «أن تعبدَ الله كأنك تراه»[١] فقد دخل حضرةَ الشهود، وتفيأ ظلّها الممدود، وذاق بحاسة الوجدان طعم الإيمان، ودخل جنة المعرفة المعجَّلة قبل جنة الرضوان: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وإنما يرتفع الحجابُ عن العبد بالتحلّي بالأوصاف الحميدة بعد التخلّي عن أضدادها الكثيفة، فيصلُ حينئذٍ إلىٰ مشاهدة جمال الحق في محاسن أسمائه وصفاته، وبدائع صنعه ومخلوقاته، والاطمئنان بذكره وشكره، والتلذُّذ بطاعته ومناجاته، والانشراح بصريح معرفته.

قال بعضُ أهل الشهود: من عرفَ الله شهدَه في كلّ شيء، فلا يستوحشُ من شيء، ويستأنس به كلُّ شيء، ويستأنس هو بكلِّ شيء، ويشهد معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] عياناً، ويفهم معنىٰ قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أصدقُ كلمةٍ قالها لبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا اللّٰهَ باطلُ»[٢]، وتشرق علىٰ قلبه لمعةٌ من قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، ويرتفع عنه اشتباهُ معنىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وينطق بالحق، لأن الحقَّ يكون حينئذٍ سمعَه وبصرَه ولسانه الذي ينطق به.

ولنقف في رسالتنا هذه عند هذا الحد الأدنىٰ من معاني الشهود، لأنه مقامٌ رفيعٌ ومرتقىً صعب، يعزُّ علىٰ أمثالنا، ويصعبُ علىٰ أفهامنا، منشداً قول سيدي الحبيب الإمام عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله ونفع به:

---

(١) من حديث جبريل الشهير عند مسلم (٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٨) (٥٧٩٥) (٦١٢٤)، ومسلم (٢٢٥٦).

بشِّرْ فؤادَكَ بالنصيبِ الوافي   من قُربِ ربّك واسعِ الألطافِ
الواحدِ المَلِكِ العظيمِ فلُذْ به   واشرَبْ من التوحيدِ كأساً صافي
واشهَدْ جمالاً أشرقَت أنوارُهُ   في كل شيءٍ ظاهراً لا خافي

وقول سيدي الحبيب الإمام علي بن محمد الحبشي رحمه الله ونفع به:

طُفْ دواماً بجَنبِ تلك الخيامِ   وارتشِفْ في الهوىٰ كؤوسَ المُدامِ
وتخلَّصْ عن السِّوىٰ وتأدّبْ   في مقامٍ ما بعدَه من مقامِ
إنّ في حضرةِ الشهودِ مُداماً   تسلُبُ العاشقينَ طيبَ المنامِ
إنّ في حضرة الشهودِ مُداماً   تُدخِلُ الشاربين بحرَ الهُيامِ

* * *

ولمّا كان الفكر كُحل البصيرة، وهو كما قال السَّري السَّقَطي: «خيرٌ من عبادة سنة»، وما هو إلا أن تحلَّ أطنابَ خيمتك فتحطَّها في الجنة، رأيتُ أن أقتبسَ شيئاً من أضوائه ينير الطريق لطالب التحقيق، فأقول:

٣٤ ــ الفِكر:

هو تصرُّف القلب وجولانُه في معاني الأشياء ليُدركَ المطلوب، وبه يُغَاصُ علىٰ دُرِّ الحقيقة، وإذا سلم الفكرُ من الشوائب وردَ مناهلَ التحقيق، ويُقال: هو سراجُ القلب يرىٰ به خيرَه وشرَّه ومنافعه ومضاره، وذلك لأن القلبَ الخاليَ عن الفكر خالٍ عن النور، كالبيت المظلم، وإذا خلا عن النور لايكون فيه إلا الجهل والغرور.

وعن ابن عباس وأبي الدرداء رضيَ الله عنهما: «فكرُ ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة»، وقال الحسنُ بن أبي الحسن: «الفكرُ مرآة المؤمن ينظر فيها إلىٰ سيئاته وإلىٰ حسناته».

وفي «تفسير ابن عطية»: حدّثني أبي عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائتاً في مصر بمسجدٍ فصليتُ العتَمة، فرأيت رجلاً قد اضطجع مسجّىً بكسائه حتىٰ أصبح، وصلّينا تلك الليلة وسهرنا، فلمّا أُقيمت صلاةُ الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلىٰ مع الناس، فاستعظمتُ جرأته في الصلاة بغير وضوء، فلمّا فرغتُ من الصلاة خرج فتبعته لأعِظَه، فلما دنوتُ منه سمعته يقول:

منسَجِرُ الجسمِ غائبٌ حاضرُ منتبِهُ القلبِ صامتٌ ذاكرُ
منقبضٌ في العيونِ منبسطٌ كذاك من كان عارفاً فاكِرُ
يَبِيتُ في ليلهِ أخا فكرٍ فهو مدىٰ الدهر نائمٌ ساهرُ

فانصرفتُ عنه. قال: فقلت إنه ممّن يعبد الله بالفكرة. اهـ.

* * *

٣٥ ــ أنواع الفِكْر:

ثم إن الفكرَ أنواعٌ:

فكر الزاهدين: في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلّابها، فيزدادون بالصبر زهداً فيها.

وفكر العابدين: في جميل الثواب، فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه.

وفكر العارفين: في الآلاء والنعماء، وأسرار الصفات والأسماء، فيزدادون محبةً للخالق جلّ وعلا.

وفكر العامة: في البراهين والأدلة لتحصيل التصديق، وعلا كعبُ مَن جَمَعَها كلَّها.

ومهما تيسّر الفكرُ فهو من أشرف العبادات، إذ فيه معنىٰ الذكر لله وزيادة التعلّق والمحبة، إذ لا يحب القلبُ إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عَظَمة الله تعالىٰ إلا بمعرفة صفاته وقدرته وعجائب أفعاله، فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة.

قال الإمام الغزالي قدّس الله سره. «مَن طال فكرُه في معرفة الله وقد انكشف له من أسرار مُلكِ الله ولو الشيءُ اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف مايكاد يطير به، ويتعجّب من نفسه لثباته، لقوة فرحه وسروره».

وقال سيدي قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد في «رسالة المعاونة»:

وينبغي أن يكون لك وِردٌ من التفكّر كل يومٍ وليلة تعيّن له ساعةً أو ساعات، وأحسن الأوقات للتفكّر أفرغها وأصفاها وأجداها في حضور القلب كجوف الليل.

وقال: اعلم أنّ صلاح الدين والدنيا موقوفٌ علىٰ صحة التفّكر، ومن أُعطيَ حظاً منه أخذ بحظٍ وافرٍ من كل خير، وقد ورد: «تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»، وقال عليٌّ كرَم الله وجهه: «لا عبادَة كالتفكّر»، وقال بعضُ العارفين: «الفكرة سراجُ القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءةَ له».

ومجاري الفكر كثيرة، فمنها ـ وهو أشرفها ـ أن تتفكر في عجائب مصنوعات الله الباهرة، وآثار قدرته الباطنة والظاهرة، وما بثَّ من الآيات، في ملكوت الأرض والسماوات، وهذا التفكيرُ يزيدُ في معرفتك بذات الله وصفاته وأسمائه، وقد حثَّ الله عليه بقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]، وأنتَ من عجائب المصنوعات فتفكّر في نفسك، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وينبغي أن تتفكّر في آلاءِ الله وأياديه التي أوصلها إليك، وفي نِعَمِه التي أسبغها عليك، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

وثمرة هذا التفكّر امتلاءُ القلب بمحبة الله، والاشتغال بشكره باطناً وظاهراً كما يحبه ويرضاه.

وينبغي أن تتفكّر في إحاطة علم الله بك، ونظره إليك، واطّلاعه عليك، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] الآية، وهذا التفكّر ثمرته أن تستحيَ من الله أن يراكَ حيثُ نهاكَ، أو يفقدَكَ حيث أمرك.

وينبغي أن تتفكّر في تقصيرك في عبادة مولاك، وتعرُّضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]. وهذا التفكُّر يزيد في خوفك من الله، ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها، ومجانبةِ التقصير وملازمةِ التشمير.

وينبغي أن تتفكّر في هذه الحياة الدنيا وكثرةِ أشغالها، وَوَبالها وسرعة زوالها، وفي الآخرة ونعيمها ودوامها، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:١٦-١٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وهذا التفكير يثمر لك الزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرة.

وينبغي أن تتفكّر في نزول الموت، وحصول الحسرة والندامة بعد الفَوت، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨]، وقال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون:٩-١١]. وفائدة هذا التفكير قِصَرُ الأمل، وإصلاحُ العمل، وإعداد الزاد ليوم المعاد.

وعليك أن تتفكّر في الأخلاق والأعمال التي وصف الله بها أولياءه وأعداءه، وفيما أعدّ للفريقين في العاجل والآجل، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧-٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١-٧٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٧-١٠].

وثمرةُ هذا التفكير محبة السعداء وحملُ النفس علىٰ العمل بأعمالهم والتخلُّق بأخلاقهم، وإن ذهبنا نتتبع مجاريَ الفكر خرجنا عن مقصودنا من الإيجاز، وفيما أشرنا إليه كفايةٌ لمن يفكّر.

وينبغي أن نستحضرَ عند كل نوعٍ من التفكّر ما يناسبه من الآيات والأخبار والآثار كما أشرنا إلىٰ ذلك عند كل نوع.

وإياك والتفكيرَ في ذات الله تعالىٰ وصفاته من حيث تَطلُّب الماهية وتعقُّل الكيفية، فقلما ولعَ بذلك أحدٌ إلا هوىٰ في مهاوي التعطيل، أو تورّط في ورطات التشبيه، وقد رُوي مرفوعاً إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «تفكّروا في آلاء الله ولا تتفكّروا في الله فإنكم لم تقدروه حق قدره»[1]. انتهىٰ من رسالة «المعاونة»، وهو فصلٌ جامعٌ ممتع.

٣٦ ـ أنموذجٌ من التفكير في الآلاء:

خلق الله الإنسانَ مركّباً من جسم وروح، وجعل الجسم بطبيعته محتاجاً إلىٰ الغذاء بما به قوام حياته ونموُّه، وخصّه بالطيبات من الرزق كالحنطة والأرز والذرة، وفضّلها علىٰ الشعير والقصب وأقواتِ البهائم، فكما فضَّله فضَّل قوتَه، وخلق السنبلة ذاتَ ساقٍ طويل، فالقصبة يكون حبها قوتاً لك، وهي تكون تبناً وأكلاً للحيوان المسخَّر لك، وكذا خلق الحنطةَ حباً صغاراً يسهل طحنها، ولو خلق حبّ الحنطة قدرَ البيضة والتفاحة لصعبَ طحنها والانتفاع بها.

وسخّر لك الحيوان، فخلق الأنعام مذلَّلةً لك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يسٓ: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وسقاك مما في بطونها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وأعدمها العقولَ لئلا تنازع أربابها وتمتنعَ عليهم، وعوَّضها عن العقول بالأحاسيس الجيدة التي ربما أربَت علىٰ إحساس

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»: (٦٣١٩)، وابن عدي في «الكامل»: (٧:٢٥٥٦)، والبيهقي في «الشعب»: (١٢٠)، وأبو الشيخ في «العظمة»: (١)، (٢)، (٥)، (٢٠)، (٢١)، (٣٣)، (٤١) (٩٥٣٤)، (٩٨١٤).

البشر، فجعل ما أعطاها من الإحساس كافياً لنيل المصالح التي تراد منها، إحكاماً منه لصنعته وإتقاناً لأمر خليقته وعظم ربوبيته، وهيأ لك الأثمار والفواكه والأزهار دانيةً زاهيةً في أشجارها، تناديك بلسان حالها: تناولني وكلني وشمَّ رائحتي، فإني مهيأةٌ لك لا لغيرك، ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤].

وهكذا حكم كل شيءٍ في الوجود من مصنوعاته، مبنيٌّ علىٰ الحكمة والإتقان، لا يخلو شيءٌ من حكمة، ولايعرىٰ عن عبرة، فتبارك الله أحسن الخالقين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

٣٧ ـ تذكرة ومجاهدة:

قد ينتهي بالمؤمن الفكر إلىٰ غوامض في التوحيد وأغواره وأسراره الغيبية وحقائقه الخفية، ويرىٰ اضطرابَ العلماء في آيات الصفات وأحاديثها المروية، فيقف عندها باهتاً متحيراً لا يهتدي لحلها وإماطة اللثام عن وجهها، وحينئذ ينبغي له كما قال بعض العارفين أن يفرَّ ويلجأ إلىٰ مولاه ويفوِّض علمها إليه كما هو مذهب السلف الصالح، ويفكّرَ كيف كان افتقاره في إنشاء طينته الإنسانية إلىٰ خلقه له وتصويره، فكيف لايكون مفتقراً في هداية حقيقته الأصلية إلىٰ لطفه وتنويره! ولايجعل مستند إيمانه نتائج الفكرة البشرية؛ بل يفرُّ من إشكاله إلىٰ الله ورسوله ويسأل مولاه أن يمنّ عليه بمدد من عنده يغنيه به عن كل شيء سواه حتىٰ لايشهد في ذلك إلا إياه، ويقول رب أعوذ بك أن يكون إيماني بك وبما أنزلت مستفادا من فكرة مشوبة

بالأوصاف النفسية أو مستندا إلىٰ عقل ممزوج بأمشاج من الطينة البشرية بل من نورك المبين ومددك الأعلىٰ نور نبيك المصطفىٰ وبركاته.

وهناك السكينة وبرد الطمأنينة، وتلك طريقة العبد الموفق عند اضطراره وتضارب أفكاره ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمّل: ١٩] أي اتخذ إلىٰ معرفته ورضاه وجواره في جنته طريقاً معنوياً بتقوية إيمانه ويقينه بالذكر والفكر، وحسيا بالجد في طلب العلم النافع واعتناق الأعمال الصالحة وهو الشريعة وبالإخلاص والأدب ومجالسة أهل المعرفة وهو الطريقة فيوصله إلىٰ برد اليقين وهو الحقيقة وذلك منتهىٰ أمل السا لكين.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ففي هذه الآية الكريمة وعد من الرب الكريم بهداية سبله الموصلة إلىٰ رضاه والقرب منه للمجاهدين فيه أي من أجله ولوجهه خالصاً وهذه الهداية هي نتيجة المجاهدة وميراث حسن الإتباع وهي المكاشفة بصريح الحق والمبادأة بأشياء من عالم الغيب. وقبلها هداية البيان يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَت: ١٧] وهداية التوفيق المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

قال سيدي الإمام الحداد:

وجاهِدْ تشاهِدْ واغْنَمِ الوعْدَ بالهدىٰ　　　هُدَىً نـصُّه فـي العنكبـوت بآيـةِ

والمجاهدة مفاعلة بين اثنين فهي بين الإنسان ونفسه يحملها علىٰ ما ينفعها حالا ومآلا ويوجب لها الفوز والسعادة وهي تجاهده علىٰ ما تهواه بحسب جبلتها من ضد ذلك، وبينه وبين غيره من الأعداء وأقواهم الشيطان

الرجيم بالتحصن منه، وبقتال الكفار ونصر الدين ورد المبطلين وقمع الظالمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكون المجاهدة مع النفس الأمارة بالسوء التي هي بين جنبي الإنسان أشدُّ أعدائه كما ورد «أعدىٰ عدوك نفسك التي بين جنبيك»[١] كان جهادها هو الجهاد الأكبروجهاد العدوِّ هو الجهاد الأصغر.

وجاء في أثر:

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر»[٢] لذلك يستعان علىٰ غلبتها وإسلاس قيادها بترويضها علىٰ أربعة أشياء: جمعها سيدي الإمام الحداد في بيت وهو:

والنفس رضها باعتزال دائم   والصمت مع سهر الدجىٰ وتجوع

فحريٌّ بمن اقتصد في الطعام بقدر القوام وفي المنام بقد الإستجمام وفي الكلام بمقتضىٰ المقام وفي خلطة الأنام خشية المذام أن يملك علىٰ نفسه الزمام، ويسلك بها مسلك القوم الكرام علىٰ نهج الشريعة والطريقة والحقيقة المستفادة من تلك الآية الكريمة.

٣٨ ـ الشريعة والحقيقة:

ومن أحسن مارأيت في الكلام عليها جوابا لسيدي الإمام أبي بكر بن

---

(١) رواه البيهقي في «الزهد الكبير»: (٣٤٣).

(٢) أخرجه مرفوعاً البيهقي في «الزهد»: (٣٧٣)، والخطيب في «التاريخ»: (١٣: ٥٢٣).

عبد الله العيدروس علىٰ سؤال ورد عليه من بعض الفقهاء يسأله عن الفرق بين الشريعة والحقيقة، فرد عليها رداً كافياً أحببت نقله برمته قال رضي الله عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته حتىٰ أقام عليه حجته وبإثباته له أقام عليه أمره ونهيه وجازاه علىٰ مقتضىٰ سعيه فناداه ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩] وتارة أقام نفسه ونفاه فقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠] فحصلت الحيرة، وعميت الأبصار والبصيرة فوفق من يشاء من عباده بمكنون علمه فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه.

فالعلم المتجلي علىٰ الجسم علم ظاهر وهو علم الشريعة، والعلم المتجلىٰ علىٰ القلب علم باطن وهو علم الحقيقة، فأقام ظاهر الإسلام علىٰ أركانٍ، القائمُ بها جوارح الأبدان، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان علىٰ يقين وبيان، القائم بهما تصميم الجنان ولكن لما خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل لهما ترجمان وهو اللسان فارتبطت الشريعة بالحقيقة والحقيقة بالشريعة وبقيا كقول الشاعر:

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

فمن هنا قال أهل الشريعة الواقفون مع العلم الخالي عن العمل (ما سوىٰ الشريعة كفر)، فصدقوا من وجه وأخطئوا من وجه، وقال المترسمون

بألفاظ الحقيقة العارون عن التحلي بها (ما سوىٰ الحقيقة شيء) فصدقوا من وجه وأخطئوا من وجه فناداهم أهل الجمع من أرباب الدعوة ـ أما سمعتم شاووش التوفيق علىٰ قارعة الطريق ينادي ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فالاجتهاد هو الشريعة، وهو تعاطي أقوال الشريعة بالأعمال ليهديه سبله وهو الحقيقة، فمن هنا لم تعرفوا الحقيقة لعدم استعمالكم الشريعة.

ويا أيها المترسمون بألفاظ الحقيقة لم تحصل لكم الهداية إلا بالاجتهاد علىٰ أوامر الشريعة واجتناب مناهيها، كأنكم جاهلون ما جمع الله لعبده في فاتحة الكتاب؛ إذ قال له بعد أن عرّفه كيف يحمده وأنه يستحق عليه الحمد بربوبيته علىٰ جميع العالمين، وخص بلفظة الرب لما فيها من غاية الشفقة واللطف ثم آنسه به وعرفه به أنه له رحمن في الدنيا ورحيم في الآخرة فجمح به جامح الرجاء فشم منه تيهَ الطبع فقرعه بأنه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤]، لأن حقيقة الملك العدل، ويوم الدين يوم الجزاء فأقام له جناح الخوف والرجاء وعرفه كيف يطير بهما إليه ، فقال له: قل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفاتحة:٥] وهو الشريعة فلما أقامه بالعبادة ظن أن له إرادة فكاد أن يخلد إلىٰ الأرض بالعجب والرياء والمن عليه فأراد أن يعرفه أن طاعته من استعانته فقال له: قل ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] وهي الحقيقة، فعلم العبد الموفق حينئذٍ أن له إرادة بنفسه وأصلها من عند الله تعالىٰ عند وارد الأمر والنهي لإقامة حدود الشريعة، فهذا مقام الاستقامة، قل الله ثم استقم مع أمره، مع اعتقادك أنه لولا توفيقه السابق وهداه اللاحق لما كان حقيقة ولا إرادة، فانتفىٰ منه المنُّ والعجب وبقي منه وبه، وهو سر القدرة، وهو أول قدم في طريق الحقيقة، وهو البقاء به والفناء عن نفسه، فحينئذ رجع العبد

الموفق إلىٰ الله ضرورة فلم يجد له إلا رضاه عليه ولا له سلَّم إلا بدعائه فبقي متحيراً فقال له: قل ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وعلىٰ الجملة، إنّ الشريعة: اتباعك أوامره وهو الإسلام والإيمان، والحقيقة هي إقامتك بأمره كأنك تراه وهو يراك، وهو مقام الإحسان، وإن شئت قلت الشريعة علم، ومعلومها الطريقة وهي العمل، وثمرتها الوصول إلىٰ الله وهو الحقيقة. وليس الوصول بسعي الأقدام ولا بقرب المسافة وبُعدها، وإنما سعيك إليه بتوفيقه وسعيه إليك برحمته، عَلم ذلك من علمه وجهله من جهله، وتحت هذا علم وفيٌّ وسر خفيٌّ والناس في أضغاث أحلام، اللهمّ أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. . . انتهىٰ.

٣٩ ــ كتب قيمة في معالم السلوك:

وقد شرح العلماء العارفون هذا الطريق ومعالم سلوكه في كتبهم الحافلة وسيرتهم الماثلة بما لا مزيد عليه وأفردوا لذلك مؤلفات مشهورة أذكر منها: «قوت القلوب»، و«إحياء علوم الدين»، و«رسالة القشيري»، و«عوارف المعارف»، و«كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك»، و«حلية أبي نعيم»، «ورياض الصالحين» للإمام النووي، و«بستان العارفين» له، وما اشتملت عليه الصحاح والمسانيد من فصول الرقائق مما في «مسند الإمام أحمد»، و«أدب البخاري»، و«دلائل النبوة» للبيهقي، وكتب الإمام الشعراني، والإمام الحداد، وغيرها من كتب السير والمناقب، التي تصلح المرء بمجرد مطالعتها جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء.

٤٠ ـ الله جل وعلا:

(الله) علم علىٰ الذات الواجب الوجود وماسواه فانٍ مستمد منه الوجود لم يسم به غيره كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وهو الإسم الأعظم الدال علىٰ الذات، الجامعة للصفات الإلهية كلها، وجميع الأسماء شارحة له وراجعة إليه ومن صفته ونعته وإن تعددت الأسماء فالمقصود منها واحد وهو الله.

والأسماء كلها سرت في العالم سريان الأرواح في الأجساد فما من موجود دقَّ أو جلَّ، علا أو سفل، كثف أو لطف، قل أوكثر، إلا وأسماء الله محيطة به حساً ومعنىٰ وإسم الألوهية جامع لجميعها، فيقال الله الرحمن الله الرحيم الله الخالق وهكذا ترجع إليه سائر الأسماء الحسنىٰ والصفات العظمىٰ.

ولا يتم عقد الإسلام إلا به ولا يقبل اسمٌ عوض ولا ذكرٌ بدل عنه بأن يقال لا إلٰه إلا الغفار أو الرحيم أو الجبار، وإنما يقال لا إلٰه الا الله، وبذلك نطق القرآن والحديث لأنه أدل علىٰ كنه المعارف الإلٰهية واختص بها وهو بها أشهر وأتم وأظهر، وبه سمىٰ نفسه وتعرف به إلىٰ خلقه وأمرهم أن يدعوه به.

وقد تزاد بآخره ميم مشددة مفتوحة عوضاً عن حرف النداء فيقال اللهمّ بمعنىٰ يا الله، يدعىٰ بذلك عند التوجه والابتهال، ولا يقال يا الَّلهم إلا نادراً. قال الشاعر العربي:

إنِّـي إذَا مـاحـدثٌ ألمَّـا   أقـولُ اللهـمَّ يـا اللّٰهُمَّـا

والميم في لسان العرب من علامات الجمع فتفيد تَضَمُّنَ ما دخلت عليه

لجميع الأسماء والصفات، ولذلك روي عن الحسن البصري قوله: [اللهمّ مجمع الدعاء]. وعن النضر بن شميل: مَن قال: «اللهمّ» سأل الله بجميع أسمائه، وتعويض الميم من حرف النداء في لفظ الجلالة يقتضي قوة الهمة في الطلب والجزم به.

٤١ ــ ذكر الله تعالىٰ:

قد علم ذوو العقول السليمة أن الدنيا دار تحولّ وطريق سفر إلىٰ الدار الآخرة، ولهذا سميت الحياة الدنيا، أي القريبة المدة، العاجلة الفناء، وأول منازلها المهد وآخرها اللحد.

والغاية هي الجنة والنار، فالعمر مسافة السفر، والسنين مراحله، وأوقاته رأس ماله، وأيامه وميوله وشهواته وأغراضه قُطَّاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله والنعيم المقيم، وخسارته بالحجاب عن الله والعذاب الأليم في جهنم.

فالمؤمن العاقل يجعل أنفاسه طاعة ويقطعها بذكر الله، والغافل ولو عن نفَس من عمره متعرضٌ لحسرة لا نهاية لها وخسران لا تدارك له، ولهذا سبق المفردون كما قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «سبق المفردُون»، قالوا: يا رسول الله وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله والذاكرات»[1]، وهم المتخلون عن الناس لذكر الله فأفردوا أنفسهم عن الخلائق والأقران لله عز وجل وتبتَّلوا إليه، أي انقطعوا وتفردوا كما أحب ذلك، وأمر رسوله وأتباعه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمّل:٨] تنبيهاً علىٰ أن الذكر الدائم إنما

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

يتهيأ بحسن التبتل والإنقطاع إليه، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، أي تسكن وتطيب. والسكون يكون باليقين كما أن الاضطراب يكون بالشك فذكر الله تسكن به قلوب المؤمنين ويسكن فيها اليقين.

والذكر هو وجدان المذكور وحضوره بالقلب والتخلص من الغفلة والنسيان بمداومة حضور القلب، وإعراب اللسان والخروج من ميدان الغفلة إلىٰ فضاء المشاهدة.

والذكر قرين الأعمال وروحها، فأنظر كيف قرنه بالصلاة التي هي أفضل العبادات وعللها به في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]. قال الإمام الحداد من قصيدة:

واذكـر إلهـك ذكـراً لاتفـارقـه فإنما الذكر كالسلطان للقرب

والذكر ركن الطريق ومفتاح التحقيق وسلاح المريدين ومنشور الولاية، قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالىٰ: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»(١)، وفي حديث آخر «أنا جليس من ذكرني»(٢)، وناهيك بمن كان الله جليسه، وهذه مزية للذكر خاصة، وهي الحضور في الحضرة العلية والوصول إلىٰ رتبة القرب بما عبر عنه في الحديث بالمجالسة والمعية.

---

(١) البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) البيهقي في «الشعب»: (٦٨٠)، (٧٠٩)، «كشف الخفاء»: (١: ٢٣٢).

والذكر منزلة العابدين الكبرىٰ التي منها يتزودون وفيها يتَّجرون وإليها دائما يترددون وقد جعل الله لسائر العبادات مقداراً وأوقاتاً، ولم يجعل للذكر قدراً ولا وقتاً، وأمر بالكثرة منه من غير تحديد فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] في جميع الأحوال بالليل والنهار، في البر والبحر، والصحة والسقم، والحضر والسفر، والسر والعلانية، ولم يعذر أحداً من تركه إلا مغلوباً علىٰ عقله. وفي الصحيحين: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»[١]، وسأل أعرابي رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «ذكر الله»[٣].

وعنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يتلمسون أهل الذكر فإذا وجدو قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلىٰ حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلىٰ السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم

---

(١) البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩) واللفظ للبخاري.

(٢) الطبراني في «الكبير»: (٢٠:٩٣) (١٨١)، (٢٠٨)، (٢١٢). وابن حبان: (٨١٨)، والبزار في «مسنده» بسند قال فيه الهيثمي: حسن، «مجمع الزوائد»: (١٠:٧٤)، وعند الجميع التصريح بأن السائل هو معاذ، رضي الله عنه.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، والحاكم: (١:٣٧٦) (١٨٢٥).

بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: فكيف لو رأوني؟! قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيداً وأكثر تسبيحاً، فيقول: فما يسألون؟ قال: يقولون يسألونك الجنة، قال: يقول وهل رأوها، قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو رأوها، قال: يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار، قال: فيقول وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله ما رأوها، فيقول: فكيف لو رأوها، قال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، قال: فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجته، قال: هم الجلساء لا يشقىٰ بهم جليسهم»[1].

وهذا الحديث يدل علىٰ فضل الاجتماع للذكر والجهر به من أهل الذكر جميعاً، لأنه قال: يذكرونك بصيغة الجمع وقال هم الجلساء أي العاقدون مجالسهم للذكر والمتحدون عليه، ولا يتفق ذلك إلا جهراً لأن المسِّر بالذكر لا يقصد مجالسة غيره والذاكر لنفسه علىٰ حدة لايعدّ مجتمعاً مع غيره علىٰ الذكر كما يدل عليه حديث: «وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه». فقابل بين السر والجهر في قوله: ذكرني في نفسه أي سراً، وقوله في ملأ خير منهم أي جهراً.

وهل يكون الذكر في الملأ إلا بالجهرعلناً مع اجتماعهم عليه بصوت واحد، وفي الحديث دلالةٌ علىٰ أن الجهر بالذكر في الملأ من أنواع الذكر

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٢٦٨٩)، واللفظ للبخاري.

العالية المنوه بها في الملأ الأعلىٰ من ربنا الجليل مع الملائكة المقربين الذين يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون.

ووجه المناسبة لا يخفىٰ بين الذاكرين في العالم النزيه المجبولين علىٰ الطاعة والذكر وهم الملائكة. وبين الذاكرين في العالم الكثيف المجبولين علىٰ الفتور والغفلة وهم الآدميون ومكافأتهم علىٰ ذلك بإلحاقهم في الرتبة بالملأ الأعلىٰ وكفاهم بذلك شرفاً وفضلاً.

٤٢ ـ تلاوة القرآن من أفضل الذكر:

ومن أفضل الذكر والأوراد الاشتغال بتلاوة كتاب الله، بل هو أفضل الأذكار بعد كلمة التوحيد إلا ما ورد مقيداً بوقت فالأفضل إشغال ذلك الوقت به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من قرأ القرآن ثم رأىٰ أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد أستصغر ما عظم الله»[١].

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «قال الله: من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل مما أعطي السائلين»[٢]. وفضل كلام الله علىٰ سائر الكلام كفضل الله علىٰ سائرخلقه، وأخرج البيهقي من حديث النعمان بن بشير: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»[٣]، وأخرج من حديث أنس: «نوِّروا

---

(١) الطبراني في «الكبير»: «مجمع»: (٧: ١٥٩).

(٢) الترمذي: (٢٩٢٦)، والدارمي: (٣٦٢١).

(٣) البيهقي في «الشعب».

منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن»[١]، ويحصل الثواب بقراءة القرآن بفهم وبغير فهم بخلاف غيره من الأذكار.

والقرآن أعظم واعظ وأشد زاجر ومخوف من ارتكاب معاصي الله ومحارمه، وعن الاستخفاف بالقيام بأوامر الله ونواهيه. ففي بعض الآثار أن قارىء القرآن إذا ارتكب المعاصي يناديه القرآن من جوفه: أين زواجري؟ أين قوارعي؟ أين مواعظي؟ قال ميمون بن مهران رحمه الله: إن أحدكم يقراء القرآن وهو يلعن نفسه، قيل له: كيف ذاك؟ قال: يقرأ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:١٨]، وهو يظلم، ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[آل عمران:٦١] وهو يكذب.

وورد أن: «القرآن غريب في جوف الظالم»[٢]، فينبغي لكل مسلم لا سيما مريد طريق الآخرة أن يرتب له ورداً من القرآن ليلاً ونهاراً وإن قل مع مراعاة الترتيل والحضور لما في ذلك من جزيل الثواب ومناجاة رب الأرباب. وأما الأئمة الذين صفت قلوبهم وانشرحت صدورهم لفهم خطاب الله تعالىٰ ولذة مناجاته فلهم في تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً المورد الأسنىٰ والمشرب الأعذب الأهنىٰ.

فكان القرآن العظيم ربيع قلوبهم وجلا كروبهم وخير ما يتنعمون به في الدنيا، وبلغ من إمعانهم في تلاوته أن منهم من يختم في اليوم والليلة ثمان ختمات أربعاً بالليل وأربعاً بالنهار، ومنهم من يختم في كل أسبوع ختمة

---

(١) البيهقي في «الشعب»: (٢٠٣٣).

(٢) عند الدبلمي في «مسند الفردوس»: (٤٣٠١).

وفي كل شهر علىٰ اختلاف الهمم والمواطن، عقدوا له الحزوب والحلقات ووقفوا علىٰ إحيائها ريعاً وصدقات وشادوا لتعليمه معاهد ومعالم وجعلوا لختمه أعياداً ومواسم، وتنافسوا في كتابته بالخط البديع قبل أن توجد آلة الطباعة، ولما وُجِدَتْ تسارع المحسنون إلىٰ طبعه فخرجت مصاحف من الآستانة ومصر بالطبع الجميل والورق الصقيل في غاية الضبط والإتقان، وحذتها الجهات الإسلامية وفي مقدمتها المغرب ومسلمة الهند وباكستان، ووافتنا الأخيرة بمصاحف تسرّ الناظرين طبعاً وضبطاً وأناقة، وعلىٰ الله جزاوءهم بما عظموا من حرمة كتابه وعمموا نشره في كل إقليم، محاطاً بسياج من التعزيز والتكريم، في ﴿ كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩]، مصاناً عن الابتذال والامتهان، لا يلقىٰ بين أكداس الكتب ولا يرمىٰ به في السلات والطرقات، ولا يمكّن منه كافر ولا زنديق.

وطالما أشكل عليّ وأهمني رسم آيات في الجرائد والنشرات المعرضة للنبذ والتمزيق ودوس الأقدام ولف الأطعمة والأفاويه، وفي ذلك من الامتهان وإساءة الأدب ما لا يخفىٰ، وقد نص الفقهاء علىٰ حرمة ذلك وإفضاء المتعمد بذلك الفعل إلىٰ حكم المستخفّ بالقرآن والدين ولله غيرةٌ علىٰ حرماته.

٤٣ ــ أقسام الذكر:

وهي ثلاثة:

ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللسان، وذكرٌ بهما معاً وهو الأفضل.

وللناس في المقصد بالذكر مقامان: فمقصد العامة اكتسابُ الأجور، ومقصد الخاصة القربُ والحضور، وما بين المقامين بونٌ بعيد، فكم بين من

يأخذ الأجر وهو من وراء الحجاب، وبين من يقرب حتىٰ يكون من خواص الأحباب.

وقد نوَّع الله الذكر أنواعاً حسبما يقتضيه جلاله وجماله، ويكمل به مقام العبد وحاله، ويتنزه به في حدائق المعرفة المتنوعة في المشاهد، ويتخلّىٰ عن السآمة التي تلازم الوقوف عند حدٍّ واحد، فمنها التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد والحوقلة والحسبلة، وذكر كل اسم من أسمائه تعالىٰ، والصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، والاستغفار، ولكل ذكر خاصيته وثمرته، **فالتسبيح** هو التقديس والتنزّيه واعتقاد تعالِي الحق جلَّ وعلا وتنزّهه عن مشابهة المخلوقين ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً عما يوهم نقصاً في علوه وكماله، وثمرته صفاءُ التوحيد عن الشوائب وامتلاءُ القلب بعظمة الله وتفرده بكل كمال، وله المثل الأعلىٰ في السمٰوات والأرض.

والتهليل ثمرته تجديد التوحيد والإيمان الخاص، فإن التوحيد العام حاصلٌ لكل مؤمن، **والتكبير** ثمرته التعظيم والإجلال لذي الجلال.

وأما **الحمد** والأسماء التي معناها الإحسان والرحمة كالرحيم والرحمن والكريم والغفّار وما أشبهها فثمرتها ثلاث مقامات، وهي: الشكر، وقوة الرجاء، والمحبة، فإن المحسنَ محبوبٌ لا محالة.

وأما **الحوقلة والحسبلة** فثمرتها التوكل علىٰ الله والتفويض إلىٰ الله والثقة بالله.

وأما **الأسماء** التي معناها العلم والاطلاع ــ كالعليم والسميع والبصير والقريب والشهيد ــ فثمراتها المراقبة.

وأما **الصلاة علىٰ النبي** صلىٰ الله عليه وآله وسلم فثمرتها شدةُ المحبة والقربُ من جنابه والمحافظة علىٰ اتباع سنته.

وأما **الاستغفار** فثمرته الاستقامة علىٰ التقوىٰ والمحافظة علىٰ شروط التوبة والتنصّل من حبائل المعصية.

فإن أردتَ أن تفوز بكل الثمرات وتنزل أعلىٰ الدرجات فابحث عن وردٍ جامع لتلك الأذكار والدعوات، ولا تفقدها في أوراد سيدي الإمام عبد الله ابن علوي الحداد، من ورده اللطيف، فالكبير فالراتب، وحزبي الفتح والنصر له، وراتب الإمام الحبيب عمر بن عبد الرحمن العطاس، وأوراد الإمام أبي الحسن الشاذلي، والإمام النووي وما في «الأذكار» له، و«الحصن الحصين» للإمام ابن الجَزَري، و«الحزب الأكبر» لملا علي القاري، وغيرها من الحزوب النافعة المنتشرة بحمد الله في الأمة.

وَأُتْحِفُ مُطالعَ رسالتي بفائدةٍ تلقيتها من بعض الأكابر في ذكر (سبحان الله وبحمده) قال: إن استشعار معنىٰ (وبحمده) يُدخل الذاكرَ فضاءً واسعاً من المعرفة يدري به سر المضاعفة ونمو الأعمال وبركتها، ذلك أن الضميرَ في (وبحمده يعود) علىٰ الله جل وعلا، فإذا قلت: (سبحان الله وبحمده) عنيتَ: أسبّحه بحمده هو لنفسه، وحمدُه لنفسه قديمٌ بقدمه دائمٌ بديمومته، لا منتهىٰ لعدِّه، ولا غاية لحصره، فتحمده بما حمدَ به نفسه لابحمدك أنت.

وكذلك في الصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، تطلب من الله أن يصليَ علىٰ نبيه بصلاته هو، التي صلاها عليه، صلاةً دائمة بدوامه، باقيةً ببقائه، لا منتهىٰ لها دون علمه، فإن ثوابها لا ينتهي ولا تحصره غاية. اهـ.

والعمدة في الذكر والدعاء علىٰ الحضور والاستجماع واستشعار معاني ما يذكر أو يدعو به، فهناك لذة الجنَىٰ وبرقة السَّنا.

ومن «رسالة المريد» لسيدي الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد قال:

«من سَرَّه أن يذوق شيئاً من أسرار الطريقة، ويكاشَف بأنوار الحقيقة؛ فليعكف علىٰ الذكر لله بقلبٍ حاضر، وأدبٍ وافر، وإقبال صادق، وتوجّه خارق، فما اجتمعت هذه المعاني في شخص إلا كوشف بالملكوت الأعلىٰ، وطالعت روحُه حقائق العلم الأصفىٰ، وشاهدت عينُ سره الجمالَ الأقدس الأسمىٰ».

وله من قصيدة:

وإن رمتَ أن تحظىٰ بقلبٍ منوَّرِ ... نقيٍّ عن الأغيار فاعكف علىٰ الذكرِ
وثابرْ عليه في الظلام وفي الضِّيا ... وفي كل حالٍ باللسانِ وبالسِّرِ
فــإنّــك إن لازمتَــه بتــوجُّــهٍ ... بدا لك نورٌ ليس كالشمس والبدرِ
ولكنــه نــورٌ مِــنَ اللّــهِ واردٌ ... أتىٰ ذكرُه في سورةِ النورِ فاستَقْرِ

وليحذر الذاكر من الغفلة عن الدعاء، فقد ورد في الحديث: «لا يقبل الله دعاءً من قلب غافل»[1]، وكيف يذوق ما لا يَتعقّل، أو يُدرك ما لا يَتأمل.

ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات لو قال (لا إلٰه إلا الله) ألفَ مرة فقلّما يشعر قلبه بمعناها، وإذا فرغ القلبُ عن غير الله لو قالها مرةً واحدة فإنما يجدُ من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه، وعن الحسن البصري:

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩).

تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم فالحمدُ لله وإلا فاعلموا أنّ الباب مغلق. اهـ. وما انغلاقه إلا من مرضٍ أو غفلة، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

٤٤ ــ ذكر العارفين:

وحيث كان الذكر بتلك المنزلة العلية والرتبة السنية تمسك بها الألبّاء الموفّقون، وتفننوا فيه وعكفوا عليه واتخذوه إلىٰ المحبوب طريقاً، وأكثروا من اللهج به دواماً، بألسنتهم وقلوبهم، وترنّموا به قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم، فكان الصِّديق رضيَ الله عنه يخلل كلامه بلا إلٰه إلا الله، وكان بلال يقول: (أحدٌ أحد) عندما كانت قريشٌ تعذبه، تروُّحاً باسم مولاه الأحد.

وإنما جُعل التهليلُ أفضلَ الذكر لما له من التأثير في تطهير الباطن من الأوصاف الذميمة التي هي معبودةٌ في الظاهر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فيفيد نفي عموم الإلٰهية بقوله (لا إلٰه)، وإثباتَ الوحدانية بقوله (إلا الله)، كما سبق في مطلب أثر التوحيد وكلمته المشرفة بهذه الرسالة.

ويعود الذكر من ظاهر اللسان إلىٰ باطن الجنان فيتمكّن فيه ويستولي علىٰ جوارحه، ويجد حلاوةَ هذا من ذاق وأقبل علىٰ الذكر بكلّيته فلاَنَ جلده وقلبه، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: ٢٣].

فأمّا لين القلب فهو الرقة والخشية التي تنازله من ثمرة القرب والتجلّي، وحسبك من كان الله أنيسَه وجليسَه.

وأمَّا لين الجلود فهو التواجد والاهتزاز من الأُنس والجَلوة، أو الخوف والخشية، فلا حرجَ ولا ملامَ علىٰ من بلغ إلىٰ هذا المقام أن يترنّح ويترنّم، فله من لاعج الحب والشوق ما يشجي ويريح، ويثير الهُيام والتباريح، كما قال ناظمهم:

وإذا ذكـرتُـكـمُ أميـلُ كـأنني ... من طِيبِ ذكرِكُمُ سُقِيتُ الرّاحا

ومن زاجر الخوف والخشية ما يذرف الدموع، ويُوجب الوجلَ والخشوع، فهذه صفة المؤمنين الأبرار عند سماع كلام الله تعالىٰ وذكره، تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلىٰ ذكره، تعلوهم السكينة والوقار، فلم يكونوا لاهين ولامتصنعين ولا متصارخين ولا متكلّفين بما ليس فيهم، ولم يصفهم الله تعالىٰ بذهاب عقولهم والغشيان عليهم والتكسّر والوثب، وفي حالةٍ نادرة قد يستولي سلطان الوجد علىٰ الذاكر فيأخذه عن نفسه، وهي من حالات الهيام تسلَّم لأربابها ولا يُقتدىٰ بها، وننقل هنا في ذمِّ الخروج عن الأدب في حالة الذكر ما قاله الحبيب أبو بكر العيدروس من قصيدةٍ إذ يقول:

زعمَ الخشوع والجوارح تضطربْ ... والوجدُ حَرَكاتٌ وساعاتٌ تَـثِبْ
الكـلُّ يفعـلُ مثـلَ هـذا إن طَـرِبْ ... فتعادَلَ الضدان مِن جد أو لَعِبْ
واللّـهِ لـو حَـلَّ الخشـوعُ بقلبِـهِ ... ظهـرَتْ سكينتُـه وذلَّ لـربِّـهِ
أجـرىٰ الـدمـوعَ مخـافـةً مـن ربّـهِ ... ورعىٰ من الأدبِ الحقيقيْ ما يَجِبْ
أعمـالُهـم تقـوىٰ مـع الأدبِ الكثيـر ... سهُلَ اليسيرُ عليك واعتاصَ العسير
فتـركتَـهُ وتَبِعتَهـم فـي ذا اليسيـر ... شتّـان مـا بيـن الحقيقـةِ والكَـذِبْ

ويؤيده قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في ذلك الرجل الذي كان يعبث بلحيته في صلاته: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه»[١].

٤٥ ـ إنشاد الشعر أثناء الذكر:

ولا بأس بهزة الذكر وإنشاد الشعر، وتحسين الأنغام ونشر الأعلام، في حضرة الذكر لأهل الوجد والأدب، فإن هناك جمع شملهم، وهناك يغفر لهم، كما مر في الحديث: «أُشهدكم أني قد غفرتُ لهم»[٢]، وإذا كانوا هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم فكيف مكانتهم هم!

وقد روىٰ الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصحّحه أن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم كان يُحدىٰ له في السفر، وأن أنجشةَ الحبشي كان يحدو بالنساء، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال، فقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم لأنجشة: «رويدك رفقاً بالقوارير»[٣].

ولا يخفىٰ أن النغمات الموزونة تهز القلوب الجامدة، وتحرك النفوس الخامدة، وأن لها أثراً في تلطيف الأخلاق والأذواق، فهي التي تحيل

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ»: (٣٣٦٥)، وابن المبارك في «الزهد»: (١ : ٤١٩) (١١٨٨)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»: (٢ : ١٧٢)، (٣ : ٢١٠)، (٤ : ٢٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) متفق عليه؛ البخاري: (٥٧٩٧)، (٥٨٠٩)، (٥٨٤٩)، (٥٨٥٦)، (٥٨٥٧)، ومسلم: (٢٣٢٣).

الجبان شجاعاً، واللكز الشحيح جواداً، وتخفف عن المحزون كربه، وعن المصاب خطبه.

ولقد عرف الصوفية ما للسماع من أثرٍ في النفوس فاتخذوا منه وسيلة لتهذيبها، والدعوة إلىٰ الفضيلة، والتذكير بالأوطان، نشيداً يذكرها بمحبوبها الأول ونداثه الأجمل في عالم الذرة والإشهاد، ومما يعبر عن ذلك ما يُروىٰ عن الإمام حجة الإسلام الغزالي قوله:

تركتُ هوىٰ سُعدىٰ وليلىٰ بمنزلٍ وصرتُ إلىٰ مصحوب أولِ منزلِ
ونـادَتْنـيَ الأشـواقُ مهـلاً فهـٰذهِ منازلُ مَن تهوىٰ رويدكَ فانزلِ

فلا بـدعَ إن رَوّقت به حفلاتهـا، وترنمت به في أعيـادها ومواسـمها وأنديتها، كوسـيلة للحضور، وكأس تلك المعـاني علىٰ الحاضرين تـدور، وللوسائل حكم المقاصد.

وبحسن النغم تطيب تلاوة القرآن، وقد أُمرنا بذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «زينوا القرآنَ بأصواتكم»؛[1] أي: تلاوتَه بتحسين أصواتكم، واستمعَ صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ قراءة أبي موسىٰ الأشعري فقال: «لقد أُوتيَ هذا مزماراً من مزامير آل داود»، فبلغ ذلك أبا موسىٰ فقال: يا رسول

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه أحمد في «مسنده»: (٤: ٢٨٣)، (٤: ٣٠٤)، وأبو داود (١٤٦٨) والنسائي: (٢: ١٨٠) (١٠٨٨) (١٠٨٩)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وابن حبان (٧٤٩) (٧٥٠)، والحاكم: (١: ٥٧١) (٢٠٩٨).

ورواه بلفظ: «زينوا أصواتكم بالقرآن»: الحاكم في «المستدرك»: (١: ٥٧١)، وابن عدي: (٣: ١٢٢١)، ينظر: «مجمع الزوائد»: (٧: ١٧٠).

الله، لو علمتُ أنك تسمع لحبّرته تحبيراً[١]. وكان صلىٰ الله عليه وآله وسلم يضع لحسّان بن ثابت منبراً يقوم عليه في المسجد يفاخر عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، أو ينافح، ويقول: «إن الله يؤيد حسانَ بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم»[٢]، وذلك بالشعر في المسجد، فانظر أين بلغت مكانة الشعر المنافحِ عن الدين، والمظهِرِ لمزايا سيد المرسلين، فلم يقصُر عن الخطيب الداعي المرشد في استوائهما علىٰ منبر الدعوة والمنافحة عن الدين وإرغام أعدائه، وقد كان صلىٰ الله عليه وآله وسلم ينقل اللَّبِنَ مع أصحابه في بناء مسجده ويقول:

هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خيبرْ   هـذا أبـرُّ ربَّـنـا وأطـهَـرْ

ولعل المقصد من ذلك تنشيط الهمم للعمل المبرور والسعي المشكور، بالقول الحسن والنغم الحسن، شعراً ونثراً، والإعانة علىٰ جهاد النفس الذي هو الجهاد الأكبر، وتشويقها إلىٰ السباق والتنافس في ذلك المضمار، لمثل هذا فليعمل العاملون.

وكان صلىٰ الله عليه وآله وسلم يعقد الألويةَ لبعض أصحابه، ويجيز إنشادَ الشعر بين الصفين والتبختر في المشية ويقول: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع»؛[٣] أي: موضع الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٧٩٣) (٤٧٦١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠١٥).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير»: (٧: ١٠٤) (٦٥٠٨).

ولا يبعد أن يكونَ الاجتماع بالأدب والتواضع علىٰ الذكر بشعار أهل الطريقة، والدعوةُ إليه وتبادلُ كؤوس الحب في الله والاجتماعُ عليه من أسباب إعلاء كلمة الله ونشرها في المدن والبوادي، علىٰ حدّ ما قيل:

فنادِمْني بمثل لسانِ حالي   تروِّحْني وأطربُ من قريبِ

٤٦ ــ المقصود من الطريقة ومنهج أهلها:

وذلك لأن المقصودَ الأصليّ من الطريقة مجاهدة النفس وتزكيتها بالأخلاق المرضية، وإلزامها بالشريعة المحمدية في الباطن والظاهر علىٰ نهج السلف الصالح، وذلك هو التصوّف المقتبسُ من قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ١٤-١٥]، والنفوس بمقتضىٰ رعونتها وغلوائها لا تخضع إلا لسلطانٍ قاهر، أو برهانٍ ظاهر، أو حكيمٍ ماهر، وقد اختفىٰ سلطان الحق والهدىٰ منذ أزمان حينما افترق السلطان والقرآن كما أخبر بـه الصادق المصدوق، وخلفت دولة الأثرة والاستبداد فاطّرحت الدين جانباً وذهبـت وراء أغراضها وتمكيـن نـفوذها وجبروتها، وعـشت البصائر عن استجلاء البراهين الشرعية لِمَا غلب عليها من الأهواء والحظوظ النفسية، وتطاولِ الأمد وَبُعْدِ العهد عن قرون الهدىٰ والخير، فقيض الله لحفظ دينه من كل جيل طائفةً لا تزال قائمةً علىٰ الحق لا يضرّها من ناوأها حتىٰ يأتي أمر الله.

وليست هي إلا الطائفة المحتفظة بكتابها وسنتها ومنهاج سلفها، أخذت نحو دعوة الكتاب والسنة فاستقلت بهما وعملت بأحكامهما، ودعت النفوسَ الجامحةَ إليها بأساليب اللطف والحكمة والتقريب والاستمالة بما تصبو إليه

النفوس من متعها المباحة ودواعي سرورها وانشراحها كالسماع والحضرات ومحافل الذكر الصالحات، وسائر الأحوال التي من شأنها أن تعين علىٰ تهذيب النفوس وتمرينها علىٰ الأخلاق السامية والعوائد الحسنة.

وعلىٰ هذا النهج درجَ أدلاّء الطريق وأعيان من دعاة الأمة المحمدية، وتغلغلوا في الأصقاع النائية عن شعائر الإسلام والمجاهل التي يقل وصول الدعاة إليها إلا من بذل نفسه لله وتجشّم المشاق في بلوغ تلك الغاية التي يتهيبها المترفون، مبلِّغاً عن نبيه الذي قال: «بلغوا عني ولو آية»[1]، منضوياً في غمار تلك الطائفة المرضيَة من خيار الأمة المحمدية:

أولئـك أبـدالُ النبييـن أبـرزوا　　　لفضل رسولِ الله في خير ملّةِ

فعلىٰ ذلك النهج السديد كان إرشادهم وتربيتهم لتلاميذهم والمنتمين إليهم.

٤٧ ــ فضل الشيخ المربي وصفته:

ومن هذه الحيثية تبدو مزية الأخذ عن المشايخ، وأنّ مَن لا شيخَ له يرشده كالتائه في الطريق، قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «خذوا عني مناسككم»[2]، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[3].

---

(١) البخاري (٣٤٦١).

(٢) رواه أبو داود (١٩٧٠)، والنسائي (٤٠١٦) (٤٠٦٨).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥).

قال بعض العارفين: وكل من لم يكن له أستاذٌ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف عن قلبه القناع، فهو في هذا الشرع لقيطٌ لا أبَ له، دعيٌّ لا نسبَ له، كيف وسبيل السلوك والتزكّي غامض، وسبل الشيطان كثيرة!

روىٰ الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه قال: خطّ رسول الله صلىٰ عليه وآله وسلم خطاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخطّ عن يمينه وشماله خطوطاً ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١) [الأنعام:١٥٣]. فمن لم يكن له شيخٌ يهديه قاده الشيطان لا محالةَ إلىٰ طريقه، ومن سلك البوادي المهلكة بنفسه من غير دليل خاطرَ بنفسه وأهلكها، والمستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف علىٰ القرب، وإن بقيت مدةً وأورقت لم تثمر، ولله درُّ من قال:

يظنُّ المرءُ أنّ الكتبَ تُجديْ ... أخا فَهمٍ لإدراك العلومِ
وما يدري الجَهولُ بأنّ فيها ... غوامضَ حيّرت عقلَ الفَهيمِ
إذا رُمْتَ العلومَ بغير شيخٍ ... ضللتَ عن الصّراطِ المستقيمِ
وتلتَبِسُ الأمورُ عليك حتىٰ ... تصيرَ أضلَّ من توما الحكيمِ

وفي القرآن ما يشير إلىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]؛ أي: ندعو كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان

---

(١) رواه أحمد: (١: ٤٣٥) (٤١٤٢).

ائتموا بالأنبياء وورثتهم من العلماء، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم من الضُّلَّال كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

وفي الصحيحين: «لِتَتْبَع كل أمةٍ ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت». اهـ. وفاز من كان متبوعه الرسول الأعظم وحزبه الكرام أئمة الهدىٰ رجال الله وخلفاءه في أرضه من عباده الذين قال في وصفهم الإمام علي كرّم الله وجهه: «أولئك هم الأقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن خلقه، حجته في أرضه حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقةٌ بالنظر الأعلىٰ، أولئك خلفاء الله تعالىٰ في بلاده، هاه هاه شوقاً إلىٰ رؤيتهم».

فهؤلاء هم الحكماء الماهرون، أيدهم الله بروح منه فداووا بالحكمة أمراضَ القلوب، وصبوا الإرشاد في قوالب من المباح المرغوب، ليوصلوا العامة من طريق هواهم إلىٰ الحق المطلوب، فإذا هم في حزب الله من حيث لا يظنون، ومن أحب قوماً فهو منهم، فلا جَرَمَ كان الدين محفوظاً بهذه الطائفة المعنية، وبمن انتمىٰ إليها واحتذىٰ بها في نشر أعلام الدعوة وإعلاء كلمة الحق في أكناف البلاد، علىٰ ما في الوقت من تنكّر وفساد، وفجور وإلحاد، فشا في كل قطر وناد، وسكوت وإعراض من أولي العلم وولاة الحكم يفتت الأكباد، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

ولعلك تصبو إلىٰ تعرُّف وصف الشيخ المطلوب الأخذُ عنه، المنوَّه بذكره آنفاً، فهو في اللغة الهَرِمُ والذي استبان فيه الشيب، وفي العرف العام

العاقل المحنَّك، ومنه شيخ البلد وشيخ القبيلة، وفي العرف الخاص هو الراسخ في علوم الشرع الثلاثة:

الإيمان، الذي هو مادة علم التوحيد وأصول الدين.

والإسلام، الذي هو مادة علم الفقه والشريعة.

والإحسان، الذي هو مادة علم الحقيقة، وهو المطلوب في السلوك والطريقة.

ويمتاز شيخ التربية والتخريج ببلوغه الحدّ الذي من بلغه كان عالماً مربياً ربانياً مهذباً مرشداً إلىٰ طريق الحق ولو كان شاباً، فهو طبيب الأرواح الشافي بما علّمه الله من أدويةِ أدوائها المردية.

وفي اصطلاح المحدثين: مَن أحاط علماً بمائة ألف حديث متناً وإسناداً.

ومن تعاريفهم للشيخ: هو من علّمك بقاله، وأنهضك بحاله، من أفاد الطالب، وفتح المطالب، الكاملُ في ذاته المكمّل لغيره.

وإنما يؤخذ كل فن عن أربابه، فلا يُعتمد صوفيٌّ في الفقه إلا أن يُعرف إتقانه له وقيامه عليه، ولا فقيهٌ في التصوف إلا أن يُعرف بحقيقته به وقيامه عليه، ولا محدِّثٌ فيهما إلا أن يُعرف قيامه بهما، ومن تكلم في غير فنه أتىٰ بالعجائب.

وإن ننحُ باللائمة يوماً علىٰ كثير من العلماء والأعيان ومن يليهم من طلاب العلم علىٰ سكوتهم العميق وإعراضهم الفاحش عن نشر الدعوة العامة وتبليغها إلىٰ أنحاء المعمورة لكل من يمكن تبليغها إليه بسائر الوسائل

الممكنة كما هو مطوقٌ بأعناقهم ومحتمٌ عليهم ومأخوذٌ عليهم به العهد والميثاق، فلا ينبغي لنا أن نلومَ ونثرب من ينتدب للدعوة من المنتمين إلىٰ أحد المشايخ الدعاة أولي الطرائق السديدة والخلائق المحمودة ويجمع العامة علىٰ ما يقربهم إلىٰ الله ورسوله وصالحي عباده، وينقلهم من غيابات غيبتهم العميقة ومهاوي دنياهم السحيقة إلىٰ منجاة من أمنة الذكر وحصنه الحصين المشار إليه بحديث: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»[1].

ولا ينبغي أن ننبزه بالبدعة والخرافة، وكيف نرميه بهذا وهو يدعو الغافلين إلىٰ ذكر الله تعالىٰ والرجوع إليه تحت لواء الأُلفة الدينية والأخوة الإيمانية علىٰ بساط الود والمحبة في الله! بل الحق أن نقلّده وسامَ الشكر علىٰ ما قام به أولاً من أعباء الدعوة الإسـلامية، وما كفانا ثانياً من تَـبِعة الحرج والمسئولية، ثم متىٰ رأينا في سلوكه اعوجاجاً أو خروجاً عن الجادة نرشده بلطفٍ وبصيرة إلىٰ ما تطلبه منه وظيفة الدعوة والذكر من سلوك وآداب، ونقول له قولاً معروفاً، فإنه مهما نال من علو الجاه خاضعٌ تحت نـيِّر الشريعة والآداب النبوية.

وليت شعري لو راعىٰ مشايخ الطريق اليومَ آدابَ الذكر والطريق وأخذوا بها أتباعهم، وجمعوا علىٰ تنوعها أوزاعهم، لكانت لهم عوناً علىٰ السلوك والوصول إلىٰ حضرة ملك الملوك، عطيةً باردةً بلا إراقة دماء ولا خشية سلطان ولا خوض معارك، ولكنهم ــ ولا أقول كلهم ولكن غير المهذبين منهم ــ ويالَلأسف اقتصروا علىٰ الرسوم والأوضاع الظاهرية، وشوهوا معالم الطريقة

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضيَ الله عنه.

السـنية، فأمكنوا لصوصَ الانتقاد و سُـوْس الاعتـقاد من الحطّ من مقامهم العالي، وفتحـوا لهم ثغـرةً بما صاروا إليه من تفـرّق وتحزّب لا يجمعهم علىٰ الغرض المقصود، وغلو في الاعتقاد وتعداد لمفاخر لا مساسَ لها بالمطلب المقصود، فعلىٰ أنفسهم جنوا، وإلىٰ ذمهم دعوا، والطريقة بريئةٌ من تلك النسبتين.

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رَمَدٍ ويُـنكرُ الفمُ طعـمَ الماءِ من سَـقَمِ

٤٨ ــ وجوب النصيحة لكل مسلم:

فإلىٰ مشائخ الطرائق أوجّه كلمةَ النصح في توجيه أتباعهم إلىٰ منهج الرشد، والتأليف بين الأتباع من كل طريقة، وتوحيد مرماهم لإعلاء كلمة الحق وإملاء مناشير الذكر بين الخلق.

ولنا بحمد الله في وازع الائتمار وترياق النصيحة ما يُلين الشديد، ويقرّب البعيد، ويأسو الجراح، وعلىٰ ذلك يدور الشأن وتقوم الأركان.

عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضيَ الله عنه قال: بايعتُ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم. رواه الشيخان[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الدين النصيحة» يكررها ثلاثاً، قلنا: لِمَن

---

(١) البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦).

يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١].
وذلك منهج الأنبياء وديدنهم، قال تعالىٰ إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٢]، وعن هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨]، وقال تعالىٰ لخير أنبيائه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

ومن المعلوم أن بذل النصح واجبٌ وقبوله واجبٌ ومن أهم حقوق لا إلٰه إلا الله، فلا مناصَ لمسلم عنهما ولا يعذر في السكوت متىٰ رأىٰ منكراً؛ بل عليه أن يغيره ويدفعه بإحدىٰ المراتب الثلاث الواردة في حديث: «مَن رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فالمرتبة الأولىٰ ــ وهي التغيير باليد ــ لا يستطيعها غالباً إلا أرباب الولايات والمناصب والمأذون له من قبل السلطان من القضاة والمحتسبين ومن بذل نفسه لله.

والثانية ــ وهي التغيير باللسان؛ أي: القول ــ متيسرةٌ لعامة المسلمين لكنها علىٰ العلماء آكد وأوجب لاطلاعهم علىٰ أحكام الله تعالىٰ ومعرفتهم بوجوه الكلام وكيفية الردع والزجر بالمواعظ والحِكَم، ويتأتىٰ لهم ذلك علىٰ وجه العموم في المحافل والدروس والخطب، وفي الحديث: «ما آتىٰ الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ علىٰ النبيين أن يبينوه للناس»، ولا يقصر عن هذه الرتبة إلا جاهلٌ متخبط أو عالمٌ مفرط.

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

والثالثة ـ وهي التغيير والإنكار بالقلب بأن يكرهه بالقلب ولا يرضىٰ به ويبتهل إلىٰ الله في إزالته ـ وظيفةُ العاجز عن التغيير باليد واللسان، لأن الراضيَ بالذنب شريكٌ فيه وإن كان بالشرق وفاعله بالغرب، ومن يخشىٰ حدوثَ فتنة أو شدةِ أذىٰ أو تمادي إصرارٍ علىٰ ذلك المنكَر إذا أَعلن إنكاره، كما هو مقررٌ في كتب العلماء.

ولعمري إن زماننا هذا هو الزمان الذي لجأ كثيرٌ من العلماء فيه إلىٰ السكوت والمواربة، فلا إنكارَ ولا غَيرة، تعللوا بما لا يقوم به عذرٌ ولا تبرأ لهم به ذمة، فما بالهم يهبُّون لما فيه حظ النفوس وحظ للفلوس، فهلاّ كان ذلك في نصرة الدين وحفظ شريعة سيد المرسلين! ولله درُّ الشيخ الفقيه الأديب أحمد عمر باذيب الحضرمي حيث يقول من قصيدة:

فيا أولىٰ العلم لا نلتم فوائدَهُ ... إن لم يكن علمُكم لله مبذولا
إلىٰ متىٰ ذا التواني عن مظاهرة ... تحل كربةَ هذا الدين تحليلا
قوموا لنصرته جداً فنصرته ... بكم ومنكم فلا تأتوا التعاليلا

وإن قاصمةَ الظهر التي لايسعها بساط العذر هي إغضاء كثيرٍ من أولي الفضل عما هو واقعٌ في بيوتهم وأسرهم من المساوي، والتملص من آداب الإسلام الرفيعة وأسواره المنيعة جرياً مع التيار العصري، فكان سكوتهم عن ذلك أسوأ مثل ، وسلاحاً لمن خالف أوزل، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

٤٩ ــ فتنة الملاحدة:

بل وقع في الشباك ما هو أدهىٰ وأمر وهو انصياع جماعة من المتسمين بالإسلام لآراء الملاحدة واستحسانهم لها، واطّراحهم الدين جملةً واحدة بزعم أن أحكامه قد تداعىٰ اعتبارها وانتسخت أخبارها وأصبحت لا تتفق مع مدنية العصر، ولا حاجةَ لكتبه العتيقة الصفراء.

هكذا سمعنا وهكذا قرأنا في مقالاتهم ببعض الصحف، فبأي معنىً نفسر كلامهم؟ لاشك أنهم قد مرقوا به عن الإسلام وألحدوا به في دين الله وسلكوا غير سبيل المؤمنين من الكفار والملحدين، وآثروا الأهواء النفسية والنحل الإلحادية والشهوات الدنيوية، واستحلوا المنازع الإباحية، وداجوا دعاتها المارقين، ولن ينفعهم ما يتسمَّون به من الإسلام، لارتدادهم عنه بما زعموه، ولن يغنيَ عنهم أولئك الدعاة الملحدون الذين اقتدوا بهم من عذاب الله من شيء، وسيُسحبون في النار علىٰ وجوههم ويقال لهم: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾[القمر: ٤٨].

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

والآية الأولىٰ وإن نزلت في كفار أهل الكتاب علىٰ ما قاله قتادة أو في المنافقين علىٰ ما قاله الضحاك عن ابن عباس؛ إلا أنها تَسحب ذيلها علىٰ كل من ارتد عن الإسلام في أي زمن وحال، ومنهم هؤلاء المؤتمون بالملحدين.

ولو أن هؤلاء قالوا للملحدين الذين أغروهم وخوّفوهم وحبّبوا إليهم الكفرَ والفسوق وزيّنوهما لهم بمختلف وسائل الفتنة والإغراء ما قال السلفُ الصالح من المؤمنين لمَن فعلوا معهم مثل ذلك فيما حكىٰ الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]؛ لاستوثقوا بعروةٍ لا تنفصم، وقوةٍ لا تنهزم، ونأمل قوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ كيف زادهم تجمّع الأعداء وتخويف المرجفين بسالةً وثباتاً وقوةً لا تقف عند حدّ، واندفاعاً في نصرة الدين إيماناً بما وعدهم الله من النصر إذ يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

مــن كــل منتــدِبٍ لله محتسِــبٍ يسطو بمستأصلٍ للكفر مصطلمِ
حتىٰ غدتْ ملةُ الإسلام وهي بهم من بعد غربتها موصولةَ الرَّحِمِ
همُ الجبالُ فسَلْ عنهم مُصادِمَهم ماذا رأىٰ منهمُ في كلِّ مصطَدَمِ
تُهدي إليك رياحُ النصر نشرَهُمُ فتحسبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كلَّ كَمِيْ

وقالوا تعبيراً عما امتلأت به جوانحهم من تعزّزٍ بالله واعتصام به واطمئنانٍ إلىٰ وعده: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا بحسن رعايته وتدبيره، ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ لمن توكّل عليه واستند إليه، فكافأهم علىٰ ذلك أن تولىٰ أمرهم وأيدهم بنصره وكفاهم شرّ الأعداء، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تخفق عليهم راية النصر والكرامة، ﴿وَفَضْلٍ﴾ مما أثابهم من فتح وأفاء عليهم من أنفال، كما قال في الآية الثانية: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقايةُ الله أغنَتْ عن مضاعَفةٍ مِنَ الدروعِ وعن عالٍ من الأُطُمِ

٥٠ ــ الجهاد في سبيل الله وتمنّي الشهادة:

وهنا مال بنا الاستطراد إلىٰ ذكر الجهاد الذي هو الأول من أصول الدين وذِروة سنامه، وبه أعزّ الله الإسلامَ والمسلمين وأذلّ الشركَ والمشركين، وهو أعلىٰ أقسام الأمر بالمعروف بل رأسُه الذي هو التوحيد والإسلام، والنهي عن أفحش المنكرات والآثام، الذي هو الكفر والإشراك بالله، وحكمُه الوجوب علىٰ الكفاية بالنفس والمال، ويجب عندما يدهم العدوُّ أرضَ المسلمين علىٰ كل من يطيق الدفاع وعلىٰ من يعيِّنه الإمام.

وأول الجهاد الدعوة إلىٰ الله والإسلام، ثم القتال لمن تولىٰ وكفر، فينبغي لكل مسلمٍ أن ينويَ الجهاد ويحدِّث به نفسه حتىٰ يسلم من الوعيد الوارد في ترك ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «من مات ولم يَغْـزُ ولم يحدّث نفسه بالغزو مات علىٰ شعبةٍ من النفاق»[١].

وينبغي الإكثارُ من سؤال الشهادة، قال عليه الصلاة والسلام: «من سأل الله الشهادةَ بصدق بلّغه الله منازلَ الشهداء وإن مات علىٰ فراشه»[٢].

وفي الخبر: «إن الشهيد يتمنىٰ أن يرجع إلىٰ الدنيا ليُـقتـل عشر مراتٍ لما يرىٰ من فضل الشهادة»[٣]، وورد أيضاً: «تضمّنَ الله لمن خرج في سبيله: لا

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠)، والنسائي في «المجتبىٰ»؛ (٣٠٩٧)، وأبو داود (٢٥٠٢)، وابن ماجه (٢٧٦٧).

(٢) رواه مسلم (١٩٠٩).

(٣) رواه مسلم (١٨٧٧).

يخرجه إلا جهادًا في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً[١] برسلي أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلىٰ منزله الذي خرج منه بما ينال من أجرٍ أو غنيمة، والذي نفس محمدٍ بيده ما منكم من أحدٍ يُـكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ؛ لونه لونُ الدم وريحه ريحُ المسك، والذي نفس محمدٍ بيده لولا أن أشق علىٰ المسلمين ما قعدت خلفَ سريةٍ تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعةً فأحملهم ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمدٍ بيده لوددتُ أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل»[٢].

هكذا يود ويتمنىٰ سيد الخلق أن يغزوَ ويقتل ويحوزَ الشهادة، وهي دون مرتبة النبوة والرسالة، فيالَكِ من مزيةٍ يودّها سيد الأنبياء، فلا نامت أعين الجبناء.

وإنما يطلب مجاهدةَ الكافرين والمنافقين قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

أما غزو المسلمين وقتالهم بعضهم لبعض علىٰ الرياسة والملك وحظوظ الدنيا والعصبية والحمية والقومية والتقدّمية والبعثية والرجعية والطائفية والاشتراكية؛ فهو من أكبر الكبائر وأعظم الجرائم، ومن أمور الجاهلية ولا

---

(١) كذا الرواية في «صحيح مسلم» (١٨٧٦) بالنصب في الكلمات الثلاث، انظر شرح الإمام النووي عليه (١٣: ٢٠).

(٢) رواه مسلم (١٨٧٦).

جاهلية القرن العشرين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع: «إن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضكم رقابَ بعض»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لَزوالُ الدنيا أهون علىٰ الله من قتل مؤمنٍ بغير حق، ولو أن أهل السمٰوات وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ لأدخلهم الله النار»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من أعان علىٰ قتل مسلم بشطر كلمةٍ لقيَ الله مكتوباً بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله»[٣]، إلىٰ غير ذلك من التهديدات الواردة في هذا الباب، فما عذرُ من يستبيح في إخوانه المسلمين هذا القتل؟! ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٥ - ٢٠٦].

فلو أنه صرف هذه القوةَ في جهاد الكافرين ومغتصبي فلسطين ومن علىٰ شاكلتهم من أعداء الدين الواقفين لنا بالمرصاد، والمتألّبين علينا من كل واد؛ لجنىٰ من ذلك ثمرة النصر والأجر والفوز المبين، ولكنها مظاهرُ الشقاوة

---

(١) متفق عليه؛ البخاري (٦٧) (١٠٥) (١٦٥٢)، ومسلم (١٢١٨) (١٦٧٩).

(٢) رواه النسائي (٣٩٢٢)، والترمذي (١٣٩٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٢٦٢٠).

والضلال، تقود أربابها إلىٰ مهاوي السُّخط والوبال، وسُنّة التاريخ والأجيال، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ولقد صدق أخي العلّامة طاهر بن علوي الحدّاد حيث قال من قصيدة:

أترجُو أمةٌ خيراً ومنها … علىٰ أبنائها سُلَّ الحسامُ
إذا غضبَتْ لعِزّتها نفوسٌ … أُعِدَّ لقتلها الموتُ الزُّؤام
وقالوا مسلمون وهم دواماً … علىٰ الإسلام حربٌ لا سلامُ

فمن استطاع الجهادَ وتمكّن منه فليجاهد ويشمر، ولا يتكاسل ولا يقصّر، ومن لم يستطع ولم يتمكن فعليه بحسن النية في الجهاد، وكثرة الدعاء للمجاهدين، وإعانتهم بما يقدر عليه، فقد ورد: «من جهّز غازياً فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخيرٍ فقد غزا، ومن أنفق علىٰ الغازي ولم يَغْزُ فله بكل درهم سبعمائة درهم»[1].

وأحسب أن من هذا الباب تلك التبرعات والإسعافات التي تُجمع لإرفاد المجاهدين الذائدين عن حوزة الإسلام وحمىٰ أوطانه المقدسة كما هو دائرٌ الآن في فلسطين، والإنفاق علىٰ أهليهم وذويهم المشرّدين، فحيا الله المحسنين.

وقد أسلفنا في مبحث المجاهدة بهذه الرسالة أن جهادَ النفس هو الجهاد الأكبر، فهو من أقسام الجهاد التي لا مهادنةَ فيها مادامت للمرء نفسٌ

(١) بعضه عند مسلم (١٨٩٥).

أمارة بالسوء، كما قال سيدنا يوسف الصدّيق عليه السلام: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال نبينا صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «المجاهد من جاهد هواه، والمهاجرُ من هجر ما نهاه الله عنه»[١]، وذلك لأن جهاد المعركة له أوقاتٌ محصورةٌ وينتهي، ولا كذلك جهادُ النفس، وكذلك الهجرة في زمنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ المدينة، فالمجاهد حقاً ما تحمّل مشقةَ الأهوال وكفاحَ الأبطال وفراق الأهل والعيال والمال إلا بعد أن انتصر علىٰ هواه وذلّل نفسه لمرضاة الله.

والمهاجر حقاً ما تحمّل مرارةَ الغربة واستعذبها إلا بعد أن آثر صحبةَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ المقام بوطنه بين عشيرته وأهله، بجاذب التوفيق، والاستجابة لدعوة الحق وصُحبة خير رفيق.

ومن المعلوم أنه لابد لجهاد النفس وتذليلها في طريق الحق من أُهبةٍ وعدةٍ وأعوان، حتىٰ تصل إلىٰ مقام التوحيد وكمال الأنس بقرب الواحد المجيد، وبدونها لا يُحرَزُ الظفَر، فالأُهبة والعدة هما جهاز العلم النافع والعمل الصالح المؤديين إلىٰ برد اليقين وحقيقة الإيمان، والأعوان هم الأدلاّء علىٰ الطريق والمرشدون إلىٰ معالمها، الذين يبلغون رسالاتِ الله، الآخذون بأيدي بعضهم بعضاً في سلوك تلك المهامِه، وارتقاء تلك المعالي، مصابيح

---

(١) الشطر الأول رواه أحمد في «مسنده» (٦: ٢١)، وابن حبان (٢٥) بلفظ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، والشطر الثاني رواه البخاري (١٠)، والترمذي (١٤٤٩)، وأبو داود (١٤٤٩) (٢٤٨١)، والنسائي (٢٥٢٦) (٤٩٩٦)، وابن ماجه (٣٩٣١).

السالكين وهداة الحائرين، وأعلام الطريق وعيون التحقيق، كما قال في نعتهم سيدي وشيخي الجهبذ علوي بن طاهر الحدّاد قدّس الله سره: سار بهم الواقف، وتقدّم بهم الخالف، وارتدع بحججهم المخالف، واهتدىٰ بنورهم الحائر، وأقبل برؤية جِدِّهم المعرضُ الفاتر، وكمل بترتيبهم المتخلّف الناقص، وتقدّم إلىٰ حلبة السباق الكسولُ الناكص، تضاعفت أنوارهم بأعمالهم، وتزكّت أحوالهم بإقبالهم، أنابوا إليه فهداهم واجتباهم، واستجابوا له ووالَوه فقرّبهم ووالاهم، قربهم بامتثالهم، ونورهم بأعمالهم، وأحبهم وحببهم لإقبالهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦]، كاشفهم بأنوار الكشف العالي، وزين قلوبهم بنورٍ منه متلالي، فكشفوا به عن عيوب النفوس وآفاتِ الأعمال، وعن المواجيد ومنازل السير ومنازلاتِ الوارداتِ والأحوال، وأبصروا به معاني الأسماء والصفات وأنوارها وآثارها وحقائق المعرفة ما لا يبلغه التعريف، ولا تُعرِب عنه الصفة ولا يستوفيه التوصيف، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦].

أحياهم في هذه الدار حياتين، حياةَ المعرفة والسرور والأنس بالله وقرّة العين، وآتاهم من الرحمة كفلَين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وآتاهم العلم ونورَ الفرقان، وصلىٰ عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وأيدهم بروح منه فكانوا في الحزب المفلح المنصور، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠].

نسأله تعالىٰ وهو أكرم مسؤول، أن يجعلنا من الذين أنعمَ عليهم، ونظر بعين الرحمة إليهم وبلّغهم كل مرام، وختم لهم بحسن الختام.

* * *

تمّ

«مفتاح الجنّة»

مع مباحث هذه الرسالة
وبعض المشاهد المتعلّقة بمحيط الدّعوة

وبانتهاء مبحث الجهاد انتهت رسالة «مفتاح الجنة»، هذه الرسالة التي كان من أهم الدوافع لتأليفها ـ مع إدراك المؤلف رحمه الله وإحساسه الدائم بمسؤولية الداعية ـ تقلبُ الأطوار وتلاحق الأحداث وهجمات التنصير ونشاط البعثات التبشيرية وسوء الحال الذي وصلت إليه المجتمعات الإسلامية في هذه المنطقة، مما وقف بالدعوة ونشاطها عند أضيق الحدود مع وجود بعض النشاطات والدعوات الهدامة الإلحادية. ولم تكن هذه الرسالة الأولىٰ ولا الأخيرة من نتاجه العلمي، ولكنها ثمرةٌ من ثمار جهوده ونشاطه في سبيل نشر الدعوة وخدمة اللغة العربية والدفاع عن الإسلام وعقيدته وقيمه ومبادئه وأخلاقه.

ولقد كان رحمه الله له الباعُ الطويل في سَبْر أغوار مختلف الدعوات المذهبية والعقائدية والصراعاتِ الفكرية، وما كان رحمه الله يتخطىٰ توجيهاتِ القرآن الكريم والسنة المطهرة في تصحيح ما يرسُب من آثارها في نفوس الذين يقعون في حبائلها و تتقبله عقولهم وأفكارهم.

ولا يمنعني عجزي وقصوري عن التعبير أن أشيرَ إلىٰ ما كنا نسمعه في مجالسه العلمية من تلك القبسات الإيمانية والمفاهيم القرآنية التي يمكن أن يتزوّد منها طلاب العلم والمعرفة خيرَ الزاد لو وعَوها وفهموها، وربما تكون

في هذه الإشارة عبرةٌ تجعلنا نُدرك معها بصدق أهمية مجالس العلم ودَور الأستاذ المربي، والحكيم الموجّه، والمعلم المرشد، فتدلنا علىٰ ذخائر وكنوزٍ لازالت خافيةً علينا أو بعيدةً عن متناول أيدينا.

وما كل ما أختزنه في ذهني من تلك المفاهيم عن سيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـــ مما أتمنىٰ أن يكون بين أيدي طلاب العلم والدعاة والوعّاظ من الشباب بصورةٍ خاصة ـــ تكفي فيه الإشارة، وليس ذلك بمفيدٍ أو مُجدٍ كالاستفادة من تقديم نصوصه أو تحديد ماهيته، ولا بأسَ من إشارة خاطفة لموقفٍ عابر أو إيماءة إلىٰ واقعة معينة متىٰ أمكن ذلك، أو استطرادٍ إلىٰ بعض القضايا الوقتية متىٰ كان ذلك لا يخلو من فائدة، وما أكثرَ المواقف والوقائع والقضايا التي يمكن أن تُستخلص منها العبر والدروس.

إن بث العلم ونشر الدعوة من أشرف سبل التوجيه إلىٰ معرفة الله، وقوةُ الارتباط بمنهج الدعوة يُعتمَدُ فيه علىٰ قوة إيمان الداعية برسالته وإخلاصه في دعوته.

وفي وصية للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يوصي الدعاة إلىٰ الله بأن يبدؤا بأنفسهم تعليماً وتهذيباً قبل أن يقوموا بتعليم الناس وتهذيبهم فقال: «من نصّب نفسه إماماً فليبدأ بتعليم نفسه، وليكن تهذيبه بسيرته قبلَ تهذيبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومهذّبها أحقُّ بالإجلال من معلّم الناس ومهذّبهم».

ومن هذه القاعدة المتينة انطلق موكبُ الدعوة بصدقٍ وإخلاص إلىٰ أقاصي البلاد في شرق آسيا وفي إفريقيا، علىٰ أيدي السادة الكرام من آل أبي علوي، وماكان سيدي رحمه الله تعالىٰ إلا أحدَ أولئك الأعلام إن لم يكن من

مشاهيرهم ومن أقربهم إلىٰ قلوب أبناء المناطق البدائية النائية قبل أبناء المدن والقرىٰ التي ما انفكّ يتعهدهم إلىٰ آخر مرحلةٍ من مراحل حياته، ويبذل لهم النصحَ والتوجيهَ بالحكمة والموعظة الحسنة، ذلك لأنه أصبح خبيراً بما يُداخل عقائدَ البعض منهم من زيوفٍ اختلطت بمفاهيم الوثنية، ومن رواسب وعادات جنحت بمعتنقيها عن عقيدة التوحيد الخالص لله وحده لا شريك له.

وعَرف قبل وبعد ذلك الكثيرَ ممن يحادّون الله ورسوله، ويستهزؤن بالقيم والمبادئ الدينية، ويتحدّون بتمرّدهم حقيقةَ الإيمان والتمسك بالعقيدة الصافية من شوائب الشرك والبدع، ويحاولون إبعاد الأخلاق والشرف والآداب والمثل العليا عن حياة الإنسان المسلم، والحكم عليه بالعزلة في محيطه الإفريقي الذي أصبح مرتعاً خصباً للصراع بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان.

ووجود الصراعات بين الناس باقيةٌ ما بقوا علىٰ وجه الأرض، وتلك سنة الحياة، وعندما يتخذ طابعاً معيناً فلا أصعب من أن يجابه الإسلامَ ودعوته.

ومن هنا يتحدد دور الدعاة في كشف خداع الصور المزيفة وتفنيد مزاعم تلك النظريات التي تفرزها المذاهب الهدامة والمعتقدات الوثنية وطقوسها، والمبادىء الإلحادية التي يروج لها أعداء الإسلام.

ومباحث رسالة «مفتاح الجنة» جاءت في مجملها كما رأينا بما يفتح لقارئها آفاق المنهج الإلٰهي بدءاً بكلمة التوحيد ومعناها، وأن الإلٰهَ الحقَّ هو اللّهُ سبحانه وتعالىٰ، وأن افتقارَ الكائنات كلها إلىٰ الله، وأن جهل المشركين وضلالهم لا ينفي دلالة الكائنات علىٰ القدرة الإلهية، وتسبيح الكائنات بحمده.

ودلائلُ وجود الله سبحانه وتعالىٰ ووحدانيته تفتح أمام الإنسان أبوابَ الإيمان واليقين الذي يهديه ويدلّه إلىٰ معرفة كلمة التوحيد وحقها علىٰ العباد، والتصديق بمعناها تصديقاً يقينياً والإقرار بها إقراراً لا يساوره ريب، وتقوده إلىٰ الخضوع للألوهية خضوعاً كاملاً ، والتزام العبادة والطاعة والانصياع لجميع الأوامر والنواهي الشرعية.

وتَوقّفُ الإسلام علىٰ الجمع بين الشهادتين فذلك لأن لهما أثراً عظيماً في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق، وتقوية الرابطة الاجتماعية، فإن في شهادة أن لا إلٰه إلا الله تحريراً للعقول وتطهيراً للنفوس من الأوهام وأدران الشرك، كما أن في شهادة أن محمداً رسول الله والإيمان برسالته وكتابه القويم تقويةً للأخلاق وإصلاحاً للنفوس.. مما يوجب الشكرَ علىٰ هذه النعمة، وما أجلّها من نعمة.

ومعرفة أول ما يجب تعليمه لمن دخل في الإسلام من الأمور الضرورية التي لا يقوم الإسلام إلا بها، ومن أهم الأمور معرفة ما يجب لله وما يستحيل وما يجوز، معرفةً راسخةً قوية، ويُعينه علىٰ ذلك دراسة عقيدة حجة الإسلام الغزالي، وعقيدة الإمام الحداد، وهي المبحث السابعَ عشرَ من مباحث هذه الرسالة.

وإن فضائلَ الكلمة المشرفة تُفضي إلىٰ حسن الخاتمة والموت علىٰ التوحيد والإسلام، وهو غاية سعادة الحياة وربح تجارتها.

وكون السنة الأصل الثاني من أصول التشريع فإن إنكارَ العمل بها كفر، لأنه إنكارٌ لما في القرآن، قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم في الحديث

الذي رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود وأحمد: «لا أُلْفِينَّ أحدَكم متكئاً علىٰ مُتَّكَأ، يصل إليه عني حديثٌ فيقول: لا نجد هذا الحكمَ في القرآن، ألا وإني أوتيتُ القرآن ومثله معه».

ولا بد لمن يريد استنباطَ الأحكام الشرعية من الأصلين الكتاب والسنة من الإحاطة بهما علىٰ الوجه المبيَّن في علم أصول الفقه، والتمكّن من اللغة العربية الفصحىٰ وعلومها المعروفة وأساليبها البلاغية.

ولهذا اتفق العلماء علىٰ عدم إمكان ترجمة القرآن الكريم ترجمةً حرفيةً تماثله وتؤدي معانيه وتحمل أسراره وخصائصه البلاغية وأسرار إعجازه.

والتهاونُ برتب الدين بما ينافي التمسك بالآداب والأحكام الشرعية فتنةٌ عظيمة.

وحُرمة المسلم ومكانته تجعل سبابه فسوقاً وقتاله كفراً، كما دلّ علىٰ ذلك قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وللكفر والجحود ألوانٌ متعددة، والكفر هو الجهل الأكبر، والظلم الأشنع، وإن أشد الكافرين عتواً الملاحدةُ الدهريون. والشرك يجامع الكفرَ في ستر الحق المبين، ومنه ما يخرج صاحبه عن أهل القبلة وهو الأكبر، وأصغر لا يخرج صاحبه عن أهل القبلة، كالرياء وبعض المعاصي التي أُطلق عليها اسمُ الشرك.

ومن الإلحاد ما درج عليه بعض الفرق الضالة، ومنه ما يلازم الكفرَ في حدود كثيرة، كالإلحاد في دين الله، وهو ـ كما يقتضيه لفظه ـ الميلُ والانحراف عن جادة الحق إلىٰ الباطل اعتقاداً وعملاً، والتهاون والاستخفاف بما تدل

عليه نصوصُ الكتاب والسنة، والتأويلاتُ الباطلة المضادة لما قصده الشارع من معاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وما جاء في آخر الرسالة من مباحث فهي علىٰ اختصارها وفقاً لما يقتضيه الحال والمقام فقد أوضحَتْ للقارئ ما لا بد من فهمه من معنىٰ الشهود والفكر والتفكّر في الآلاء، وفي معنىٰ الشريعة والحقيقة، وما جاء في ذكر الله سبحانه وتعالىٰ وتلاوة القرآن الكريم، وأقسام الذكر، وذكر العارفين، وجواز إنشاد الشعر أثناء الذكر، والمقصود من الطريقة ومنهج أهلها، وفضل الشيخ والمربي والمرشد والموجّه، ووجوب النصيحة لكل مسلم، والتحذير من فتنة الملاحدة، والجهاد الأصغر، والجهاد الأكبر جهاد النفس.

والخلاصة أن الرسالة كما بينا قد أتت علىٰ ما يجب معرفته من مباحث التوحيد والإيمان، والإشارة إلىٰ ما يتعلق بضدهما وهو الكفر والجحود، وبضدّها تتميز الأشياء.

وفي البيان تبصرةٌ للناظرين، وتحذيرٌ من الشر والفتنة، ووقايةٌ من غضب الله وعقابه كما يقول المؤلف رحمه الله وأسكنه فسيحَ جناته . .

ولو أمكننا العثور علىٰ الكثير من الأحاديث والمحاضرات والمواعظ التي كان يلقيها في مناسباتٍ شتىٰ لوجدنا فيها نوعاً فريداً من أنواع التوجيه والفكر، وأسلوباً رائعاً من أساليب الدعوة واتجاهاتها، وقواعد طلب العلم ومناهجها، وأدب الحوار ووسائل البحث وسبل التحصيل، والبعد عن مواطن الجدل والمراء، والتمسك بمنهج الكتاب والسنة.

وما أحوجنا إلىٰ ذلك تحتَ ضغط ظروف الحياة ومستجداتها وما فيها

من إغراءات وما فرضته الضرورات المادية والاجتماعيـة والغزو الفكري، وتعدد أساليب الانتماءات الفكرية والدعوات الهدامة التىٰ تتصدىٰ بكل جرأة لتفسير الإسلام وشريعته الغراء بقصور واضح، وجهل فاضح، بعيداً كل البعد عن فهم منهجه القويم بطرح مفاهيم خاطئة ومناهج ملتوية.

وقد رأينا كيف كان سيدي يتناول بعض القضايا التي واجهته في مسيرة الدعوة بأسلوبٍ مقنع، وبيان شافٍ، وتحليل رائع، لاستجلاء الحقائق ووضع الأمور في نصابها.

وشاهدنا كيف كان يضع بين أيدينا الكثيرَ من المشاهد المرتبطة بخصائص وسلوكيات ووجدانيات كل من يتعامل معهم من تلك الفئات البعيدة التباين في المستويات العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية.

ورأينا كيف كان يقف في مواجهة الفراغ الكبير الذي أوجده فقدُ العلماء وقلة الدعاة في هذه المنطقة التي أحبها وأحبته.

وهذا يحفزنا إلىٰ المزيد من البحث للتعرّف علىٰ ما تركه من تراث علمي وأدبي أصبح الرجوع إليه ضرورةً ملحّة لعلنا نكتشف من خلاله زخماً من العطاء الذي ما وُجد إلا ليزيل الكثيـرَ من الشـبهات، ويصحّح العديـدَ من الأخطاء، ويبدّد عن القلوب ويزيح عن النفوس غشاوةَ الجهل، ويحفزها علىٰ فعل الخير.

وهذه الملامح الدالة علىٰ شخصية العالم العامل والداعية المخلص الصادق في دعوته إنما هي مثالٌ حي لسيرة تلك الشخصية المدركة لمسؤوليتها والمؤهَّلة لاحتلال مكانة المربي والمرشد والقدوة الحسنة في كل ما يدعو

الناسَ إليه أو يحثهم عليه، والعالمُ الذي لا يطبق القولَ بالعمل والداعية الذي ينقصه التأثير في دعوته مثال ذلك مثل الشجرة التي لا ثمارَ لها.

ولطالما سمعناه في خطبه ومواعظه يحذّر من أمثال هؤلاء وكل من يسير علىٰ نهجهم، أو من الذين يتخذون من آرائهم وأفكارهم أسلحةً فتاكة يحاربون بها مخالفيهم ويثيرون بها الإِحَن والفتن بين الناس، وخاصةً من يُجيد منهم التلاعبَ بالألفاظ ويملك القدرةَ علىٰ التمويه والتضليل في تحريف الكَلِم عن مواضعه، ويوصي بالتعامل معهم بالحكمة والموعظة الحسنة، خدمةً للإسلام وحرصاً علىٰ وحدة الكلمة.

وكثيراً ما كان يتناول القضايا الخلافية عندما تُعرَض عليه بالتمحيص قَبْل أن يعطي رأيه فيها تأييداً أو مخالفة، من دون أن يدخل حلبة الصراع أو يفرض رأيه فيها، إلا إذا كانت قضايا دينية فيحكّم فيها كتابَ الله وسنةَ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

هناك في بعض المجتمعات الكثيرُ ممّن تتحكم فيهم عاداتٌ وتقاليد متوارثة، تغذيها نوازع وأهواء لا تميز معها بين ما يدعو إليه الإسلام من مبادىء ومُثُل وما تأصّل في نفوسهم من انطباعاتٍ عن تلك الموروثات، وكأنهم لا ينظرون إلىٰ الإسلام كدين إلا من خلالها، ولكن كل ذلك لم يعوّق نشاطه ودعوته، فنحن عندما نستمع إلىٰ خطبه الجُمَعية نجد فيها مزيجاً من الترغيب والترهيب والتركيز علىٰ معالجة الكثير من الأمراض الاجتماعية المتفشية فيها.

ولما رأىٰ الجاليةَ العربية في (ممباسا) قد دبّت فيما بينها الخلافات

ونوازع الفرقة ما وَسِعَه في حالة يأسٍ من اجتماعها إلا أن يعبّر عما يشعر به من ألم وأسىً في قصيدةٍ شعرية استهلها بقوله:

زيدوا شجاراً في الهوىٰ ومراساً وارموا صميمَ العُرْبِ في (ممباسا)

إلىٰ أن قال:

أُسـدٌ علىٰ إخـوانهـم وثعالـبٌ عـنـد الأجـانـبِ يا لهـذا بأسـا

ويصف بعد ذلك تلك الزوبعة بأنها لم تكن غير:

رعـدٍ بلا مُـزْنٍ وجعجعـةٍ بـلا طحنٍ وفوضىٰ تورث الوسواسا

* * *

وكثير ما كنا نراه يتساءل عمن يحق له التحدث باسم الإسلام والمسلمين في هذه الديار، أو من يمثل دور العلماء في ظل السلطة الهزيلة التي تمنحها الدولة للقضاة والتي لا تتعدىٰ أهميتُها عقودَ الأنكحة والمواريث الشرعية، وهذا مما يجعل المواطن المسلم ينظر إلىٰ أولئك الذين وصلوا إلىٰ القضاء بالاختيار الصوري من قبل الحكومة نظرةً سطحيةً لا تحمل في طياتها أي هيبةٍ أو احترام أو تقديرٍ إلا بقدر ما تربطهم بهم صلةٌ أو مصلحة خاصة أو صداقةٌ شخصية أو غير ذلك من المنافع الدنيوية.

وقلَّ من يُدرك منهم أن أسمىٰ الوظائف والواجبات في حياة العالم هي الحكمُ بين الناس بالعدل إذا كان قاضياً، والسعيُ لإصلاح المجتمع وتربيته علىٰ الفضيلة والشرف والكرامة والأخلاق الفاضلة وترسيخها في الأذهان إذا كان مرشداً ومعلماً، والعملُ علىٰ نشر العلم وبثّه والاهتمام بأمور المسلمين

والعناية بشأنهم والدفاع عنهم والذود عن حياضهم إذا كان من الدعاة الذين يبلّغون رسالاتِ الله والذين لهم السماتُ الخاصة التي يتميزون بها علىٰ غيرهم بانصرافهم عن مباهج الدنيا ومفاتن الحياة.

وكان لسيدي رحمه الله بما آتاه الله من المقدرة العلمية الواسعة وسداد الرأي والتروّي في الأمور ورجاحة الفكر اهتمامه التام برسالة المسجد وأثرها وتأثيرها، باعتبارها المحورَ الرئيسي لكل النشاطات الروحية والعلمية والثقافية والفكرية والتوجيهية، مع الكفاءة التامة التي يَبرز من خلالها داعيةً، ومفتياً، ومعلماً، ومربياً، ومرشداً، ومصلحاً اجتماعياً، في الوقت الذي نرىٰ فيه هنا وهناك من النتائج الحتمية لفوضىٰ الخطابة والوعظ والتوجيه والإرشاد ما أنذر بأسوء العواقب بعد أن تولىٰ أمرَها قومٌ عاطلون من كل ما تستوجبه شخصية الخطيب والواعظ والمرشد من المواهب؛ ومن هنا فعندما يرىٰ رحمه الله بعض التصرّفات الشاذة والدعاوىٰ التي لا طائل تحتها من أولئك القوم الذين تسوّروا محراب الدعوة يتمثل بقول الشاعر:

أتانا من الأعرابِ قومٌ تفقّهوا — وليس لهم في الفقه أبٌ ولا جدُّ!
يقولون: هذا عندنا غيرُ جائزٍ — ومن أنتم حتىٰ يكون لكم عندُ؟

* * *

اهتمامه بشؤون المساجد ورعاية للمدارس

وإذا أدركنا أن أغلبيةَ رواد المساجد هم من أصحاب الأعمال والحرف المتنوعة والتجار وأصحاب البيع والشراء فمن هنا يتعيّن أن يكون للخطباء والوعاظ دورٌ خاصٌّ يتلاءم ورسالة المسجد وشأنه الخطير الذي يجمع الناس في ساحة العبودية لله وحده، ساحةٍ لا يعلو فيها أميرٌ ولا ينخفض فيها فقير، تلك العبودية التي تطهّر النفوس من أدران الدنيا وملهياتها ومشاغلها وغفلتها وما علق عليها من فوارق المنصب وامتياز الطبقية وعنجهية الغنىٰ وطغيان الحكم، وتلك مزيةٌ عظيمة أن يكون المسجد إلىٰ جانب غايته الأساسية مركزاً ومنطلقاً لتلك المهام، وإلا لما كان المسجدُ من أول المنشآت التي عُني بها المسلمون عنايةً تدل علىٰ عظم مكانته وعلوّ شأنه، نعم هكذا كان المسجد ولا يزال مصدراً لجميع أنواع الخير، إذ أصبح مكاناً للعبادة، وجامعةً للعلوم، ومعهداً لكل الدراسات والثقافة الإسلامية، وهكذا دأب المسلمون الأوائل أن يبنوا مسجداً أو أكثر في كل بلد يفتحونه، وفي كل قريةٍ أو مدينةٍ يؤسسونها، وفي كل ناحيةٍ يحلّون بها، وقد رُوي أن الخليفة عمرَ رضيَ الله عنه لما فتح البلدان كتب إلىٰ أبي موسىٰ وهو علىٰ البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعةِ انضموا إلىٰ مسجد الجماعة، وكتب إلىٰ سعد بن أبي وقاص وهو علىٰ الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلىٰ عمرو بن العاص وهو علىٰ مصرَ بمثل ذلك.

ولقد حرص سيدي أن يظل اهتمامه ببناء المساجد ورعايتها وعمارتها من أهم مقاصد الدعوة؛ بل وفي مقدمة المهام التي أوقف كل جهده ونشاطه من أجلها، وهي إحياء رسالة المسجد.

لقد كان اهتمام سيدي رحمه الله بشؤون المساجد قديماً قِدَمَ اهتمامه بنشر الدعوة، ومن هنا نرىٰ أنه من محاسن الصدف أن يُختار عضواً في لجنة رسالة المساجد في رابطة العالم الإسلامي يوم أن كان يرأس وفدَ أوغندا لدىٰ الرابطة، وقد شارك في مؤتمر إحياء رسالة المسجد الذي عُقد في مكةَ المكرمة بدعوةٍ من رابطة العالم الإسلامي في الفترة من ١٥ وحتىٰ ٢٠ من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٥ هجرية الموافق من ٢٠ وحتىٰ ٢٥ من شهر سبتمبر ١٩٧٥م، وقدّم إليه تقريراً عن أوضاع المساجد في كينيا قال فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم علىٰ نبيه الكريم وآله وصحبه والتابعين.

وبعد:

فاستجابةً لدعوة رابطة العالم الإسلامي، وتيمّناً بشهر القرآن وعمارة المساجد، وتفاؤلاً بشهر الفتوح ونيل المقاصد، نقدم عن كينيا تقريراً دينياً واجتماعياً يعطي صورةً مصغرةً عنها. . ومما جاء في هذا التقرير:

ومن أقبح مخططات الاستعمار والتبشير بناءُ الكنائس تجاه المساجد فكلما رأوا مسجداً عامراً جاءوا إلىٰ بقعةٍ تحاذيه فشادوا فيها كنيسةً ضخمةً

مُزَوَّقة، يباهون بها المسجدَ ويستميلون إليها الصغار، وما ذلك إلا لعظم المساجد في أعينهم، ولِمَا يرون من انضواء المسلمين تحتها واحتفائهم بها وقيامهم لأداء الصلوات والجماعات ومجالس العلم والذكر والخير فيها.

فهيَ لهم كالمصابيح المضيئة والحصون المنيعة، تُعجب المنصفين وتغيظ الكفار، ولا تزال في ربوع أفريقيا الشرقية بل وفي مجاهلها آثارات من الدين والعلم تركها الدعاة الناصحون لمن بعدهم ، ففي المدن كـ (ممباسا) و(ماليندي) و(لامو) و(باتي) بكينيا، و(تانقا) و(دار السلام) و(ددوما) و(كِلْوَه) بتنزانيا آثارٌ ومعالمُ إسلامية يلتفّ حولها المسلمون من مساجدَ عامرةٍ ومدارسَ غابرةٍ ومعارضَ للدعوة الإسلامية أسبوعيةٍ وشهريةٍ وسنوية، تُـشَدُّ بها روابط الأخوة الإسلامية بينهم، ويبدو شعار التوحيد في جموعهم المتوافدة للجمعة والجماعة والاحتفالات الدينية.

ولكنها ــ ويا لَلأسف ــ واقفةٌ عند حدها الأول غافلةً عما يُراد بها ويحاك ضدّها من المؤامرات والمكايد، معرَّضةً لأن يزحفَ عليها التبشير بخيله ورجله علىٰ مسح تلك النواحي وتنصيرها، فقد ضَمّت المسيحية إلىٰ جانبها أكثرَ الذين لا دينَ لهم من الهمج وسكان الغابات، وأصبحت المسيحية من قريبٍ هي الأكثريةَ في الساحل المسلم بعد أن كانت أقل عدداً، ومثل هذا جرىٰ في (زامبيا) و(مدغشقر) وغيرها، ومن العُهدة والمسؤولية في ذلك علىٰ من بلغتهم أنباؤهم من المسلمين أولي الأمر أن يتخذوهم ولا يتركوهم عرضةً للضياع، يُدعىٰ أحدهم سالماً وعلياً وهو متنصّر! وسلمىٰ ورُقية وهي متنصّرة!

أيها الإخوة:

بعدَ الاستماع إلىٰ هذه الكلمة العامة نرىٰ لزاماً ــ خاصةً وأن الوقتَ قد حان ــ أن نبدأ بكلمةٍ توجيهيةٍ مختصرة عن حالة المساجد في كينيا، فنقول:

إن من نِعَمِ الله سبحانه وتعالىٰ أن جمع هذه النخبةَ الطيبةَ من الأمة الإسلامية في هذه البقعة المباركة المقدسة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

جمع الله هذه النّخبة ليتبادل البعض مع البعض آراءً وأفكاراً حول ما يتعلق برسالة المسجد من العهد النبوي إلىٰ عصرنا هذا الحاضر، وحتىٰ يرث الله الأرضَ ومن عليها، تلك الرسالة التي حققت للبشرية جمعاء السعادةَ الحقيقية للدارين، وكذلك اتخاذ القرارات والخطوات اللازمة بالنهوض بهذه الرسالة إذْ كانت أصابها بعض التقلّص أو الضياع، وعقدُ العزم الصادق علىٰ المضي قُدُماً في نشر الدعوة الإسلامية في كافة المعمورة.

وإن الأمانةَ العامةَ للرابطة حين تبنّت هذه الفكرةَ في إقامة هذا المؤتمر الأول من نوعه ــ المؤتمر الذي نرجو أن يؤتيَ ثمراته كل حين بإذن ربه ــ فإنما جاء ذلك نتيجةً للتضامن الإسلامي الذي أرسىٰ قواعده وأوضح فوائده حارس الحرمين الشريفين الملك فيصل بن عبد العزيز طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه، وها هيَ الآن أسرته الكريمة وفي مقدمتها أخوه الملك خالد بن عبد العزيز أيده الله، وأخوه ولي العهد صاحبُ السمو الملكي الأمير فهد بن

عبد العزيز، تكمل المسيرة وتبادر في إنجاز وتنفيذ كل المخططات والتوصيات التي اقترحها الملك فيصل رحمه الله، حرصاً علىٰ كيان الأمة الإسلامية وحفاظاً علىٰ مقدساتها، فللأسرة الكريمة وللأمانة العامة للرابطة جزيلُ الشكر وأخلصُ التقدير بهذه العناية التامة بالإسلام، كذلك نحن اليوم إذ اجتمعنا في الأمانة العامة للرابطة وفي مكةَ المكرمة وفي شهر رمضان المبارك شهر الصوم والقرآن لعقد مؤتمر رسالة المسجد باعتبار أن المسجدَ هو المنطلق الأول الأساسي للدعوة الإسلامية والمعهد المقدَّم لتثقيف الجيل الإسلامي فإنما نقوم علىٰ أداء واجبٍ كنا قد غفلنا عنه فنبهتنا عليه رابطة العالم الإسلامي مشكورةً.

وإنني كأحد المؤتمِرين في هذا المجتمع المحتشد العظيم أرىٰ لزاماً أن أعطيكم نبذةً عن حالة المساجد في كينيا، حتىٰ تقفوا علىٰ آثارها وتعرفوا بعضَ أسرارها، وهل هذه المساجد أدت رسالتها في بلادنا أم لم تؤدِ، وهل عاقها عائقٌ دون ذلك فنتخذَ ما يجب علينا نحن المسلمين جميعاً اتخاذه؟ ذلك ما سوف تجدونه ــ إن شاء الله ــ وتقرؤونه في هذا التقرير الذي سأختتمه باقتراحاتٍ رأيتها تتناسب ومقتضىٰ الحال. .

إلىٰ آخر ما جاء فيه.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
الديوان الملكي
المكتب الخاص

برقيـــــه

الرقم ٥٥٥٣٨/ر.
التاريخ ٢٢/٧/١٤٠٦
المرفقات

مدير عام مؤسسة الخطوط الجويه العربيه السعوديه بجـده

نسخه لفضيلة الرئيس العام لشئون الحرمين الشريفين - رمزا لكتابه رقم ١/١٣٦ في ١٥/٧/١٤٠٦هـ

تقدم الداعيه الاسلامي في نيروبي /احمد مشهور الحداد مفيدا بأن رئاسة شئون الحرمين تبرعت له بناء على طلبه بخمسة وستين الف نسخه من القرآن الكريم لتوزيعها في كل من كينيا ويوغندا وتنزانيا ، وأن الخطوط السعوديه ساعدته بشحن خمسة الاف كيلو من وزن ذلك ويطلب المساعدة على شحن الكمية كاملة . قف . اعتمدوا شحن الباقي من وزن هذه المصاحف على حسابنا .،،،

فهد بن عبد العزيز

صورة البرقية الموجَّهة من جلالة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود إلى الإمام أحمد مشهور الحدّاد بخصوص طلبه للتبرّع بشحن مصاحف لتوزيعها في كينيا ويوغندا وتنزانيا.

وهنا نقف وقفةً قصيرة بانتظار النتائج المرتقبة علىٰ ضوء هذا التقرير وغيره من التقارير التي سُجّلت في محاضر المؤتمر، ماذا كانت النتائج التي خرج بها المؤتمرون من مؤتمرهم، وما هي آثاره التي كانت الآمال معقودةً عليها، إن القراراتِ السلبية ربما كانت النتيجةَ المنتظرة التي رجعت بها الوفود، وذلك لعدة أسبابٍ لا يعنينا ذكرها، بقدر ما يعنينا الرجوع إلىٰ مسار الدعوة التي لم يحد سيدي عنها طيلةَ ما ينيف عن نصف قرن، وإلقاء الضوء مرةً أخرىٰ علىٰ ما بذله من جهودٍ لا تَعرف الكلل ولا الملل وإلىٰ أجواء عام ١٤٠٠هـ، وبالتحديد يوم عشرين رجب ١٤٠٠هـ الذي افتتح فيه مدرسةً ومسجداً في (أودا)، وقد قال من باب التحدّث بالنعمة بهذه المناسبة:

يا ابنةَ الشِّعرِ أسعديني ببيتٍ ... واذكري فيه سَعْيَنا المحمودا

اغْتَنَمْنا إذنَ الإلٰهِ وساهمنا ... بتأسيسِ بيتِه في أُودا

وطلب من السيد محمد سعيد البيض أن يجيزَ ببيتين فأجابه بقوله:

إنما أعيَتِ الجسومُ ولكن ... غَنِمَتْ أرواحُ الجميعِ السُّعُودا

أحمدُ العَودِ أن نعود إلىٰ الـ ... ـخَيرِ فنرجُوْ لمثلِهِ أن نعودا

وفي مثل هذه المناسبة أيضاً وفي يوم ١٤٠١/١١/٢٣هـ عند افتتاحه مسجد (قونقوني) قال السيد محمد سعيد البيض:

بمسجد (قونقوني) خواطِرُنا تَسلُو ... لأنّ به الإسلامُ في قُطرِنا يعلو

فأجابه سيدي رحمه الله مرتَجِلاً:

وحقَّقَ منا الفالَ خيرُ عمارةٍ ... بها قامَ أهلُ الفضلِ دامَ لهم فَضْلُ

وأعقبه الشيخُ حسن شدّاد قائلاً:

وفُـزْنا بحمدِ اللّٰه في كلِّ بُغيةٍ   وقدوتُنا الحدّادُ وهوَ بذا أَهْلُ

وقبلَ وبعدَ هذه المناسباتِ مناسباتٌ كثرٌ يحلو الحديث في ذكرها، لولا أن القلمَ يعجز عن حصرها، والكلُّ يشهد له بأنه رحمه الله كما قال فيه أحدُ محبيه وهو سعيد علي حسن:

سيّدٌ طابَ في العُلا ما بَناهُ   سيّـدٌ عـاشَ رائـداً مِقْـداما
كـم بنـىٰ مسجـداً لـرفـعِ منـا   رِ الدين كم من مدارسٍ قد أقاما
كـم دروسٍ أفـاد فيهـا مُجِـدّاً   أيقظَ الناسَ حيثُ كانوا نياما

أو كما قال الآخرُ وهو السيد صالح بن محمد البيض:

كم قد أشادَ من المدارسِ والمعاهد   والمسـاجـدِ فـي رُبُـوع بـلادي
مِـن بينِهـا غَـنّـاؤنـا فـاليـومَ قَـدْ   صـارَتْ تُنـادي أيـنَ ذاك الحـادي

وهكذا كأن دأبه رحمه الله، جهادٌ مستمرٌ في سبيل الدعوة، وجهودٌ متواصلة لنشر العلم، وهذا أحد مريديه يعبر عن ذلك تعبيراً وجدانياً بقوله:

فلكـم أسَّـسَ المعـاهـدَ فينـا   فـاستنـارَتْ قلـوبُنـا بهُـداهـا
إنّ هـٰذي الغـنّـاءَ صنـعُ يـدَيـهِ   إنهـا نعمـةٌ لنـا أَولاهـا
أنتجَـتْ دونمـا امتـراءٍ فـآتَـتْ   أُكْلَهـا للجميـع طيـبَ جَنـاهـا

وكان بودّي أن أعقد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب يشتمل علىٰ بيـانٍ توضيحيّ عن المساجد التي سعىٰ في إنشائها أو عمارتها، أو مدِّ يد المساعدة والعون لأئمتها والقائمين عليها، أو المشاركة في افتتاحها، وفي طليعتها

مدرسة الغَنّاء ومكتبتها، ومدرسة النور في (مبروي)، ومدرسة التهذيب في (ماليندي)، ومدرسة الحسنىٰ في (قيدا)، ومدرسة الاتحاد في (واتامو)، ومدرسة الإصلاح ومدرسةُ الحدَادِ ومسجدُ النعيم في (نيامالا)، ومدرسة الإخلاص في (قنقوني)، وغيرها من المساجد والمدارس في أنحاء (كينيا)، عدا المساجد والمدارس التي ارتبط بها أو ارتبطت به في (أوغندا)، كمسجد (ناكسيرو) ومسجد (كبولي) في كمبالا، ومسجد ومدرسة في (أروا) شمال غرب (أوغندا) وغيرها.



نماذجُ من المنثور الأدبي للمترجم له

رحمه الله تعالى

إجازات وكلمات

ووصايا ورسائل ومكاتبات

الإجازات

نعبُر بهذه الأسطر إلىٰ جانبٍ آخر من جوانب حياته العلمية رحمه الله، إلىٰ الإجازات والاستجازات، وقد جرىٰ علىٰ تعاطيها والأخذ بها ــ كما قال سيدي ــ علماءُ الأمة سلفاً وخلفاً في كل ما بلغهم عن الحبيب الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، قولاً وعملاً ونية، ولو لم يكن من مزاياها إلا الانتظام في سلسلة أولئك الأئمة والارتباط بهم لكفىٰ شرفاً.

نبدأ بقوله رحمه الله:

(. . .علىٰ أنني بحمد الله ظفرتُ بها من مشايخ أجلّة في أنحاء البلاد.

من حضرموت موطني، قد أخذت عن سيدي وعمّ والدي صالح بن عبد الله الحداد الثاوي ببلد نِصَاب، جنوب اليمن، ختمتُ عليه آخرَ «الألفية» حفظاً، وعن سيديَّ الإمامين النيِّرين عبد الله وعلوي ابنَي طاهر بن عبد الله الحداد، لزمتهما وقرأتُ عليهما الكثيرَ من فنون العلم، وعن والدي المنيب طٰه بن علي الحداد، وعمن أعتـزّ بذكرها في سند مشايخي والدتي الصالحة صفية بنت الحبيب طاهر بن عمرَ الحداد، الآخذة عن كبار العارفين ممن زار والدَها والشيخَ الكبيرَ سعيدَ بنَ عيسىٰ العمودي، فهي أول من فتق رَتْقي وغذّتني بلبان العلم، وعن سيدي وخالي العارف بالله المنيب عمر بن طاهر الحداد، وعن الشيخ البركة الزاهد عبود بن عمر باطَوق العمودي.

وممّن أخذتُ عنهم: سيدي الإمام الكريم مصطفىٰ بن أحمدَ المِحْضار،

والعلامة المحقق عمرَ بن أحمدَ البار، وعن الإمامين محمد بن عبد الله وحامد ابن حسين البار، وسادتي الأجلة عبد الله بن هادون المحضار، وحسين بن حامد المحضار، والشيخ محمد بن سالم بالخير، هؤلاء من **دوعَن**.

ومن **تـريـم الغنّـاء**: سيدي العارف بالله الحبيب عبد الله بن عيدروس العيدروس، والحبيب العارف بالله عبد الباري بن شيخ العيدروس، والحبيب العارف بالله المنيب علي بن عبد الرحمٰن المشهور، وسيدي الملاذ البقية علوي بن عبد الله بن شهاب أوسعَ لي الأذنَ بالإجازة، والسيد البركة أبي بكر ابن حسين الكاف، وسيدي العلامة المنيب سالم بن حفيظ، والشيخ العلامة محمد بن عوض بافضل.

ومن **سـيـؤن**: السادة الأعلام أحمد بن عبد الرحمن ومحمد بن هادي آل السقاف، والحبيب محمد بن علي الحبشي، والمنصب العظيم القدر عمر ابن عبد الله الحبشي.

ومن **حُـرَيضة**: السيد العلامة المنيب محمد بن سالم العطّاس، والسيد ذي السرّ المتواضع عبد الله بن عقيل.

ومن **المُكَلاّ**: الحبيب الغوث أحمد بن محسن الهدار.

ومن **الحرمين الشريفين**: سيدي الشيخ عمر بن أبي بكر باجنيد، وسيدي العارف بالله الملاذ عيدروس بن سالم البار، والسيد الجليل محمد بن سالم الخَيِّل العطاس، والمستتر برداء الولاية وخدمة الحرم الشريف عبد الغني ششه، وعن روض المعارف والآداب عالم مكةَ سيدي علوي بن عباس المالكي، والسيد الجليل المجاهد الشريف أحمد السنوسي، لقيته بالمدينة المنورة وأجازني وأضافني علىٰ الأسودين التمر والماء بسندهما، وعن مسند العصر

السيد محمد عبد الحيّ الكتاني، لقيتُه بمكةَ المكرمة وكتب اسمي في رسالة إجازاته.

ومن جاوه (إندونيسيا): الحبيب الملاذ محمد بن أحمد المِحضار، والحبيب الوليّ عبد الله بن محسن العطّاس، وسيدي الخليفة الجواد علوي ابن محمد الحداد وأخيه ذي السرّ الملامتي حسين بن محمد الحداد، والسيد الداعي المعمَّر علي بن عبد الرحمن الحبشي، والحبيب الإمام أبو بكر بن محمد السقاف صاحب قِرْسي.

ومن إفريقيـا: ناشر دعوة العلم في إفريقيا الشرقية السيد العلامة صالح ابن علوي جمل الليل الثاوي ببلدة (لامو)، والسيد الصالح أحمد بن حسين ابن الشيخ أبي بكر بن سالم، والشيخ المجذوب الأبيني، والشيخ طلحة الأحمدي ببلد (براوا) من الصومال.

وآخر من أخذتُ عنه وانقطعتُ إليه الحبيب الغوث عمر بن أحمد بن سميط، فقد ظفرتُ والحمدُ لله من هؤلاء الأعلام وغيرهم[١] ممن لم أذكر بالأخذ والإجازة قراءةً وسماعاً ولفظاً وكتابة، في علوم الكتاب والسنة الأصلين، وكتب القوم وحزوبهم وإمدادهم بحسب تراجمهم وأسانيدهم الملتقية علىٰ الأثبات الشهيرة والأسانيد الخطيرة، ومن أجلّها «عقود اللآل» و«عقد اليواقيت»، كلاهما للحبيب الجهبذ المكين المسند عيدروس بن عمر

---

(١) وفي طليعتهم الإمام العلامة الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري كما سيأتي ذكره في بعض الإجازات والذين أشار إليهم بقوله:

وليَ الأخذُ عن شيوخٍ كرامٍ ... ودعاةٍ تفرّقوا في البلادِ
يقصُرُ النظمُ وهو مقياسُ حصرٍ ... عن بياني لهم وعن تَعدادي

الحبشي، و«منحة الإله الغافر» للحبيب سالم بن حفيظ، وما اشتمل عليه كتاب «المواهب والمنن» لسيدي العلامة علوي بن أحمد بن حسن الحداد، و«قرة الناظر» لسيدي العلامة عبد الله بن طاهر الحداد، و«فيض الأسرار» للشيخ العارف بالله عبد الله بن أحمد باسودان).

وفي وقفةٍ قصيرة هنا نستمع لسيدي رحمه الله وهو يقول بأن: «للطلب حوافز ودواعي خفية، يقدمها نشرٌ من الكرم الفائض والمِنَح الإلهية، فيبرز بالنوايا الزكية والهِمَم العلية، فيُنعش أريجُها الذكي النفوسَ المتشوقة إلىٰ تلك العطايا السنية، فتجد الروحُ من الغمم، ويمطر غيثُها علىٰ القلوب الصادية فتهتز وتربو وتنبت بالمعارف والحِكَم»؛ لنجدَ فيما اخترناه من الإجازات المسجّلة في صفحات الجانب العلمي من حياته مدىٰ اهتمامه وحرصه علىٰ تعاطيها مُجازاً ومُجيزاً.

وخيرُ ما نبدأ به منها هذه الإجازة المحرَّرة من سيدي الإمام الحبيب عمر ابن أحمد بن سميط لسيدي الوالد ولصديقَيه الحميمَين الشيخ الفاضل حسين ابن عبد الله باسندوه والشيخ محمد بن عبد الرحمن باشيخ، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وربُّك الفتّاح العليم

الحمدُ لله فاتح أبواب البركات لمن توجه لجنابه، ومجزل الهبات لمن وقفَ بأعتابه.

أما بعد:

فإن من عجائب التقدير أن جعلَ اللّٰهُ التعارفَ السابق بين الأرواح

يقتضي التآلفَ بين الأشباح، وقد حصلت الألفةُ والمحبةُ بيني وبين أخينا وولدنا السيد أحمد مشهور بن طٰه بن علي الحداد، وقد تعاظم حسنُ ظنَّه بالحقير، الذي ليس هو في العِير ولا في النفير، حتىٰ طلبَ مني الإجازةَ المتداولةَ بين خيار البرية له ولأولاده، وجبراً لخاطره وطلباً لصالح دعواته؛ أجزتُه إجازةً عامةً في كل علم وعمل وتوجُّهٍ إلىٰ الله عزّ وجلّ، وفي كل ما يقرّب إلىٰ الله، وفي لزوم الطريقةِ العلوية، وقد عرّفها الحبيبُ علي بن محمد الحبشي بقوله:

وها هيَ أعمالٌ خلَت عن شوائبِ   وعلمٌ وأخــلاقٌ وكثـرةُ أورادِ

وهذه الإجازة مني له، ولصديقنا الشيخ حسين بن عبد الله باسندوه، وصديقنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن باشيخ، ولأولادهم، والله يتولانا بولايته الخاصة.

أملاه الحقير

عمر بن أحمد بن سُمَيط

في ١٩ شعبان ١٣٩٣ هجريه

ولم نعثر علىٰ إجازةٍ محرّرةٍ من كبار شيوخه فيما بين أيدينا من إجازاتٍ غير هذه الإجازة، وغير ما جاء في كتاب «منحة الإلٰه في الاتصال ببعض أولياه» للحبيب العلامة سالم بن حفيظ بن الشيخ أبو بكر بن سالم، وقد عدَّ والده الحبيبَ طٰه بن علي الحداد من شيوخه فقال:

«الحبيب طٰه بن علي بن عبد الله بن طٰه الحداد، كان سيّداً لطيفاً نبيهاً سالكاً ناسكاً، اتصلتُ به وعرفته، واستجازني واستجزته، وكان اجتماعي به

في بندر (سنقافورة) في ١٩ شوال ١٣٥٧هـ، وأجازني في الأوراد والأحزاب والأذكار وغيرها كما أجازه مشايخه وهم كثيرون، منهم الحبيب عيدروس ابن عمرَ الحبشي، والحبيب عليّ بن محمد الحبشي، والحبيب طاهر بن عمر الحداد، والحبيب صالح بن عبد الله الحداد، والحبيب أحمد بن عبد الله بن طالب العطّاس، والحبيب محمد بن عيدروس الحبشي، والحبيب عُبيد الله بن محسن السقاف، وغيرهم، والتمسَ مني كتابةَ الوصيةِ والإجازة له، وألحّ عليّ في ذلك فأسعفتُه، وذكرتُ آخرَها ابنَه أحمد مشهور الذي قد اجتمعت به بمكةَ المكرمة سنة ١٣٥٥هـ، واجتمعتُ به ثانياً في (ممباسا) في شهر جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٥٨ هـ. . ». اهـ.

وحتىٰ الإجازاتُ المحرّرة منه رحمه الله لطالبيها لم نجد منها إلا النزرَ اليسير، وقد أدرك سيدي رحمه الله سيدي الحبيبَ الإمامَ أحمد بن حسن العطاس في سنٍّ مبكر وصلّىٰ خلفه، ويروي عنه بالإجازة العامة التي أجاز بها أهلَ عصره.

وصحب شيخَه الحبيبَ علوي بن طاهر الحداد لزيارة تريم، وفيها أخذ عمّن لقيَ بها ممّن لم يذكرهم في إجازاته المحرّرة من كبار العلماء، كالحبيب العلامة عبد الله بن عمرَ الشاطري، والحبيب العلامة عبد الرحمٰن ابن عُبيد الله السقاف الذي طالما سمعناه يتحدّث عنه وعن آخر لقاءٍ معه في المكلاّ سنةَ ١٣٦٩هجرية، ذلك اللقاء الذي حصل به الأنسُ كما قال سيدي وطابَ فيه الحديث وحصل معه الانشراح، وكان الحبيب عبد الرحمٰن يُجَمِّله بغُرَر الفوائد، وفي أثناء الجلسة ومع توارد بعض الخواطر أراد الحبيب عبد الرحمٰن أن يستشهد بشواهدَ من الشعر أو الحِكَم فلم يحضره

شيءٌ في حينه، فتنّهد وقال للوالد: «آه يا مشهور، كنتُ إذا أردتُ شاهداً تنثالُ عليَّ الشواهدُ فأتناولها من طرفِ الثُّمام وأصبحتُ الآن كما ترىٰ»، وقد ألبس سيدي رداءَه وأهداه إليه، وأخذ رداءَ الوالد كما أخبرنا بذلك سيدي الوالد.

وهذه الإجازاتُ التي سنمضي معها في الصفحاتِ التالية لا شكّ أننا سنجدُ فيما بين أسطرها نماذجَ حيةً عن منهج أهل الفضل والكمال وطريق سَيرهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وتمسُّكهم بالكتاب والسنة.

وليتنا ندركُ إدراكاً أكيداً أن الحصولَ علىٰ الإجازة لن يكون سُلَّماً نرتقي به إلىٰ ذلك المرتقىٰ ما لم يسبق ذلك جدّية الاتّباع وإخلاصُ العمل وصدق القول وصلاحُ النية وحسنُ الظن والتحلّي بالأخلاق الحميدة.

ولا يكون التشبّهُ بالكرام فلاحاً إلا مع وجود الرغبةِ الصادقة والاستعدادِ للتقبّل والحرص علىٰ الاتّباع، والتمسّك بكل ما تحتويه الإجازة من الوصايا والتوجيهات مما يحصل به النفع والانتفاع.

وكما كان سيدي يتحفّظ في الفتوىٰ نجده يتحرّز في الإجازات ولا يعطيها لكل طالب، حرصاً منه علىٰ صيانة العلم وإجلالاً لمقاماتِ أربابها.

١ ــ إجازته للسيد عمر بن الشيخ أبي بكر بن سالم:

ومن أولىٰ الإجازات التي عثرنا عليها هذه الإجازة التي أجاز بها أخاه الداعيةَ الإسلاميَّ المعروف الشريفَ عمرَ بن عبد الله بن الشيخ أبي بكر بن سالم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله باعثِ الهِمَم إلىٰ صعودِ القِمَم ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ سيدِنا محمّدٍ سراجِ الظلمَ، وشَفيعِ الأمم، وعلىٰ آلهِ وصحبهِ أهل الجودِ والكرم.

وبعدُ:

فهذه تذكرةٌ للأخ الشريفِ اللطيف عمرَ بنِ عبد الله بن الشيخ أبي بكر بن سالم، وفي ضمنِها إجازةٌ، دعاني إلىٰ رقمِها طلبُه وأدبُه:

فأوصيهِ بلزومِ السيرةِ المحمدية والطريقةِ العلوية أينما كانَ وحيثُما نزل، عملاً بقولِ جدّه عليه الصلاةُ والسلام: «اتّقِ الله حيثُما كنت، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن».

وكما قال الشاعر:

عِلْمي معي حيثُـما وجَّهـتُ فهوَ معي

صـدري وعـاءٌ لـه لا بطـنُ صـنـدوقِ

إن كنتُ في البيتِ كانَ العلمُ فيه معي

أو كنتُ في السوقِ كان العلمُ في السُّوقِ

وبإعمالِ الفكر وترويضِ القريحة، والأخذِ بالذكاء وأفعالِ الأذكياء، لا سيّما في دَوْر تعلّمه وطور شبابه، فسوف يحمدُ إذا أنهىٰ المرحلة، وعند الصباح يَحمدُ القومُ السُّرىٰ، نسألُ الله بحقِّ النبيِّ والأسلافِ أن يفتحَ علينا وعليه الفتحَ الخاصَّ والعام، ويجعلَنا في زُمرةِ القوم الكرام.

وأجيزُه وفقاً وامتثالاً لأمر خاله العَطوف السيدِ العلامة أبي الحسن، في

قراءةِ أورادِ مولانا الحداد، خصوصاً الوردَ اللطيفَ صباحاً ومساءً، والراتبَ بعد العشاء، وفي العلم والتعليم والدعوةِ إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فتلك طريقةُ النبيِّ وآله، وبها حيازةُ الشرفِ ومناله، وكذلك في طبّ الأجسامِ بالروحانياتِ والأذكار والعزائم المقبولة ولا حرج أن تجمع بين الطِّبَّين طبِّ الأرواح والأشباح، فقد كان أهلُه كذلك، وأوصيه بالذكر، خصوصاً في مواطن الغفلةِ والجاحدين، وذاكرُ الله بين الغافلين كالحيِّ بين الميـتِين، وأوصيه بالصبر وحمل النفس علىٰ ذلك؛ فالصبرُ مفتاحُ الظفر، والله مع الصابرين، وبحسنِ الظنِّ في المسلمين، ومعاملةِ الكفارِ بالظاهر، وبحفظِ قلبه من دخولِ شيءٍ من ودِّهم إليه؛ فإنهم أعداءُ الله ومبغِضوه، فلْيُسايِرهم علىٰ قدر الحاجة وحسبَ المصلحة ولا يتولاّهم.

هذا وأرجو من أخي الدعاءَ كما أنّي له داعٍ، وأيضاً يجعلُ مطالعَته في كتب السلف، مثلِ «النصائح الدينية» و«بداية الهداية» وغيرِها.

والله يتولاّني وهذا الأخَ بما تولّىٰ به عبادَه الصالحين، وحزبَه المفلِحين، ويرعانا ويحرسُنا ويحفظُنا أينما كنّا، ويمنحنا الاقتداءَ بسيدِ المرسلين، وأسلافِنا الصالحين، آمين. وكذلك يجعلُ الأخُ له ورداً من القرآن الكريم يومياً صباحاً ومساءً نحوَ جزءٍ أو قريباً منه، والسلام.

حرّر في ١٤ ذي الحجة ١٣٧٩هـ

٢ ــ إجازته لبعض محبيه:

وهذه الإجازة وُجدت بخط يده، أغفل اسمَ طالبها، ونصُّها كالآتي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله حافظِ الودائع لأهلِها بأهلِها، وجامع النِّسَبِ في الرُّتَبِ بين الفروعِ وأصلها، في التوافقِ والتخالف، والتناكُر والتعارُف، إيذاناً بوحدانيةِ ذاته، في شؤونِ ومظاهرِ أسمائه وصفاته، التي أعظمُها وأرفعُها مكاناً الحقيقةُ المحمدية، الساميةُ عن محاولةِ ترجمةِ القلم لمعانيها السنية، إلا ما وقفتْ عليه العقولُ الزكية من شمائله وخصائصه الكريمة.

وواقفـون لـدَيـهِ عنـدَ حـدِّهِـمُ ... مِن نقطةِ العلمِ أو من شَكْلةِ الحِكَم

اللّٰهمّ صلِّ وسلّم علىٰ تلك الذاتِ الكاملة، والرحمةِ الشاملة، حبيبِ الرحمٰن، والحاضرِ مع من صلّىٰ عليه في كلّ زمانٍ ومكان، وعلىٰ آله وصحبه وتابعيهم بإحسان، إلىٰ يوم الدين، ونسألُه تعالىٰ أن يجمعَنا به عليه، ويُرِوينا من الأنوارِ والأسرارِ المستودعةِ لديه.

وبعـد:

فإن حُسنَ الظنِّ نبراسُ الصلاح، ومفتاحُ النجاح، من أوتيَهُ وردَ علىٰ عين الحياة، وركبَ سفينةَ النجاة، وكان الحقُّ جلَّ وعلا عند ظنّ العبد به، فما أجلَّ هذه العنديةَ الإلٰهيةَ اللطيفةَ لظنِّ العبدِ الحَسَنِ بربّه، لذلك أدركَ محسنو الظنون ما يرجون.

كان منهم حضرةُ الشيخ العلاّمة[١] . . . .

فقد التمسَ منّي الإجازةَ المرعيةَ كتابةً، والإجابةُ عليها مركَبٌ صعبُ

---

(١) لم يذكر الاسم في المسودة المخطوطة بخط يده رحمه الله.

المرتقىٰ، لا يرقاهُ إلا المخِفُّ الضليع، ولكن نزولاً عند حسنِ ظنّه علىٰ ضحولةِ أهليتي وقلةِ بضاعتي، فقد أجزتُه فيما تصحُّ لي الإجازةُ فيه من روايةٍ ودراية، وعلمٍ وعمل، وأورادٍ وأذكار، لا سيّما مؤلفاتِ سيدي قطبِ الإرشاد؛ الحبيب عبد الله بن علوي الحداد، وأورادَه وطريقتَه، بحقِّ أخذي ذلك عن آبائي إليه، كما أجازني مشايخُ أجِلّة، في مقدّمتِهم سيدي الحبيب صالحُ بن عبد الله الحداد، وعمَّايَ العلمانِ النيّرانِ عبدُ الله وعلويّ ابنا طاهر الحداد، ووالدِي طٰه بن علي الحداد، والحبيبُ أحمدَ بن محسن الهدار بن الشيخ أبي بكر بن سالم، والحبيبُ محمدُ بن أحمدَ المحضار، وصِنْوُه الحبيبُ مصطفىٰ بنُ أحمدَ المحضار، وعمايَ علويٌّ وحسينٌ ابنا محمد بن طاهر الحداد، والحبيبُ عبدُ الله بن عمرَ الشاطري، والحبيبُ عيدروسُ بن سالم البار، والشيخ عمُر بن أبي بكر باجنيد، وسيدي الإمامُ عمرُ بن أحمدَ بنِ سُمَيط، وغيرُهم من بقيةِ المشايخِ الذين أخذتُ عنهم رضيَ الله عنهم، وقدّسَ أرواحَهم، لا يتّسعُ القرطاسُ لعدّهم، وأحيلُه علىٰ كتابِ «عقودِ اللآل» للحبيب العارف عيدروسَ بنِ عمرَ الحبشي، وأجيزُه فيما اشتملَ عليه، فهو السندُ الجامع والثبَتُ الحافل، وأوصيه بتقوىٰ الله والاحتسابِ في نفعِ العباد، رعايةً لحقِّ الله ورسوله فيهم، والاستمدادِ من كلّ موحّدٍ وصافٍ صوفي، للدخولِ في غمارِهم، واللحوقِ برعيلِهم، وأن لا ينساني في دعواته الصالحة.

نسألُ الله تعالىٰ أن يكتبنا في ديوانِ المقرَّبين، وخواصِّ المحبين لسيدِ المرسلين، كما جمعَنا في حَرَمِه وحِماهُ المَكِين، وصلّىٰ الله علىٰ سيدِنا محمّدٍ وآلهِ وصحبِه وسلّم.

وحُرّر في ١٦ محرَّم الحرام سنةَ ١٣٩٠ هجرية.

٣ ــ إجازته للسيد هادي الهدار:

ومن الإجازاتِ التي حرّرها بيده نظماً هذه الإجازةُ التي أجاز بها السيد هادي بن أحمد الهدار بن الشيخ أبي بكر بن سالم، استجابةً لطلبه ونزولاً عند رغبته:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حُقَّ لي أن أجيبَ نغمةَ هادي ... بالتهاني بأبركِ الأعيادِ
وأباري جيادَه صافناتٍ ... في ميادينِ سبقِه بجيادي
بعدَ إجْمامِها وطولِ ثُواها ... في رعانِ الفتورِ والإخمادِ
وحقيقاً لقد أثارَ رَسِيساً ... نظمُه العَذْبُ كامناً في فؤادي
وحَداني من وصفِ شأني بما لم ... يكُ قولٌ بمثلِه ليَ حادي
فاعتزمتُ النهوضَ والجدّ في ... تحقيقِ ما ظنّه بصدقِ الوِدادِ
مستجيراً مما نأتْ بي ذنوبي ... عن سبيلِ التُّقىٰ بخيرِ العبادِ
وبقطبِ الدوائرِ ابنِ سُمَيطٍ ... عمرَ الفضلِ والندىٰ والسَّدادِ
ملتقىٰ الصالحاتِ من كل صَوبٍ ... وملاذِ الراجينَ والقُصّادِ

* * *

يا وَفيّاً علىٰ مدىٰ الآمادِ ... وجواداً أزرىٰ بكلِّ جَوادِ
أنتَ في مَرقبِ العنايةِ يا ... بشراكَ ترعاكَ رائحاً أوغادي
ولذا أينما اتّجَهْتَ تُوافىٰ ... بالرضىٰ والقبولِ والإمدادِ
وبعينيَّ ما رمتَ من عمّك الـ ... عاجزِ من وصلةٍ ومن إمدادِ

هو من مَيرِ جُودِكم يابَنِي الهدّار يُزجىٰ لكم من الحداد

فارضَ عني فقد أجزتُكَ فيما صحَّ لي من إجازةٍ و وِجادِ
من علومٍ زكَتْ وأعمالِ صدقٍ وكنوزِ الأذكارِ والأورادِ
سِيَّما في الذي رَوَيتُ من الـ ـكُتْبِ لقطبِ الإرشادِ والإمدادِ
وعن الغُرِّ من بني عَلَويٍّ من سلوكٍ وكلِّ علمٍ مُفادِ
سنداً مُشرِقاً رواه إمامٌ عن إمامٍ إلىٰ الشفيع الهادي
منهم: عُمدتي ومصباحُ فتحي وخَفِيري في السَّيرِ والإبرادِ
الإمامُ (ابنُ محسنٍ أحمدَ الهدّارِ) سامي الذُّرىٰ رفيعِ العِمادِ
والذي حَلَّ في (نصابٍ) مقاماً (صالحُ) القطبُ خصّني بمِدادِ
والإمامانِ (علويٌّ) و(عبدُ الله) عمّايَ موريانِ زِنادي
وابنُ خالي الكريمُ قاطنُ جاوىٰ (علويٌّ) به بلغتُ مرادي
وآلُ مِحضار (مصطفىٰ) و(جمال الدينِ) صنوانِ أكملا إعدادي
وصغيراً صليتُ خلفَ (شهابِ الدِّيـ ـنِ عطّاسِنا) أحمدٍ صلاةَ الغادي
مصغياً نحوَ سورةِ الفجرِ يتلو ها بصوتٍ يشفي غليلَ الصادي
ووفاءً بالشكرِ أذكرُ أمّي (ابنةَ القطبِ طاهرٍ) السجّادِ
قد غذتني درَّ المعارف طفلاً وهَدَتْني إلىٰ سبيل الرشادِ
وبمَن قد ذكرتُ رَمْزاً إلىٰ مَن لم أعيِّنْه من رجالِ الوادي
وبأمّ القرىٰ وطَيبةَ أدركتُ رجالاً صفىٰ بهم ميرادي
منهمُ (البارُ عيدروسُ) وشيخُ العلم والفضل (باجُنيدُ) الهادي
و(السَّنُوسيُّ أحمد) الحبرُ و(الـ ـكتانيُّ) البدرُ واسعُ الإسنادِ
وبإفريقيا توفَّرَ لي مِنْ (جَمَلِ الليلِ صالحٍ) إمدادي

وبمـولايَ (عمـرَ بـنِ سُمَيـطٍ) تـمّ لـي غُنـمُ مبـدئـي ومعـادي
ولـيَ الأخـذُ مـن شيـوخٍ عظـامٍ ودعـاةٍ تفـرّقـوا فـي البـلادِ
يقصرُ النظمُ وهو مقياسُ حصرٍ عن بياني لهم وعن تَعدادِي

* * *

وختـامـاً أُشيـرُ نُصحـاً بتقـوىٰ مالكِ المُلكِ فهيَ خيرُ الزادِ
فـي دَلالاتهـا الثـلاثِ اعتقـاداً وامتثـالاً وحسـمَ كـلِّ قِيـادِ
وبنفعِ الورىٰ احتساباً لمولاهم وتـذكيـرِهـم بعُظْـمِ الأيـادي
والتـزامِ الآداب فـي كـلِّ طـورٍ والتغنّـي بسِيـرةِ الأجـدادِ
فبهـا كـلُّ مطلَـبٍ ونجـاحٍ وعـلاً فـي الصدُورِ والإيـرادِ
وتقبَّـلْ مـا كنـتُ أرجـوه نثـراً فـانثنـىٰ فـي قـلائـدِ الإنشـادِ
وأجِـزنـي بـدعـوةٍ منـكَ حَـرّىٰ لـي بنيـلِ الـرجـا ولـلأولادِ
خاتماً بالصلاةِ نظماً علىٰ مَن نـورُهُ فـي الـوجـودِ سـارٍ وبـادِ
وعلـىٰ الآلِ والصحـابـةِ طُـرّاً والمحبِّيـنَ دائـمَ الآبـادِ

هذا وقد جاءَ المطلوبُ من الإجازةِ نظماً عفوَ الخاطِرِ راسفاً في قيودِ الشعر، ملقياً يدَ العذر، عسىٰ أن يفيَ بالمطلوب، أو يقضيَ حاجةً في نفسِ يعقوب، مع أني والله لأحوجُ إليكَ مني بما بذلتُه، مقراً بخُلوِّ الوِطاب، وقلةِ الآداب، راجياً اللحوقَ بزُمرةِ الأحباب، والانتظامَ في سِلكِهم، والنجاةَ في فُلْكِهم، والورودَ علىٰ مشارِعِهم والجمع علىٰ مجامعهم، إن ربّي لطيفٌ لما يشاء، والسلام.

وحرّر في ١٩ شوال ١٣٨٩ هجرية

٤ ــ إجازته للسيد علي بن حسين الحداد:

وقد أجاز رحمه الله السيدَ عليَّ بن حسين الحداد بالإجازة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله شارحِ الصدور، بما أَودعَ فيها من النور، فأنابت إلىٰ دارِ الخلود، وتجافت عن دار الغرور، بالعملِ الصالحِ والسعيِ المشكور، وذلك عينُ السعادةِ الأبدية، سابقُ حُكمِ الإرادةِ الأزلية، والصلاةُ والسلامُ علىٰ الرحمةِ الكبرىٰ والمَثَلِ الأعلىٰ، سيدِنا محمدِ بن عبدِ الله، صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومَن والاه، صلاةً ننتظِمُ بها في خِيرةِ أهلِه، ونَرتوِي من صَفوةِ اليقين عَلِّه ونَهْلِه.

وبعـدُ:

فإن للطلبِ حوافزَ ودواعيَ خفية، يَـقدُمُه نشرٌ من الكرَمِ الفائضِ والمِنَحِ الإلٰهية، فيَبرُزُ بالنوايا الزكية، والهِمَمِ العلية، فيُنعِشُ أريجُها الذكيُّ النفوسَ المتشوِّقةَ إلىٰ تلك العطايا السَّنِية، فتجلي الروح من الغُمَم، ويُمطِرُ غيثُها علىٰ القلوبِ الصاديةِ فتهتَـزُّ وتربُو وتَنبُتُ بالمعارفِ والحِكَم.

وقد التمسَ منى الإجازةَ الأخُ الفاضلُ الأريب علي بن حسين بن محمد ابن طاهر الحداد، حُسنَ ظن منه في قاصرِ الخُطىٰ، وهكذا صاحبُ حسنِ الظنِّ لا يخيب وإن أخطأ، حيث أن الإجازةَ لها رجالٌ عدول، أتقنوا الفرع والأصول، وثبتوا علىٰ قدم الرسول، فلجأتُ إلىٰ إجابته بالمرام، تشبُّـهاً

بالكرام، ورُبَّ رَميةٍ مِن غير رام، وقد يشملنا الأذنُ العام المشارُ إليه بالأمرِ في قوله تعالىٰ لرسوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، وللأمةِ في قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٦]، وقولِ النبيِّ صلىٰ الله عليه وآلـه وسلّم: «بلّغوا عني ولو آية»[1]، لما في ضمنِ الإجازةِ والإذنِ في العمل والتبليغ، وقد جرىٰ علىٰ تعاطيها والأخذِ بها علماءُ الأمةِ سلفاً وخلفاً في كلّ ما بلغهم عن الحبيبِ الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم قولاً وعملاً ونية، ولو لم يكن من مزاياها إلا الانتظامُ في سلسلة أولئك الأئمة والارتباطُ بهم لكفىٰ شرفاً. . .

وبعد أن ذكرَ من أخذَ عنهم من الشيوخ اختتم هذه الإجازةَ رحمه الله بقوله:

وقد أجبتُ طلبَ ذلك الأخِ المذكورِ ونزلتُ علىٰ مراده، فأجزتُه بما أجازني به هؤلاءِ الأعلام من روايةٍ ودراية، موصياً له بتقوىٰ الله في السرّ والعلانية، والتواضع في القولِ والفعل، والصدقِ في الجدِّ والهزل، والقصدِ في الغنىٰ والفقرِ، والإقبالِ علىٰ طلب العلم بجدٍّ وتشمير، وحسنِ الظنّ في الصغير والكبير، وهناك الفتحُ والإكسير، واغتنامِ الخمس، والمحافظةِ علىٰ الخمس، والاتباع لِلْمخصوصِ بالخمس، وأن لا ينساني من دعائِه في خلوتِه وجَلْوته، راجياً له كمالَ النجاح والاستقامة، والفتح والكرامة، بحقِّ محمدٍ وآله صلّىٰ الله وسلّم عليه وعليهم.

وحُرّر في ١٤ رجب ١٤١٣هـ بجدّة.

---

(١) رواه البخاري في (كتاب الأنبياء)، حديث (٣٤٦١).

٥ ـ إجازته للسيد الجنيد

وفي مقدمةٍ قصيرة لقصيدةٍ بعث بها العالم الجليل السيد عبد القادر بن عبد الرحمٰن الجنيد ضمّنها طلبَ الإجازةِ من سيدي رحمه الله وإنجازِ ما وعد قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلىٰ ساحةِ الفضل والجُود، ومجلىٰ حضرةِ الشهود، وخليفةِ الآباءِ والجدود، بني علوي الصيد حليفِ الكتابِ والمحراب، والمرتوي من خيرِ شراب، الأمينِ علىٰ الأمائن، والكنوزِ والدفائنِ، وعنده مفتاحُ الخزائن، وعلىٰ يديه نرجو الفتحَ والعطاءَ والمنحَ وأن يُدخلَنا في حزبه، ونظفرَ بهم في الحسبة ويَقسِمُ لنا بفضله من شِربِه، إذْ كلّ وادٍ يشرب من شِعبِه، سيدي وحبيبي، ومن حبُّه ملأ جوانحي وقلبي، الوالدِ العُمدة، ومن هو أعظمُ عُدّة، سيدي الحبيب أحمد مشهور بن طٰه بن علي الحداد متّع الله به في عافية، أقدّمُ هذه الأبياتَ الركيكةَ المبنىٰ، والضعيفةَ المعنىٰ، متطفّلاً علىٰ مائدةِ الشعر والشعراء، راجياً قبولَها، والإغضاءَ عن عيوبها، وإنجازَ مطلوبها.

ثم أشار إلىٰ الإجازة بالأبياتِ التالية:

ولـي يـا سيّـدي طلـبٌ أُرجِّـي ... تُنَجِّــزْهُ ومــا طلبِــي عَسِيــرُ
وقد سبقتَ وعودٌ منك لكنْ ... بحُكمِ الوقتِ تنكشفُ الأمورُ
أريــدُ إجــازةً منكــم بخــطٍّ ... تُنــاطُ بهـا الإقـامـةُ والمَسِيـرُ
بنظـمٍ أو بنَثـرٍ كيـفَ شئتـم ... وإنّ النظـمَ بـالأُدبـا جَـديـرُ

بمَحْضِ الفضلِ والإحسانِ جُودوا   علـيَّ فمـا لجُـودِكـمُ نظيـرُ
وإنـي بلسـانِ الحـالِ أشـدو   (إلىٰ إحسـانِكـم إنـي فقيـرُ)

* * *

وقد أنجزَ سيّدي ما وعدَ وهو أهلُ الصدق والوفاء، فأجابه علىٰ قصيدته بقصيدةٍ سنأتي علىٰ ذكرها إن شاء الله، وأتحفَه استجابةً لرغبته بالإجازة التالية:

بسم الله مُجري أعِنّةِ الأفكار، في ميادين الاعتبار، حائزةً فضلَ السبقِ في ذلك المضمار، بما أودعَ قلوبَها مِن سكينة، وملأها مِن طمأنينة، فتلاقىٰ فيها قوةُ المشهد، ووارِدُ المدد، من حضرةِ الإمداد، فترقّت إلىٰ عالم النور، والبيتِ المعمور، وموطِنِها الأصليّ في العالم النزيه، وتجرَّدت من علائق العالم الأرضيّ الكثيف، وبقيت بهيكلها الجُثماني مسلّمةً منقادةً بحكمِ الله، أمراً ونهياً، أخذاً وردّاً، علىٰ ملّة حبيبها محمّد وهديِه المسدّد، وفي ذلك الانقياد، كمالها وزيادةُ ترقّيها، ونوالُها وقيامُها بالخلافةِ المنيفة، بشاهدِ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وهي مرتبةٌ خطيرةٌ لم تنلْها الملائكةُ المقرّبون، فإذا قامت بحقّ الخلافة من الطاعة والإصلاح؛ بلغت الغايةَ من الفضلِ والصلاح، والناسُ في غفلةٍ معرضون.

والصلاةُ والسلامُ علىٰ داعي الهداية، وماحي الغواية، الرحمةِ العظمىٰ والنعمةِ الكبرىٰ، سيدنا محمّد بن عبد الله، صلىٰ الله عليه وآله وسلم ومن والاه، صلاةً ننتظم بها في خيرةِ أهله، ونرتوي من صفو اليقين عَلّه ونَهْلِه.

أما بعدُ:

وفي كلّ رَبْعٍ بَنو سَعدٍ، فإنّ نُعْمىٰ المُواصِلة، نتيجةَ المقابلة، وهي الاتجاهُ الخالصُ إلىٰ المطلبِ الأسنىٰ، والمشربِ الأعذبِ الأهنا، بباعث الإرادةِ الناشئةِ بسائق التوفيق الفائض من خزائن الجُودِ الإلٰهيّ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقد التمسَ مني الإجازةَ الأخُ الفاضل العالمُ العامل الداعي عبدُ القادر ابن عبد الرحمٰن الجنيد، ظناً منه في قصيرِ الخُطا وكثير الخَطا، وهكذا صاحبُ حُسن الظنّ لا يخيبُ وإن أخطا، حيث أن الإجازةَ لها رجالٌ عدول، أتقنوا الفروعَ والأصول، فثبَتوا علىٰ قدم الرسول، فلجأتُ إلىٰ إجابتِه بالمرام، تشبُّهاً بالكرام، ورُبَّ رميةٍ من غير رام، وقد يشملنا الإذنُ المشارُ إليه بالقولِ في قوله تعالىٰ لرسوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولأمته من بعدِه في قوله تعالىٰ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقولِ النبيّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «بلِّغوا عني ولو آية»، لما في ضمن القول من معنىٰ الإجازةِ والإذنِ العام في العملِ والتبليغ، فالإجازةُ من وثائق الدعوةِ وطرق الإسناد، ولو لم يكن من مزاياها إلا الانتظامُ في سلسلة أولئك الأعلام والارتباطُ بهم لكفىٰ شرفاً.

فلذلك أجزتُ الأخ المذكورَ فيما تصحُّ لي فيه الإجازة، من علمٍ وعملٍ ودعوةٍ وإرشاد، وحزوبٍ وأوراد، كما أجازني مشايخُ كثيرون، في طليعتهم الحبيبُ صالح بن عبد الله الحداد، والحبيبُ أحمد بن محسن الهدار، والحبيبانِ محمدٌ ومصطفىٰ ابنا أحمدَ المحضار، والحبيبُ حسين ابن حامد العطّاس، وأعمامي عبدُ الله وعلوي ابنا طاهر، وعلوي وحسين ابنا

محمد بن طاهر، ووالدي طه بن علي آل الحداد، والحبيبُ المَنصِب عمرُ ابن عبد الله الحبشـي، والحبيبُ أحمـد بن عبد الرحمٰن السـقاف، والحبيبُ علوي ابن عبد الله بن شهاب، والحبيبُ محمد بن هادي السقاف، والحبيبُ محمد بن علي الحبشي، والحبيبُ صالحُ بن علوي جَمَل الليل، والحبيبُ عمر بن أحمدَ ابن سُمَيط، والسيدُ المجاهدُ أحمد السنوسي، والسيدُ الحافظُ محمد عبد الحيّ الكتاني، والسيدُ علوي بن عباس المالكي، والشيخُ عبود عمرَ باطوق العمودي، والشيخ أبو بكر بن احمدَ الخطيب، والشيخُ عمر بن أبي بكر باجُنيد، وغيرهم ممن لقيتُ بالحرمين واليمن ومصرَ وأندونيسيا وإفريقيا.

ولاغتنام مزيدِ الالتحاق بفريق المتواصين بالحقّ والصبر، المستثنين من أُولي الخسر أُدلي إلىٰ هذا الأخ بوصيةِ الله الجامعةِ في كتابه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فهي الوصيةُ الحاويةُ لخير الدنيا والآخرة، وببذل الجهد في نشر الدعوةِ المحمدية، فإنها أقربُ الطرق إلىٰ الله ورسوله، ببيانِ الأحكام الشرعية، ومعرفة ما وردَ في الوعد والوعيد، والترغيبِ والترهيبِ، من الآياتِ والأحاديث، فإليهما تحنُّ الأفئدةُ وفيهما نورُ الإيمان، ويكفي في معرفةِ ذلك «النصائحُ الدينية»، فإنها علىٰ اختصارها جمعَت ما لا غنىً عنه، وإن أردتَ معرفةَ الطريقةِ الخاصة والآدابِ المشروعة فهيَ في «رسالة المعاونة»، ويكفي في معرفةِ الدعوةِ ووجوهِها كتابُ «الدعوة التامة» بفهم وعمل، فتلك بركتُها الحقيقية، وغيرِها من كتبِ السلفِ المفيدة، والتطلّع إلىٰ علوم الدينِ من تفسيرٍ وحديثٍ وتصوّف، دون الاقتصارِ علىٰ الفقهِ فقط، فإن ذلك جمودٌ يُورث القسوة، هكذا قال أشياخُنا، قال الإمام الحداد:

والـزَمْ كتابَ اللّٰهِ وٱتْبَـعْ سـنـةً   واقتَدْ ــ هداكَ اللّٰهُ ــ بالأسلافِ

وهم الموصوفون بكمال اليقين علماً وعَيناً وحقاً، فلليقين نورٌ تـتراءىٰ به حقائقُ الإيمانِ علىٰ ما هيَ عليه، فإذا أشرقَ في قلبِ العبد أبصرَ ما كان غائباً عنه حاضراً:

عليك بتحسـينِ اليقيـنِ فإنه   إذا تمّ صار الغيبُ عَيناً بلا نُـكرِ

وإنما يكون تحسينُ اليقين بكثرةِ الأعمالِ الصالحة، وبمجالسةِ الصالحين ومطالعةِ كتبهم والتأدّبِ بآدابهم، وفي الأثر: «تعلّموا علمَ اليقين»، أي: جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علمَ اليقين، وواظبوا علىٰ الاقتداء بهم ليقوىٰ يقينُـكم كما قَوِيَ يقينهم، وقليلٌ من اليقين خيرٌ من كثيرٍ من العمل، وهنا يكونُ القربُ والمعيةُ من الحقِّ المعبود، فإذا دعوتَه أجابك، وإذا سألتَه أعطاك، ثم بعدَ ذلك يسقيك من سُلافِ اليقينِ ما لا يعبِّرُ عن ذوقِه بيانٌ:

راحُ اليقيـنِ أعـزُّ مـشروبٍ لنـا   فاشرب وطِبْ وٱسكَرْ بخيرِ سُلافِ

فتبقىٰ متعلّقاً بالحضرةِ الأحدية، مستغرِقاً في حضرةِ أنوار الشهود، وأنتَ في حقائق تقلُّبك تغدو وتروحُ لمعاشِك ومعادِك، وتشملُك إشارةُ بشارةِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وحفاوةُ أَمَارةِ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

هذا وقد جرىٰ القلمُ بما ترىٰ في مفازة، ملفَّقاً في صورة إجازة، لك فيها بشـارةٌ جاءت من موردِها، فأجزني بدعوةٍ وافية، يحصلُ بها الشـفاءُ الكامل، ولك من مشايخِك الأجلّة ما يؤهِّلك أن تمدَّ به الإجازةَ لمن طلبها،

فنسألُ الله تعالىٰ أن يمنَّ علينا بما مَنَّ به علىٰ أسلافنا، وبكمال الاتباع لحبيبنا ومقتدانا وجدِّنا محمدٍ نبيِّ الرحمة، وكاشفِ الغمّة صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.

وكتبه عُبَيد ربه أحمد مشهور بن طـه الحداد في ٢٢ شوال ١٤٠٤هـ

٦ ــ إجازته للسيد محمد سعيد البِيض:

ومما وجدتُه بقلم سيدي الوالد رحمه الله هذه الإجازة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله فاتح أقفال الهداية، بمواهبِ أسرارِ الدرايةِ والرواية، ومانحِ خطابِ الولاية؛ طيبَ نَشْرِ القُربِ والرعاية، فجَمعَتْهم دائرةُ الاجتباء في مَهْيَعِ: «فطُوبىٰ للغرباء»، تحتَ لواء دعوةِ خير الداعين عجماً وعرباً، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن اتّبع لهم سبباً.

وبعد:

ففي خيرِ ساعةٍ من الزمانِ جادَ بها ذو الفضلِ والمنّ؛ جرت بيني وبين الأخِ الأودّ النجيب، الحائزِ من فنون العلم أوفىٰ نصيب، محمد سعيد البِيض، مذاكرةٌ في علم الإسناد، وما كان من الاعتناءِ به من السادةِ النجباءِ والأمجاد، روايةً ودراية، لا سيّما فيما هو من السنّة والآثارِ اللذَين بالإسناد عليهما التعويلُ والمَدار، فقد ألّفوا لذلك المعاجمَ والمسانيد، قَطَعوا في

إحرازِ نَيلها المفاوزَ والبِيد، منذ عصر الروايةِ إلىٰ يومنا هذا، ورجَونا لو ظفرنا بسندٍ قريبٍ يربطنا بأولئك الرجال، فعثرنا بحمد الله علىٰ ما حقق لنا الرجاء وكشف الدجىٰ، من سندٍ جامعٍ وثَـبَتٍ يانعٍ لسيدنا الإمام الحجةِ الجهبذ علوي بن طاهر الحداد، أوسع فيه الإجازةَ فيما تصحّ فيه الإجازة لمن تصحّ له من أهلِ عصرهِ بسائرِ أنواعها.

وأقول تحدُّثاً بالنعمةِ إنه شيخي الفريدُ الذي فتقَ رتقي، وتلقيتُ عنه من العلم جُلَّ ما عندي.

وقد التمسَ مني الأخُ المذكورُ الإجازةَ فيما اشتملَ عليه ذلك الجامعُ خصوصاً، فقد أجزته فيه خصوصاً، حيث لم أجد من إجابةِ طلبه مَحِيصاً، نيةً ولفظاً وكتابة.

وأسأل الله لي وله القبولَ والإقبال، والإخلاصَ في الأقوالِ والأفعال، و اللحوقَ بأولئك الرجال.

كتب ذلك راجي عفو ربه
أحمد مشهور بن طه الحداد
٢٦ ذي القعدة ١٤٠٩ هجرية

٧ ــ إجازتُه لجماعةٍ من الطلبة:

وزوّدَنا الأخُ الفاضل محمد أبو بكر باذيب ــ وهو من مريدي سيدي الوالد ــ بما سجّله في بعض الاجتماعات العلمية فقال:

«هذه إجازةٌ فخيمةٌ عظيمة تلفّظ بها سيدُنا ومولانا الإمامُ شيخُ الشيوخ،

الحبيبُ أحمد مشهـور بن طـٰه الحداد، ضحىٰ يوم الأربعاء ١٢ شعبان ١٤١٣ هجرية في زاوية مدرسـة الإمام الشـافعي بمسجد النووي في جدة. وذلك بعد أن ختـمَ عـددٌ من طلاب الشـيخ محمد علي باعطيـة بعـضَ الكتب، وفي مقـدّمتهـم هذا العاجـز الذي ختـم عليـه كتابَ «بدايـةِ الهدايـة» للإمام الغزالي.

وأنشأ السيد عبدُ الله الصادق الحبشيّ رحمه الله قصيدةً بهذه المناسبة منها:

أحمد المشـهور الداعـي إلىٰ	سبـل الخيـر بـإصـلاح العَمَـلْ
مَن سما أوجَ العلا في سَعيه	قـام بـالـدعـوة فـي كـلِّ مَحَـلْ
يا أبا الأشبالِ فُزتُم بالرِّضا	والمُنىٰ يا مَن خَلَـفْـتُم للأُوَلْ
مُـنّ بـالـدعـوة لـلإبـن الـذي	قـام بـالأعتـاب بـالبـاب نَـزَلْ
يا كـريماً مِـن كريـمٍ قـد أتـىٰ	هكـذا الأخيـار دومـاً لـم تَـزَلْ
فـإلـىٰ مَـن غيـركـم يـا سيـدي	نلتجي إن حال خطبٌ للمحَلْ
يصـدقُ القـولُ إذا قلـتُ لكـم	أنتُـمُ تُـرجَـون للخَطْـبِ الجَلَـلْ
مقـري الضيفـانِ إذْ أمّـوهُ مِـنْ	كـل صِقْـع أيـن حل أيـن رَحَـلْ
وصـــلاة الله تغشـــىٰ أحمـــدا	وعلــىٰ آلٍ وصحــبٍ لــم تَــزَلْ
أيهــا الجُــلاّسُ أرجــو دعــوةً	كي بها نرقىٰ إلى أعلىٰ مَحَلْ

ألقيتُها نيابةً عنه، وهي مسجلةٌ في شريطٍ احتوىٰ علىٰ وقائع تلك المناسبةِ السعيدة. . وكان من الحاضرين الحبيبُ الفاضل أحمد بن علوي الحبشي، والحبيبُ عبدُ الله الصادق الحبشي، والسيد عبدُ القادر بن حامد بن علوي

البار، والسيدُ محمد رشاد البيتي، وأبناءُ سيدنا الحبيب: السيد حامد والسيد علي، وغيرهم.

وبعدَ تمام الفقرات طلب شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد باعطية من سيدنا الحبيب أن يجيزَ الطلبةَ فيما قرؤوه وكانوا قرؤوا شيئاً من منظومة «السُّبحة الثمينة» التي كان أستاذنا الشيخ يعتني بتحفيظهم إياها، فأجابَ مولانا قدّس الله روحَه ذلك الطلب، وقدَّمَ له بكلامٍ في غاية النفاسة والأهمية والذوق العالي والغالي، وذكرَ معنىٰ الإجازة وحقيقتها فقال نفع الله به:

«الإجازةُ معناها في حقِّ الطالبِ المخلِص، معناها: أن يرىٰ المجيزُ الطالبَ أهلاً لما يطلبُ إجازته، من قراءةٍ ومن أورادٍ ومن سلوك، ويُحسِنُ بذلك بأن يعملَ به في كلّ معاهده، ويدخلُ في ذلك الإجازةُ للابن في الإقراء والتعليم، لأنك لا تجيزُ للتعليم إلا من رأيتَه أهلاً لذلك، كما لا يجوزُ للطبيبِ الماهر أن يجيزَ لطبيبٍ آخرَ حتىٰ يختبرَ مهارته.

فالإجازةُ هنا من الشيخ ومن الفاضل تأهيلُ المجازُ ــ طالبِ الإجازة ــ ونظرةٌ شاملةٌ له كذلك. وفيه ارتباطٌ، لا سيّما بعلوم السنةِ أولاً، وأهلُ الإجازةِ أهلٌ لروايةِ الحديث، فيرويه فلانٌ عن فلانٍ عن فلان، بسندٍ متصل صادقٍ عن صادق، عدلٍ عن عدل، فاضلٍ عن فاضل، إلىٰ النبيّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم. وفيه حفظٌ للسنّة، وحفظٌ للآثار، وحفظٌ لما جاءَ عن الله سبحانه وتعالىٰ.

وفي حقِّ الكتب، كتب السلفِ كلِّها، إنما تكونُ بالإجازةِ للتثبيتِ والتمكين، ويكونُ معها سرٌّ آخرُ من المجيز، سرٌّ من المجيزِ إلىٰ المجازِين، يعطيهم مما أعطاه الله سبحانه وتعالىٰ.

وبواسطة هذا الطلب أقولُ: أجزتُ أولادَنا هؤلاء الطلبة، والشيخَ محمد باعطية المقدَّمَ فيهم، كذلك وللحاضرين.. أجزتُـكم فيما تجوزُ لي فيه الإجازةُ من أذكارٍ وأورادٍ وأعمالٍ وطلبٍ وأخلاقٍ وسلوك، وغيرِ ذلك مما ذكره أهلُ علم الأخلاقِ في طلبِ الإجازة، وروايةِ الأحاديثِ وروايةِ الأذكار، التي فيها شهادةٌ بأنك أهلٌ لهذا الدعاء، وأهلٌ للسرِّ الذي فيه، وأخذتَه عن شيخ مرشد، وإلا فالتلاوةُ تكفي، لكنّ سرَّ الإجازةِ هنا، وهي رؤيةُ التأهيل، والسرُّ الذي يجري بين المجيز والمُجاز فيه، كما قال صلىٰ الله عليه وآلهِ وسلم: «خذوا عني مناسكَكم»، و«رُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقهُ منه»، فقد تجدُ الواحدَ وهو كلّه يشتعل نور، وتجري بينك وبينه الصلةُ هكذا.. (مواصلةُ الأحبابِ فائدةُ الحبِّ) كما يقول الحبيب علي بن محمد الحبشي.

فأجزتُـكم في هذا، وفي كل ما ورد عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وعن أسلافنا من أوراد، وما صحَّ عنهم بالتواتر، أجزتُـكم في ذلك». انتهىٰ.

* * *

هنا نقف وقفةً قصيرة، نقلّب من خلالها صفحاتِ كتاب «إمداد الفتاح بأسانيد ومروياتِ الشيخ عبد الفتاح»، وهو ثَـبَتُ العلاّمةِ المحدِّث الفقيه الأصوليّ الأديب المسنِد فضيلةِ الشيخ عبد الفتاح أبي غدة، المولودِ بحلب ١٣٣٦هـ والمتوفىٰ بالرياض سنةَ ١٤١٧هـ، تخريجُ تلميذه: محمد عبد الله آل رشيد. ونقفُ بالتحديد عند ما جاء في الفصل الأول من البابِ الأول: سردُ أسماءِ مشايخه، وقد ذكر سيدي الوالدَ من ضمنهم فقال:

المجيزُ تدبيجاً[١] العلاّمةُ الفقيهُ المسندُ الداعيةُ إلىٰ الله تعالىٰ شيخ الإسلام الحبيب أحمد مشهور بن طـٰه بن عليّ الحداد الباعلوي الحسيني الشافعي (١٣٢٥- ١٤١٦). اهـ. صفحة ٢٥٤.

وما جاء في الصفحة ٢٦٨: المشايخ الذين تدبّج معهم شيخُنا رحمه الله تعالىٰ: السيد أحمد مشهور الحداد الباعلوي الحضرمي.

* * *

(١) التدبيج: أن يجيز كل من الشيخين الآخر.

وصيّة ومذاكرة في آداب زيارة المصطفىٰ ﷺ

ولعله من المناسب أن نورد هنا المذكرة والوصية التالية الذي كتبها سيدي الوالد للشيخ الفاضل أحمد عمر بازرعة، وهو لا زال في بداية العقد الثالث من عمره وقد كان العثور عليها من محاسن الصدف، حيث أتحفنا بها أخينا الفاضل السيد حسين بن محمد بن هادي السقاف، فقد ذكرها السيد الفاضل محمد بن شيخ المساوىٰ في رحلة سيدي الحبيب العلامة محمد بن هادي السقاف إلىٰ الحرمين الشريفين سنة ١٣٤٧ هجرية.

(قال السيد محمد المساوىٰ كاتب الرحلة المذكورة في الصفحة (٩١): ثم بعد انتهاء القراءة ناول الشيخُ أحمدُ المذكور ـ يعني بازرعة ـ سيدي محمداً، وصيةً ومذكرةً كتبها له السيدُ أحمد مشهور الحداد، طالبُ علم نجيب حديث السن جمعها من متفرقات الكتب في آداب زيارة المصطفىٰ صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم نثبتها هنا تعميماً للنفع وهي هذه:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من جاءني زائراً لم تنزعه حاجة إلا زيارتي كان حقاً علىٰ الله تعالىٰ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة»[1]، و: «ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر»[2]، و: «من صلىٰ عليَّ

---

(١) أخرجه بلفظ قريب من هذا: يحيىٰ بن الحسن بن جعفر في «أخبار المدينة»، ينظر: «رفع المنارة»: ٢٧٠، ومثله عند البيهقي في «شعب الإيمان»: (٣: ٤٨٨).

(٢) أخرجه ابن النجّار في «الدرة الثمينة في أخبار المدينة»: ١٤٤.

عند قبري وكَّل الله بها ملكاً يبلغني وكُفي أمر دنياه وآخرته وكنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً»[١].

ولزائر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم فوق قضاء حقه عشْرُ كرامات: رفع المراتب، بلوغ أسنىٰ المطالب، قضاء المآرب، بذل المواهب، الأمان من المعاطب، التطهير من المعايب، تسهيل المصاعب، كفاية النوائب، حسن العواقب، رحمة رب المشارق والمغارب.

هنيئاً لمن زار خير الورىٰ ... وحطّ عن النفس أوزارها

فإن السعادة مضمونة ... لمن حل طيبة أو زارها

غيره:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز ... فقد نال أفضل ما أمَّ له

وإن زار قبْرَ نبيٍّ الهدىٰ ... فقد أكمل الله ما أمَّله

وقال الحبيب عبد الله الحداد:

فإنك لا تجزي نبيك يافتىٰ ... ولو جئته سعْياً علىٰ العين سائر

زيارتُه فوزٌ ونجح ومغنم ... لأهل القلوب المخلصات الطواهر

ولا يعزب عنك ذكره صلىٰ الله عليه وآله وسلم أثناء مسيرك ليلاً ونهاراً، وتصور كماله وجماله ورحمته وأنواره، وأنه سر الكون الذي من أجْله خُلِق. واستعِنْ بشيء من الكتب المؤلفة في حقه صلىٰ الله عليه وآله وسلم أو

---

(١) أخرجه بلفظ قريب: الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني في «الثواب»، قال السخاوي في «القول البديع»: ١٥٤، وسنده جيد. اهـ.

مصاحبة عالم صالح، وقدِّر أنك تقبلُ عليه وكأنه حيٌّ في قبره تناجيه وتستغفر عنده[١] وتجلس مواجهه عليه الصلاة والسلام.

وأكثر من الصلاة والسلام عليه زيادةً كلما دنوت من طيبة، وجوانِحُك تمتلىء شوقاً وغراماً، وقلبك يزيد محبة وإعظاماً، واسأل الله الثبات علىٰ ذلك، وإن استطعت التجرد عن جميع العلائق لإخلاص زيارة حضرته فأفعل، فالأجر علىٰ قدر النية، فإذا وصلت قريباً من طيبة فانزلْ لدىٰ آبار سيدنا علي واغتسل لسنة دخول المدينة، واستعِدَّ للقائه صلىٰ الله عليه وآله وسلم بكمال السرور والخضوع والوقوف في ذلك المحل المقدس المهول، وعدم الالتفات إلىٰ غيره صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

واقصد توّاً مسجد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قبل كل شيء، فصَلِّ في الروضة الشريفة المعروفة ركعتين بالكافرون والإخلاص ناوياً تحية المسجد، فإذا فرغت فاشكر الله علىٰ ما أنعم، واسأله قبول الزيارة، وإن قمت في محرابه صلىٰ الله عليه وآله وسلم فهو أحسن.

ثم ائت الحضرة الكريمة والحجرة الشريفة قُبَالة الوجه الشريف الذي يستسقىٰ به الغمام، متنحياً عنه نحو أربعة أذرع أو أزيد لأنه أبلغ في الأدب، وهناك تسكب العبرات وتخفق القلوب للقاء المحبوب الذي يسمعك ويجيبك، وأختر من صيغ الصلوات أجمعها لشمائله، ثم كرر السلام عنك

---

(١) إشارة إلىٰ ما جاء في الآية الكريمة من قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

وعمَّن أردت، ولا تشتغل بالزخرفة والزينة هناك، فمادون الحبيب اليوم حاجب، وإن قرأت بعض قصائد القوم العارفين فهو أحسن، وسلِّمْ علىٰ صاحِبَي رسولِ الله عليه الصلاة والسلام المعروفِ محلُّهما، واجتهدْ في تعرُّفِ ذلك لتقابل تماماً، وانعطفْ بعدَئذٍ إلىٰ حجرة سيدتنا فاطمة في المقصورة الآن، وسلم عليها لأنها عند أبيها أقربُ منها في البقيع، وسلِّم عليها وعلىٰ بَعْلِها وابْـنَيها وتوسلْ بهم إلىٰ الله فإنك ترىٰ عجباً من الخضوع والحنانة هناك، وإن صلَّيتَ ركعتين فهو أحْسَنُ.

ثم ذكر له ما يستحب استصحابه من الماء والزاد خلال رحلته إلىٰ المدينة المنورة[1] وكذلك تتبع آثاره صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الآبار التي شرب منها النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهي سبعة معروفة إئت إليها وتوضأ واغتسل وغيرها من المآثر[2] ومهما مررت بالفيافي والمراعي فتذكر ما قيل:

لأغنامه سار الحبيب إلىٰ المرعىٰ — فيا حسْنَه راعٍ فؤادي له يرعىٰ
وما أملحَ الأغنامَ وهو يسوقُها — لقد آنس الصحرا وقد أوحش الربعا
مليح منيرِ الوجه شمس الضحىٰ له — غدت غرةً والليل عاد له فرعا
جميلٌ علىٰ وجه المحاسن وجهه — كأن بدُورَ التِّمِّ قد طبعت طبعا

---

(١) هذا بالنسبة لتلك الأيام وقد اختلفت الأوضاع علىٰ ما كانت عليه في ذلك الوقت لذا فقد أوردنا بعض ما جاء في هذه الوصية بتصرف لا يخل بالمقصود.

(٢) كما كان يفعل عبد الله بن عمر في تتبعه لآثاره صلىٰ الله عليه وآله وسلم في رحلاته من وإلىٰ المدينة المنورة.

أقـول لـه إذ سـار بـالبـر مـاشيـاً وأغنامه من حوله تطلب المرعىٰ
عيونك ياراعي الحمىٰ فتكَتْ بنا فقومٌ بها أسرىٰ وقومٌ بها صرعىٰ
ولولاك ياراعي الحمىٰ ما تشوّقتْ نفوسٌ إلىٰ بانِ العقيق ولا الجرعا
ومـا أنـت راعٍ للمـواشـي وإنمـا تراعي الورىٰ تبدي لنا النقلَ والشرْعا
أما والذي أبكىٰ وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أخرج المرعىٰ
لقد خاب من يسعىٰ إلىٰ غير بابكم وضل الذي يوما إلىٰ غيركم يسعىٰ
حبيبي حبيبي أنت راعي قلوبنا ولولاك يا مختارُ ماعُرف المرعىٰ

ولا تَسْهُ عن زيارة أهل البقيع في اليوم مرةً بكمالِ الطهارة، لأنه مجمعُ حضرات الكرام البررة، وكذلك أهل أحد، وزر جبل أحد لأنه أثر مبارك وكل المدينـة آثار، وإن تيسر لك الصعود عليه والأكل من ثمره ولو من عَضَاهُ فافعل، فقد ورد: «أُحُدٌ علىٰ باب الجنة فمن أكل من بطنه حرم الله بطنه علىٰ النار» فاجتهد في ذلك ما استطعت، وعند زيارتك إن استطعت المشيَ فهو افضل وإلا فليكن ركوبُك خارج العمران، وكيف يرتفع الإنسان عن معاهِـدَ عجنـت بأنوار النبوة والوحي والتنـزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل وعرجت منها الملائكة والروح وضجت عرصاتـها بالتـقديـس والتسبيح واشتملت تربتها علىٰ جسد سيد البشر، وانتشر عنها دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد صلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومتبوَّأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة وحيث فاض عُبابها، ومواطن مهبط الرسالة وأول أرض مسَّ جلدَ المصطفىٰ ترابُها، فجدير أن نعظِّم عرصَاتِها، ونشتم نفحَاتِها، ونقبِّل ربوعها وجدراتها، ونلثم ترابها ونمرِّغَ الخد فيه.

والذي أقوله: أن يتعرىٰ الإنسان عن البشريات والترفهات فيقابل تلك الأماكن بقلبه وروحه، ويقطع النظر عما أُحْدِث فيها من زخرفة وصنايع ومصانع، فإن مسجدَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وبيته كان من عَسيبِ نخل، وإلا اشتغل طَرْفه، والقلبُ يجري حيثما يجري الطرف[1]. ثابِرْ علىٰ إقامة الصلوات كلِّها جماعاتٍ في الحرم الشريف، وبالخصوص في الروضة، وزُرْ بعد كلِّ صلاةٍ، وقدِّم بين يدي كل صلاةٍ ومناجاةٍ صدقةً ولو قليلاً، لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢].

أحسِنْ وتسامح في كل ما تشتري من المدينة، وأعْطِ الجوار حقه لتفوز بتمام الأجر والذخر، ولا تأخذ شيئًا مما يصنع من تربتها أو شجرها وإن جوّزه بعضهم، ولا تقطع رواتبك كلها لتتحقق من معدنها وتوخذ في تلك الحضرة، وإن أدركت الجمعة فاقرأ ليلتها «مولدَ الديبعي» لأنه مبارك.

إن في المدينة لأخياراً تحت الأستار، فنقّبْ عنهم تظفر منهم، ولا تستكثر شيئاً تنفقه في المدينة، وإن أمكن أن تأخذ في آنيةٍ من ماء الزرقاء إلىٰ بلادك فإن ما بين لابتيها شفاءٌ كما صحَّ عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وحين يحين أوانُ الوداع من تلك البقاع، وتجدُّ مفارقة الحبيب، بعد الأخذ من وصاله بنصيب، تنحب الصدور، وتذرف الدموع وتفور، وذلك علامة الوفاق والمحبة والسر الذي لاينتهي إلىٰ يوم اللقاء علىٰ المحشر والوفود

(١) وقد كان يرىٰ في آخر حياته أن عمارة الحرمين الشريفين وتوسعتهما من الأعمال الجليلة التي تمكن الحاج والمعتمر والزائر من أداء نسكه في راحة ويسر.

تحت لوائه المعقود والورود علىٰ حوضه المورود، فهناك تجود بما سمحت يداك، وتكثر الاستغفار لمولاك، والشكر علىٰ ما أولاك، وتسأله العود وتحقيق الشفاعة وقبول الزيارة. وإذا دخلت مكة المكرمة لا تترك زيارة المعلىٰ ولو لحظة.

فأرجو أن تبلُغَ سالماً ظافراً وتعوُدَ سالِماً ظافراً حامِلاً لك ولأولادك وآبائك وأحبابك من هدايا الرضىٰ والهناء والسعادة ما تسعدون به دنيا وأخرىٰ.

وهذه تذكرة منّي قاصرةٌ، داعيها الودُّ القلبي، ورجاء دعوةٍ تمنحني بها هناك، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم. انتهىٰ.

❋ ❋ ❋

من منثوره الأدبي

ومن هنا سنمضي بقدر ما يتسع لنا المجال مع نماذج مما تم العثور عليه من منثوره، سواء العلمي أو الأدبي.

نبدأها بما وصل إلىٰ أيدينا من المحاضرة التي ألقاها سيدي رحمه الله تعالىٰ في دار رابطة أبنـاء الجنوب العربي في [عدن] بطلب من فضيلة الزعيم السيد محمد علي الجفري رئيس الرابطة رحمه الله ولعل ذلك كان في عهد اتحاد الجنوب العربي قبيـل الاستقلال فقد وصلت إلينا غفلاً من التاريخ وها هي:

بسم الله والحمد لله وصلاته علىٰ سيدنا محمد وآله

وبعد فامتثالاً لما اقترحه علي الأساتذة الكرام وفي طليعتهم الأخُ العلامة محمد علي الجفري من إلقاء محاضرة في دار رابطة أبناء الجنوب تنتظم في سلك الكلمات التي يلقيها من يفهم معنىٰ المحاضرة ومغزاها من المخلصين للقوميّة والوطنية المؤمنين بالوحدة الكبرىٰ لشبه الجزيرة عموما وباتحاد الجنوب العربي خصوصاً.

وما أراني بأهل للإفاضة في هذا المقترح المترامي الأطراف لما يتطلبه من خبرة وعرفان ومرونة لولا أن الطموح إلىٰ مراتب المجد والسعادة بصلاح الوطن ورقيه في العالم المتمدن الراقي لحفز كل غيور علىٰ إلقاء كل سهم بقي في كنانته يصيب به غرضا من أغراض الوصول إلىٰ الغاية المنشودة،

لذلك أكتب هذه الكلمة في موضوع منهج الدعاية وتأثيرها في المجتمع بناء علىٰ أنها أساسُ النجاح لكل مشروعٍ ينهض ودعوةٍ تنتشر في خير أو شر، وهي مشتقة من نبعة الدعوة ومنخرطة في سلك فوائدها ونازلة منها كالنشور للغيث والأدوات الممهدة لانتظام سير العمل، إلا أن الدعاية أعمُّ تصرفاً وإطلاقاً في المبادىء والغايات وأعظم تسرباً وسراية في الشؤون الفردية والاجتماعية وتظهر ما تدعو إليه بصورة مغرية وأسلوب جذاب.

وما من نبي أو مصلح وذي مبدأ وغاية من لدن آدم عليه السلام إلىٰ يومنا هذا إلا وله في صدر تاريخه ومنفتح حركته رسل من الدعاية وإرهاصات من البشائر تسترعي الأنظار وتستهوي القلوب، وهذه الدعوة الإسلامية عوّلت في أول عهدها عليها فكانت سلاحَها الماضي وسفيرَها الموفق تفتح به رتاج القلوب وتستهوي أوابد النفوس وتستعمرها بأدوات اللطف والبيان قبل استعمارها بالقوة والسلاح استعماراً لا يخضع للكبرياء والعظمة ولا يدين إلا للعدل والإنصاف، ولها الأثر العظيم والقِدْح المُعلّىٰ في إحراز النجاح حتىٰ قيل إنها نصف الكفاح، ولعل من شواهدها ما جاء في الحديث الشريف: «إن من البيان لسحراً»، وحسبكم مثلاً من مفعولها ما وطَّأَته في نفوس أهل المدينة المنورة من تشوفٍ إلىٰ هجْرة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم ونتائجها العُظْمىٰ علىٰ يَد أولئك الأنصار الذين بايعوه علىٰ نَشْر ذلك المبدأ العالي وما فعلتْ ليلةُ الخندق علىٰ يد ذلك الصحابي المحنّك من تفريق كلمةِ الأحزاب حتىٰ تصدَّع صفُّهم وانسحبوا بنظام، وما اعتمد عليه المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم في صلح الحديبية من هضيمة الأمصار وقبول شروط الهدنة الجائرة التي هاج لها أصحابه ولكن

من ورائها دعاية فعلية لمصالح الإسلام أعظم وقعاً من أعمال السلاح وهي أن تعلم العرب مقصده الشريف وأنه لا يريد قتالاً ولا يضمر شراً وإنما يريد التحرير والتوحيد والاتحاد والفتح العالمي فأخذ حلفاء قريش ينفضّون، وينُفُضون أيديهم من إثمها ويلاحظون تلك المثل العلياء.

ولقد كان الاتحاد والتعاون لا يعرفه العرب إلا في حدود العشيرة وكان الكبر والفخر والجاه والمال أسمىٰ ما تتطلع الناس إليه فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت تملي وحدة العرب علىٰ تضامن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء، تلك آثار الدعوة في نفوس جفا ة العرب جعلت من رعاة الإبل والشاء وصغار التجار في مكة والفلاحين بالمدينة رجالاً صالحين للأمارة علىٰ الناس من جميع الأجناس.

وهنا يلوح تعزيزها للجهاد وأنه ليس مقصودا لذاته، ولا وصمةً عاب بها الإسلامَ أعداؤه، يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] بعد قوله في دعوة القرآن: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي بالقرآن، وقد كان حينما خرت مصاقع العرب وصناديدها لأسلوبه الحكيم وحقائقه الناصعة التي لا تدع مجالا للشك وكشفَتْ ستار الشُبَه والأضاليل التي كانت مسدولة علىٰ بصائر أولئك الأقوام فأذعنوا للواقع وأسلموا للبرهان بمعنىٰ الإسلام.

وأروي في قالب الاستغراب خبر ذلك الشايب الأعرابي حينما عثر من شاعريته بعد سبر ونحت علىٰ شَذْرة من الحكمة ظنّ أنه امْتَاز بها وأعجب إلىٰ حد أنه لا يقلدها سوىٰ محمد رسول الله النبي الحكيم فجاء إليه وقال: ادْنُ وأرْعني سمعك، أُنشِدْك شعراً من الحكمة، وأنشد:

فحي ذوي الأضغان تسلىٰ نفوسهم تحيتك الحسنىٰ فقد يرفع الثقل
فإن هتفوا بالقول فاعف تكرماً وإن خنسوا عنك المقال فلا تسل
وإن الذي يؤذيك منه استماعه كأن الذي قالوا وراءك لم يقل

فشكره النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ثم قال له: «وأنت يا أخا العرب أُدن إلي أسمعك شيئاً من الحكمة»، وتلىٰ عليه من القرآن: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فُصِّلت: ٣٤-٣٥]، فدُهِش الأعرابي لرَوعة ذلك البيان، وطلب أن يسجد لِمَا تلاه، فقال له: «السجود لا يكون إلا لله»، أو ما هو معناه.

وما أعظمَ الفرقَ بين القولين، فشعر الأعرابي لا يعدو نطاق الحلم والمداراة وهما من غرر الأخلاق، ولكنّ الآية الكريمة جمعت في كلمتين مكارم الأخلاق بأسرها، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾. ولعلك ترمي شعاعَ فكْرِك إلىٰ أعماق المدلول من لفظ الحسنة والسيئة ونفي عدم استوائهما، وهو بديهي، لتكشف عن جليّتهما فتجدهما وصفين جامعين لكل خَلّة حسنة وخلة سيئة، كقاعدةٍ كلية، ونبراسٍ للقائم بالدعوة، يرشده إلىٰ نهج الطريق، والأخذ في سلوكها بالرفق والثبات علىٰ المبدأ، والدفاع عنها بالحسنىٰ، فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾: بأحسن الطرق وأنبل وسائل الود، فإنه إذا صبر علىٰ سوء أخلاق الجهّال والمعارضين مرةً بعد أخرىٰ ولم يعارض سِفاههم بالعنف، ولا معرّتهم بالعناء، استحيوا من جَرّاء أخلاقهم المذمومة وانقلبوا من العداوة إلىٰ المحبة ومن البغض إلىٰ المودة، ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وهل يقدر علىٰ هذه المخالقة كلُّ أحد؟ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ علىٰ تجرع الشدائد وتحمل المكاره وكظم الغيظ في سبيل أداء رسالتهم وإرشاد بني قومهم، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الفضائل النفسية والدرجة العليا في القوة المعنوية، فإن حب الانتقام والاشتغال به لا يحصل إلا بعد تأثر النفس من العوارض الخارجية، وأما إذا كانت لم تتأثر بها فهي النفس المنيعة التي لم يكُنْ للوَهْم وحب الانتقام عليها من سلطان، وهذه النفس الكاملة في ذاتها المكمِّلة لغيرها، ومن النفوس كامِلٌ في ذاته غيرُ قويٍّ علىٰ تكْمِيل غيره، و منها الناقص في درجة العامية، ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤]، وقد أنجرّ بنا الحديثُ إلىٰ ناحيـةٍ من الفلسفة الأخلاقية لاتّصالها بموضوعنا الخطير عن منهج الدعاية وتأثيرها في المجتمع.

وقد سَنَح ببالي ــ والحديث شجون ــ نادرةٌ من بعض الظرفاء، وقد خُضْنا في فضيلةِ الصفح وكظْم الغيظ، قال: إن الأولىٰ بكم يا معشر الدعاة أن تحرّضونا علىٰ البطْش والشيطنة ومقارعة الخصوم بمثل سلاحهم، فيكفينا ما هو فينا من ذلٍّ وهوان، ولا تذففوا علىٰ البقية الباقية من شعورنا الميت ومعنوياتنا الخامدة وحقوقنا المستلبة وأعراضنا المنهوكة وتمثل بقول الشاعر:

من يهُنْ يسْهُلِ الهوانُ عليه   مــا لجُــرْحٍ بميّــتٍ إيــلامُ

وبقول الآخر:

سفـاهٌ ذادَ عنـك النـاسَ حلـمٌ   وغَــيٌّ فيــه منفعــةٌ رشَــادُ

وأخذ يدعم نظريّته بحكايـةٍ جرَتْ للسيد الفُكاهي الشاعر أحمد بن هاشم بامساوىٰ مع السيد العارف بالله الحبيب علي بن محمد الحبشي في سيئون أيام الاحتفال بالمَولد النبوي في ربيع الأول الذي كان يقيمه في

معهده المعروف، وانتشار تلاوته في كل دار، فسأله الحبيب علي: كيف رأيت المولد وفرح أهل سيون به؟ فقال: المولد يا عَمْ عليّ عظيم، ومذاكرتك تُحيي الموتىٰ، ولكن كلّما مررت علىٰ دار من سيئون سمعت منهم: قالت حليمة، قالت حليمة، وحليمة رضي الله عنها مرضعة سيدنا محمد من آل سعد، ورأت الخوارق من معجزاته، ومقامها وقدْرُها فوق الرأس، ولكنا نبغي ذكْر موقعة بَدر وحنين، وصَليل السيوف في المعمعة، وصهيل الخيول في الميادين، ورايات محمد بن عبد الله الخفاقة علىٰ جيوشه المنصورة، ورماحه المنشورة مسامير في عيون العدو، وخطبه الرنانة وفتوحاته الباهرة، هذا الذي يقوّي الإيمان في القلب ويطلّع النخْوة في الرأس يا عم علي.

فقال الحبيب علي مجاراةً له علىٰ ما سَمِعَه وما يجب أن يثير به الهمم والأريحيات: اسمعوا كلام أحمد بن هاشم بامساوىٰ فإنه وقَعَ علىٰ الوجَع، والنبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم له اليد الطولىٰ في كل خُلُق، القرآن في يد، والسيف في يد، وعلىٰ سيفه الجلالة.

هذا ما تندّر به ذلك الظريف، وظنّ أنني اقتنعت به، فأجبته: أن لكل مقام مقال، وإنا لا نخلو فيما بيننا من خصام وقطيعة وتناكر وتفرق، وهي الأدوات التي تنخر في جسم اتّحادنا وقوميّتنا، وتمكّنُ الأعداء من اضطهادنا والاستيلاء علىٰ بلادنا، فتنويهاً بفضيلة الصفح وكظم الغيظ إنما هو بالنسبة إلينا، ولتوجيه قومنا إلىٰ ما يَرْأَبُ صدْعَهم ويصلِحُ مجتمعهم، أما موقفنا من الأعداء فالغِلْظَة والعزة كما نسمعه في كلام ربنا: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وفي سُنّة نبينا: «أَلْزِمُوهم أضيق الطرق».

وسلام علىٰ ذلك الزمان الذي كنا نطبق فيه أعمالنا علىٰ دستورنا السماوي العظيم، ولنا الأمل الوطيد في أن يعيد التاريخ نفسه، وتعود أيامه الزاخرة، فينصدع فجر الانتظار عن وحدة صادقة، غير ملتفتين إلىٰ قول حافظ ذلك الشاعر الذي تغلغل اليأس في صدره وحكم علىٰ شعوره فقال:

تباركْتَ هذا عالم الشرق قد قضىٰ ولانــت قنـاة الـدِّيـن للغَـمَـزاتِ

ولكنّنا نستشْعِر قولَ الصادق المصدوق: «أمتي كالمطر لا يُدرىٰ أوله خير أم آخره»، فنأخذ في السبب ونرتقب الإذن.

ولنعد إلىٰ موضوع الدعاية وتأثيرها الخطير في المجتمع ولاسيما إذا اتّسقت شروطُها من ملاءمة الظروف ولباقة الدعاة، مستعرضين ما توجده في أعطاف التاريخ من آثارها الجلية في مجرىٰ الشؤون السياسية، وتدشين الملوك، وتقويض الصروح، وترويج الصناعات، وتأليف... إلخ.

* * *

هذا ما وجدناه من المحاضرة، وربما كان في الجزء المتبقي منها توضيحٌ أكثر مما سبق لقول سيدي: (لنعد إلىٰ موضوع الدعاية وتأثيرها الخطير في المجتمع)، وهذا يعني أنه لم يصل بعد في هذه المحاضرة إلىٰ صلب الموضوع.

* * *

مختاراتٌ من المكاتبات

ومن خلال الصفحات التالية نستعرض مجموعة من المكاتبات أو الرسائل نستهلها برسالة بعث بها لسيدي شيخُه الإمامُ الحبيبُ العلامة عمر ابن أحمد بن سميط، وهذا نصها[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً تملىٰ به الأيادي، ويصلح حال الحاضر والبادي، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وخلفاه المقيمين حيث المنادي يسمع المنادي، وعلىٰ الأخ والولد الصفي والوفي أحمد مشهور بن طه الحداد فتح الله لنا وله أبواب الإمداد، أما بعد: نرجوكم ومن يلوذ بكم من أهل وأولاد بعافية، كما أننا والأولاد والولد حسن بعافية، وما شرحتم للولد محمد علوي فهمناه، وإذا قدر الله وصولكم يكون عند انشراح خاطركم، وبقية الأخبار يفيدكم الولد مصطفىٰ عند وصوله، أرجو المحب صالح عليان وأولاده والولد محمد مصطفىٰ بتمام العافية، ونرجو الحبايب السيد محمد الهدار والسيد أحمد حسين الجنيد قد وصلوا عندكم مسرورين.

الداعي لكم

عمر بن أحمد بن سميط

تحرر في ١٠ شعبان ١٣٩٥هـ

---

(١) هذه الرسالة هي الرسالة الوحيدة مما وجدناه من رسائل الحبيب عمر لسيدي.

وفي المكاتبات التالية الموجهة من سيدي الحبيب العلامة عبد القادر ابن أحمد السقاف إلىٰ سيدي الوالد، ومكاتبات سيدي الوالد إلىٰ سيدي الحبيب عبد القادر سنرىٰ من خلالها أنهما علىٰ حالٍ سواء من اتحاد المشاهد وغير ذلك مما نعجز عن التعبير عنه أو إدراك كنهه، حسبي أن أورد نصوصها وكفىٰ:

وهذه الرسالة الأولىٰ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسوله ومصطفاه، وعلىٰ آله وصحبه ومن استمسك بعراه واهتدىٰ بهداه.

وعلىٰ أخينا الذي صفا زجاجُه، وطاب وِجَاجُه، ورقىٰ معراجُه، وعذُب ميراده، سيدي وأخي أحمد مشهور بن طه الحداد، شنف الله سمعه بهواتف الحق، وجعل فتحه مطلق، وجواده لا يلحق، وعَضْب قرابه لا يسبق، وإيانا آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلىٰ الأيام التي قضيناها معكم وبينكم وعسىٰ تعود في القريب، ونرجوكم علىٰ ما نعهد ونحن ولله الحمد في حال أسعد، في صفا ما عليه مزيد، وفي طالعٍ سعيد، وفي عيش رغيد، وأنس جديد، والذوق بقول: هل من مزيد.

وقد وردَنا كتابكم، وقبله بيوم أو يومين أرسلنا لكم كتاب تهنئة بالعيد، وتَذَكُّر للوقت السعيد، أعطيناه الأخ عبد الرحمن بن محمد الجفري، والمذكور لم يكتب عليه باللاتيني وأكبر الظن أنه يصلكم إن شاء الله، وإذا

وصلكم سوف تعرفون منه الحال، ونحن وإياكم إن شاء الله علىٰ حال سواء، والأمر علىٰ مثل ما قال الأول: نحن روحان حللنا بدنا، وإذا اتَّحدت المشاهد وصفت الموارد، وظهر معنىٰ القصد للقاصد؛ قام الشاهد، ولم يحتج إلىٰ شواهد، واللقاء إن شاء الله قريب.

والإخوان حامد ومحمد نتفق بهم والولد حامد أكثر، سيّما إذا خرجنا إلىٰ جدّة يتردد علينا، والولد علي ذكر لي حامد أنه توجه إلىٰ الرياض لمناسبة عمل لمدة شهر ويعود، وكلهم بمكانة عندنا بارك الله فيهم.

والشيخ صالح قَزّاز ذاكرْتُه بخصوص الدعوة، وقد لقيته مرتين في طلوعي إلىٰ مكة، وهو مشغول جم أعانه الله، واليوم هذا أنا في مكة وإن شاء الله تسنح فرصة للاتفاق به، والشيخ سراج وصل من سفره قبل أمس، ويسلمون عليكم كلهم، ويتفرّحون لقدومكم ولقائكم، وبلسان الحال يسلم عليكم الشيخ سراج والشيخ صالح وسنتفق بهم ونخبرهم بأننا كتبنا لكم وأبلغناكم سلامهم، وأنتم أبلِغُوا الإخوان منا جزيل السلام عباس ومحمد الجهضمي وصالح عليان وأولاده وأحمد طيّب وكل طيب.

من المستمد

حرر في ١ ذي القعده ١٣٩٤هـ　　　　**عبد القادر بن أحمد السقاف**

* * *

الرسالة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والصلاة والسلام علىٰ رسوله المصطفىٰ، الذي دلَّ علىٰ الهدىٰ، وبه اهتدىٰ من اهتدىٰ، ومشىٰ علىٰ نهجه من مشىٰ، والهداية أنواع: فهداية الجسم قيامه بالمأمورات وبُعده عن المنهيات، وهداية القلب حفظه عن التلفُّت إلىٰ الأغيار، والركون إلىٰ زهرة هذه الدار، وعندها يصيرُ بيتَ الأسرار، ومحلَّ إشراق الأنوار، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ هي قلب العارف ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]، وللروح هدايةٌ يهتدي بها إلىٰ عالمه الأعلىٰ ومحله الأسمىٰ، فإذا أخذ الجسمُ في طريق هدايته، والقلب في طريق رعايته، والروح في قطع مفازته، إلىٰ عالمها الذي إليه يصير وفيه يطير، انمحقت ظُلُمات بشريته، وتصفّىٰ عن كدورته، فسطعت الأنوار في مشكاة زجاجته، وظهرت علىٰ ظاهره من طويته، ونودي له في الملكوت الأعلىٰ بسعادته، وخُطِب علىٰ اسمه في السموات بولايته، فأصبح معروفاً عند أهل السماء، تتردد روحه إلىٰ ذلك الفضاء، وتطير وتخترق الحجب إلىٰ حيث تصير، وإلىٰ الله المصير، فضاءٌ ماله نهاية، وعلمٌ لدُنِّي ماله غاية ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، ولا نهاية ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

اللهم لك العلم الواسع، والمدد المتتابع، أعطيت من أحببت من خلقك ما أعطيت، ورفَعْتَهم إلىٰ حيثُ ارتضيت، وأرْجُو أن تكون من هذه الأرواح روح أخي وحبيبي البارز، الذي قطع المفاوز، وكانت غريزته من

أعظم الغرائز، الطيار السابق، أحمد المشهور الحداد، جمعنا الله وإيَّاه علىٰ ذلك المِيراد، فَلَكَم أتىٰ لنا من ذلك العالَمِ بالفهم الوقاد، بواسطة الإمداد، الذي يفيض عليه من حضرة الحداد.

وعليه وعلىٰ روحه وقلبه سلام خاص، مخصوص بالخواص، الذين فاتحتهم كلمة الإخلاص بالمعنىٰ الخاص، فصاروا به من أهل الاختصاص.

قلتُ أهْلَ الهوىٰ سلامٌ عليكم   لي فـؤادٌ عنكم بكم مشـغـولُ

يدور معه حيث دار، ويطير معه حيث طار، لا ينفك عنه في قرار ولا استقرار.

حيثما دارت الزجاجـة دوروا   فلها الأرض والسـماوات دورُ

فليهن من دار مع هذه الزجاجة، فإن العالم يدور بدورانها، قال العارف الخائض في هذه البحار با مخرمة:

مــن هَــاهُنــا نلــتُ المنــىٰ   وصـرت مـن بعـد العَنَـا مُهَنَّـا

يــاكــل مــن يهــوىٰ الغِنــا   سافر معي نحو الجناب الاسنىٰ

تلحــق بــأُمّــةْ قــد خَلــتْ   عما سوىٰ دين الهوىٰ تخلَّت

وكتاب سيدي الكريم الموشح بالطرائف والعجائب وصل، ولا تسل عما خالط القلب من الفرح والجذل، والحمد لله علىٰ ذكركم لأخيكم العاجز، والهدية السنية استلَمْتُها وفرحت بها، واستعملنا البُن لوقته وتركنا لرمضان منه حصة رجاء أن يتنور منه القلب.

وها نحن في أوائل ليالي هذا الشهر المبارك شهر الله العظيم، متعرضين فيه علىٰ ضعفنا لنفحاته وعميم هباته وعظيم بركاته، سائِلِين منه سبحانه أن

يفتح لنا به تعرّفه، فيمْلأَ القلْبَ بلَطَائفِه، ويشْغَلَ الجِسْم من عبادته بكَرِيم وظائِفِه.

وأرجُو سيِّدي حفظه الله أن يغمُرَنا بمقْبول دعواته وعظيم رعايته، وإذا ظفر بشيء من كنوزه، وجواهره وإبريزه، فليذكر أخاه، فإن له فيه محبة صادقة قضت بها الأقدار السابقة، أرجو أن تكون طريقاً للفوز.

وإخواني حامد وعلي وطاهر بن عمر لا نزال نجتمع بهم في مناسبات، وقد كانوا قبل رمضان عندي، وذكر لي الولد علي أنهم سينقلون إلىٰ الدار الجديد لرمضان فحبَّذت لهم ذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من المستمد

حرر في ٣ رمضان ١٤٠١هـ　　　عبد القادر بن أحمد السقاف

* * *

المكاتبة الثالثة:



الحمد لله:

وعلىٰ حامل الراية، الظاهرة عليه أنوار الولاية، العارف بالرواية والدراية، بحر المعارف واللطائف، سيدي الملاذ أحمد المشهور بن طه الحداد، متع الله به الكون وأهل الكون، وجمعني وإياه علىٰ مائدة اللطائف التي تستجليها أرواح ذوي الصون.

وعليه جزيل السلام الدائم، تسري به النسايم إلىٰ تلك العوالم، التي لا يصل إليها إلا من أدرك الغنايم، وكان من أهل العزايم.

وأرجو سيدي ومن لديه بعافية ونحن نحمد الله علىٰ عظيم لطفه، ورمضان شهر الغنايم انتبهوا بنا فيه عسىٰ نكون من أهليه، ونقاسم في موايده التي فيه، الله سيدي وقد جئت إلىٰ بيتكم بعد الظهر يوم سفركم لأمتع قلبي وقالبي وباطني وظاهري فقيل لي إنكم توجهتم، وأن سفَرَكم كان أولَ وقت الظهر، ووجدت الأخ علي تحت بيتكم رجَعَ من المطار وكنْتُ أحسب أن السفر بالليل كعادتكم السابقة، فحصل لي من الأسف ما الله أعلم به، ولا تزال معي الحسرة إلىٰ الآن فاجْبُروها بدعواتكم المباركة والعود أحمد، وعسىٰ يكون قريب، يا قريب يا مجيب اجمعني بالحبيب القريب مع كل قريب من أهل التقريب فاض عليه العطاء من قريب.

لعلـي أن أنـادي مـن قـريـب   فما المعطي تقدس بالشحيح

ورمضان مبارك علينا وعليكم الجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من الفقير إلىٰ الله

عبد القادر بن أحمد السقاف

١٧رمضان المعظم ١٤٠٧هـ

❋ ❋ ❋

وهذه رسالة سيدي الوالد إلىٰ الحبيب عبد القادر:

الحمد لله مجيب الداعي، ومصلح المساعي، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وكل تابع واعي.

وأهْدي السلام المتألق بأنوار ليالي الصيام، لحضرة الأخ العلامة خليفة سلفه الكرام، عبد القادر بن أحمد بن عبد الرحمن السقاف، دامت نعم الله عليه وارِفة، وألطافه به حَافّة، والمسطور أكتبه بداعٍ سَرَى، بعد أن عدت من حضرة العيدروس سَحَرا، وصلاة التراويح قبلها في مسجدٍ أَسْتَرْوِحُ فيه بذكْرىٰ الأحبة، وأشفي كل غلة، وأبادل أخي دِنان الودِّ علىٰ بساط المراسلة، رجاء أن يومض بَرْقُ الحِمىٰ، وتهب نسيم المواصلة، وما أقرَبَ منالَها في هذه الليالي وخصوصاً في حضرات القرب ومواطن أهله، فأرجو من أخي أن يسهم لي مما عنده من عطْفه وفضله، فالموارد وِسَاع، ولا شُفْعةَ فيما هو بينَـنَا مشاع.. لازلتم مناط الآمال وأبلغ سلامي سيدي العم علوي ابن عبد الله وكافة الإخوان، ولا تنسوني من دعواتكم، والباري يتولاكم.

من المستمد الداعي

أحمد مشهور بن طه الحداد

في ٥ رمضان سنه ١٣٩٠هـ

* * *

والآن نمضي مع الرسائل التالية التي بعث بها سيدي إلىٰ البعض ممن تربطه بهم روابط المحبة الصادقة والمودة الخالصة ومنهم سيدي العلامة الحبيب محمد بن سالم بن حفيظ الذي بعث له بهذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي النعم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم مزْدَحَم الأملاك والأمم.

ونهدي التحية للأخ البقية، ذي العلم والحلم والمزية، محمد بن سالم ابن حفيظ ابن فخر الوجود، دام فضله.

لتجديد عهد الود والأخوة، والتمسك منها بأوثق عروة، توصلني بالسادة الصفوة، فأنتظم في سلكهم وأنجو في فلكهم، وإن كنت لا أستطيع من الوفاء بحقها إلا مخَايَلَةَ سنا برقها، فالودُّ بحمد الله ثابت علىٰ مقتضىٰ الحال والزمان، (علىٰ أن قرب الدار خير من البعد)، والرجاء من أخي محمد أن لا يقتصر علىٰ سَقْي أرضه، فله إخوة يقاسمونه في فَرْضه:

(لا تَسْقني وحدي فما عوّدتني أني أشحّ بها علىٰ جلاّسي)

ولديكم المساقي تزْخَر، ألا يا بخت من زارهم بالصدق واندر إليهم أصالةً عن نفسه أو نيابة عن غيره، ولا أظن النيابة ممنوعة هنا، (وبلِّغْهُمُ عن لوعتي وصبابتي)، وإن كانت فاترة لا تفي بالشهادة، ففي كرم الغريم ما يحمل النقصان، (إن الضعيفَ علىٰ الأجواد محمولُ)، فاذكروني عند سادتي فإن الذكرىٰ تقرّب النازح . . وسلموا علىٰ كافة الإخوان والباري يتولاكم.

المستمد الداعي

أحمد مشهور بن طه الحداد

حرر في ٢٩ شعبان ١٣٨٩هـ

* * *

ومنهم الشيخ الفاضل حسين بن عبد الله باسُنْدوه فهو بالمنزلة الرفيعة عند سيدي وعندما نقف مع فقرات من رسالة بعث بها اليه نجد أنها لم تكن مجرد رسالة توجبها فروض المجاملة، بقدْر ما هي مشاعرُ قلبية وروحية متبادلة بينهما، عبّر عنها سيدي بقوله في أحد رسائله:

وقد سرّني حُسْن تفقّدكم، وعلمتُ بذلك أنّ لي خاصةً لا يغفلون عني، وهذه هي المودة المنشودة، ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧]، التي تكاد تكون مفقودة في هذا الزمان الذي أغْمَت الدنيا فيه علىٰ القلوب، وأعْمَت الأبصار عن اجتلاء المحبوب، إلا من بقيت فيهم إثارة كالشيخ حسين وأبنائه بارك الله لنا فيهم وسقانا من عذب صافيهم.

وقد بعث إليه بهذه الرسالة بتاريخ شوال سنة ١٣٩١هـ.

بسم الله، ومنه نستمد الإعانة، في الإظهار والإبانة، مصلِّين علىٰ رسول الأمين والأمانة، حبيبنا محمد وآله وصحبه ومن ثنىٰ نحوهم عِنانه، غامرةً أنوار تلك الصلاة حضرة الأخ المحب الأواه: الشيخ المؤيد حسين بن عبد الله باسندوه، لا زال وَريفُ النعَمِ له ظِلاّ، سالكاً علىٰ الخطّة المثلىٰ، إلىٰ أن ينزل في المنزل الأعلىٰ، حيث يبرُدُ الجَأْشُ ويطيب المعاش، ويدار الشرابُ ويرفع الحجاب، وتقر العين ويزول البين من البين، وننظُر الدنيا بأدنىٰ نظرٍ كيلا تعلق بقلوبنا، فتحجبنا عن نور ربنا وصفاء محبوبنا:

إن الإلـهَ براها كي يَـمِيـزَ بها بين الفريقين أهلِ الحُمْق والفِطَنِ

والسلام التام علىٰ ذلك الوليِّ الحميم، مرافَقاً بباقي التهنئة من شوال، بعيد السعدة والإكمال، وكان القلَمُ علىٰ طَرَف الأنامل، فكلما جرىٰ بكلمةٍ

صرفه شاغل، قد لا يصح عذر للجواب الآجل، ولكن المعوّل علىٰ الصدور فهي عامرة بالود والذكرىٰ الجميلة.

وقد استلمت كتابكم الأخير، وسرني ما شرحتم من صلاح الأحوال ونجاح التحويل، وأملي أني مساهم في دعواتكم ومحاضركم ومواقفكم تجاه المشاعر العظام، وأمام الوجه المبارك في أشرف مقام، ولا تسألوا عن حضوركم لديّ في كل موقف كريم، وكم ودِدْتُ أني كنت في رمضان عندكم، ولكن بحمد الله حصلتْ مجامعُ ودروس حافلة في [ممباسا]، يأتون إليها من أماكن بعيدة، أحيت مآثر الشريعة وطريقة السلف، وآتت أكلها طيبة بإذن ربها دعوة خالصة لله، وله الحمد، وفي كل ربعٍ بنو سعد، دعوة حُرّة ما عليها واش ولا رقيب، يتكلم الداعي فيها بملأ فمه ويطلق جواده بملأ عنانه، في بلاد حاكِمُها غير مسلم، وهذا من اللطف الخفي وسماحة الدين الحنيفي، ربنا يجعلنا من الساعين في نُصْرة الدين وإحياء سنة خير المرسلين.

* * *

وهذه رسالة أخرىٰ بعث بها إليه في ٣١ رمضان سنة ١٣٩٣هـ.

بسم الله، لا إلٰه إلا هو عليه توكلت واليه مآب، ونسأله الرضىٰ، واللطف فيما جرىٰ به القضاء من الأسباب، والقسم الوافر مما أعده من الكرامة للأحباب، وللصُّوّام في شهر الصيام من الفضل والثواب، ولأهل الإنابة والاستجابة من حسن المآب ولأهل الشهود الركع السجود من شرف الاقتراب، في مقعد الصدق وحَانِ الشراب، الشراب الهني العاجل والمؤجل

المستطاب، مديره سميرُ حضرة قاب، وهو بابها ولا دخول إلا من ذلك الباب، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه وتابعيهم مدىٰ الأحقاب.

ومنهم السالكُ علىٰ نهجهم، والناسج علىٰ نسْجهم، والمعدود في فريقهم، والشارب من رحيقهم، أخينا وصديقنا ومحبنا في الله الشيخ حسين ابن عبد الله باسندوه لا زال رافِلاً في بُرُود العافية والكمال، بازغاً نوره بين تلك المعالم والمحال، مذكِّرا بالسلف الصالح في كل حال.

ثم قال: وكدَّر البال وألْهَبَ الأسىٰ ذهابُ الرجلَين البرين، الشيخ العلامة بقية فقهاء الشافعية من الوجوه الرضية عمر بن محمد اليافعي والأخ الصالح محمد بن عبد الله باعقيل نصيرُ العلم والفضائل، وأحد من نعتمد عليهم في حل المشاكل، ويالك من أخٍ طيب المعشر زينِ الشمائل تغمدهم الله بالرحمة، وأحلهما الدرجات العلىٰ من الجنة، وخلَفهما بالخلف الصالح.

ثم قال: هذا، ورمضان في الثالث عشر من أيامه تمر خاطفة، وغنيمتكم العُمْرة ومشاهدة البيت، وغنيمتنا الدعوة وإيقاد الزيت، الحمد لله.. درس بعد صلاة التراويح في مسجدٍ شريح يأتون إليه من أكناف البلد، ويحضر نحو خمسمائة أو يزيدون، وكلهم أذان صاغية علىٰ مشرب واحد، ودروس في مسجد جامع آخر بعد العصر يحضره جَمْع، والقراءة في الفقه و«الدعوة التامة»، مع استطرادات إلىٰ رقائق ووقائع حال نُـزِيلُ عنها وجْهَ الشُبْهة، ويصدر الناس بفَوائِد وعوائد، أرْجُو منكم الدعاء وفي المواطن المقدسة. اهـ.

* * *

وفي ١٧ رمضان المبارك سنة ١٤٠٠هـ بعث إليه بالرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده علىٰ توالي نعمه، ومزيد جوده وكرمه، ونور تجليه في ليالي القدر علىٰ خواص خدمه، وتجديد لطائف المواصلة والمنازلة للطّائر والسائر علىٰ قدمه، والسموّ بالروح إلىٰ محاضر القرب ومشاهد علمه، للانتظام في ذلك المقعد العِنْدي وفائض كرمه، والصلاة والسلام علىٰ خير الأنام، وماحي الظلام، سيدنا محمد وآله وصحبه الكرام.

والتحية الفائحة بطِيْبِ الليالي القدرية، تهدىٰ لحضرة أخينا ومحبنا في الله الشيخ الممجد حسين بن عبد الله باسندوه أطال الله بقاه في عافية وهناء، والرجاء أنكم في خير حال، ودوام إقبالٍ وابتهالٍ إلىٰ مولىٰ الموال، وفي خواتم هذا الشهر التي أسعد الله بها الأمة المحمدية، فتنزّلت إليها الملائكة والروح بإذن ربها من كل أمر، [وما هو هذا الأمر] الذي تنزل به الملائكة للأمة، ويذكره الله بهذا الوصف الفخم؟ إنه لأمرٌ تتيهُ فيه العقول عجباً، وتهتز طرباً، وما أرىٰ هذه الأمة حازَتْ هذا الأمر من عالم الأمر إلا لكرامة نبيِّها الذي استمدت من سره الأكوان، وبهذا يزول العجب.

والحمد لله الشعائر عندنا قائمة، والدروس حافلة، والقلوب مجموعة، والأعمال مرفوعة، ولا حاجةَ أن نصف لك ما نحن فيه من حسنات الدهر، ونفحات ليالي القدر، ولا نغبطكم إلا علىٰ العمرة، [وكم في الركب من متضلّعِ].

* * *

أما هذه الرسالة فقد بعث بها إلىٰ الشيخ حسن بن حسين باسندوه في ٢٣ رمضان سنة ١٤٠٦هـ.

بسم الله وبحمده، والصلاة والسلام علىٰ حبيبه وعبده وآله وصحبه وجنده.

تحية سنية مشرقة بأنوار الليالي القدرية، حضرة الأخ البقية ذي الفضل والأريحية حسن بن حسين باسندوه، لا زال في درج العلىٰ يواصل رُقِيه، حتىٰ يبلغ أقصىٰ الأمنية، وأكتب هذا وقد انطلق القلم، وزال الألم، وجرت الدروس والجماعة علىٰ المعتاد والحمد لله. واستلمت كتابك البهي، وبثَّ فيَّ روحاً من المسرة، ووددت أن أحرر الجواب، ولم يساعدني الوقت إلا بالدعوات، والآن وفي ختام الشهر المنير ونفحات لياليه القدرية، أردّ السلام حامداً الله تعالىٰ علىٰ تماثُلِ القُوىٰ والمضي في الدروس والجماعات والاجتماعات المألوفة والتي بها يظهر الشعار في هذه الديار، بين فئاتٍ سريعةِ الانقياد، لعل بذلك عِوَضُنا عن مجالس الحرمين ومغانم العبادة فيها، ولو من بعض الوجوه، فعسىٰ أشركتموني في تلك المغانم، كما أني لكم داعي وراعي، (رُبَّ ذكرىٰ قربَتْ من نزحا)، وتهادي الذكريات والدعوات علىٰ بعد الديار أدلُّ علىٰ قوة الرابطة والاتحاد، وأجدَرُ بالقبول من حضرة الكريم الجواد، فالعهْدَ العهد يا حسن، كما قال الإمام الحداد:

وإني علىٰ حفظ المودة والعهد

قريب بعيد كائن غير كائن	علىٰ كثرة الأُلاَّف في جانبٍ وحدي
فما أُرجّي اليوم كشف كربة	إلا ان صفا لي مشرب المحبة
ونلت من ربي رضىٰ وقُرْبَة	يكون فيها قطع كل الأسباب

علىٰ بساط العلم والعباده والغيب عندي صار كالشهادة
هذا لعمري منتهىٰ السعاده سبحان ربي من رجاه ما خاب

ولعلها بدت لك بوارق من علوم القرآن وأسراره، ومفاهيمه وأنواره، فهذا أوانها وقتاً وسناً وأَمَلا، والساقي باقي، والعفو يا حسن من طول الرسَن، فإني لك وادٌّ.

* * *

وقد بعث إليه محبه الوفي صالح بن سالم عليان برسالةٍ يشكو فيها من بعض أمور، فأجابه سيدي بالرسالة التالية:

الحمد لله مدبِّر الأمور والعواقب، وجاعل النعم طيَّ المصائب، والصلاة والسلام علىٰ المصطفىٰ من أعلىٰ الذوائب، من بني لؤيٍّ بن غالب، وعلىٰ آله وصحبه وتابعيهم ما دارت الكواكب بين المشارق والمغارب.

وأهدي السلام الزكيّ، للمحب الصفي الأريحي، صالح عليان دام سعده، بعد استلام كتابك المرتقب وما فيه من الحوادث التي جرت لكم في هذا العام، وحيرت منكم الأفهام، من خسارةٍ في النفس والمال، فٱعلم أيها المحب أن العبد الموفق إذا قارب المقام العليَّ امتحن وابتلي في نفسه وماله وعياله، ليصْفَىٰ جوهره من الغش، ويرجع إلىٰ ربه بالابتهال والتذلل، فيرحمه ويكرمه، وهذه سبيل الأخيار، وربنا يقول: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢]، ونبينا صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم».

وهذه الحوادث قليلة في جانب النعم الكثيرة التي لا تحصىٰ، ولا

يُعْرفُ طعْمُ العسل إلا بِذَوق الصبر، والإنسان ما بين عسر ويسر، وشكر وصبر، وكلها لا بد منها، وكلها مراتب لمن عرفها، أُعطي فشكر، وابتُلي فصبر، وترك السخط والضجر، ورضيَ من القدر بما حلا وما مَرّ، هذا هو الرجل، وقد كان بعضُ السلف إذا أبطأَتْ عليه الحوادث والنوائب ينزعج ويقول: ربما كنت من المنسيين الممقوتين.

ونسألُ الله اللطفُ فإنا من الضعفاء الذين لا يقدرون علىٰ التحمل، وأن يجعلنا من عبيد الإحسان لا من عبيد الامتحان، ويعطينا مقام الرضىٰ بحُكْم القضاء ممن قال فيهم: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة:٨]، بكل ما حكم، به فرأوه هو الصالح لهم وفيه خيرهم، فرضي عنهم وفرّج عنهم وأعلىٰ مقامهم، قال الحبيب عبد الله الحداد:

وإذا ما كنت راضي فالهنا والبسط حالي وشعاري ودثاري

قد كفاني علم ربي من سؤالي واختياري

وهذا جوابُ شكواك، وبعدها الفرَج والفرَح والرضىٰ.

* * *

وأمامي ثلاث رسائل سأضعها بين يدي القارى لكل منها دلالتها الخاصة وصِلتها المباشرة ببعض الجوانب العلمية في حياة سيدي رحمه الله واهتمامه وقيامه بأعباء الدعوة.

بدءاً بالرسالة التي بعث بها إلىٰ سيدي الحبيب عبد الله بن طاهر الحداد من المكلا إلىٰ قيدون، بتاريخ فاتحة شوال ١٣٤١هـ، يستشيره في أمرٍ هو من الأهمية بمكان، بالنسبة لطموحاته العلمية والحياتية، وهو لم يتجاوز بعْدُ

العقْدَ الثاني من عمره، عندما أبلغه الحبيب العلامة محمد بن عقيل رحمه الله رغْبةَ السلطان القعيطي في انضمامه لعضوية هيئة إحدىٰ المدارس أو المعاهد التي أنشأها السلطان في العاصمة المكَلاَّ حينئذ وبمرتب مغر وبعْثِهِ إلىٰ مِصْر في دورةٍ تدريبية، فلم يغْرِهِ هذا العرضُ أو المادة ولا بَعْثه إلىٰ مصر، وأمامَ إلحاحِ الحبيبِ محمد بن عقيل، وتشجيع الحبيب أحمد بن حسين العطاس منصب المشهد لحفزه لقبول هذا الطلب، لم يجد ما يبررُ به موقفه في عدم رغبته إلا إبلاغهم بأنه لا يستطيع البتَّ في أمْرٍ كهذا قبل الرجوع إلىٰ عمه وشيخه ومرشده الحبيب عبد الله بن طاهر الحداد، ورُغْم أننا لم نعثر علىٰ رد الحبيب عبد الله ورأيه في هذا الموضوع، إلا أنه أدرك مسبقاً أنّ في ارتباطه بالعمل الحكومي ممّا يحد من نشاطه وطموحاته التي يتطلع إليها، من دون أن يعْلَم أن العناية الربانية قد هيئَـتْه لما هو أعظم من ذلك، من نشر الدعوة وبث العلم وتعليمه، ومحاربة الجهل في مناطقَ ومجاهِلَ نائيةٍ في إفريقيا الشرقية هي أحوج ما تكون إلىٰ أمثاله من العلماء والدعاة، وهذا نص الرسالة نختار منها التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معيد الأعياد، في يمن وإسعاد ومنٍّ وإرفاد، وزيادة علىٰ المعتاد، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد صفوة العبَّاد، ووسيلة العِبَاد، المنتخب من كريم الآباء والأجداد، والمعتمد مرْكَزاً لدوائر الإمداد، وعليه الاعتماد، وعلىٰ آله الأئمة الزهاد، القائمة بهم مراتِبُ الإيجاد، وصحبه البررة الأجواد، والتابعين لهم إلىٰ يوم التناد، كسيدي وملاذي كهف الورّاد، وكعبة الجود

التي يهْوي إليها كل فؤاد، قريع الأسياد، ونخبة السادة الأمجاد، الداعي إلىٰ سبيل الرشاد، والواردِ من موارد التقوىٰ أحسَنَ ميراد، الوالد البركة عبد الله ابن طاهر الهدار الحداد، نفع الله به الحاضر والباد، وأبقاه ركْناً يُؤوَىٰ إليه عند الخطوب الشداد، وغوثاً نافعاً للعباد والبلاد، ولا برحت آلاءُ الله مخيمةً بنواديه الفسيحة النواد، ونعماؤه تنهلُّ بحضرته انهلال الغواد، آمين.

صدورها للتهنئة بهذا العيد عيد الإفطار، وخاتِمَةِ شهر الأنوار، أعاده الله علينا وعليكم سنين بعد سنين، وأعياد في أعياد، علىٰ ما يحبه ويرضاه في نعم ومسرات وازدياد وأياد.

هذا وقد سبق خلافه، وبه من إفادة الحال ما يغني عن إعادة المقال، ولم أزَلْ في لطفٍ شامل وأنس كامل، لدىٰ الأَوِدّاء الأخيار، منتظراً حصول العِبْرة، حتىٰ حان العيد، ووصول خبر مركب جديد، يكون فيه السفر إلىٰ حيث يقدر المولىٰ ويريد، الحقيق إليكم.

ومنذ أيامٍ عرض عليَّ العم محمد بن عقيل أمراً أوقفت النظر فيه حتىٰ أفيدكم بأصْله وتفيدوني بما ترونه عندكم، وذلك أن السلطان صالح طلب منه إقامتي في المدرسة التي أشادها قريباً للتعليم، وتعييني في مجلس إدارتها كأحد أعضائه المتفقّدين لمصادر الأحكام وما يتعلق بصلاح البلاد. وأحَبَّ أن أذهب إلىٰ مِصْر لدراسة بعض العلوم الحديثة، والاستفادة بأخذِ قِسْط من فنون العلوم التي تفيد الوطن، وأترقّىٰ بها في نفسي، وكلُّ مصاريف الدراسة والإقامة علىٰ السلطان، مع ترتيب مرتبٍ من تاريخه إلىٰ عودي شهرياً نحو [مائة ربيه] وربما زيادة.

وحبّذ ذلك الأمر العم أحمد بن حسين بن هادون [منصب المشهد]،

ولم أغنهم بجواب، غير إمضاء عزمي علىٰ الحج ومن بعده يكون خير، مع استطلاعي آراء الوالدة والعم عبد الله، وعند جوابهم لي أجيبكم، فلم يقنِعْهم ذلك، وألحّوا في الطلب، وأسهبوا وعرضوا بما أطلب منهم أن يساعدوني عليه، وكان الفاصل لهم مني انتظار جواب منكم، وصدّرتُ هذا الخط بِيَـدِ [مرسول خاص] فأرجوكم تعيرون الأمْرَ نظرةً وتجيبون بِداراً بما يترجّح عندكم، فهذا حاصِلُ الأمْر، ومنكم الجواب قبل أن أغادر المكلا . . . الخ .

فاتحة شوال ١٣٤١هـ

* * *

وفيما تعرض له في الرسالة الثانية والتي تليها من الانطلاق والتنقل في أرجاءٍ متعددة من تلك البلاد، إما للدعوة، وإما لبناء مدرسة، أو افتتاح مسجد، أو للقيام بعمل من أعمال الخير ما يؤكد ذلك.

وهذه الرسالة الثانية:

بسـم الله وبحمده، وصلىٰ الله علىٰ سـيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين من بعده:

ونهدي السلام المغمور بنور الصيام، ونفحات القرب من حضرة السلام، إلىٰ الولد الماجد حامد بن أحمد مشهور الحداد لا زال سالكاً علىٰ منهج السداد، وقد تباطَأْتُ عن جوابِك إلىٰ مصر لعوارض كثيرة، أرجو استتباب طبع الرسالة وإرفادنا بنسخةٍ بادِرة، وأرجو أنك وكافة الأسرة علىٰ ما يرام من صحة ووئام، ونحمده علىٰ ذلك، وعلىٰ توفيقه للانطلاق والتنقل في أرجاء البلاد للدعوة، خصوصاً في الأرياف والقرىٰ النازحة، حيث لا تبلغ

إلا بمشقة إلىٰ أقوام من [الأورما، والوديقو] سبقت لهم دعوةٌ من دعاةٍ مخلصين، وبقُوا عليها ثابتين، وهم أعدادٌ كثيرة لا يقلّون عن مائة ألف، مرعىٰ خصيب للدعوة، والحمد لله علىٰ تيسر ذلك وظهور أثر النفع.

ورمضان وافد علينا جميعاً وعلىٰ الأمة الإسلامية بكل يُمْنٍ وفتوح، ولا تنْسَوني في مواطن الإجابة، كما أنّي لكم داعٍ، وسلامي علىٰ كافة الأهل والأولاد والإخوان وأهل الوداد.

والدكم الداعي

أحمد مشهور بن طه الحداد | **فاتحة شهر رمضان ١٣٩٦هـ**

* * *

الرسالة الثالثة وهذا نصها:

الحمد لله فائض الجود علىٰ كل موجود، وفاتح أبواب الرضىٰ والغفران في شهر القرآن، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وآله.

وأهدي السلام النَّدي إلىٰ الولد البر المَهْدي مسالك النهج السوي، والمرجو له الرقي إلى المقام العُلوي العَلَوي حامد بن أحمد مشهور الحداد، دامت معاليه، وطابت أيامه ولياليه، والأملُ أنكم جميعاً على أسَرِّ حال.

ونحمده علىٰ تيسيره، فمنذ وردتُ هذه البلاد وأنا في تنقّل من جزائر القُمُر، وتناريفا، إلىٰ نيروبي، دواعي خيرية لفتح مسجد، أو معْهَد، أو إسعاف، أو وضع حجر أساسي، أو توزيع مصاحف وجوائز الاختبار.

وها هو رمضان وافد بكل خير، سنُجْري فيه الصلاة والدروس على العادة، وممباسا مستعدّة، نسأل الله المنّ بالصدق والإخلاص، واغتنام ليالي الرضىٰ بالجد والعبادة، حتى تنفتح لنا الأبواب، ونشهد من منافذ البصيرة ما شاهده أولو الألباب، وعسى أن تجعل لتدبُّر ما تقرأه من القرآن وقتاً خاصاً تستلهم فيه أسرارَ المعاني، وتجني من ثماره اليانعة أطيب المجاني، فإنك لا تُسْأل عما سواه من رسائل الكون، لأنه سفرها الجامع، وبتكلف الحضور والتدبر أولاً يسهل الانطلاق في مجاليه الفسيحة، وتناطقك آيات القرآن بأسرارها المليحة، وأنت أهلٌ ذلك، وإن جئت الحرم فادع لوالدك تجاه البيت، كما أنني لكم داعي ومراعي بنجاح المساعي واخضرار المراعي، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، والسلام علىٰ الوالدة والأولاد والأخوان وهو لكم من كافة الأصحاب.

من والدك الداعي

أحمد مشهور بن طه الحداد

* * *

وهذه الرسالةُ بعث بها سيدي رحمه الله إلىٰ الأخ علي، قال فيها:



الحمد لله مدبر الأمور بعلمه، ومجريها بحكمه، فلا رادّ لِما قضىٰ، ولا مانع لما أعطىٰ، وما من العبد إلا الحركة، والتعوذ من الهلكة، والسعي في فسيح الرحمة المشتركة بسائر أنواعها، ويأتيه ما قسم له من رقاعها، فيرضىٰ بذلك طوعاً أو كرهاً ويسلم لمولاه، وهو محسنٌ في توجهاته كلها وجهاً، وهذا

هو المؤمن الذي يمشي علىٰ بصيرة، ويمشي في بحر الحياة بديرة[١]، وتلاحظه عين العناية في البدء والغاية، وتكفيه من كل الآيات آية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣]. تولىٰ تدبيره وأبطل احتسابه، بما أعده له من لطفه الخفي، ونفىٰ عنه دعوىٰ الاستقلال حتىٰ يأوي إلىٰ رُكْنٍ قوي، ويفيء إلىٰ كنز الشكر الهني، والصلاة والسلام علىٰ القدوة الحسنىٰ في كل تصرّف وتصْرِيف، والعروة الوثقىٰ في كل تعرّف وتعريف، محمد بن عبد الله المَقُول فيه:

لـو ناسـبت قـدْرَه آياتُـه عـظماً ‌ ‌ ‌ ‌ أحيا اسمُه حين يدعىٰ دارسَ الرمم

وعلىٰ آله السادة الغطاريف، وتعود بركات تلك الصَّلاةِ علىٰ الولد الأمجد، المرعيّ المؤيد، علي بن أحمد مشهور الحداد، لا زال محفوفاً بالعوافي والألطاف، ناظراً بعينه إلىٰ حقائق الأمور الأزلية، شارباً من حميا التوحيد بخير سُلاَف، مُعَاناً في تقلّبه، رابحاً للمكسبين والتجارتين الربْحَ الواف.

هذا وقد استلمت كتابك... إلخ.

وحرر في شعبان ١٤٠٠هـ ‌ ‌ ‌ ‌ **الداعي والدكم**

أحمد مشهور بن طه الحداد

* * *

---

(١) الدِّيرة: البوصلة.

في رياض الشعر

في رياض الشعر

لا زالت أمامنا مداخِلُ عدةٌ نستطيع أن نصِل من خلالها إلىٰ كشف المزيد من الكنوز والذخائر الفكرية والأدبية، وغيرها من المجالات التي ظل سيدي يتفيأ ظلالها، وعندما نجده في رياض الشعر والأدب يتمتع بالمواهب التي ارتكزَتْ عليها حياتُه الأدبية، فساعدَتْه علىٰ النبوغ المبكر في إنتاجه الأدبيِّ والشعري، نجد أن ذلك لم يصرِفْه عن تحصيل العلوم والمعارف الأخرىٰ، فلم يتخِذْ الشعر صناعة، ولكن الشعرَ كان أحد مواهبه، فهو لا ينظم الشعر إلا حين تأتي دواعيه الملحّة. ومن تحصيله الأدبي تنامت فيه القدرة علىٰ تطويع اللغة العربية في التعبير عن دقائق المعاني في شعره ونثره كلما اقتضت الضرورةُ ذلك، والا فهو يكْرَه التنطّع والتقعّر والغلو والمبالغة، وهو في صياغته للشعر مع السهل الممتنع.

إن الشعرَ وإن استمَدّ من الشعور والإحساس والوجدان، فهو ذو رابطة قوية بالعلم والمعرفة والفطنة والذكاء، فالعالم الأديب عندما يكون صاحبَ ذوق فنّي وإحساس مرهف، وإبداع رائع في تعبيره وتصوره، فهو يأتي بما لا تجده عند غيره ممن يسْبَحون في بحور الشعر، من صدْقِ الشعور، ودِقّة التصوير، وروعة التعبير، وعمق الإحساس.

وها نحنُ أمامَ نخبةٍ من قصائِدِه المختارة لنقف معها في استراحة قصيرة، استعداداً لانطلاقةٍ شعرية شاعرية ووجدانية، نحلق بها عبر المسافات الطويلة نصِلُ بها إلىٰ إندونيسيا، وإلىٰ مسقط رأسه ومراتع صباه [قيدون]، وإلىٰ

مدن إفريقيا وقراها وأدغالها، وإلىٰ آفاق أخرىٰ سيأتي معنا ذكرها بامتداد هذه الرحلات التي لم نُوَفِّها حقَّها كاملاً.

ومع ما تَحْمِله هذه القصائد من خصائص فنية، ومحسنات لفظية، نجِدُها تحملُ من المعاني الرائعة وثَباتٍ فكرية، وصوراً ذات ألوان معينة، تلامس وقائع الأحوال، كما في قصيدته التي امتدح بها الإمام محمد بن أحمد المحضار وهو دون العشرين من عمره، وقد اتسع خياله وتفتحتْ مدارِكُه بإدراك ما وراء الألفاظ، ليربِطَ بينها وبين صفات الممدوح المعنوية والخلقية وكل الصفات الحميدة الجديرة بأمثاله، فيعبر عن الجواذب الروحية التي تشده إليه وتصله به، فيشهد بها تلك الصفات التي احتوتها هذه الشخصية العظيمة، ولا غَـرْو وهو يردد في أعماقه قول الشاعر:

لقد وجدت مكان القول ذا سعة　　　فإن وجـدْتَ لسـاناً قائـلاً فقُلِ

أن تتفتق قريحته الجياشة بهذه القصيدة: التي نحلق معها في أولىٰ الرحلات إلىٰ رُبوع إندونيسيا علىٰ الرغم من بُعْد الزمان والمكان، ونصغي إليه عبر مسمع الزمن وهو ينشدها في حضرة ذلك الإمام العظيم التي جمعت الصفْوةَ من الكرام البررة من آل البيت وغيرهم من أهل الفضل والصلاح، وذاك امتثالاً واستجابة للأمر:

ألا عـــرِّجْ علـــىٰ ذات الخيـــام　　　وحُـطَّ الـرحـل فـي نـادي الكـرام
فثـمَّ لنـا بـذات البـان عهـدٌ　　　قـديـمٌ مـرَّ فـي العُصُـر القِـدام
بـــرودٌ فـــي ثنيـــاهـــا بـــرود　　　بـزاة فـي بـرود الحسـن سـامـي
فلـو كشفـت قنـاعَ الـوجـه عنـه　　　لأغْطَــش نـــورُه بـــدْرَ التمـــام
تهيـم بحُسْنهـا الألبـابُ عجبـاً　　　ويبـــري لحظُهـــا نصْـــلَ السهـــام

كلفت بها وأنىٰ لي بسلوىٰ … وقد شطت بمنتَزح المرام
وحقِّ عهودِها وقديمِ وصلٍ … ونارِ جوىً بها ذات إضطرام
لقد ملئت نواحي الصدر حباً … وقد أخذت بيمناها زمامي
أبِيتُ مسهّداً وسميرَ نجم … السهىٰ وأخوض ملتطم الغرام
فيهفو إن هفا وصلٌ فؤادي … وأبكي إن بَكَىٰ طيرُ الحمام
فمن لمقيَّدٍ بقيودِ شجْوٍ … طليقِ الدمع في جُنْح الظلام
وهل لليالي مرت عياد … فيسكن بعد عودتها هيامي
وإلا فالفؤآد له سكونٌ … إلىٰ طود المكارِم والكرام
جمالِ الدين من في العلم بحرٌ … يفيضُ وفي الندىٰ كالغيث هامي
هو المحضار من وصلت به للعلىٰ همّاتُ فرْدٍ بالتزام
هو الداعي علىٰ بصرٍ إلىٰ ما … يقربنا إلىٰ دار السلام
لدين الحق جدد دارساتٍ … وعن آياته نعْمَ المُحَامي
وناشر راية الإيمان حقاً … بها درء المضلِّل والمعامي
لقد قرَّتْ عيونٌ ناظرات … إلىٰ مَعْنىٰ جمالِك باحتشام
سليل السادة العالين مجداً … وما بَرِحوا كراماً من كرام
وللتطهيرِ والحسَب الذي لمْ … يزلْ في سائر الأكوان نامي
وللحسَب الرفيع فهل ترىٰ مَن … يساويهم بمَجْد أو يسامي
فكيف وخيرُ خلق الله منهم … وهم منه فما طعْنُ اللئآم
محبّتُنا لهم حقٌ أكيد … وإن جهلوه أولادُ الحَرام
وقل للمبغِضِين لهم أفيقُوا … فقد ظلت بكم طرق الأثام
تركتُمْ آل طه بعد علْمٍ … بهم وتبعتموا أولاد حَامِ

ومن يكن الغراب له دليلاً ... يكون نصيبهُ الجيفُ الدوامي
علىٰ آل الرسول صلاةُ ربي ... ورضوانٌ يزيدُ علىٰ الدوام
بحبْلهُم اتصَلْنا واعتصمنا ... بهم أيَّ اتصال واعتصام
وتغشىٰ من به شَرُفوا صلاةً ... يفوحُ بذكرها مسْكُ الختام

* * *

فإذا عدنا من إندونيسيا إلىٰ مسقط رأسه بلدة قيدون لكي نتتبع نشاطه الأدبي نجد ذلك ممثلاً في العديد من الروائع الأدبية ومنها هذه القصيدة الغراء التي ساهم بها في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة وصول مياه الشرب إلىٰ تلك البلدة عام ١٣٤٦هجرية.

وهي وثيقة تاريخية سجل فيها أروع المشاهد لعمل عظيم لا يستطيع القيام به أو الإتيان بمثله في بلد لا تتوفر فيه الإمكانيات الأساسية إلا من طمحَتْ به نفسُه إلىٰ عظائِمِ الأمور، فسعىٰ وأدرك ما أراد بعزيمته وعلو همته وحسن مقصده وحميد سيرته وصادق جَدِّه كعمه وشيخه عفيف الدين الحبيب عبد الله بن طاهر الحداد رحمه الله، [والجِدُّ يفتح كل باب مقلد].

وهذه القصيدة أو هذه الوثيقة الأدبية التي استَهلَّها بذكر مباهج الفرح والسرور الغامر الذي عمَّ البلدة لتخليصها من عَناء العذاب والجهد في سبيل تحصيل الماء، لا تكْمُن روعَتُها في المحسنات اللفظية أو المعاني البلاغية أو الأسلوب البياني، بقْدر ما هُو في اختيار الصّوَر الذوقية التي تمثل الواقعَ متكاملاً بكل جوانبه، وحُقَّ لها أن تبتهج وأن تفْرَح وتهنأ بما تحقق لها من آمال لم تكن تحْلُم بها من قبل، اجتمعت بفضلِ جهود

المخلصين وتوفيق المولىٰ سبحانه وتعالىٰ بإنشاء رباط العلم الذي به حياة الروح، وبناء ذلك المنهل العذب الذي به حياة الأجساد، وما غاب عنه رحمه الله في استعراضه لتلك الرُّواء والمشاهد الحية أن يضع جانباً من محتواها في مقام البلاغ الإعلامي يكشف به عن الأدوار والجهود التي تضافرت في إنجاح تلك الأعمال الجبارة، وهو لم يمرَّ بعدُ بتجارِبِ الحياة ولا بدروسها وعِبرها، إلا ما كان من ثمراتِ حصيلتِه العلمية وذكائه الوقاد ونبوغه المبكر.

وهذه هي القصيدة الغراء كما نوه عنها سيدي الإمامُ الحبيبُ علوي بن طاهر الحداد في تاريخه «الشامل» عند ذكره وقائع الحفل وما قيلت فيه من قصائد بقوله: ومنها قصيدةٌ غراء أنشأها الألمعي الأديب واللوذعي الفاضل الأريب أحمَدُ المشهور بنُ طه بن علي بن سيدنا الجدّ عبد الله الهدار الحداد، نورِدُها هنا كاملة باعتبارِها من طلائِعِ إنتاجِه الشعري:

لمعَتْ خوافقُ أنسِنا المتجَدِّد ... وترنَّمت خانات هذا المشهد
وتباشرتْ أُمَمُ البلاد بأسرها ... بورود منهلها العزيز المورد
وبلابل الأفراح بين مغرد ... يشدو علىٰ عذباته ومردد
والناس بين مهلل بوروده ... فرحاً وبين مكبر وموحد
عجباً من الأمر الذي لوقوعه ... طولَ الزمان عقولُهُم لم تَهْتد
عملٌ به السبل الصعاب تذللتْ ... وبه تذاءَبَ كلُّ صخْرٍ أصلد
عملٌ لو أنّ علىٰ الجبال مضيه ... لأزال شامخ طودها المتوطد
عملٌ من الخيرات مقصود به ... وجْهُ الإله ونفْعُ أمّةِ أحمَدِ
وعلىٰ جبين الدهر أصبح غُرَّة ... تبدو به كالكوكب المتوقد

فَتْحٌ بـه قيـدونُ أخصَبَـتِ الـرُّبـىٰ رَوِيَـتْ وقـال لسـانُ حـالتهـا قـدِ
مـن بعـد مـا عبـرتْ عليهـا أمـة صرًّىٰ فعادت بالدرار المزبد[1]
تتـواردُ الأنهـارُ فـي حـافـاتهـا بـالسلسَـلِ العـذْب الهنـيِّ المبـرد
فلتبتهـجْ قيـدون ولتهنَـأْ بمـا قد أُودِعَـت من سرِّها المتعـود[2]
فيهـا حيـاةُ الـروح والأجسـام مـن وِرْدٍ وصـرح للعلـوم مشيـد[3]
سرُّ الحياة لكل شيء في الثرىٰ وحيـاة أسـرار العلـوم لمجتـد
فـانهـض إلـىٰ مخيـا العلوم بقـوة وتمـلَّ فـي روض الحيـا وتـردد[4]
تلـق المعـارف يـانعـاتٍ ثمـرُهـا وينـال قـاطفُهـا جنـاهـا بـاليـد[5]
والمـاء مبتَـذَلاً وقـد كـانـوا علـىٰ تحصيله صالي العذاب الأنكد[6]
يسقـون مـن أغـوار آبـار علـىٰ مـائـةٍ ونيِّـفِ قـامـة أو أَزْيـد

---

(١) وفي الشامل جاء كالتالي:

من بعدما مرت بها حقب الظمأ عادت فجاشت بالزلال المزبد

(٢) وجاء في الشامل كالتالي:

فلتبتهـج قيـدون ولتهنـأْ بمـا قد أُودِعَتْ من خيرها المتجدد

(٣) يعني بذلك الصرح الرباط الذي قاما بإنشائه هو وأخوه العلامة الحبيب علوي بقيدون لنشر العلم وإحياء معالم الشريعة وأكلمت عمارته سنة ١٣٣٤هـ هجرية.

(٤) جاء هذا البيت في الشامل كالآتي:

فـانهـض لمعهـد علمهـا وربـاطهـا ومعيـن مـوردهـا الهنـي الأبـرد

(٥) في الشامل جاء كالتالي:

تلـقَ المعـارف يـانعـات ثمـرهـا متـدليـات دانيـات لليـد

(٦) وهذا البيت جاء في الشامل كالتالي:

والمـاء فيـاضـاً وقـد كـانـوا علىٰ تحصيلـه صـالـي العـذاب الأنكـد

يُدلون بالجهد الشديد دلاءهم فيها وتطلعُ بالنَّزيح المجهِد
يقوىٰ عليه الأقوياءُ وكل ذي ضعفٍ فراوٍ إن تمكّن أو صدي
حتىٰ أُفيض عليهم الغيل الذي أدنته همة ماجد متفرد
المصلح العاني بإحياء العلىٰ ومآثر المجد الكريم المرشد
أعني عفيف الدين عبد الله من طمحت به نفس لأرفع مقعد
فسعىٰ وأدرك ما أراد بجهده وعلو همته وحسن المقصد
وحميد سيرته وصادق جده والجد يفتح كل باب مقلد
سَنَنٌ أبان بها طريقة أهله[1] ورَوىٰ حديث صحيحها بالمسند
ولقد أقول ولا أبالغ أنه حاز الوراثة للمقام الأحمدي
إيهاً عفيف الدين جَدُّك قد وفىٰ بالطالع الميمون سعد الأسعد
فلقد فسحت بما لقيت من الندىٰ بالانتفاع لمهتد ولمنجد
وصبرت في روض الحَزُون ونلت من قطع الحزون منابعاً في الجلمد
وبلغت مجهودَ الحوادث[2] آخذاً فيها بشأو خلائق لم تجهد
بينا الشدائد في محاولة العلىٰ[3] قعدت بكل ضعيف عزم قُعْدُد
حسِبَ أنّ ذاك من المَحَال وما دَرَىٰ أنّ الجبال من العزائِم ترتدي
وعلىٰ يديك تحققتْ بنيانه نيات مرشدك الحبيب محمد[4]
بحمىٰ عمود الدين شيخ القطر والحداد طاهرِالإمامِ المفرَد

---

(١) في الشامل بدل [أهله]: جَدّه.

(٢) في الشامل: بدل الحواث [الأكارم].

(٣) في الشامل: بدلاً عن محاولة العلي [في الرقي إلىٰ العلا].

(٤) هو شيخه الإمام الحبيب محمد بن طاهر الحداد.

تلك البلاد غدَتْ بهم مقصودةً ... للـزائـريـن وكعبـةً للقصـد
بظهارة من خير إخوان علىٰ ... عمل المكارم والتقىٰ والسؤدد(١)
نزلوا غيوثاً للبلاد وأصبحوا ... أمن الورَىٰ من كل خطب أسود
ما بين داعٍ للعباد إلىٰ الهدىٰ ... ساع لإحياء العلوم مجدد
ببيانه وبنانه ولسانه ... كالنجم بل كالبدر لاح لمهتد
مثل ابن طاهرالعزيز منالُه ... علويٌّ الحبر العليم الأوحد
ومبصر يحدو إلىٰ عمل التقىٰ ... والنصر بالنصر العزيز مؤيد
يلقىٰ الوفود بطيب أخلاق كما ... يُسْدي جزيل الرِّفْدِ للمسترفد
كابن الجمال محمد رب الندىٰ ... والفضل علوي الحليم الأرشد
تعلوا به الهمم العوالي فهو علوي لذلك في اسمه والمحتد
من نسل حداد القلوب وغيرهم ... من آل طه كم هُمَامٍ أَصْيد
كالحامد البار الجواد المقتفي ... أَثَر الخيار بمصْدَرٍ وبمَوردِ
زاكي الشمائل والصفات وكم له ... من مَشْهدٍ في الصالحات ومن يد
وبني الرسول معادن الأسرار مَنْ ... كانوا لأخْبيةِ العلىٰ كالأعْمُد
وأولي السعادة من محبيهم فهم ... منهم ومن يدخل حماهم يسعد
وأبو سلامة أحمد إذ ما سرىٰ ... عند الصباح علىٰ الغنيمة يحمد(٢)
يهنا بما أولاه في الدنيا وفي ... الأخرىٰ بنزل في الجنان مخلد

---

(١) جاء هذا البيت في تاريخ الشامل كالتالي:

[بمظاهر من خير إخوان علىٰ ... سُبل المكارم والتقىٰ والسؤدد]

(٢) وهذا البيت أيضاً جاء في الشامل كما يلي:

[وأبو سلامة أحمد حمد السرىٰ ... عند الصباح ومن سرىٰ فليحمد]

تلك المكارم لاتزال علىٰ المدىٰ تتلىٰ بذكر في الأنام مخلد
يحيا بها بعد الممات من ابتنىٰ أركانها وكأنه لم يفقد
تنمو فضائل عامريها ماجرىٰ نفعٌ بها وله كفضل المقتدي
شكراً بنىٰ وطني علىٰ النعم التي سيقت من المولىٰ إليكم تَزْددَ
وارعوا لها حقاً وصونُوها لكم من أن تلُمَّ بها ضرورة معتد
فالفضْلُ والعقْبىٰ لكل مؤازرٍ والويلُ يلحق بالعتاة العنَّد
فلنحْمَدِ المولىٰ علىٰ ما خصّنا من فضْله ونواله المتعدد
ليزيدنا فضلاً ويهدِينا لما يرضاه عنّا فهو أكرم مُسعِد
ويمنّ بالمرجو من الخيرات في هذي الحياة وبالكرامة في غَدِ
وبذكر من يزكو المقال بذِكْره ويطيبُ نختتَم المقالَ ونبْتَدي
صلىٰ عليه الله والآل الأولىٰ قامَتْ به حِكم الوجود لمُوجِد
والصحبِ والأتباع ما بخريدةٍ طرباً ترنّم كل حادٍ منشد

* * *

وفي ذلك السن المبكر وفي تلك البيئة العلمية التي نشأ فيها وفي ظل التوجيهات التي كان يتقبلها بإستعداده الفطري نراه يتفاعل تفاعلاً تاماً مع حيثيات تلك التوجيهات التي تحكمها العقيدة وتسيرها القيم والمبادئ والأخلاق السامية ويحليها شغفه الشديد بالعلوم والآداب، وفي ظل ذلك المفهوم الثابت لتلك التوجهات أيضا تثبت القيم والمبادئ والأخلاق في أعماقه ودخيلة نفسه، فلا ينجرف وراء تيارات الشباب المتقلبة، وبالتالي نرىٰ النتيجة تتمثل في ذلك التجاوب الذي انعكس علىٰ مرآة ذاته فيربطه بأوثق الروابط بمربيه وشيوخه الكبار ارتباطاً ظل يعبّر عنه في شعره ونثره

وتراجمه كلما مدحهم أوترجم لهم أوتحدث عنهم وعن أعمالهم المجيدة وسيرهم الحميدة، أو أشار اليهم.

ومع هذه القصيدة التالية أو مع فقرات منها، نراه وهو يطوّع الكلمات والمعاني ويربط بينها وبين المقدمة الغزلية، ويجمع بينها وبين جمال التصوير الرائع الذي لاتضيق فيه آفاق الخيال ولا يشتط به إلىٰ التكلف في الصنعة، أو الغلو في الوصف، نراه يقول مادحاً شيخه الحبيب عبد الله بن طاهر الحداد ومرحبا به بقدومه من سفره في ١٨ ذي الحجة ١٣٤٨هجرية:

صفحت وكان الوصل هجِّيراها[١] ... رود لـزمـت مُـذِ الفصـال هـواهـا
كانت جَلَتْ لي عن بدائع حسنها ... قَبْـلاً وجَلَّـل مـرتعـي حسنـاهـا
ولـربمـا عطفـت علـيَّ بـروضـة ... يجـري بـأنهـار المنـافـع مـاهـا
فكرَعْتُ من أنهارها وقطفْتُ من ... أزهـارهـا وهصـرت غصـن جنـاهـا
فـي غِـرَّةٍ مـن غـابـر الأيـام لا ... ينفـكّ ينـزَع فـي الحشـا ذكـراهـا
فرعَىٰ معاهـدها وأخصب روضَـها ... غيـثٌ مـن العـرفـان عـمّ ذراهـا
يَـهْمي فينبت من غروس الفضل ما ... تـزهـو بـه فـي الكـون سنـةُ طـه
وتعيـد مـن سِيَـرِ الـذيـن تقـدمـوا ... من صالح الأسلاف أثر خطاها
سهـل علـىٰ المـولـىٰ مـرام عبـاده ... وإذا أراد لحكمـــة هيّـــاهـــا

ثم يشير إلىٰ [قيدون] وقد كانت تتخبط في عماية الجهل، حتىٰ اعتلىٰ فيها رباط العلم وانطلقت من جنباته مشاعل النور والهداية فغدا مأوىٰ لطلاب العلم والمعرفة، وأصبح حجة علىٰ من أعمىٰ الهوىٰ بصيرته من أهلها، في الوقت

---

(١) دأبها وشأنها.

الذي راجت في رحابه تجارة العلم والمعرفة، ويسرت أسبابها لطلابها وهواتها فيشير من بعيد إلىٰ أنه من الخسارة أن توزع هذه التجارة دون أن ينال منها من هم أحق بها وأهلها، وأي حظ ينالونه وأي مهنة يختارونها عوضاً عن ذلك إلا الهبوط إلىٰ الحضيض وهذا ما يأباه أولو الشهامة ورواد العلم والمعرفة، فيقول:

بالأمس كانت في عَمَاية جهلها ... [قيدون] تقرع للمحال عصاها
ولقد غدت للفضل ربعاً والملا ... نفعاً إلىٰ أن صَوَّحَتْ أفلاها
فإذا اعتلىٰ فيها رباط العلم جَدَّدَ عهدها وبنفعه أحياها
وأجار نشئاً من صروف الجهل قد ... عاثت بهم وبدينهم عَدْواها
فأهاب فيهم صادعاً بمواعظ ... في كل ناحية يطن صداها
وأوت إليه طوائف لكمالها ... تبغي فطاب بجنبه مأواها
وجلا بصائر ليس ينكرها سوىٰ ... مرْءٍ بصيرتُه الهوىٰ أعماها
هو حجة قامت فليس لجاهل ... عذر به في الحشر يلقىٰ الله
وبه تجارات العلوم عتيدة ... تعطىٰ بلا ثمن فمن يهواها؟
ومن الخسارة أن توزع دوننا ... وينالها من ليس من أبناها
وإذن فأية مهنة نختارها ... عِوَضاً عن العلياء أو نَرضاها
إلا الهبوط إلىٰ الحضيض، ولَلفنَا ... خيرٌ لشهم النفس من جرّاها
فعلىٰ بناة رفيعة[1] مادعوة ... نشرت وعم العالمين هداها
حمد السرىٰ ولسان صدق في الورىٰ ... ترضي العفيف العارف الأواها

---

(١) هكذا جاء في الأصل.

بعد ذلك يشير إلىٰ الأيادي البيضاء التي أسداها إلىٰ قيدون وأهلها قربة لله وابتغاء مرضاته فيقول :

فلكم أفاد وكم أجاد وكم له ... شيم يجمّل ذكْرُها الأفواها
هو نسخةُ الأسلاف فانظرْ وصفهم ... تشهَدْه في ذاك الحبيب تجاها
واحفظ نصائحه وأصْغ لما به ... يحدو القلوب إلىٰ رضىٰ مولاها
إذ قل ما تلفىٰ الضنائن في الورىٰ ... وترىٰ بقية من ترىٰ أشباها
أسدىٰ إلىٰ [قيدون] ما لو أنطقت ... أثنىٰ عليه وِهادُها ورباها
لما شفا منها الغليل فأصبحت ... بعد اللشوفة تستفيض مياها
وبذا تيسر شطر أسباب الحياة ولو يساعده القضا وفّاهَا
لله ما عملت يداه أما ترىٰ ... إبراره النيات حين نواها
لا طالباً مالاً يوفره ولا ... ذكراً ينبه قدره أو جاها
إلا التطوع بالصلاح لربه ... وهدىٰ بريته فواهاً واها
ولما يؤمل من مسرة أحمد ... في نفع أمته وشدّ عراها
خاض البحار وعانق الأسفار فاتصلت منافعها علىٰ منتآها
وثنىٰ العنان إلىٰ المكان فأصبحت ... كل النفوس بوصله تتباهىٰ
وتقول أهلاً بالذي أحيا لها ... سنن الهدىٰ وأشاد في مبناها
فعسىٰ بيمن وصوله أن تنثني ... مخْضَرّة الأكناف من مَحْياها
ويجودُ خالقها برحمته ولا ... يخفِقْ مساعيها ولارجواها
وننال حظاً وافراً من سرِّه ... بمشاهدِ محمودة نؤتاها
نُهدىٰ بها سُبل السداد وتنجلي ... عنا الموانع كي نُفاد شفاها

ويختم القصيدة بالإعراب عما يحمله من مواجيد المحبة الصادقة وليس لمجرد نظم الشعر لذاته فيقول رحمه الله:

وإليك يا ابن الطيبين خريدة ... في الشعر ترفُلُ في برود حلاها
ما الشعر من غرضي ولكن غاية ... فيها مواجيد الهوىٰ تتناهى
وعلىٰ الحبيب محمد صلوات من ... في علمه الأزليِّ قد صلاها
وسلامه الأزكىٰ وتشمل بعده ... آلاً تؤول إليه في عقباها

* * *

وقصائد المديح تحتل حَيّزاً كبيراً من ديوانه، وهو في مدحه لا ينظر من وراء حجاب حينما يمدح أحد شيوخه وكلهم من ذوي الفضل والعلم والكمال.

ولا يلجأ إلىٰ ضُروبٍ من الغلو والمبالغة في المدح، فإذا ترك الخيال يسبح في مراتعهم الفسيحة لم يخرج منها إلا برؤية صادقة مثل ما تصدقه عيناه أو أُذناه في معرفتهما، إلا ماتقتضيه ضرورة التصوير الفني والمحسنات الشعرية أحياناً، مما لايلجئه إلىٰ لزوم مالايلزم من الكذب والاختلاق[1]، كيف لا وقد ربي ونشأ في بيئة عُرِفت بكل صفات الصدق والفضل ومكارم الأخلاق ومراتب الكمال، فلا عجب أن لايعرف مكانة أهل الفضل إلا من هو منهم.

نعم، لقد حفلت مدائحه بذكرما تربطه بهم من صلة القربىٰ والرحم والصلات الروحية، وذكر صفاتهم ومحامدهم ومناقبهم وانتدابهم للأمر

---

(١) فيرتقي بشعره عن قول من قال: إن أعذب الشعر أكذبه.

بالمعروف والنهي عن المنكر وتحليهم واتصافهم بالخشية والتقىٰ، وقد يشير إلىٰ ما لقي البعضُ منهم من عنَتِ أهل الشر والغواية وما لحقهم من ظلم وإساءة. وكيف قابلوا نكران الجميل بالبر والإحسان. وكأن الشاعر العربي القديم يعنيهم بقوله:

كـأن ربـك لـم يخلـق لخشيتـه سواهم من جميع الناس إنسانا
يَجْزون من ظُلْم أهل الظلم مغفرةً ومـن إسـاءة أهـل السـوء إحسـانـا

وشعرُ المديح عندما يُصَاغ بأُسلوبٍ بليغ وبناء محكم يزداد وقعاً في نفس السامع وينفي الملل والسأم عند قراءته أو الإصغاء إليه، ومما يساعد علىٰ اختيار الألفاظ وتنسيقها في داخل القصيدة تلك الإيحاءاتُ التي تسكبها المشاعر والأحاسيس من الأعماق لأنها لاتكذب ولاتعتمد علىٰ الوهم أو الزيف أو التملق، وإن قيل إن أعذب الشعر أكذبه فليس في كل الحالات، لأنها هنا تنطلق من مشاهد حسية يجول الشاعر بفكره حولها فلا يرتد الطرف عنها وهو حسير.

والمشـاهد والرؤىٰ تختلف بين شاعـر وآخر سـواء في الصنعة وانتقاء المعاني والألفاظ أو في المشاعر والأحاسيس.

ونحن هنا نقف أمام نمطٍ معين وأسلوبٍ خاص من شعر المديح في مقاصده ودوافعه وأغراضه، يختاره سيدي من دون عناء أوتكلف تبرز لنا مشاهده الحسية والوجدانية في هذا القالب البديع الذي ينم عن عمق الصلة وقوة الرابطة بين المادح والممدوح وقد جمعت بينهم الأيام خلال عام ١٣٦٨هـ فوق ثرىٰ الوطن الحبيب [قيدون] وجادت بالوصل بعد طول غياب ولكن لفترة لم تدم طويلاً ومع انتظار ساعات الرحيل التي تقترب شيئاً فشيئاً

ليعود كل منهما إلىٰ مهجره، ومع الأمل في اللقاء ونعيم برد الوصال تبرز هذه المشاعر الجياشة ممثلة في أبيات من القصيدة التي ألقاها عند وداع شيخه الإمام العلامة الحبيب علوي بن طاهر الحداد واستهلها بقوله:

سَفَراً وعوداً للبلاد سعيداً ... يا مُفْرداً في عصره ووحيدا
توجته بوفادة البيت الذي ... أضفىٰ عليك رواقه الممدودا
وزيارة الهادي الذي في عِطْفِه ... مازلت تَخْطُر غائباً وشهيدا
وطلعت في أفق البلاد فأشرقت ... بك من رؤوس الوادِ حتىٰ هودا
وهفَتْ إليك معالم ومعاهد ... وتريم متلَعَةٌ لوصلك جيدا
وحريضة طفقت مناشِدةً لها ... عهداً بساحات الحبيب أكيدا
وعمرْتَ في [قيدون] ربعاً مقفراً ... ورعيت حق البيئة المنشودا
[وَبدوعَنٍ] وَجْدٌ إليك وإنَّما ... أهلوه ظلوا صامتين جمودا
لوكان يمكنه المسير لسار في ... وديانه سعياً إليك حفيدا
شعب عريق الفضل كم نملي علىٰ ... التاريخ من أبنائه صنديدا
ضل السُّرَىٰ وجفا مصابيح الورىٰ ... فغدا يخبِّطُ مهبطاً وصعودا
ونفىٰ القيادة عن بنيه فيا له ... عجباً وولىٰ غاشماً وبعيدا
يرعىٰ خمائله وينزف نبعه ... متحدياً بالموغرات همودا
أفهل يُمَدُّ بنظرة منكم كما ... قد كان من أجداده ممدودا
فيُرَدُّ غائِبُنا ويُرْأَبُ صدعنا ... ونعيش عيشاً في البلاد رغيدا
ياليت شعري هل تُصالِحُنا النوىٰ ... دهراً فنَنْعم بالوصال مديدا
هذي مواسِمُ مِن لقاكم شرّفتْ ... كل الدوائر والداً ووليدا
وسرت برياها النُّعامىٰ في الحمىٰ ... والقطرِ أغواراً به ونجودا

يا وارث المختار والأسلاف يا | ركناً لنا في النائبات شديدا
أُنهي إليك بشارتي مُذْ قابلت | عيناي طالعَ يمنك المسعودا
نارَتْ لي الأيامُ بعد مرورها | غُفْلاً بأكناف السواحل سودا
واليوم قد زال الحجاب وجُدِّدت | بالوصل أيام الرضىٰ تجديدا
وشفاءُ نفسي في رقيم إجازةٍ | أرْوي بها سند العلوم مجيدا
أوردتُها حَرَّىٰ مناهلَ فضلكم | ولقد وردتُ الكوثر الموردا
وبذاك صافحتُ العلىٰ ونشرتُ في | ركب المعارف بنْدَها المعقودا
فتقبَّلوا مني نوازعَ مُهجة | رقَّتْ فراقت في البيان نشيدا
لازلتم سنداً وبُقِّيْتُم سَناً | أنىٰ اتجهتم في الملا وسعودا

* * *

ومع تلك الدوافع والنوازع الوجدانية ننتقل بخطىً وئيدة لكي نصل بها إلىٰ معقل من معاقل الجود ومنزل من منازل الكرم وطود من أطواد العلم والحلم ونصغىٰ بقلوب صاغية وآذان واعية إلىٰ القصيدة التالية التي امتدح بها سيدي رحمه الله الحبيب العلامة علوي بن محمد الحداد في شهر شوال سنة ١٣٤٨هـ ومن دون تقصي أو التفات إلىٰ بلاغة التعبير أو حسن السبك وجودة الصنعة، حسبنا منها الاطلاع علىٰ تلك المشاعر الجياشة والأحاسيس التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ولازمان ولامكان بل تنطلق علىٰ سجيتها كل ما رأىٰ في رحاب القوم الواسعة بغية آماله أوبعدت به الديار فحن شوقا إليها كما يعبر عنها أصدق التعبير بقوله:

ولئن أشاح بي الزمانُ وصدَّ عن | وصْلي سنيناً قد خلتْ وشهورا
فالودُّ باقٍ والشهود علىٰ المدىٰ | بهما فؤادي لم يزل معمورا

وقد استهل القصيدة بقوله:

ما زال شوق المستهام أسيرا ... مذ واصل التأويب والتبكيرا
فكأنما بالقلب من ألم النوىٰ ... والصد والوجد الشديد سعيرا
وكأن أحباب الفؤاد تبوّؤا ... فَلَكاً يرد الطرف عنه حسيرا
ويعير هَمَّ الصب عما يبتغي ... من وصلهم باع القصور قصيرا
حسب الذي يصلىٰ المحب من الجوىٰ ... ولهاً يصير بمسه مسحورا
ما هَمَّه رشأٌ تكامل نعته ... فيجول في باح الهوىٰ ويدورا
كلا ولا سبب ينال من الدنا ... فيخوض بحراً دونه وبرورا
غايات ذي غرر يسامح نفسه ... ويرىٰ الخطير من الأمور حقيرا
لكن قصدي أن يبلّغني القضا ... من سادتي فأراهم وأزورا
وأفوز من لقياهم بعوارف ... يضْحىٰ بها روض الفؤاد خضيرا
أجني به غَرْس المنىٰ عمري وفي الأخرىٰ أُلَقَّىٰ نضرة وسروراً

* * *

بعد هذا يبين مقاصده وغاياته ويراها في لقاء ورؤية سادته ويعتبر أن الفوز من لقياهم وزيارتهم الفوزُ بالعوارف التي يَضْحىٰ بها روض فؤاده خضيراً، يجني بها غرس المنىٰ في حياته، وفي آخرته يلقىٰ نضرة وسروراً.

ومن علىٰ بعد، تَطَلَّع إلىٰ معالم [بوقور] في جاوىٰ فيَمَّم قصده نحو أعصم معقل وأكرم منزل فيها كما يقول هنا:

فإذا استوىٰ وصلا علىٰ جوديها ... وشهدتُ أعْلاماً تنوبُ وقورا
يمَّمْتُ قصدي نحو أعْصَمِ مَعْقِلٍ ... منها وأكْرَمِ منزلٍ (بُوقُورا)

ورأيت في عرصاتها ابن محمد   يملي القلوب مسرة وحبورا
وشممت من أعطافه عرف الندىٰ   يزري بعرف المسك فاح عبيرا
ولمحت من سمت النبوة والهدىٰ   في وجهه من نور أحمد نورا
متهللاً بشراً كما افْتَرَّ الحيا   فأفاض سيباً للأنام غزيرا
علوياً البر الوصول المبتني   للمجْد والشرَفِ الرفيع قصورا
خلَفَ الإمام محمد بن الطاهر   المُعطَىٰ مقاماً في الوجود كبيرا

ثم يقول:

يا رُبَّ وقْتٍ قد نُعِمْتُ بقربه   قد كنت فيه بفضله مغمورا
وَعَليَّ من نظراته ما صار لي   في نيل كل مزِيّةٍ إكسيرا
عادَتْ عليَّ به عوائدُ سره   ودخلْتُ في صف الكبار صغيرا
وكذا الشموسُ تعير من أضْوائها   بالبُعْد في أفق السماء بدورا

* * *

وهنا يستطرد إلىٰ ذكر شيخه الحبيب علوي بن طاهر بعد أن أوفىٰ ما للممدوح من شمائل ومكارم ومناقب وأخلاق نبوية بقوله:

ما خال ظني في الورىٰ شبهاً لها   فانعد شيئاً دونها مذكورا
إلا مواهب واحد العصر الذي   كم شاد حصناً للعلوم وسورا
شَيْخي وواضع مغرس الإيمان في   قلبي وساقيه الشرابَ طهورا
ومُطَوِّقي نِعَماً سعدْتُ بنيلها   لا أستطيع لها الزمان شكورا
العارف الحبر المجدد ماعفىٰ   من شرع طه أو غدا مهجورا
علويّاً العالي سلالةَ طاهر   من نسل من ملأ البقاع هديرا

حمالُ ألوية العلىٰ بين الملا بـالحـق يلمـع داعيـاً ونـذيـرا
الصارفُ الأنفاس في الكنز الذي يغني العديم فلا يصير فقيرا
لم يرتض الدنيا له غرضاً وقد عرضَتْ وواصل في العلىٰ التشميرا
حتىٰ غدىٰ لذوي المعارف موئلاً ولهـم سـراجـاً لايـزال منيـرا
ولقـومـه مـن آل علـوي حجـةً يثني المعادي ملجماً مدحورا

وبهذه الشمائل والمناقب والعلوم والمعارف التي نالوا بها ما نالوه من سيادة وتقديم بين الورىٰ يختتم قصيدته بقوله:

هذا الذي سادوا به واستوجبوا دون الورىٰ التقديم والتصديرا
والشيء يخرج من معادنه فلا عجبـاً إذا سـادوا ولا منكـورا

* * *

واذا مضينا مع مدائحه ـ وهي كثيرة ـ نجده لايتعدىٰ بها مشايخه والنخبة من بني علوي الكرام إلا ما ندر، وقد نراه وهو يمدح أحدهم ينطلق بفِكْره ووجدانه إلىٰ تلك الرحاب الفسيحة يتفيأ ظلالها ويحلق في أجوائها ويقتطف من جناها الشهي ماتحيا به الأرواح وتنشط به الأجساد، ويتزود من ثمارها بما يغذي القلوب وينعش النفوس فتتولد البواعث والدواعي التي تنبثق معها تلك المشاعر والوجدانيات كما في هذه القصيدة التي يمدح بها أحد شيوخه الكبار وهو الحبيب عمر بن أحمد بن سميط، ويصف مع نشوة الفرح والسرور بيته الجميل في جزيرة مروني [بجزائر القمر] ذلك البيت المحاط بالمناظر الطبيعية التي تسحر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب وقد نزل به ضيفاً في يوم أغر من أيام شعبان سنة ١٣٩٣هـ فيقول:

إن ذا اليوم غرة في الزمان إذ نـزلـت فيـه بخيـرمكـان
تنظـر العيـن منـه كـل بـديـع مـن روابـي بهيجـة الألـوان
وأزاهيـر فـي الـربىٰ تتهـادىٰ بين ذي صفرة وأحمر قاني
أشـرقـت بهجـةً بقصـر منيـع حاطه القطب في ربىٰ باهاني[1]
عمـر بـن أحمـد بـن سميـط حـامـل الكـل ملجـأ اللهفـان
فتباهت به المغاني وطابت شـرفـاً بـاذخـاً علـىٰ كيـوان
أكسبتـه بسـاطـةُ الـوضـع فيـه رفعـةً فـوق محكـم البنيـان
قـد نعمنـا بـه كـأنـا نـزلنـا من زواياه في قصور الجنان
وأمـام العيـون منظـرُ حُسْـنٍ مـن جمـال الطبيعـة الـربـانـي
فترىٰ البحر كالصفائح بسطاً وبـريقـاً يعطيـك مـلء العيـان
نتعاطىٰ صفو الحديث ونحشو مستجـاد الحـديـث بـالآذان
فـي سـرور وغبطـةٍ ووِئَـامِ واحتشام من صفوة الإخوان
واحتجـاب عـن الـرقيـب وعيـن الـدهـر عنـا مغضـوضـة الأجفـان
في بقاع الإسلام من جزر القُمر حماها الإله من كل شاني
كيـف لا وهـي مهبـط الغـرِّ مـن أبنـاء طـه والعُـرْب مـن قحطـان
إن فيهـا كنـزاً مـن السـر لا ينفـك يبـدو آنـا لنـا بعـد آن
شملتنـا رعـايـة الحـب حتـىٰ لكـأنّـا بمـرقَـبٍ منـه دانـي
كـلَّ حيـنٍ تهمـي عليـه غـواد مـن أيـاديـه سحـة الهطـلان
نتـأيـا بهـا مـراتـبَ فتْـحٍ مثمـر بـالأمـان والـرضـوان

---

(١) باهاني، مصيف من مصايف جزيرة مروني بجزر القمر.

واجتلاء السر المصون وريّاً — من حُمَيَّا اليقين والعرفان
عمدتي في طريق أهلي ونوري — في سلوكي وحجتي ولساني

* * *

وطالما رأينا آثارَ نظراته العميقة وشهوده الصادق وتقديره البالغ لمشايخه تمده بقوة روحية ذوقية حينما يرسل قلمه علىٰ سجيته يختار مايشاء من المعاني والألفاظ الجميلة، ويسْبح مع الخيال الفكري من دون شطط وهو يمدحهم أو يثني عليهم أو يتحدث بلسان الحال عن المنازل والديار التي ينزلونها أو يحُلّون قريباً منها. أويصف البهجة والسرور، التي تطغىٰ علىٰ قلوب المحبين عند كلّ لقاء، كقوله في مطلع هذه القصيدة الترحيبية بالحبيب عمر بن أحمد بن سميط عند وصوله إلىٰ ممباسا في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٩٣هـ:

شرفٌ وحظ للبلاد عظيم — فليهنها سعد هناك مقيم
لو عبرت عن وجدها لتبخترت — وهوَتْ بروجٌ دونها ونجُومُ
هذا مدىٰ وعْي الجمادِ فهل يُرَىٰ — حد لأفراح العباد مَرُومُ
فالحمد للمولىٰ من الأعماق إذْ — وافىٰ بسَعْدٍ للحبيب قدوم
وصلٌ به زال العنا ودنا المنىٰ — والفتْح ينشر نقْعَه حيزوم

إلىٰ أن قال:

رفعت بدعوته الطريقةُ رأسها — واخضَرّ منها في البلاد هشيمُ
وزكَتْ بها الأعمالُ وانتشر الهدىٰ — صَفْواً وشاعَ العلْم والتعليم
وزكَتْ مشارِبنا وأينع زهرنا — وانقاد منحرِفٌ وصحَّ سقيم

أو كما قال رحمه الله.

وقد عرف زنجبار قبل ممباسا وهي تتمخطر زهواً:

في حمىٰ سيد الورىٰ وبنيه آل علوي العالين حساً ومعنىٰ
وابنهم حائز الخلافة عنهم فارعني لا مناداحة منك إذنا
هـو فـرع السـراة آل سُمَيـط من بنَوا للعلىٰ علىٰ النجم مبنىٰ
عمـر الخيـر مـن بـه نـور الله بـإفـريقيـا مجـاهِـلَ دكنـا
فانتشتْ زنجبار تخطر زهواً إذ لـه أصبحـت بـواء ومغنـىٰ
سيـد زاده التـواضـع قـدراً والتقـىٰ سؤدداً بـه عـز ركنـا
أخـذ الـدور فهـو للبـر يـولـي منـه عينـاً تـرعـىٰ وللبحـرعينا
ورویٰ سنـد الفضـائـل غضـاً سنـداً عـالـي السمـاع ومتنـا
تتلاقىٰ الرواد في ريف مغناه فيلقـىٰ كـل امـرئٍ مـا تمنـىٰ

* * *

لازلنا حول المنازل والدِّيار ومع الأبيات التالية وهي من مديحة أيضاً في الحبيب عمر بن سميط أنشأها بمناسبة قدومه إلىٰ [كمبالا] في١٥ صفر ١٣٧٦هـ وما أروع الصورة التي تجلت رؤآها البديعة في محتوىٰ هذه الترحيبية، وحق [لأوقندا] أن تتيه وتفخر بمقـدم هذا الإمام إليها وأن تهتز نشوىٰ لصوت البشير كما عبر عن ذلك سيدي رحمه الله في مستهل القصيدة بقوله:

نعـم هـزنـا صـوت البشيـر فـاقبلنـا سراعاً إلىٰ المقصود والمطلب الأسنىٰ
وشِمْنا سَناً يفترّ عن أُفُق الرضىٰ فخلنـاه إيمـاضَ المبـاسـم مـن لبنـىٰ
فَرُمنـاه لانلـوي علـىٰ غيـر وصلـه ومـن حيـثُ مـا دارتْ زجَـاجتُـه دُرْنـا
وأشخص ميقاتُ الكرامة نحْوَنا قـريبـاً فـأحـرَمْنـا لـديـه ولبينـا

وقرب منا الشوط من سيد الورىٰ فزرناه في شخص الذي حل ذا المغنا
هو ابن سميط فخر أفريقيا به وتسمو به الصفراء[١] من قبل والغنَّا[٢]

إلىٰ أن قال:

سما بِكِ [يوقاندا] بمطلع بدْرِهِ فخار وفضل عم قاصيك والأدنىٰ
فتيهي علىٰ كل المناطق واطربي فطير التهاني في رياضك قد غنىٰ
وجادك من جود الصلاح مُجلِّلٌ يـرب بـك الإيمـان واليمـن والأمنـا

* * *

لا زلنا مع الحمىٰ وسكانِ الحمىٰ، ذلك الحمىٰ المنيع الذي أمه، وهل ضمه وأوصله بالعارفين من أولي المقامات العالية؟ فهو يقسم بالذي رفع السماء وزانها بالنيرات أنه لزم فناهم، ذلك لأنهم مطمح آماله، فعقد علىٰ محبتهم عرىٰ قلبه، فطاب بذلك باله، وأحاله حسن القضاء إلىٰ حمىٰ أحدهم وهو بدر الكمال ومعدن الإفضال:

عمر بن أحمد منتقىٰ أهل التقىٰ مـــن آل علـــويٍّ خيـــار الآل
مُحيي طريقتهم وجامع سرهم وخليفــة الهـادي بغيـرجـدال
داني اللطائف وهو في أفق العلا وحظـائـر التقـديـس والإجـلال
فـي مشهـد لايستقـل بـوصفـه فكـري ولا تسطيـره أقـوالـي

* * *

(١) الصفراء: مدينة شبام.

(٢) الغنا: مدينة تريم.

لنقف هنا معه وقفة قصيرة ومع بعض المشاهد التي يسبح معها خياله أو تفكيره فيرىٰ أنه من العجائب أن يتفوه بما يعلو عن طوق مقدرته فيقول:

ومن العجائب أن أفوه بما علا ... عن طوق مقدرتي وسبح خيالي
لكن غوامرُ جودِهم تُلْقِي علىٰ ... شاطي صدور العارفين لآلي
ولقد ورَدْنا ماء مدين قصدُنا ... مستفتحين بغاية الإقلال
في منزل الرحمات من تلك القرىٰ ... [بالقُمْر] ذات الخِصْب والإقبال

* * *

وقد حاولنا إلقاء بعض الضوء علىٰ ما يبدو لنا من البواعث التي أُنشئت من خلالها هذه القصيدة أو تلك بقدر الاستطاعة، فيعجزنا أن كل قصيدة تحمل معها بواعثها ودوافعها الخاصة، ولا يتأتّىٰ أن تخضع لنظرة القارئ أو مستوىٰ فهمه وذوقه وانسجامه مع ما تنطوي عليه بعض المشاهد والرؤىٰ الذوقية، وبعض الألفاظ مجازاً كانت أو تشبيهاً أو توريةً أو غيرها من الألفاظ التي تخضع لفن الصنعة، فليس إلىٰ ذلك مَرْقَىٰ، فإن تجاوب معها فِكره، وتلاقت معها أحاسيسه ومشاعره، وإلا فإن أجمل صورة وأبلغ تأثير وأصدق تعبير نستخلصه منها: أنها تروي لنا سيرة قوم حُقَّ لهم أن تسجَّل سيرُهم ومحامدُهم شعراً ونثراً بأجمل الألفاظ وأصدق المشاعر وأرق الأحاسيس وأبلغ الكلمات.

* * *

مترجمنا والمديحُ النبويّ

إن في صناعة الشعر مجال خصب للخيال ومع سبح الخيال كثيراً ما يطغىٰ علىٰ البعض عند صياغته الإسراف في المبالغة أو الغلو كلما تعددت ألوانه وتنوعت أغراضه سواء منه شعر المديح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء أو غير ذلك.

ولكننا حينما ندخل إلىٰ حضيرة الخصائص النبوية ونقف بإجلال وإعظام أمام كمالاته صلىٰ الله عليه وآله وسلم التي لا تحصىٰ وشمائله التي لا تستقصىٰ تنقلب الموازين وتختلف المعايير مع الإحساس بالعجز والقصور عند الإقدام علىٰ مدحه أو وصف كمالاته وشمائله ولله در القائل:

أرىٰ كل مدح في النبي مقصراً وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذ الله أثنىٰ با لذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورىٰ

ورحم الله الإمام البوصيري حيث يقول:

دع ما ادعته النصارىٰ في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلىٰ ذاته ما شئت من شرف وانسب إلىٰ قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

فاترك ما قالته النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام واحكم بعد ذلك بما شئت من أوصاف الكمال اللائقة بجلال قدر نبينا وحبيبنا محمد صلىٰ الله

عليه وآله وسلم، واعزُ إلىٰ ذاته الشريفة ما شئت من شرف والىٰ علو قدره العظيم ما أردت من التعظيم والرفعة.

وإن مدحه صلىٰ الله عليه وآله وسلم من أجلِّ القُرَب، كيف لا وهو كما قال سيدي رحمه الله تعالىٰ:

والمصطفىٰ روح الوجود جميعه ... وبه استمدت أهله بركاتها

في قصيدته التي آستهلها بقوله:

الشمسُ ضوءُ الأرض يجلي حلكها ... ويرىٰ الورىٰ كي يبصروا آياتها
والبدر نور المدلجين مقدر ... كي تعلم السنوات في أوقاتها
والغيث غوث الأرض يحيي مَحْلَها ... رِفْداً وينبت منتقىٰ أقواتها
وكذلك الأفلاك زين للسما ... وبها اهتداءُ الخلْق في ظلماتها
والريحُ تنعش بالصبا أرواحَنا ... وتثير سحب الخيرمن هَبّاتها
والمصطفىٰ روحُ الوجود جميعِه ... وبه استمدت أهله بركاتها
لولاه ما خلقت ولولا نوره ... لم تبرز الأنوارمن مشكاتها
أيضاً ولولا أن طه رحمة ... للعالمين لعوجلت بفواتها
وهو المزيِّن خُلْقها وهو الذي ... نشل البرية من حمىٰ حمواتها
وهو المُروِّح باليقين قلوبنا ... وهو المروق كأس مشروباتها
وهو المثير بدعوة الإيمان في ... إحيائها ما منه أصل حياتها
وهو الذي أنشاه ربي نعمة ... عظمىٰ جميع الخلق في عطفاتها
لولاه ما عرفوا الإله ولا دعوا ... من يستجيب بفضله دعواتها
لولاه ما امتازوا عن الأنعام بل ... لغدت مفضلة لفقد نهاتها
لولاه ضلوا عاكفين غوىً علىٰ ... أصنامهم يا قبح معبوداتها

لـولاه مـا صـامـوا ولا صلـوا ولا حجّـوا ولاجـادوا ببـذل زكـاتهـا
لـولاه مـا واسـوا أخـا قِـلٍّ ولا ذا حـاجـة مـا زال فـي حسـراتهـا
لـولاه مـا عـزّوا ولا انتصـروا ولا دانـت لهـم أمـمُ الـورىٰ بجهـاتهـا
لـولاه مـا عُـرِفَـتْ مـزيـةُ مسلـم يشأىٰ الملائك في علىٰ درجاتها
لـولاه مـا انتشـرتْ علـومُ الـديـن بيـن العـالميـن ولا جنـوا ثمـراتهـا
لولاه ما عُمرتْ مساجِدُ بالدعا لله فـي الـروحـات مـن غـدواتهـا
لـولاه مـا قـامـتْ جمـاعـاتٌ بهـا كـلا ولا بكـرت إلـىٰ جمعـاتهـا
لــولا كتـاب جـاءه مـن ربـه يهـدي بنـور بيـانـه طبقـاتهـا
متكفـل بصـلاحهـا فـي عيشهـا ومعـادهـا وجمـوعهـا وشتـاتهـا
نـور مبيـن لا يضـل مـن اهتـدىٰ بهـداه يشفـي النفـس مـن غـلاتهـا
جمـع اللطـائـف والظـرائـف والعـوارف والمعـارف مـن جميـع صفـاتهـا
بفــواصــل عــربيــة تعنــو لهــا لُسْنُ الفصاحة من جميع لغاتها
وعلىٰ التنزل في الكلام وصفتها هيهـات أن تُـدْرىٰ حقيقـة ذاتهـا
إذ كـان معجـزة الـدهـور وعلمُـه يسـري إلـىٰ الأجيـال فـي نشـآتهـا
يستصبِحُــون بنــوره وبحكمــه يقضون إن عجزت دهاة قضاتها
ومتىٰ اهتدوا لعجيبةٍ فانظر تجد فـي طيّـه مكنـون أعجـوبـاتهـا
من ظاهر الدنيا وفي الأخرىٰ فقد أنهـىٰ بكشـف لثـام مَخْبـوءاتهـا
وبحسبــه عظــة وعلمــاً أنــه من قول محي الأرض بعد مواتها
فأَجِلْ سوابق فَهْمِك المكرور في جَنَبـاتِ حِكْمتِـه وفـي بـاحَـاتهـا

* * *

ومدحه صلىٰ الله عليه وآله وصحبه وسلم يتميز بطابعه الخاص، لافرق بين ماقيل منه في حياته أوبعد انتقاله إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، لأن مدائحه خالصةٌ من الأهواء والأغراض الدنْيوية، مصدَرُها الإيمان، ودافعها حبُّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم ومن نبع الحب وعمق الإيمان تنطلق قصائد المديح.

وتنوّع الصور الشعرية والشاعرية في حياة الشاعر أوالأديب هي معيار شعره ومقياس أدبه، ولم يكن سيدي رحمه الله شاعراً محترفاً، فقد أعدّ نفسَه لطلَب العلْم وبثّه، ووهب نفسه للدعوة ونشرها، ولم تكن في موهبته الشعرية ميزة يكمل بها نقصاً في الجانب العلمي في حياته، ومن هذا المنطلق لا نلبثُ أن نصل إلىٰ النتيجة المتوقعة ونقف أمام الصورة المعبرة التي يدخل بها الداخلون إلىٰ حضرة القرب منه صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ومن موقع التعظيم والإجلال ومن نبْع الحبِّ الصافي تتدافع مشاعرالحب والوجْد يستهل بها هذه المديحة فيقول:

كَلَفي برامة والنقا والضال ... أوهىٰ محاولتي وبلبل بالي
وأريجُ نَسْمتها إذا ماضاع لي ... وهناً أطار مشاعري وخيالي
فأصَخْتُ تلقاء الهواتف مسمعي ... ونضَوت من عقد النوىٰ سِرْبالي
حباً لها لا للمكاسب واللهىٰ ... من مثل مهد الوحي والإنزال
ولقد يَعِنُّ مثالها لمخيلتي ... فأهيم من طرب لخيرِ مثال
يحكي اللوامع من معالم طيبة ... والنازلين بهاتك الأطلال
دارٌ من الفردوس إلا أنها ... في الأرض ذات حدائق وظلال
والقبةُ الخضْراء شامخةُ الذرىٰ ... ينشقّ عنها نورها المتعالي
كالبدْر من حيثُ التفتَّ رأيتَها ... وشعاعُها لصدىٰ النواظر جالي

حيثُ النبوّةُ ساطعٌ برهانُها متوقدٌ حتىٰ الضراح العالي
حيث الكرامة والزعامة والهدىٰ ومنىٰ النفوس ومعقد الآمال
حيث الرضىٰ تهمي عوارفه علىٰ كلِّ الوفود بجُوده المِهْلال
حيث المآدِبُ من ضيافة أحمد جُلّىٰ لأول ركبهم والتالي
حيث المنىٰ مطلولةٌ عذَباتُها مفتوقة بنوافِح الإقْبال
حيث المواجهةُ التي من نالها قد نال وأيم الله خيرَ منال
ماذا بذلتَ فنلتَ هذا المبتغىٰ ويقلّ فيه الروح بلْهَ المال
أتراك أهلاً للوقوف تجاهه تهدي السلام إلىٰ المقام العالي؟
لمن انتظمتَ مع الملائك حوله والمرسلين بحرمةٍ وجلال
ياقوتة الأزل المحجبة التي شغف الورىٰ بجمالها المتلالي
باء التعرف نقطة العرْفان حاء الحلم راء الرحمة المِخْلال
ما زال في طيٍّ الغيوب وسره للرسل في أدوارهم متوالي
هو أولٌ في الأنبياء وإن غدا متأخراً في البعث والإرسال
حتىٰ إذا ما آن إسعادُ الورىٰ ببروز جوهَره الكريم الغالي
نادىٰ بشيرُ اليُمْن في الأكوان أن قد هَلّ من فاران خير هلال
فكسىٰ الوجودَ نضارةً وبشارة بلغت كرامتُها إلىٰ ميكال
وتنورت بولاده أم القرىٰ والبيت والحرمات والأوصال
حتىٰ إذا أمسىٰ ثُواه بطيبة طالتْ علىٰ الأكوان كل مَطَال
وبه غدت حَرَماً ونافت مسجِداً لولاه لم يُقصَدْ بشد رحال
وجلا بنورالحق والذكر الذي أوتيه جنح الشرك والإضلال
وأقام قسطاس العدالة والتقىٰ ساوىٰ الرعية فيه بالأقيال

في ضوء واضحة المعالم ليلها — كنهارها تأبىٰ غلوَّ الغالي

دارت مع المَلَوَيْنِ واتخذت لها — جند الحقيقة رائد استقبال

صلحت علىٰ منوالها الدنيا كما — صلحت بها الأخرىٰ علىٰ منوال

سمحاء لاءمت العقول فلم تضق — عن حل حادثة ولا إشكال

يرعىٰ بها الراعي وفي فسطاسه — يقضي بها القاضي ويولي الوالي

جمعت خلاصات الشرائع قبلها — وتفردتْ بالفتح و الأنفال

رعت الأنام بها وسادتْ أمة — كانت رِعَاء الشآء والآبال

فغدت بخير المرسلين وهديه — رمز العلوم ومضرب الأمثال

منها أساطين الهدىٰ وحماته — وضنائن الأقطاب والأبدال

وبها عباقرة الفنون وصنعها — ونوادر الحكماء والأبطال

وبها مصابيح الأمان لأرضنا — فمتىٰ توارت آذنت بزوال

لو أدرك الكفار مأمنهم به — من ذلهم كانوا لديه موالي

لكنها حِكَمُ السوابق ميَّزتْ — صِنْفَي يمينٍ في الورىٰ وشمال

كلٌّ لما حكمَتْ به يسعىٰ فيا — غوثاه من درك الشقا يا والي

بمن انتميت الىٰ علاه بنسبة — زانت قلائدها بخير رجال

لحقوا به وتسمّتوا آثاره — فقضوا بهمتهم ذمَام الآل

من آل علوي الكرام أَرُومَتي — وبهم إليه توسلي وسؤالي

ولقد قصدت إلىٰ حماه مؤملاً — رحماه باسطَ ما عليَّ ومالي

أدعوه ياجَدّاه يا أحنىٰ الورىٰ — عطْفاً علىٰ الأرحام والأنجال

أشكُو إليك من الذنوب فقد نأت — بي عن بلوغ مراشدي وكمالي

وفتورإحْسَاسي ووهْنِ عزيمتي — وتقللي من صالح الأعمال

وبقيت في شُعَب الهوىٰ متحيراً أخشىٰ مساورة العدو القالي

فانظر إليَّ بنظرة أَبَوية نبَوية وإلىٰ جميع عيالىٰ

وأحبتي ممن ودادُك ذخْرُه وحملت منه وصية الإيصال(١)

وارفع بضبعي من مزالق خطتي ياجَدُّ وانشُلْني من الأوحال

وأهمُّ ما أرجو صلاح سريرتي وكمال إيماني وحسْن مآلي

وسلامةً من شر ذي شرٍّ ومن آلام صدْر سببت أوجالي

والإنتداب لنشر دعوتك التي نشأت [بكمبالا] و[أرض مبالي]

فهناك أحبابٌ لهم صلةٌ بكم أدلَتْ بصاحبِك الجليل [بلال]

فعليك صلىٰ الله ما ابتدرت إلىٰ مغناك زوار علىٰ أَرْتال

من ناهبات الدو في إيغالها أو جائبات الجو في إرقال

وسلامه يغشاك كل دقيقة وعلىٰ صحاب آزروك وآل

ما صيغَت الأمداحُ فيك وحُبِّرتْ تحكي عقودَ جواهر ولآل

* * *

إن باب المديح مفتوح علىٰ مصراعيه ولكل فيه وجهة هو موليها ولا أجمل ولا أصدق من أن تظل المواجيد مرتبطة بالصورة المعبرة بكل جلاء عن الخواطر التي يختزنها الشاعر بداخله لامجرد تخيل، فتبرز من خلالها المعاني الدالة علىٰ صدق المحبة وعمق الود وقوة التعلق بالمحبوب الذي لا يشغله عنه عرض زائل أوغرض دنيوي فضلاً عن أن يكون هذا الحب

---

(١) من أوصاه بإيصال سلامه للرسول الأعظم صلىٰ الله عليه وآله وسلم عند مثوله أمام الحضرة الشريفة.

والتعلق بالجناب المحمدي، فإن أقل مايستطيع أن يعبر به عن المكنون في فؤاده ليحلق به في أجواء الخصائص والصفات النبوية أن يتجه بكليته في ساعة من ساعات الصفاء كما هو حال سيدي وقد طاب له فيها أن يقول:

شغَلْتُ فؤادي بالمديح لأحمدا ... إذا اشتغل الأقوام بالكسب والجِدَا
وأهـديتُـه منـي عقـود أواصِـرٍ ... منضـدةٍ يسلـو بهـا كـل مـن شـدا
إلىٰ الطيّب الطُهر الرؤف بعثتها ... تمثـل وُداً فـي الفـؤاد تـوطـدا
وليس بطوقي ما يكافىء قدْرَه ... سوىٰ الشكروالعرفان نفسي له الفدا
أشـارك فيـه الكـائنـات لأنهـا ... لمقـداره العـالـي أقيمـت لتَشْهـدا
وكانت له طوعاً يشير فتحتذي ... إشارتَه فأنشد من الشمس مابدا
وسل قمر الداجي إذ انشق طائعاً ... لدعوته نصفين كي تؤمَنَ العدا
وعن سُحُبِ الآفاق كيف تبادرت ... بإيمائة تروي الصحاصح والكدا
ثماني تهمي فارتجىٰ الصحْبُ كفَّها ... فأعْذَرها فانجابت السحْبُ حُفّدا
وأي احتفال في السماوات ليلـة (م) ... العروج من الأملاك والرسل قد غدا
وقـوفـاً صفـوفـاً ينظـرون جمـالـه ... وشـأواً بـه فـي العـالَميـن تفـردا
إلـىٰ رفـرف القـدس استمـرَّ رُقيّـه ... وفي مستوىٰ التقريب قد سمع الندا
وشـاهـد مـولاه بعينيـه جهـرة ... فأعظِمْ به فوق المقامات مشهدا
فمـا فـوقَـه فـي القَـدْر إلا إلهُـه ... ومن نحْوِه تقريبُ كل من اهتدىٰ
ومبعثـه فتـحٌ لمغلـق طلْسَـمِ ... المعـارف والتـوحيـد حـلَّ المعقـدا

* * *

إن الذين يستجيبون لنداء الروح الصافية وإلهام النفوس الزاكية وتوقدات الفكر الثاقب، يضعون مقياس نبوغهم ومستوىٰ علمهم ومعيار أدبهم فيما نجده من آثارهم المتنوعة قلّت أو كثرت، ونرىٰ في ذلك الالتزام بالاعتدال عند صياغتهم للشعر في كل تشبيه طريف أو استعارة فنية أومجاز محْكم أو لمحة وجدانية أو رمز إلىٰ غرض معين، سواءً في شِعْر المديح أو الرثاء، ففي كثير من الأحيان يكون الدافع إلىٰ المدح هوالدافع إلىٰ الرثاء، ونعني به: دافع المحبة أو صلة المودة والصحبه أو القرابة، إلا أن الحكم ليس عاماً، فقد تكون هناك دواعي وبواعث أخرىٰ بعيدة عن هذه البواعث، ولكن لايكون لها قوة الإحساس عند ذكر المحامد والفضائل أو التعبير الصادق عن مشاعر الأسىٰ والحزن.

❋ ❋ ❋

شعر الرثاء عند المترجم

وسنرىٰ بعد قليل في وقفـات متعددة مع بعض المراثي لسيدي رحمه الله وهي تفيض بمشاعر الحزن والأسىٰ علىٰ فقد بدورٍ توارَتْ عن مدىٰ الأنظار، وأصبحت ذكراها في ذمة التاريخ بعد أن وهبت حياتها للعلم ونشره، ونجوم أفلَتْ وقد كانت مشاعل مضيئة يهتدي بها الحائرون، ودعاة بذلوا أنفسهم لنشر الدعوة والتبليغ والذَّود عن الشريعة الغراء والسعي في الاصلاح بين الناس:

من القوم الأولىٰ مروا كراماً　　　وأبقـوا صـالحـا وزكـوا مـآبـا

ومـا بـالـوا وقـد عمـروا مـآبـاً　　　إذا دنيـاهـم أمسَـتْ خـرابـا

ومنهم فقيد العلم والصلاح العلامة الحبيب الحسن بن اسماعيل بن الشيخ أبو بكر بن سالم رحمه الله.

وقد صاغ سيدي هذه المرثاة يعبر فيها عن مدىٰ حزنه علىٰ من:

فقدت به عينات عالمها الذي　　　أحيـا معـالمهـا بعـزم نبيـل

وبنىٰ رباط العلم فيها مُشْرَعاً　　　يشْفي بريِّ هُداه كلَّ غليل

واستهلّها بقوله:

يا عينُ جودي بالدموع وسيلي　　　حزناً علىٰ الحسن بن إسماعيل

وابكي علىٰ خلف الخلا ئف من بني　　　فخـر الـوجـود ودرّةِ الإكليـل

أسفاً علىٰ نجم الهداية في رُبىٰ　　　[عينـات] آذن فجـأةً بـأفـول

لله مــن نبــأٍ فــزعْــتُ لــه إلــىٰ ... ريْــبِ الظنــون وغمــرة التخييــل
ما [لاقنا] شبح الخطوب هنيهة ... فــرمــىٰ بــرزءٍ فــي البــلاد جليـل
ما كاد يندمل الأسىٰ مما جرىٰ ... بــالأ مــس حتــىٰ عــاد فــي تعليـل
كــرت بغــارتهــا علــىٰ الــوادي مــن الطــرفيــن يــا لعشيــرتــي وقبيلــي
نُـوَبٌ علىٰ نُـوَبٍ وأعظمها أسىٰ ... فقــد الــرجــال معــاقــد التــأميـل
الحــامليــن مشــاعــل التبليــغ فــي ... أقــوامهــم بــالنصــح والتــدليـل
العــامــريــن معــاهــد الأســلاف بــالطــاعــات فــي صبــح لهــم وأصيـل
الحــافظيــن طــريقــة الأجــداد أن ... تُمْحَــىٰ وتغمــزهــا يــد التضليـل
العــاكفيــن علــىٰ المــدارس عَنْــوةً ... ومحــاضــر التهــذيــب والتكميـل
تتقلــص الأزمــان منهــم واحــداً ... عــن واحــدتتــرىٰ بغيــر بــديـل
(فإذا الخبام سوىٰ الخيام) وأهلها ... صرعىٰ النَّوىٰ والحطِّ والترْحيل
فقدت به [عينات] عالمها الذي ... أحيــا معــالمهــا بعــزم نبيــل
وبنــىٰ ربــاط العلــم فيهــا مشــرعــاً ... يشفــي بِــرَيٍّ هــداه كــلّ غليـل
أرضــىٰ بــه الشيــخ الكبيــر وشــاده ... مجْــداً علــىٰ مجْــدٍ هنــاك أثيـل
غــذَّىٰ نــواشئهــا وراض كهُــولهــا ... أكْــرِمْ بجــدٍّ نــواشــئٍ وكهــول

* * *

وحق للعين أن تسيل بالدموع وأن تجود بالبكاء أسفاً علىٰأفول نجم من نجوم الهداية في سفح عينات، ولأن فقد الرجال خسارة لاتعوض فهو هنا لا يستطيع أن يخفي حزنه وتلهفه عليهم فيقول :

لهفي علىٰ القادات أعلام الهدىٰ ... لهــف يهيّــج عبــرتــي وعــويلــي
ما إن رددتُ الطرْف في آثارهم ... إلا علــىٰ رســم ـ وقفــتُ ـ محيـل

حنّت معاهدُهم عليهم حسرةً ... كالجِذع حنّ لفقْدِ خير رسول

وتيتمت سير الأماجد بعدهم ... وسطا على الحرمات كلُ دخيل

أين المجاهدَة التي عافوا لها ... طعْمَ الكرىٰ شوقاً لخير مقيل

بل أين أخلاق لهم من طيبها ... يجلىٰ الصدىٰ ويبل كل عليل

أين التواضع والسماحة والندىٰ ... والإتزان وحمل كل ثقيل

أين الوجوه المسفرات جلالةً ... من جَلْوة الإخلاص والتبتيل

* * *

وفيما هو يتساءل ويشير من خلال هذه المرثاة الىٰ مجاهداتهم التي عافوا لها طعم الكرىٰ، وإلىٰ أخلاقهم التي بطيبها يجلىٰ صدىٰ القلوب، وإلىٰ تواضعهم وسماحتهم ونداهم، وإلىٰ وجوههم المسفرات جلالة من جلوة الإخلاص، يعود فيشيرمرة أخرىٰ إلىٰ من اجتمعت فيه كل هذه الخلال، ويشير إلىٰ تمسكه بحبل مودتهم بقوله:

هذي نماذج من خلالهم التي ... كان الفقيد لها أعز كفيل

إن يرحلواعنا فقد حَمِدوا السرىٰ ... ومضوا بذكر في الأنام جميل

فوفاةُ ميّتهم له زلفىٰ ومن ... يمتع فمرحمَةٌ لهذا الجيل

ولقد تمسكنا بحبل مودة ... منهم بحبل محمد موصول

* * *

وفي المرثاة التالية التي رثا بها الحبيب مصطفىٰ بن أحمد المحضار لم يغلُ في تصوره لغياب ذلك العلم الذي توارىٰ عن مدىٰ الأنظار، وخضم الجودّ الذي يرتوي العطشىٰ من معينه وقد غاض، وأفول بدر كان يسري الساري بنُوره، ولم يبالغْ وقد امتدحه بمجموعة من الفضائل التي هو جدير

بها، وإن كان قد اعتمد في تصويرها وبيانها علىٰ ماتمليه الصناعة الشعرية في مثل هذا المقام.

وبالجملة فإننا نجد هذه المرثاة علىٰ قصرها ترسم لنا كل الصفات والمثل العليا التي يتصف بها العظماء، ولقد كان الحبيب مصطفىٰ المحضار منهم، فهو كما قال سيدي:

علمٌ تواریٰ عن مدیٰ الأنظار ... من بعد مِلْء السمع والأبصار

وخضمْ جودٍ ترتوي العطشىٰ به ... قد غاض تحت صفائح الأحجار

ومنوَّر القسمات يأفُل بدْرُه ... وبنوره قد كان يسري الساري

يكفي النفوس أسىٰ وحزناً أنها ... فجعت بمصرع مصطفىٰ المحضار

رب المكارم والمراحم والندیٰ ... محيي الطريقة عامرالآثار

كان الملاذَ [لدوعن] وثمالَه ... وربيعَه في المحْل والإقتار

يختالُ في حُلَل الصفاء بأُنْسه ... وعلىٰ البلاد يجرُّ ذيل فَخَار

ألفىٰ الغَنَاء به عن الضنك الذي ... أفنىٰ النخيل وهدّ كل عَمار

لما غَدَوا كالهيم آواهم إلىٰ ... قور من التسليم ذات قرار

أنهىٰ فضيتهم وداوىٰ بؤسهم ... ببلاسم التفويض والإيثار

وكذلك العظماء دون ثباتهم ... وذرىٰ معاقلهم يهون الطاري

يا نكبة الوادي بموت وَلِيِّه ... مأوىٰ العفاة ومكرم الزوار

تلقاهمُ من حوله وكأنما ... نزلوا علىٰ رِضْوانِ أكرَم دار

بموطّأ الأكناف بسّام اللّمىٰ ... سهل الخليقة شامخ المقدار

بل نكبة الإسلام في عليائه ... وعرىٰ التواصل فيه والآصار

إلىٰ آخر ما جاء فيها.

وإذا تتبعنا المظاهر التصويرية في هذه القصيدة نجد أنه رحمه الله تعالىٰ قد اعتمد فيها علىٰ المشاهدة الحسية وليس علىٰ الخيال لصلته الوطيدة بهذا الإمام العظيم وتعلقه به ومعرفته بطيب خلاله، وكريم أخلاقه، وسيرته الحميدة.

* * *

وعندما نجد صدق المشاعر النابعة من الأعماق من خلال مرثاته في الداعية الشيخ عبد الله بن محمد بارعيدَهْ الحَسْنِي العَكْبري أحد مشاهير الدعاة في كينيا، المعبّرة عن تلهفه علىٰ خفوت صوت هذا الداعية وقد بلغت به عزماته إلىٰ الغابات والمدن والقرىٰ في كل من [تنقانيكا ــ تنزانيا ــ وكينيا وقطْر أوغندا] وعندما يبكي علىٰ هذا الداعية بعبرةٍ حرّىٰ ودمع هتون، فإنما يبكي علىٰ ركن من أركان التبليغ قد هُدّ، وحق له أن يبكي ويتلهف حزناً علىٰ علم من أعلام الإسلام. وقد لمس تقاعس العلماء بحَيْدتهم عن الدعوة رغبةً منهم في التنعم برفاهية الحياة وسكونها، في حين وهَبَ هذا الشيخُ الجليلُ عُمُرَه في الدعوة مغْمِضاً عن كل غالٍ ورخيصٍ من متَع الحياة الدنيا وزينتها..

ونراهُ في طَيّات هذه المرثاة قد عَدَل بعض الشيء بالشكوىٰ عن التأبين لإحْساسه بما حل بالمجتمعات الإسلامية في هذه البلاد، من نكبات ومن تخلف ومن فتن أدّت إلىٰ التهاون بالدين، وقد أهاب بكل صوته منذراً بني قومه لما لهم من سابقة في نشر الدعوة وحمايتها، فلم تصْدُق ظنونُه فيهم وقد فاتهم وعْيُ الكمال، فخلطوا بين الغث والسمين فيما فيه صلاح أمور دينهم ودنياهم.

كيف لايشعر بالأسىٰ والألم حينما يذكر نفراً ممن مضوا ويتذكر ما قدّموه للإسلام وأهله من أعمال مبرورة، وحينما تجابهه نُـوَبُ الزمان التي تجيش لها مراجل غيرته علىٰ ما حلّ بالإسلام وأهله بعد أن ذهب أولئك الذين تهتز النفوس لذكرهم، لإنهم كانوا مثالاً للعز والتمكين والكرم، عظماء في التاريخ والتدوين.

أمّا وقد خلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا كلّ شيء وانصاعوا مخطومين لشر القرناء، فهاجت مراجل غيرته كما هاجت عَـبْرته وشجونه لفقد جاره وصديقه الحميم فحُقّ له أن يعبرعن كل ذلك بقوله:

رمَـتِ الحـوادثُ مـن وراء كميـن   جَاري فهاجتْ عَبْرتي وشجوني
من بعدما علقت بنصف قوامه   فـانقـاد للمقـدور بضـع سنيـن
لطُفَــتْ منيتــه فسلّــت روحَــه   سل الغـدِيـرة مـن خـلال عجيـن
مـا بيـن طـرفـة نـاظـر ومـردّهـا   فــإذا بهــا تــرقــىٰ لعليّيــنِ
ركــن مــن التبليــغ هُــدَّ فيــالــه   مــن ركــن تبليــغٍ يُهَــدُّ ركيــن
لهفي علىٰ صوت مدوٍّ في الحمىٰ   بـالحـق أمسـىٰ خـافتـا فـي الطيـن
صوت الفتىٰ الحسْني[1] من بلغت به   عـزمـات دعـوتـه إلـىٰ [نيـاسيينـي]
من حيثُ لاتجد الدعايةُ مدخلاً   بســوىٰ مغــامــرةٍ وحُسْــن يقيـن
طلـب العلـومَ مشمّـراً عـن أهلهـا   بــالبحْــث والتــدريـس والتلقيـن
ودعــا وعلّــم نــاصحــاً وأنــالَــهُ   مــولاه مــن علْــمٍ لــديــه مصـونِ

(١) الحَسْنِي، نسبة لقبيلة مشهورة في بادية حضرموت، وليست نسبة إلىٰ الحسن بن علي عليهما السلام.

لـم يحتكِـرْ علمـاً ولـم يطلُـبْ بـه — رَسْمـاً ولـم يجنـح بـه لمُجُـون

بـل بثّـه بيـن الطـوائـف لـم يُمِـزْ — مـا بيـن أحمـرِ سِحْنَـةٍ أوجُـون

فـي ذمـة التـاريـخ يـا ابـن محمـد — مـا نلـت مـن تعـب ومـن تمحيـن

أرملْـتَ للتبليـغ أهلـك، شـاهـداً — لك كلُّ سهل في الورىٰ وحزون

ووهبْتَ نفسك للدعاية مغمضاً — عـن كـل عـال فـي التـراب ودون

كم صدْتَ في الغابات من نفرٍ غدت — فـي معقـل للمسلميـن مكيـن

هـذي [وديقـو] وهـي أقـرب حلـة — تجنـي قطـاف غِـراسـك الميمـون

[وبتنجـانيكـا] مـن جهـودك جبهـةٌ — صُـدّت تجـاه الغـيِّ والتـدشيـن

وبقطر [أوغندا] كشفْتَ مخارقاً — عـن دولـة الصُّلبـان والمشيـن

حتـىٰ عنـتْ لـك رهبـةً رُهْبـانهـا — واستسلمـتْ طَـوعـاً لأشـرف ديـن

ديـن العـدالـة والنـزاهـة والحجـىٰ — ديـن بـأنـواع العلـوم بطيـنِ

كُنْـتَ النصيـرَ لـه وحـامـلَ بنْـده — فـي كـل نـازلـةٍ وليـثَ عـريـن

هذي الفضائل كان مضطلعاً بها — فقـدتـه خيـرَ معلـم وأميـن

في الباقيات الصالحات وأجْرُها — هـو غيـر مقطـوع ولا ممنـون

وتقـاعـس العلمـاء عنهـا حيـدةً — وتنعمـاً بـرفـاهـة وسكـون

ووراءهـم عهـدٌ ومسـؤوليـة — عـن جهـل كـل مكلـف مغبـون

فـي يـوم تـرتعـد الفـرائـصُ خشيـةً — مـن هفْـوة التقصيـر والتهـويـن

كم في البوادي من جهول حائر — بل في القُرىٰ وعواصم التمْدين

أبكـىٰ لهـا الشيـخ العفيـف بعبـرة — حـرّىٰ ودمْـعٍ فـي الخُـدود هَتُـون

حزناً علىٰ الإسلام في أعْلامه — والـدمْـع يُبْـرِد غلـة المحـزون

فانزِلْ علىٰ كرم الإله مجاوِراً ... للمصطفىٰ وخدينَ حُورِ العين
واذكُرْ لخير الخلق حالَتَنا وما ... أوهىٰ شريعتَنا من القانون

* * *

نُوَبٌ لها جاشت مراجلُ غَيْرتي ... فعدلتُ بالشكوىٰ عن التأبين
علماً بهون مصاب فرد واحد ... لكن مصاب الدين للمليون
وأشرّ خلق الله من باع الورىٰ ... والمؤمنين بدِرْهَمٍ مَأْفون
ذاك الذي جاء الحديث بأنه ... في الإثم عدل المرتشي الملعون
هو هادم للدين ويح مقيمه ... حكماً علىٰ المرحوم والمسكين
ولقد أهبت بكل صوتي منذراً ... قومي فلم تصدق هناك ظنوني
إذ فاتهم وعي الكمال وخلطوا ... ما بين غث أمورهم وسمين
وهم سنام المجد والسباق في ... نشر المكارم من قديم قرون
وبمهجتي نفر بإفريقيا مضوا ... كانوا مثال العز والتمكين
كرماء تهتز النفوس لذكرهم ... عظماء في التاريخ والتدوين
فتلاهم خلفٌ تنكّب عنهم ... وانصاع مخطوماً لشرٍّ خَدِين

* * *

وعبائر الرثاء كما قلنا سابقاً عندما يكون لها ارتباط صادق بأعماق النفوس وأغوارها فإنها تستطيع أن ترسم مابداخلها من أحساسيس الحزن والأسىٰ في كل جزء من جزئياتها، وتعطيها صفة أو لوناً خاصاً تبرز من خلاله العبارة في أدق صُوَرها وأَجْلىٰ معانيها، وتحدد الواقعية الدالة علىٰ مكامن الحزن ونبرات الأسىٰ لفقد عزيز وخاصة عندما يكون الفقيد من العلماء

العاملين والدعاة المخلصين والوعاظ الصادعين بكلمة الحق بين الورىٰ، والدالين علىٰ سبيل الهداية والرشاد، كمثل السيد العلامة الجليل سالم بن علوي خرد طيب الله ثراه، فقدره عند سيدي بالمكان الذي يليق به، ومنزلته بالدرجة العالية التي يستحقها، وعندما هزه الأسىٰ وغمر نفسه الحزن لموت هذا الفقيد العزيز جاءت هذه المرثاة ترجمة معبرة عن مدىٰ تأثره فيقول:

آن أن نسكب الدموع السواجم ونطيل الرثاء من فقْدِ سالمْ
ابن علوي الأغر من آل علوي طيِّب الخيم شمَّريُّ العزائم
باذل الروح في ارتياد المعالي باجتهاد مُجدٍّ وعزم صارم
مَن تَلقَّىٰ العلوم عن أهلها من أهله السادةِ السّراةِ الأكارم
وتقفّىٰ آثارهم وروىٰ من نشْر أخبارهم شذيَّ اللطائم
قد فقدنا بفقده أيَّ داع مخلص عامل بما هو عالم
وغيور علىٰ حمىٰ الدين أن ينتهك المجرمون منه المحارم
وخطيب بالحق يصدع ما بين الورىٰ لايخاف لومة لائم
وأديب يجلو ثنايا المعاني في قوافيه باهيات المباسم
تتأيّا العيون طلعته الغراء بذكرىٰ ميلاد زين العوالم
في ربيع وكل موطن خير تتبارىٰ فيه الهِجَانُ الرواسم
فإذا قام مادحاً لعلاه شنف السمع بالحلا والتراجم
وإذا ما شدا [بيا عالم الحال][1] استثارالشجون من كل واجمْ
لست في عرض مَالَه من مزايا فهو كالنجم لاينال لرائم

---

(١) يعني قصيدة الإمام الحداد [يا رب يا عالم الحال إليك وجهت الآمال].

كان فينا حيناً جمال نوادينا وريحانة لكل منادم
رفعة في تواضع وجلالاً في اعتراف ورقة ومراحم
ماظننا . . . .[١] الذي كان للملذات هادم
في أشد الظروف توقاً إليه ولأمثاله الهداة القماقم
وقليل في حقه ما عملنا فعلىٰ مثله تقام المآتم
في زمان به تداعت علينا أمم الأرض عربها والأعاجم
في زمان به تنكرت الأوضاع واستهوت النفوس المناجم
في زمان أضحىٰ علىٰ الألسن الدين به واكتفوا بوضع المراسم
فتولىٰ عنا حميد المساعي عاطر الذكر نحو مولاه قادم
تاركاً فقده أسىً في حمىٰ البيت ومن جدة إلىٰ حيد قاسم
وبكت فقده تريم التي نيط بأفنائها عليه التمائم
وبكته مساجد كان فيها واعظاً طول دهره ومعالم
فعزاء لرهطه وبنيه وذوي وده وكل الحضارم
وإلىٰ الله نلتجي وهو أهل العفو للمذنبين أرحم راحم
أن يحل الفقيد جنات عدن مع أهليه في النعيم الدائم
ويرينا سر الرعاية في أبنائه الغر تحت كنز المكارم
ويعم الجمع المبارك هذا بجميل العزاء وحسن الخواتم
بالشفيع الوجيه أشرف عبد ولباب اللباب من آل هاشم
صلوات الإله تترىٰ عليه وعلىٰ الآل والصحاب الأعاظم
ما بكىٰ تائبٌ وأشجَتْ حَزِيناً في ذرىٰ الأيك صادحاتُ الحمائم

---

(١) بياض في الأصل.

أما مرثاته في فقيد العلم والصلاح مربي السالكين الإمام الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري فهي في دقة التعبير واختيار الألفاظ ذات المدلول الواضح البين تعكس عمق الإحساس بفداحة الخطب وعظم الرزية مع صدق التعلق والمحبة التىٰ تربطه بذلك الإمام العظيم فتأتي تلك الألفاظ المختارة الواحدة منها تلو الأخرىٰ، لا شطط فيها ولامبالغة ولا حشو ولا تهويل، ولكنها تظهر خصائص هذا الإمام الذي آفتقدته صروح العلم ومعاهده والذي استحق بها التكريم حياً وميتاً.

نعود فنقول: إن ذكرهذه الخصائص والخصال الحميدة لم تأتِ عفو الخاطرولم تبرز من فراغ، وإنما هي مشاعر صادقة تجلت في ثنايا هذه المرثاة التي استهلها بقوله:

أَلْفيتَ ما ترثىٰ به وتبوح	جللاً كهذا فَلْيَكُ التبريح
ياعظْمَ مرزيةٍ علىٰ دين الهدىٰ	فعليه من لبس الحداد مُسُوح
فَقْدِ الإمام الشاطري ومن زكَتْ	للعلم أركانٌ به وصروح
بكت المعالم في [تريم] وأعولت	وغدا [الرباط] علىٰ أبيه ينوح
وتوحشت أرجاؤه وتنكرت	لفراقه أفناؤه والسُّوح
وَخَبَتْ مدارسه وراحت بعدها	في الحي [روحات] بهن يروح
يا حُرْقة الطلاب بعد إمامهم	من مثله بَرٌّ بهم ونصوح
بل أين يُلْفىٰ مثله خلفا له	إن الزمان بمثله لشحيح
فقدوا الذي تسعىٰ الىٰ مَحْياه مِنْ	طلاب أكناف البلاد سُرُوح
فقدُوا مربّي الطالبين يعمّهم	من عطفه التأنيس والتفريح
ما إن يَخِرَّ بمسمع تدريسه	إلا وقابلها هناك فتوح

فقـدوا مـلاذاً للعلـوم ومـرجعـاً ... في المشكـلات لقـولـه التـرجيـح
فقـدوا منيبـاً عنـد رؤيـة سَمْتـه ... تهفـو القلـوب ويُـذَكـرُ السبُّـوح
فقدوا الذي فاضت معارفه علىٰ ... واديه بل من حيث تسري الريح
آهٍ ومــــا آهٍ بمجــــد سلـــــوةً ... وبمُهْجَتــي مــن فقْــدِه تلفيــح
آهٍ علـىٰ نبـع مـن العـرفـان قـد ... غيضَـتْ جـداولُ مـن يـداه تَسيـح
آهٍ علـىٰ تلـك المجـالـس عنـدهـا ... عَـرْف الهـدايـة مـن شـذاه يفـوح
ولقـد مضـىٰ عبـق الثنـاء وشيعـت ... رجــلاً لــه نحــو الأحبــة روح
من بعد مابسقت مغارسها التي ... أثمـــارُهــا علــمٌ زكــىٰ ومنــوح
ومـآثـر يبقـىٰ الـزمـان ونـورهـا ... بـالعلـم فـي أفـق الكمـال يلـوح
تلـك المنـاقـب كسْبـه لحيـاتـه ... إن عُـدَّ كسْـبٌ فـي الحيـاة ربيـحُ
تبـاً لـدار أسـىٰ ومـوطـنِ محنـةٍ ... مشتــافُهــا بشِيَــاتهــا مـذبـوح
لولم يكن فيها سوىٰ التفريقُ ما ... بيـــن الأحبـــة منكـــر وقبيـــح
قطعت بنا عمن نحب وحال من ... دون اللقــاء بهــم مَهــامِــهُ فِيْــح
كم رمْتُ زورتهم علىٰ وَشَك النوىٰ ... كَلَفـاً ولـي عـوضَ الـرثـاء مـديـح
فـإذا المغيَّـب دون مـا نبغـي ومـا ... إلا التعــزي بــالــرثــاء مُــريــح
فــالله يــرحَمُــه ويكــرم نُــزْلــه ... شــرفٌ بفـردوس الجنـان فسيـح
وعلـىٰ ضـريـح قـد حـواه تحيـة ... تتـرىٰ وغيـثُ رضـىً عليـه سفـوح
ما أشجت المحزون فوق ذؤآبة ... ورقـاءُ فـي جنـح الظـلام صَـدُوح

* * *

وهذه مرثـاة نجدها علىٰ ما فيها من وقع الحزن والأسىٰ قد احتوت علىٰ بعض المحسنات اللفظية البارزة، ربما أملتها مشاعر المودة والمحبة

والاحترام المتبادل بين سيدي والمرثي وهوالوجيه الحاج رجب سالمين أحد زعماء الطائفة النوبية في [كمبالا] فلم تذهب بحلاوتها مشاعر الحزن أو تطغىٰ عليها، ونترك موضوع الاستدلال عليها لفطنة القارئ.

قال سيدي:

ماذا دهىٰ المعروف فانهالا ... واختص بالنكبة [كمبالا][1]
ياموتُ قد غِرْتَ علىٰ ماجد ... قد فاق في الجوهر أشكالا
ياموتُ قد غرت علىٰ مشرع ... للجود فاستبدلته آلا
ياموتُ قد غرت علىٰ طلعة ... كانت تسر العين إقبالا
بيض مساعيها وأخلاقها ... كالمسك صيغت منه تمثالا
صانعت رغم العنف في أخذه ... في رجب سميته فالا
وبعد فرض العصر جاذبته ... فلم يطق حولاً ولا قالا
وكان ذا آخرعهد له ... أكرم به عهداً وأعمالا
ولّىٰ من الدنيا حليف التقىٰ ... موطأ الأكناف بذالا
وفي قلوب الصالحين له ... مودة لا سيما الآل
ما حال عن حال تحلىٰ به ... نبلاً ولا المال به مالا
ولم تهن يوماً به عزمة ... وكان للأثقال حمَّالا
وداره للضيف مفتوحةٌ ... ينعم بها من حلّها بالا
يمشي علىٰ بيضاءَ مكْتَسياً ... من الحيا والصدْق سرْبالا
مارنّ في سمع الورىٰ نعْيُه ... إلا وماج الكل وأنثالا

---

(١) كمبالا ـ عاصمة يوغاندا.

حزناً علىٰ ذاك الفقيد الذي وسعهم خلقاً وإفضالا
مثقف واعجبي لم يلِجْ مدرسة يوماً ولا جالا
سبحان وهّاب القوىٰ في الورىٰ سوقية منهم وأقيالا
لا تلحني ياصاحبي إن بدا مني أسىٰ أومدمعي سالا
ووداده استرعىٰ ثنائي له فصغت من وجديَ أزجالا
فيا بني السودان تعزية حرّىٰ لكم شيبا وأطفالا
من مخلص يرجو لكم نظرة من ربكم ترضيكم حالا
وللفقيد العفو منهلَّة مزونه صبحاً وآصالا
أسكنه الله جنان الرضىٰ تجري بها الأنهار سلسالا
والخلف الصالح أبقىٰ له يحيون آثاراً وأطلالا
ومولد قد كان يعنىٰ به للمصطفىٰ حباً وإجلالا
عليه صلىٰ الله مع آله والصحب آباداً وآزالا

* * *

من مساجلات المترجم الشعرية

وإذا قلنا أن الشعر نوع من أنواع النشاط الفكري وهو في دائرته من أجود منتجات القرائح بنوادره ولطائفه وخوافيه، فمن هنا نجد أنه وسيلة من وسائل تثقيف العقول وشحذ الأفكار وتوسعة المدارك يوم أن كانت سوق الشعر رائجة وكان صداه وتأثيره يدخل به في كل شأن من شئون الحياة، ويوم أن كان الشعر ديوان العرب.

والجودة في ابتكار المعاني واختيار العنصر اللفظي راجع للاستعداد الفطري وللخلفية القوية من روافد اللغة، قال الجرجاني: إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع، والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوةً لكل واحد من أسبابه.

فمن اجتمعَتْ له هذه الخصالُ فهو المحسِن المبرّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإجادة والحسن.

والشعر أيضاً سلاح ذو حدين، وفي حديث ابن عمر أوحديث عروة المرسل: «الشعر بمنزلة الكلام، حسنه حسن الكلام، وقبيحه قبيح الكلام»، انظر «دلائل الإعجاز» للجرجاني.

وعدا شعر المديح والرثاء والحماس والفخر، فإن لشعر المناظرة والمحاورة مكانته ومزيته وتأثيره، فإذا كان منه المقصود للبطولة والشرف أو ما يسلي ويلهي كرام الناس، أو ما يقصد منه الترويح عن النفس، أو ما يوجه ويؤدب، ويعلم ويهذب، فإن ما يعنينا هنا في هذا المقام أن نسلط الضوء علىٰ

المحاورة الأدبية التالية التي يرويها سيدي إذ يقول رحمه الله: دارت بيني وبين أحد الأدباء العمانيين البارزين في زنجبار وهو الشيخ قسورة بن حمود العامري محاورة، فقد أورد الشيخ قسورة بيتين من قصيدة لابن الفارض مطلعها:

[حادي الأظعان يطوي البيد طي]

بحضور طائفة من الأدباء وهذان البيتان هما:

قل تركت الصب فيكم شجناً   مالـه ممـا بـراه الشـوق فَـي
كهـلال الشـك لـولا أنـه   أن عينـي عينـه لـم تتـأي

وطلب مني تحليلها من حيث اللفظ والمعنىٰ ، فأجبته بالأبيات التالية:

أيهـا السـائـل تـوجيهـاً إلـي   عن معاني الشعرفاْسمع مالدي
قـانعـاً مـن نـازح الـدار بمـا   منه ينزاح عن الوجه الغُطَي
عَلَّني أُنْظَم في سلك الأولىٰ   نشروا آدابهـم فـي كـل حـي
إذ بفضل العلم يعلو المرء عن   صفة الموتىٰ إلىٰ أوصاف حي
وردت فـي البيـت أَنّـان فـأولاهمـا حـرف لهـا الهـاء سُمَـي
أخبـروا عنـه بفعـل قـد مضـىٰ   مـن أنيـن كـاشـف للمُتَـأي
ويسوغ العكس عند الفضلاء   بـالتـزام الـرفـع فـي أول ذي
مثلمـا سـاغ لـه جعلهمـا   مصـدريـن لمعنـىٰ قـد تهـي
حيـث لـم يقطـع بنفـي أوبقـا   لهـلال الشـك بـل بـالمعنيـي
هـو بـالثـانـي خليـق مثلمـا   كان للصب الذي لم يَحْوِ فَي
واذا لـولا وجـود عينـه   كهلال الشك لم يذكر بشي
بـل تـأيـا لاحتمـال فغـدىٰ   فـي احتيـاج لأنيـن وتفـي

* * *

هــذه تــذكــرة والعيــن فــي ... سابق الوجهين طرف وذمي
وهي في التاي لمعنىٰ واحد ... والتــأيــي كتــروي المقلتــي
وبطــي النظــم سِــرٌّ دُونــه ... يعتري الألســن إخراسٌ وعــي
ألمــع الشيــخ إلــىٰ أســراره ... لذوي التحقيق في شرع الهوي
فيغيبــون عــن الكــون وهــم ... فيـه إذ يبـدو لهـم منهـا وري
لم يكد يجري بحرف مزبري ... من شجون كبَّت الدنيا عليّ
وبقــي مــا علــق الكــاف بــه ... مفــرداً أوجملــة لــم أدر أي
وكـذا الطـي الـذي فـي قـولـه ... لاح في برديه بعد النشرطي
مصــدراً يعنــي بــه أو أثــراً ... عــدميــاً أو وجــوديــاً فهــي
وانتساخ الفيء من ذي شبح ... كيف يغدو شبحاً من غير في
فــأزيلــوا بسنــا أفهــامكــم ... ما به يجلي عن القلب العمي
واقبلوا في البحث نظماً من نهىٰ ... نهنهته النأي عن نظم الروي
إن تقولوا مثل قولي عندما ... نابني منكم كفاح القول وي
رمـت أن أسعفكـم حـالاً بـه ... فلـوىٰ عـزمـي شـدّ العبـدلـي
هــاكهــا قسْـورَ أبطــالِ المــلا ... غــادة تسلــب أثــواب الكمــي
مـاحكـاهـا للـرواة الأصمعـي ... لا ولم يسمع بها شعرالكمي
فتعــاطـي نخــب آداب العــلا ... عند أهل الفضل يزري بالكمي
كـل راوٍ مـن فنـون العلـم لـم ... يستجد منها علىٰ الآداب ري

* * *

وما أن اطلع عليها الشيخ العلامة الأديب برهان مكلا الزنجباري القمري وقد راقته، وحركت فيه أريحية الشعر حتىٰ خط يراعه القصيدة التالية تأييداً

وترويجاً لسوق الشعر والأدب في تلك الحاضرة وتقريظاً لتلك الأبيات فاستهلها متغزلاً بقوله:

يا آبن طٰه هذه الغادة مي	قد بدت سافرة تزهولدي
وتــريـنــي غنجهــا قــادمــة	مثل غصن البان ينحازُ إلي
أم هي الزبّاء من قد قبلت	خطبة الوضاح مكراً لالشي
فأتاها واحتظىٰ منها الردىٰ	حيث قدت في الأديم راهشي
حضــر القتــل قصيــر فنجــا	هــارباً تحملـه تلـك العصـي
وأتــىٰ عمــرو لثـأر طــالبــا	فـرآهــا وتــولـت عنـه كـي
فجرىٰ من خلفها أنىٰ جرت	وغدت تمتص سُمَّاً كالأري
ثم قالت ليس حتفي منك يا	عمرو لكن هومن إحدىٰ يدي
فالتي أبرزتها يابن الأولىٰ	أخجلت من حسنها الزَّبّا ومَيّ
إنهـا بلقيـس شعـر قـد رقـت	عـرشهـا تعلـو بـأحكـام وزي
أو لــدىٰ صــرح لهــا ممــرد	من قوارير يري موج اللجي
أوبغمـــدان يحييهـــا المـــلا	بيـن أقيـال ومحـراب الـدمـي
فسّــرت أنّيــن قــولاً فغــدا	يسحر اللب وما في القول غي
وهما في البيت لابن فارض	فاتله من بعد ذا البيت أخي
كهــلال الشــك لــولا أنــه	أن عينــي عينــه لــم تتــأي
فسّــرت أولاهمــا قــائلــة	إنهـا حـرف لتـوكيـد الهـوي
وكـذا الأخـرىٰ فقـالـت إنهـا	فعل ماض ضد حرف أوسمي
ثـم أبـدت غيـر وجـه سـابـق	وهو ينساغ لنا في ذي الروي
إنمـا الأخـذ بـه يـدعـو إلـىٰ	بعض تقدير ولا في الوجه لي

سـألـت هـل مفـرداً أوجملـة   علق الكاف به لم أدري أي
وهـل الطـي الـذي فـي قـولـه   لاح في برديه بعد النشرطي
مصـــدراً يعنـــي بـــه أو أثـــراً   عــدميــاً أو وجــوديّــاً فهــي
وأخيـــراً نطقـــت ســـائلـــة   من يريني شبحاً من غيرفي
إن هـــذا لســـؤال غـــامـــض   واحتجاج فيه يومي بالكمي
إذ جـواب عنـه يحتـاج إلـىٰ   ذي بيان ما به خرس وعي
يحمـــل الآداب فـــي كلكلـــه   ولـــه فـــي علمـــه شبـــع وري
كالفتىٰ المسؤل عنه ذي النهىٰ   قسور الأبطال شهم الأصغري
رب وفقنـــي وإيـــاه لمـــا   ترتضي أنت فمن يسدي إلي

* * *

في وداع مترجمنا . . قصيدة للشيخ برهان:

وبهذه المناسبة نورد القصيدة التالية التي قالها الشيخ برهان المذكور آنفا مودعاً لسيدي ومتأسفا لمغادرته [زنجبار] عائداً إلىٰ وطنه حضرموت وذلك في عام ١٣٤٧هـ أحببت أن أُلحقها بالقصائد الثلاث التي قبلها، لما لها من ارتباط ببواعثها الأدبية وإعطائها الوصف الشيق للأيام التي قضاها سيدي بين النخبة من طلاب العلم ورواد الأدب في تلك الحقبة من الزمن في [زنجبار] كما أنها تعبر أصدق تعبير عن مشاعر الألفة والمودة التي جمعت بينهما.

وقد صدرها بقوله: قلت هذه القصيدة مودعاً للسيد أحمد مشهور بن طه الحداد ومتأسفاً لمغادرته زنجبار حيث كان لي أنيساً ومفيداً:

لوَقتُ لقاكم كان أغلىٰ أويقاتي   واشفىٰ من السلوان لي عند لوعاتي

وأحلىٰ من الآري المصفىٰ مذاقه وأشهىٰ المنىٰ من لثم أفواه غادات
وأرویٰ لعطش من فراتٍ مشبم إذا نلت كأساً منه من بين كأساتي
وأسنىٰ من المصباح في ليلة الدجىٰ تلوح به الأنوار من بين مشكاة
ومن بعدكم عني أرىٰ في بعادكم ضروباً من الوحشات تنتاب ساعاتي
فمن لي يقول الوعظ بعد ارتحالكم وتنسيق آداب وتفسير آيات
أجدتم بتجويد القراءات مثلما أجدتم بآداب اللغىٰ بين ساداتي
ولم أنس هاتيك القراءات حينما أممتم أناساً عند تلك الجماعات
فمن ذَا لَه في قرض شعر بداهة حكت ما لكم فيه لدىٰ نظم أبيات
وكم من سعوا للشعر حتىٰ تبادهوا وأقدامهم في الشعر تخطو بزلات
فما الشعر قول عن خيال مجردٌ يفوه به مثلي لإدراك غايات
ولكن هو الشعر الذي جاء جامعا لمعنىٰ رقيق واضح في الدلالات
له موضع في الذهن إن جاء داخلاً عليه وفي الأسماع معنىً لرنّات
فأشعاركم أبدت لذهني نبوغكم بصدق ولا كالشخص في نور مرآة
ألا فاقصدو [قيدون] في أمن ربكم ستلقون فيها كل خير وراحات

* * *

شعر الرّحلات عند مترجمنا

والرحلات والتنقل والاغتراب إذا لم يكن ذلك للمتعة والسياحة والتفكر فقد يحرم صاحبها الشعور بالراحة والاطمئنان، وعندما تتكرر فقد تنعكس تجاربها علىٰ مرآة تفكيره، وتُنقش في صفحات حياته فيكون لها صدىً في نفسه وإن لم تؤثر تأثيراً بالغاً علىٰ طريقة تفكيره وأسلوب الحياة التي يعيشها.

وهنا نرىٰ سيدي يسبح بفكره وهو موثق بقيد النوىٰ، وحيد بأرض [الكونقو] فيطوف بخياله في عوالم شتىٰ يسجل من خلالها بعض الخواطر والرؤىٰ والصور والمناظر كهذه الشذرات، وداعيها ما هو فيها ــ يبعثها من [كبيقي بالكونقو] إلىٰ [كمبالا أوغندا] في قالب شعري مع هذه المقدمة التي يقول فيها:

إلىٰ الحبيبين المحميين: صيرفي الأدب وطابعه العم محمد بن حسن السقاف، وأصمعي القلب ولامعه الولد محمد بن أحمد مشهور الحداد، أرسل هذه الشذرات من خلوة السفر، وداعيها ماهو فيها فغضوا عن نابيها وإن عززتموها بما يشد أزرها ويؤنس وحدة صاحبها فلكم الأجروالجميل.

قال سيدي:

من اعتام حُسْن الخِيم زان وصالُه ... ومـن رام دلّ الـريـم آن انفصـالـه

ومن لم يسرّ الناس فضلُ حياته ... فمـا غمهـم نحـو المـآب ارتحـالـه

ومن يستشر ذا الجهل يختزله الغوىٰ ... ومـن يسْتَظِـلُّ اللهْـوَ حـرَّ ظـلالـه

وتحسين عيب المرء تمكين ذنبه ... ويعلن عن قدر الفصيح جداله
وفقد مراد المرء نقد رقاده ... وينبيك عن نجر الأصيل فعاله
ومن يعتزل شر الأنام تعففاً ... يوفر له ذخر المعاد اعتزاله
وتحت رواق العز تأوي عصابة ... يضن بهم ذو العرش جل جلاله
فهل أبصرت عيناك منهم بقية ... وهل في [كبيقي] من يدلك حاله
نعم إن فيهم من يشام محالهم ... إذا عم أبناء الزمان محاله
محال علىٰ فطم النفوس وقدعها ... وتسليكها فيما يعز مناله
إذا اصطخب الأقوام في كل معرض ... وقام من الستر المنيع انسداله
ذوائب من فرع الفقيه وعمه ... من الحمد مفروغ عليهم سجاله
فخير لهم ذاك السكون وجزمه ... من النصب في ظرف يؤد اشتغاله
لقد فُتِحتْ من سد يأجوج ثغرة ... ولاح من النجم الأجوج اشتعاله
شعوب وأقيال تموج ضلالة ... وفرد ذهول ليس يهدأ باله
ولم يصْفُ إلا عيشُ من ظل خاملاً ... وكان لإرشاد العباد اهتباله
وزاول ما يكفيه من خير مهنة ... يصان عليها دينه وكماله
مقامات تقدير علىٰ وفقها جرىٰ ... سلوك البرايا رشده وضلاله
فسرّح بأثناء العوالم نظرة ... ترىٰ الأمر ما يمليه حاه وداله
فويل لمن في المقْحَمَات سلوكُه ... وطوبىٰ لمن في الصالحات مجاله
ورَعْياً لمن بالصبر كان اعتصامه ... ولم يتحينه اللعين وخاله
وأسلَمَ بالإحسان لله وجْهَه ... فأمطره من خامر الجود خاله
ووفىٰ حقوق الشكر فاغتبطتْ به ... نواديه واستعلىٰ أبوه وخاله
وما ضر ذا التقوىٰ غرابةُ سيره ... فإن جمالاً يكسب الخد خاله

ودونكما من سابح الفكر مُوثَق | بقيد النوىٰ قيداً يلذ مقاله
وحيدبأرض[الكونقو]حيثتزاحمت | علىٰ خلجة آطامه وجباله
جبال وقور كالكباش رؤسها | وأودية للطرف فيها مخاله
جبال بها نار تنورُ وتارةً | تسيل بها غيطانه ورماله
وللتبر والألماس فيها مناجم | وللصفر والأنيوم ماعزّ ماله
عليهن حرّاسٌ دخولاً ومخرجاً | ومحضورة للساكنين غلاله
كأن أهاليه بحَيدِ عن الورىٰ | ويحكمهم كيف ارتأىٰ جنراله
ترىٰ منهم قزماً ثلاثة أشبر | يطيف به أترابه وعياله
وآخرعملاقاً يروعك طوله | وكلهم ذاك المناخ حلاله
عروشاً وغابات تشابك دوحها | وأمعن طولاً واذْلهمَّ ظلاله
غفول علىٰ الغبراء سيان عندهم | محرَّمُ قانونِ الورىٰ وحلالُه
تسلىٰ بهاتيك المناظر فينة | وعاوده ممن يحب خياله
ومَثَّلَ نصبَ العين لُطْفَ جمالكم | فجاذبه طيف الحديث مثاله
وفاجأه من حادث الدهر ما دوىٰ | جنوبُ أراضينا له وشمالُه
وهبّت له إفريقيا بعد آسيا | وفي الغرب عصْفٌ لايكفّ نضاله
هجوم بني صهيون شالت نعامهم | وإنكلترا ثم البغيّ حياله
وقد قيل: مقطورُ الطوائح طائحٌ | ومنفهق الأملاك آن زواله
وبالنصر للإسلام والعُرْب نلتجي | إلىٰ ربنا فهو النجيحُ سؤالُه
بحُرْمة من تُهدىٰ الصلاةُ لرُوحِهِ | صلاةً بها يحظىٰ وينعَمُ باله
ونرجوه تيسير الأمور ونظرةً | يحل بها عن ذي القريض عقاله

* * *

وإذا وقفنا قليلاً مع هذه القصيدة للتعرف علىٰ ما فيها من تنوع الصور وتعدد الأغراض نجدها لم تقتصر علىٰ وصف الطبيعة الخلابة التي لو لم يصفها الشعراء لأوضحت عن نفسها بنفسها بمثل ما قال [الرقاشي]: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك؟ وجنىٰ ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

بل تتعداها إلىٰ صور أخرىٰ لها اتصال بواقع الحياة كما تبدو في وصف الأقزام والعمالقة الذين يجمعهم مناخ واحد ووطن واحد وعنصر واحد، ولله في خلقه شئون. إلىٰ غير ذلك مما له تأثير علىٰ اقتصاد البلاد وثروتها الطبيعية وسيطرة المستعمر عليها، واستئثاره وتحكمه بخيراتها ووضعها الاجتماعي وحياتها العملية.

وإذا كان مظهر الاهتمام يتوقف بالدرجة الأولىٰ علىٰ اختيار تلك الصور وواقعيّتها حيث يبدو لنا مقدماً علىٰ الاهتمام بالملامح الفنية والتألق في انتقاء الألفاظ إلا أنّ ذلك لم يفقِدْها جودة التعبير ورقته وجمال الأسلوب وروعته لأن الرؤىٰ مكشوفة أمام العين فأينما مد الشاعر بصره رأىٰ ما حوله وعرفه فوضعه بعيداً عن التهويل والمبالغة أو التوغل في الخيال إلا ما تقتضيه وسائل التصوير الفني الذي لا يخل به اختلاق أو وهم كاذب.

وتأثر الإنسان بالبيئة الطبيعية قد يترك انطباعه المباشر علىٰ نفسيته كتأثيره بالبيئة الاجتماعية وما تتركه من انطباعات تحكمه بالتالي قوانينها وأعرافها فإذا لمحْنا هذه الصورة في ثنايا القصيدة فإننا لا نطلب أن تعطينا وصفاً أوضح مما ورد فيها، اكتفاء بتلك الكلمات الوصفية المستوحاة من ذلك المشهد الطبيعي والاجتماعي لأن الشعر ليس من خصائصه التفصيل والاستيعاب كما يقول البعض وإلا نضب جماله وفتر سحره.

وكثير ما تتوافر الخواطر في ذهن الشاعر وتتصارع فيه الكثير من العوامل المتداخلة الدينية والفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وما كل شاعر يستطيع أن يجمعها في قالب شعري واحد متناسقة تناسقا لا يفقدها طابعها الجمالي أو ذوقها الفني كما شاهدناه في هذه القصيدة.

* * *

وقل أن تخلو رحلاته المتعددة رحمه الله من تدوين بعض الخواطر والذكريات في مقطوعات شعرية، حتىٰ الرحلات العابرة منها كهذه الرحلة التي أعتقد أنها رحلة ترويحية، سجل من خلالها أحد المشاهد الرائعة والمناظر الطبيعية الخلابة في لمحة قصيرة تعبر عنها الأبيات التالية عند مشاهدته لجبل كليمنجارو الشهير بتنزانيا وهي:

أعـادت لنـا روح الطـلاقـة رحلـة	إلىٰ كلمنجارو وغيطانها الخضر
رأينا من الصنع العجيب بدائعاً	منوّعةً في الأطم والدوح والزهر
ينمقها صوب من المزن هاطل	وذائـب ثلـج مـن أفـانينهـا يجـري

* * *

وبعد عدة جولات شعرية طفنا بها ربوع كينيا وزنجبار وأوغندا والكونغو سنمضي في رحلة شعرية ـ شاعرية قصيرة صوب ربوع [أسمره] ومنتداها الأدبي ومراتعها الخضراء بجمالها الساحر وهواها العليل لنلتقي بأحد المنتظمين في سلك أرباب الأدب، وهو الشيخ الأديب عبد الله بن الحصن العمودي من خلال قصيدته التي قالها في سيدي الوالد ــ وهو بأَسْمره ــ وقدمها إليه معبراً فيها عن مشاعر حبه واعتذاره لتأخر زيارته له،

وقد قال عنها سيدي إنها قصيدة بليغة اللفظ والمعنىٰ وفيها مالا يخلوعنه نظم الشعر من حيث الإعراب. علىٰ أن الإمام السيوطي ذكر في ألفيته بعد التكلم علىٰ ما يغتفر للشاعر من العدول عن الإعراب مخالفة الشاعر مطلقاً في غير مسائل معينة بقوله:

وآخـــرون جـــوزوه مطلقـــا ... وقلب الإعراب علىٰ ما ينتقىٰ

وهذه هي القصيدة التي استهلها بقوله:

هـل تقبلـون إذا قـدمـت أعـذار ... فقد تأخرت عن قوم لكم زاروا

هـم المعيشـة قيـد لا يمكننـي ... من المسير معا قومي إذا ساروا

عسىٰ الإلـه بلطـف منه يـدركنـي ... ويعـف عنـي فقـد حملـت أوزار

يارب يا خالق الأشياء من عدم ... وحافظ الكون لا يخسف وينهار

إحم الشريعة واحفظ دين صاحبها ... وابعث لذا الدين أعوان وأنصار

واكفنـا شـر قـوم أنـت تعـرفهـم ... لا يرغبون ترىٰ في الأرض أحرار

إن يرجعون فقل يانعم ما فعلوا ... أو غيرذا كان - قُلْ: قد كِيْدَ عمّار

كل الأمور وإن طالت لها أجل ... وكـل شـيء لـه حـد ومقـدار

دهر عبوس بدت تترىٰ عجائبه ... قد استوىٰ فيه فضل النور والنار

يا نجل طه حماك الله مِنْ زمن ... فيـه عقـول ذوي الأبصـار تحتـار

يا أحمد أني معي قلب يحبكم ... فهـل علـي إذا أحببتكـم عـار

لا كيف يلحق بي عار وقد سبقت ... من ثاني اثنين إذ يأويهما الغار

يـا أهـل بيـت رسـول الله فضلكـم ... علـىٰ الجميـع فـلا يخفيـه إنكـار

سدتم بفضل أعز الخلق جدكم ... وفـارس فـي غمـار الحـرب كـرار

سـمّ العـداء إذا ولـىٰ بصـارمـه ... شطـر الجيـوش لـرأس القِرْم بتـار

جزاكم الله أهل البيت خير جزاء ... لازلتم لعيون الحق أبصار
وأنجح الله مسعاكم وأيدكم ... فيما يحب وما يرضىٰ ويختار
كنتم ومازال في العليا لكم غرض ... فاسعوا إليه وإن حفته أخطار
لا تجزعون ولا يدخلكم كسل ... إذ ليس بالعجز يوماً يدرك الثار
إلىٰ هنا أترك الفتوىٰ لفرصتها ... كيلا يقولون ابن الحصن ثرثار
ثم الصلاة علىٰ المختار ما بقيت ... تبدو الجديدان في طياتها أسرار
والآل والصحب ما غنت مطوقة ... وما تبارىٰ غمام الجو أمطار

* * *

وهذه القصيدة توصلنا بدورها إلىٰ القصيدة الجوابية التي نظمها سيدي الوالد وقدمها له بما تحمل من مشاعر المحبة لتكون كما أشار إلىٰ ذلك سيدي ذكرىٰ أدب في (أسمره) وإعذاراً للشيخ فيما تقدم به معتذراً، وقد حلاّها ببعض المحسنات اللفظية والبلاغية والصور الوصفية التي لم تحجب عنه الشعور بالمرارة والألم للواقع الذي تعيشه الغالبية المسلمة من إثيوبيين وعرب، تحت ربقة الاستعمار البغيض كما نوه إليه وإلىٰ الحالة التي وصلوا إليها بسبب الجهل وعدم التمسك بمبادى الشريعة الغراء وقيمها استهلها بقوله:

لاحت لنا من شموس الحي أنوار ... وآنستنا بشرقيّ الحمىٰ نار
وهب من جانب الأحياء فوح صبا ... فضوعت من شذا رياه أعطار
وبشرت أن خلف العرف عارفة ... وأن من دون هب الريح أمطار
أهلاً بنظم سبا الأفكار رونقه ... له معاني من الآداب أبكار
زفت بألفاظ ياقوت فليس لها ... إلا التعانق والتقريب أمهار

فحيـن نـاورهـا طـرفـي تـأوّبنـي   من كامِنِ الحب في الأحشاء تذكار
من طول مامر من عهد بساجعة   تجلي بها عن حميم القلب أكدار
فـي عصبـة مـن بني الآداب زاهية   شعـارهـا خُطـب راقـت وأشعـار
عـودتهـا بيـن أصحـابي [بـأسمرة]   أنساً ودارت بها في الحان أسمار
تلـك البـلاد فمـا أبهـىٰ مناظـرهـا   وقـد أحـاطـت بهـا أطـر وأشجـار
فللعيـون بهـا مـرأىٰ يـروق إذا   تنـوعـت فـي ذرىٰ الأغصـان أزهـار
وللنفـوس بهـا أنـس ومنتـزه   وللطبـائـع إنعـاش وإنشـار
أمـا الهـواء فـروح للنفـوس وإن   شُـدَّت بـه لاتقـاء البـرد أزرار
ورب فتيـة صـدق لا يغـرهـم   فيهـا مـن الـزخـرف الفتـان غـرار
يسعون في طلب العلياء مقصدهم   إذا سعـىٰ قِبـل الحـانـات خمـار
كـل يسيـر علـىٰ حـد وإن غلبـت   علـىٰ المقـاصـد والأغـراض أغمـار
لما غفلنا وحالفنا الكرىٰ انتبهوا   وفتحـت لهـم فـي الأرض أبصـار
فاستعمروا غالب العمران وأْتَمَرُوا   ونـال حيـف بغـاة الأرض عمـار
واستعبـدوا أمـة قـد حـررت قـدمـاً   لما استذلت فهم في الناس أحرار
لم ترض بالضيم عن عمد ومقدرة   وإنمـا خـانهـا جهـل وإدبـار
مهـلاً فـإنـا وإن طـالـت غفـالتنـا   والدهر في الناس بالأحكام دوار
نحن الرجال فما شالت نَعَامتنا   وسوف تبدو لنا في الأرض أخبار
وقـد أجـدُّوا لنـا سبـلاً مـذللـة   نمضي عليها ونغْدُ وهم إذا ساروا
والدين يعلو ولا يعلىٰ عليه كما   صحت بذا عن إمام الرسل أخبار
وقـد تكفـل مـولانـا بنصـرتـه   إذا استقلَّت لـه فـي النـاس أنصـار
وإذ نبـذنـا وراء الظهـر شـرعتـه   وكـان منـا لحكـم الجهـل إيثـار

دارت علينا مع البلوىٰ دوائرها ... واستأثرت بصريح الملك أغيار
وعمم الجهل شبانا ومشيبة ... يحدوهم للحضور الدف والطار
لا يرعَوُون إلىٰ حق ومسندهم ... في مبتغىٰ النفس أهواء وأفكار
لم يعلموا أن للدين الحنيف وما ... يقضي به فوق طور العقل أطوار
هيهات تذهب في لهو ونحسبها ... من عمرنا في خلاف الحق أعمار
لا نستفيق لما يغدو بنا قبلا ... حوادث دوننا تنبي وأخبار
هَمُّ الرجال ترقٌّ في ممالكهم ... وهمُّنا درهمٌ يُجْبىٰ ودينار
كيف الخلاص من الأمر الذي ارتكست ... في قعر حفرته بدو وحضّار
حتىٰ يعود لواء الحق منتشرا ... ويستقيم له في الناس معيار
ويزهق الباطل الفاني المحيل ولا ... تبقىٰ له في رسوم الأرض آثار
والعلم ينشر والأعمال صالحة ... وتحيي الأرض أعمال وأذكار
هذا الذي يشْغِفُ الأحرار موردُه ... ففيه للقول إيراد وإصدار
وأطلق القول ممن قيدت يده ... عن منسج الشعر أشغال وأسفار
حتىٰ أبان وكم في القلب من نكت ... أولىٰ بها من ظهور القول إضمار
يابن الأفاضل وافتني محبّرة ... تنوب منك عن اللقيا وإعذار
تبدو طوالعها عن ود مبدعها ... كما بدت في ضياء الشمس أقمار
غراء مطربة تشدو برتبة من ... فوق الطباق لهم ذكر وإشهار
مثل المقدم والشيخ الكبير ومن ... أبنائهم من علىٰ منهاجهم ساروا
إني بحبك أرجو أن تلاحقهم ... .[1]

---

(١) بياض في الأصل.

وختمها بإمام الرسل ما برحت   أزكىٰ الصلاة علىٰ المختار تختار
والآل والصحب والأتباع قاطبة   ما كشفت عن رموز القول أستار

* * *

نعود ثانية إلىٰ [تنقانيكا] تنزانيا ـ لنتطلع إلىٰ مظاهر الطبيعة الحية من خلال صورة من الصور البيانية الشعرية التي تعكس رواء الجمال الأخّاذ داخل إطارها الرائع؛ فندرك معها أن في سحر تلك المناظر الطبيعية مجال واسع للتأمل فيما أودعه الله سبحانه وتعالىٰ في هذا الكون من بدائع صنعه.

وكلما كان الإنسان صاحب مقدرة علمية وملكة أدبية وموهبة شعرية، كلما كان أوسع أفقاً وأخصب خيالاً وأدق تصوراً وأوسع إدراكا لتصوير الرؤىٰ الجمالية للطبيعة خاصة عندما يضيق بصخب الحياة فيثوب إلىٰ جمال الطبيعة وسحره فيترجم ذلك بما في خلجات نفسه من إحساس ويسطره في قالب لفظي بأرق عبارة وأروع أسلوب، مما يجعله يلج في أذن السامع بمجرد أن يلامسه رجع الصدىٰ الوجداني كما نجده في هذه القصيدة من دون أن يؤثر علىٰ الذوق الفني فيها وهو يتنقل من وصف الطبيعة إلىٰ ما انتهي إليه سبح الخيال في تلك الربوع من وصف حالة من نزلوا فيها من العرب الذين لم يطمعوا في أكثر من القناعة بأيسر ما يطلبه الإنسان خاوي الفكر واهي العزيمة ضعيف الإرادة.

وهذا ما حدىٰ بسيدي رحمه الله أن يتلمس السلُوَّ ويطفي لهيب الأسىٰ الذي شب في أضلعه في هذه النفثات الشعرية التى ٱستهلها بقوله:

هيا معي نرمي قيود الأربُع   في جولة نحو الجهات الأربع

حيثُ الجمال الطلق مصبوبٌ علىٰ ساجي الروابي والصعيد البلقع
فيها المسابح للخيال طليقة والطرف يسرح في رواء ممتع
غَبْن ثُواؤك في محيط ضيق والعيش في سنن عليك موسع
والكون مشترك فما أولىٰ به أحد سوىٰ بالسبق فانهض وأسرع
وأعز أحوال الحياة سلوُّها ومكامن السلوان بين الأدمع
وإذا علا صَخَب الحياة فثُبْ إلىٰ صفْوِ الطبيعة والمراح الأودع
وانظر إلىٰ تلك الهضاب توطنت تلك الرياض علىٰ نظام مبدع
مكسوَّة بقلانس النبت التي حاكت مطارفها بنانُ الهُمَّع
تجلو مناظر للطبيعة كلها يهوي إليها ناظر بترفع
وترىٰ الفجاج خلالها مفتوحة تهدي المضل إلىٰ طريق المهيع
للدهر صامدة علىٰ حدثانه ولغير مُرْسي قطرها لم تخضع
تتلو عن السر المحجَّبِ في الثرىٰ آياً تلين لها قلوبُ الخشع
أتبعْتُها فكري فهام فلم أجدْ في الصحب من يشفي غليل تلوّعي
إلا مفاتحةَ القلوب ووعْي ما تُمْليه في الآفاق رمْز الملمع
فطفقْتُ آسي بالتلوع مهجتي وهو الذي شب الأسىٰ في أضلعي
وهنا انتهىٰ سبْح الخيال وراقني من تنقانيكا مابها من مرتع
نزلت بها من آل يعرب أمةٌ قنِعتْ من الدنيا بأيسر مطمع
واستعذبتْ وِرْدَ المشاعر جملةً من غير مد الفكر للمتوقع

* * *

أحياناً يجد المرء من المنغصات في رحلاته الطويلة ما يطغىٰ علىٰ استمتاعه بجمال المناظر الطبيعية الذي يمتد عبر المسافات الشاسعة، ويفوت

عليه الكثير مما يتطلبه ويبحث عنه السائح؛ إذا كانت رحلته لغرض السياحة والنزهة والترفيه عن النفس .

أما إذا كانت الرحلة لوجهة روحية إيمانية تلبية لذلك النداء الذي تبذل في سبيله المهج والأرواح ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج:٢٧]، ومع حرارة الشوق الذي يملأ القلوب في هذه الرحلة التي يشارك فيه الروح البدن، فإن المؤمن لا يأبه بما يناله من عناء السفر ووعثاء الطريق، وإن وصف سيدي لما لقيه من منغصات لايعدو أن يكون (إخباراً) عن وقائع ومشاهد عاشها في تلك الرحلة عبر النيل إلىٰ أن وصل إلىٰ [أم درمان] حيث حل ضيفاً علىٰ بعض الإخوة من أهل البيضاء المدينة المشهورة في اليمن وما لقيه عندهم من حسن الاستقبال وكرم الضيافة، معرباً عن خيبة ظنه في [آل باضاوي] وهم من أسرة حضرمية تربطه بهم صلاة مودة ومحبة قديمه متوارثة، وقد ضمن كل ذلك في القصيدة التالية وهي:

منذ عالجت في الورىٰ الأسفارا — لم أذق مثل سفرتي ذي مَرَارا

وخصوصاً من بعد ميناء [جوبا] — حيث خضنا في المركب التيارا

وعدمنا النظام في كل شيء — ورأينا تلك العراة جهارا

منظر تخجل المروءة منه — وعلىٰ المكتسين يضفي شنارا

ما سلونا متاعب النهر حتىٰ — جاءنا الدهر بالدواهي الكبارا

وركبنا العناء والهم لما — أركبونا من بر [كُسْتي] قطارا

في ازدحام ومسلك همجي — يعْدِمُ المرءَ الدينَ والمقدارا

في محطاته انحطاط ونار — وسنان تراه في [سِنّارا]

فادَّرعنا العزاء حتىٰ وردنا ... بعد جهد [خرطومها] الدوارا

إلفُكَ القرْشُ[١] فيه ليس سواه ... لا تقل صاحباً ولا مستجارا

فصرفنا العنان تلقاء [أم درمان] ... إذ [بالخرطوم] صرنا حيارىٰ

فنزلنا به علىٰ ذي نوال[٢] ... لأصول البيضاء ينمى نجارا

وعرفنا بها أمينا زكيا ... عالما قد تعقب الأخبارا

وأخاه الصفي عبد رحيم ... قد ألفناه مكرماً مَيَّارا

ولقينا بها معاهد علم ... لو عدتها العذْواءُ كانت منارا

لكن الظن خاب في آل باضاوي[٣] ... بها خلّف الجوادُ غبارا

* * *

---

(١) القرش: عملة نقدية.

(٢) أشار سيدي إلى اسمه في البيت التالي، والبيضاء مدينة مشهورة في اليمن عرف أهلها بالتجارة في مختلف مهاجرهم.

(٣) آل باضاوي أسرة حضرمية تربطه بهم صلاة مودة متوارثة وهؤلاء المشار إليهم منهم.

العتابُ عند المترجم

وبالرغم من عدم وجود الهجاء في شعره رحمه الله إلا أنه لا يخلو من العتب الجميل إما علىٰ سبيل المباسطة وروح المداعبة، أو عندما يفاجأ بخلاف مايظنه في البعض ممن يتوسم فيهم فعل الجميل، وتأتي النتيجة بالعكس فيكتفي بالإشارة الدالة أو اللمحة الكاشفة كذكره لتلك الأسرة التي يربطه بها سابق عهد كما لمح بذلك في القصيدة التي مرت معنا، أو كما جاء في القصيدة الجوابية التالية التي أجاب بها علىٰ أحد الأدباء وهو الشاعر الأديب صالح بن أحمد العبادي من عتب علىٰ عرب بلدة [زمبورا] وهذه هي القصيدة:

أيا واحد الأقوام في اللطف والشيم ... ويـاعـارفـا حـق العـروبـة والقـدم
بنظمك قد قلدتني عقد جوهر ... مـن الأدب المختـار مـرتفـع القيـم
سللتَ به من داخل القلب وحشةً ... عـرتنـي فـي هـذي المـرابـع والقمـم
لفقـد أنيـس ينعـش الـروح قـربـه ... وذي كرم من عنصرالمجد والكرم
رحلتُ فلم أبصرْ من العرب ثلّةً ... تعبـس فـي وجـه الغـريـب ولاجـرم
وقد كانت الأمثال تضرب فيهم ... سماحاً فهل يجري لحاضرهم قلم
وناورت [زمبورا] وزمبور أصلها ... ولكـن لهـا بـالقـادة العـرب معتصـم
أعيذ بني العرب النزول بسوحها ... من الحور بعد الكور في العطف والهمم
فقـد سطّـر التـاريـخ لامـعَ فضْلهـم ... ومن قدم في [الكونق] كانت لهم قدم
وقام بنو السودان يحذون حذوهم ... أينقلـب التـاريـخ ذا اليـوم للعجـم

وليس فخار العرب في الكسب وحده ولكن بنشر الدين في سائر الأمم
مشاعل تهفو في مجاهل أرْبُعٍ فتجلو بأنوار الهدىٰ حِندِسَ الظلم
ويخلفها التمكين في الأرض والعلا بوعد من الرحمن في الذكر مرتسم
وهَونٌ علىٰ المخدوم يغفل سادراً ويسبقه في حلبة الشرف الخدم
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وينشر إلا في كتائبه العَلَم!
ودونك من صافي الوداد مسجلا بطيب صلاة للمشفع مختتم

* * *

وقد احتلت المدائح والمراثي والإخوانيات مساحة كبيرة في ديوانه وبرغم أن ما بين أيدينا من قصائد لا تمثل كلَّ شعره وخاصة شعر الشباب الذي انطوىٰ البعض منه مع مرور الأيام في زوايا الإهمال أو توارىٰ خلف أسوار النسيان، إلا أننا نجده ـ بإضافة القصائد الأخرىٰ متعددة المقاصد ـ مستوفياً للأغراض التىٰ تصور وجوه الحياة الممثلة لكل مايدور حوله حَالاً ومرتحلاً من وقائع وأحداث، ومن منطلق مدىٰ وعيه وإدراكه وإحساسه بكل ما يمليه عليه مستوىٰ نشأته الاجتماعية والعلمية، ثم بعد ذلك تجاوباً مع مسئولية الداعية والمرشد والموجه قبل مسئولية الشاعر الذى يمثل شعره رجع الصدىٰ لمعاناة الأمة المغلوب علىٰ أمرها، والمجتمعات التى كبلها الجهل والتخلف، نجد أن إحساسه بهمومها وقضاياها الهامة يأتي ملازماً لاهتمامه بقضايا الأمة العربية والإسلامية وصراعها مع الاستعمار وكفاحها من أجل استعادة حقوقها المغتصبة، وأخطر داء تعاني منه الأمة الإسلامية هو داء الجهل، وموطنه رحمه الله ومسقط رأسه بالدرجة الأولىٰ يستأثر بما يستحق من اهتمامه فيعبر عن ذلك بحرقة وأسىً في أحد قصائده فيقول:

ويعـز فـي هـذى البـلاد مسـاعـد   فـي الـديـن أدعـوه أخـاً وظهيـرا
إلا طـوائـف بيـن شعـب هـامـد   قـد حجـرت أفكـاره تحجيـرا
قصرت معارفها وبالجهل اغتدت   أجسـامهـم قبـل القبـور قبـورا

وحينما رأىٰ بعض النزعات الغريبة تنشر بلْوَاهَا تحت شعار العلم، وتحاول رفع لوائها لكي تنضوي تحت ظله مجموعات من الفئآت المغرر بها في ذلك الموطن الصغير، لم يلتزم الصمت أو يقف موقف المتفرج منها فكان رده عليها قوياً وفعالاً مستعيناً بالنخبة من ذوي الرأي مما ساعد علىٰ إيقاظ العزائم واستنهاض الهمم، وها هو رجع الصدىٰ يتمثل في هذه القصيدة الحماسية التي أصبحت نشيداً يردده الطلاب وتعلو به أصواتهم في تحد إيماني صادق:

نهضنـا جميعـاً بعـون المعيـن   لإحياء علوم الهدىٰ والعمل
علىٰ سيرة أسلافنا الصالحين   وسنـة مـن قـد هـدانـا ودل
بمعهـد مـن نـوره قـد سطـع   بقيدون شيخ الشيوخ الأجل
نكافح من قد عصىٰ وابتدع   وأخطىٰ طريق المعالي وزل
ولمـا رأينـا نـذيـر البـلا   علـىٰ ربعنـا زاحفـاً مقبـلا
لينشـر بلـواه فـوق المـلا   ويفتـن سكـان هـذا المحـل
أرينـاه أنّـا عـدول ثبـوت   وأن الأسـود بتلـك الخبـوت
دعوا يادعاة البَلا حضرموت   وكفوا عن المذهب المرتذل
فـإن عقـائـدنـا والأصـول   تـزول الجبـال وليسـت تـزول
ونرجو بها للجنان الوصول   ورضوان ذي العرش عز وجل

وفينـا الكـرام رجـال المقـام | بشعبائهم[١] قد أقاموا الخيام
وعن مظهر الشيخ ليسوا نيام | وإخـوانهـم مـن حمـاة الطلـل
وعن مذهب الشافعي لا نزول | ومقصـد أجـدادنـا لا نحـول
بحب الرسول وآل الرسول | وأسـلافنـا الصـالحيـن الأول

* * *

(١) بشعبائهم ـ يعني (بضه) وهي مقر المنصب القائم بمقام الشيخ الكبير سعيد بن عيسى العمودي، ويقال لها بضه الشعباء، وأول من نقل إليها زاوية الشيخ سعيد من قيدون هو الشيخ عثمان بن أحمد وكان والياً عليها بقيدون أخوه الشيخ العلامة الصالح الشهير عمر بن أحمد.

تأثير الدّعوة الإسلاميّة على شعر مترجمنا وأدبه

ومع وانشغاله رحمه الله طيلة حياته بتحصيل العلم وبثه، وقيامه بالدعوة ونشرها كان نشاطه الأدبي في المجالات السياسية والوطنية محدوداً، ولكن ذلك لم يمنعه من الخروج بشعره من دائرة الدعوة التي زادت اتساعاً ونشاطاً مع مرور الأيام فأخذت جل وقته واستأثرت بجل اهتمامه، فنراه يطل من بعض نوافذها حيناً بعد حين علىٰ مايدور في العالم الإسلامي من الصراعات والمؤامرات التي تؤججها القوىٰ الاستعمارية الغاشمة وغيرها من القوىٰ التي لا تكف مؤامراتها المتلاحقة هنا وهناك، فينطلق نداؤه من بُعد مع شيء من الأمل، وهو الخبير بمجريات الأحداث بما يعبر به عن شعور الداعية المهتم بأمر إخوانه المسلمين وشؤونهم وما يقاسونه من محن تحل بهم كما حل بدولة وشعب حيدر أباد، وفي أصعب مرحلة من مراحل القهر التي غيرت مجرىٰ التاريخ تاريخ هذا الشعب الذي فقد السلطة وفقد معها كل شيء فيقول رحمه الله:

أُصمـدي للـدفـاع حيـدر أبـاد ... وابشري باندحار جيش الأعادي

وليقابلك ناصراً جيش باكستان ... يستـــل مـــرهفـــات الجـــلاد

مغمداً في رقاب بوذا ضباها ... ممطـراً حـولهـا جحيـم النقـاد

* * *

ويستمر الصراع وتتلاحق الأحداث التي نتج عنها انهيار حكم [نظام حيدر أَباد]، وتنكشف الصورة أمامه واضحة فتبرز من خلالها الأسباب التي أدت إلىٰ انهيار الحكم وانتصار الأعادي علىٰ المسلمين؛ بسبب انتشار الفساد وبما كسبت أيديهم، ومن وحي العاطفة الدينية تبرز لنا القصيدة التالية حقيقة تلك المأساة المفجعة مشيراً فيها إلىٰ الآية الكريمة من سورة الرّوم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وكيف ذهبت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة طُعمة للهندوك، ولو أنها صرفت علىٰ بناء جيش قوي مزود بالسلاح والعتاد لما تلاشىٰ ذلك الكيان وأصبح أثراً بعد عين، بين عشية وضحاها وهذه هي القصيدة:

لا تعَجَّب من انتشار الفساد	في أولي الأرض وانتصار الأعادي
فهو حكم مرتب أزليٌّ	ناتج عن غلو كسب الأيادي
مثلما جاء في القرآن صريحاً	فاتل في الروم نصه با تئاد
هذه [بانيان][1] قبل قرون	في غلول من ذلة واضطهاد
وإلىٰ قبل أمس كان عليها	من بريطانيا خزوم القياد
أصبحت ذات صولة وعتاد	ياعذيري من وقع ذاك العتاد
صب جاماً علىٰ جناب رفيع	لنظام العلىٰ بحيدر أباد
فارعوىٰ في عشية أو ضحاها	دون شب الوغىٰ وحر الجلاد

(١) يعني بالبانيان الهندوك ـ وهذا الاسم يطلق علىٰ الأغلبية من الهندوك في شرق إفريقيا.

كيف أضحت حصونه الأصفيات ... العوالي مفتوحة للأعادي
والقناطير من لجين وتبر ... من تراث الآباء والأجداد
ذهبت طعمة لهندوك عفواً ... ليتها في مدافع وزناد

* * *

إن كره الإنجليز قد بلغ ذروته في نفوس أبناء الأمة العربية والإسلامية المستَعمرة وغير المستعمرة عند ما نشبت أزمة قناة السويس ووقع الاعتداء الثلاثي علىٰ مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، في أكتوبر ١٩٥٦م وأرجف الغرب، ووقف العرب جميعاً صفاً واحداً من الخليج إلىٰ المحيط تأييداً لمصر وتعاطفاً مع شعبها وبإحساسهم المشترك فلم يروا فيهم إلا أنهم قد أصبحوا كماقال سيدي بلسان حالهم:

ثقال علىٰ الأعناق والأرض والهوىٰ ... وشراً وإفساداً وسُما منقعا
فلاحملتكم بعد ذا اليوم أرضنا ... ولا شاهدت منكم أديماً مبقعا

وقد كان لمدىٰ تأثر سيدى بهذه الأزمة أن أملى عليه إحساسه هذه القصيدة التي جاءت معبرة أصدق تعبيرعن آلام وآمال الأمة العربية قاطبة، وبدقة تصوره وتخيله للمواقف والمشاهد المحيطة وضع الصورة في إطارها الذي لم يجاوز به الحقيقة ولم يتعد به الواقع، وليس بالضرورة أن لايأتي الدفاع عن الحقوق المسلوبة والحرية المهدورة إلا من محترفي السياسة بمفهومها المعاصر.

فدور الدعاة والعلماء والأدباء دورمهم إن لم يكن من أهم مسئولياتهم المتعينة عليهم، فهم الأقدرعلىٰ بعث الهمم وإيقاظ العزائم وتنوير العقول

وبث الوعي بين الناس من منطلق الإيمان ومن قاعدة الدفاع عن الدين والوطن حتىٰ يرفضوا الظلم ولايستسلموا للذل وعندئذ يستطيعون أن يقولوا للمستعمرين كما قال لهم سيدي رحمه الله في ضمن قصيدته التي خاطب بها الإنجليز فاضحاً فيها مؤامراتهم وخياناتهم وتسلطهم علىٰ مقدرات الشعوب:

كفىٰ وكفىٰ ما سُمتمُ وسَمَوتم ... فلم تتركوا للصلح في القوس منزعا
تخذتم عباد الله بالقهر لعبة ... وسخرية مستعمرين ورتَّعا
كأن لم يكن في الأرض خلق سواكم ... يجول ويمتص البلاد تمطعا

وها هي القصيدة:

دوافع من أبناء عِيصٍ تؤزّهم ... علىٰ الحرب حتىٰ تهلك الناس أجمعا
وتقدح أزناد الحماسة فيهم ... لتقذف من غِلِّ الحفيظة مدفعا
تذكّرهم بالسالفات وماعلوا ... به من سلاح للبسيطة روّعا
وبسط نفوذ في الورىٰ متمكنٍ ... يحاوله المصري منهم لينزعا
وهم عظماء العالم اليوم والأولىٰ ... لهم صولجان الحكم وصْلا ومقطعا
تقول لهم بالأمس كان جمالهم ... وأشياعه رفدا [الجُونْ بول] خضّعا
تصرفهم منكم إشارات لندن ... فيضحوا لها طوعاً علىٰ الأرض وقّعا
وطوقتموهم بالتعاليم منةً ... ترقوا بها شأوا من المجد أرفعا
فلما نضوا طوق البداء وأعنقوا ... جزوكم من الإحسان سوءاً منوعا
فطَوراً دعايات تلوّث مجْدكم ... وطورا إلىٰ وصل العدو تذرّعا
إلىٰ أن أرادوا سد عبر حياتكم ... وتأميمها نخباً من الجَور مُتْرعا
فإن ترتضوا التأميم عدتم أذلة ... وأصبح ملكٌ نلتموه مقطّعا
وصال عليكم ذلك الفهد وانبرىٰ ... يوالي عليكم ويله متتبعا

وإن تقحموا الحرب العوان فربما تكــون عليكــم حســرة وتلــوعــا
وقد ألّبوا قبلاً أميركا وأوشكت تصارح لولا أن في العرب مطمعا
من الذهب المَعْدُون تبراً وسائلاً وفي فرخها صهيون ذخراً ومرجعا
هنالك حاست حيسة الحمر وأدعت بإصلاحها ما بينها شر مدعىٰ
ودلس [دالس][1] في البيان معارضاً سيــادة مصــر للقنــاة تصنعــا
تـوقـع هـون من جمـال إذا رأىٰ من الغرب أسطولاً هناك مجمعا
تقــدمــه [إنكلتــرا] وشمــالهــا فرنسا أمام العين للحرب بُعْبُعا
وهيهــات أن تنهــار قــوةُ أمــةٍ أشادتْ على الإنصاف صرحاً ومصنعا
هو الحقّ لا يعلوه مهما توثقت أَوَاخِيْــهِ بهتــان أضــل وأضلعــا
فقل لبني الغرب استفيقوا وأسلموا فقد آن أن تلقوا يدي السلم طُوَّعا
وإلا فـإن العــالـمَ اليوم ضـدكـم بل الغربُ منكم يستجير توجعا
تسـاوره نُـذُر الهـلاك فلـم يـزلْ لهــا كــل حيــن راقبــاً متــوقعــا
وأنتم بأيديكم سعرتم جحيمها وفصلتمـوا البلـوى قـدوداً وأذرعـا
ومن ذا لعمر الحق يلبسها سوى مفصلهــا الغــربــي خــوذا وأدرعــا
فخوضوا لظاها وانعموا بحريقها فمــا قــائــل تلقــونــه لكــم لعــى
ومن دون طغواكم صفوف بآسيا وإفريقيا مرصوصة لن تزعزعا
بها منكم سيل العنا بلغ الزبى تكاد بكم تلقي إلى البحر شرعا
فإن هجتموها سوف تغلي مراجل يعــز عليهــا أن تبــوخ وتخنعــا
كظمتم عليها بالدسائس برهة فحان انفجار يحرق الأرض أبتعا
يســانـدهــا الإيمــان بــالله وحــده وبــالحــق إســلامــاً لــه وتضــرعــا

---

(١) دالس: رئيس وزراء بريطانيا حينئذ.

تقـر لـه بـالـرق والملـك وحـده | وتجحـد مخلـوقـاً يـروم تـرفّعـا
كفـىٰ وكفـىٰ مـا سمْتُـمُ وسمَـوتـمُ | فلم تتركوا للصلح في القوس منزعا
تخـذتـم عبـاد الله بـالقهـر لعبـة | وسخـريـة مستعمـريـن ورتّعـا
وجّردتمُ من مصر صلب قناتها | فـأيـن اعتـراف بـالسيـادة وقّعـا
ومـن عجـب عقـد أئتمـار بلنـدن | كشفتم عن استعماركم فيه برقعا
كأن لم يكن في الأرض خلق سواكم | يجـول ويمتـص البـلاد تمطعـا
ثقالاً علىٰ الأعناق والأرض والهوا | وشـراً وإفسـاداً وسُمـاً منقعـا
فلا حملتكم بعد ذا اليوم أرضنا | ولا شـاهـدت منكـم أديمـا مبقعـا
وراقـت أقـاليـم السـلام بـأهلهـا | وفـاقـاً وإرفـاقـاً وجـاراً ومـربعـا
مطالع أضواء الرسالة هل ترىٰ | بغـرب النصـارىٰ للـرسـالـة مطلعـا
بلىٰ تغرب الأديان في حما عينها | .... (١)

* * *

ومن القصائد الاجتماعية القصيدة التالية التي لم نعثر منها إلاعلىٰ بضعة أبيات تروي لنا في ثنايا كلماتها ومعانيها ماتتسم به من بعد فكري وقدرة علىٰ استباق الاحداث والوقائع المسببة للتخلف والضعف والضعة التي منيت بها المجتمعات العربية في كينياء، في غياب القيادة الحكيمة التي ظلت ممثلة في رجالاتها الذين خلف من بعدهم خلف لم يستطع الوقوف ضد التحديات، أو الصمود أمام الأحداث والتقلبلات السريعة وتحول الأوضاع المرتبطة بكل جوانب الحياة تحولاً خطيراً، ظل خافياً علىٰ من شغلته شئون

---

(١) هكذا بياض في الأصل.

دنياه والقضايا الهامشية عن الحياة الحرة الكريمة، وفوق مستوىٰ أولئك الذين لم يتدبروا الأمور بحكمة وشجاعة فاختلت المقاييس واختلفت الموازين، دَعْك عمن نكَصُوا علىٰ أعقابهم فأصبحوا خاسرين، ومن هنا ندرك كيف كان اهتمامه رحمه الله وكيف كان حرصه علىٰ أن تظل هذه المجتمعات مُهابةَ الجانِبِ قوية الإرادة معززة المكانة حسنة السمعة، وأنْ يظلَّ الزعماءُ عند حسْن ظنها كما كانت من قبل، ولكن هيهات! فقد تلاعبت بهم الأهواء وتمادىٰ بهم الداء واستحكم، وعز الدواء واستعصىٰ الشفاء، فحق له أن يقول بكل أسىً لمن يحاول التشبث منهم بالمظاهر التي ليس وراءها إلا المزيد من الضياع:

زيدوا شجاراً في الهوىٰ ومراسا ... وارموا صميم العرب في ممباسا

واستحضروا مؤن التقاعد واحفروا ... للمركزية[١] في العرىٰ ديماسا

عشرون ألفاً كان فيكم ظنهم ... حسناً فصار الظن منهم يأسا

يتغاورون علىٰ مراتب لو دَرَوا ... تبعاتها لتجنبوها رأسا

أسد علىٰ إخوانهم وثعالب ... عند الأجانب يا لهذا بأسا

أوَ يستتب نظام قوم أدخلوا ... في الصدر من جلساتهم نخّاسا؟!

يعدو علىٰ كبرائه تيهاً ولا ... يرعىٰ مجالسهم ولا الجلاسا

رَعْدٌ بلا مُزْنٍ وجعجَعةٌ بلا ... طحْنٍ وفوضىٰ تورث الوَسْواسا

---

(١) المركزية: الجمعية العربية المركزية في ممباسا التي كان يَرأَسُها ويرعىٰ شئونها السيد محمد بن عبد الله الشاطري، وهو من الشخصيات العربية المرموقة.

وعلىٰ ما أذكـر فإن ما تبقىٰ من القصيدة كان بمثابـة تحذيـر وإنـذار وتذكير، ولكن أنَّىٰ لمن في أذنه وقر وفي قلبه عمىً أن يوقضه التحذير أو تنفعه الذكرىٰ.

* * *

في ظلال الإخوانيات والذكريات

ومن الإخوانيات سنختار بعض القصائد لعلنا نستكشف من ثناياها مدىٰ التفاعل الذي تتولد منه مشاعر المودة والمحبة، ونقرأُ بين أسطرها عمق الروابط من خلال الكلمة المعبرة المنبعثة من أعماق النفس، فنشهد كيف تنقل الأحاسيس والمشاعر إلىٰصور تبرز من إطارها المقدرة الإبداعية في قالبها الشعري وفق ما تمليه المناسبة من دلالات ذات معنىً، حتىٰ ولوكانت عتاباً كما في هذه القصيدة التي بعث بها سيدي رحمه الله إلىٰ من يعتبرعنده من أعز الأحباب وأجلهم قدراً وهو ابن اخته السيد العلامه طاهر بن علوي ابن طاهر الحداد مقدماً لها بقوله:

بتاريخ أول ذي القعدة سنة ١٣٧٢هـ بعثتُ بقصيدة عَتَبية للأخ العلامة طاهر بن علوي الحداد إلىٰ المكلا عندما تراخىٰ جوابه علىٰ مكاتيبَ عدّةٍ واتَرتُها إليه، فقلت:

هب أن ميناء المكلا حاشد ... بالفُلْك شاحنةً من الأرباح لك

أو أن أحداث الجزيرة كلَّها ... معقودةً بك في الضياء وفي الحَلَك

أو أن مالكة الجمال وأنت في ... رَغبائها زفت إليك علىٰ وشك

أو أن معضلة ينوبك حلها ... وقد ارتمىٰ العلماء منها في شرك

أو أن من تهوىٰ بلاك بصَدِّه ... فغدوتَ من وجْدٍ علىٰ مثل الحَسَك

أو أنّ عادية الهموم تعرضتْ ... لصفاء عيشك بالقلاقل فارتبك

أفليس تلفىٰ في زمانك برهة ... تملي الجواب بها علىٰ من أمّلك؟!

يا أوحد الأحباب بل يا ماجداً رفعت قواعد مجده فوق الفلك
ها قد كتبت إليك نظماً بعدما أعيا جواد النثر لي في كل صك
وطفقتُ ألتمس الجواب بكل ما يفضي إليه ولو بواسطة الملك
ولقد أتتني الآن أمّك تشتكي شكواي من ودع الكتابة والدرك
حتىٰ بذكرىٰ العيد واليوم الذي بالوصل فيه الشرق بالغرب ٱشتبك
قالت: تفضل يا أُخيَّ ٱكتب له بالحال جمّله الإلهُ وجمّلك
فإذا أجاب فقد أجاب وإن يدع فمقالُنا: لبيك إن الحمد لك

* * *

فأجاب عليها لا فُضَّ فوه وأبدع فقال:

وصلتْ تشقُّ بنورها الليلَ الحلك كالنجْم يجري في مدارات الفلك
حسناء في سلك القريض تنظمت يتِمَتْ لآلئُها فأغنت من ملك
جاءت تروع بلفظها الأسماعَ بل تسبي القلوب فترتمي فوق الشرك
أما المعاني فهي أرواح من القدس العلي هفت بها روح الملك
لاغرو أن تبدو كذاك وَرَبُّها من قاد ناصية البلاغة وامتلك
هبط القريض عليه في فجر الصبا وتنزلتْ آياته من غير صك
يا من حذىٰ حذو الهداة وأمَّهم وعلىٰ قواعدهم بنىٰ حتىٰ سمك
وصل العتابُ كأنه حلو الرضاب جرىٰ به عذب المباسم والدَّرك
أنا في مغالبة الزمان وحربه أنا والوقائع دائماً في معترك
من كان في قَبْو المكلا قابعاً من ربه يرجو سريعاً أن يُفَك
لا تلحه إن قصرت خطواته لغبان لم يجد الذميل ولا الرتك
قل للذي قد جاء عندك شاكياً قدم شكاتك عند ربك يرْثَ لك

قـم فـي الظـلام وقـل لـه: يـا راحـم المظلـوم ارحـم مـن دعـاك وأملـك

آتيتنـي غـرسـاً تعبـتُ بغـرسـه ... حتىٰ نما وزها وجا منه الدرك

فـأُريـدَ ظلمـاً أن يكـون لغيـر مـن ... ربـاه يـا ربـاه يـا مـا أعـدلـك

أنا حائر قصدي رضاكم ليس لي ... قصد سواه وقلبي المضنىٰ معك

الله يعلـم أننـي أحنـو علـىٰ ... قلـب أحـب قـرابتـي حتـىٰ نهـك

نشأت به الرحمات حتىٰ أورقت ... والتفّ غصني بالغصون بل اشتبك

لا يحمـل الحقـد القـديـم ولا بـه ... غلٌّ تغلغل في الجوانح واستبك

لكنّـي راج مـن الـرحمـن مـن ... يرجوه يصلحْ أمره من غير شك

* * *

وإذا وقفنا وقفة قصيرة أمام هاتين القصيدتين التاليتين، ندرك أن الإنسان قد يشعر بالحاجة إلىٰ التنفس والبوح بما في أعماق نفسه بأي صورة تنقل تلك الأحاسيس، وما أجمل أن يقف المرء أمام صورة من تلك الصور التي تعبرعن خلجات النفوس أصدق تعبير فيشعر مع رقة ألفاظها وروعة معانيها ما يسري به عن نفسه بعض اللواعج والأشجان والمواجيد.

وكلما كانت الإخوانيات ذات ارتباط بالمنازل والديار كلما كان أثرها في النفوس أعمق، والقصيدة التالية تمتد بنا عبر الذكريات الخوالي الدالَّة علىٰ متانة الروابط التي عبَّرعنها سيدي رحمه الله مخاطباً صاحب المكارم والمحامد الشيخ الفاضل حسين بن عبدالله باسندوه بقوله:

ما مر بي فوج النسيم ولا شَدَتْ ... ورقـاءُ أو خفقـت لـدان غصـون

إلا ذكـرتـك يـاحسيـن وهـاج بـي ... شجـو تمكـن مـن قـديـم سنيـن

وهذه هي القصيدة:

كم ذا سررت بخطك الميمون — وزهت بفضل الإستلام يميني
إذ جاءني من بعد شهرين انقضت — متراميًا بين المكاتب دوني
لم لا أُسَرُّ وقد أتاني طرفة — من خير قولٍ من أعزِّ خدين
فالخط نصف الملتقىٰ وبنفث ما — يملي من الأنباء بَرد شجوني
فالحمد لله الذي جعل اللقاء — بالروح سر القرب والتمكين
لكن قرب الدار في ذي الدار يعطي متعة للروح في ذا الطين
للإزدواج المقتضي حكماً كما — قد جاء في (والتين والزيتون)
يهوي هبوطاً إن صغى للطين أو — يعلو صعوداً نحو عليين
ولذا نرىٰ جلَّ الورىٰ في سكْرة — الدنيا وزينتها بحال جنون
إلا الذي ينساب في سبل الندىٰ — ويكون مدَّخراً ليوم الدين
ذاك الذي يختار من دار العنا — وسواه يفضي للعذاب الهون
حسبي من الأيام ما ألقىٰ وأولىٰ — بي حديثي عن غريب شئوني
ما مر بي فوج النسيم ولا شدت — ورقاء أوخفقت لدان غصون
إلا ذكرتك ياحسين وهاج بي — شجو تمكن من قديم سنين
رعياً لأيام الصَّفا بخُرَيبة — وقِرَينها وقُوَيرةٍ وهُدُون[1]
وبمسقط الرأس التي نيطت عليَّ — بها عقود تمائمي قيدون
وبمشهد وحريضة وبعَمْدها — ونصاب ذكرىٰ قُطبها تشجيني

---

(١) رَعياً لأيام الصفا: يشير إلىٰ البلدان الأربع، وهي: الخريبة، والقرين، والقويرة، وهدون، وكلها بأعلىٰ وادي دوعن، ثم يشير إلىٰ بلدانٍ أخرىٰ في الأبيات علىٰ امتداد وادي حضرموت.

وبما حوىٰ وادي ابن راشد من تريم الخير نقطة مركز التعيين

وبسفح عينات المنير وشيخها ... فخر الوجود ونسله المأمون

وشبام لا تُنْسىٰ وحوطة أحمد ... ومآثر الوادي إلىٰ سيئون

تلك المنازل من كريم جوارهم ... طالت علىٰ العَيُّوق والنّسْرين

فُتِقَتْ علىٰ التوحيد ألْسُنُنا بها ... وقلوبنا مُلِئتْ بحبِّ الدين

ذقنا بها بَرْدَ الحياة وصفْوَها ... سعداء بين الصحب والأهلين

نشأت علىٰ القرآن نشأتنا بها ... والذكر والإنشاد بالتلحين

وعلىٰ القناعة فطرة عاشت بها ... في ظل شرع للنبي مصون

لا همَّ للدنيا يساورها ولا ... لزخارف عصْرية وفتون

قَدْرُ الريال متىٰ تيسر عندها ... في كفة الميزان كالمِلْيُون

معمورة أسرارها بعقائد ... للدين صافية وحسن ظنون

فإذا تصدت للتجارة والغنّا ... ضربت بسهم في النجاح ثمين

تلك الطريقة للحقيقة أوصلت ... من غير ترويض ولا تمحين

عنها أفاد مبّيناً حدّادُنا ... بطريقة تعزىٰ لأهل يمين

هي عين شرع المصطفىٰ من واجب ... لا يمترىٰ فيه ومن مسنون

سمة بها غُرُّ الحضارم في الحجاز وجاوة عُرِفوا وأرضِ الصين

وبها علىٰ أهل السلوك تميّزوا ... لتواضعٍ جبلوا عليه ولينِ

يَقْفُون بالأعمال لا الأقوال خطتها وبالإحسان لا التحسين

وإذا هم ارتحلوا عن الوطن اقتفوها في سهول مقامهم وحزون

تلتاح فيهم صبغةٌ تومي إلىٰ ... ما في السرائر من هوىً مكنون

هذا مثال غالب فيهم وكم ... من حائد عن سيرهم مغبون

لم يدر ما درجت عليه أصوله فشرىٰ عزيز متاعه بالدون
واغتر والتبست عليه أموره فرمىٰ بقرن الشر خير قرون
هذا القضا والخلف موعودٌ به والأمْر مبني علىٰ التسكين
واقبل مسطَّر واردٍ مستصبح من ﴿نٓ﴾[1] مرويٍّ بحرف النون
وعلىٰ النبي صلاة مولانا ومن والاه ما اخضرَّ الثرىٰ بمزون

* * *

نعود بعد مرورنا علىٰ الأطلال واسترجاع ذكريات المنازل والديار ومراتع الصبا لنشاهد صورة أخرىٰ من صور الود الذي نمىٰ وأثمر وتعانقت أفنان دوحته علىٰ حب سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وهنا ما يحفز النفوس ويشوقها للتنقل في تلك الرياض وريفة الظلال إنها رياض من جنان حديث المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم جمعت علىٰ التقوىٰ عصبة من صالحي الإخوان ينهلون من معينها العذب فطابت مشاربها وأصبح شملها موصول العرىٰ بسيد الكونين وقد عبر سيدي رحمه الله عن كل ذلك في القصيدة التالية التي أنشأها إعراباً عن تقديره وشكره للمشايخ الكرام حسين بن عبد الله باسندوه وأولاده علىٰ إحياءهم ليلة الجمعة من كل أسبوع لقراءَة البخاري في منزلهم العامر بجدّة مخاطباً إياهم بقوله:

أبني الأطايب من أساطين الورىٰ والنازلين من الولاية في الذرىٰ
في السِّنْدِ من زمن وفي وادي الندىٰ (من دوعن) والأصل من أم القرىٰ
في سرة البطحاء من نُجرٍ سما خبراً وطاب لدىٰ التفاضل مخبرا

---

(١) القلم: ١.

سبق القضا في الود فيما بيننا فزكا بمخْضَلِّ الوصال وأثمرا

وتعانقت أفنان دوحته على حب النبي ومن يوالي حيدرا

مِقَةٌ مع الإيمان والتوحيد قد خَطّت بمكنون السرائر أسطرا

تزداد ما طال الزمان تمكناً كالتبر مهما دالَ زاد تجوهُرا

وبه تضُوْعُ مجالس الذكرىٰ لنا ومدارس الآثار مسكاً أذفرا

جمعاً علىٰ التقوىٰ وإحياءً لما قد كاد من سُنَن الهدىٰ أن يُهجرا

وتعرضاً بالقصد للنفحات ما هبت نسائِمُها وبارِقُها شرىٰ

لم لانطيب وقد رتَعْنا في رياض من جنان حديث مختار الورىٰ

طب القلوب حبيبنا المحبوب من لولاه ما ضاء النهار وأسفرا

نتناوب الأقداح من نبع البخاريِّ الذي خدم الحديث وحررا

وغدا لستّتنا أصحَّ مؤلَّفٍ عقدَتْ خناصِرَها عليه بلا مرا

ونشنف الأسماع من منثور ما يروىٰ عن الأسلاف دراً مزهرا

في عصبة من صالحي الإخوان قد طابت مشاربُها وراقَتْ منظرا

لا زال مجتمعاً عليها شملُهم وبسيد الكونين موصولي العرىٰ

متوسلين بجاهه في مأمن مما به صفو الزمان تكدرا

مستصبحين بنوره الوضاء قد نبذوا مخاصم من نبجّله ورا

هذا ولما لاح من صدق الولا للقلب ما هزّ اليراع وأجْبرا

راودت ربات القريض فجُدْن لي بالنزْر مما أبتغيه كما ترىٰ

لازلتم في نعمة ومراتب ترِدُون عقباها هناك الكوثرا

وعلىٰ النبي الأبطحيِّ محمدٍ صلواتُ رب العرش ما سيلٌ جرىٰ

* * *

كان سيدي رحمه الله كثيراً ما يقول: لقاء الإخوان من حسنات الزمان، وما من قطر من الأقطار التي زارها أو أقام بها إلا ويجد نفسه محاطاً فيها بالأحباب والأصحاب وهذا لايتعارض مع مايقال عن أهل هذا الزمان وندرة الخل الوفي فيهم، أو مع قول القائل:

ألا إن إخـــوان الصفـــاء قليـــل فهـل لـي إلىٰ ذاك القليـل سبيـل
قس الناس تعرف غثهم من سمينهم فكـــل عليـــه شـــاهـــد ودليـــل

وقد تجد السبيل إلىٰ ذلك مع من يقول:

الأخـــلاء فـــي الـــرخـــاء كثيـــر فـــإذا مـــا بلـــوت كـــانـــوا قليـــلا
وإذا مـــا أصبـــت خـــلاًحفيظـــاً راعيـــاً لـــلإخـــاء بـــراً وصـــولا
فتمســـك بحبلـــه أبـــد الـــدهـــر وأكـــرم بـــه أخـــاً وخليـــلا

وهو رحمه الله مع القائل:

ومـــا المـــرء إلا بـــإخـــوانـــه كمـــا تقبـــض الكـــف بـــالمِعصَـــمِ
ولا خيـــر فـــي الكـــف مقطـــوعـــةً ولا خيـــرَ فـــي الســـاعـــد الأجـــذمِ

* * *

وكان رحمه الله وفياً لأصحابه ولم يكن له أعداء يخشىٰ مكرهم طيلة أيام حياته ولكن حساده كثيرون، يحسدونه علىٰ مكانته العلمية المرموقة وعلىٰ السمعة الطيبة التي احتل بها المنزلة الرفيعة في قلوب الناس فأحبوه وأقبلوا عليه، ولم يرُدّ علىٰ حساده إلا بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وربما اتخذ من العتب الجميل وسيلة لجلب الكثير ممن يتوسم فيهم الاستجابة لدواعي الخير والتخلي عن نوازع الشر، وكثيراً ماكان يردد

الأبيات الشهيرة المنسوبة إلىٰ الإمام علي زين العابدين رضوان الله عليه عندما يشعر بإعراض البعض.

وهـي:

غنينا بنا عن كل من لا يريدنا ... وإن كملـت أوصـافـه ونعـوتُـه
فمـن جـاءنـا يـامـرحبـاً بمجيئـه ... يجـد عنـدنـا وداً صحيحـاً ثبـوتـه
ومن صد عَنّا حسْبُه الصدُّ والقِلىٰ ... ومـن فـاتنـا يكفيـه أنـا نفـوتـه

* * *

ولا يسعده شيء كاجتماع الإخوان في رياض العلم وعلىٰ موائد الأدب والمعرفة، وبالأخص مع من يبادلونه خالص الود وممن يعتبرهم من الأخلاء الأوفياء أمثال أولئك الذين التقىٰ بهم في أبوظبي وقضىٰ معهم أياماً نعم بأوقاتها وذلك خلال شهر جمادىٰ الثانية سنة ١٣٩٩هـ الموافق شهر مايو ١٩٧٩م، وفي طليعتهم السيد هادي بن أحمد الهدار، والشيخ الفاضل الأديب محمد الغسّاني الذي تمثلتْ في شخصه صفاتُ الخل الوفي مع ندرة وجودها؛ فجاءت القصيدة التالية معبرة أصدق تعبيرعما شاهده وما لمسه من كرم الضيافة وأنس الصحبة مما عبر عنه بلسان الحال فقال:

قيـل لـي: هـل رأيـت خـلاً وفيـاً ... مستجـاد الخـلال فـي ذا الـزمـانِ
قلـت: هـذا مـن النـوادر لكـن ... قـد رأينـا محمـد الغسـانـي
خـالـص الـود مـن سجيـةِ نفْـس ... فيـه مفطـورة علـىٰ الإحسـان
مـن أصـول كـريمـة واتصـال ... بـالمحـاميـد مـن بنـي عـدنـان
آل علـوي وحسبـه ذاك غنمـاً ... وبهـادي بـن أحمـد الـربـانـي

مَن علىٰ حبه القلوب تلاقت — وتباهىٰ بسرها الوالدان
وأنار الخليج منه سناء — مستمد من مفخر الأكوان
منه ماشئت خذ نوالاً وعلماً — ومدىٰ حكمة وحسن بيان
آنساني وأنسياني بلادي — وبأسنىٰ محلَّةٍ أنزلاني
وتنعمت في [أبو ظبي] وقتاً — استعرناه من حلا رضوان
نتعاطىٰ فيه من الأدب الغض — كؤساً تزرىٰ بخمر الدنان
رسخت بيننا المودة فيه — كرسوخ العلوم في الأعيان
إن طيب الحياة يقرن طيب الروح في كل موطن وأوان
وبقلبي محاضراً في الفناء الرحب ضمت أكارم الإخوان
كابن شيخ والشاطري المرجَّىٰ — وبنيهم طراً كعقد الجمان
والأريب الوهطي والبارع الحداد والشيخ سالم الميتاني
ولئن طاب ذكر أهل المعالي — فعلىٰ الخزرجي تلقي الأماني
لا تلومون من قد شدا بحلاه — فهو في القوم درة التيجان
وختام الأبيات أزكىٰ صلاة — وسلام علىٰ الحبيب اليماني
وعلىٰ آله وصحب له ما — رن صوت الأذان في الآذان

* * *

وقد عبر الشيخ الأديب محمد الغساني عن مشاعر الحب والابتهاج بوجود سيدي بين ظهرانيهم من خلال الأبيات التالية:

أشرق الصبح علينا بالتمام — بقدوم العالم الحبر الإمام
سيدي أحمد مشهور الذي — قد رقىٰ في مجده أعلىٰ مقام
جاءنا بالفضل في تشريفه — للإمارات ومن فيها أقام

من محبين له قد وفدوا ... وعلىٰ رأسهم الفذ الهمام
سيدي الهدار هادي أحمد ... نمَّ فينا جل حب وغرام
لأهل بيت المصطفىٰ من حَبَّهم ... هم له نور به يمحىٰ الظلام
فبسيدنا ابن طه مرحباً ... بقدومه عامُنا بالخير عام
فسيبقىٰ في هناء وله ... عيننا والقلب نزل ومقام
وسيبقىٰ ما بقي ما بيننا ... أو بقي في القلب حب واحترام
ونؤمل من إلهي ربنا ... نيل غايات الأماني والمرام
سائلاً ربي تعالىٰ جَدُّه ... بهم نحظىٰ علىٰ حسن الختام
بارك الله لنا في سعينا ... نحو أهل الله سادات كرام
وصلاة الله تغشىٰ أحمد ... المصطفىٰ الهادي النبي بدر التمام
وآله والصحب هم والأولياء ... لأهل بيت المصطفىٰ مسك الختام

* * *

وروابط الصلة والمحبة بين سيدي وبين السيد الهمام العالم الأديب هادي بن أحمد الهدار روابط وثيقة وصلة متينة ومحبة عميقة الجذور وإلا لما كان يبعث إليه بمثل هذه القصيدة العتبية التالية وقديماً قيل: ويبقىٰ الود ما بقي العتاب.

قال سيدي:

لعمرك ما أدري أأكتب بادئاً ... فينزل عن قدر الأماثل مقداري
وقد فات وقت الانتظار وطالما ... ترجيت من هادي عُلاَلة أخبار
وإن حطني البخت المشوم عن الذرىٰ ... وأعلاه هل تنسىٰ سوالف آصار
وهل من خلال الهاشميين ترْكُهُم ... أخا الود في وادي القطيعة والجار

علىٰ أن رفع القـدر يولي تواضـعاً كذا جاء عن أسـمىٰ نبي ومختـار
فيـا لبنـي قـومـي ويـا لأحبتـي ويا لذوي الإنصاف في كل الأقطار
أيجمـل مـن هـادي قطيعـةُ عمـه وقد كان يروي النقع من فيضه الجاري
يصـدّ عــن الحـدادِ ستـةَ أشهـر بـلا خجـل شغـلاً بمنْصِبـه الطـاري
ومـا هــو إلا محنــةٌ ورســالــة لمستمـع الإمـلاء تـرصـد والقـاري
سـلامٌ علـىٰ هـادي سـلامَ مسلِّـم ورعياً لودٍ نُصْبَ عيني وتذكاري
ولولا اعتصام منك بالسند الذي سنـا بِـره فـي كـل نـاحيـة سـاري
شجاع المعالي سيد القوم والذي بـه زنجبـار طـاولـت كـل أمصـارِ
لما أهراق بالنظم الطفيليِّ هيناً مِدَادي ولاجاشت بعهدي أشعاري
وقِسْمي من فخر الوجود موفّر ومن أحمد الهدار مقْتَبَسي واري
ولي بأبيك البر ما هو موجب ومن خالك الموهوب أدركْتُ أوطاري
ألا صِلْ أو أفصل إنّ عهديَ ثابتٌ وَعِـذْلـيَ محمـولٌ علـىٰ متـنِ هـدار

* * *

وقد كان لكل منهما في هذه الفترة ما يشوش فكره ويشغل باله في مهجره الجديد، فمن مسؤوليات الدعوة وما تفرضه من عمل متواصل يواجه سيدي الكثير من العناء والجهد في العاصمة اليوغاندية [كمبالا]، وفي الجزيرة الخضراء التابعة لزنجبار يعاني السيد هادي من قيود وظيفة القضاء مايعوقه من الانطلاق الحر الذي كان يعهده قبل توليه هذه الوظيفة، وربما شغلته بعض الشيء عن فروض المجاملة التي منها مبادلة الرسائل مع الأحباب والأصحاب وتبادل القصائد بينهما بما تحمله من مشاعر الحب المتبادلة، فإنها تذكرنا بالفترة الزمنية التي شهدت مرحلة من مراحل الاستقرار الذي

كان العرب يعيشون تحت ظلال سلطنة زنجبار وملحقاتها، وعاشته الجالية العربية في أوقاندا وفي كينيا، تلك المرحلة التي عصفت بها الأحداث فيما بعد، فأنهت نظام الحكم العربي في زنجبار بقيام الثورة الشيوعية سنة ١٩٦٤م. وانضوائها تحت نظام الحكم الشيوعي في [تنقانيكا] لتصبح بعد ذلك جزءاً من [جمهورية تنزانيا]، والانقلابات العسكرية المتلاحقة التي شهدتها جمهورية [يوقاندا] ضد نظام الرئيس عيدي أمين وإبعاده عن البلاد، وتبدل الأوضاع في كينيا عقب استقلالها، وأثر ذلك علىٰ المجتمع العربي.

وعودة سيدي الوالد إلىٰ كينياء بعد أن ترك [أوقاندا] كان لها أثرها وتأثيرها علىٰ مسيرة الدعوة بل وعلىٰ النشاطات العلمية والأدبية في حياته العلمية إذ لم تكن أحسن حالاً من أوقاندا إلىٰ حد يُمَكِّنه مما كان يطمح إليه في خدمة الدعوة ونشر العلم، وباعتبارها مهجراً وليست وطناً يتحتم عليه أن يفديه بالغالي والرخيص إلا أنه لم يتخل عما توجبه عليه مسؤولية الداعية ومهمة المرشد الموجه وطالما بلَّغ وأنذر ونصح وحذر خاصة بني قومه، ولكن النتيجه لكل ذلك الجهد هي كما عبر عنها رحمه الله في إحدىٰ قصائده بقوله:

ولقد أهبْتُ بكلِّ صوتي منذراً قومي فلم تصدُقْ هناك ظنوني
إذ فاتهم وعْيُ الكمال وخلّطوا ما بين غث أمورهم وسمين

* * *

نعود ونقول امتداداً لما قبله، إن مكانة السيد هادي لدىٰ سيدي تبدو جليّة وواضحة من خلال أسطر هذه القصيدة الجوابية:

غـدافيّـة الأعطـاف دريّـة القلـب … ممنعــة الأطــراف دانيــة اللــب

سرىٰ أرج التبشير من طيب وصْلها … فأنعش من حقل الهوىٰ ذاويَ القُضب

بدت كمنير البدر في غيهب الدجىٰ … فجلت بباهي نورها ساجِيَ الكرب

ولمـا تـوارت بـالحجـاب وسـدلـه … عذابٌ علىٰ الأحباب أسلمت للحب

لإيـذانهـا بـالإنبـلاج وقـدْحِهـا … لطـول تـأَبِّيها زنـادَ هـوىٰ الصـب

سلام علىٰ الصنو الكريم فإن في … يديه عنان البعد يرخيه والقرب

وفي ذينك الأمرين فهو مقرب … بمن حل في عينات عاطرة الكثب

ومـن فـي المكـلا قـد تبـوأ قبـة … مجللةً نافت عُلاءً علىٰ الشهب

وبالعطف من غوث البلاد ابن أحمد … شجاع المعالي والكرامات والحدب

هو ابن سميط مبلغ الركب للحمىٰ … وساقي الحميَّا ساقة العجم والعرب

وباللطف من أخلاقه الغرر التي … تنسّيك فوح المسك والمندل الرطب

وبـالعهـد لا ينسـاه طـولَ حيـاتـه … وبالعلم والمعروف والمنزل الرحب

مـزايـاه أرويهـا ليـرمـق حسنهـا … ويزداد من شكرانها المدد الوهبي

وأعنـي بـه تِـرْبَ الهـداية هـاديـاً … سليل بني الهدار أسيادنا النجب

وإن كان يرعـىٰ الحق لي فلبيتـه … عليَّ امتـنانات وعـرفانها حسـبي

ودونـك مـن رَهْـن البعـاد مـرقّعـاً … جواباً علىٰ أبياتك الحلل القشب

أعـارتـه يـوقـانـدا السـديمـة لـوثـةً … وأعرته من فضفاض منطقه العذب

ولكن بحمـد الله لم تلـف مغمـزاً … بدينيَ أو دنياي في عودي الصلب

فغُضَّ عن التقصير واسمَحْ بدعوة … يطيبُ بها قلبي ويُمْحىٰ بها ذنبي

* * *

وبما أن هذه القصيدة قد جاءت رداً علىٰ قصيدة السيد هادي كما أشرنا إلىٰ ذلك من قبل فإنه يستوجب علينا أن نورد تلك القصيدة وها هي:

إلىٰ من له حبٌ تمكن في قَلْبي ... ومن ذكْرُه روحي وراحي بلا ريب

إلىٰ من له يزداد شوقي ولم يزل ... لواعجه تُذْكي وتشعل بالجذب

إلىٰ من أراه نصب عيني ومن إذا ... جرىٰ ذكره ما بيننا ينجلي كربي

إلىٰ الكوكب الوقاد في أفق العلىٰ ... حليف الندىٰ والعلم والفضل والكتب

إلىٰ من رقىٰ أسمىٰ المراتب طائراً ... بأجنحة التوفيق يعلو علىٰ الشهب

إلىٰ شيخنا الحداد أحمد فيلَقِ العلوم الذي قد حَلَّ في المنزل الرحب

لحضرته أهدي شريف تحيّتي ... تعبر عن ود وعن صادق الحب

فيابن الكرام العارفين أولي النهىٰ ... ويابن الأولىٰ السابقين الىٰ القرب

ويابن الإمام الغوث حدادنا الذي ... سرىٰ نوره في الشرق حقاً وفي الغرب

تذكرتُ عَهْداً سابقاً بيننا مضىٰ ... [بممباسةٍ] في طيب عيش وفي خصب

وكانت كؤوسُ الأنس والصفْو بيننا ... تدارُ ولم يحضر هنالك من خب

وكانت بكم [ممباسة] تزدهي سناً ... وعلماً وقد كنت المقدم للركب

وكنت بها نجماً مضيئاً معززاً ... تحلل فيه للمشاكل والصعب

فأنّىٰ لهم قطعاً بمثلك عالماً ... حكيماً يجيد العوم في العلم والطبِّ

وكنت طبيباً للقلوب بوعْظِكم ... وإرشادكم بالمنطق الساحر العذب

إذا قمت في حفل أجدت خطابةً ... وإلقاؤك الجذاب يسحر لِلُّبِّ

وواجبكم أديته كاملاً لهم ... ستشكرك الأجيال دوماً مدىٰ الحقب

وقد صرت في [كمبالة] اليوم داعياً ... إلىٰ الله بالإخلاص للعجم والعرب

فيا سيدي إبن يناديك واقفاً ... علىٰ بابكم هل ترحمون لذا الصب

قصارىٰ مناه أن تجودوا بعطفكم ... عليه وتولوه القبول وبالجذب
وقد قلت أبياتاً وقدمتها إلىٰ ... أبينا الإمام العالي القدر والكعب(١)
وحازت رضاه بعدأن تُليت له ... علىٰ رغم ما فيها من الضعف والعيب
وبشرني يا سيدي وأحالني ... علىٰ الشيخ أبي بكر ابن سالم القطب
وأرسلت نقلاً سابقاً باسمكم لكي ... تهذبها كي تستقيم علىٰ الدرب
وطال انتظاري للجواب ولم تجد ... جواباً لهذا صرت أحير من ضب
وإني أريد العفو في كل ما مضىٰ ... ففضلاً أقيلوا عثرتي واغفروا ذنبي
وهذا لتوثيق الروابط بيننا ... أحرره يابن الجهابذة النجب
عليك صلاة الله بعد رسوله ... محمد المحمود والآل والصحب

* * *

ومن الإخوانيات التي تعودُ بنا إلىٰ سنة ١٣٥١هـ هذه القصيدة الأدبية، نظمها سيدي معتذراً بها للشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني ـ أحد أدباء زنجبار المبرزين ـ عن موعد وعده إياه وحال دونه عارض قهري لم يكن في الحسبان وقدمها إليه قائلاً:

أينفعني من بعد خُلْف كلامي ... تحرّق أسنانٍ وعضّ بنام(٢)
وشاغل وجد في الحشا وتحسر ... تخور له وهي الشداد عظامي
وتنضيد أعذار تسدد رمية ... خلافاً بها طاشت عليَّ سهامي
بلىٰ إنّ عفواً عند داعية الجفا ... من الصادق الموفي أعزُّ مرامي

---

(١) يعني به الحبيب عمر بن أحمد بن سميط.

(٢) (وعض بنام) كذا جاء في الأصل.

أبي الحارث الشهم الذي العفو دأبه وذلـك أدنـىٰ فضلـه المتسـامـي

لقـد رابنـي داع علـىٰ وعـد بيننـا لأحضره من مَحْضِ عنصر حامي

عَشِيَّتَمَـا وافيتُـكـم ووعـدتُـكـم وقلـت سـأقضـي وقفـةً بـذمـامـي

فمـا راعنـي إلا سحـوق محلـه بـأقصـىٰ مكـان فـي الـورىٰ ومقـامِ

وقد سبق السيف الملام وقادني وصحبي معي حكم القضا بزمام

إلـىٰ هُـوَّةٍ زرنـا غيـابـات جُبِّهـا فبينـي وبيـن المنظـريـن مـرامـي

فـوا لـوعتـي أنّـىٰ أفـي لمحمـد بوعدي وقد جاءت جيوش ظلامِ

ووافىٰ علىٰ الميعاد صادق وعده فيـا نـاشـداً يفـديـك رهـن هيـام

نجا من غياب الجب وهو بوعده رهيـن فهـل بشـرىٰ لحـال غـلام

وإني علىٰ فعلي لبالصفح واثق مـن ابـن علـي واعتصـام عصـام

حميد السجايا من يذكرنا الصَّبا لطـائفـه الحسنـىٰ وقطـر غمـام

فما البرق إذ يفترّ عن رسل عارض حفـي علـىٰ جـدب الثرىٰ بسجـام

أبـر وأسنـىٰ مـن تبسمـه لـذي ودادٍ علـىٰ لُطْـف وطيـب كـلام

ولمـا تصـدىٰ للفضـائـل واجتبـت فضيلتـه كفـواً لخيـر وئـام

بـذلنـا لهـا منـا الـرَّفـاء لحقهـا علينـا فقـد نـالـت قـران همـام

كـريـم نجـار مـن أعـاظـم أسـرة تـرقـت مـن العليـاء فـوق سنـام

فيالك من ندب له الحلم والوفا وسـامـان إن يعلـو امـرؤ بـوسـام

وصـافيـة الآداب منهـل شـربـه إذا رُوِّقـتْ جـامـاً متـابـع جـام

وكـم قلـد الآداب مـن غـضٍّ دره سُمُـوط معـانٍ لـم تنـل بسـوام

يحق له عقد الخناصر من أولي البيـان وإدلاء بسلـك نظـام

ورابطـة الآداب بيـن فحـولهـا أمـتّ مـن الأنسـاب بيـن رحـام

ودونك نجوىٰ من تُنازِعُه النوىٰ ... سكـونـاً بـه يمتـد بعـض جمـام
فيعـرب عـن شكـر بعفـوِ كـلامُـه ... ويبـذل عـن وسـع بحلـب صـرام
وينصر دعوىٰ من يرىٰ الشعرمذهباً ... علىٰ حكمـة يسـدي وقـول سـلام

وبرغم أننا لم نعثر سوىٰ علىٰ هذا القدر الذي نشر من القصيدة إلا أننا أصبنا منه ما فيه الكفاية من حيث أنه قد أوجز فيه وأوفىٰ، وكيف لايكون تبادل المشاعر بمثل هذه الصورة، ورابطة الآداب بين فحولها أمَتّ من رابطة الأنساب، وقد قيل في المثل السائر: العلماء إخوان علة.

وقد نشرت هذه القصيدة تحت باب (في مجال الأدب) بالجريدة الرسمية في زنجبار في القسم العربي يوم السبت ١٧ جماد الثاني ١٣٥١هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٣٢م، بعد هذه المقدمة: (يسرُّنا أن نتحف قراءنا بهذه الخُودِ الأدبية التي زفها السيد أحمد طه الحداد إلىٰ صديقه الشيخ محمد بن خميس البرواني، وكان سبب إنشائها هو أن الصديقين كانا قد حددا موعداً يلتقيان فيه للتنزه والتفكه بيوانع أدبيات العرب، فاعترض السيد عارض لم يكن في الحسبان عاقه عن إنجاز الوعد، فلم ير إذاً وسيلة يتشفع بها عند صديقه إلا هذه القصيدة التي بين فيها عذره الطارئ المقبول والقصيدة طويلة اقتصرنا منها علىٰ نقل الأبيات التي لها مساس بالحادثة فقط).

* * *

إن قصائد الإخوانيات حينما تعبّر عن تبادل المشاعر ليست هي الغاية أو الهدف في حد ذاتها، ولكنها تعطينا صورة لرؤىٰ تستخلص منها مواقف ومشاهد كغيرها من القصائد التي تستخلص منها كافة أغراض الشعر المتعددة.

وقد نظم سيدي في أغراض الشعر المختلفة وهو في نظمه يجري علىٰ نمط وسط لا حشو فيه ولا تعقيد ولا كنايات غامضة ولا استعارات بعيدة فلا تدري وأنت تسمعه إن كنت تسمع نظماً منثوراً أونثراً موزوناً كما قال الرصافي وهو يصف شعره:

وأرسلـه نظمـاً يـروق انسجـامُـه فيحسبـه المصغـي لإنشـاده نثـرا

وتجده في الإخوانيات لا يتعدىٰ ما تمليه عليه مشاعر الأخوة والصداقة أو مقتضيات المناسبة، بعيداً عن تزييف العواطف أو الإسراف في الإطراء والمجاملة معتمداً علىٰ المظهر المعبر عن صدق المخبر.

ولذا تجد رَجْعَ الصّدىٰ فيما يقابله من انطباعات لدىٰ الطرف الآخر تظل مرتبطة بالزمان والمكان ومبعثاً للذكريات المستوحاة منها، كما في هذه الأبيات التي أنشأها أعز جلسائه وندمائه ابن أخته سيدي العلامة طاهر بن علوي الحداد رحمه الله عندما زار في غيابه منزلَه في قيدون وهو حينئذ في مهجره بإفريقيا الشرقية، ذلك المنزل الذي طالما جمع شملهم الأُسَري علىٰ بساط العلم وموائد الأدب والشعر في ساعات من ساعات الأنس والصفاء، فهاجت بلابله وجاشت مشاعره بها فقال:

زرنا المكان الذي قد كان مبتهجاً بما حواه من الفضل الذي انفردا
يفيض بالعلم والخلق النبيل علىٰ روّاده مُتْـرَعـاً حلـواً لمـن وردا
فما وجـدنـا بـه البـدر المنيـر ولا الركن الركين ولا الشهم الذي مجدا
من كان عِقْداً وجِيْد الحيِّ حالٍ به فمنـذ غـاب غـدا عطـلان منجـردا
أين الشهاب الذي طابت مناسبه وفي ذرىٰ المجد والعلياء قد قعدا
يزهو به المنتدىٰ والدار ترقص من عجب بما لبسته من هدىٰ وندىٰ

تعودتْ أن ترىٰ الأضياف فهي لهم هشّاشةٌ فتكاد أن تجيب النّدا[1]
كم انتدينا بها مع الهمام الذي قد كان عضباً يقد الهام والزردا
في نصرة الحق لا يألو جهاداً ويمضي مقدماً غيرخاش فيه من فندا
كم انتدينا وعينُ الدهر راقدةٌ واليمن مد يداً والسعد قد رفدا
نفض ختم الأحاديث العذاب ونستجلي عرائس تقذي أعين البعدا
فيا عهوداً مضت في ظل دوحته وفي الذرىٰ الطير جذلاً ناشداً غردا
نحل في وارف الظل ونصغي إلىٰ الحديث صيغت دراريه لنا قلدا
لن أنسها ومعي القلب الوفي الذي يرعىٰ الوداد ومنه الود قد عهدا
لا تيأسن لعل الله يجمعنا ونحتسي ذلك الكأس الذي نفدا
ورحمة الله تدنو دائماً من ذوي الإحسان تصلح منهم كلما فسدا
ومنهم العلم الفرد فلا برحت رحابه الزهر بدراً لاح متقدا
تشع بالخير أنواراً وتهطل مد راراً وترفِدُ عانٍ جاء مرتفدا

* * *

نعم لقد أسس هذا المنزل ليكون منتدىٰ علمياً وروضة من رياض الفكر والأدب وملتقىٰ لإخوان الصفا والوفاء ومأوىٰ للأضياف، لا حباً في المباهاة أو شغفاً للتطاول في البنيان ولا يتعدىٰ الحقيقه إذا تمثل بقول القائل حين يقول:

قسماً بمن رفع السماء بدون طي واختارخير الخلق من آل لوي
لم ابنها طمع الخلود وإنما هي زينة الدنيا لحي بعد حي

* * *

(١) كذا في الأصل.

أو حينما يخط بقلم يده لوحة ويضعها في إحدىٰ غرف المنزل هذه الأبيات:

ألا يـادار لا يـدخلـك حـزن ... ولا يغـدر بصـاحبـك الـزمـان
فنعـم الـدار أنـت لكـل ضيـف ... إذا مـا ضـاق بـالضيـف المكـان

ومادام الأمر كذلك، فخير ما نصف به مجالسه رحمه الله سواء ضمت صفوة الإخوان أو غيرهم ممن يتوافدون عليها لغرض أو لآخر فإنها لا تعدو أن تكون مجتمعاً علمياً، أو منتدىً أدبياً، أو ملتقىً اجتماعياً، يظل أثرها عالقاً في النفوس، وذكراها حية في قلوب كل من يؤمها ولو طال الزمن وبعُدَت الشقة. ولن نبرح أجواء هذا البيت قبل أن نعود إليه مع مشهد آخر ومع ذكرىٰ جديدة لنستخلص منها وقائع المطارحات الأدبية التالية في ساعة من ساعات الصفاء في يوم أغر اجتمع فيه الشمل في ذلك المنزل ـ بعد فرقة وغربة ـ وفي لقاء جمع بين سيدي الوالد، والعالم الأديب الشيخ محمد زاكن باحنان، وابنه الأديب الشيخ علي محمد باحنان، والشيخ الفاضل الفقيه أبو بكر بن عبود باطوق العمودي، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنانه.

وكمقدمة للوصول لهذه المطارحات نذ كر ماحرره سيدي بقلمه: قال رحمه الله: كنت في سفري الأول إلىٰ جاوه [إندونيسيا] مع سيدي العم علوي بن طاهر الحداد نحو سنة ١٣٤٢هـ وأنا في سن الحلم عملت أبياتاً تذكارية وداعية، صَدُق فألُها المكروه، وما زلت أتذكر منها أبياتاً وأنشدها خصوصاً عند المناسبات ومطلعها:

أزف الـرحيـل فـزيّـد الإرجـافـا ... أبقـىٰ المحبيـن الأولـىٰ إخـلافـا

حتىٰ خطرت علىٰ بالي منذ أيام وعزمي بارز علىٰ السفر فأحببت أن أحول مغزاها ويصدق فأل اليمن والوصل والغنىٰ حساً ومعنىً فجرت علىٰ خاطري هذه الأبيات التي تراها غير منمقة، ولما أتممتها رأيت أن أقدمها للشيخ محمد زاكن باحنان وولده علي ليشاطراني فيها الشعور وينعما بتعزيزها من نظمهما الشهي المأثور، فلم يقصرا في [غاية] بل زادا في الإجادة وهاهي الأبيات لي ثم للشيخ محمد ثم لولده، وأسأله تعالىٰ تحقيق الظنون، قلت:

أزف الـرحيـلُ فجـدّد الإيـلافـا	أبقـىٰ الأحبـة شـاربيـن سـلافـا
مالي أرىٰ مرح الضعون كأنهم	يتنـزهـون سيـاحـة وطـوافـا
هبت رياح النصر خلف ركابهم	وبحيثمـا اتجهـوا لقُـوا ألطـافـا
وعلىٰ كنوز اليسر كـان محطُّهـم	فحـووا بـه الأُلآف والآلافـا
لم لا يكون السعدُ طالعَ جَدِّهم	ونفـوسُهـم نحـو العلـىٰ تتهـافـىٰ
لله مـا وهبـوا وفـي سبـل العـلا	والمجد ما اكتسبوا تقىً وعفافا
ولقد أضل الرشد لاحي كسبهم	رفقـاً فطـرق الفضـل لا تتنـافـىٰ
ليسوا من اللاهين في صدد ولا	يتعمـدون الـزهـد والإتـرافـا
بل يهدفون إلىٰ اغتنام زمانهم	صفْواً بكسب الوقت مهما صافىٰ
وبمعـرض التبيـان أذكـر منهـم	سنـدي المقـدم وابنـه السقـافـا
وكذا أبا بكر الفتىٰ العطاس من	بلغـت بـه الهمـم العـوالـي قـافـا
قـد كـان يـأتـي مقـدشـوه متاجـراً	وعليه قد أرخىٰ الجلال سجافا
ولقد حكيت مثال مكسبهم كما	يحكي الزجاجُ الجوهر الشفافا
ولآل بـاحنـان أبعـث خـودهـا	كيمـا تنـافـث روضـة مئنـافـا

أهل البراعة من بأسماع العلىٰ قـد قلـدت ألفـاظهـم أشنـافـا
فُتِحَتْ بهم [صِيف] فصار ربيعها بـالفتـح منهـا يغبـط الأصيـافـا
ونما الفلاح بها بمدرسةٍ زهَتْ وضْعـاً وطـابـت مغْرِسـاً وقطـافـا
لا زال بنـد العلـم إرغـامـاً لمـن عـاداه فـوق رؤسهـا رفـافـا

جواب الشيخ محمد:

مـاضـي العـزيمـة لا يـرىٰ وقـافـاً عنـد المهمـة يـزدهـي التطـوافـا
وإذا النـوئـب قـد عـراهـا مُلِمّهـا تلقـاه لا قلقـاً ولا مُخْتـافـا
بل ثابتَ الجأش عظيم الجد لا يـرضـىٰ الـدنيـة لا ولا التعسـافـا
وإذا تعســر مطلــب ولُبَـانُـه فـي الأمـر كـان حليفُـه الإسعـافـا
وأخـو التـوانـي لا ينـال مـراده إلا قليـلاً يـرتضيـه كفـافـا
فمتىٰ اقشعـر الجلـد مـن ضعـف وخـاف العطـب كـان لبخسـه قـد خـافـا
ليس الثوابت في الكواكب كالتي تهـوىٰ المسيـر وتـرشـد الطّـوّافـا
فانهَضْ وجِدَّ العزم واسْلَمْ قاصداً فـي اليـمّ تلـك الـدرَّ لا الأصـدافـا
وارحل عن الأوطان في طلب العلىٰ واجعـل ثقـال المعضـلات خفـافـا
تلق الذي قد ناله من قد مضىٰ ممـن ذكـرت الكمـل الأشـرافـا
وترىٰ الحظوظ مواتياً إسعادها وتـراك مـرتـاح الفـؤاد معـافـا
لله فـي الحـرم الأميـن منـاجيـاً وإلىٰ أبي الحسنين كنت مضافا
فتـراه مثـل أولئـك السـادات يقظـانـاً وفـي حـال المنـام تـوافـىٰ
فـاذكـر بـذاك أخـاً يـؤمـل أنـه يلقـىٰ الـوفـود يخلـط الأضيـافـا
وأبلغ أُخَيْوانَ الوفا واشكر لهم مـا قـدمـوا الإسعـاد والإشـرافـا
يا ابن بني الحداد استاذ الهدىٰ يا أحمد المشهور دمت مصافىٰ

لا زلت فيما كنت من علم ومن عمـل ومـن شيـم عليـك تهـافـىٰ
وإلـىٰ النـدىٰ تهتـز والمعـروف والكسـب الجميـل تـروم ذاك عفـافـا
لقـدومـك الميمـون قيـدون التـي عدمت نظيرك غَطْرفَتْ غِطْرافا
فنشـرْتَ فيهـا رايـة العلـم ونـاصـرت بهـا العلمـاء والعـرافـا
فغدت ببرد الفخر ترفل مثلما كـانـت وتشكـر ذلـك الإتحـافـا
وغـدوت منتصـراً بمـا أمليتـه وكشفـت مـن خـدع العدا كشـافـا
والناصرين لهم ومن في حزبهم ظهـروا فـلاقـوا حظهـم إتـلافـا
طربت نفوس المؤمنين وهزها النصـر القـريـب وعمهـا إيـلافـا
فـاسلـم ودم متمتعـاً ببنيـك والأهليـن فـرداً فـي العلـىٰ مئنـافـا
متخصصاً بصديقك الشيخ أبي بكـر الـذي تسلـىٰ بـه الألآفـا
قرن الفضائل والمعارف والذكا وافـي الليـاقـة لايـروم خـلافـا
وإليك قدراً في الجواب مؤملاً منـك القبـول عليـه أَلْـقِ سجـافـا
كمّلْتُـه كـالشهـر فَـأْلاً آمـلاً إن الجـواب لقـولكـم قـد كـافـىٰ

* * *

جواب الشيخ علي:

أَلِفَ المكارم من سما وتجافىٰ عمـا يـدنـس واصطفـىٰ الإيـلافـا
ليس الكريم من استطاب بلاده فـأقـام فيهـا خـامـلاً مينـافـا
لكنمـا مـن جـال فـي أنحـائهـا يبغـي العـلا والعـدل والإنصـافـا
كـم لـلإلـه علـىٰ الخـلائـق منـةٌ ولكـم لـه حكـم نمـت أضعـافـا
لم يدرها المحجوب في أوطانه حتـىٰ يفـارق داره تطـوافـا

قد أعجمت عنا العواقب فالفتىٰ لم يرض بعداً عن حبيب صافىٰ
لكنــه كُــرْهٌ عليــه فــرَاقُــه كيمـا يعـز وفـاه مهمـا وافـىٰ
جهـل الصـلاح لـه وأيقـن أنـه تحـت المـدبر يـرتجـي استعطـافـا
ذا أحمـد المشهـور عـز فـراقـه حقـاً علـىٰ أحبـابـه وتنـافـىٰ
عَـزَم التنقُّـلَ فـي البـلاد مـؤمـلاً والسعـد وجْهَتُـه يـزفّ زفـافـا
سرْ إن بنْدَك خافقٌ يا ابن الأولىٰ ملكـوا القلـوب وأعتقـوا الآلافـا
واستـأنسـوا بـالمكـرمـات وعبـدوا سبـل الـرشـاد وأكـرمـوا الأضيـافـا
وبنوا لهم صرحاً منيعاً شامخاً تلقـىٰ بـه المعـروف والعـرافـا
فلك ابنَ طه في سجاياهم يدٌ بيضـاء لا تستسهـل الإلحـافـا
فـارحـل فكـل الأرض أوطـان ولا تنـس قلـوبـاً مـن هـواك عجـافـا
وابشـر فـإن الله مـؤتيـك المنـىٰ أن كنـت بـراً صـادقـاً عطـافـا
إن شئت فأنزل في القلوب محبباً أَمْ فـي العيـونِ مجلـلاً ومعـافـىٰ
يـا سيـداً كمُلَـتْ محـاسِـنُ ذاتـه وزكـت طبيعتـه تقـىً وعفـافـاً
علمـا وآدابـاً وبـذلاً واسعـاً وتتبعـاً للحـق أنـىٰ طـافـا
حقاً ستعظم في النفوس وتصطفىٰ فـي كـل أرض مـوجـداً إتحـافـا

* * *

لا زالت بين أيدينا العديد من الإخوانيات سنختار منها ما يتيسر لنا وقد لحقها ما لحق غيرها من نتاج سيدي العلمي والأدبي من الإهمال الغير مقصود أو الضياع، والذي نرجو أن لا يشكل عائقاً يقف بنا دون الوصول إلىٰ الغاية التي نسعىٰ لتحقيقها، والتي لم تكن مجرد إبراز مساجلات تعرب عن مبادلة

مشاعر الود والإخاء وإنما لنعطي إضافة جديدة لما يمكن العثورعليه من ذلك النتاج حفظاً للتراث.

وما دمنا نتجول مع الذكريات ومع المساجلات والمطارحات الأدبية فيحسن بنا أن نواصل التجوال مع الصفحات التالية باتجاه ربوع كسمايوه، ومقديشوه، وبراوه بصوماليا، ولاموا، وواسيني، وصولاً إلىٰ ممباسا بكينيا، وذلك من خلال ما نختاره من القصائد والمساجلات الشعرية التي تبودلت بين سيدي الوالد وصديقه الحميم الشيخ الفاضل محمد بن عبد الله ابن شداد بن عمر باعمر، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

ولنبدأ بما يرويه الشيخ محمد شداد:

قال: لما سرنا إلىٰ واسيني في زيارتنا [لامو] في ربيع ثاني ١٣٥٥هـ ورجعنا نحن والسيد العلامة أحمد مشهور الحداد، والسيد سعيد بن عبد الله البيض في [ماشوه] سفينه شراعية صغيرة قال السيد أحمد مشهور بيتان للشاعر صفي الدين الحلي وهي:

رومية فوق صحن الدير حاسرة تلهو وتطرب من ضرب النواقيس
فقلت أيهما أشهىٰ لصاحبه ضرب النواقيس أو ضرب النوىٰ قيسي

ثم قال السيد المشهور وذلك علىٰ سبيل المفكاهة:

ماست من الدل [باجونية][1] وغدت لما بصُرْتُ بها عدوَ الجواميسي
فقلت لاغرو ما يعنيك من شجني عدوَ الجواميس أو عدو الجوىٰ ميسي

---

(١) باجونية: نسبة إلىٰ القبيلة (الباجون)، وهم سكان تلك المنطقة.

ثم قلت أنا:

تلومني سفهاً إذ سرت ممتطياً متن السفينة في لج القواميسي
فقلت يا هذه خَلّي العتاب فَلي شوق تمكن مني بالقُوىٰ ميسي

* * *

وهذه الأبيات بعث بها سيدي للشيخ محمد شداد في جمادىٰ الآخرة ١٣٥٥هـ، إلىٰ كسمايوه:

حمداً به تنهلُّ أمزان الرضىٰ فتسيل أودية الأماني والإضا
وشريفة الصلوات يسري نورُها في كل قلب في الصباح إذا أضا
تُجْبىٰ مكررة لأفضل من دعا قولاً وأعدل من بصارمه انتضىٰ
مولىٰ نفوس المؤمنين المصطفىٰ ولآله خُصَّ الوليَّ المرتضىٰ
ولصحبه الأمجاد أعلامِ الهدىٰ والتابعين لهم بجِدٍ أنهضا
ويجود صيِّبُها مُحِباً خصَّني بكتابه يحكي الطراز مفضَّضَا
لما ظَفِرْتُ به وشِمْتُ مخيله وافتَرّ برْق الودِّ منه وأومضا
أنشأتُ في رد التحية شاكراً ومسائلاً عن عُهْدِة لن تُنْقضا
من مقدشوه إلىٰ براوة عَرْفها يسْري ويملي طيبُ رياها الفضا
لمن ابتداني بالسؤال محمد أعني ابن شداد الوفيَّ الإقتضا
لا زال منتظماً بسلك المخلصي ود القرابة رائداً مستعرضا
في نعمةٍ وسلامةٍ موصولة بالفَوز في يومٍ به فصْلُ القضا
ولقد بدأتُك بالقريض مطارحاً ذكرىٰ حنيتُ بها علىٰ جمر الغضا
من فُرْقةِ الأحْباب في أسْر النوىٰ وعِصَابةٍ جعلوا الغواية مرْكَضا
تقفُ النواظرُ دونَما عاثُوا به حَسْرىٰ وينصاعُ البصيرُ محرِّضا

لا يـرْتَجـي كشـف لهـا إلا بمـا   سبقت به العربان في عَصْر مضىٰ
أو دعـوة دينيـة تغشـىٰ التـي   في خدرها والبدو ما بينَ العضا
مـن نـاصري ديـن النبي وحـزبه   فيهم يقوم من الهدىٰ ما قوضا
أو عطفـة نبـويـة مـرقـومـة   يغدو بها جرب العلوم مروضا
أو همـة الأسـلاف وهـي قمينـة   فـي رد منكـوب الـزمـان معوّضا
وقـرار هـاتيـك المـآثـم بيننـا   داع لأمـر لا يطـاق تعـرضـا
ولقـد عـزمنـا نيـةً حُسْنـىٰ فـإن   نعمل فذاك وإن نئد نعمل قضا[1]
وإليـك رمـزُ الشـاعـريـة لـم يبـن   إلا كمـا هَمَـش الـرقيـب ونضنضـا
قـدمْتُهـا علمـاً وعـزمـي بعـدهـا   إن شاء ربُّ العرش والأمر انقضىٰ
ثـم الصـلاة علـىٰ النبـي وآلـه   وبجاههم نرجو الكرامة والرضا

* * *

وقد أجابه عليها في ٢٦ جمادىٰ الآخرة ١٣٥٥هـ بالأبيات التالية:

أبـريـقُ ثغـر الحِـبِّ وهْنـاً أومضـا   أم وجه من حوت المحاسن قد أضا
أم بـدر تـمٍّ قـد تكـامـل نـوره   أم ذا الصباح بسيف غرتها انتضىٰ
أم ذي الـريـاض تفتقـت أَزْهـارهـا   وتـدفقـت أنهـار هـاتيـك الإضـا
أم ذا الصباء جرىٰ لطيف نسيمها   فسرَتْ وأحْيَتْ روحَ صبٍّ أمْرَضا
ذا الشهد أم نظم الأديب المنتقىٰ   شهـم لـه أمـر الفصـاحـة فـوضـا
أعني به المشهور بالفضل حليف   العلم أحمد من له السبق اقتضىٰ
رب البـلاغـة والبـراعـة والحجـا   ذي نـاظـر عـن شـأوه مـا أغمضـا

---

(١) كذا في الأصل.

بثَّ العلوم بقطرنا فغدت به ... قيعانه أنّىٰ التفت مروضا
أَحْيىٰ بهمته معالمنا التي ... درست فوَجْهه سواده قد أبيضا
فبنىٰ لنا بالعلم قَصْراً عالياً ... وأتىٰ إلىٰ ركن الضلال وقوَّضا
هذي طريقة أهله أولي النهىٰ ... من حاضري هذا الزمان ومن مضىٰ
وهي المواريث التي أخذوها عن ... خير الورىٰ وعن الوصي المرتضىٰ
يا أيها البدر الذي منه اكتسىٰ ... ذا العصْرُ فضلاً ذكْرُه ملأ الفضا
وافت لنا أبياتك الغُرُّ التي ... حلت بقلبي والأسىٰ عني انقضىٰ
ألفاظها تحكي الشموس ونظمها ... يزْري ببدرٍ أو طرازاً فضضا
قد أنبأتْ عن ذلك الردِّ الذي ... ما زلت لاستمطارِه مستعرضا
فأسلم بلا أمر إليك خريدة ... بكراً بلا مهر سوىٰ نيل الرضا
لا زلت ترقىٰ في معاريج العلا ... تهدي الأنام وتكبت المتعرضا

* * *

أما هذه المديحة فقد قالها الشيخ محمد شداد ترحيباً بمقدم سيدي رحمه الله إلىٰ براوه وكسمايوه بالصومال في جمادىٰ الآخر من سنة ١٣٥٥هـ:

بلابل السعد والإقبال قد صدحت ... وروضةُ الأنس من زهر المنىٰ ابتسمت
والدْهرُ أسْعَفَنا وقْتاً سحبنا به ... ذيل المسرة إذ عنا الوشاة خلت
ودار كأس الصفا ما بيننا سحراً ... يديرُه أهيفٌ من خمرةٍ عتقت
قم يا بلال التهاني بالوفىٰ علناً ... أذّن فأوقات نيل الفوز قد دخلت
واسجد أخا الرشد شكراً للإله علىٰ ... ما حزته من فيوض من لدنه أتت
قدوم حدادنا المشهور أحمد من ... يعزىٰ لطه له العلياء قد خطبت

العالم العامل المحمود سيرته ذو همة في اقتفاء المكرمات سمَتْ
بحْرٌ ولكنه بالدر يقذف بل شمس الفضائل لكن قط ما أفلت
فرع السَّراة كريم الجد جدّ علىٰ اقتفاء نهجٍ به آباؤُه انتهجت
نعم الغطارفة القادات من بذلوا نفوسهم في مراضي الله فارتفعت
رقوا مراقي العلا بالصدق فارتفعوا مراتباً عنها باع الغير قد قصرت
هم النجوم التي تهدىٰ الأنام بها هم الرجوم لقوم قد بغت وعتت
يكفيك شبلهم الحداد بينة خلاله وسجاياه بذا شهدت
يا أيها الخيّر المشكورُ مقْدَمُه طب منزلاً فبك الأرواح قد فرحت
شرفتنا بل وشرفت العباد كما بك المعالم أحيت بعد ما درست
يا مرحباً بقدوم زادنا جذلاً وبهجة مثلما أقطارنا ابتهجت
فاقبلْ ودُمْ يا نجيب الفضل مرتقياً سما المعالي خروداً بالمعاني وفت
إليكها بنت فكر قد عدمنا لها كفؤاً سواك بلا مهر له رغبت
فغض طرفك في تقصيرها كَرَماً وإن تكن لم تفِ المدح الذي قصدت
لا زلت يا نخبة السادات بدْرَ هدىٰ وآي رشدك آيات العمىٰ نسخت

* * *

كما بعث الشيخ محمد شداد بالقصيدة التالية لسيدى الوالد من كسمايوه في ١٥ شعبان ١٣٥٥هـ إلىٰ ممباسا وهي:

ارجعي بالوفا لُييلات أنسي فالصفا فيك والهنا غير منسي
حيث كان الحبيب منا قريباً وارتشاف السلاف من ريق لعسي
وظلال العيش الهني مستطيل ونسيم الصباء تضحي وتمسي
يا رعىٰ الله صفو تلك الليالي قد مضت كلها لُييلات عرسي

قد أضاءت من نور خير نبيهِ ... قد بنىٰ مجده بأحكم أس
فرع طه من بوّأته المعالي ... رتباً دونها مطالع شمس
أحمد السادة الصناديد فعلاً ... فاق أقرانه وأبناء جنس
يالك الله من أريب أديب ... عنده مركب الأُحباب ترسي
وربيب العلوم من كل فن ... وزعيم الأنجاب في كل درس
كم أبان لنا غموض المعاني ... عندها ألسن الملا ذات خرس
ولكم أنثل الكنائن فاستخرج ... منها ما ليس يدرىٰ بحس
كم حظينا منه مجالس أنس ... وقضينا بها مطايب نفس
ما جرىٰ ذكرها علىٰ القلب إلا ... لحسته أفعىٰ الجوىٰ أي لحسِ
حادي العيس لحّ في السير وأقصد ... وتحمل عني صحائف طرسي
كتبتها أيدي الوداد اشتياقاً ... بمداد الأحداق إبّان حبسي
ضمنتها شكاية الحال فيما ... عنَّ ألقى وجه الصدود بعبس
فأكرمونا بالوصل يا أهل ودي ... كي يزيح الصفاءُ أيام نحسي
والصلاةُ علىٰ شفيع البرايا ... سيدِ العالمين جن وإنسي
وعلىٰ الآل والصحابة جمعاً ... ما أضاءت لهم حضيرة قدس

❋ ❋ ❋

وهذه الأبيات جاءت جواباً علىٰ أبيات بعث بها إليه سيدي رحمه الله في ذي الحجة ١٣٥٦هـ مطلعها: (تحيات كنشر المسك...)، قال الشيخ محمد شداد:

وردت إليّ من القريض فتيّة ... حسنا وقد كسيت سنىً وجمالا
تختال في حلل الجمال تهتكاً ... وتميس تيهاً في المجال دلالا

ترجو القبول لديك فهو مرادها   وسواك لا ترضاه مهما تغالىٰ
أهدىٰ بها الحبر الخبير المنتقىٰ   من خير بيت أحرزوا الأفضالا
ذاك المجلل في حمىٰ أولي النهىٰ   من قد علا قدراً وحاز كمالا
حدادنا المشهور أحمد من رعىٰ   حق الوفاء ووده يتوالىٰ
لا زال يرفل في ميادين الهنا   وتحفه أيدي العلا الإقبالا

* * *

وفي نفس التاريخ بعث إليه الشيخ بالأبيات التالية:

ربيب العلا مجدي الوفا واسع الجدا   ورب الحجا نجم أضا في سما الهدىٰ
سجاياه زانت في الورىٰ وتبلجت   مصابيحها فالنور من زيتها بدا
وبالذكر مشهور وأحمد من سعىٰ   علىٰ قدم التقوىٰ ومن قام مرشدا
رعته عيون الفضل طفلاً ويافعا   وغنّىٰ له طير النجاح وغردا
فلا بدع أن حاز المكارم واعتلت   محاسنه فالأصل قد طاب محتدا
إلىٰ الغوث حداد القلوب انتماؤه   بسلسلة تحكي اللآلي المنضدا
أصول زكت مجداً علته وسؤدداً   فأكرم به مجداً علته وسؤددا
بني علوي القوم الذين تواطئت   لفضلهم روس المعالي إلىٰ المدىٰ
مصابيح دين الحق في ظلمة العمىٰ   أماتوا لنا طرق الغواية والردىٰ
وأحيوا لنا منهاج سنة جدهم   نبي الهدىٰ سامي الذرىٰ معدن الندىٰ
عليه صلاة الله ثم سلامه   صلاة تعم الآل والصحب سرمدا

* * *

وقال الشيخ محمد بن شداد هذه الأبيات في ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٥٩هـ:

وتحيات من المولىٰ تعالىٰ   بالرضىٰ واليمن دوماً تتوالىٰ

وسـلام يـورث القلـب سنـاً ويـنيـل الصـب قـربـاً واتصـالا
فيخصّـان الجنـاب المـرتـوي من سلاف الفيض كاساتٍ جزالا
الهمـام القـرم والشهـم الـذي قد علا قدراً علىٰ الجوزاء طالا
غـرة فـي جبْهـة الـدهـر بـدَتْ شمسُهـا لكنهـا تنفـي الضـلالا
أحمـد السـادات فعـلاً وذكـا وسلـوكـاً بـل وأزكـاهـم خصـالا
نجْـلُ طـه أحمـد المشهـور مـن قـد كساه الجـد بعـد الحال قـالا
ذاك أستاذي الذي قد همت في حبـه مـا قـط عـن خـاطـري مـالا
كيف يسلو القلب عن من لم يزل فكـره يهـدي لنـا دراً تـلالا
خيـر منظـوم لنـا قـد سـاقـه مـا أحيلـىٰ لفظـه يحكـي الـزلالا
دونـه نظـم الـلآلـىء فـي العـلا أو نجـوم لـو نظمنـاهـا مقـالا
فـأراح القلـب منـه بسـرور بـه كـل الـونـا والهـم زالا
فـارتشفنـا الـراح مـن أنفـاسـه إذ تجلـت آيُـهُ سِحْـراً حـلالا
زاده الله اعتـلاءً وجـلاه لنـا فـي خـد هـذا العصـر خـالا

* * *

قال الشيخ محمد شداد رحمه الله: ولما كان في ٢٠ رجب الأصب سنة ١٣٦٠هـ، أرسلت مكتوب للسيد السند الأوحد الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد وبطيه منظومة وهي هذه:

ما شم من عرف الصبا أنفاسه إلا تـذكـر فـي العـذيـب أنـاسَـهْ
صبّـاً إذا ذكـر الحمـىٰ والمنحنىٰ سلـب التـذكـرُ عقلـه وحـواسَـهْ
إن رام كتمـان الهوىٰ عـن عذلـه أفشـاه دمـع العيـن فيمـا قـاسـه
ونحـول جسـم منـه أعـدل شـاهـد لـولا الأنيـن لضـل عـن جـلاسـه

يا هل له من عودة تحيي بها قلباً فيرجع بالهنا إيناسه
وليال أنس قد تقضت بالحمىٰ كم قد أدار الحب فيها كاسه
في ربع من حوت المحاسن كلها تسبي العقول دلالها المياسه
مع معشر تخفي مصابيح الدجا أنوارهم أكرم بها أكياسه
تتفاخر العليا بهم وتجر أذيالاً لها تيهاً بغالي لباسه
والكون أصبح منهم يزهو كما تزهو علىٰ كل القرىٰ [ممباسه]
إذ حلها خِدْنُ المعالي والتقىٰ أعني به المشهور في أجناسه
بخلاله وبحاله ومقاله وسلوكه النهج الرصين أساسه
والعيلم المقدام والبحر الذي ألقىٰ إلينا الدر مع ألمْاسه
فرع نمىٰ من دوحة علوية قد طاب محتده بطيب غراسه
نسب علا الأنسابَ فخراً واعتلا مجداً وطهر من قذا أرجاسه
وَبِغَوْثنا الحداد تم نظامه عقداً تألق في العلا نبراسه

* * *

ومن المساجلات الشعرية، يقول الشيخ محمد شداد في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ هجرية: ونحن في رياض [لامو] خطر علىٰ بالي بيت من الشعر حين راقني الرياض والتنزه في تلك الغياض بحضرة السيد أحمد مشهور فقلت:

هذا الرياض وهذه أنواره لاحت فأشرق ليله ونهاره

فقال السيد أحمد مشهور:

يثوي به الثاوي فيحسب أنه في روض أنس غردت أطياره

تنسل أحزان المريد بتربه ... فيطيب زائره ويأمن جاره

لم لا ومن أسرارحبشي العلا ... تجري إليه على المدى أنهاره

قلت:

وإذا مررت به فدونك فاعتكف ... فيه يعمك بالرضى مدراره

قال السيد أحمد مشهور:

هو مبتغى الزوار في [لامو] فيا ... لك معهد يسموا به زواره

فقال الشيخ محمد بن علي المعاوي:

هو معهد الأنوار والعلم الذي ... قد طاب مغرسه فطاب ثماره

من أم ساحته بصدق توجه ... قضيت له في سرعة أوطاره

لاحت شواهد صدق بانيه على ... .(١)

* * *

وقال الشيخ محمد شداد: أخبرت الحبيب أحمد مشهور برؤيا رأيتها ونحن في لامو، بحوطة الحبيب صالح جمل الليل وذلك في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق ٣ ربيع الثاني ١٣٦٥هـ فأنشأ هذه الأبيات:

رأيت وفي رؤياك بشرى مصدقة ... بفتح قفول للمطالب مغلقه

لدى جمل الليل بن علوي وعمه ... علي وبدوي ....(٢)

وعُيّنت بيكاراً عليها لما رأوا ... بقلبك من حفظ الوداد ومن ثقه

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) بياض في الأصل.

أخذتُ الذي يعْني مرادي وما بقي ... بكفك منها وهي للكل مطلقه
مفاتيح غيبٍ من خزائن حكمةٍ ... تنال بحسن الظن لا التبر والرقه
لقد سر قلبي واستهنتُ بغربتي ... لما أصبحت آمال قلبي محققه
برؤيتك المنشودة المعتنىٰ بها ... وصادق رؤياك الرحيق المروقه
فلا زلت من أهل العناية وارد ... مع القوم في تلك الرياض المنسقه
مكين رباط الود منجلي الصدىٰ ... تشاهد أنوار الحقائق مشرقه
ولي قدح في حانة القرب والرضا ... مشعشعة من ذلك الشرب مدهقه
بسر اتصالي بالبتول وبعلها ... وأبنائها والجدة المتفوقه
وسر أبيها المصطفىٰ سيد الورىٰ ... عليهم صلاة الله ما شهد الثقه

* * *

قال الشيخ محمد بن شداد: وأنشد الحبيب أحمد مشهور وهو في منزلنا في [براوة] في جمادىٰ الآخرة ١٣٥٣هـ الأبيات التالية:

روحت قلبي من لطائف جمة ... أمسيتُ منها في ذراك منعّما
أخلاق مرضي الطباع ونسبة ... في العلم تنتظم المسرة منهما
وبراح بيت حل في أرجائه ... سعد الزمان علىٰ الدوام وخيما
لا زال معموراً وسعيك في الندىٰ ... والفضل مشكوراً ودمت مكرما
طابت [براوة] لي لكونك نازلاً ... منها مكان الزهر من أفق السما

* * *

وقد أنشأ الشيخ محمد شداد القصيدة التالية جواباً عليها فقال:

يا مرحباً بقدوم شهم قد سما ... يزري ببدر التم في كبد السما

آنستنا بقدومك الميمون يا ... روح الفوآد ومن إلىٰ العليا انتما
نارت منازلنا وتم سرورنا ... والأنس وافانا ونلنا المغنما
وكسيتَنا حُلَل اللطائف والوفا ... فغدىٰ المحبُّ من الحبور معمَّما
ذُقْنا حميًّا الوصل لاخمر الدنا ... يزري الرضاب وريق معسول اللما
فصفت لنا الأوقات بعد كدورها ... لكنه بالوصل قد زاد الظما
لا أرتوي منه وإن طال المدىٰ ... يا حبذا أن بالتواصل أنعما
هذا ولي في الشوق بحرمزبد ... وأراه في المشهور بالفضل طما
ذو فكرة وقادة سيالة ... كالسيل من متن الروابي همهما
لا عيب فيه غير أن حبابه ... يزري بدر أو جمان نظما
ثم الصلاة علىٰ النبي المجتبىٰ ... خير الأنام تأخراً وتقدما
والآل والأصحاب أرباب الحجا ... والصدق نال الفوز من بهم احتمى

* * *

وهذه القصيدة أنشأها الشيخ محمد شداد عند مقدم سيدي من ممباسا إلىٰ مقدشوه في ١٧ ربيع الأول ١٣٦٦هـ، مادحاً ومهنئاً بسلامة الوصول فقال:

عادت بعودك أعياد المسرات ... فلتحْيَ بالأنس أوقات المصافاة
وليحيي ما فات من طيب المعاش ومن ... لذات صفْوٍ مضت في خير أوقات
حيثُ البشائر مضروبٌ سُرادِقُها ... وبلبل السعد يشجو بالنغيمات
من فوق دوح رياض راق بهْجَتها ... للنازلين بها في خير ساحات
كستها أيدي البهىٰ أثواب رونقها ... تحكي لنا في نعيم الخلد جنات
فنزه الطرف في أعلىٰ حدائقها ... الغناء ثم اقتطف زهر البشامات

وآشمم إذا ما الصبا مرت بها سحراً مسْكاً تضوّع من نفح الخزامات

وانزل بها والثم الحصباء منعرجاً لمنتدىٰ قد حوىٰ كل الكرامات

يا حبذا معهداً كم قد تلونا به من أسطر البسط آيات فآيات

بتنا سكارىٰ حيارىٰ من سُلافته نحْسُو من الأنس كاسات فكاسات

نروي أحاديث ود عن أخي مِقةٍ عن الغرام وعن أولي الصبابات

نطارح الشعر من ذكر النسيب ومن ذكر التغزل في أوصاف ربات

ولم يزل دأبنا هذا وعادتنا نجيد منظوم أبيات أبيّات

والكل يقدح زنداً من قريحته يزري بذلك نظم اللؤلؤيات

فنعرض القول عن من ليس يفهمه من العذول وعن أهل الغباوات

نطوي بساط الهوىٰ عنهم وننشره في ذكر سلمىٰ وليلىٰ في العبارات

فيا لُييلات أنس بالعقيق مضت ياحبذا الأنس في تلك الليلات

حيث الحبيب لدينا والسرور دنت أفنان دوحته من طيب لذات

طبنا بها مثلما طبنا بمقدم من رقىٰ لأوج المعالي طيب الذات

أعني به أحمد المشهور أحمد مشهور بعلم وفضل في البريات

نجل السراة الهداة المقتدىٰ بهمُ في القول والفعل في صدق العبارات

قاموا علىٰ قدم الإقبال وارتفعوا مراتب الفضل في صدق العبادات

هموا بني علوي المذكور فضلهموا بين الورىٰ خير قادات وسادات

حسبي سليلهم المشهور من كملت لنا بمقدمه كل المسرات

أهلاً بمقدمه الأهنىٰ الذي انشرحت به الصدور ونالت كل راحات

فاقدم ودم يابن حداد القلوب علىٰ أنس كما قد مضىٰ في ربعنا يأتي

طب منزلاً فثغور القطر باسمة أضحت تهنيك جهراً بالتحيات

واقبل من الفكْر بِكْراً مالها كفؤ إلاك فامهرلها طيب الملاقاة
إن ترضها فالهنا قد حل ساحَتَها أو لا فسترك من أسنىٰ الكرامات
وافَتْك تُلْقي إليك القول تهنئة لمّا رووا فرضَه أهلُ المروءات
فلا برحت مدىٰ الأيام ترفل في برود فضل وإنعام وخيرات

* * *

وبالبيتين التاليين ننهي ما تم العثور عليه من المساجلات والمطارحات المتبادلة بين سيدي الوالد والشيخ محمد شداد رحمهم الله وقد ضمنها رسالة بعث بها إلىٰ ممباسا في ٦ربيع الثاني ١٣٧٢هـ، هذه المساجلات التي ترصد تاريخ حقبة زمنية زاخرة بالمعرفة شهدتها تلك البلاد في النخبة من رجال العلم والأدب وطلاب العلم والمعرفة، وهذان هما البيتان، قال الشيخ محمد:

ولا تترك محبك من رعايهْ بها يلقىٰ العبور إلىٰ النهايهْ
فيسعىٰ أثر سادات كرام تلاحظ حاله عين العنايهْ

* * *

ولكننا لن نبرح ربوع الصومال قبل أن نسجل هذا اللقاء الأخوي الذي يعود بنا إلىٰ عام ١٣٦٦هـ، عندما اجتمع سيدي بالسيد العلامة الداعية محمد بن عبد الله الهدار إمام وخطيب مسجد مرواس بمدينة مقديشوه آنذاك، وقد استقبله أيما استقبال وأنشأ فيه القصيدة التالية فرحة باللقاء وتعبيراً عن مشاعر التقدير والاحترام المتبادلة يبن الداعيتين وقد جمعتْهم الأقدارفي تلك الأصقاع علىٰ وحدة الهدف والغاية المجسدة في نشر الدعوة وبث العلم والمعرفة بين الناس وما أجمل أن يسجل هذا اللقاء صورة من أروع الصور

وذكرىٰ من أجل الذكريات نقرأها اليوم بين أسطر هذه القصيدة والقصيدة الجوابية عليها، وما أجمل أن تتصل تلك الذكريات الماضية بالحاضر وقد تحقق الكثير من تلك الأهداف والغايات وسجلها التاريخ آثاراً خالدةً تتردد أصداؤها في كل موطن وصلت إليه دعوتهما وارتفعت كلمتها عالية وصوتها يدوي فوق دور العبادة ومراكز الدعوة ومعاهد العلم ولا زال يدوي سواء في ربوع اليمن الحبيب أو في غابات إفريقيا ومجاهلها ومدنها وقراها، وستظل بعد أن لحقا بالرفيق الأعلىٰ وقد ضم رفاتهما قبران متجاوران في مدفن السادة آل أبي علوى بمقبرة المعلاه في مكة المكرمة علامة بارزة مسطرة بأحرف من نور في سجل الخالدين.

أما المشاعر المتبادلة من خلال القصيدتين فهي بدورها تنقل لنا صورة أخرىٰ من الصور المعبرة عن جوانب مشرقة في حياتهما العلمية والأدبية، وهذه أولاً القصيدة الترحيبية التي أنشأها سيدي الحبيب محمد الهدار:

شرحَتْ باللقاء قلبَ الكئيب　　　وشفتني بريق ثغر شنيبِ
غادةٌ تنهب العقول إذا ما　　　خطرت خطرة الغزال الرهيبِ
من رآها صبا ولو كان ذا نسك وزهد وعفة ومشيبِ
لا يبالي بلوم لاحٍ ولا　　　واشٍ ولا حاسد ولا برقيبِ
عندها يرجع الجريءُ ذليلاً　　　ويصير اللبيبُ غيرَ لبيبِ
جمعت حسن كل حسن ففاقت　　　كل حسناء عيطبولٍ عَرُوبِ
بشر ناعم وطرف كحيل　　　وقوام كالخيزران الرطيب
وجمال، ما نسبة البدر منه؟　　　وكلام، ما نغمة العندليب؟
كَمُنَ السحر في محاجر عينيها فأضحت تفضي بكل عجيب

ما المها؟ ما الهلال؟ ما ورد الأقحوان؟ ما الريم؟ ما قضيب الكثيب؟
حين طاب الوصال نادىٰ منادي الحال بشراك بالمنىٰ المرغوب
بشريان: بشرىٰ بميلاد طه وتليها بشرىٰ قدوم الحبيب
طاهر الجيب أحمدي السجايا علوي في السير والتهذيب
ينتمي نسبة إلىٰ دوحة الحداد غيث العباد محيي القلوب
آخذاً من صفات أسلافه الغر هداة الورىٰ بخير نصيب
عفة في سماحة في سخاء في دهاء تجمعت في أديب
حسن القول والفعال حليم أصمعي القلب الوسيع الرحيب
أيها الزائر العزيز علينا إن لقياك غاية المطلوب
فزت حقا بكل قرب فأصبحت قريباً من الإله القريب
وتسنمت ذروة المجد حتىٰ صرت فرداً من دون شك وريب
قد ملكت من المعالي ضروباً فلتعش لستَ واجداً من ضريب
خير ضيف في خير شهر كريم تنمحي فيه مجملات الذنوب
شهر ميلاد أفضل الخلق طراً الحبيب المعظم المحبوب
سمح الوقت بالذي نَتَمنّىٰ[1] وتجلىٰ عنا قَتام الكروب
وغمام الفلاح سح بجَود الجود والفضل في ربيع القلوب
وعظيم السرور يحسن مرآه إذا ما انتهت جميع الخطوب
هذه بنت فكرتي تتردىٰ[2] برداء من الحياء قشيب
بنت يوم تريد أن تنزلوها بمحل من القبول قريب

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل.

وهذه القصيدة التي أجابه بها سيدي:

ما لبثٌ الهوىٰ وصوغ النسيب من أَسيرِ الهوىٰ رهينِ الكُروب
هادن الشوق واقتضىٰ أسهم العين وسكر اللمىٰ وهز القضيب
أم سبيل الهوىٰ وشنشنةٌ تعرف من طبع كل مرء أديب
ويكَ لولا شبوب نار الهوىٰ في القلب لم يهن متعة المطلوب
فاتخذ منه طرف عزم وروِّضْه علىٰ الجد في العلىٰ والدروب
إن في نشر صبح عزمك نهي عن تواريك في بطون السروب
طرقت سمعك حيعلات الداعي وكم أمَّ سطْرَها من مجيب
[فادن من جناها فرشف يسير من طلاها يحيي موات القلوب]
[قد نحب من كساها جَدٌّ من ساجلني في القريض مولىٰ الكثيب][١]
جد من هزني وقلدني من قوله العذب سمط در رطيب
قد حمدت السرىٰ وأثمر جدي حين لاقيت منه خير نسيب
ألمعي ذو فطنة يكشف الغمض علىٰ ضوئها بفهم مصيب
مستجاد الخلال فخر شباب الآل والصفوة الأريب النجيب
بهجة الأخذ فيه لائحة عن شيخنا الشاطري العفيف المنيب
فرع بيت الولاية المنتقىٰ من آل فخر الوجود أهل الوهوب
منه شيخي ابن محسن أحمد الهدار ركني ومرشدي وطبيبي
كم تلقيت منه مكنون علم وإلىٰ الآن سرُّه مصحوبي
هذه يا أخي عُلالةُ فكْر عاد ينبوعُ مَدِّه في نضوب

---

(١) كذا في الأصل.

ودّ لــو أنــه أجــاب بِــداراً ... أو يــوافيــه منحــةً بــذَنــوب
لكــن الحـائـلات أقصَتْـه منبـوذاً ... بــوادي قســاوة وذُنــوب
بعــد تسـع مــن السنيــن بممبـا ... سـةَ وكـر البـلا ودار الخطـوب
فـأرعـوىٰ آيبـاً عسـىٰ أن ينـادىٰ ... في ذوي الفوز من محل قريب
مُـزمعـاً نحـو خيـر ربـع سـوىٰ مـا ... فيـه نـص مـن شـامهـا وجنـوب
حيـث دَرُّ الهـدىٰ تخلّـصَ زُبْـداً ... فـي مغـانيـه لـم يكـدَّر بشـوب
فتقبـل وضيعـة فـي حـواشـي ... حـر منظـومـك البـديـع العجيـب
رُدَّ عهد الوِصَالِ بالذكر وأسلم ... ياهُماماً في خير عيش خصيب
وصــلاة علــىٰ الحبيــب وآل ... ومحــب يحــب آل الحبيــب

* * *

وقد جمعت بينهما الأيام رحمهما الله مرة أُخرىٰ في ربوع كينيا سنة ١٣٩٥هـ عند أوبة سيدي الحبيب محمد الهدار من جزائر القمر التي زار بها سيدنا الحبيب عمر بن أحمد بن سميط مروراً بممباسة، وقد كان لهذا الاجتماع وبهجة هذا اللقاء أبلغ الأثر في النفوس تترجمه وتتحدث عنه الأبيات التالية وتعرب عنه مشاعر سيدي محمد الهدار وهي:

تمـام الحـج أن تقـف المطـايـا ... قليـلاً فـالخبـايـا فـي الـزوايـا
تقـف حيـث الأكـارم قـد أنـاخـوا ... نجـوم الأرض أربـاب المـزايـا
وزر بحــر العلــوم ورِدْ زُلالاً ... يــزُلْ عنــك الأذايـا والبـلايـا
أبـا الحسـن أحمـد المشهـور طـه ... حميـد القـول محمـود السجـايـا
عُبَيــدٌ أيهــا الحــداد يــدعــو ... علـىٰ أعتـابكـم حـطَّ الـروايـا
أتــاكــم والجنيــديُّ ضيــوفــاً ... حفـاة هـم وأهلـوهـم عـرايـا

وزرنـا فـي [مـرونـي] بحـر علـم — شجـاع الـديـن قسـام العطـايـا
وأنتـم بـابـه ولكـم عليـه — دلال فـآرحمـوا أهـل الخطـايـا
وأوصـاكـم بنـا جمـاً فقـومـوا — بمـا جئنـا لـه طِبْـق الـوصـايـا
وعنـدكـم مـن الأسـلاف سـر — لأيتـام الفـروع وللبـرايـا
فجـودوا يـا كـرام بمـا وجـدتـم — بمـا يشفـي القـوالـب والجـوايـا
ولا تنسـوا حقـوق بنـي أبيكـم — أغيثـوا قبـل أن يضحـوا ضحـايـا
فقـد نُصِبَـتْ لهـم رايـاتُ غـدْر — أرادتهـم لأسهمهـا رمـايـا
فهيَّـا سـادتـي فـالأمـر إدٌّ — ومنّـوا بـالمنـىٰ قبـل المنـايـا
وسيـدنـا بنـي الهـدار هـادي — هـدانـا ثـم أهـدانـا الهـدايـا
سـلام الله يغشـاكـم جميعـاً — وإيـانـا بكـم ثـم البقـايـا
وصلـىٰ ربنـا فـي كـل حيـن — وسلـم بـالغـدايـا والعشـايـا
علـىٰ طـه البشيـر وخيـر آل — وصحـب والـرعـاة معـاً الـرعـايـا

* * *

انتهينا من تنقلاتنا في الصفحات الماضية مابين زنجبار وكمبالا وجزائر القمر ومقديشو وغيرها من المدن والقرىٰ التي ظل سيدي يتردد عليها ما بين فَينةٍ وأخرىٰ ويتعهّدها خلال ما ينيف علىٰ نصف قرن وإلىٰ قبيل وفاته رحمه الله تعالىٰ حيث جعل من ممباسا في كينيا المقر الرئيسي لإقامته، وسجلنا حصيلة ما أمكننا استرجاعه من خلال تنقلاتنا تلك من الذكريات، أمّا ما أهملته أقلام مريديه والمقربين إليه والمحيطين به من تسجيل نشاطاته العلمية والأدبية والاجتماعية طيلَةَ هذه الفترة فإن التاريخ لم يهملها فهي مسجلة فى أنصع صفحاته، عدىٰ ما استحوذت عليه بعض الأيدي في غفلة من الزمن

مما كنا نعتقد أنه سيكون موجوداً في مكتبته في ممباسا، وكل ذلك سيحفزنا أكثر علىٰ البحث مستقبلاً عن تلك الكنوز الضائعة فضياعها خسارة لاتعوض، وليت كل الذين اتصلنا بهم رغبة في تزويدنا بما لديهم مما يمكن الاستفادة منه تجاوبوا معنا كما فعل سيدي الفاضل العالم عبد القادر بن عبد الرحمن الجنيد نزيل دار السلام [تنزانيا] الذي زودنا ببعض القصائد التي يعود تاريخها إلىٰ ١٣٤٧هـ و١٣٥١هـ، كما زودنا بالقصيدة التالية التي بعث بها إلىٰ سيدي الوالد في ١٦ شعبان ١٣٩٩هـ الموافق ١١ جولاي ١٩٧٩م وقصيدة سيدي الجوابية. وهذه هي قصيدته وقد قدم لها بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلىٰ ساحة الفضل والجود، ومجلي حضرة الشهود، وخليفة الآباء والجدود بني علوي الصيد، حليف الكتاب والمحراب، والمرتوي من خير شراب، الأمين علىٰ الأمائن، والكنوز والدفائن، وعنده مفاتيح الخزائن، وعلىٰ يديه نرجو الفتح، والعطا والمنح، وأن يدخلنا في حزبه، ونظفر بهم في الحسبة، ويقسم لنا بفضله من شربه، إذ كل وادي يشرب من شعبه، سيدي وحبيبي ومن حبه ملأ جوانحي وقلبي الوالد العمدة، ومن هو أعظم عدة، سيدي الحبيب أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد متع الله به في عافيه.

أقدّم هذه الأبيات الركيكة المبنىٰ والضعيفة المعنىٰ متطفلاً علىٰ مائدة الشعر والشعراء، راجيا قبولها والإغضاء عن عيوبها وانجاز مطلوبها.

إليــك خــرائــدُ العليــا تشيــرُ   بــأنّــك كُفْـؤهــا وبهــا الجــديــر

وتــومــي كلهــا الــرتَــب العــوالــي   بــأنــك فــوق هــامتهــا تطيــر

محلـك فـي العـلا سـامٍ فـأنّىٰ يحيـطُ الـوصـف غـايتـه يشيـر
إذا سرّحـتُ فـي علياك طـرفـي يعـود بسـرحـةٍ وهـو حسيـر
حـويـت مـن المعـارف لبهـا خـالصـاً والغيـر كـان لـه القشـور
وحـزت لكـل مكـرمـة وفضـل خصـال الفضـل أنـت لهـا أميـر
فمـاذا أستطيـع أقـولـه مـن ثنـائـك كـل مـاقلـت يسيـر
فمـا أدركـت مـا أدركـت إلا بعـزم لا يليـن ولا يخـور
فمـا لـك صبـوة تعـرف منـذ الصبـا عـن نهـج جـدك أو فتـور
فإن في العلم خضت فأنت حبر بكـل مسـائـل العلـم خبيـر
وإن فهـت بمـوعظـة ونصـح فقـولـك بلسـم يشفـي ونـور
وإن يك في التصوف خضت تبدي علـومـاً ليـس تحـويهـا السطـور
وتنشـر فـي علـوم القـوم فينـا فهـومـاً يستنيـر بهـا الضميـر
وتشتـمّ القلـوب نسيـم قـرب بـه تحيـا وتنشـرح الصـدور
فـلا بـدع فقـد غـذّتْـك دَرَّ المعـارف أمُّـك العـف الطهـور
سليلـة طـاهـر القطـب وأشيـاخ فضـل كنـت بينهـم تـدور
سلكـت سبيلهـم وقفـوت آثـارهـم مـن حيثمـا سـاروا تسيـر
حَبَـوك بسـرِّهـم وعليـك ألقَـوا عنـايتَهـم فيـا نعْـمَ الصـدورُ
فـأنـت اليـوم وارثهـم بهـذا كبيـرُ القـوم يشْهَـد والصغيـرُ
فتهنـاك الخـلافـة عَنْهُـمُ يـا أبـا حسـنٍ فقـد جـاك البشيـر
فيـا ابـن الأكـرميـن ويـا ابـن طـه ومـن لـك فـي الـورىٰ قـدْرٌ كبيـر
ويـا حـدادَنـا المشهـور يـا مـن لنـا نعـم المـؤمـل والنصيـر
أتيتـك قـاصـداً أرجـو غيـاثـاً ومـا لـي غيـر أحمـد مـن يجيـر

دهـانـي سيـدي أمـر خطيـر فـأرجـو الغـوث ينـدفـع الخطيـر
خـذوا بيـدي ودلـونـي لـرشـدي فـإنـي حـائـر بـك أستجيـر
ولـي يـا سيـدي طلـب أرجـي تنجـزه ومـا طلبـي عسيـر
وقـد سبقـت وعـود منـك لكـن بحكـم الـوقـت تنكشـف الأمـور
أريـد إجـازة منكـم بخـط تنـاط بهـا الإقـامـة والمسيـر
بنظـم أو بنثـر كيـف شئتـم وإن النظـم بـالأدبـا جـديـر
بمحض الفضل والإحسان جودوا علـي فمـا لجـودكـم نظيـر
وإنـي بلسـان الحـال أشـدو [إلـىٰ إحسـانكـم إنـي فقيـر]
أطـال الله عمـرك فـي عـواف وحفتـك المسـرّة والحبـور
ودمـت ممتعـاً فـي خيـر عيـش بغـرتـك المنيـرة نستنيـر
وبـالمختـار خيـر الخلـق طـراً ومـن هـو للـورىٰ الهـادي النـذيـر
ختـام القـول مـع آل وصحـب علـىٰ أرواحهـم صلـىٰ القـديـر

وهذه قصيدة سيدي الجوابية:

أيهـا المنتـاب فـي فِكَـرِهْ ثـوب الـداعـي لـه فكَـرِهْ
لا يكـون الطيـر أقـرب منـك ارعـواءً وهـو فـي وكـره
اسمـع الـداعـي بنغمتـه مـن بسهـل الأرض أو وعـره
فـارعِـهِ سمعـاً وأمَّ إلـىٰ نـوره المشهـود لا أثـره
عـلَّ أن تـدعـىٰ لمقعـده فـي أولـي التقـريـب مـن نفـره
فهنـاك العيـش يحسبـه وافـر الإسعـاد مـن عُمُـره
ومضـةٌ يـابـن الـوجيـه بـدت مـن معـانـي الأمـر فـي صـوره
فـازْوِهـا واستمْـلِ واردهـا بعميـق الفهـم مـن زبُـره

قــد تَهَـايَــت لــك خــاطبــة ... فــاستعــن بــالله فــي قــدره
ولــي البشــرىٰ بصــالحــة ... منـك تجلـي القلـب مـن كـدره
وتقبــل مــا بــه سمحــت ... فكــرة المنتــاب فــي فكــره
ساجلـت مـن حـر نظمـك مـا ... يــزدري بــالعقــد فــي درره
لا عـــدتـــك الـــواردات ولا ... زلـت مـن عيشـك فـي خضـره
فــي ظـــلال الاتبــاع لمــن ... ســره يســري إلــىٰ أســره
صلــــوات الله تبلغــــه ... وتعــم الآل فــي أثــره
وتعــم الصحــب قــاطبــة ... مــا شــدىٰ طيــر علــىٰ شجــره

* * *

إذا نظرنا إلىٰ التطورات والتقلبات التي لعبت دوراً خطيراً في حياة تلك المجتمعات المسلمة نرىٰ أنها وإن حدَّت بالتالي من فعالية بعض نشاطاتها الدينية والثقافية والأدبية، إلا أننا نجد أن بعض الدعاة استطاعوا بقوتهم الروحية وبإيمانهم الراسخ أن يصمدوا أمام كل الصعاب وأمام المغريات المادية والقوى السياسية وغيرها من المعوقات، ولقد كان سيدي رحمه الله من أولئك القلائل الذين وهبوا أنفسهم لمحاربة الدعوات الهدامة والعقائد الفاسدة عندما أخذت تنتشر وتتفشىٰ بين المجتمعات الإسلامية في تلك الأصقاع وخاصة بعد قيام ثورة زنجبار في شهر يناير ١٩٦٤م التي أجهزت علىٰ النفوذ العربي بمظهره الإسلامي، وكانت خاتمة المطاف لكل ما له صلة بالعرب وحياتهم الدينية والحضارية والثقافية والأدبية، وإن كانت هناك قبل ذلك مؤثرات أخرىٰ وعوامل داخلية أدت إلىٰ انحراف الأفكار وإضعاف العقائد وتوهين العزائم مما أحدث هزة عنيفة تأثر بها الأدب العربي والثقافة

العربية، وفي زنجبار بصورة خاصة باعتبارها حاضرة الإسلام وعلومه وآدابه وحضارته وثقافته في تلك النواحي، كما أشرنا إلىٰ ذلك فيما سبق، ولقد وجدت بخط سيدي نقلاً عن السيد الشاعر الأديب علي بن جعفر الوهط رحمه الله بيتين لسيدي الحبيب عمر بن أحمد بن سميط ينعىٰ فيها العلم والأدب قبل الثورة المشؤومة التي غيرت مجرىٰ التاريخ في هذه الحاضرة وهي:

إن المعارف في السواحل أتلفت ... والعلم فيها جائد بالروح
وإذا وجدت تحركا في زنجبار ... فإن ذاك تحرك المذبوح

* * *

ولا شك أن سيدي يدرك مدىٰ التأثير بالبيئة المحيطة به حيث عاش فترة من الوقت في أوقاندا بمعزل شبه تام عن الأجواء الفكرية والأدبية والثقافية التي عاشها قبل هذه الحقبة بالرغم من أن جمال الطبيعة وصورها الخلابة تعتبر من البواعث التي تمد الأديب والشاعر من روافدها الجمالية بما يساعده علىٰ الإبداع الوصفي والجمالي في شعره ونثره إضافة للمخزون العلمي المتنوع، ولكن هذا لايمنع من أن يظل ذلك التأثير وارداً في حالات لا يستطيع الخلاص منها، وإن لم تبدُ علامة بارزة في أي عمل أدبي أو صياغة شعرية وقد عبر عن ذلك بقوله في إحدىٰ القصائد التي مرت معنا من حيث نظرته العالية إلىٰ الكمال بقوله:

ودونك من رهن البعاد مرقعاً ... جواباً علىٰ أبياتك الحلل القشب
أعارته يوقاندا السديمة لوثةً ... وأعرته من فضفاض منطقه العذب

ولا علاقة لذلك بمجال الدعوة ولا تأثير علىٰ سير الداعية وتعامله مع المجتمعات التي يدعو فيها ويخاطبها بالمنطق الذي تفهمه والأسلوب الذي ترتاح إليه، ما دام يملك الإرادة القوية علىٰ تحمل كل الصعاب.

* * *

وقديماً قالوا: إن الشعر ديوان العرب، تسجل فيه الأمة أفكارها ووقائعها وأحداثها، فالشاعر ينقلك من رحلة تاريخية إلىٰ رحلة روحية ويرسم لك صوراً شتىٰ، اجتماعية وسياسية وأدبية وثقافية ووجدانية.

وكلما وجدت عند الشاعر قوة الإلهام كلما وجدته أقدر علىٰ دقة التصوير وهو يسجل مشاعره وأحاسيسه في شعره، وليس ذلك مع من يعنيه أمره فقط وإنما يتعدىٰ ذلك إلىٰ من يسمعه أو يقرأه.

وحينما نرىٰ سيدي يعرب في شعره عن مدىٰ شكره، أو عظيم امتنانه، أو خالص تقديره، أو صافي وداده، أو عميق إخلاصه، أوصدق مدحه وثنائه، أو حسن اعتذاره، أو لطف عتابه، فإنه يصور كل ذلك ويصوغه في قالب شعري خال من التصنع والتزلف والمبالغة بعيدٍ عن التكلف والغموض كما سبق معنا:

[وينصر دعوىٰ من يرىٰ الشعر مذهباً علىٰ حكمة يسدىٰ وقول سلام]

* * *

في رحاب أمّ القرى

ومن فُضُول القول أن نتحدَّثَ عن الشعر بدون حاسَّةٍ شعرية، أو أنْ نخوض في أشياء لا تستجلب الانتباه إليه أو لا تعمق صلته بالجوانب الأخرىٰ في حياة سيدي، باعتبار أن الشعر ـ كما قيل، وإن استُمِدَّ من الشعور والإحساس والوجدان ـ ذو رابطة وثيقة بالعلم والمعرفة، ومتىٰ كان الأمر كذلك فإنه يظل بمنأىً عن الأوصاف المتكلفة وهنا يبدو الإبداع الوصفي كأروع ما يكون التصور وأشده تأثيراً في ما يصدر من شعور صادق نابع من الوجدان وربما دل ذلك علىٰ طول نفس الشاعر.

وما أجمل أن تشنف الآذان داخل هذا الإطار بما تمليه إيحاءات مكة المكرمة ومشاعرها العظام، عندما:

يلمح النـازل فـي أرجـائهـا   سـر معنـىً ولـه مـا سكنـا

وترنو الأبصار بشغف وشوق إلىٰ:

بقعـــة تهـــوي لهـــا أفئـــدةٌ   تهجـر الأهْـلَ لهـا والسكنـا

وتطمئن النفوس وترتاح عند ما ترتع في رياض العلم أو تأوي إلىٰ منتدياته الحافلة بالنخبة من العلماء وأهل الفضل كتلك الحفلة التي أقامها الشيخ الصالح الوجيه سالم باهويني في منزله، والتي ألقىٰ فيها سيدي القصيدة التالية في السيد علوي بن عباس المالكي عالم مكة ومرشدها وهي:

صـــل محبــاً ذاب وجـــداً وعنــا   يـا غـــزالاً فـي سـفـوح المنحـنىٰ

شبَّ في حبك مُذْ عْهدِ الصبا وسما الحب به فافتتنا
بحلا وصفك يستجلي الرواء والهوىٰ إن هام فكراً أورنا
وبألطافك يغني عن جِدًا فائض الغمر وريع المقتنىٰ
وعلىٰ ذكراك يوري شجوه رنة الشادي وألحان الغنا
عثر الصادق في حبك يا بغيةَ العاني علىٰ كنز الغنىٰ
وأسير الوعد يبكي وقته هل له من برق لقياكم سنا
قد حكىٰ مما يلاقي يومه ليله والصحو منه الوسنا
وتخلىٰ فلذا يوحِشُه في الدنا ما سر أبناء الدنا
هتف الداعي به حيهلا فادن يارهن النوىٰ فيمن دنا
فانتضَى العزم وولَّى وجْهَه حرَمَ الأمْنِ وميرادَ الهنا
حيث تجلىٰ غاية الحسن لمن أمَّها داعيةٌ: حُطّوا هنا
ودنان الأُنس من زمزمها بينهم دائرة كل أنا
وقرىٰ إنعامهم يُجْبىٰ لهم في بساط القرب من كل إنا
ولكم خطت لهم كي يأنسوا مشعراً يفتر عن زهر المنىٰ
في ربىٰ نَعْمَان والمعروف من عرفات والأماني في منىٰ
بقعة تهوي لها أفئدة تهجر الأهل لها والسكنا
يلمح النازل في أرجائها سر معنى (وله ما سكنا)
وكريمٍ أنجبتْ بطحاؤها للكمالات مثالاً حسنا
كابن عباس وحسبي أنه علوي وهو ينمىٰ حسنا
الطراز المُعْلَمُ المختار من بيت أرباب المثاني والثنا
يشبع الفصل اذا أملىٰ وإن قيل في مدْرَسِه: حدثنا

بفهـوم ونقـول لـوهمـت ... فـوق صخـر رَفَّ نبتـاً وجنـا
وفتـوح مـن لـدن خـالقـه ... يبـرئ الأعمـىٰ ويثنـي مـن جنـا
وحـديـث للـورىٰ يـرسلـه ... فـي أثيـر الجـو نصحـا بينـا
ومتـىٰ أومـأ بـالسـر سـرت ... نسمـات القـرب مـن ذاك الفنـا
عطـرات فـإذا استنشقهـا ... ذو حصـاة هـام وجـداً وفنـا
وإذا هـز يـراع النثـر فـي ... مـوقـف أنسـاك أفعـال القنـا
ولـه نظـم يـرىٰ سـامعـه ... أنـه خيـر مـن الـدر قنـىٰ
يـزدهـي البيـت بـه عجبـاً كمـا ... تـزدهـي أعيـانهـا والأمنـا
لا أغـالـي إن أقـل إن أمنـوا ... حـولـه فهـو بـه قـد أمنـا
يـا مُغِـذّاً فـي تضـاعيـف السرىٰ ... للعلـىٰ رفقـاً أجِـمَّ البـدنـا
ليـت شعـري ليـس تخلـو ساعـة ... عـن صـلاح كـي تـريـح البـدنـا
بـل تخِـذْتَ العلْـمَ والتبليـغَ عـن ... جـدِّك الهـادي البـرايـا ديـدَنـا
فلتـدم للعلـم بـدراً مشـرقـاً ... ولمـرتـاديـه غيثـاً هَتِنـا
يبلـغ المغـرب والشـام إلـىٰ ... مصـر والهنـد ويغشـىٰ اليمنـا
وتقبـل بـاقـةً جمّعتُهـا ... زهَـراتٍ مـن هنيـا وهنـا
سمـة الـذكـرىٰ ورجـوىٰ دعـوة ... منكـم تجبـر منـا الـوهنـا
تـذكـر الخـل بهـا مهمـا يُقِـمْ ... عنـدكـم مستـأنسـاً أو ظَعنـا
بصـلاح الحـال والنـشء لنـا ... ومـواليـنـا تقـر الأعينـا
وعـن الأسـرار ينـزاح الغطـاء ... فتـرىٰ مشهـودَهـا مستيقنـا
رائـع الـوصـف المغشـىٰ حسنـه ... مـن ورا الأستـار مـن ذاك البنـا
مـن سنـا مشكـاة مـن أم لـه ... جـانـب الطـور الكـريـم الأيمنـا

في بساط العلم والتقوىٰ علىٰ ... منهج القوم الكرام الفُطنا
وصلاة تبلغ الهادي ومن ... حبه ما هز ريح غصنا

* * *

فإذا علمنا أن سيدي قد استلم قصيدة جوابية من سيدي العلامة الجليل علوي بن عباس المالكي، فما أجمل أن نعود بالذكرىٰ إلىٰ رحاب ذلك الإمام العظيم لنطل منها علىٰ كواعب من بنات الفكر وقد برزت تتعثر في ثوبٍ من الخجل، وكيف لا ترضىٰ وفادتها وعيبها أن لا عيب فيها، وحسبنا أن نستمع بآذان صاغية وقلوب واعية إلىٰ براعة الاستهلال التي توصلنا إلىٰ ما يعطينا الشعور بالاستئناس المفضي إلىٰ ما في رياض العلم ومناهل الأدب من روعة التصوير والتشبيه البلاغي والمجازي وغير ذلك من المحسنات اللفظية اللازمة في صناعة الشعر والدالة علىٰ وثوق الترابط بين العلم والشعر كما سبق أن أوضحنا ذلك، وها نحن قد وصلنا إلىٰ القصيدة المشار إليها وآن أوان الاستماع إلىٰ محتواها، وهي:

خودٌ من البيض ذات الغنج والكحل ... رمَتْ فوآدي بسهم الأعين النجل
وخلفتني غريقاً في محبتها ... يا ليتها مذ بدت رقت ولم تمل
كريمة الأصل إلا أنها بخلت ... بالوصل يوماً علىٰ قلبي ولم تحل
لهجرها عامل يسطو علىٰ كبدي ... بالجرم حتىٰ غدىٰ في أسوأ العلل
أروي حديث جناها في الغرام كما ... تَرْوي أحاديث حبي وهي لم تَصِل
والبدر يرقبها ليلاً إذا طلعَتْ ... من خدرها وهي في دل وفي حلل
والغصن يحكي تثنيها إذا خطرت ... والطير يشدو لها باللحن في الغزل

والبـرق يشبههـا يـومـاً إذا ابتسمـت ... من أين للبرق ما للخود من جمل
صبرت أبغي رضاها في الهوىٰ ولها ... صـد ورد وإخـلاف عـن الأمـل
جارت علىٰ صبِّها ظلماً وما عطَفَت ... وضيعت في هواها سادتي حيلي
ومـا وفـت، بعهـود فـي الغـرام كمـا ... وفَـىٰ بـذاك نصيـر العلـم والعمـل
الفاضل الكامل المشهور أحمد من ... نال الذي يرتجي في أقوم السبل
ونــال قــربــاً وتشــريفــاً ومنقبــة ... بأشرف الخلق طه سيد الرسل
مـا آل والله جهـداً فـي مسـاعـدة ... كلا ولا في نزول الحادث الجلل
بـل كـان ركنـاً حصينـاً نستعيـن بـه ... لسد ما كان من عجز ومن خلل
فكم له في مساعي الخير من منن ... جلت عن الحصر والتعداد والمثل
خذ منه ما شئت من فضل ومن كرم ... وعنه فارو حديث المجد والعمل
آثـاره الغـر تهـدي السـالكيـن إلـىٰ ... ما يرتجي من طلاب الفخر والأمل
فأهنأ بما نلته واسلم ودم فرحاً ... في رفقة أنت منهم غير منفصل
كواعب من بنات الفكر قد برزت ... لديك تعثر في ثوب من الخجل
ومهرها منك أن ترضىٰ وفادتها ... وتستُـرَنَّ الـذي فيهـا مـن الخلـل
فاسلم وعش آمناً ما قلت مغتبطاً ... خود من البيض ذات الغنج والكحل

* * *

لا زلنا في رحاب ذلك السـيد الجليل ولن نغـادرهـا قبـل أن نصـغىٰ مرة أخرىٰ إلىٰ ما دار بينه وبين سـيدي الوالد رحمه الله إذ أملـىٰ عليـه البيت التالي:

مـاذا تقـولـون فـي مـن همـه زادا ... وليـس يملـك لا رحـلاً ولا زادا

وطلب منه أن يجيزه بأبيات أخرىٰ، قال سيدي: فأعملت القريحة في إجازته بهذه الأبيات:

مقيد عن رعيل النفر منطلق ... بالفكر يقطع أغواراً وأنجادا
متيم نال إحدىٰ الحسنيين فإن ... تهفو قواه ينل بالشوق إنجادا
مؤمل قصرت في الوصل حيلته ... فصار ملتجئاً لله منقادا
وأُوصِدَتْ دونه الأبواب فاتصلت ... به لطائف فكّتْ عنه إيصادا
أودىٰ القصور به عما يحاوله ... وجْداً تلَهَّبَ في أحشَاه إيقادا
أخْلِقْ به أن يوافىٰ بالمراد وأن ... يمد عن كَثَبٍ بالوصل إمدادا
يا حادي الركب إمَّا جُزْت ذا سلم ... وفي سفوح النقا شاهدت أمجادا
فاذكر فديتُك صباً عندهم كَلِفاً ... يهيم في وصفهم شدواً وإنشادا
وقل لهم ما نأىٰ عنكم بخيرته ... جسماً وخالط أعداءً وأضدادا
إلا ليرْفَعَ من إرشادكم عَلَماً ... يأوي إلىٰ ظله من ضَلَّ أو حادا
مستظهراً بابنكم نجْم الهُدَاة ومن ... زان المحاضر توجيهاً وإرشادا
مأوىٰ الهداة ابنُ عباسٍ به رفعَتْ ... أم القرىٰ رأسَها عرضاً وإسنادا

* * *

إن موقع ميلاد خير البشر وسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم من أشرف الأماكن التي تحتل منزلة رفيعة في قلوب المؤمنين ويتشوف إليها ذهن كل من غمرت قلبه وملئت جوانحه محبة هذا الرسول الكريم صلوات الله عليه وعلىٰ آله كلما نزل بمكة أو حل بها، باعتباره معلماً من أشرف المعالم وأثراً من أعظم الآثار في مكة المكرمة، وقد مر هذا الموقع بمراحل وأطوار لم تدم علىٰ حال حتىٰ يومنا هذا.

جاء في كتاب «التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم» لمؤلفه طاهر الكردي المكي مايلي:

كانت ولادته صلىٰ الله عليه وآله وسلم في دار أبي طالب بشعب بني هاشم بقرب المسجد الحرام، ويسمىٰ الآن بشعب علي بن أبي طالب، ولا زال محل ولادته صلىٰ الله عليه وآله وسلم معروفاً إلىٰ اليوم، وجاء في «تاريخ الأزرقي»:

مولد النبي أي البيت الذي ولد فيه النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهو في دار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وفيه وفي غيره يقول صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «وهل ترك لنا عقيل من ضلّ؟».

إلىٰ أن قال: فلم يزل ذلك البيت في الدار حتىٰ حجت الخيزران أم الخليفتين موسىٰ وهارون فجعلته مسجداً يصلىٰ فيه وأخرجته من الدار وأشرعته في الزقاق الذي في أصل تلك الدار يقال له زقاق المولد. وذكر روايةً: أن أناساً من أهل مكة كانوا يسكنون ذلك البيت قبل أن تشرعه الخيزران من الدار، ثم انتقلوا عنه حين جعل مسجداً، قالوا: لا والله ما أصابتنا فيه جائحة ولاحاجة فأخرجنا منه فاشتد الزمان علينا.

ويصف سيدي وقوفه قباله ولا ندري علىٰ أي حال كان حينئذ. قال رحمه الله: ولما وقفت علىٰ محل ميلاد النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم بشعب الهواشم وقد أحيلت أطلاله وتوارىٰ جماله هاجني الوجد، وشاقني سالف العهد، فجرت علىٰ البال هذه الأبيات:

وفي شعب الهواشم أي سرٍّ ... له شوقي وأحزاني تجدد
لعلي أن أنال بطَرْف عيني ... مكاناً عزَّ من ميلاد أحمد

* * *

وكم من مآثر غيره في الحجون، وفي البقيع، وأُحد، والعُرَيض، والأبواء تثير الوجد وتهز الوجدان عندما يشاهدها الزائر بحسرة وأسىً وقد عبثت بها يد الزمن ولعله يجد ما يبدد البعض من حسرته وأساه عندما يقف أمام البيت الذي تهفو إليه القلوب والأفئدة وتطيب عنده المناجاة والابتهال فترتفع أكف التضرع الىٰ الله في ذلة وخشوع، وهذا هو حال سيدي، وقد أتىٰ مكة حاجاً سنة ١٩٥١م ووقف أمام البيت العتيق مناجياً ربه متضرعاً إليه بقوله:

أتيت إليك يارب البرايا ... أسير الذنب موثوق الخطايا
ذليلاً قاصر الخطوات أرجو ... قرىٰ يا خير من وهب العطايا
إلىٰ الكرم العريض بخير مجلىٰ ... وبيت نحوه تزجي الضحايا
وطلسم سر ذاتك حيث تهوي ... إليه قلوب أصناف البرايا
بمكة بهجة الدنيا ومثوىٰ ... كنوز السر فيها والخبايا
ومولد من أبنت به المعمّىٰ ... ونورت المعالم والزوايا

* * *

ومع الشعور ببسط الموائد للنازلين بسوح البيت الحرام الذي يلوذ بحماه كل عان وجان وآبق، والمجاورين له، يقول سيدي رحمه الله وهو في هذا الجوار سنة ١٣٧٢هـ:

أصير لمخلوق وحسبي خالقُ ... وأسأل من مرزوقه وهو رازقُ

وأرجو القرىٰ من غيره عند بيته أيفعــل ذا عنــد الأكــارم طــارق
ألـم يُؤْوِنـي مـن بيتـه خير معقل يلــوذ بــه عــانٍ وجــانٍ وآبــقُ
أمـا بُسطَـتْ للنـازليـن بسُـوحـه مـوائـد لـم يحـرم قـراهـن تـائـق
فهـا أنـا يـا كنْـزَ المقلّيـن لاجـيءٌ ببـابـك والظـن الجميـل مـرافـق
أنـاجيـك إعـلانـاً وسـراً ومـوهنـاً وصبحاً وحالي باللسانين ناطق
ولـي فيـك، آمـال عظـام وعـرضهـا لغيـرك أمـر فـي جـوارك خـارق
وعلمك يغني عن سؤالي وإنما يـزيـد ابتهـالـي إن أَلمّـت ضـوائـق
وأغمضت في عرض السؤال لأنني تجرأْتُ واسودّتْ بذنبي المهارق
وإلا فمنك الجودُ في الكَون فائضٌ يشـارِك ذا الإيمـان فيـه المنـافـق

* * *

عاش سيدي كل حياته للعلم وبالعلم مرشداً وموجهاً وداعيةً، وكان يسعده دائماً أن يرىٰ كل من يتحلىٰ بالانتساب إلىٰ العترة الشريفة الطاهرة أن يقيم الدليل علىٰ ذلك بالاتباع في أقواله وأفعاله وبالاجتهاد في تحصيل العلم والتمسك بالقيم الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، وأن يبتعد عن طريق أهل الغواية والزيغ والضلال، وأن يمشي علىٰ نهج العترة ويترسم خطاها ليكون كما قال رحمه الله وأسكنه فسيح جناته [علوياً في قاله والفعال] وهذا هو مطلع قصيدته التالية:

علــويــاً فــي قــالــه والفعــال كــن إذا رمــت صحــة الإتصــال
واشفع الأمر بالدليل احتجاجاً يـدفـع الخصـم عنـك لابـالـدلال
إنمــا أنــت فــي البــريــة ســر قام في الكون منه معنىٰ المثال
بضعــةٌ مــن محمــد لا تنــاهــىٰ مـا تلىٰ الـذكْـرَ فـي البـرية تـالـي

نصُّها ضمْنَ آل عمران في ذريّةٍ قاطع لسان الجدال

أي وسم به توسمت لا يشرىٰ بجاه لطالب أومال

لا يَبزَنَّهُ عليك أسود من بني حيدر غداة النزال

ثم تبقىٰ مخلفاً رَهْنَ وَهْنٍ ساقطَ القدر مستميت الفعال

لست في غيرهم تعد ولا منهم ترجَّىٰ في العَقْد والإنْحِلال

أمليحٌ ترىٰ تشرُّف من ليس شريفاً وأنت في الأوغال

قدَمٌ عن سبيلنا بك زلّتْ حُزَّها والحقَنْ بأهل الوصال

إنما رأسُ مالك العلم والأخلاق إرْثاً ورِثْتَه عن رجال

أي وفْرٍ وأي فخْرٍ وذكْر منه أعلىٰ في عزة الأجيال

أوَترضىٰ بأن تكون شبيهاً لمعاد لله والإرسال

أو لشخص يرىٰ التشبه فخراً بك فيما احتويته من كمال

ليس عار علىٰ الذي هو في القاع اذا انحط بل علىٰ المتعالي

أيها العلوي ثق بيقين أنك النون في عيون الجمال

أيها العلوي نفسك فأعرف تعرف الحق بيِّناً في مقال

أيها العلوي لا تألُ جهداً في اكتساب العلوم والأعمال

أيها العلوي خطة أهليك أحيها بالسلوك والإقبال

أيها العلوي إن كنت حقاً علوياً بأنتماء الأهالي

فعلىٰ الجد واليقين فعوّل لا كمن غره لُمُوع الَّلآل

فامتطىٰ الوهم وارتضىٰ الجهل حالاً بئس ما يرتضي به من حال

ليت شِعْري من ذا يعِيرُ استماعاً كلمة قالها أخو بلبال

اءه ما رآه في البعْضِ منهم من رُكُونٍ إلىٰ مهاوي الوبال

يتمنّىٰ الكَمال في العلويين جميعاً بمنتهىٰ الآمالِ
ورأىٰ ما استطار في الناس قد يفضي إليهم من خلطة الأنذال
وتَسرِّي عَوَائِدِ الغرب في الشرق وعدوىٰ طوائف الإضلال
فانتَحَىٰ للقريض ينشر دعواه مقراً بالعيِّ والإخلال
مستميحاً ممن به قد دعاهم نظرات في حالهم والمآل
في زوايا أوطانهم ونَوَاهم في محطٍّ لهم وفي ترحال
وبثوب الحياء أذكر عن مستوطنيهم مصائب الإغفال
بعد أن منَّ ذو الجلال عليهم بمقام فوق الطوائف عالي
واحتشام وميزة من سواهم في أوان انفرادهم واحتفال
وطريق قويمة نهجتها قبلُ أسلافُهم بأعلىٰ مثال
في سبيل السلام واليُمْن بل في سر معنىٰ الخلافة المتوالي
سيرة للعلىٰ سواء تحاشت عن ضروب المراء والإختيال
أخذت جانبَ الهدىٰ فاستقلّتْ دعوةَ الحق أيما استقلال

* * *

وهذه مقطوعات شعرية في أغراض متنوعة أحببنا أن نوردها لنكمل بها ما اخترنا من الديوان نبدَؤُها بقوله رحمه الله: ومن الحكم التي وفقت لصوغها في عقود الشعر هذه الأبيات:

خليلي إذا جالست حيناً بني الدنا فبالوعظ للأخرىٰ وللهمة العليا
وحادث بني الأخرىٰ بآيٍ وسنّةٍ وتعظيم أهوال القيامة واللقيا
وإن أنت جالست الملوك فعرضن بسيرة أهل العدل واسْتَجِدِ الزَّيّا
وحاضر رجال العلم بالرفْق راوياً ومستروياً بالعقل والنقل والفتيا

ووف لأربـاب التصـوف حقهـم ... من الأدب المرعي وانصر لهم هديا
وأمـا الـرجـال العـارفـون فبـالـذي ... يـزيـدك فيهـم مشـربـاً وبهـم ريـاً
فحضـرتهـم للحـاضـريـن صبـاغـةٌ ... تؤثر نشْراً في المجالِسِ أو طياً

* * *

وقال رضي الله عنه متحدثاً بنعمة الله وفضله عليه:

لقـد آنسـت هـذا اليـوم بشـرىٰ ... وروحـاً فـي ريـاضـي مسبطـرا
ونـوراً فـي فـؤادي فـوق مـا قـد ... أراه ينـوبنـي طـوراً فطـورا
لعـل الأنـس مـن سـر التجلـي ... بهـذي الليلـة العليـاء قـدرا
فعِـشْ يـا قلـبُ مبتهجـاً زكيـاً ... فقـد أعطَـوك بـالـرجْـوىٰ قِمَطْـرا
وفي الديوان قد سجلت عضواً ... وفـي العـرفـان قـد عينـت حَبْـرا
وكيـف تلـوع مـن ظمـأ وتضنـىٰ ... ومـن معنـىٰ الحيـاة وردْتَ نهـرا
وهل يَرضَون أن تُجْزىٰ صدوداً ... وذكـرك فيهـم مغـدىٰ ومسـرىٰ

* * *

وقال رحمه الله تعالىٰ:

عجبـاً تحِـبّ ولا تحـوزُ ثـلاثـةً ... النفـسَ، وهـي رفيقـةٌ لهـواهـا
والـروحَ، وهـي لـربهـا محكـومـةٌ ... والمـالَ، وهـو لـوارثٍ يتنـاهـىٰ
واثنيـن تـأمـل: راحـة ومسـرة ... وهمـا بـدار الخلـد طـاب ثـواهـا
والمـال لا يُهْجَـىٰ ويُمـدَحُ ذاتُـه ... لكـن لغـايتـه التـي أبـداهـا
فكمـا بـه تُبْنـىٰ الكنـائـس تبتنـىٰ ... منـه المسـاجـد فـافـرق الأشبـاهـا

ومن وحي بعض الخواطر يقول رحمه الله:

ومن العجائب في الزمان وأهله جمع النقائض في إطار واحد
شيعي ود في النبي وآله وحليف نصب خارجي بارد
هذا يصرح بالمودة والولاء وذاك يطمس كل فضل وارد
حقداً دفينا في الخوارج لم يزل تبدو لواهبه بوقد الواقد
ومودة تنمو لشيعة أحمد من خير مشهود يلوح وشاهد

* * *

وقال رحمه الله في ساعة من ساعات الصفاء والشعور بالرضاء والطمأنينة مصدراً ومعجزاً:

[دع المقادير تجري في أعنتها] مصرفات بإبطاء وإعجال
وفوض الأمر تفويضاً بلا سخط [ولا تبيتن إلا خالي البال]
[ما بين طرفة عين وانتباهتها] من اللطائف ما يسلو به السالي
ليست خواء ولكن في تقلبها [يقلب الله من حال إلىٰ حال]

* * *

وكتب هذه الخاطرة علىٰ غلاف كتاب «التلطف في الوصول إلىٰ التعرف» لابن علان:

وكم من كتاب في العلوم يروقني وتطمع نفسي أن تطالعه حقا
بدأت أدير الطرف فيه فعاقني من النفس شيء ماله أثر يبقىٰ
قرعت له سن الندامة عندما تخلفت والأمجاد قد بلغوا المرقىٰ
فيا رب يسرلي مناي وآتني من العلم ما أدري به الجمع والفرقا

لم يكن رحمه الله تعالىٰ طوال حياته ممن يبحثون عن الشهرة أو الجاه أو المناصب الدنيوية بل كان بمنأىً عن كل ذلك شديد التحرج عند سماع ما يقال فيه من مديح أو ثناء.

ولا زالت بين أيدينا مجموعة كبيرة من المدائح التي قيلت فيه في مناسبات عديدة باعثها شعور المحبة والتقدير والاحترام لشخصه ومكانته العلمية والأدبية والفكرية والخلقية والاجتماعية حيث كانت حياته مليئة بجلائل الأعمال.

وكثيراً ما نجد في تراجم النخبة من رجال العترة وذكر مناقبهم ومدحهم والإشادة بفضائلهم ما يخرج بنا عن دائرة المدح الذاتي الضيقة إلىٰ ما تحتويه النصوص الشعرية أو النثرية وما تتضمنه من ذكر العلوم والمعارف التي أصبحت الصفة الدالة عليهم والسمة التي لا تتخطاهم، ناهيك عن الجوانب الأخرىٰ في حياتهم التي تزخر بشتىٰ الصور الأدبية والفكرية والذوقية والإبداعية، تلك الصور التي تعبر عن مخبرهم الدال علىٰ ما يملكون من مواهب وخصائص منحهم الله إياها تجعل ظواهرها كالرياض اليانعة كلما تنقلت بين خمائلها أو تفيأت ظلالها كلما بدت لك الصورُ واضحةً ومعبرة عما يستحقونه من ثناء وتقدير وإجلال واحترام.

وكأني بسيدي لم يبرح وريف ظلال تلك الرياض بل ظل ينهل من مناهلها العذبة ويجني من ثمارها اليانعة ولكمال التعلق وجدية المثابرة التي كانت من دأبه حتىٰ وصل بها إلىٰ ما وصل إليه من ذلك المقام واستحق به أن يكون معهم ومنهم، وقد رأينا عناية شيوخه به ورعايتهم له، كما رأينا ملاحظة غيرهم أيضاً من رجال العترة من حاملي رايات العلم والمعرفة والأدب من

أمثال الحبيب العلامة حامد بن محمد السري الذي بعث له بالرسالة التالية رداً علىٰ رسالة منه بعثها إليه سنة ١٣٥٦هـ، وهذا نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد المعبود، المنبسط كرمه وإحسانه في الوجود، وصلاتي علىٰ الحبيب الذي تنحل به العقد وتنفرج به الكرب، وتنهل بفضله سحائب المدد، علىٰ رجال العلم والسند، وكأن قد حن رعْدُها، ونجز وعدها، للذي جمع الله له بين صفاء السريرة، والدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فأصبح مثالاً للأخلاق والسريرة، السيد الشريف أحمد المشهور بن طه الحداد باعلوي بلغه الله ما أراد، من وصل ليلىٰ وسعاد، وجعل أيامه كلها أعياد، وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

رداً علىٰ كتابكم الكريم وخطابكم الصادر من القلب السليم، تاريخ ٦ شوال ١٣٥٦هـ، بمسنون التهنئة بالعيد وتجديد العهد الجديد [والمحبين لله كل يوم لهم عيد] تتنزل عليهم الفيوضات، وتظهر فيهم آثار الأسماء والصفات فيتراؤن في مرآتها ألواح المحو والإثبات.

اللهم لاتحرم أحمد مشهور وأولاده منها آمين: هذا كما أنكم لاتزالون علىٰ البال ونصب الخيال، لا سيما إذا عُدّت الرجال، ولك من الله ما أملت بنشر الدعوة إلىٰ الله في جميع الأقطار إن شاء الله، ولك من الله ما لسلفك من أسوة سواء كان في أفريقيا أو في غيرها من البلدان، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

والذي ظهر لي حسن تعلقكم بالأسلاف، السادة القادة آل بني علوي وسيعقبه إنشاء الله رسوخ التلقي وظهور الترقي، ويكفيك أن سيرة السلف برزخ جامع، للقاري والسامع، وهي شهود التقصير، مع وجود التيسير، وباطنها شاذلية وظاهرها غزالية، يعني أنها جمعت بين الأعمال الظاهرة والحضور والمراقبة من غير تكلف، والسادة العلويون يربون أولادهم بالنظر إليهم ولو علىٰ بعد المسافة.

هذا ـ وخطابكم السهل الممتنع علىٰ كل فهيم. . .

فيا أحمد فلتسم في المجد والعلا ويفخر بإدراك العلاء فخور

جمعت التقىٰ يا إبن طه مع الهدىٰ بيانك در والبنان بحور

إلىٰ أن قال:

فدأبك تحصيل العلوم ونيلها وما كل من خاض الطريق يسير

الأبيات خطرت حال الكتابة، وأسأل الله جل وعلا أن يحقق رجاك، ويملي من العلوم والمعارف وعاك، ويجمعك علىٰ ما عليه آباك هنا وهناك، واستحضروني في مجالسكم العامة والخاصة. انتهىٰ[1].

ودمتم والسلام.

* * *

---

(١) ملحوظة: تم نقل ما عثر عليه من نص هذه الرسالة وما تضمنته من أبيات شعرية من ديوان الحبيب حامد السري الذي جمعه وقام بنشره حفيده حسن بن علي بن حامد السري ولم يعثر علىٰ ما بقي منها.

إذا عدنا إلىٰ ما أشرنا إليها من قصائد المديح، فحسن أن تقال في من يستحق المدح والثناء خاصة إذا كان ممن يعرفهم ويرعىٰ لهم حقهم وخير من أن تظل مناقبهم مهملة أو يتناقلها من لا يدري حقيقتها أو يعرضها بصورة مشوهة أو مغلوطة أو قائمة علىٰ فهم خاطئ، وهؤلاء الرجال أجدر بها من غيرهم ممن يتوقون إلىٰ أن يكال لهم المديح جزافاً، وعلىٰ أي صورة كانت.

ولعل هذه الصورة قد أثارت قديماً انتباه أحد خلفاء بني أمية وهو «عبد الملك بن مروان» وكان بصيراً بالشعر فقال لشعراء الأمويين المداحين، يا معشر الشعراء تشبهوننا بالأسد وهو أبخر، وبالبحر والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعر، ألا قلتم فينا، كما قال أيمن بن خُرَيم في بني هاشم:

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء

نعم إنهم كذلك.

بل هم كما قال شاعرهم الكميت:

راجحي الوزن كاملي العدل في ... السيرة طبين بالأمور الجسام

أبطحيين أريحيين كالأنجم ... ذات الرجوم والأعلام

غالبيين هاشميين في العلم ... ربوا من عطية العلام

لامهازيل في الندي مكاثير ... ولا مصمتين بالإفحام

فهم الأقربون من كل خير ... وهم الأبعدون من كل ذام

وهم الأرأفون بالناس في الرأفة ... والأحلمون في الأحلام

أخذوا القصد واستقاموا عليه ... حين مالت زوامل الآثام

* * *

ولما كانت حياة سيدي كحياة الكرام البررة من أسلافه وقفاً علىٰ العلم والتوجيه والدعوة إلىٰ الله أينما حل وحيثما نزل إلىٰ أن لحق بالرفيق الأعلىٰ، فإن حب الناس له وإقبالهم عليه وثقتهم فيه هي من ثمرات تلك الأعمال التي لم تخب شعلتها، وما كان ليطربه المديح والثناء في قصيدة تقال بين يديه أو في كلمة تلقىٰ علىٰ مسمع منه؛ ولهذا فلم نعثر إلا علىٰ البعض من ذلك مع كثرتها لأنه لم يهتم بجمعها، إلا ما يصدر عن شيوخه من ثناء أو تنويه فإنه يعتبر ذلك من أعظم المكاسب التي يعتز بها ويفخر وهم الذين يملكون المقدرة علىٰ تمييز وكشف الخصائص التي يتمتع بها كل من لازمهم، أو اتصل بهم، أو أخذ عنهم أو تقرب منهم، وقد ذكرنا في ما مضىٰ من أمره مع الإمام العظيم الحبيب محمد بن أحمد المحضار وأوردنا قصيدته التي امتدح بها ذلك الإمام.

ونحن هنا عندما نصدِّر ما قيل فيه رحمه الله من مدائح بذلك التشريف العظيم الذي يتمثل في القصيدة الجوابية المحضاريّة فإننا نرجو بهذا أن نكون قد أحسَنّا الاختيار، وهذه هي القصيدة الجوابية:

قال الإمام الحبيب محمد بن أحمد المحضار قدس الله سره:

ألا يا حبذا خير الكلام ... ففيه دواءُ أدواءِ الكُلام

سررتُ به كثيراً وهو مما ... يسر بمثله تشفىٰ سقامي

جرىٰ من عينه ماء معين ... مصفىٰ شربه أَرْوىٰ أُوَامي

به اتصلت دراري النظم في جيد صدر الصدر في حسن انتظام

مؤ لفه الفتىٰ حساً ومعنىً ... كريم جاء من قوم كرام

وبالنسب الشريف له رقي ... وبالحداد أكرم من إمام

ألا يـا أحمـد لا زلـت تـرقـىٰ ذرىٰ العليـاء مـن فـوق السنـام
ونلـت سعـادة الـداريـن جمعـاً ونـادتـك العنـايـة بـالمـرام
وأمطـر أرض قلبـك ربنـا مـن سحائبَ جُودُها بالجود هامي
وأحيـا مـا أميـت مـن المعـالـي وقـامـت بـك فـي ذاك المقـام
وروحـانيـة مـن سـر طـه تمـدك فـي القعـود وفـي القيـام
وللمختـار والكـرار والأم سيـدة النسـأ مسـك الختـام

* * *

إنه سر وأي سر يتنبأ به هذا الإمام العظيم يقرنه باسم سيدي ولقبه ويبشره بالترقي في ذرىٰ العلياء التي فيها سعادة الدارين وبلوغ المرام بإحياء ما أميت من المعالي.

وقد تحققت هذه البشرىٰ وظهر أثرها في ذلك المقام الذي أشار إليه وهو مقام لا يصله إلا من شملته العناية والرعاية من الله سبحانه تعالىٰ وغمره السر النبوي.

ولقد تحدث سيدي بهذه النعمة أو بهذه النعم التي وفقه المولىٰ سبحانه وتعالىٰ لجني ثمارها المتمثلة في تلك الأعداد الهائلة ممن هداهم الله إلىٰ الإسلام علىٰ يديه، وأي نعمة أعظم من نيله الحظ الوافر من الميراث النبوي والإنضواء تحت ما يشمله قول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[1].

---

(١) متفق عليه من حديث علي، كرم الله وجهه، البخاري (٣٤٩٨)، (٣٩٧٣)، ومسلم (٢٤٠٦)، وعند أحمد من حديث معاذ بسند حَسَنٍ.

وإن من هيأته العناية الربانية ليحتل موقعاً من المواقع التي تنطلق منها الدعوة أو مركزاً من المراكز التي يصدر عنها الإشعاع الديني أو قاعدة من القواعد التي تنبثق منها حركة الإصلاح والتوجيه والإرشاد وبالخصوص إذا كان في منطقة تظافرت فيها قوىٰ الشر وفي محيط وثني تسوده شريعة الغاب، وفي مجتمعات إسلامية ذات ثقافات مستعارة بعيدة عن منهج الإسلام ومبادئه وأخلاقه، لجدير بأن يحظىٰ بالتقدير والاحترام والإجلال من كل من عرفه أو اتصل به أو سمع منه أو أخذ عنه، فإذا أثنىٰ عليه أمام من الأئمة أو تحدث عنه الأدباء ورجال الفكر والدعوة، أو مدحه الشعراء فكل هذا لأنه أهل لذلك.

كيف لا وهو قد نهل العلوم الشرعية من مناهلها الصافية وخاض ميادين الدعوة يدعو إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإذا كانت مفاهيمه في علوم القرآن وعلوم السنة النبوية والعلوم الشرعية تمتاز بالدراية العلمية والإدراك الواسع والتحليل الدقيق والغوص العميق في معرفة معانيها ومقاصدها وأسرارها، فإنه رحمه الله يتمتع بقدرة أدبية واسعة وفكر مستنير وملكة شعرية رائعة كما سبق وأن أوضحنا ذلك، وكل هذه الخصائص مع ما أودع الله له من محبة في قلوب الناس تشكل في مجموعها مادة خصبة يقدح منها مادحه زناد القريض، ويخاطبه البعض بلسان الحال إذا لم يكن من أرباب الشعر بقول القائل:

الله أعطاك المحبة في الورىٰ   وحباك بالفضل الذي لاينكر
فلأنت أملأ للعيون لديهم   وأجل قدراً في الصدور وأكبر

ومتىٰ عرفنا ذلك وهو ليس بالأمر الخافي فلنعد إلىٰ ما تمكنا من العثور

عليه وما أمدنا الإخوان الكرام به من القصائد التي قيلت فيه خلال رحلة الأيام الطويلة من حياته بعد أن افتتحناها بالقصيدة المحضارية.

* * *

وما أكثر المدائح الترحيبية والوداعية التي قيلت فيه ومنها ما تعود مناسبتها إلىٰ سنة ١٣٥١هـ، وما قبلها، منها القصيدة الترحيبية التي امتدحه بها الشاعر الزنجباري الشيخ صالح بن علي الخلاسي ونشرت علىٰ صفحات الجريدة الرسمية التي تصدر في زنجبار في ٢٩ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٥١هـ تحت هذه المقدمة:

«نزل بهذه المدينة حديثاً السيد الشريف أحمد بن طه الحداد، فاستبشر السُّنِّيون بقدومه لما عرفوا من هذا الشريف سعيه المشكور في نشر الدعوة إلىٰ الله، وإلقاء الوعظ والإرشاد في كلما يتعلق بالوعد والوعيد وغير ذلك.

وقد منح الله الشريف لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، مع علم غزير يؤهله باستحقاق علىٰ مزاولة العلم الشريف الذي وقف حياته لأجله، وإذا علمنا أن الشريف أحمد المشهور هو من سلالة القطب الأكبر السيد عبد الله بن علوي الحداد فلا نعجب إذا رأينا منه تلك المزايا الحسنة من العلم والتقوىٰ التي يتحلىٰ بها وتصديه بإلقاء الوعظ والإرشاد في أكبر المحافل وهو شاب لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، وقد أرسل إلينا شاعر القطر الشيخ صالح بن علي الخلاسي الأبيات التالية يمدح بها الشريف المذكور ننشرها نزولاً علىٰ إرادة الشاعر الذي طلب منا ذلك وها هي الأبيات:

قد ابتهجت بأحمد زنجبار وطابت يابن طه بك الديارُ

فمن قد لاذ بالحداد يحظىٰ ويظفر بالهدىٰ فهو المنارُ
أرىٰ الأكوان تشرق مذ تجلىٰ تقول الآن راق لي الجوارُ
وطير البشر غرد بابتسام بطلعة من له فينا اشتهارُ
إذا نزل الشريف بأرض قوم تبدت من منابتها الثمارُ
وصار بها كمثل الغيث تحيا به الأمصار طراً والقفارُ
أرىٰ المداح تقصر حين تبدي مديحاً فيه ليس لها اقتدارُ
فقد نطق الكتاب وقال مدحاً لأهل البيت حبهم افتخارُ
فأهلاً يابن طه أنت فينا كمثل الشمس ضاء بها النهارُ
فدم في حفظ ربك في سلام تحف بك السعادة والوقارُ
وذا قلم المديح أتاك يسعىٰ وجوباً جاء ليس له اختيارُ

* * *

وقِدَمُ روابط الود والتعلق التي أوصلت سيدي بالصفوة من العلماء الأجلاء والأئمة العظام وهو لا زال في ريعان الشباب ظلت هباتها وإمداداتها تفيض عليه وظلت نظراتهم لا تفارقه تؤكدها وتبرزها المكانة الرفيعة التي وصل إليها، وفي قصيدة العلامة الشيخ محمد بن عوض بافضل ما يكشف لنا عن المزيد من النظرات الفاحصة والكاشفة التي تبرز معها تلك المميزات التي امتاز بها علىٰ الكثير من أقرانه فيرىٰ عليه تاج السكينة والوقار، وقد فاضت عليه المعارف والمواهب من كل صوب، لم يكن همه غير نيل العلا والمجد من دون سأم أو ملل كما عبر عن ذلك فضيلة العلامة الشيخ محمد عوض بافضل رحمه الله في قصيدته التاليه. التي صدرها بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

تهنئة مقدمة إلىٰ ميمون الطالع، كريم المنابع، السيد الماجد البارع، أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد حين وفد إلىٰ تريم زائراً لأسلافه الكرام في جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٦٩هـ، وهي:

قـل للمتيـم والمشـوق تنعّمـا ... هـذا الحبيب بـوصلـه قـد أنعمـا

سطعت بأفق الحي شمس جماله ... وافتـر ثغـر ربـوعنـا وتبسمـا

والكـأس مـن راح المسـرة متـرع ... يـروي بـه مـن شفّـه أَلـمُ الظمـا

للدهر من لطف اللطيف تنفسٌ ... يسلـو بـه مـن كـان صبـاً مغـرمـا

جـادت يـداه بـوصـل محبـوب مـن القـوم الـذيـن لهـم مقـام قـد سمـا

وفتـىً كـريـم همـه نيـل العـلا ... والمجد إن سئم امرؤ لن يسأما

غـواص فكـر فـي المعـان ذوقـه ... يبـدي لـه المعنىٰ الخفـيَّ مجسمـا

تـاج السكينـة والـوقـار بـلا خفـا ... يعلـوه والخلـق الكـريـم متممـا

فـاضـت عليـه معـارف ومـواهـب ... من كل صوب صدره قد أفعما

وتلقيـات مـن مـربـي روحـه ... علـوي الحـداد عـالـي الإنتمـا

المفـرد العلـم الإمـام المنتقـىٰ ... ممن علوا مجداً إلىٰ أفق السما

منهـم ينـابيـع العلـوم تفجـرت ... وغـدو لإرشـاد الحيـارىٰ أنجمـا

قـد طـالمـا اشتقنـا إليـه وأملـت ... منه القلوب الملتقىٰ في ذا الحما

فعسـىٰ يجـود بـه ويصبِـحُ بلبـلُ الأفـراح فـي أقطـارنـا متـرنّمـا

ونـرىٰ محيـاه الـوسيـم ونـذكـر العهـد القـديـم الصـافـي المتبسمـا

وإمـامنـا العطـاس يـولينـا العنـا ... يـة والـرعـايـة والحنـانـة أينمـا

مـذ زرت بشـار بـأيمَـنِ طَـالِـعِ   يا أحمد المشهور حُزْت المغنما
وخليلك الندب المهذب محسن   والكـوكبـان النيـران كـلاهمـا
بشـراكـم هـذا القبـول يلـوح مـن   أسـلافكـم قـد كـاد أن يتجسمـا
وإلـىٰ فضيلتكـم نـزف تهـانيـا   غـراء عنهـا النظـم قـام مترجمـا
تقصيـره بـاد ويطلـب عَفْـوكـم   وعلـىٰ الحبيـب مصليـاً ومسلمـا

* * *

والسيد الفاضل الشاعر الأديب محمد بن حسن بن علوي بن عبد الرحمن السقاف هو ممن عرفوا سيدي حق المعرفة ولازمه وصحبه في فترات من الزمن لمس من خلالها ما يتحلىٰ به سيدي من الصفات الحميدة وشاهدها عن كثب مجسمة في شخصه، ولا غرو إن فاضت شاعريته بهذه القصيدة التي امتدحه بها عندما حل ضيفاً عليه ببلد [كبيجي في أوقاندا] وذلك في ٤ محرم سنة ١٣٧٦هـ، وهي:

هنا حل ضيف عالم طاهر الشيم   فما شئت سجل مادحاً أيها القلم
وحلـق بـأفكـاري بعيـدًا فـإنمـا   تـراه أمـامـي واجـب واسـع اللقـم
فقد كان حظي في القريض موفراً   قديماً وقد أعفاه من جانب القدم
سئمت فما أغنىٰ النسيم وما سلىٰ   فؤادي وقد باريت في الشعر من نظم
وأعرضت عن نسج القوافي وسوقها   لقـوم لئـام ليـس يـوفـون بـالـذمـم
رميـت بـأشعـاري إليهـم سفـاهـة   وما ندمي من حيث لا ينفع الندم
وأولـىٰ لحُـرٍّ أن يصـون لسـانـه   بمدح إذا ما اسطاع تقريعهم بذم
تصاغ القوافي في العظيم ومن غدا   كـأحمـد مـوفـور الكـرامـة والشيـم
تفـوّق بـاعـاً فـي النبـوغ وإنـه   جدير بتشييد النوابغ في الحكم

جـديـر بـأسـرار الأمـور وحـاذق ... فما ظنه بالغيب يأتي كما زعم
غيـاث إذا مـا أَمَّ فـي كـل بقعـة ... تتابع في أرجائها الغيث حيث أم
ومهمـا تجلـىٰ وجهـه فـي دجنـة ... محـىٰ بسنـىٰ أنـواره دامـس الظلـم
خطيب فصيح في البيان إذا رقىٰ ... ذرىٰ منبر أصغت له سائر الأمم
وأبدع في فصل الخطاب بحكمة ... علىٰ منطق كالفم يخرس كل فم
وكـم مـن دليـل قـاطـع لجهـاده ... وإرشاده دانت له العرب والعجم
تجمع فيه العلم والحلم والحجا ... وكل العلىٰ والجود والمجد والشيم
وما غاب من عصر الجدود فحسبنا ... مثالاً علىٰ أخلاقهم ذلك العلم
حميد المساعي قد منحتك درة ... من الشعر توفي بالصداقة والذمم
فأنت كريم الأصل والخيم والندىٰ ... وبيتك للأضياف من سابقٍ حرم
قضيت زماناً مَرّ كالطيف لمحة ... علىٰ جانب غذيتني فيه بالنعم
فمن أدب من حكمة من نصيحة ... إلـىٰ حسـن رأي لا يَـزِلّ بـه قـدم
تـولـىٰ ومـا وليـت عنـه وإننـي ... مقيم علىٰ عهد الصداقة والحرم
وغبت بجسمي إنما الروح لم تزل ... تطير إلىٰ ما حيث شاءت من الخيم
وللبعد والأشواق في باطن الحشىٰ ... زفيـر إذا مـا مسنـي زاده ضـرم
قضىٰ الحق فيما شاءه الله أن أرىٰ ... محياك من بعد الفراق الذي دهم
فبوركـت مـيمـون الطليعـة قادمـاً ... فحِطْني وهب لي في الدعاء أوفر القسم
وصحبك خيـر الـوافـديـن فـإنهـم ... رجال بناة المجد والفخر والكرم
ولا زلت غيظ الحاسدين عليهم ... من الله سوء العار والخزي والنقم
تراعيك عين الله في كل لحظة ... من العز والإجلال تزداد والحشم

* * *

ويطيب اللقاء في وادي الخير والإسعاد في شعب نبي الله هود بين سيدي الوالد وسيدي الحبيب أحمد بن علوي بن علي الحبشي فتجود قريحته بالأبيات الترحيبية التالية، مقدماً لها بقوله: تطفل بهذه الأبيات الفقير أحمد بن علوي بن علي الحبشي يوم الأحد ١٠ شعبان المكرم ١٣٩٠هـ، في شعب نبي الله هود بمناسبة قدوم الحبيب الداعية خليفة الأجداد أحمد مشهور بن طه الحداد من أفريقيا، وهاهي الأبيات:

في وادي الخيرات والإسعاد طاب اللقا بالسيد الحداد
العالم المشهور بالمشهور والمغمور بالأنوار والإمداد
من لم يزل يدعو بحسن طوية وسريرة بالنصح والإرشاد
حتىٰ غدا لله حقاً داعياً وخليفة للسادة الأمجاد
عمت منافعه جموعاً بعدما كانوا عبيد الغي والإفساد
فهداهم المولىٰ بدعوته فيا لله در المهتدي والهادي
[قرت به عين النبي محمد فهو له من أحسن الأولاد]
أهلاً وسهلاً مرحباً بقدومه ونزوله في مربع الأسياد
في شعب هود حبذا من زاره يا فوزه قد نال كل مراد
يا سيدي وافاك نظم مثل صا حبه كثير العيب والأنكاد
فاسبل عليه ذيل ستر وادع لي بالفتح والإرشاد والإمداد
ثم الصلاة علىٰ الحبيب محمد والآل والأصحاب والأحفاد

* * *

وللسيد الفاضل محمد سعيد البيض العالم الأديب الشاعر أكثر من قصيدة قالها في مدح سيدي الوالد رحمه الله اخترت منها القصيدة التالية التي

قدم لها بقوله: بمناسبة زيارة مولانا الحبيب أحمد مشهور الحداد قلت ترحيباً به واستبشاراً بقدومه الميمون في ٩/ ٣/ ١٣٨٧هـ، إلىٰ مبروج:

بشرىٰ بمقدم سيدي الحداد ... يا منعش الأرواح والأجساد
يا نورنا في النور فانزل إنه ... نور علىٰ نور وسر بادي
بوصولك اهتز الرياض ومن به ... لم لا فيالك من حبيب هادي
هذي مدارسنا ترحب بالإمام ... السيد المشهور بالإرشاد
يا نفحة حصلت بزورة سيدي ... طوبىٰ بزورته لأهل النادي
ورث المعارف كابراً عن كابر ... من نسل آل المصطفىٰ الأمجاد
أنتم سفين للنجاة وكم بكم ... من يرتوي من رائح أوغاد
الأصل يظهر سره في فرعه ... وبكم بدا سر من الحداد
أنتم من القوم الذين تبوءوا ... عرش العلا ومخابىء القصاد
فأنخ ركابك سيدي في ربعنا ... كيما تبل أوام قلب صادي
حدادنا نظراتكم أقصىٰ أمانينا وغاية مطلب المرتاد
هاكم من ابن البيض نظم قصيدة ... متطفلاً من منهل الوراد

* * *

ومن قصيدة ترحيبية للسيد الفاضل العالم هادي بن أحمد الهدار رحمه الله وهي من مجموعة قصائد قالها في سيدي الوالد اخترنا منها بعض الأبيات وقد صدرها بما يلي:



أحمده وأصلي وأسلم علىٰ أفضل خلقه وآله وصحبه، وبعد:

فلقد تكرم الله علينا بالغيث المريع النافع، وبالنور الوهاج الساطع، فسمح الزمان وجاد بقدوم فضيلة العلم المرشد الحامل راية الدعوة والإرشاد سيدي العلامة أحمد مشهور بن طه الحداد في عصر يوم الإثنين ٨ جنوري ١٩٦٢م.

فشرفت به الجزيرة[1]، وكانت به المحافل منيرة، والعين بما يمليه من مواعظَ قيمةٍ قريرة، وقد جادت القريحة بهذه الأبيات التالية المعبرة عن صدق الود وخالص الحب أقدمها لفضيلته راجياً قبولها وغض الطرف عن عيوبها.

وهذه هي الأبيات المختارة:

يا مرحباً بفضيلة الحداد ... بخليفة الآباء والأجداد

يا مرحباً بالعالم العلامة المشهور أحمد نجل طه الهادي

يا مَرْحباً بقدومه الميمون ... أهلاً مرحباً ما جاد صوب عهاد

هذي جزيرَتُنا ترحب كلها ... وتقول وافاكم عظيم هادي

فاستقبلوه وكرموه إنه ... ما زال حامل راية الإرشاد

علم وآداب وظرف كله ... أكرم به من كوكب وقاد

شرفتنا بنزولكم يا جهبذاً ... فجزيت بالخيرات والإسعاد

جئتم فجاء الخير وانزاح العنا ... وبلابل البشرىٰ بذاك تنادي

قد أشرقت أنواركم في سوحنا ... فتضيء في الأغوار والأنجاد

ماذا عساي أن أقول وما عسىٰ ... نفثات أقوالي تفي بمرادي

---

(١) يعني الجزيرة الخضراء التابعة لسلطنة زنجبار.

أهلاً بمن سمح الزمان بوصلهم	أهلاً وسهلاً من صميم فؤادي
جئتم كغيثٍ للجزيرة نافعٍ	لا شك للأرواح والأجساد

* * *

نكتفي بما اخترناه من تلك القصيدة لننتقل إلىٰ قصيدة أخرىٰ قالها السيد هادي عند قدومه إلىٰ [كمبالا] عاصمة أوقاندا لزيارة سيدي الوالد في فاتحة شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٧هـ وهي:

قصدناكم بأشواق قوية	وجئنا مستمدين العطيه
قصدنا أحمد المشهور رب المعالي والمكارم والمزيه
قصدنا شيخَنا الحدادَ والوا	رثَ الأسرار من خير البريه
ومن أجداده الأقطاب من هم	شموس في السماوات العليه
(بكمبالا) أقام اليوم داع	بإخلاص إلىٰ السبل السويه
فكم أحيا به المولىٰ تعالىٰ	من الماشين في الطرق العكيه
وكم أهدىٰ به المولىٰ رجالاً	وأرشدهم إلىٰ السير الرضيه
ويدعوهم ويحدوهم بلطف	وموعظة له حسن الطويه
يجاهد في سبيل الله في السر والإعلان عن صدق ونيه
ويبذل كل مرتخص وغال	رجاء ثواب ذي الذات العليه
ترقىٰ في المقامات العوالي	وقد أعلىٰ له المولىٰ رقيه
ألا يا أحمد الحداد ياصاحب الأحوال والخلع السنيه
ويا مشهورنا بالعلم والحلم والأخلاق حزت الأسبقيه
شربتم من شراب القوم حتىٰ	سكرتم من شراب الأبطحية

بما أعطاك مولانا هنيئاً ومرحىٰ يا عظيم الأريحيه
وجودوا في الختام بما طلبنا سريعاً بالإجازة والوصية

* * *

وللسيد العلامة أحمد بن محمد عدنان الأهدل المقيم بمدينة [لامو] كينيا هذه القصيدة يمدح بها سيدي الوالد، قال:

لك في العلوم مراتب ومقام فسموت قدراً أيها المقدام
يا دوحة الأسرار والفضل الذي قد نلته قدماً فأنت إمام
يابن الأكارم في المآثر والثنا فاليوم أنت وشاحهم ووسام
يا أحمد المشهور يابن ذوي الأولىٰ هم في العلوم أئمة وكرام
يا سيدي الحداد ياقطب الورىٰ من نسل من هم في الملا أعلام
قد بينوا نهج الرسول بهديهم فبنشرهم قد زالت الأوهام
ولهم إلىٰ الإرشاد أرشد مسلك ساروا عليه فنارت الأفهام
فهمو همو عند المجامع كلها والنجل من نسل الفحول همام
قم ياشهاب الدين في نشر الهدىٰ للنشر من أهل العلوم ذمام
دم بالسيادة في البلاد فهذه مبروي، أو ممباسة، أو لامو
هذا ولي وصل بنيلك سيدي أمل يلوح ولوعة وأوام
فالجود من شيم الكرام وكم وكم من جودكم قد طاب منا مرام
صل من أتىٰ باباً لنيلك طالباً ولأنت فينا القانت القوام
يارب فانفعنا بهم وبسرهم ندعوك أنت المحسن العلام
وافتح لنا فتح العلوم وهب لنا حسن الرجا يا من له الإنعام

يسر لنا الإسْعَادَ بالفضل الذي ... تقوي به الأرواح والأجسام
ثم الصلاة على النبي محمد ... والآل ما دامت بنا الأيام
والصحب والأتباع أقطاب الهدى ... طاب الزمان بهم فطاب كلام

* * *

وممن اتصل بسيدي رحمه الله وقرأ عليه وأخذ عنه السيد الأديب حسن بهاء عزّي من أهل الحجاز وقد تقدم إليه بقصيدة طويلة، في يوم سفره من جده إلى ممباسا يوم الأحد الموافق ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٥هـ، اخترنا منها الأبيات التالية:

ورفعت كفي للإله بأحمد ... المشهور خلصني فصبري قد وهى
هذا الذي شغل الفؤاد بحبه ... حقاً وما شغلته دعد وحبها
ما لي سواه طبيب قلبي إنه ... طب القلوب سقيمها وصحيحها
هذا الذي ملأ القلوب بعلمه ... وملأ القلوب محبة فاضت بها
كم مسجد ومآذن لله أنت ... على التقى أسستها ورفعتها
وكم المعاهد والمدارس أينما ... تمشي تلاقي غرسها خلفتها
أعطيتها منك العلوم رعاية ... وطرائق الأسلاف أنت سقيتها

* * *

وقدم سيدي رحمه الله إلى جدّة في شهر ذي القعدة عام ١٣٨٩هـ، لأداء مناسك الحج ولقضاء فترة بين الأهل وكافة الأسرة كما هي عادته من كل عام، وقبيل الحج مباشرة بدأ يعاني من حصر البول [البُرستات]، ونصحه الأطباء بالخلود إلى الراحة وعدم الذهاب إلى الحج خشية من

مضاعفة المرض، إلا أنه رحمه الله أصر علىٰ الحج وحصل ما كان في الحسبان وظل يعاني من مضاعفات المرض مساء يوم عرفات وما بعده، وبكل تحمّل وصَبْر ورضا أكْمَلَ حَجّه ولله الحمد، كان معنا في مُخَيّم عرفات السيد العلامة الداعية عبد الله بن أحمد الهدار وفي ساعةٍ من ساعات التجليات في هذا اليوم العظيم رفع السيد عبد الله أكف الضراعة بهذه الأبيات داعياً لسيدي بالشفاء العاجل وهي:

جد بالشفاء لأحمد الحداد ... يارب يا ذي الفضل والإمداد

عجل. . . . . . . بشفائه ... من دائه ليتم كل مراد

هو طالب هو ضارع عجل له ... باللطف تطلق ربٍّ للإرصاد

أيكون في عرفاتنا في شدة ... وتألم في غاية الأنكاد

عرفاتنا مجلىٰ التجلي والرضا ... وجلاء ذي رين وقلب صاد

وفضيلة المشهور لم يهنأ له ... عيش ولم يهنأ بطيب رقاد

مرض شديد مؤلم ومُدَاهِمٌ ... في موضع البركات والإسعاد

يا رب ضيفك كيف أنت مضيفه ... ويكون في ضيق وفي إجهاد

يا رب فرج في قريب عاجل ... نرجو الشفاء لأحمد الحداد

عرفته شرق إفريقيا في نفعه ... في العلم في التبليغ والإرشاد

بذل الجهود بنفسه ونفيسه ... فيها غدىٰ كالكوكب الوقاد

أنت المقيم له وأنت معينه ... في كل إصدار وفي إيراد

فارأف به وارفع إلهي سقمه ... من كلما يشكوه في الأجساد

والعبد يا رب ضعيفٌ كله ... أنت القوي وأنت خير جواد

فـانـزل علينـا قـوة صحـح لنـا أجسـامنـا أنـت اللطيـف الهـادي
هذا ونرجو اللطف في حلل الرضىٰ للمسقَـمِ المتضـرِّع الحـداد

* * *

ومن ثمرات الملازمة للشيوخ وحصيلة التلقي منهم والأخذ عنهم والتأدب معهم يكون التأثر والتأثير بقدر الاستعداد، وحينما تمتزج عواطف البنوة بوشائج الأبوة والقربىٰ تكون النتيجة الحتمية بروز أصدق ما تكنه الجوانح من مشاعر الحب تعبر عنها مثل هذه القصيدة التي تتمثل فيها الرؤية الصادقه والمشاهدة التي يتجسد فيها الولاء الناتج عن قوة الارتباط، ولنستمع إلىٰ فيض هذه المشاعر يسجلها الابن البار عدنان بن علي بن أحمد مشهور الحداد الذي لازم جده في أواخر حياته ملازمة كاملة في حله وترحاله، قال:

هذه أبيات قلتها في سيدي الإمام الخليفة الجد الحبيب أحمد مشهور ابن طه بن علي الحداد وإن كانت ركيكة المعاني ضعيفة المباني مجردة عن المحسنات البديعية خالية عن الألفاظ البليغة الأدبية إلا أنها شُرِّفت بمن قيلت فيه، كما أنها أول محاولة لناظمها القاصر نبعت مما يكنه الخاطر ويشاهده الناظر، والمرء لا يلام في اعتقاده في شيخه إذا لم يفرضه علىٰ غيره بل ينبغي أن لا يفضل أحداً علىٰ شيخه مع تعظيم الجميع:

قـف يـا بيـانـي فـالمقـام خطيـر أو صـغ عقـوداً مـا لهـن نظيـر
ودع التغزل في الغواني والهوىٰ واربـاً بنظمـك أن يَشُبْـه قصـور
أتـراك أهـلاً للـوقـوف بسـاحـة فيهـا الإمـام العـالـم النحـريـر

من آل علوي الكرام أرومتي ووسيلتي إن عزّ ثَمّ نصيرُ
حدادنا المشهور قطب زمانه بل غوثه وبذا الرجال تشير
مَثَلُ المعارف والعوارف والتقىٰ بحر خضم في العلوم غزير
جم التواضع طيب الأخلاق يعلوه من أنوار المهابة نور
صافي السريرة مكرم الأضياف سيان الأمير لديه والمأمور
صحب الأكابر وهو في طور الصبا فتسنم العلياء وهو صغير
لم تعتريه لدىٰ الشبيبة صبوة كلا ولم يسْرِ إليه فتور
بل كان في نيل المكارم دائباً ينجد لكل فضيلة ويغورُ
سعدت به إفريقيا وتبخترت وزهت أراضيها به والدور
كم بصر المولىٰ به من فرقة وهم عن الشرع المطهر عور
وهدىٰ إلىٰ الإسلام كم من أمة مرت عليها في الضلال دهور
لا شك أن المصطفىٰ في قبره بخلاله وجهاده لقرير
ولقد أقول ولا أبالغ أنه بخلافة المختار لهو جدير
وكذلك الأسلاف أعلام الهدىٰ [ما مثلهم في سالف مذكور]
بل هُوْ هُمُو وهمُ هُوَ الحاوي لهم إن صح لي التعبير
هذي إليكم بنت فكري قد رجت أن تقبلوها والرجاء كبير
أنّىٰ يحيط بوصفكم نظمي وباعي في ميادين القريض قصير
من رام وصفا للشموس فإنه يرجع إليه الطرف وهو حسير
فتكرموا ياسيدي لحفيدكم من سيبكم إني إليه فقير
أنتم حماتي عدتي بل عمدتي وبنوركم في ذي الحياة أسير
لكنني منكم أؤمل نظرة فيها الشفا والفوز والأكسير

فـأنـال فتحـاً مطلقـاً وولايـة　　كبـرىٰ فجـودوا فـالإلـه قـديـر
وعلىٰ الحبيب وآله صلوات من　　هـو للعبيـد المـذنبيـن غفـور
وعليكـم مـن بعـدهـم مـا غـردت　　فـوق الغصـون المـائسـات طيـور
أو سـار حـاد بـالنشيـد مـردداً　　قـف يـا بيـانـي فـالمقـام خطيـر

* * *

وقد أقام الدكتور السيد عبد الرحمن بن علوي السقاف حفلة وداع في بيته العامر بجدة لسيدي وذلك يوم الجمعه الثامن عشر من شهر شعبان ١٤١٢هـ، وبهذه المناسبة فقد ألقيت بين يديه هذه القصيدة الغراء للأديب الشاعر السيد عبد القادر بن سالم خرد وهي من القصائد المختاره التي تحاكي الواقع بمضمونها ومحتواها وترسم الصورة التي تحدد أدق المشاهد وأوضحها، وأبرز الملامح وأصدقها، وأنبل المشاعر وأسماها، وهذي هي الأرواح تهفو إلىٰ الممدوح بعد أن آنست ما آنست، ووجدت ما وجدت من نور وهدىٰ. وإذا بقيتْ في النفس حاجاتٌ ومطالب فكلما كانت مشاعر المودة مرتبطة بصلة النسب كلما كانت مدعاة للعطف المؤكد، ولنستمع إلىٰ القصيدة:

حلفْتُ بنورٍ من جبينك قد بدا　　بـأنـك طُـورٌ منـه نستمـع النـدا
فهـذي هـي الأرواح تهفـو إليكـم　　فقد آنست نوراً وقد وجدت هدىٰ
بـواديكـم ألقـت عصـاهـا لعلهـا　　يجاوبها بالجانب الأيمن الصدىٰ
فإن سمعتْ أصْداءَ خذها ولا تخف　　ففَـرْضٌ عليهـا أن تخـرَّ وتسجـدا
فسبحان من أعطىٰ العباد مراتباً　　وفضـل خيـر المـرسليـن محمـدا
إذا كملت في العبد محض عبودة　　فقد صار في تلك العبودة سيدا

فلا بدع إن جاءتك تسعىٰ خلافة ... تـوارثتمـوهـا مقعـداً ثـم مقعـدا
عن المصطفىٰ صحت وراثته لكم ... فـأكـرم بهـا مجـداً وعـزاً وسـؤددا
بـراك إلـه الخلـق تكمـل جملـة ... لهــا خبــر أنتــم وجـدك مبتـدا
بـإفـريقيـا قـد بـارك الله جهـدكـم ... سللتـم علىٰ الأعـداء سيفـاً مهنـدا
بكم أصبح الدين الحنيفي ظاهراً ... علىٰ رأس هذا القرن جئت مجددا
سلكْـتَ بهـم تقـوىٰ الإلـه طـريقـةً ... وللدين قد أسست حصناً مشيدا
فأضحىٰ سواد اللون فيها لديننا ... شبـابـاً مقيمـاً لا بشيـب مهـددا
وروحك في الطلاب تسري قوية ... بنظـرتكـم كـم مـن حجـاب تبـددا
تمثــل حــداد القلــوب تخلقــاً ... ومـرتبـة بـل فيـك حقـاً تجسـدا
مــوائــدكــم فيهــا غــذاء منــوع ... هنيئــاً لمــن قــد ذاقهــا وتــزودا
بهـا تطـرب الأرواح حتـىٰ كـأنهـا ... تطيــر علــواً أو تطيــل تهجــدا
عليـك سـلام الله يـا سيـداً حـوىٰ ... مفاخر أهل البيت ما طائر شدا
أتيتك فاملأ جرتي من معينكم ... وكحّلْ لي العينين بالنور مِزْودا
وفي النفس حاجات وثم مطالب ... فلا تنس لي يوماً طِلاباً ومقْصِدا
فلي نسب فيكم ولي صلة بكم ... عسىٰ أن يكون العطف عطفاً مؤكدا
فمنكـم تعـودنـا الجميـل وإنمـا ... لكـل امـرىء مـن دهـره مـا تعـودا
ولليمــن الميمــون مُــنٌ بنظــرة ... إلـىٰ الله فـامـدد فـي حـوائجـه يـدا
أترضون أن تمحىٰ مآثركم بها ... فقد صوبوا أنظارهم نحوه العدا
رمـوه بـأنـواع السهـام مصـائبـاً ... فمبتـدع قـد أعقـب اليـوم ملحـدا
لقـد وجـدوا فيـه مكـانـاً مفـرَّغـاً ... من العلم فاحتلوا المكان الممهدا
فـردوا لهـا بعـضَ الـوفـاءِ بـدعـوةٍ ... ليصلح منها اليوم ما الدهر أفسدا

عسىٰ الله أن يبقيك ذخراً ونعمة ويمنحك العمر المديد المجددا
ويصحبكم بالحفظ في رحلاتكم لترجع موفور الهناء ممجدا
فكم سرت مصحوباً بلطف وبهجة وعدت فكان العون أشهىٰ وأحمدا

* * *

وفي مناسبة أخرىٰ مماثلة جادت قريحة الأديب الشاعر السيد حسن بن عبد الله السقاف برائعة من روائع الشعر، وداعيها ما فيها، وباختلاف الزمان لم يختلف المكان فقد ألقيت هذه القصيدة قي الحفلة الوداعية التي أقامها الدكتور عبد الرحمن ابن علوي السقاف بمنزله العامر بجده في ٢٤ جمادىٰ الأولىٰ ١٤١١هـ، وهي:

دع التواني ويمم نحو ناديه واقدم علىٰ عجل واسمع مناديه
ورد علىٰ مورد ما خاب قاصده يوماً ولا صد عن نهل موافيه
وقف بساحل بحر ماله طرف وارم الشباك لكي تجتني دراريه
تبارك الله جل الله خالقه من معدن الفضل والعلياء منشيه
أعني به أحمد المشهور من كرمت أصوله والذي فيهم سرىٰ فيه
من معْشرٍ هُمْ بلا ريب ولا جدل وُرّاث خير الورىٰ الهادي لباريه
إن سار هبت رياح الوصل تتبعه أو حل فالخصب قد طابت مجانيه
يشع من وجهه نور النبوة لا شمس تساميه أو بدر يحاكيه
تجمعت فيه أشتات المكارم والعليا فمن ذا يباهي أو يجاريه
كم في المهاجر من نفس به هديت للدين حتىٰ غدت من خير أهليه
في كل صقع بإفريقيا له أثر وشاهدٌ شاكرٌ بيضَ أياديه

تأتيه والقلب في التقليب مرتكس فينجلي بلقاه ما يعانيه
فإنّ نَظْرته بالوُدِّ إن وقعَتْ علىٰ مريضٍ بإذن الله تشفيه
وفي أحاديثه الترياق من سقم وبلسم القلب فيما كان يبديه
هنا المفاهيم في القرآن تسمعها تواردت غضة في الحين تأتيه
وإن يخض في علوم القوم جاء بما لم تسمع الأذن أو في الكتب تلفيه
فأرهف السمع والقُطْ من فرائده جواهِراً فهي كُثْر في شواطيه

* * *

يا سيدي ضيفكم بالباب معتكف يرجو القرىٰ فهَبوه ما يرجّيه
وأتحفوه بما يرجوه في عجل فالعمر قد ضاع في سعي وفي تيه
صلوا حبالي بمن أنتم لهم خلف من إرثهم فيكمو من غير تمويه
ثم الصلاة علىٰ الهادي وعترته ما أنشد الشعر أو غنت حواديه

* * *

وللسيد الشاعر محمد بن سالم خرد قصائد عدة في سيدي الوالد اخترنا منها هذه القصيدة صدرها بقوله: هذه أبيات قلتها في والدي وشيخي الإمام أحمد مشهور بن طه الحداد وهي:

نام الخلي وبت فيه أفكر وخيالكم بدر أمامي يسهر
أرنو إليه كأننا في مجلس قد ضمني بك والسحائب تمطر
فيضاً وإمداداً وأسراراً وأنوراً بها ذاك المكان منور
ويدور في ما بيننا كأس من الخمر الحلال مطمئن ومبشر
تهفوا له أرواحنا وقلوبنا لله من خمر حلال يسكر

ويهيم بي وجدي ويشعل ناره — بين الجوانح جمرة تتسعر
وأرىٰ جموع الناس حولي كثرة — لكنني بوجودهم لا أشعر
من للمتيم في الهوىٰ من منقذ — يحنو عليه فحاله متكدر
غير الإمام القطب نور زمانه — فعيوننا من دونه لا تبصر
هو أحمد الحداد شاد بناءه — علم وأخلاق وفكر نير
يجلو بطلعته الهموم كأنه — سحب بهتان السعادة تمطر
وإذا تصدر مجلساً طافت به — روح الجدود وللمكان تعطر
وإذا تحدث فاض بحر علومه — من كل فن بالجواهر يزخر
قد سمي المشهور ذاك لأنه — قد قام للإسلام يدعو ينشر
وهناك في إفريقيا راياته — قد رفرفت وجهوده لا تنكر
كم حائر أرشدت كم أعمىٰ بفضلك يا طبيب الروح أصبح يبصر
يا سيدي أنظر إلىٰ إبن لكم — بالذنب أصبح مُثْقلاً يتعثر
شطت به أهواؤه عن مسلك — الأجداد واستهوته دنيا تغدر
أمضىٰ سنين حياته في غفلة — أبداً وليس له مزايا تذكر
غير انتسابي للنبي محمد — فالأم فاطمة وجدي حيدر
وتعلقي بالأهل سادات الدنا — فسواهم في خاطري لا يخطر
واليوم أنت بقية وخليفة — تاج الخلافة فوق رأسك يبهر
وإليك أنظار الفروع تطلعت — إذ أنت باب للجدود ومعبر
أدخلهم لحظيرة الأسلاف حتىٰ يأمنوا من كل ضد يمكر
إنا نخاف عليهم كيد العدا — وزمان سوء حاله متغير
أنظر إليهم إن من يحظىٰ بنظرتكم إليه أبو البتول سينظر

فــالله يحفظكــم وينفعنــا بكــم ويــزيــد مــن سنــواتكــم ويكثــر
وتعيشهــا فــي صحــة وسعــادة لا تشتكــي بــؤســاً ولا تتضــور
لنظـل قـربـك سيـدي فـي مـأمـن وتمـدنـا مـن محـض جـودك أنهـر
تـروىٰ بهــا أغصــاننـا فتطـول بـاسقـة علـومـاً فـي البـريـة تثمـر
فبجــاهكــم تتحقــق الآمــال والأوطــار والمــولــىٰ يجــود ويغفــر
فعسـىٰ ينـال الحـاضـرون منـاهـم وأنــال خيــراً لا يعــد ويحصــر
عفـواً إمـامـي إننـي بقصيـدتـي فــي وصفكــم متطفــل ومقصــر
لكننــي أرجــو بــأن تلقــىٰ القبــول لــديكــم وبهــا لعلــي أذكــر
صلـىٰ عليـك الله بعـد محمـد فــي كــل حيــن دائمــاً تتكــرر

* * *

وهذه القصيدة للسيد الشاعر شيخ بن عمر بن أحمد بن عبود البار باعثها مشاعر المحبة والتعلق وقد استهلها بقوله:

هــو أحمــد بــالاســم والأفعــال ورقــىٰ إلــىٰ المشهــور بــالإفضــال
لله إســم قــد سمــا ووســامــه وصــف تفـرد فهـو رمـز كمـال
فلئــن دعــاك مجــرداً فكــأنمــا داعيـك أسهـب بـالمـديـح الغـالـي
إحقــاق ديــن الله بيــن عبــاده منـوال طـه سـرت فـي المنـوال
عقـد اللـواء عليـك حيـن حملتـه فيمـا اضطلعـت بـه مـن الأحمـال
للــدعــوة الغــراء بيــن جهــالــة عمياء خضت هناك أسمىٰ نضال
فـأقمـت للـذكـر الحكيـم معـاهـداً ومســاجــداً حتــىٰ بعثــت البــالــي
ورفعـت للـديـن المنـار فهـاكمـو أنــواره تمحــو دجــىٰ الإضــلال
شملـت بفضـل الله ثـم بفضلكـم ذا السعـد مـن مـدن ومـن أدغـال

أضحوا وكم طال المساء عليهمو ... مـا بيـن زيـغ فـاحـش وضـلال
واستأنسوا من بعد طول توحش ... فـرأوا الإلـه بعمـق كـل جمـال
واستنشقـوا عبق الهـداية خـالصاً ... لمـا سـرىٰ فـي نفحـه المتـوالـي
بشرىٰ لهم ما دمت فيهم قائماً ... فهمـو بـوفـر مـن وريـف ظـلال
يسقـون مـن عيـن النعيـم سلافهـا ... صـرف الـوداد إذا تسلسـل حـالـي
وبنيـت جيـلاً راشـداً بـرويـة ... كـانـت محـط مضـارب الأمثـال
وبحكمـة وبحنكـة سـويتـه ... أنمـوذجـاً هـو للـدعـاة مثـال
يسعىٰ بنورالعلم في كل الدنىٰ ... فينيـر لـلآتـي مـن الأجيـال
وبجـوهـرالتـوحيـد طـاف محـرراً ... مـن بـات فـي أسـر مـن الأغـلال
هـي ذي سبيلـك لاتـزال خـلافـة ... للمصطفـىٰ ذاك المثـال العـالـي
صلـىٰ عليـه الله جـل جـلالـه ... وعلـىٰ جميـع الصحـب بعـد الآلِ

* * *

وللشيخ الفاضل حسن بن محمد شداد بن عمر باعمر القصيدة التالية التي صدرها بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم، في ٢٤ رجب سنة ١٤٠٨هـ، قلت هذه القصيدة تهنئة بقدوم سيدنا الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد إلىٰ أفضل البقاع وخير البلاد طيبة الطيبة:

بزغت في الوجود شمس الوصول ... دونهـا اليـوم فـي الضيـا والأفـول

وصفىٰ وقتنا وطابت نفوس ... في مقام التعظيم والتبجيل

واختلسنا من الزمان زماناً ... وارتوينا بالراح من سلسبيل

وكؤوس مزاجها زنجبيل ... من فيوض ما أَحْلاهُ[١] من زنجبيل

وهناك الأرواح تسمو وتعلو ... بسناء قد ضاء كالقنديل

ونفوس رأت منار علاها ... في سرور ما بين ظل ظليل

وقلوب تشدو وتهتف جهراً ... مرحباً بالحبيب عند الرسول

مرحباً بالذي حوىٰ سر أجداد ... كرام من النبي والبتول

مرحباً بالمحبوب عند حبيب ... مرحباً بالفروع عند الأصول

مرحباً بالذي سمىٰ وتسامىٰ ... للمعالي وحاز بالتفضيل

مرحباً بالذي رقىٰ بعلوم ... وفهوم فيا له من نبيل

فهو كالطود في الثبات وبحر ... في علوم المنقول والمعقول

صبغة الأصل في الوجود يقيناً ... وحقيقاً فياله من أصيل

ليس بدعا بأن يكون إماماً ... وهماماً ومنبعاً للجميل

ناب عن أهله بصدق وعزم ... وهو يدعو إلىٰ سواء السبيل

إن تبدىٰ كالبدر بين نجوم ... وإذا جاد فهو نهر النيل

الحبيب القريب حساً ومعنىٰ ... كامل الوصف ماله من مثيل

كم محب رآه مرآة طه ... بدليل يا حبذا من دليل

يا سليل الحداد يا بهجة القلب ونور الفؤاد جد للدخيل

واقف تحت بابكم يرتجي نظرة ود أتاكم بالحمول

واقف حول سوحكم بعيوب ... وذنوب يا عطفة للنزيل

---

(١) كذا في الأصل.

فادع لي بالشفا فإني عليل ليس لي غيركم يداوي عليلي
عندك المصطفىٰ رؤوف رحيم من ثناه قد جاء في التنزيل
يا أبانا أوفِ لنا الكيل إنا قد أتيناك بالذنوب الثقيل[١]
سنعيد عادات بإذن إله العرش فضلاً ودعوة من رسول
قم وبشر وقل لنا أنت منا لا تخف من عذاب يوم مهول
ليس لي متجر ولا لي زاد غير حبي وحسن ظني الجميل
رب واجعل زيارة الحبر والأحباب جمعاً علامة للقبول
وأعد ساعة السرور علينا في حبور والفوز بالمأمول
من لنا بالمنىٰ وفرج علينا وأعطنا الخير جد لنا بالسول
قد أتينا مستشفعين بطه وعلي وفرعه والبتول
رب صل عليهم كل حين وعلىٰ آله وصحب فحول
ما شدىٰ منشد بأرض حبيب بزغت في الوجود شمس الوصول
ختمها الحمد للكريم تعالىٰ كل حين وحبنا للرسول

* * *

والأخ الفاضل الشيخ محمد أبو بكر باذيب من مريدي سيدي الوالد رحمه الله ومحبيه والآخذين عنه، قد أنشأ فيه القصيده التالية التي قدم لها بقوله:

هذه الأبيات نظمتها في صفر من عام ١٤١٥هـ، ممتدحاً بها مولانا العلامة الكبير سيدي وشيخي الحبيب الأديب الشاعر الناثر، بقية السلف

---

(١) هكذا في الأصل.

الصالح الإمام أحمد مشهور بن طه الحداد نفع الله به وأعاد علينا من سره وبركته آمين:

بكىٰ قلمي ولكن سال حبرا ... فسطَّره البَنان فكان شِعْرا
بُكا ذاك اليراع أهاج دمعي ... فوجدي سافر والنفس حسرىٰ
إذا ذكر الشهاب الفخر حيناً ... لطول البعد فالزفرات تترىٰ
أود بأن أراه ولو خيالاً ... لقلة حيلتي ما طقت صبرا
عذاب في عذاب ليت شعري ... أيذكرني الحبيب؟ فتلك بشرىٰ

* * *

ألا أبلغ أبا الأشبال عني ... حبيبي أحْمَدَ المشهُورَخيرا
بأني في هواهم صرت عبداً ... وخُضْتُ مع الهوىٰ والحب بحرا
فذكرهُمُ دواماً في لساني ... وحبهم غدا للعقل سكرا
سلالةُ أحمدٍ خيرِ البرايا ... عظيمِ الخلق والأوصافِ طُرًّا

* * *

فيا حدادنا يا نجْلَ طه ... ويا فخر الزمان عَلَوْتَ قدْرا
ونلتم من رفيعات المعالي ... مكاناً عالياً وسموت فخرا
فأنتم خير من ذاق المعاني ... وإنَّ لكم لدىٰ الرحمن قدرا
سألت الله يبقيكم دواماً ... وينْشُرَ ذكْرَكم في الكون نشرا
ويلبسكم ثياباً من عواف ... ويجريها مدىٰ الأيام تترىٰ
فجودوا يا كرام لنا بوصل ... فمن قصد الكريم ينال مَيْرَا
جرىٰ قلمي بمدحكم سريعاً ... غداة نزولنا في أرض مصرا

وما مثلي ليمدحكم ولكن … أردت بأن أنال لديك ذخرا
فأرجو يا إمامي الصفح عني … وللزلات فادعو الله سترا
وصلَّىٰ ربنا في كل حين … علىٰ المختار والأصحاب طرا
وآلٍ ثمَّ تابِعِهِمْ دواماً … وسلَّمَ طُولَ أيامٍ ودهْرا

* * *

قبيل الختام

وحيث قد أشرفْتُ علىٰ نهاية ما تيسر لي جمعه وما تحصلت عليه من معلومات تتعلق بالجانب العلمي من حياة سيدي رحمه الله، إلا أنني أرجو أن تَتْبعَه جهودٌ أخرىٰ حيث لا زالَتْ عندي بقيةٌ من أملٍ في العثُور علىٰ المَزيد مما كنت أظن أنني سأجده في مُتَنَاول اليد، وسأظل شاكراً لكل من قدّم لي معلومة أو دلني عليها في مظانها. كما أنني لا أخفي ندمي من حيث لا ينفع الندم علىٰ ما فرّطتُ فيه أثْناء ملازمتي المتقطّعة لسيدي، وإن كان لي بعضُ العذر وهو أن تلك الأوقات التي عِشْتُها بقربه لم تكن منتظمةً وإن كانت مسخّرة للدعوة وللنفع العام بالنسبة له رحمه الله إلا أنها حدّت كثيراً من الاستفادة منها بالنسبة لنا.

ولمَّا كان الميسور لا يسقط بالمعسور فإنَّ ما قدمته من جُهدٍ متواضع في هذه العُجالة أرجو أن يحوز علىٰ ما فيه من قصورِ الرضىٰ والقبولَ لدىٰ محبيه.

وقد حرَصْتُ أن أَمضي فيما وفقت في اختياره وقدمته من معلومات عن حياة سيدي علىٰ خطّ الاعتدال الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو خط سيره ونهجه الذي عرف به طوال حياته رحمه الله.

هناك جملةٌ من الوقائع والمشاهد قد لا يخلو ذكرها من الفائدة شهدتها من خلال مرافقتي له في بعض رحلاته داخل كينيا وفي الحجاز ومصر ومن خلال لقاءاته بالعديد من علماء العالم الإسلامي وخاصة عندما كان يرأس وَفْدَ أوغندا لدىٰ رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وكيف رأيت مقر

الوفد الذي يرأسه قد أصبح ملتقىً أو منتدىً مصغراً يجمع نخبة من العلماء يتناولون فيه العديد من القضايا المطروحة علىٰ المؤتمر ويتبادلون من خلالها الآراء، وكثيراً ما كان يطرح عليهم قضية الدعوة ومعاناة الدعاة في أفريقيا الشرقية بسبب قلة الإمكانيات وعدم اهتمام الدول والمنظمات الإسلامية بشؤونهم.

وكان لحضرموت واتحاد الجنوب العربي نصيبٌ وافر من تلك اللقاءات وقد جمعت نخبة من العلماء الذين يمثلون الاتحاد، والدولة القعيطية، والدولة الكثيرية[1]، وهم السيد أحمد بن علوي الحداد والسيد صالح بن علي الحامد، والشيخ محمد بن سالم البيحاني مع بقية أعضاء الوفود، وإن أنسىٰ لا أنسىٰ ما يدور ما بين هؤلاء العلماء الأفاضل في لقائهم كل صباح قبل ذهابهم لجلسات المؤتمر مع سيدي من أحاديث الود والمحبة المتبادلة فيما بينهم وما يتخللها من مذاكراتٍ علمية وأدبية شيّقة.

وما أكثر اللقاءات الأخرىٰ التي ظل يركّز فيها علىٰ شؤونِ الدعوة عندما يلتقي من خلالها بكبار العلماء والدعاة في هذا المؤتمر وهو المؤتمر الإسلامي الأول الذي عقدته الرابطة في شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٣٨١هـ في مكة المكرمة، وأذكر منهم السيد أمين الحسيني مفتي فلسطين الذي التقىٰ به في مَكْتب مدير عام رابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد سرور الصبان لأول مرةٍ برعاية الشيخ محمد صالح قزاز مساعد الأمين العام، وذلك من خلال لقاءات التعارف التي تتم بين رؤساء الوفود، وكم التقىٰ

(١) هذا قبل استقلال حضرموت من الحكم البريطاني.

بغيرهم من علماء الشام والهند والباكستان والمغرب ومصر والأردن في مكة المكرمة وفي المدينة المنورة، في تلك السنة وفي السنوات التي قبلها والتي بعدها، لا لمجرد التعارف فقط فقد كان رحمه الله حريصاً علىٰ استغلال الفرص والمناسبات التي يستطيع من خلالها أن يعرض قضايا الدعوة والصعاب التي تجابه الدعاة، لا في إفريقيا الشرقية بل في القارّة بأكملها. وما كان حرصه علىٰ حضور مؤتمر رسالة المسجد الذي كان عضواً فيه والذي عقد في رحاب البيت العتيق في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٥هـ إلا من أَجْل العمل علىٰ إحياءِ هذه الرسالة وتأكيدِ أهميتها، واستعادة دورها في حياة المسلمين.

* * *

أما من زاروه في منزله العامر في جدة فكثيرون جداً، وأذكر منهم فضيلة الشيخ العلامة محمد بلنتو مفتي حلب، والمحدث السيد عبد الله الغماري، والشيخ المحدث عبد الفتاح أبو غُدّة الذي أجازه واستجازه في هذا اللقاء وكان بصحبته أحد طلاب العلم من آل الرشيد وهو الشيخ الأديب محمد الرشيد الذي أخذ الإجازة عن سيدي وترجم له فيمن ترجم لهم من صفوة العلماء، وأيضاً فضيلة العلامة الشيخ محمد علي الصابوني، والشيخ الدكتور سيف الدين الشيخ محمد أحمد علي أبو العزائم شيخ طريقة العزمية بالسودان ومُجمّع الشيخ محمد أحمد الإسلامي ومركز أبي العزائم العلمي، وغيرهم من علماء سوريا، واليمن، والهند، والمغرب، وغيرها من الأقطار الإسلامية.

* * *

وفي مصر قوبل بالحفاوة من قبل كل من التقىٰ بهم من العلماء وفي

مقدّمتهم فضيلة العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء، الذي تربطه به أَوْثقُ روابط الود والإخاء والمحبة، والشيخ العلامة صالح الجَعْفري الذي احتفىٰ به في مقر إقامته في رواق المغاربة بالأزهر الشريف، كما احتفىٰ به فضيلة الشيخ العلامة محمد زكي بن إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، بمقر العشيرة في القاهرة، ولا أنسىٰ زيارته لفضيلة العلامة المحدث الشيخ التيجاني وقد صحبه فيها فضيلة السيد محمد بن علوي المالكي، واستضافه في منزله يوماً كاملاً.

وقد ظل مقر إقامته رحمه الله في القاهرة إلىٰ أن غادرها منتدىً علمياً وأدبياً يتوافد إليه العلماء وطلاب العلم باستمرار، وكان فضيلة الشيخ حسنين مخلوف لا ينقطع عن زيارته يومياً صباحاً ومساءً، كما كان فضيلة السيد العلامة محمد بن أحمد بن سُمَيط نزيل مصر، وفضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعي مكمّل «المجموع»، وفضيلة الشيخ محمد باوزير العالم الأزهري ونزيل مصر يترددون عليه باستمرار، ورحم الله فضيلة السيد الزعيم محمد علي الجفري رئيس رابطة الجنوب العربي فقد غمر سيدي بالتكريم والاحترام، وكان سيدي بالمكانة العليا لدىٰ سيدي العم الشهم الأريحي علي بن حامد البار الذى وقف نفسه ووقته لمرافقته وملازمته طيلة إقامته بالقاهرة، ومن حسن الصدف أن يجتمع بالسيد العلامة الحبيب محمد بن أحمد الشاطري الذي جاء إلىٰ مصر للعلاج، إلا أن اللقاءات كانت لقاءات خاطفة نظراً لظروف كل منهما، وكانت زياراتُ الإخوة الكرام السيد علوي ابن سالم خرد، والسيد سقاف بن علي الكاف وإخوانه، والسيد أحمد بن سقاف بن سميط، وكلهم من المنتسبين إلىٰ الأزهر الشريف لا تنقطع عنه،

وكان محَلَّ الحفاوة والتكريم من قبل المشايخ آل بن مطهر العمودي المقيمين بمصر.

وبمظهره العلمي وما كساه الله به من هيبة العلم ووقاره كان محل إعجاب وتقدير كل من يقابله من عامة المصريين.

وأذكر أننا جِئْنا إلىٰ مصر أيام حرب الاستنزاف، وصادف أن استأجَرْنا شقة في عمارة أحد الضباط الكبار، وكان شرطنا الأساسي وجود هاتف في الشقة، وفوجئنا عند استلامنا الشقة بسحب الهاتف ربما كان لسبب أمني، ولما اعترضنا علىٰ هذا التصرف أوعدونا خيراً، ولما جاء صاحب العمارة من الجبهة في اليوم التالي في إجازته الأسبوعية بمجرد ما قابل سيدي سلّم عليه وقبل أن نتحدث معه عن موضوع الهاتف وقد كان عنده خبر مسبق بذلك طلب جهازَ الهاتف ووضعه أمام سيدي معتذراً، وقال لسيدي: أنا وكل الأسرة تحت خدمتكم، وزاد تعلقه بسيدي بعد أن شاهد ملازمة فضيلة الشيخ حسنين وكبار الزوار له، وظل يوصي أهل منزله بسيدي وهو بالجبهة.

وقد زار رحمه الله كل مشاهد آل البيت بدءاً بمشهد سيدنا الإمام الحسين وأذكُرُ أنه عندما وقفنا أمام المشهد الحسيني المَهيب لأولِ مرة قال له أحد السدنة: [أطوف بكم يا بيه]، فقال له سيدي بلطف وقد شاهد ما شاهده من الغلو في تصرفات جُلِّ الزوار للمشهد الحسيني: نحن لا نطوف إلا بالبيت العتيق، وشرع في تلاوة (سورة يس). وعندما لقينا بعض المضايقات عند زيارة السيدة زينب رضي الله عنها من الملتفين حول المقام وخارجه وكان يرافقه في هذه الزيارة بعض الإخوان، قال لنا سيدي وقد لمح علينا علامات التبرم: لا بد من التزام الأدب في مثل هذه المواقف وصدق

النية. وقد ذهب إلىٰ الإسكندرية وطنطا بصحبة السيد الفاضل علي بن حامد البار لزيارة المرسي أبي العباس والسيد البدوي زيارة خاصة.

* * *

وبالمناسبة فمن وقائع رحلته الثانية لمصر ـ في شهر جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٩١هـ الموافق شهر أغسطس ١٩٦١م ـ والتي صحبه فيها صديقه الوفي الشيخ حسين بن عبدالله باسندوه من جدة وذلك لملاقاة الحبيب عمر ابن أحمد بن سميط الذي قدم من عدن إلىٰ القاهرة للعلاج، سأذكر باختصار بعض المواقف والمشاهد ومنها زيارة مشاهد آل البيت والمَوكِب المَهيب الذي انطلق من منزل الشيخ حسنين الذي ضَمَّ سيدي الحبيب عمر وسيدي الوالد وفضيلة الشيخ حسنين والشيخ حسين باسندوه، وفضيلة السيد محمد علي الجفري رئيس رابطة الجنوب العربي، وفضيلة السيد عمر بن عبد الله بن الشيخ أبو بكر، والسيد علي بن حامد البار، والشيخ محمد جُبْران بن عوض جبران، والسيد طاهر بن عمر الحداد، والسيد مصطفىٰ بن علوي أبو نُمي، وكاتب هذه السطور، وكيف استقبلوا بالاستقبال الحافل أمامَ مدْخَل مسجد الإمام الحسين من قِبَل إمام المسجد والمسئولين عن إدارة المسجد، وقد تمت الزيارة وفق المراسم المتبعة مع كبار الشخصيات الإسلامية بدون سابق علم من الحبيب عمر، حيث فُتِحَتْ لهم بعد زيارة المشهد الحسيني المقصورةُ التي بها بعض الآثار النبوية للتبرك بها، وغيرها من الآثار كالمصحف المنسوب إلىٰ الإمام علي كرم الله وجهه، ثم بعد ذلك استقبالهم في المحل المُعَدّ لاستقبال كبار الزوار للمشهد، وبعد أن أُدِيرَت القهوة شكرهم الحبيب عمر علىٰ حسن استقبالهم، ووُدِّعُوا بمثل ما استُقبِلوا

به من الحفاوة والإجلال التي تركت أبلغ الأثر في نفوسهم، وبمثل ذلك الإحتفاء والتكريم استقبلوا عند زيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وزيارة السيدة زينب رضي الله عنها.

وبعد صلاة المغرب في المسجد الزينبي وزيارة ضريح الحبيب عبد الرحمن بن مصطفىٰ العيدروس القريب من ضريح السيدة زينب عاد الموكب إلىٰ محل إقامة الحبيب عمر، بعد ذلك لم تتوسع دائرة اللقاءات بالحبيب عمر نظراً لظروفه الصحية، وظلت محدودة في نطاق الخاصة، وأوّلهم سيدي الوالد وفضيلة الشيخ حسنين ومن لهم صلة به من علماء الصعيد، والأفاضل الأجلاء السيد محمد بن أحمد بن سميط، والشيخ حسين ابن عبد الله باسندوه، والسيد علي بن حامد البار، والسيد عمر بن عبد الله ابن الشيخ أبو بكر، والسيد طاهر بن عمر الحداد، والسيد علوي بن سالم خرد، والسيد سقاف بن علي الكاف وإخوانه، وبعض زملائهم المنتسبين إلىٰ الأزهر الشريف، وكاتب هذه السطور، ومرافقي الحبيب عمر الشيخ محمد جبران والسيد مصطفى أبو نمي، وإلىٰ أن غادر الحبيب القاهرة والجلسات الأنيسة تعقد صباحاً ومساءً في محل إقامته.

وماذا يتصور المتشوف إلىٰ ما يدور في هذه الجلسات وقد جمعت بين ثلاثة من أبرز رجال العلم والدعوة والإفتاء غير أن يسمع مفهوماً لتفسير آية قرآنية، أو شرحاً لحديث نبوي، أو توضيحاً لمسألة فقهية، أو حلاً لقضية فكرية، أوعلاجاً لمشكلة اجتماعية، إضافة إلىٰ ذلك أنها لم تخْلُ من ذكر نبذٍ من تراجم القوم وسيرهم، ومطارحة بعض النكات والطرائف الأدبية، أذكر منها وقد سأل الشيخ محمد الشرقاوي ــ وهو من علماء الصعيد ــ

سيدي الحبيب عمر عن رأيه في مصر أن أجابه بأن الحبيب أحمد بن حسن العطاس لما سُئل هذا السؤال أجاب عليه بقول الشاعر:

ما مصْرُ إلا موطِنٌ مستحسَنٌ   فاستوطِنوه مشرقاً أو مغرباً
هذا وإن كنتم علىٰ سفر به   فتيمموا منه صعيداً طيباً

فقال له الشيخ الشرقاوي وقد سر سروراً عظيماً بعد أن أفاض الحبيب عمر في ذكر الأزهر ورجالاته ومن نزل بمصر من أهل البيت وغيرهم من مشاهير العلماء واختاروها موطناً: هل مكثتم يا مولانا مدة طويلة في مصر؟ فأجابه الشيخ حسنين: هذه الزيارة هي الزيارة الأولىٰ، [وهي تصادف سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م].

ولا أنسىٰ هذه الأبيات من أمالي سيدي الحبيب في أحد الجلسات يخاطب بها فضيلة الشيخ حسنين:

أنا في مِصْرَ لعَمْري رافِلٌ في نعمتَينْ
بعدما زرتُ الإمام الشافعيْ ثم الحُسَينْ
أتملّىٰ كل يوم بمحيّا حسنينْ
لُجّة العلم وكم نغْرِفُ منه كلَّ زَينْ
صانَه الله ولا زال لنا قُرَّةَ عينْ

وبالمناسبة فقد استدعاني سيدي الحبيب عمر في أحد الأيام وقبل وصول سيدي الوالد إلىٰ مصر بفترة وَجيزةٍ وأملىٰ علي هذه الأبيات، وقال لي: ابعثها إلىٰ والدك بسرعة. وهي:

حامدٌ أحمدُ مشهورٌ أبوه   علىٰ منهجه سار وجد

هكـذا يطلـب ممـن أصلـه　　　قد تسامىٰ وزكا فرعاً وجد

ومُـرادي منـه إبـلاغ السـلام　　　إليـه وإلـىٰ الكعكـي الأوَدّ

رَجُـلٌ نـوّر ربِّـي قلْبَـه　　　مـالـه فـي حبـه للخيـر حَـدّ

ولبـاشيـخ سـلام مـا شـدىٰ　　　طائر في غير تحديد وَعَد

ومن هذه الأبيات ندرك مدىٰ شدة اهتمام الحبيب عمر بسيدي الوالد الذي يقابله التعلق الشديد من قبل الوالد بالحبيب عمر، التعلق الذي حدىٰ به أن يقصده إلىٰ مصر ويلازمه ملازمة تامةً طيلة إقامته بالقاهرة.

* * *

عاد سيدي الحبيب عمر إلىٰ جزائر القمر وعاد سيدي الوالد إلىٰ كينيا وتتابعَتْ بعد ذلك رحلاته سنوياً إلىٰ الحجاز إلىٰ أن استقرّ في آخر أيام حياته بجدة، التي ازداد فيها إقبال الناس عليه بعد سلسلة طويلة من الرحلات لا يقوىٰ علىٰ البعض منها إلا من أوتي قوة التحمل علىٰ المتاعب والمشاق والصبر، كرحلته سنة ١٣ هـ، للحج من كينيا إلىٰ أوقاندا براً، فالسودان عبر النيل، ثم ركب البحر من بورت سودان إلىٰ جدة بعد مشقة وطول عناء، كما أشار إلىٰ ذلك في إحدىٰ قصائده التي مرت معنا، ثم رحلته من مسقط رأسه [قيـون] سنة ١٣٧٧هـ، عن طريق الربع الخالي إلىٰ مكة المكرمة، وبصحبته سيدتي الوالدة والشيخ أبو بكر بن عبود باطوق العَمُودي صديق العمر، ولم يحُدَّ من عزيمته بعدُ المسافات في كلا الرحلتين، ولا ما قد تعترضه من مصاعب، ذلك لأنها لم تكن رحلات ترفيهية أو تجارية، وإنما هي رحلات روحية إيمانية وجهتها بيت الله الحرام وزيارة نبيه المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله، واستجابةً لذلك النداء العظيم ﴿ وَأَذِّن فِي

ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج:٢٩]. وتحلِّيه فيها بالصبر وتحمله عناء السفر ووعثاء الطريق كل ذلك ابتغاء المثوبة من الله وما يقرّب من عمل مُوصِلٍ إليه سبحانه وتعالىٰ. وهكذا كان دأبه وديدنه إلىٰ أن لحق بالرفيق الأعلىٰ.

* * *

ولقد صحبْتُه في بعْضِ رحلاته، وكنت كما كان غيري ممن صحبوه نعجز عن أداء الكثير مما كان يقوم به من نشاط، وما يتحمله من مشاق خلال مسيرة تلك الرحلات، وشهدت كيف كانت عناية الله سبحانه وتعالىٰ ترعاه في أحْلكِ الظروف التي يتعرض لها، ونراه أشد تحملاً وصبراً كلما كانت هذه الرحلات في سبيل الدعوة ونشرها عبر القرىٰ النائية والغابات والأدغال الموحشة.

ولا أعتقد أن فيما سجلته من بعض المشاهد أو الذكريات خروجاً عما نحن بصدده من الاقتصار علىٰ الجانب العلمي من حياة سيدي وذلك لما لها من ارتباط أو شبه ارتباط بذلك الجانب بالرغم من اختصارها، وأنّىٰ لي في هذه العجالة أن آتي علىٰ كل سيرة حياته أو كل خطوة خطاها في مسيرته العلمية والأدبية والإصلاحية! حسبي أن أفي بما وعدت فيما أقدر عليه، فإن وفقت فهذا الأمل الذي أرجوه، وإلا فإن آثاره ومنجزاته سنجدها مسجلة علىٰ صفحات أعماله الماثلة في دعوته التي لا زالت تتردد أصداءها في ربوع شرق إفريقيا وغيرها، مسطرة في منظومه ومنثوره، مترجمة في كل ما قيل عنه رحمه الله حياً وميتاً، شعراً ونثراً، مدحاً ورثاءً.

* * *

قبل أن ننتقل إلىٰ الفصل الأخير من هذا الكتاب يسرنا أن نسجل بعض الكلمات التي أتحفنا بها الأخوة الكرام، ومنهم أخونا الفاضل الدكتور محمد علي البار وهو من أقرب المتصلين بسيدي الوالد يرحمه الله والآخذين عنه، عدىٰ عمق الروابط وخالص المحبة التي بدت آثارها في ثنايا الترجمة الموجزة التي أتحفنا بها، والتي جاءت معبرةً أصدقَ تعبير عما يتردد في أعماقه من الخواطر والذكريات، وما تركته من التأثير الذي يتولد في نفس الباحث عن المعرفة من شعورٍ نحْوَ من أخذ عنهم وتتلمذ عليهم يؤدي به حق الأخذ وحق المشيخة، وهذه هي الترجمة وعنوانها:

من منارات الهدىٰ
الحبيب أحمد مشهور الحدّاد

مستهلها بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب مني الأخ الكريم حامد بن أحمد مشهور الحداد أن أكتب عن والده العلامة الداعية إلىٰ الله سيدي وشيخي المرحوم الحبيب أحمد مشهور ابن طه الحداد نبذة موجزة عن والده ليضمها إلىٰ مشاركة تلامذة الحبيب ومحبيه، وتهيبْتُ ذلك فمن أنا حتىٰ أكتب عن الحبيب أحمد؟ وعن أي جوانب عظمته أتناول؟ وهو الذي يملأ كيان من يعرفه محبةً وإجلالاً.. وكل صفاته تذكرك بصفات أجداده وسلفه الميامين الممتدة في هذه الدوحة إلىٰ الإمام علي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء عليها السلام، ووالدِها الحبيب المصطفىٰ صلوات ربي وسلامه عليه وعلىٰ آله الطيبين وصحبه الميامين. وهو من النفر الذين قال فيهم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «خيار أمتي الذين إذا رؤوا ذُكر الله»[١].

ولقد شهدت كثيراً من مجالسه الخاصة والعامة أكثَـرَ من عشرين سنة فما سمح لأحد في مجلسه بغيبة أو نميمة، أو حتىٰ ذكْرٍ للدنيا، وكل مجالسه مُدارسَةٌ للعلم وذكر لله ودعاء للمسلمين واهتمام بأمورهم وإصلاح ذات

---

(١) رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت.

البين. . ويتحمل المشاق مع كبر سنه وضعف بدنه ويلاطف الصغير والكبير ويقضي حوائجهم بما استطاع من دعاء وتوجيه وخدمة وإرشاد. ويظن جليسُه أن لا أحد أحب إليه منه فتكاثر الناس عليه صباحاً ومساءً، وهو يجيب دعواتهم إذا دعوه إلىٰ بيوتهم، ولا يتأخر عما يكون لهم من مناسبات زواج أو عزاء أو غير ذلك، ويستغل هذه المجامع في أغلب الأوقات لتذكيرهم بالله ووَعْظِهم وإرشادهم.

وإذا نظرنا في صفحة سيرته الميمونة المباركة نجد سيرة ذلك الرعيل الذين توجهوا بكليتهم لله سبحانه وتعالىٰ فأنار قلوبهم وقوالبهم، وجعلهم منارات هدىً للناس.

* * *

وقد ولد الحبيب أحمد رحمه الله بمدينة قيدون في دوعن بحضرموت حوالي سنة ١٣٢٥هـ الموافق ١٩٠٧م، وكان والده الحبيب طه بن علي الحداد من أولياء الله المستورين المبتعدين عن الظهور قدر طاقته ووسعه وقد أمضىٰ جل حياته في أندونيسيا إذ هو من مواليدها ثم انتقل إلىٰ بلده حضرموت في أواخر عمره وكانت وفاته في حاوي خلع راشد عام ١٣٦٦هـ، وأما والدة الحبيب أحمد فهي الشريفة صفية بنت الإمام الداعية إلىٰ الله العلامة السيد طاهر بن عمر الحداد، وكانت رحمها الله إحدىٰ النساء القلائل التاليات كثيراً لكتاب الله في مدينتها الصغيرة قيدون، مع محافظةٍ علىٰ السنن والأوراد وزهد في الدنيا، فكانت بذلك أوَّلَ راعية له حيث دارسته القرآن وغرست في قلبه صغيراً حُبَّ العلم، وحبَّ الله ورسوله، وحب الصالحين بما ترويه له من سيرهم.

وأخذ الحبيب أحمد علىٰ عدد غفير من العلماء الأعلام العاملين واستمع إلىٰ العلامة الداعية إلىٰ الله صاحب الكرامات المتواترة الحبيب أحمد بن حسن العطاس وهو يقرأ الفاتحة وسورة من القرآن في صلاة الفجر وهو دون العاشرة، فتأثر بتلك التلاوة وبقي صداها يرّن في أذنه حتىٰ أنه يكاد يحاكيها.

وقد أخذ الحبيبُ أحمدُ عن الحبيب العلامة الداعية إلىٰ الله عبد الله بن طاهر الحداد الذي كان من أبرع الناس في الوعظ والإرشاد وله التأثير العظيم علىٰ سامعيه، كما أخذ عن الحبيب العلامة الجهبذ السيد علوي بن طاهر الحداد صاحب المصنفات الكثيرة، والذي تولىٰ الإفتاء في مقاطعة جهور وهي فيما يعرف اليوم بماليزيا وعليهما كان جل أخذه.

وسافر الحبيب أحمد مع الحبيب علوي بن طاهر إلىٰ [أندونيسيا] وهو دون العشرين، وهناك أخذ عن أئمة العلويين في تلك الديار من أمثال الحبيب علوي بن محمد بن طاهر الحداد، والحبيب محمد بن أحمد المحضار وغيرهم ممن كان بهم ذلك الربْعُ عامراً، وأخذ عن العارف بالله العلامة السيد أحمد بن محسن الهدار وكان من خاصة مريديه، ثم انتقل الحبيب أحمد إلىٰ شرق إفريقيا في أول زيارة لها سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٩م، ودخل زنجبار وقابله أهلها بما هو أهله من الحفاوة رَغْم صِغَر سنه حيث لم يتجاوز آنذاك العقد الثالث من العمر، وأقام لهم الدروس وأخذ يفسِّر لهم القرآن في شهر رمضان، بَدْءاً بسورة الفاتحة، ومكث أسبوعين كاملين وهو يفسر قوله تعالىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولا غَرْو في ذلك فقد وضع ابن القيم كتابه العظيم «مدارج السالكين» في ثلاثة مجلدات في الكلام عن هذه الآية العظيمة الجليلة القدر.

وغادر الحبيب أحمد زنجبار من شرق إفريقيا، ولكنه عاد إليها عام ١٣٥١هـ الموافق ١٩٣٣م، ودخل ميناء كينيا [ممباسا] وكثير من سكانها بل أغلب سكانها مسلمون. وزار الحبيب الداعية إلىٰ الله السيد صالح بن علوي جمل الليل في جزيرة لامو حيث يقيم، وأقام صلاته الوطيدة مع العارف بالله العلامة الحبيب عمر بن أحمد بن سميط المقيم بزنجبار، وامتدت تلك الصلات مع تعدد زياراته للحبيب عمر عقب انتقاله إلىٰ جزائر القمر بعد قيام ثورة زنجبار، واستمرت عشرات السنين إلىٰ وفاة الحبيب عمر رحمه الله تعالىٰ.

وعندما وَجَد الحبيب أحمد أن تلك الديار [في شرق افريقيا] قد خلت من الدعاة إلا عدداً قليلاً يعد علىٰ أصابع اليد قرر أن يستوطن تلك الديار حتىٰ يقوم بشرف الدعوة إلىٰ الله وإرشاد العامة والخاصة إلىٰ دين الله واستوطن مدينة [ممباسا].

ثم انتقل منها إلىٰ أوغندا واستقر بها فترة ثمانِ سنواتٍ في [كَمْبالا] عاصمتها من أجل الدعوة وذهب خلالها إلىٰ المناطق المجاورة.

* * *

وقد أخبرني الحبيب أحمد رحمه الله رحمة الأبرار كيف كان ينطلق مع تلاميذه في الأدغال ليدعو إلىٰ الله وليسبق المبشرين [المُغْوِين] إلىٰ تلك القبائل الوثنية. وكان ينطلق إلىٰ تلك الأدغال وما فيها من وحوش خطرة وتماسيح وثعابين لا يبالي بشي من ذلك، ويأخذون معهم ثوراً أو ثورين يذبحونها للأهالي، ومعه من يعرف لغتهم فيجمعهم ويذبح لهم ويعطيهم ما يستطيع جمعه لهم من الألبسة والأطعمة ثم يبدأ بدعوتهم إلىٰ الإسلام، وييسر لهم الأمور، وبإخلاصه يفتح الله عليه فتُسلِم تلك القبائل.

وإن من دخلوا الإسلام علىٰ يديه يعدون بعشرات الألوف، وقد تضاعفت أعدادهم منذ ذلك الحين بالتزاوج، ولله الفضل والمنة.

وقد كانت له في يوغندا وكينيا صولات وجولات مع المبشرين ومع الفرق الضالة كالقاديانية وغيرها من الفرق، واستطاع بحكمته وأدبه وعلمه أن يعيد فئاتٍ منهم إلىٰ طريق الحق ومَسْلك أهل السنة والجماعة.

ولم يكن الحبيب أحمد يبالي بالنَّصَب والتعب والمشقة في سبيل الدعوة إلىٰ الله، وكان ينتقل من مكان إلىٰ آخر يعبر الأنهار والأدغال مع نفر قليل من الدعاة و تلامذته المخلصين حتىٰ وصل إلىٰ حدود الكونقو، وإلىٰ رواندا وزائير وبعض المناطق المجاورة، وهو يدعو إلىٰ الله علىٰ هدىً وبصيرةٍ بالحكمة والموعظة الحسنة، يؤلف القلوب ويجمع الأشتات ويوحد الصفوف، ويقرب الناس إلىٰ الله بأخلاقه وأدبه الجم، وصبره الذي لا حدود له وتواضعه، وإخباته، ولكنه وان عفا عما يصيبه في نفسه لا يسكت عن حق من حقوق الله فيقوم حتىٰ يعيد الأمر إلىٰ نصابه. وهكذا كان اقتداؤه بالحبيب المصطفىٰ صلوات ربي وسلامه عليه وعلىٰ آله الأطهار وصحابته الأخيار.

لا يغضب لنفسه بل يغضب لربه..

وقد عانىٰ الحبيب أحمد أثناء وجوده في يوغاندا من عداوة حكومة [ملتون أبوتي] وحقدها علىٰ الإسلام، ولكنه صبر واضطر إلىٰ الخروج منها ثم العودة إليها في عهد عيدي أمين الذي شمله برعاية خاصة وتقدير واحترام بَالِغَين إلىٰ أن أضطر لمغادرة البلاد نهائياً إثر الإطاحة بالرئيس عيدي أمين.

وقد تصدىٰ الحبيب أحمد لما كان يحدث من اختلاط النساء والرجال

في تلك البلاد وعدم التزام المسلمات هناك بالحجاب، وعدم توريثهم للبنات. وتصدىٰ للعلمانيين والشيوعين من أبناء المسلمين الذين درسوا في المدارس التي أنشأتها الحكومات الإستعمارية وتأثروا بما درسوه فيها وفي أوروبا. كما تصدىٰ بقوة للقاديانيين، فاستطاع بفضل الله أن يفضح خُزَعْبلاتِهم وأن يرُدَّ البعْضَ منهم إلىٰ جادة الحق وطريق الصواب.

* * *

والعجيب حقاً أنه رغم تَفرغه للدعوة، فإنه لم يكن يقبل من أحد شيئاً، لنفسه، فقد اتخذ طريقة كثير من أسلافه العلويين من آل البيت الداعين إلىٰ الله بأن يَعْملوا في التجارة حتىٰ يَسْتغْنُوا عن عطاء هذا أوذاك. . وقد أغناه الله من فضله عن الحاجة للناس، وكان بعض تلامذته ومريديه والمتعلقين به يشاركونه في تجارته حتىٰ يتفرغ هو للدعوة ونشر العلم بين الناس، فبارك الله في وقته وجهوده وأثمرت وأينعت في تلك الديار، وانتفع بها الخاص والعام، وانتقل بعض مريديه إلىٰ بريطانيا فامتد أثره وتأثيره إلىٰ تلك الأصقاع.

وكنت أعجب حين أرىٰ مجموعات شتىٰ في منزل أولاده في جدة فهذا من أمريكا، وذاك من أسبانيا، ومجموعة أتَتْ من الأرجنتين وأخرىٰ من بريطانيا ومجموعات من كينيا وتنزانيا ويوغندا. . وهذا من سنقفورة ومجموعة من أندونيسيا، وبيت الحبيب أحمد مفتوحٌ للجميع وكثير منهم يسكن معهم الأيام والليالي. . وأولاد الحبيب يخدمونهم دون تذمر ولا تضجر، فقد تعلموا من والدهم العظيم تلك الأخلاق العالية.

والغريب حقاً أن كثيراً من هؤلاء لا يعرف اللغة العربية، ومع هذا فإن تأثير الحبيب عليهم كالمغناطيس يجذبهم إليه. . ويقوم بعض تلامذته وأولاده

أو أحفاده بالترجمة بينه وبينهم. أما من يعرف منهم اللغة السواحلية فإن الحبيب يحدثه بلغته، فهو يعرف تلك اللغة التي يتحدثها أهل شرق إفريقيا وخاصة المسلمون منهم.

* * *

ورغم أن للحبيب أحمد ذريةً في ممباسا بشَرْق إفريقيا وجزر القمر إلا أن معظم أولاده توطنوا جدة ومكة المكرمة وصاروا من أهلها. لذا كان الحبيب أحمد يأتي كل عام في موسم الحج، ويبقىٰ أشْهُراً مع أسرته في جده. وفي تلك الفترة يكثر الوافدون عليهم ليلاً نهاراً. . والحبيب يستقبل الجميع، ويذهب إلىٰ بيوت الداعين وهم كثرة، وتتحول تلك المجالس إلىٰ مدارس للعلم، وخاصة علم التفسير والحديث والفقه، وفي المجالس العامة تكون المواعظ والدروس العامة، وللتلاميذ دروسهم عند الحبيب كل يوم.

وكان من سعادتي أن وافق الحبيب أن آتيه كل صباح قبل ذهابي للعيادة للقراءة عليه في كتب الإمام عبد الله الحداد. . وبعض كتب الإمام الغزالي، وغيرها من الكتب النافعة، ويحضر الجلسة مجموعة من تلامذة الحبيب. وأذهب أنا إلىٰ عملي ويأتيه غيري وهكذا إلىٰ صلاة الظهر ثم جلسة أخرىٰ إلىٰ وقت الغداء، حين يعود أولاده من أعمالهم ويرتاحون القيلولة، ثم يعاودون الدروس بعد صلاة العصر إلىٰ المغرب. وبعد المغرب دروس هنا للفقه، أو دروس هناك للحديث، أو اجتماع عند فلان، أو مناسبة عند آخر، والحبيب يحضر هذه الاجتماعات. . حتىٰ هزيعٍ من الليل، ثم يعود الحبيب فيرتاح قليلاً ولا ينام إلا سويعات معدودة ليقوم في الثلث الأخير من الليل في تهجده وصلاته، فإذا صلىٰ الفجر بقي في مصلاه حتىٰ تطلع الشمس

وترتفع فيصلي الضحىٰ ثم يغفو، فإذا قام أكل اليسير من الطعام ثم تبدأ الدروس مع التلاميذ طوال يومه وجزء من الليل.

ولم يكن يترك صلاة الجمعة في الحرم المكي ويبقىٰ يومه هناك إلىٰ الليل، ما لم يكن في المدينة المنورة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وكان كثيراً ما يجتمع هناك بعلماء العالم الإسلامي، وله بكثير منهم صلات وصداقات ومودة، ويعتبر فضيلة الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية من أعز أصدقاءه، وكثيراً ما تكون لقاءاتهم في منزل الشيخ الفاضل المرحوم سراج كعكي وهو من أهل الفضل والمال في مكة المكرمة، وقد قام الشيخ سراج بطباعة كتب الإمام عبد الله الحداد عدة مرات وأشرف علىٰ طبعها العلامه الشيخ حسنين مخلوف، كما قام بطبع كثير من كتب علماء حضرموت وتوزيعها مجاناً لوجه الله، وكل ذلك بواسطة تأثير الحبيب أحمد مشهور الحداد، رحم الله الجميع وأجزل مثوبتهم.

* * *

وكان من أصدقاء الحبيب أحمد العلامةُ المفسر المشهور الداعية إلىٰ الله محمد متولي الشعراوي ومودتهم لبعضهم قوية ومتينة، وأشهد أني ذهبت ذات صباحٍ للحبيب أحمد كما كنت أعتاد ووجدت الحبيب علىٰ غير عادته مهموماً متجهِّماً وهو يحوقل ويسترجع، فقلت له: يا سيدي ما الخبر؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون صديقنا الشيخ الشعراوي، وسكت فقلت: هل أصابه مكروه يا سيدي؟ قال: أكبر. قلت: هل توفاه الله ؟ قال: أكبر. قلت: يا سيدي ماذا أكبر من وفاته وفقدانه؟ فقال : أما سمعت الأخبار؟ قلت: لا. قال: لقد وَلَّوه الوزارة. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وصرت في حَيرةٍ من أمري. أيبلغ الأمر هذا المبلغ من الحبيب أحمد عندما يتولىٰ صديقه الداعية العلامة الشيخ محمد متولي الشعراوي وزارة الأوقاف في مصر؟

وكنت أعرف موقف الحبيب من المناصب الحكومية وكيف نفَر منها طوال حياته. وكم عرضت عليه مناصب فرفضها واعتذر منها. ولكني لم أكن أتوقع أن يرىٰ الحبيب تولي الوزارة أشد من مصيبة الموت. وامتلأَتْ نفسي بهذه الشخصية الفذة النادرة في زماننا التي ترىٰ أرفع المناصب من أكبر النكبات والمصائب علىٰ الداعي إلىٰ الله.

لهذا كلِّه ارتفعَتْ مقامات هؤلاء القوم، وهم علىٰ تواضعهم الشديد للبسطاء والعامة يأنفون هذه الأنفةَ من أهل السُلْطَة والنفوذ، حتىٰ أن الله جعل علىٰ أيديهم هداية من أراد الله له الهداية منهم.

* * *

وقد رأيت كثيراً من أهل النفوذ والسلطان يأتون اليهم متوددين طالبين الدعاء، ورأيتهم وهم يدعون لهم سراً وعلانية بأن يصلح هؤلاء الحكام وذوي النفوذ ويصلح بهم، وأن يهيء لهم البطانة الصالحة، ولم يكونوا يتركونهم من التوجيه، وكان أولئك يتقبلون منهم ذلك لعلمهم بإخلاصهم، وأن الدنيا ليست لهم علىٰ بال.

* * *

وكانت عناية الحبيب أحمد بتربية أولاده وأحفاده وتلاميذه عناية فائقة، وطريقته في ذلك القدوة والتوجيه غير المباشر. ولا يتوجه بالكلام المباشر إلا

فيما ندر وعند الحاجة إليه، فأثمرت تلك التربية وأينعت وظهرت سيمَاءُ ذلك علىٰ أهل بيتـه وتلامذتـه، وخاصة أولاده وأحفاده الذين وهبهم الله تلك الأخلاق العالية والأدب الجم، والصبر علىٰ الأذىٰ، وفتح ديارهم للناس، وخدمتهم مع إشعار كل من يأتيهم أنه هو المتفضل عليهم، وبيوتهم بفضل الله معمورة بالعلم ودروسه حتىٰ بعد وفاة والدهم الحبيب أحمد رضوان الله عليه.

ومما أذكره في مجالسه كيف كان يدرب أحفاده علىٰ البحث العلمي فكان يتلو آية ثم يسأل الحاضرين في المجلس عن تفسيرها، ويعتذر من يعتذر ويجيب من يجيب، والحبيب يلحظهم برعايته فإذا انتهوا مما قالوا طلب من أحد أحفاده أن يأتي بتفسير ابن كثير وأن يقرأ ماقاله في الآية؛ وينتقل إلىٰ حفيده الآخر فيقرأ ما قاله ابن جرير الطبري، ثم إلىٰ أحد تلامذته فيقراء ما ذكره الخازن والبغوي. وهكذا حتىٰ تتم قراءة أشهر كتب التفسير في الآية، ويتكلّم الحبيبُ بعد ذلك بما يفتح الله عليه، وفي أحيان كثيرة يأتي بمعان عميقة الغور لم يذكرها المفسرون السابقون يضيفها إلىٰ مفهوم الآية.. فضلاً من الله ونعمة.

ويتعلم الأحفاد والتلاميذ كيف يبحثون وكيف ينقبون، ويتعلمون من أخطائهم دون أن يشعرأحد بتوبيخ أو حتىٰ بكلمة توجيه ظاهر. وهكذا كان يحرص الحبيب أحمد علىٰ توسعة آفاق أبنائه وأحفاده وتلامذته.

* * *

والحبيب أحمد إلىٰ جانب مواهبه العديدة التي منحه الله إياها شاعرٌ مبدعٌ وله ديوان جمعه أولاده وهو في طريقه للنشر إن شاء الله تعالىٰ، وينهج فيه علىٰ سنن ديوان الإمام الحبيب عبد الله الحداد.. وشعره الرقيق دعوةٌ

إلىٰ الله ومناصرة للحق وتوجّعٌ علىٰ أحوال المسلمين ومآسيهم، وقد قدم له سيدي العلامة المتفنن الشاعر السيد محمد بن أحمد الشاطري.

وللشعر ومباحث اللغة العربية والنحو نصيب في مجالس الحبيب أحمد إلا أنه لا يحب التوسع فيها إلا بقَدْر ما تدعو إليه مباحث المجلس، وما زاد علىٰ ذلك فلا يحتاجه إلا أفذاذ قليلون هم أصحاب النحو واللغة. وأما غيرهم من الدعاة فلا يحتاجون إلىٰ التوسع فيها، وإنما همهم الأول تصفية النفوس من شوائبها وأدرانها، والالتفات إلىٰ الله بالكلية، وتلقي علوم الدين وخاصة الفقه والحديث والتفسير فهذه عدة الداعي إلىٰ الله وبضاعته، وإن كان لا بد له من النحو واللغة ولكن بالقدر الذي يحتاجه الداعية دون توسع.

وكان الحبيب أحمد يرعىٰ تلاميذه رعاية تامة وإن بَعُدوا عنه، ويوجههم ويرشدهم بطريقته المعهودة بضرب الأمثال والتورية إلا عند الحاجة، ومن رعايته الشديدة وحَدْبه واهتمامه بتلامذته ملاحظتهم، وقد حدث لي معه موقف لا ينسىٰ فقد انشغلت في رمضان بعملي وعيادتي في الليل فإذا عدت وجدت عدداً كبيراً من المجلات والصحف فانشغلت بها عن القيام وتلاوة القرآن، وما شعرت إلا والحبيب أحمد وولده الحبيب علي قَدِموا عليَّ في العيادة قُبَيل الظهر ولم يكن في ذلك الوقت فيها أحد من المرضىٰ فبادرت مسلماً علىٰ الحبيب وقلت: أنا آتيك يا سيدي.. هلا طلبتني.. وظننت أنه متوعك أو يشكو من انحراف في صحته،فقال: بفضل الله لا أشكو من شيء، ولكن آخر الليل في رمضان ليس لقراءة المجلات والصحف!! فتصببت عرقاً وخجلاً وعاهدت الله منذ تلك اللحظة علىٰ أن لا أعود لذلك، وتلطف معي الحبيب أحمد وتركني وأنا مرتبك وهذا أمر لم يكن يعلمه أحد

إلا الله. وقدرت مجيء الحبيب ورعايته وحدبه واهتمامه بما يفعل تلامذته. وله مواقف كثيرة مشابهة لتلاميذه مهما بعدوا عنه، توضِّح مدىٰ رعايته لهم وإشفاقه عليهم وملاحظتهم.

* * *

ورغم انشغال الحبيب أحمد هذا الانشغالَ الدائبَ بالدْعوة والتربية ومجالس العلم إلا أن له إنتاجاً علمياً هاماً علىٰ قلة ما نشر منه. وأهم ما ظهر منه كتاب «مفتاح الجنة»، وهو كتاب عجيب صغير الحجم عظيم القدر قد جعل ثلثه الأول في العقيدة وأهمية كلمة التوحيد ومعناها وأدلتها وافتقار الكائنات كلها لله جل جلاله وتعالت قدرته. وتسبيح الكائنات كلها له وبحمده، ودلائل وجوده ووحدانيته، وجهل المشركين وضلالهم، وارتباط شهادة لا إله إلا الله بشهادة محمد رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وعقيدة أهل السنة والجماعة.

ثم تحدث عن الأصل الثاني من أصول التشريع وهو السنة المطهرة وردَّ علىٰ من أنكرها أو تهاون بها من القدماء والمحدثين، كما تناول فتنة ترجمة القرآن الكريم الحرفية، وأن القرآن العظيم لا يمكن ترجمته، وإنما الترجمة لمعانيه علىٰ قدر فهم المترجم ورجوعه إلىٰ التفاسير وقواميس اللغة. ثم انتقل إلىٰ الإلحاد في الدين وأنواعه، والشرك والكفر وفرقهما، وحرمة المسلم ومكانته، وخطورة المجازفة بالتكفير وهو أمر اهتم به علماء الأمة منذ ظهور فرق الخوارج المكفرة للمسلمين، واستباحة أعراضهم وأموالهم ودمائهم، وخطورة ذلك، وقد أفاض الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في خطورة التكفير واستباحة الفروج والدماء والأموال، وما يحدثه هؤلاء

المكفِّرون من الفتن الخطيرة بسبب أهوائهم وتفسيرهم لآيات القرآن علىٰ غير وجهها الحق، وتنزيلهم الآيات الواردة في مشركي قريش وكفار العرب والعجم علىٰ المسلمين الذين لا يرون رأيهم ولا يفهمون فهمهم لهذه الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة.

ثم تحدث الحبيب عن التفكر وأهميته، والتفكر في آلاء الله ونعمه ومخلوقاته، وكيف تقوي الإيمان وتنير القلب.. وأهمية السلوك وتنظيف القلب من أدران الهوىٰ وحب الدنيا ورؤية النفس، وفضل ذكر الله سبحانه وتعالىٰ وأنه من أهم وسائل القرب حتىٰ تنجلي مرآة القلب، وتلاوة القرآن بالتدبر والتفكر، وأهمية وجود الشيخ المربي وصفته، ووجوب النصيحة والمحبة لكل مسلم.. ثم ختم الكتاب بأهمية الجهاد في سبيل الله وتمني الشهادة، وأول الجهاد جهاد النفس ثم الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دين الحق وهو الإسلام، ثم قتال الكفار المعتدين وخاصة أن بلاد المسلمين في قبضة هولاء الكفار بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ووقوع أرض المسجد الأقصىٰ في براثن اليهود منادياً المسلمين بتخليصه من كيدهم وفجورهم. وما ورد من آيات في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تحث علىٰ الجهاد بالمال والنفس، وما جاء من أحاديث خير البرية في الجهاد ومن ذلك قوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات علىٰ شعبة من النفاق» رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه» رواه مسلم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

وقوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيل الله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان وتصديق برسلي، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلىٰ منزله الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما منكم من أحد يُكلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كُلِمَ، لونه لون دم، وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق علىٰ المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولايجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل» رواه مسلم عن أبي هريرة.

وتحدث عن أهمية تكاتف المسلمين في صد هجمات الأعداء وعدم الانشغال بمحاربة بعضهم بعضاً كما هو الواقع المؤسف إلىٰ اليوم. وقال أما غزو المسلمين وقتالهم بعضهم لبعض علىٰ الرياسة والملك وحظوظ الدنيا، والعصبية والحمية والقومية والتقدمية والبعثية والرجعية والطائفية والاشتراكية فهو من أكبر الكبائر وأعظم الجرائم، ومن أمور الجاهلية، ولا جاهلية القرن العشرين. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم في خطبة حجة الوداع: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بكر رضي الله عنه.

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لزوال الدنيا أهون علىٰ الله من قتل مؤمن بغير حق» رواه البيهقي عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

وذكر الحبيب أحاديث كثيرة في الباب منبهاً علىٰ خطورة قتل المسلم أو حتىٰ الإعانة علىٰ قتله ولو بشطر كلمة.

ودعا المسلمين إلىٰ التآخي والتواد ومجابهة الكفار أعدء المسلمين الذين تكالبوا عليهم واجتمعوا علىٰ حربهم وتكاثروا عليهم كما تتكاثر الأكلة علىٰ قصعتها.

ثم قال: من استطاع الجهاد وتمكن منه فليجاهد وليبادر ويشمر، ولا يتكاسل ولا يقصر. ومن لم يستطع ولم يتمكن، فعليه بحسن النية في الجهاد وكثرة الدعاء للمجاهدين، وإعانتهم بما يقدر عليه، فقد ورد: «من جهز غازياً فقد غزىٰ ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا، ومن أنفق علىٰ الغازي ولم يغزُ فله بكل درهم سبعمائة درهم» رواه الترمذي والنسائي وأحمد.

وأنهىٰ ذلك المبحث الجليل القدر بأهمية جهاد النفس وهو من أقسام الجهاد التي لا مهادنة فيها، وهو الجهاد الأكبر. وقد قال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «المجاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه»[1] الشق الأول من الحديث رواه الترمذي وابن حبان بلفظ المجاهد من جاهد نفسه. وأما قوله «المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه» فقد أخرجه البخاري والنسائي وأبو داوود عن ابن عمر رضيَ الله عنهما.

وجهاد النفس يحتاج إلىٰ الأهبة والاستعداد بالعلم النافع والعمل

---

(١) انظر تخريجه سابقاً.

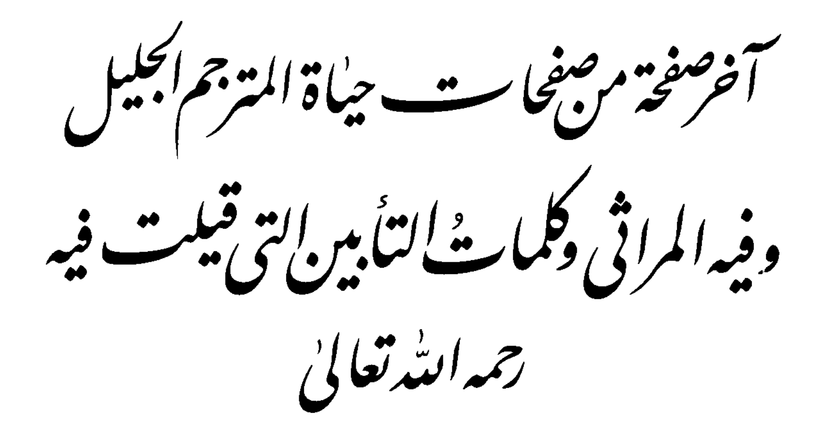
الصالح والاستعانة بالله والاسترشاد بأدِلاّء الطريق الذين يهتدي بهم الحائر ويستنير بهم الجاهل.

وهكذا يُنهي الحبيب أحمد كتابه الفذ بهذ الفصل العظيم الأهمية وهو جهاد النفس وجهاد أعداء الدين من الكفرة والمارقين.

* * *

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات وانتشر في الأصقاع وانتفع به الجم الغفير من الخلائق، وقد قدم للكتاب في طبعته الأولىٰ مفتي الديار المصرية العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف رحم الله الجميع. ثم طبع الكتاب طبعة أنيقة وقام بتخريج أحاديثه الدكتور مصطفىٰ حسن البدوي، كما قام بعمل فذ وهو ترجمة الكتاب إلىٰ اللغة الإنجليزية بأسلوب راق يدل علىٰ تمكنه التام من هذه اللغة وهو عسير، وخاصة أن مثل هذه الكتب تصعب ترجمتها ،ولكنه أحسن وأجاد، فجزاه الله عن شيخه الحبيب أحمد وعن المسلمين خير الجزاء.. انتهىٰ.





آخر صفحة من صفحات حياة المترجم الجليل

وفيه المراثي وكلماتُ التأبين التي قيلت فيه

رحمه الله تعالى

بقي معنا أن نقف بكل إجلال واحترام أمام آخر صفحة من صفحات حياة سيدي المليئة بجلائل الأعمال بعد أن لحق بالرفيق الأعلىٰ في عصر يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر رجب سنة ١٤١٦هـ، وقد ودّعَتْه الجموع الغفيرة إلىٰ مثواه الأخير في موكب مهيب بعد الصلاة علىٰ جثمانه الطاهر في الحرم المكّي الشريف فجر يوم الخميس ١٥ رجب ١٤١٦هـ، حيث دفن في مقبرة المعلاه في حوطة العلويين المشهورة، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته في مقعد صدق عند مليك مقتدر إن شاء الله.

وفي حفل التأبين الكبير(١) الذي توافدت اليه الجموع الغفيرة من كل

---

(١) (فائدة) حول إقامة حفلات التأبين: قال الحبيب العلامة علوي بن طاهر الحداد في كلمةٍ ألقاها في الحفلة التي أقيمت لتأبين رئيس الرابطة العلوية الحبيب محمد ابن عبد الرحمن بن شهاب الدين العلوي رحمه الله المنشورة في مجلة الرابطة الجزء ٧ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٣٤٩هـ: وللتأبين أصلٌ فيما روي لنا عما قاله الإمام علي عليه السلام بعد دفن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وما قاله أمير المؤمنين أبو بكر الصديق رضيَ الله عنه حين دخل علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد وفاته، وهو مشهور، وتأبين علي عليه السلام لأمير المؤمنين عمر رضيَ الله عنه، وتأبين محمد بن علي لأخيه الحسن بن علي عليهما السلام وغير ذلك.

وفي ذلك نشر لمحاسن الأخلاق والأعمال، وحث لذوي الهمم علىٰ الإقتداء والتأسي، وذكرٌ حسنٌ للميت بما عمل، وهو مما ترغب فيه النفوس الشريفة، وقد حكىٰ الله عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في كتابه دعاءه بأن يجعل له لسان صدق فيمن بعده فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وقال =

حدب وصوب. وذلك في اليوم الثالث لوفاته رحمه الله. ألقيت العديد من الكلمات والمراثي.

فبعد تلاوة وختم ماتيسر من القرآن الكريم ألقىٰ الأخ علي بن أحمد مشهور الحداد الكلمة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمدُ لله المنفرد بالبقاء، الحاكم علىٰ عباده بالموت والفناء، لا رادَّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، وهو العليُّ القدير، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد المخاطَب بقول ربه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وبقوله عزّ مِن قائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ألا يا عَينُ جودي بدمْعٍ منك سائلْ   علىٰ ذاك الحبيب الذي قد كان نازلْ
معانا في المرابع وأمْسَىٰ سَفْر رَاحلْ   وأمسىٰ القلبُ والبالُ من بَعْدِه مكدّرْ

إن اللسان لمنعقد، وإن القلب لمكلوم، وقد جفّت الدموع في المآقي، وتجافت الجُنوب عن المضاجع، وأنىٰ للسطور أن تستوعب ما يعتلج في الصدور، وإنه لمصابٌ عظيمٌ وخطبٌ جلل، وثلمةٌ كبيرةٌ ورزءٌ فادح.

= عز وجل في نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩]، وقد فسر ذلك بالذكر الحسن من بعده والصيت الجميل. كما جاء مثل ذلك في إبراهيم وموسىٰ وهارون وإلياس عليهم الصلاة والسلام. انتهىٰ.

لم يكن فقيدُنا فقيدَ الأسرة العلوية والديار الحضرمية فحسب، ولكنّه فقيدُ الأمة الإسلامية.

وما كان قيسٌ هَلْكُه هَلْكَ واحدٍ ولـكنّـه بـنـيانُ قـومٍ تهـدّمـا

لقد كان رحمه الله مثالاً جليلاً لما درج عليه آباؤه المتقدمون، من أخلاق عالية، وعلوم غزيرةٍ وافرة، وولايةٍ ظاهرة، وزُهْدٍ وورعٍ وحياء، ورحمةٍ بالعباد، وقد خدم الإسلام بالدعوة إليه والتفرغ لها حتىٰ كانت شغله الشاغل، ودأبه المتواصل، وأعطاها كلَّ فكْرِهِ وعَقْلِه وقلبه ولسانه، وراثةً نبوية، وخلافةً مصطفوية.

جاب شرق أفريقيا حتىٰ توغّل في أدغالها، وتجشّم مشَاقّ الترحّل في قُرَاها ومُدُنِها، ووعْرِها وسَهْلها، ومخاوفها وما فيها، لا يعرف الملل، ولا يعتري نشاطه كلل، وقد ظهرت ثمرات تلك الدعوة بأن دَخَل في دين الله أفواجٌ من شتىٰ الطوائف والملل، والمعتقدات والنِّحَل، وأرْسَىٰ قواعد أهل السنة والجماعة. جمع أشتات أهْلِ تلك النواحي، وأوجد بينهم التآلف والتراحم والتوادّ، فكانوا جميعاً كالأسرة الواحدة علىٰ اختلاف أعْرَاقهم وتباين ألوانهم وأجناسهم.

ولمّا قصرت به الهمة الجسدية عن متابعة الدعوة والتبليغ، كرّس همه من موقعه في متابعةِ إنشاءِ المدارس، والمعاهد والمساجد، ودعاء إلىٰ استنهاض العزائم من أهل العزائم، في تثبيت هذه الدعائم وإعداد حَمَلتها، ولقد أصبحت تلك المساجدُ والمدارسُ والمعاهدُ معالمَ شاهدةً وآثاراً خالدةً تتحدث عن جهده ذاك.

ولم تَشْغَله مشاغلُ الدعوة والتبليغ عن التعليم والتأليف، فكان يهتبل بعض الفُرَص ليُثري المكتبة الإسلامية بتآليفَ قيمةٍ علىٰ قلتها واختصارها، فله كتاب «مفتاح الجنة»، و «السبحة الثمينة نظم السفينة»، و«المسك الفائح في أحكام الصيد والذبائح»، ورسالةٌ في «مراحل تدوين السنة النبوية»، ورسالةٌ في «تحريم ترجمة القرآن العظيم الحرفية»، وله خُطَبٌ جُمَعية، ومفاهيم قرآنية، ومكاتباتٌ ذات قيمة بينه وبين رجال عصره، وديوانُ شعرٍ يحتوي علىٰ غُرَرٍ من القصائد الدينيةِ والأدبية والاجتماعية بل وحتىٰ السياسية.

ولما بلغ به النشاطُ حداً لا يقْوىٰ معه علىٰ سفرٍ اختار أن يكون له الحَرَمانِ الشريفانِ آخرَ المقرّ.

وكان من أبرز صفاته الاهتمامُ التامُّ بالمسلمين وشؤونهم، وحرصُه علىٰ نشر التعليم واهتمامه بذلك، والحِلم علىٰ الأعداء والسفهاء، والصبر من غير تألم ولا تضجر علىٰ المكاره والأمراض والأعراض، حتىٰ أننا لم نتعرف علىٰ بعض ما به من أعراض وأمراض إلا بمحْض الصدف لشدة ما كان يتكتّم علىٰ ذلك.

وللزهد في حياته مكانٌ كبير، وليس للدنيا في قلبه محلّ، فقد استوىٰ عنده قليلُها وكثيرُها، ولم يلتفت إلىٰ زخرُفها وحُطَامها، فقد عرضَتْ له فلم يُوْلِها اهتمَامَه، وأعطىٰ الناسَ من وقْته ما لم يُعْطه لأهله.

كلّ ذلك بغَرَضِ الإرشاد والتوجيه والتعليم، علىٰ ما كان يكلفه ذلك من مشقة وجهد، حتىٰ صَدَقَ فيه قول الشاعر:

ولا يبالي إقضاضَ مضْجَعِه ... مَن راحَـةُ العالمين في تعبِـه

فسلامُ الله عليه ورحمته من فقيد، ناشئاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وسلام الله عليه حيّاً وميتاً، وألحقه بسلفه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

عليهم سَلامُ الله إن كَانَ قدْ مَضَوا   فذكرُهُمُ باقٍ وقَدْ شَاع في النقْلِ
حياتُهُمُ خيرٌ لهُمْ ومماتُهُمْ   فطُوبَىٰ لهم سادُوا وفاقوا علىٰ الكلِّ

رحم الله فقيدنا وأكْرَم نُزُله، ورفع درجته، وبوّأه أعلىٰ عليين في جنات النعيم، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وعظّم الله أجرَ الجميع.

ولا يفوتني هنا في ختام هذه الكلمة المتواضعة أن أشكُرَ الذين واسَونا ووقَفُوا معنا وشاركونا في مصابنا، فلهم منا العرفانُ ومنَ الله الجزاءُ الأوفىٰ، ونسأل الله أن يجْبُرنا في مصيبتنا، ويلهمنا الصبْرَ والسلوان، وأن نكون له خيرَ خَلَفٍ، وأن يبلّغه عنا دائماً في برْزَخه ما يرضيه عنا، ويعيننا علىٰ ترسُّم خطاه، والسير علىٰ منهجه وهُدَاه، فهو القادر علىٰ ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

* * *

بعد ذلك ألقىٰ الابن عدنان بن علي مشهور الحداد المرثاةَ التي فاض بها وجداني وأَفرزَتْها أحزاني في أحلك ساعاتٍ من ساعات العمر التي مررتُ بها، وهي:

أعينيّ إن لم تسعف اليوم عبرتي   بدمع سخي فالأماني وما فيها
كأحلام يقظان تؤجج مهجتي   فأحسبها لا تستجيب لداعيها
وقد غيبت عنها الأمور ولم تعد   ترىٰ غير ما يبدي الشجون فيحييها

وما في تمادي الدمع رجْعٌ لذاهب   وما في تأسي النفس عَودٌ لماضيها
ومن عرف الدنيا رأىٰ ما يسره   ويبكيه منها في الحتوف تصديها
وما حادثات الدهر إلا لحكمة   فدع حكمة الرحمن تجري مجاريها
كموت الأباة الصيد من كل أَرْوَعٍ   يخوض مفازاتِ المنايا فيطويها
إلىٰ رَحَبات الجود والفضل والرضىٰ   إلىٰ حيث ما تعنو الوجوه لباريها

* * *

نعم هذه يا قلب أقسىٰ رزية   عليك وقد دكت عليك رواسيها
بموت إمام قد فقدت بفقده   السلوّ وحسبي أنني جئت أرويها
ولم أخش بعد اليوم وقع رزية   ولو جف دمع العين وسط مآقيها
وما لاحتمالي للأسىٰ بعد فقده   سوىٰ أمل في الطرس قد خط تنويها
ورجع الصدىٰ لمّا يزل مترددأ   يعبر عما في النفوس فيزجيها
تراجم شتىٰ يعجز الفكر حصرها   علىٰ الطرس أما إن روىٰ سر ما فيها
بكَتْه ربوعُ العلم في كلِّ موطن   لفُقْدان راعيها وغَيبةِ حاميها
وقد نكست أعلام دعوته التي   غدت في بلاد الزنج تجتر ماضيها
مضىٰ طاهر الأردان بالحلم والتقىٰ   وخلف آثار بدت في مراقيها
مسطرةً في صفحة المجد حسبه   متىٰ ما تلوناها عرفنا مباديها
وغاياتها حتىٰ تخال مزونها   تفيض علىٰ جَذْب القلوب فترويها
مظاهرها نيطت بمخبرها الذي   يعيد لنا نبل الخلال ويبديها
وما غاب عنا شخصه برحيله   وما برحت أنفاسه في ترقيها
تعرفنا منه الرعاية خلة   وما جهلت أسبابها ودواعيها

* * *

لـك الله قبـراً قـد ثـوىٰ فيـه سيـدٌ مكـانتـه بـالـروح والنفـس نفـديهـا
لَـو أنَّ المنـايـا والمقـاديـر تُفتـدىٰ ولكنهـا الآجـال لا شـيء يثنيهـا
هي القدر المحتوم والكل سالك علىٰ دربه والله بالفضل جازيها
فيـا نفـس صبـراً فـالعظـات كثيـرة وفقد خيار الناس أقسىٰ معانيها
ويـا أيهـا الغـالـي الفقيـد عـزاؤنـا بفقـدك إيحـاءات لازلـت تسـديهـا
إلينا فعش في جنة الخلد سرمداً وطب في نعيم القرب فوق مغانيها

* * *

ثم ألقىٰ السيد طه بن حسن السقاف المرثاة التالية:

خطـب عظيـم والمصـاب كبيـر بمصاب من هو في الورىٰ مشهور
مـاذا دهـانـا والمصـاب لفـادح ماجت رحاب الأرض دُكَّ الطور
الأمـــر لله العظيـــم جـــلالـــه ارجـع لـربـك فـالحيـاة مـرور
مـا هـذه الـدنيـا لنـا بمنـازل ضعْـنٌ عليهـا والمقـام قصيـر
الله قـد كتـب الممـات وكلنـا لا بـد فـي تلـك القبـور نصيـر
والوقت محجوب وفيه عجائب لا يـدره بطـل ولا نحـريـر
لا مَلِـكٌ يبقـىٰ ولا أنصـاره وجنـوده وكبيـرهـم وصغيـر
كـل يـريـد بهـذه الـدنيـا البقـا والمـوت حـق للجميـع يـزور
والله قـد أخفـىٰ الحِمَـام ولا لـه وقـت ولا يـدري بـه دكتـور
الأمـر للمـولـىٰ وكـل النـاس مـن تحـت القضـاء ومـا لهـم تخييـر
المـوت يختـار الكـرام ويصطفـي منهـم كـرامـاً لـلأنـام بـدور
فلقـد فقـدنـا سيـداً متـواضعـاً تاج المجالس في الجبين النور

قضىٰ الحياة مكافحاً ومجاهداً ... طاف البلاد ولم تهبه بحور
دخلوا إلىٰ الإسلام أعداد به ... لم يحصهم قلم ولا مسطور
سهل الخليقة خاشع متعبد ... حسن الشمائل بهجة ووقور
راض بما يقضي الإله وزاهد ... في هذه الدنيا رضىٰ وصبور
وبصالح الأعمال أرضىٰ ربه ... في كل عام حجه المبرور
قد ساح في شتىٰ البلاد مذكراً ... علم وعقل والمقام شهير
هو أحمد المشهور الحداد من ... نفر كرام للزمان بدور
وبحمد ربي نلت منه رعاية ... نظرات ود والدعاء كثير
ولقد فقدناه ونحن بحاجة ... فقد الرجال علىٰ الأنام خطير
نال المقام هنا وفي الأخرىٰ وفي ... جنات عدن حشوها الكافور

* * *

لله يا مشهور في رجب لقد ... لبيت للداعي وأنت قرير
ستنال موفور الجزاء مضاعفاً ... من ربك الرحمن وهو كبير
ولك الجنان الخلد خير منازل ... بجوار من هو رحمة وبشير
ماذا يقول القائلون وما عسىٰ ... قلم يسيل وشاعر وشعور
الكل لا شيء أمامَ مُصَابِنا ... الخطب الجزيل ودمعنا لغزير
كل البسيطة قد بكتك وكلها ... ثكلىٰ وغاضت أنجم وبحور
فحبيبُنا الحداد نجْمٌ ساطع ... له في قلوب العالمين سرير
ناف علىٰ التسعين كل حياته ... علم وأوراد تقىٰ تذكير

* * *

رحماك ربي فأنت تجبر كسرنا ... جل المصاب وخانني التعبير
ثبت فوآدي إنه في حيرة ... وذهول فكروالفؤاد كسير
يا من ثوىٰ في مكة وتباشرت ... بقدومه الأملاك بل والحور
يلقاك أهلك والبتول ونسلها ... ومحمد المصطفىٰ المنصور
خير الأنام مرحباً ومحيياً ... وخديجة والحيدر المشكور
في نصف شهر الخير في رجب مضىٰ ... حقاً وفاتك نقلة وعبور
في عام ست بعد عشر قد مضت ... ولأربع والألف ذا مزبور
[قمر يغيب هنا] وأسقط باءه ... قد جاء تاريخ له مسطور
كل القلوب تكدرت وتغيرت ... مذ غاب عنا نجمنا المشهور
كل الجموع أتتك طوعاً ترتجي ... نفحات خير والإله غفور
لا شك أرواح أتت وملائك ... قد شاركت جمع هناك غفير
وسكينة ومهابة وجلالة ... علم السعادة هاهنا منشور
حتىٰ السماء بسحبها قد شاركت ... لله يوم والنسيم عبير
كل يعزي نفسه وصديقه ... كل يُعزّي الأهل والجمهور
وانظر وشاهد في الجنازة منظراً ... لله تهليل لهم تكبير
قد ماجت البلد الحرام تكدست ... ساحاتها بشر هناك كثير
ما قد رأينا مثله من منظر ... الله أكبر والدموع غزير
يا ربنا ارحم فقيداً صالحاً ... بسحاب فضلك قبره مغمور
أنزل علىٰ قبر له سحب الرضا ... رحمات فضل والعطاء كثير
والهم بنيه الصبر وأجبر كسرهم ... يا رب يا من بالعباد خبير
واخلفه بالخلف الجميل وكن لهم ... عوناً وفي كل الأمور نصير

وبحـــامــدٍ وعَلِيِّهـــم يــا ربنـــا　　يبقـــىٰ المكـــان بـــأهلــه معمـــور
وكــذا لعــدنـــان نصيــب وافـــر　　يهنـــاه منـــه حظـــه المـــوفـــور
ولأهلـــه وذويـــه والأحبـــاب والأصحـــاب قســـم للجميـــع كبيـــر
واخلفــه يــا مــولاي خيــراً إننــا　　نــدعــوك إنــك بـالجـواب جـديـر
وشيــوخنــا ورجــالنــا علمــائنــا　　نعـــم الــرجــال أئمـــة وصـــدور
وبقيـة فـي العصـر طـول عمـرهـم　　فـــي خيــر عــافيـة عليهـم ســور
فــي صحـــة وســلامـــة ورعــايــة　　يــا رب يــا رحمــن أنــت قــديـر
واعط الجميع مرادهم يا سيدي　　حـــاشـــا نخيـــب وربنـــا لغفـــور
وصلاة مولانا علىٰ خير الورىٰ　　بـــالمعجـــزات مـــؤيـــد منصـــور
وســـلام مـــولانـــا عليـــه وآلـــه　　والصحب ما فلك الزمان يدور

* * *

أما المرثية التالية فهي للسيد عبد القادر بن سالم خرد وقد ألقاها نيابة عنه ابنه السيد عبد الله بن عبد القادر خرد وهي:

فجـــأة أســـدل الظـــلام الستـــارا　　فـــإذا البـــدر خلفـــه يتـــوارىٰ
وإذا النـــاس فـــي ظـــلام كمثـــل　　البهم ترعىٰ الفَلا وتأوي القفارا
يا لهذا المصاب قد ترك الناس　　سكـــارىٰ ومـــا همـــو بسكـــارىٰ
كيف تطوىٰ موائد العلم والناس　　جيـــاع والطـــالبـــون حيـــارى
قد فقدنا بموت أحمد مشهور بن　　طـــه العلـــوم والأســـرارا
كـــان شمســـاً شعـــاعهـــا العلـــم والتقـــوىٰ وبـــدراً للعـــالميـــن أنـــارا
مـــن رأىٰ وجهـــه رأىٰ فيـــه نـــور　　المصطفـــىٰ جَـــدِّه فمنـــه استنـــارا

وإذا سُــرَّ فــاح منـــه عبيـــرٌ   ينعـش الـروح يـذهـب الأكـدارا
يستلـذ الحـديـث بحثـاً وتحقيقـاً   وفقهـــاً ويطلـــب التكـــرارا
يشحذ الفهم بالحديث وكم فضّ   لنـــا مـــن علـــومـــه أبكـــارا
وهـــو فـــي النثـــر والخطـــابـــة أستـــاذ وفـــي الشعـــر آيـــة لا يجـــارىٰ
وإذا مـــا صفـــا الحـــديـــث عـــن القـــوم تجلـــىٰ فيـــأنـــس القلـــب نـــارا
يصطلي الحاضرون منها جميعاً   وعـــن القلـــب يهتـــك الأستـــارا
نفعه عم في البلاد ففي الشرق   وفـــي الغـــرب كـــأســـه قـــد أدارا
وبـــه قـــد هـــدىٰ الإلـــه كثيـــراً   فـــاســـألـــوا كينيـــا كـــذا زنجبـــارا
إن قيـــدون أنجبـــت كـــم إمـــام   وكفـــاهـــا بمثـــل هـــذا افتخـــارا
غـــرســـت، فيهـــم التقـــىٰ أرضعتهـــم   خشيـــة الله فـــاحتســـوهـــا صغـــارا
وإذا مـــا الصغـــار ذاقـــوا ســـلاف   السّـــر صـــاروا بيـــن الأنـــام كبـــارا
هكـــذا هكـــذا تـــرعـــرع حتـــىٰ   صـــار فـــي النـــاس كـــوكبـــاً سيـــارا
بكـــت الأرض والسمـــاء عليـــه   وأســـالـــت دمـــوعهـــا مـــدرارا
وبكـــاه المحـــراب فـــي آخـــر الليـــل   إذا شـــق صـــوتـــه الأسحـــارا
وبكـــاه القـــرآن بـــالفهـــم يتلـــوه   وبـــالصـــوت يخجـــل الأوتـــارا
وبكـــاه الطـــلاب نـــاحـــوا عليـــه   وبكتـــه الـــديـــار داراً فـــدارا
أيهـــا الـــراحـــل العـــزيـــز تمهـــل   قـــد ألفنـــاك تكثـــر الأسفـــارا
ثم تأتي فينعش القلب والروح   لقـــاكـــم ومـــا نطيـــل انتظـــارا
ليتـــك اليـــوم عـــائـــد مثلمـــا كنـــت   فللبعـــد لا نطيـــق اصطبـــارا!
كيـــف غـــادرتنـــا بـــدون وداع   وتـــركـــت الأولاد والـــزوارا؟
هـــل دعتـــك الجنـــان والحـــور فيهـــا   وقصـــور الفـــردوس طـــابـــت مـــزارا؟

أم دعــاك النبــي شــوقــاً وحبــاً ... أم رأيــت الحــداد والمحضــارا!
رحمـــة الله دائمـــاً تتغشـــاك ... فطـــب منـــزلاً بهـــا وقـــرارا
مثلكــم لــم يمــت فــذكــرك بــاق ... وبنــوكــم سيعمــرون الــديــارا
إنهـــم فتيـــة وحسبـــك أن ... الفــرد منهــم قــد صــار فينــا منــارا
حملــوا رايــة الخــلافــة أكْفــاءً ... وداروا مــن حيثمــا الحــق دارا
سيــدي إننــا علــىٰ العهــد بــاقــون ... عســىٰ الله أن يقيــل العثــارا
وعليــك الصــلاة بعــد رســول الله ... تغشـــاك ليلكـــم والنهـــارا

* * *

ثم ألقىٰ السيد محمد بن حسن بن علوي الحداد المرثاة التالية، وهي:

لا تبكــه فعلــىٰ الأحبــة يقــدُمُ ... يلقــاه ثَــمَّ مهــاجِــرٌ ومقــدَّمُ
يلقــىٰ أحبتــه الكــرام أمــامهــم ... خيــر النبييــن الــرســول الأكــرم
لا تبكه فالموت في حَقِّ الأولىٰ ... عملوا بما يرضي المهيمن مغنم
مــا المــوت لــلأبــرار إلا تحفــة ... والسيــد المشهــور أحْمَـدُ منهــم
هــو عــالــم فــذ ألا لا يستــوي ... مــن كــان ذا علــم ومــن لا يعلــم
هــو عــالــم بــالعلــم تلــك مــزيــة ... كبــرىٰ وللعلــم الشــريــف يعلِّــم
لا غَــرْوَ تلــك وراثــةٌ عــن ســادة ... غُــرٌّ بــآفــاق المكــارم أنجــم
آل النبــي المصطفــىٰ الأطهــار مــن ... بمــديحهــم نطق الكتاب المُحْكَــم
عنهــم تلقّــىٰ كــل علــم نــافــع ... يــروي الفضــائــل والمكــارم عنهــم
هــو عــابــد لله مــن قــوم إذا ... جَنَّ الدجىٰ هم في المحارب قُوَّم
هو زاهدٌ حقاً فما استولىٰ علىٰ ... وجــدانــه دينــارنــا والــدرهــم

وإذا امتطىٰ متن التجارة ليس عن طمع، أيجنح للمطامع مسلم؟
لكنه طلب الحلال وعفّة وتصوّن ولذا يطيب المطعم
أحرز رغيفك أولاً ثم انتصب متعبداً هذا الطريق الأسلم
ما سيرة المشهور إلا روضة منها المعارف والهدىٰ تستلهم
كم قام فينا واعظاً ومذكراً يدعو ويهدي للتي هي أقوم
وبه اهتدىٰ الجَمُّ الغفير وكم علىٰ يده الكريمة من أناس أسلموا
هذا هو الشرف الرفيع وذا هو الجاه الوسيع وذا الفخار الأعظم
أخلاقه الحسنىٰ نسيم عاطر صبر وحلم عفة وتكرم
وله الأيادي البيض كم مدت إلىٰ ذي عبرة فإذا به يتبسم
آه علىٰ غصن ذوىٰ آه علىٰ نجم هوىٰ نار الأسىٰ تتضرم
آه علىٰ المشهور لما أن مضىٰ فقلوبنا لوداعه تتألم
ولقد شهدت مراسم التوديع في أم القرىٰ هي للديانة معلم
ماذا شهدت شهدت جمعاً زاخراً كالسيل كالأمواج إذ تتلاطم
ما بين باك خاشع ومهلل ومكبر ومسبح يترحم
ما سر هذا الجمع تلك محبة في القلب عبر عن حقيقتها فم
وإذا أحب الله عبداً ذاع ما بين الأنام ثناؤه لا يكتم
ولئن مضىٰ عنا فقد أبقىٰ لنا كنزاً هو الدر الثمين وأعظم
«مفتاح جنّات» و«مسك فائحٌ» «خُطَب» ودر رائع ومنظم
ولنا عزاءٌ في بنيه الغر مَن سيما المكارم والتقىٰ سيماهم
هم فتيةٌ نشأوا علىٰ التقوىٰ وفي روضات مدرسة الفقيد تعلموا
والإبن سر أبيه تلك بشارة هذي طلائعها تلوح عليهم

لطفاً بني المشهور ها أنذا ومن ... حضروا هنا بعزائنا نتقدم
وتغمد الله الفقيد برحمة ... في جنة في روضها يتنعم
واخلفه يا رباه بالخيرات في ... أهل وأولاد فأنت المنعم
أعظم لهم أجراً وألهِمْهُم على ... ما نابهم صبراً فأنت الملهم
وصلاة مولانا وتسليم على ... خير الورى صلوا عليه وسلموا
والآل والصحب الكرام وتابع ... تمت بخير والسلام عليكم

* * *

ثم ألقى السيد عبد القادر بن حسين بن محمد الحبشي المرثاة التالية :

إلى الله جَلَّ الله أرواحنا ترقى ... إليه مصيرُ الناس لا أحدٌ يبقى
وفي يده كل الأمور بأمره ... يعيش ويحيى من يريد له إبقاء
وما المرء إلا رهن عمر مقدر ... وعما قريب في ثرى رمسه يلقى
ومن عجب يمسي ويصبح منعماً ... يؤمل آمالاً يهيم بذا عتقا
ولم يدر إلا والمنية أنشبت ... فيسمع إنذاراً على بابه طرقا
هلم فقد آن الرحيل فإن تمت ... فقد مات خير الخلق أطهرهم خلقاً
ولكن موت الأكرمين رزية ... وفاجعة عظمى وداهية رتقا
إذا عالم قد مات أوجد فجوة ... ومثلمة في الدين تفتقه فتقا
وتجمد عيْنٌ طالما سهرت على ... بحوث وتحقيق لكي تبلج الحقّا
فتدمع من خوف الإله وتارة ... دموع الرجاء تنهل منها فلا شرقاً
فذا أحمد المشهور قد مات بعد أن ... بنى في العلى مجداً له شامخ المرقَى
بعلم وأعمال وحسن طوية ... وقلب سليم يألف الحُبَّ والصِدْقا
فلطفٌ ونبلٌ في عذوبة منطق ... مكارم أخلاق له صنعت طوقا

لـدَعْـوتـه وقـعٌ وتـأثيـرُ بلْسَـمٍ عتيقٍ فمن إبداعه يجلب الخلقا
وفي صدقه من عزمه قد تكللت مساعيه بالتوفيق واتخذت طرقا
فـأدت إلـىٰ إحيـاء قُطْـرٍ بـأَسْـره بنورٍ فأمسىٰ يلعن الشرك والفسقا
فإفريقيا تبكي الحبيب الذي له بها أعين نَجْلا مدىٰ الدهر لا تُفْقا
وقيـدون تنعـاه وآفـاق دوعـن وفي حضرموت كله أنفسٌ صعقىٰ
وفـي جـدة حـزن عميـق نعيشـه فقـدنـا كبيـراً يـا خسـارتنـا حقـا
أَلِفْنـاه فـي صـدْرِ الـدروس كـأنـه سحابٌ كثيف يكثر الرعد والبرقا
ويمطـرنـا علمـاً ونـوراً وحكمـةً ومن بعده فلننظر البون والفرقا
بنـوه عـزاء والعـزاء بـأنـه لكم سلف أَمَّ العُلا قبلكم سبقا
ففيكم بُذورُ العلم والنور والهدىٰ هنا منبر الأبرار يشتاق من يرقىٰ
أيـا مَلَكـاً رُوحُ الحبيـب أمـانـةٌ لديك عليك اللطف هَوناً بها رفقا
فضعها كما يرضىٰ الكريم بجنة فها هي قد حفت إلىٰ ربها شوقا
وداعـاً أبـا الأشبـال نلـت مثـوبـةً وأمنـاً وأرجـو الله يمنحـك العتقـا
تحـل جـوار الطيبيـن بمنـزل إليك فيأتي الفضل للشوق أو سوقا
ورحمة رب العرش تغشاك دائماً ورضوانه أبشر فيا نعم ما تلقىٰ

* * *

ثم ألقىٰ السيد عبد الرحمن بن داود الجيلاني الكلمة التالية:

الحمد لله الحي الباقي، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد المصطفىٰ وسيد وإمام أهل الصدق والوفاء، وعلى آل بيته الشرفاء الأزكياء، وأصحابه الهداة الأوفياء، وعلىٰ تابعيه بإحسان إلىٰ يوم الجزاء.

أيها السادة الأجلاء السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

وبعد: فقد قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله في «ظلال القرآن» في تفسيره هذه الآيات الكريمات: وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون، والله معهم في كل شأن، وفي كل عمل وفي كل حركة أوسكون، وهم أولياء الله المؤمنون به، الأتقياء المراقبون له في السر والعلن، كيف يخافون وكيف يحزنون وهم علىٰ اتصال بالله، لأنهم أولياؤه، وعَلامَ يحزنون، وممَّ يخافون، والبشرىٰ لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إنه الوعد الحق الذي لايتبدل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السِّيَاق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوىٰ، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب نهي الله عنه، والتقوىٰ فعل المأمور وترك المحظور والرضا بالمقدور».

هكذا يجب أن نفهم معنىٰ الولاية لله، معنىٰ أولياء الله: المؤمنون المتقون، ومنهم ولي الله السيد الإمام أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد باعلوي الحسيني، طيب الله ثراه، وجعل الجنة مأواه، فالحلْمُ خَاشِعُ الطرف لفقده، والفضْلُ مقفَرُ الربْع من بعده، والعلم بوفاته تزعزع معناه، ولو يفدي أحدٌ الموت لافتداه، ولاشك أن المصاب كبير بمن يموت لموته خلق كثير.

لقد كان رضيَ الله عنه من الذين ضموا شرف العمل إلىٰ شرف العلم،

وانتفع بعلمه الكثير من الملأ حتىٰ انتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، إنه رضيَ الله عنه من الذي أحسنوا في القول والعمل، الذين ذكرهم المولىٰ عز وجل في قوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦]. إن الذين أحسنوا هم الذين أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا بالعلم معرفة الصراط المستقيم، لأن الأسباب التي يتقَرَّب بها العبْدُ إلىٰ الله ثلاثةٌ كما قال أَحَدُ العارفين: اعتقاد وعلم وعمل، فبالاعتقاد تصح العبادة، وبالعلم ترفع الدرجات، وبالعمل تحصل المقامات، ووراء ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، وموهبة يمنحها من يشاء من عصاته وعباده، وهي بالسابقة تنال وعلىٰ الخاتمة تحال، يبلغها العبد تارة بالأعمال وتارة بالإفضال، فمن نالها بالأعمال فهو السالك المنصوب، ومن نالها بالإفضال فهو المصطفىٰ المجذوب.

وللسالك علىٰ المجذوب مزية السلوك، ومعرفة آداب الملوك، والوقوف عند حد المملوك.

هكذا كان سيدنا الإمام أحمد مشهور الحداد رحمه الله فقد كان ممن نالها بالأعمال، وكان السالكَ المنصوبَ في عتيم الليال، ممن عناهم المولىٰ عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨]، تغمده الله برحمته الواسعة وبوأه من مقر الرضوان منزلة رفع بها عبداً أخلص في العمل آمين.

وإني أستأذن أبناءه الكرام أطال الله أعمارهم بأن أقتبس نبذة من ترجمته رحمه الله مما جاء في مقدمة كتابه مفتاح الجنة من النسخة المباركة التي

أهدانيها وكتب عليها بخطه الجميل: تذكرة للأخ الأمجد عبد الرحمن بن داود الجيلاني، وإجازة بما في هذه الرسالة من مباني ومعاني، وصلات بين الإمامين الحداد والجيلاني نسأل الله تحقيقها علىٰ أكمل حال آمين.

أجل إنه السيد العلامة أحمد مشهور بن طه بن علي بن عبد الله الحداد العلوي الحسيني. ولد ببلدة قيدون، بوادي دوعن حضرموت عام ١٣٢٥هـ وبها نشأ وترعرع في بيت من بيوت العلم والصلاح مفتتحاً مبادئه العلمية تهذيباً وتثقيفاً علىٰ كثير ممن كانوا أمثلة تحتذىٰ في التربية والتأديب، وقدوة صالحة في التوجيه والإرشاد وكانت أمه الصالحة السيدة صفية بنت طاهر بن عمر الحداد المدرسة الأولىٰ له رعاية ودراية، فقد كانت من الأمهات القلائل اللاتي ضن الزمان بمثلهن، حصانةً وفضلاً، وكانت أول من أخذ بسمعه لتروي له في أسمارها قصص الذين أدركتهم من أئمة العلم، وأساطين الصلاح، وكأنها ولسان حالها ينشد ماقاله جدها الامام عبد الله بن علوي الحداد:

أولئك قوم قد هدىٰ الله فاقتده ... بهم واستقم والزم ولا تتلفت
ولا تعد عنهم إنهم مطلع الهدىٰ ... وهم بلغوا علم الكتاب وسنة

وأما شيوخه في حضرموت فمن الذين قيل فيهم:

أولئك الناس إن قلوا وإن كثروا ... ومن سواهم فلغو غير معدود

وفي طليعتهم السيد العلامة الداعي إلىٰ الله الحبيب عبدالله بن طاهر الحداد وأخوه الجهبذ الحبر علوي بن طاهر الحداد، وعليهما كان جل انتفاعه وتلقيه في معهد الرباط الذي أسساه ببلدة قيدون سنين عديدة، ومنهم عمدة السلف السيد الإمام الحبيب صالح بن عبد الله الحداد، وقدوة الخلف

السيد أحمد بن محسن الهدار، كما سمع من الإمام الكبير أحمد بن محسن العطاس رضي الله عنهم أجمعين.

هاجر في عنفوان شبابه إلىٰ جاوه (إندونيسيا) للاستزادة والتلقي عن شيوخ أجلاّء حطّوا بتلك الديار، ولم يدم بها طويلاً حتىٰ عاد أدراجه إلىٰ الوطن. ومع ما توفر فيه من النضوج العلمي والعبقرية المبكرة كان مستديم التلقي عن شيوخه ليلاً ونهاراً، فعرفه الوادي عالماً أديباً دائباً علىٰ الإفادة والاستفادة، ومكث ما طاب له المكث بموطنه قيدون، ينهل من معين العلم ويستفيد من العلماء ذوي الفضل والصلاح حيناً ويفيد حيناً حتىٰ بارحها بعد تخطيه دور الشباب إلىٰ إفريقيا الشرقية، ولقد هدىٰ الله به خلقاً كثيراً فأسلم علىٰ يديه الجم الغفير من الوثنيين والمسيحيين، وقد اشتهر صِيتُه في آفاق تلك الأقطار ورُشِّح للقضاء العالي فرفضه.

ولقد عاصر أحداثاً وتيارات عقائدية عنيفة، اجتاحت تلك الديار واستهدفت زعزعة العقيدة الإسلامية في النفوس، وطَرْد الإسلام خارج الأسوار، فهب ينافح ويذود عن العقيدة الإسلامية مستخدماً ما وهبه الله من ذخيرة علمية واعية، وعقلية ناضجة لتثبيت هذه العقيدة، ليمكِّن أَتْباعها من الذود عن حِياضِها بعد أن أُشرِبت نفوسُهم بها بفضل الله أولاً ثم ببسطه لحقائق الإسلام ومعارفه للمسلمين هناك. رحم الله سيدنا الإمام الحبيب أحمد مشهور الحداد فقد كان رضيَ الله عنه جَمَّ المناقب، صادقَ المحبة عالي الهمة محبوباً من الجميع وارثاً للأخلاق العلوية المحمدية داعياً إلىٰ الله بالعلم والعمل بالحكمة والموعظة الحسنة.

تغمده الرحمن بالعفو والرضا   وأكْرَم مثواه الجديدَ وقدَّسا

فإنا لله وإنا إليه راجعون، تسليماً لأمره واستسلاماً لحكمه، ورضاءً بما قدّره في عالم غَيبه، وهو سبحانه المسؤولُ أن يولينا وأبناء الفقيد الأعزاء سعة الصدر، ويمنحهم نعمة الصبر وجزيل الأجر وأن يجعل لهم حسن الرضا والتسليم وسيلة للفوز بالثواب العظيم.

والله سبحانه مع الصابرين والحمد لله رب العالمين وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد الصادق الأمين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

بعد ذلك ألقىٰ الشيخ محمد عوض جبران المرثاة التالية:

يـا إلهـي ومـن إليـه مصيـري ... ولـه الحكـم فـي جميـع الأمـور
سـاعـة فـي رحـاب أهـل النـور ... تعـدل العمـر فـي الهنـا والسـرور
غيـر أن الحيـاة فيهـا المنـايـا ... لـم تـدعنـا فـي فَرْحِنـا والسـرور
حكمة الله قد قضت في البرايا ... فتسـاوىٰ كبيـرهـم بـالصغيـر
فـأتـىٰ الإختيـار فـي خيـر فـذ ... دوحـة العلـم أحمـد المشهـور
الشهـاب الـذي تسـربـل نـوراً ... وارثـاً فيـه للبشيـر النـذيـر
نـور علـم يعلـوه نـور صـلاح ... مـالـه فـي زمـانـه مـن نظيـر
غـاب عنـا وكلنـا فـي احتيـاج ... كـاحتيـاج الفكـاك عنـد الأسيـر
غـاب نجـمٌ بـل قـد تغيَّبَ بـدْرٌ ... نسبـاً ينتمـي لبَـدْر البـدور
قـد عـرفنـاه مـن ثـلاثيـن عـامـاً ... تـمَّ فيهـا المنىٰ بشَـرْح الصـدور
وسقـانـا كـأس المحبـة صـرفـاً ... فسكـرنـا بـه بغيـر خمـور
كـم أزاح الغشـاء عـن مشكـلات ... فـي أمـور التـوحيـد بـالتقـريـر

فـأحـل اليقيـنَ مطْـرَحَ شَـكٍّ … بـدليـلِ الحـديـث والتفسيـر

يـا لهـا مـن مجـالـسٍ عـامـرات … كـان فيهـا مثـل السـراج المنيـر

نجتنـي مـن كـلامـه ثَمَـرات … مـن جنـىٰ علمـه الـوسيـع الغـزيـر

كـم بـه قـد هـدىٰ الإلـه أنـاسـاً … فـي أوغنـدا أزاح للتبشيـر

عشـراتُ الآلاف تُسلِـمُ طـوعـاً … مُـذْ دعـاهـم إلـىٰ الهـدىٰ والنـورِ

وكتـاب «المفتـاح» شـاهـدُ حـالٍ … فهـو مفتـاحُ سـره المستـور

ذاك سـرالإخـلاص فـي دعـوة النـاس بـالحـق للعـزيـز القـديـر

والفقيـد العـزيـز ضيـفُ كـريـمٍ … محسـنٍ منعـمٍ رحيـم غفـورِ

فـي أمـان ينـزلُـهُ جنـات عـدن … فـي ثيـاب مـن سنـدس وحـريـر

ذاك ظنـي والظـن فيـه جميـل … وهـو عـونـي وملجئـي ونصيـري

ولنـا فـي بنيـه خيـر عـزاءٍ … يقتفـوا إثـره بغيـرغـرور

بـارك الله فيهـمُ وهـداهُـم … وتـولاهُـمُ بخيـر كثيـر

تلـك مـرثيتـي ومـا قلـت فيهـا … إنمـا قلـت معـربـاً عـن شعـوري

فـإذا قـد بـدت بشكْـلٍ ضعيـف … إنمـا ذاك نـاتـج عـن قصـوري

وصـلاتـي مـع السـلام علـىٰ طـه … شفيـع الأنـام يـوم النشـور

وعلـىٰ الآل والصحـابـة جمعـاً … عـدد الـرمـل والحصـىٰ والبـذور

* * *

وهذه مرثاة شاعر طيبة وآل البيت الشيخ محمد ضياء الدين الصابوني عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية: قدم لها بكلمات موجزة ثم قال:

دع العينيـن تنفجـر انفجـارا … ونـارَ الحـزن تسْتَعِـرُ استعـارا

علىٰ شيخ المكارم والمعالي ... بموتك قد رأينا به اعتبارا
علىٰ سيدي [الحبيب] وأي قلب ... لهول الخطب ما انفطر انفطارا
علىٰ المشهور من أحفاد طه ... فقلب المؤمنين قد استّطارا
وهذي مكة تبكيك حزناً ... وترسل أدمعاً حَرَّىٰ غزارا
لعمري إنه خطب جليل ... وقد أضحى الجميع به حيارىٰ
عرفتك داعياً حراً أبياً ... وفي الإخلاص حقاً لا تجارىٰ
عرفتك واعظاً شهماً كريماً ... وفي صدق المقالة لا يبارىٰ
شهدت له مواقف صادقات ... ويجهر في مباديه جهارا
وكم لك في الفضائل من أياد ... وقد أمسى بدعوته منارا
وفي [كينيا] له أثر كبير ... كما شهد الأعادي والنصارىٰ
وكم أحيت مجالسه قلوباً ... أزاحت عن عيونهم الغبارا
وكم لك من مواعظ بالغات ... كأن الدر ينتشر انتشارا
إذا ما قيل من رَجُلُ المعالي؟ ... أشاروا بالبنان لك افتخارا
أرىٰ فقد الحبيب يثير حزناً ... ويبعث في الأضالع منه نارا
[أبا علي] تبكيك المعالي ... ولم نر في العزاء لنا اصطبارا
فقدنا فيك أستاذاً عظيماً ... وكنزاً في المعارف لا يبارىٰ
فقدنا فيك داعية كريماً ... يخوض بكل معركة غمارا
وهذا الحشد يشهد فضل شيخي ... ويبكي فيه آمالاً كبارا
عرفنا أحمد المشهور بحراً ... وبالإخلاص يفتخر افتخارا
وكنت مشجعي في مدح طه ... و آل البيت مما لا يمارىٰ
وضيفك أكرم الأضياف طراً ... ودارك أكرم الأبيات دارا

فصبراً يا عليّ علىٰ مصاب ... أليم فالفؤاد له استثارا
تغمده الإله بفيض عفوٍ ... وعمك غفْره ليلاً نهارا

* * *

ونظراً لضيق الوقت لم يتمكن بعض الأحباب الأعزة الكرام من التعبير عن مشاعرهم ومشاركتهم في هذا الحفل المهيب بما لديهم من مراثي شعرية لا يفوتنا أن نلحقها بكل ماقيل في ذلك الحفل تقديراً لحبهم الصادق ومشاعرهم النبيلة ومواساتهم الصادقة، منها مرثاة سيدي الحبيب الفاضل عبد الله بن محمد الصادق الحبشي اخترنا منها الأبيات التالية:

الموت يهدم ما الآمال تبنيه ... لا بد منه وفيها العمر نفنيه
مات ابن طه إلىٰ طه له نسب ... قد ساد بل فاز من في القوم يحكيه
أحمد أبو حامد المشهور من كملت ... له المفاخر مَن فيها يضاهيه
دعاء إلىٰ الدين في إفريقيا فغدت ... للدين صولة حق بين أهليه
هذي مدارسه هذي مجالسه ... قد أينعت فالثمار الآن نجنيه
ثم الصلاة علىٰ طه وعترته ... والآل والصحب من أحيوا معانيه؟

* * *

ثم مرثاة الأخ الحبيب الشاعر عبد القادر بن حامد بن علوي البار قَدَّم لها بقوله: قلتها رثاء لفقيد الإسلام الحبيب الإمام أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد وقدمتها عزاء لأبنائه الأماجد رعاهم الله وجعل فيهم الخلافة، وصفىٰ لهم السلافة:

الخطب جفت له الأقلام والكلم ... وكيف يسطيع نطقاً من به بكَمُ

والرزء هز الورىٰ جمعاً وأزعجهم   في حضرموت وفي إفريقيا ألم
وفي الحجاز مناحاتٌ عليك أبا الساداتِ يا ويْحَها قد هدَّها السقم
جميعهم عرفوا في أحمد مثلاً   للصالحات ونبراساً يضيئهمو
منذ الصبا وعنايات الإله به   محفوفة وله الغايات تبتسم
وفي الشباب تعالىٰ الله مانحه   رأىٰ الحقيقة فانجابت له الظلم
وفي المدارس عن قوم جهابذة   نعم الكرام هم القوم الذين هم
فكم سقوه رحيقاً من معارفهم   وكم علىٰ قلبه قد فاضت الحكم
حتىٰ غدا كخضم ملؤه درر   وبات تقصده الأعراب والعجم
وكم هدىٰ الله بالحداد من بشر   إلىٰ الحنيفة لما أسلموا سلموا
في الغرب في الشرق في إفريقيا هرعوا   إليه يلتمسون الغنم فاغتنموا
لله أنت أبا الأشبال من رجل   حوىٰ العوالم فهو المفرد العلم
قضيت عمرك في علم وفي عمل   وفي اجتهادات من تعلو به الهمم
حتىٰ بلغت مقاماً لا يطاوله   إلا الذي عرفته الحل والحرم
أولئك القوم يا ابن الأكرمين رعوا   حماك واستمطرتْ مغناك مزنهموا
فعشت فينا كما يرجون مقتفياً   آثارهم وعلىٰ منهاج ما رسموا
وفي رياضك كم ذاق الذين هدوا   من الثمار وكم نالتهم النعم
جئنا نقدم للأشبال تعزية   وكلنا في مصاب الليث نقتسم
وفي محاجرنا دمع يسح كما   سح الغمام وفي أحشائنا ضرم
صلىٰ عليه إلٰهي كلما لمعت   برق وما هطلت من مزنها الديم
وآله الغر هم أهل الكساء ومن   قد أنزل الله وحياً في مديحهم
وصحبه نعم صحب المصطفىٰ عمد الإسلام في السير ما زلَّت بهم قدم

ويليها هذه المرثية للأخ السيد الأديب الشاعر حسن بن عبدالله السقاف استهلها بقوله:

عيون العلم أدماها النحيب ... وجرَّح قلبَه الخطبُ الرهيبُ
وصرْحُ الدين مُنْصَدعٌ بِناه ... ولم يُلْفَ المُواسي والطبيب
ودعوة ملة الإسلام تبكي ... فلم يُجْدِ البكاء ولا النحيب
ألمّ بساحة الإسلام خطب ... لهول مصابه تُنسىٰ الخطوب
توارت في حنايا القَبْر شمْسٌ ... بِها كم للهدىٰ سارت شعوُبُ
وكم فُتِحَتْ قلوبٌ مقفلات ... فأعشب من سنىٰ الفتح الجديب
فيا لله شمسٌ غيبوها ... بلحدٍ كان مثواها القلوب
قضاء الله! ما حيٌّ بباق ... وما في الكون شمس لا تغيب
تولىٰ أحمد المشهور عنا ... ونادانا فمن منا المجيب
ألا هذي طريقي فاسلكوها ... ففيها النجح والفوز القريب
بكُنْه العزم والهمم العوالي ... وجِدٌّ ليس يعروه لُغُوب
ألا فالخيرُ كلُّ الخيرِ فيها ... وفيها العلْمُ مرْتَعُه خصيب
وفيها النورُ والأسرار جمْعاً ... يحُوزُ لها المؤهَّل والمنيب
مِلاكُ الأمْر فيها العلم يُسقىٰ ... بماء الصبر والسير الدؤوب
وتصفية الفؤاد عن الدنايا ... وعن فانٍ مسرته كروب
وحب للخلائق أين كانوا ... بعيدهم سواء والقريب
وفي التقوىٰ السلامةُ فالزَمُوها ... فشأْنُ أولي التقىٰ شأن عجيب
علىٰ النهج السويِّ ألا فسيروا ... علىٰ آثار من سلفوا وثوبوا

أجَلْ هـذي الطريـقُ وما عَدَاها ... وإن مَـلأَ الـدُّنـا بَـرْقٌ خَلُـوب

مضـىٰ الحـداد ليـت يـدَ المنـايـا ... تكـفُّ وللعـدا أبـداً تصيـب

قضـىٰ التسعيـنَ عَـامـاً فـي جهـادٍ ... وصبْـرٍ لا تـزعْـزعُهـا الخطـوب

عـن الأوطـان نـاءٍ فـي ثبـات ... بـأفـريقيـا وأهليهـا غـريـب

وأمضـىٰ العمـر لـلإسـلام داعٍ ... يطـاوع مـن لـه قلـب منيـب

بحكمـة مـؤمـن وبحسـن وعـظ ... وحـب مـالـه أبـداً نضـوب

خلـي عـن معيـن أو ثـراء ... بـه تشـرىٰ الضمـائـر والقلـوب

فـأسلمـت الألـوف علـىٰ يـديـه ... وأضحـىٰ بينهـم نعـم الحبيـب

وفـي الحـرميـن إذ ألقـىٰ عصـاه ... [وجدة] إذ هنا المرعىٰ خصيب

بـه انتفـع العبـادُ فكـان غيثـاً ... بـوابـل وذْقِـه تحيـا الجـدوب

أيـا سـارٍ لمكَّـةَ أبلِغَنْـهُ ... بـأن الأُسْـد فـي المشـوىٰ وثـوب

بكـل العـزم والتصميـم قـامـوا ... لهـم فـي كـل مكـرمـة نصيـب

عليـك الله صلـىٰ بعـد طـه ... وآل مـا تـرنّـم عنـدليـب

* * *

وألقىٰ فضيلة الحبيب العلامة محمد بن أحمد الشاطري الكلمة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين:

سأقول كلمة بكل اختصار بقصد البركة، ثم سيتكلم الدكتور الداعية حبيبنا محمد بن علوي المالكي، ويكون ختامه مسك.

فأقول: الحمد لله الذي لا يحمد علىٰ مكروه سواه، العين تدمع ويحزن القلب، ولانقول إلا ما قاله الصابرون: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وإنا عليك يا أحمد لمحزونون، هكذا قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لما توفي ابنه إبراهيم.

نقول: ما قاله الإخوان جزاهم الله خيراً، مما قاموا به إنما هو شيء من الواجب نحو حبيبنا الفقيد الحبيب أحمد مشهور الحداد، كل ما قالوه إنما هو من بعض الواجب، ولا يفي ما قالوه بمقدار ما لهذا الإمام العلامة الذي فقدناه رحمة الله عليه، ولايسعني إلاَّ أن أدعم كلامهم هذا بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، فنستفيد منها، وتعود علينا بركاتها وبركات الحبيب.

ربنا يقول في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]، والآية الأخرىٰ التي ذكرها بعض الأخوان وفسرها: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، ويقول ربنا جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، هذه الآيات كلها ـ إن شاء لله ـ تنطبق علىٰ فقيدنا كما انطبقت علىٰ آبائه وأجداده من أهل البيت الطاهر وعلىٰ كثيرمن علماء وأولياء المسلمين.

وكذلك هُناكَ أحاديثُ تدلُّ علىٰ الخيرية، تنطبق ـ إن شاء الله ـ علىٰ حبيبنا أحمد المشهور الحداد رضي الله عنه ونفعنا بسره، فرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»، هذا الحديث

ينطبق علىٰ حبيبنا، من تعلم القرآن بصدق وإخلاص وعلَّمه، فعلينا أن نحفظ هذا الحديث وما هو إلا بضع كلمات.

وكذلك قول رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «خيركم أحسن أخلاقاً»، وفي رواية: «أحاسنكم أخلاقاً»، وقد عرفتم الفقيد وأخلاقه العالية الكريمة، التي تؤثر حتىٰ علىٰ من حواليه. وتأثير هذا ظهر واضحاً في أفراد أسرته، وفي طلبته وفي كل من حضر مجالسه وتعلق به.

ورسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أيضاً يقول: «خيركم من طال عمره وحسن عمله»، وحبيبنا طال عمره، فقد ناف علىٰ التسعين، وكل التسعين مرت في علم وعمل وتقىٰ ونشر الدعوة إلىٰ الله، ومن أعظم ماقام به هو أنه نشر الدعوة في أفريقيا وأسلم علي يديه خلق كثير.

ورسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول للإمام علي رضي الله عنه: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، حُمُر النَّعَم أعز أموال العرب، ولهذا قال لهم ذلك لأنهم أناس ينظرون إلىٰ اللب، وينظرون إلىٰ. . . وينظرون إلىٰ المعنىٰ عكس ما نحن فيه الآن إنما ننظر إلىٰ المادة، المادة فقط، وفقط المادة.

فهل من معتبِر، ونأخذ لنا عبرة من هذا بهذا الحديث، ومن كل حديث، فلا يكفي أننا نقوم ونحدث ونتكلم ونجتمع فقط، هذا شيء حسن، ولكن المقصود والمطلوب التأسي والعبرة. ورسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقول: «تركت فيكم واعظين ناطق وصامت، الناطق كتاب الله، والصامت الموت»، ويقول الإمام علي رضيَ الله عنه: «ما رأيت يقيناً لا شكَّ فيه، أشْبَهَ بشكٍ لا يقيناً في مثله» الموت هو يقين، ولكننا نعامله معاملة الشك، فهو

أشبه بشك لا يقين فيه، مع أنه يقين لا شك فيه. فعلينا أن نعتبر، ويقول أيضاً رضيَ الله عنه: «من مات قامت قيامته» ويقول أيضاً: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وأخذ هذا المعنىٰ الشاعر حيث يقول:

العيــش نــوم والمنيــة يقْظَــةٌ والمـرء بينهمـا خيـالٌ سـاري

نسأل الله جل وعلا أن يلهمنا الصبر، وأن يدُلَّنا علىٰ ما فيه فلاحنا ونجاحنا وأن يتغمد الفقيدَ برحْمته الواسعة، وأن يخلُفَه بخلف صالح، ونعزي فيه الأسرة الحدادية، ونعزي معهم جميع إخواننا، بل نعزي فيه الأمة الإسلامية لأن مصابه مصاب رضي الله عنه وأرضاه، والعفو إن أطلت بعض الشي. والآن سيتكلم فيكم حبيبنا محمد بن علوي المالكي.

* * *

وقد اختُتِمَ الحفْلُ بكلمةِ فضيلة السيد محمد بن علوي المالكي هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله سيدنا ومولانا محمد، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه:

أما بعد: فقد تفضّل شيخنا وإمامنا سيدي الحبيب محمد بن أحمد الشاطري حفظه الله وفي كلمته الجليلة ما يحثنا به جميعاً، وهو أن مثل هذه الجلسة ومثل هذه الكلمات والقصائد لا تفي بحق سيدنا وإمامنا الإمام العظيم الحبيب أحمد مشهور الحداد، وإنما هي فترةُ تعبير، لأنني أحث ويحث جميع من معي من طلبة العلم الذين عرفوا بعض الشي عن هذا السيد الإمام

أنّ مناقِبَه وفضائله وتاريخَه هو تاريخٌ للدعوة الإسلامية في خمسين سنة أو ستين أو سبعين أو ثمانين علىٰ قدر ما أمضاه فيها، في إفريقيا وفي حضرموت وفي الحرمين الشريفين وفي البلاد التي تنقل فيها.

الذي يريد أن يتكلم عن سيدنا ومولانا الحبيب أحمد في مناقبه وفضائله وماله من الحسنات والخيرات والبركات، وماله من المآثر وماله من المشاهد، هو يؤرخ لفترة من الزمن من عمر الدعوة الإسلامية، من تاريخ الدعوة الإسلامية، السنوات التي قضاها في إفريقيا الشرقية والمناطق المجهولة والبعيدة عن الحضارة والمدنية والتقدم وعن الرفاهية. البعيدة عن الأهل والوطن، التي قضاها هناك في الدعوة إلىٰ الله بجهده واجتهاده، ليس معتمداً إلاّ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، لا يكفله أحدٌ ولم يبعثه أحد، وليس حسابه إلا علىٰ الله. الدعاة يذهبون إلىٰ تلك البلاد، والرسل تذهب إلىٰ تلك الأماكن لكنهم يذهبون بأمورٍ معلومة معدودة محدودةٍ مضمونة مختومة يعرفها كل من عرف هذا الباب.

أما هذا الإمام العظيم، فإنه كان هناك بجدِّه وكسبه واجتهاده، معتمداً علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ثم علىٰ عمله، وهو بهذا يحقـق أموراً كثيرة الناس عنها في غفلة، منها وهو أهمها أن منهج سادتنا وأئمتنا من السادة آل باعلوي خصوصاً، ومن مشايخنا عموماً، هو الولاية والصلاح في الطريق، هذا لا شك فيه، الله سبحانه وتعالىٰ ميزهم بهذا الذكر والولاية، وصفاء النفس وغير ذلك من الأمور الروحية، زيادة علىٰ ذلك الدعـوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ والخروج في سبيل الدعوة إلىٰ الله، والاجتهاد في سبيل ذلك، لأننا نسْمَعُ أشياء كثيرة يقولها من يقولها ويدعو إليها من يدعو إليها ممن نسمع، ممن

يدّعي، هذا الجانب أهمله كثير من الأئمة، وكثير من العلماء وكثير من الكبار العظماء الذين نفتخر بهم، والذين لهم الأثر الكبير في الدعوة الإسلامية.

فهذا سيدنا الإمام أحمد مشهور الحداد رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، بتاريخه واجتهاده وجهوده ورحلاته، يحقق بهذا حقيقة عظيمة كبيرة، هذه الحقيقة العظيمة الكبيرة، هي أن هؤلاء الأئمة هؤلاء السادة، هؤلاء الكبار هم أهل الدعوة إلىٰ الله، هم خلفاء السلف، هم الذين حاربوا البدع، هم الذين نشروا الإسلام، هم الذين أمروا بالمعروف، هم الذيم نهوا عن المنكر، من أدخل الإسلام إلىٰ إندونيسيا؟ من أدخل الإسلام إلىٰ إفريقيا؟

كم عَمر مجالسنا، وكم عَمَرَ قلوبنا بلا إله إلا الله، وكم دعا إلىٰ الله، وكم أرشد إلىٰ الله وكم بيَّن وكم فهَّم وكم أوضح؟ وكم وعظ؟ كل هذه الصفحات العظيمة هي قلائد ودرر في جبين الدهر. هيَ قلائد ودرر وصفحات عظيمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، يبين بهذا حقيقةً عظيمة أن هؤلاء الأئمة، هؤلاء الكبار، هؤلاء العظماء، هؤلاء الساده، بالأخص في ساداتنا آل أبي علوي هم أهلُ الدعوة، وهم السلفُ الصالح، وهم الذين كانوا أول من جهروا بالدعوة إلىٰ الله في تلك البلاد. ذهبوا إليها ودَعَوا إلىٰ الله هناك، وفتحوا المدارس في إفريقيا وفي اندونيسيا وعاشروا مشاهد كثيرة.

فأرجعُ وأقول: إنَّ تأبين مولانا الحبيب أحمد المشهور الحداد هو تاريخ الدعوة الإسلامية، هو تاريخ جهاد كبير عظيم، هو تاريخ فترة من الزمن ينبغي أن تكتب وأن تؤرخ وأن يُذكر فيها مواقف عظيمة كنا نسمعها منه، وكان الناس لا يبجلون إلا من وفقه الله سبحانه وتعالىٰ، كانت له مواقف عظيمة هناك، نسمعها منه في مجالسه وفي مذاكراته وفي حضراته إذا اجتمع

في مكة المكرمة مع ساداتنا العلماء، ومنهم سيدي الوالد، ومولانا الشيخ محمد نور سيف، والشيخ حسن مشاط، وحسن يماني، والحبيب حسن فدعق، والحبيب عبد القادر البار، جميع هذه الطبقة من العلماء الكرام. . . كانوا إذا اجتمعوا مع هذا الحبيب يسألونه أن يحدثهم عما لقي هناك، وعن جهوده هناك، وعن مواقفه هناك، وكان يتكلم بالعجب رضي الله عنه وأرضاه.

فهذا الإمام العظيم مثال، رضي الله تعالىٰ عنه، لأنه جمع مع الولاية والصلاح والإمامة وبما هو فيه مما منحه الله تعالىٰ، جمع إلىٰ ذلك حبه للعلم والتقاءه بالرجال، فأخذ عن ساداتنا من علماء حضرموت واستجاز منهم، وإسناده في ذلك عالي، إنه يروي عن سيدنا الحبيب أحمد بن حسن العطاس كما أخبرنا في مجالسه وكان يطلب منه سيدي الوالد علوي إذا حضر في مجالس أن يقرأ الفاتحة وأن يجيز فيها إخوانه، وأن يقرأها كما سمعها من الإمام الحبيب أحمد بن حسن العطاس، فيقرأ ويجيز، ويقول لهم السيد علوي: افرحوا، هذا سندٌ عالي، بينكم وبين الحبيب أحمد بن حسن واسطةٌ واحدة. وهذا قد لا يقع في مثل هذا الوقت لأن أكثر الناس يتصلون بالحبيب بواسطتين أو بثلاث، فكان يقول: أجِزْهم، واقرأ لهم الفاتحة يا حبيب، ويقوم ويقرأ مع تواضعه، ومع امتثاله وحيائه الذي ميزه الله تعالىٰ به، وهو سمة العلماء الكرام، رضي الله عنهم.

مع هذا جَمَع الأخْذَ عن الكثير من مشايخ العالم الإسلامي، وهو يروي عن علماء الحرمين الكبار، الذين أدركهم أو كاتبهم أو راسلهم ممن ذكرهم في إجازاته، وهذا أيضاً موجودٌ في إجازاته ومكاتباته ممن استجازهم، فإنه يروي عن كثيرمن علماء المغرب ومصر التقىٰ بهم في الحرمين وأخذ عنهم،

وينبغي أن يكون هناك ثبت أو فهرست بأسانيده، لأنه يروي عن كبار وأئمة من الرجال العظماء.

أيضاً مسألة أخرىٰ؛ وهو أنا لمَّا حضرنا تشييع جنازته في مكة المكرمة وخرج ذلك الموكب العظيم مع التسبيح والتكبير، وكان الهتاف: (لا إله إلا الله)، فكان بعض الناس يتعجب، لأن مثل هذا قليل ما يحصل، قلنا له: هذه كلمة (لا إله إلا الله) هي التي دعا إليها طول حياته فحملته الآن من الحرم إلىٰ المعلىٰ، والجميع يصيحون تحت جنازته: (لا إله إلا الله، لا إله إلا الله) كم جاهد في سبيلها، وكم لقنها، وكم أرشد إليها، وكم عمر بها المجالس، وكم أطلق بها الألسنة، وكم أدخل فيها من أدخل فيها، كانوا في تلك البلاد وغيرها، هذه (لا إله إلا الله) هي التي كانت معه في نعشه، وكانت معه في تشييعه، وكانت معه إلىٰ مدفنه في قبره، رضي الله تعالىٰ عنه.

والمهم يا إخواني ويا أحبابي ويا سادتي أن هذا الإمام العظيم الكبير الجليل الذي فقدناه ولا نزال نفقد، ولا يزال الموت يختار الجياد كما قال المتنبي:

والموت نقاد علىٰ كفِّه   جواهر يختار منها الجياد

وهو مصداق ما جاء في الحديث عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم «إنه يعجّل بخيارنا».

والحبيبُ أحمد قد تحققّتْ فيه أحاديث وآيات كثيرة أشار إليها سيدنا وشيخنا الحبيب محمد الشاطري حفظه الله، ومنها الحديث المشهور الذي أخبر به المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله

إلا من ثلاث، الولد الصالح الذي يدعو له، والصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به»، وهذا الولد الصالح الذي يدعو له وهم خلفاؤه الصالحون المباركون، إن شاء الله يكون فيهم الخير الكبير والفضل العظيم في إحياء ندواته ومجالسه وروحاته وجلساته. والصدقة الجارية التي لا أعظم منها التي هي من أدخلهم إلىٰ الإسلام، ومن أدخلهم الجنة بفضل الله وبفضل (لا إله إلا الله). وكل هذه تحققت فيه بالإضافة إلىٰ الأحاديث والآيات التي إن شاء الله تحققت فيه، ونرجو أن تتحقق فينا وفيكم وفي أبنائنا جميعاً يارب العالمين، والله سبحانه وتعالىٰ يقول في كتابه العزيز: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١]، قال ابن عباس: نقصُ الأرض معناه موتُ العلماء. فإذا مات العالم فقد أثلم ثلمة في الإسلام لاتسد إلا بمثله، فموت العلماء نقصٌ كبير وخسارةٌ عظيمة، خصوصاً أمثال هؤلاء المربين المرشدين الدعاة إلىٰ الله.

نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يعوّض الإسلام والمسلمين خيراً، وأن يحيي في أبنائنا وأولادنا مآثِرَ السلف الصالح، وأن يجعلهم علىٰ منهج السلف الصالح، وأن يرزقهم إن شاء الله الخير والبركة، وأن يحفظهم من العقائد الزائفة، وأن يحفظهم من العقائد الفاسدة، وأن يحفظهم إن شاء الله من الفتن، وأن يجعلهم علىٰ منهج السلف الصالح وأن يبارك فينا جميعا وفي الحاضرين، وأن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

اللهم إنا نسألك الخيرَ كله عاجله وآجله ، اللهم اغفر لفقيدنا وارحمه، اللهم إنه قد نزل بك وأنت خير منزول به، اللهم أكرم مثواه ، اللهم أكرم مثواه، اللهم أكرم مثواه، اللهم لا تفتِنّا بعده ولا تحرمنا أجْرَه، اللهم أَحْيِ بنا وبأولادنا مآثر السلف الصالح، اللهم اجعلنا من المقبولين، واحفظنا من

الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

وختَـمَها بالفاتحة.

* * *

وبعد هذه المراثي والكلمات التي أُلقيتْ في ذلك الحفل المهيب، نورد بقية ما وصل إلينا بعد ذلك من الداخل والخارج من التعازي والمراثي التي كان باعثها المحبة والمواساة وللجميع منا خالص الشكر والتقدير والعرفان، ومنها هذه المرثاة التي نشرت في جريدة المدينة في عددها (١٠٧١) الصادر يوم ٢٣ رجب ١٤١٦هـ الموافق ١٥ ديسمبر ١٩٩٥م، تحت عنوان (أيا غابات إفريقيا عزاء) للسيد الفاضل علوي بن محمد باهارون، نلتقط منها الأبيات التالية:

فمـن لليـل يـا قمـرٌ يجلـي ... كـآبتنـا مـن العيـش السقيـمِ
ومن بالحبِّ والرحمة يغذي ... قلوباً في حمىٰ الدين القويمِ
ومـن للـروح يمنحهـا ضيـاءً ... إذا ما النور أمسىٰ كالعديم
ومن للسيرة العظمىٰ يترجمْ ... بفعـلٍ سنّـةَ الهـادي الحليـم

ومنها:

شـريعتُنـا طـريـقٌ للمعـالـي ... لـذي زهـد كمثلكـم مقيـم
علىٰ الطاعات من فرض ونفل ... عن الشهوات في حرز الرحيم
ولـلأذكـار يتلـوهـا بـأنـس ... وفي الأخلاق ذو خلق عظيم
وحب المصطفىٰ فرضٌ يراه ... وديـنٌ مثـل تـوحيـد العليـم

ومنها:

أيـا غـابـات إفـريقيـا عـزاء ... لمـن أسلـم لـذي قلـب كليـم
لأشْجـارِ لأنْهـارٍ ثكـالىٰ ... علـىٰ فقـدان داعيـةٍ حميـم
حبيـب كيـف ننسـاه ونسلـو ... عن التلقين بالصوت الرخيم
يحيـل الغـابـة السـوداء نـوراً ... بـإسـلام، بتـوحيـد العظيـم
نعـانـي حَـرَّ فُـرْقَـاكـم بـدمـع ... وشـوق محـرق مُـدْمٍ أليـمِ
عسىٰ المولىٰ برضوان ولطف ... يجـازيكـم بجنـات النعيـمِ
ويجمـع شملنـا بكُـمُ فنهْنَـأ ... بعهـدٍ بيـن زمـزم والحطيـمِ

* * *

وتحت عنوان (علاّمة التوحيد) كتب السيد محمد علي الجفري في جريدة «عكاظ» الصادرة بمدينة جدّة يوم الأحد ٩/ شعبان/ ١٤١٦هـ كلمةً نقتطف منها ما يلي:

توفي بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية مؤلف كتاب «مفتاح الجنة، لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وذلك يوم الأربعاء ١٤ رجب الفرد ١٤١٦هـ، ودفن في مكة المكرمة يوم الخميس، وشهد جنازته الجمُّ الغفيرُ، وفي الطريق إلىٰ مقبرة المعلاة قال أحد العلماء: إن الفقيد الراحل قد حمل (لا إله إلا الله) عِلماً وعملاً في حياته، فكانت نشيدَ مشيّعيه إلىٰ مثواه الأخير. إنه السيد أحمد مشهور بن طه الحداد الذي ولد في قيدون بحضرموت عام ١٣٢٥هـ.

لقد زار الفقيد منزل عمي المرحوم عبد الرحمن الجفري في أوغندا بإفريقيا الشرقية مرتين، وسمعته قبل عام يقول: إنه جاء من يستنجد به في

إحدىٰ قرىٰ أوغندا، حيث تصدىٰ نفر من آل الجفري لمجموعة من المبشرين الذين قصدوا تنصير إحدىٰ القرىٰ، وقال السيد أحمد: إنه ذهب إلىٰ تلك القرية واستطاع ــ بفضل الله وعونه وبمؤازرة مستضيفيه ــ إدخالَ القرية في دين الله أفواجاً ودَحْرَ المنصِّرين، وكان رحمه الله آيةً في تبسيط علم الشريعة.

وزرته قبل عشرين سنة برفقة الشريف عبد القادر الجفري رحمه الله فأرشدني إلىٰ مسألة نحوية في قول الشاعر:

إذا قالت حذام فصدقوها　　　فإن القولَ ما قالتْ حذامِ

بدأ السيد أحمد حياته بتعلم كتاب الله الكريم فكان رجلاً قرآنياً، درس في رباط قيدون بوادي دوعن علىٰ العلامتين عبد الله وعلوي ابني طاهر الحداد، وقد أرسل إليَّ بالفاكس أخي السيد عمر الجيلاني ترجمةً طيبة عن حياة السيد أحمد ذكر فيها مراحل جهاد السيد أحمد في إفريقيا، وقد سمعتُ من أكْثَرِ من مصدر أن الذين دخلوا الإسلام علىٰ يد فضيلته كانوا بالآلاف إن لم يكونوا بعشرات الآلاف.

لقد حمل السيد أحمد مشهور الحداد مِشْعَل الدعوة فكان نبراساً لدين الله ينشر، أينما حلّ، فيدعو الوثنيين والضالين الىٰ الطريق المستقيم، وكان ينافح عن الدين ضد النحلة القاديانية، وكان أيضاً يرشد بعض المسلمين الذين دخلت عليهم عاداتٌ دخيلة علىٰ الشريعة الإسلامية فكان رحمه الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

سافر إلىٰ أندونيسيا وقد قارب العشرين من عمره، ثم سافر إلىٰ شرق إفريقيا عام ١٣٤٧هـ، واشتغل في زنجبار بتدريس تفسير القرآن الكريم فتكون حوله طلبة العلم حتىٰ سافر.

وعاد إلىٰ إفريقيا عام ١٣٥١هـ فكان في ممباسا العالمَ الفقيهَ الواعظ، وكان يقصده من يأتي إلىٰ تلك الديار من علماء وشخصيات العالم الإسلامي، وقد ذكره في رحلته وفدُ الجامعة بالمدينة المنورة، وأثناء وجوده في كينيا تردد علىٰ زنجبار وجزائر القمر ثم استقر فترة في أوغندا، وهناك وجد كثيراً من القبائل وثنيةً وأخرىٰ وصل إليها التنصير، فهبَّ ومعه تلاميذه إلىٰ دعوتهم إلىٰ الإسلام، واقتضاه ذلك إلىٰ السفر إلىٰ قراهم وأدغالهم، وانتهىٰ به السير إلىٰ أن وصل إلىٰ بلاد الأقزام بالكونغو، وهدىٰ الله به وبتلاميذه خلقاً كثيراً دخلوا في دين الله أفواجاً.

وكان يجد مضايقات من حكومة أوغندا أيام حكومة (ملتون أَبُوْتي)، كما كان له الدور العظيم في مكافحة القاديانية الذين حاربهم مع معاونيه من العرب والهنود والأفارقة، وكان بينهم وبينه مناظرات تنتهي دائماً باندحارهم.

وفي عام ١٣٨٩هـ عاد إلىٰ كينيا من أوغندا وكان بها علىٰ عادته عالماً داعياً وفي كل أدوار حياته كان يشتغل بالتجارة مستغنياً بها عن الناس، وكان أثناء وجوده في شرق إفريقيا يحج في غالب السنين، ثم استقرّ قبل عشرة أعوام في جدّة عند أبنائه.. وقد ألف من الكتب: «مفتاح الجنة» وقد طبع ثلاث طبعات، وترجم في بريطانيا إلىٰ اللغة الإنجليزية وصدرت الطبعة الأولىٰ منها، و«المسك الفائح في أحكام الصيد والذبائح»، و«الدرة اليتيمة» في النحو، و«السبحة الثمينة نظم مسائل السفينة»، وله خُطَب جُمَعية نتمنىٰ

علىٰ أولاده الكرام أن يجمعوها، وله أشعار جيدة وله منازلات ومطارحات شعرية مع بعض أُدباء عمان الذين كانوا يقيمون في زنجبار.

رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

وهذه كلمةٌ تأبينية مختصرة بعث بها السيد محمد بن عمر بن صالح المحضار من مكة المكرمة قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، الحمد لله علىٰ ما قضىٰ وقدر وأعطىٰ وأخذ، الحمد لله الذي لا يحمد علىٰ مكروه سواه، الحمد لله بجميع محامده في الأرض والسموات، والصلاة والسلام علىٰ الذي أرسله للناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أما بعد: فقد أصابتنا والجميعَ مشقةٌ كبرىٰ وخسرنا خسارة فادحة لا تعوض أبداً بوفاة فقيد الأمة المحمدية العلامة أبي الجميع الحبيب الفاضل المشهور بين الناس أحمد بن طه الحداد الذي مشىٰ في طريق آبائه الأفاضل سليل الرجال الأكابر والعلم المشهور بين الناس في المشارق والمغارب والذي أسلم علىٰ يديه الكثير، كافح في طلب العلم واجتهد ودعا إلىٰ الله بقلبه وقالبه ونجح في مهمته، وتتلمذ عليه الكثير من الطلاب، وأقبل علىٰ الله حق الإقبال، حتىٰ حضرته المنية في شهر حرام شهر رجب الأصب وهو شهر المعراج، فعرجت روحه إلىٰ باريها إلىٰ السماء طاهرة مطهرة

وأدخلها الله فسيح جناته إن شاء الله آمين، وقد أرخت لوفاته بحساب [موعظة حسنة] = ١٤١٦هجرية.

وأيضا: [الحبيب أحمد المشهور طه في جنة نعيم] =

= ٥٣ ٥٣ ٥٨٢ ١٥ ٩٠ ٤٥٣ ١٧٠ = ١٤١٧هـ.

وأيضاً: [غاب البدر جواداً نقياً]:

= ١٠٠٣ ٢٣٧ ١٥ ١٦١ = ١٤١٧هـ.

رحم الله الفقيد وألحقه بالحبيب الأعظم سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم في جنة النعيم مع آبائه من النبيين والمرسلين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفىٰ بالله عليما. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد واله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

ومشاركة عدن تأتي في هاتين المَرْثاتين، المرثاة الأولىٰ من السيد الداعية أبوبكر العدني بن علي بن أبي بكر المشهور استهلها بقوله :

الحمد لله المقدّر أمْرَ الموت والفنا، والصلاة والسلام علىٰ سيد هذه الأمة الذي ذاق من المَنُون ماذاقه جملة الأصفيا والأنبياء، وعلىٰ آله الأوفياء، وصحابته الأتقياء، ومن تبعهم بإحسان الىٰ يوم القيام..

الحبايب أنجال الحبيب المرحوم أحمد مشهور بن طه الحداد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نرفع إليكم مسنون العزاء في فقيدكم وفقيد الإسلام كلِّه الحبيب البركة،

وارث الرحمة المشتركة، الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد، وقد حصل بوفاته حزن عظيم وحلَّ خَطْب جسيم، ولا نجِدُ في هذا الخطب الجَلَل إلا أن نقول ما قاله المولىٰ عن عباده الصابرين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

مَجّتْ صروفُ الدهر وهي عوادي ... فطوَتْ صحيفة شيخنا الحداد

ونعىٰ الزمان مجدّداً ما مثله ... أمضىٰ الحياة لدعوة وجهاد

ذاك الكريم المنتقَىٰ مشهورُنا ... حدادنا من دوحة الأمجاد

وجهٌ تنوّر بالعبادة واجتلىٰ ... بالصدْق والإخلاص والأوراد

عَلَمٌ أفاض العلم في آفاقنا ... شرقاً وغرباً سار بالإمداد

وهدىٰ به الرحمن آلافاً من الـ ... ـكُفْر البواح وفتنة الإلحاد

وأنار درباً كاد أن يمْحَىٰ بما ... قد حل من جهل ومن إفساد

العالَمُ الكونيُّ يعلم فضله ... وبفضله سرّ سرىٰ في النادي

يهفو إليه المشغفون تعطشاً ... يروون من عطش الزمان العادي

فيعود عائدهم بخير وافر ... ورعاية تسري إلىٰ الأولاد

أوّاهُ يا زمناً أخذْتَ من الورىٰ ... علَماً أشاد المَجْد للأحفاد

هو بالمئات إذا وزنت وربمّا ... بالألف والآلاف في الأعداد

إن التفرد فيه مِيزَةُ ذاته ... إذ فيه مجموعٌ من الأفراد

رُحْمَاك ربي ثُلْمةٌ حلت بنا ... ومصيبة أصداؤها في الوادي

فأخلفه يا مولاي بالخلف الذي ... يحيي موات العلم بالإسناد

من أهله وبنيه حتىٰ نرتوي ... من منهل الأبناء والأجداد

ثم الصلاة علىٰ النبي وآله ... والصحب والأقطاب والأوتاد

أما المرثاة الثانية فهي للسيد عمر بن علوي بن عبد الرحمن بن شهاب وقدم لها بقوله:

لم أدر بماذا أبدأ أولاً، ولا من أين أبدأ، وأنا في موقفي هذا بصدد تأبين فقيد الإسلام والأمة المحمدية، حبيبنا وشيخنا وبركتنا، وقدوتنا الإمام العلامة الداعية أحمد مشهور بن طه الحداد.. الإمام غني عن التعريف، عرفته قبل أعوام مضت ببلدة جدة، وحضرتُ له مجالس يشع منها نوره، وتتدفق علىٰ الحاضرين من درر العلوم بحورُه، والفقير مفلسٌ من كل شيء، معترفٌ بكل شيء، مؤملٌ في دخول دائرة أولئك القوم، بواسطة رجاله أهل الغوص والعوم، أمثال فقيدنا المرحوم.. ولهذا سطّرت نظماً ركيكاً وارتجلتُ ما يسمىٰ بالقصيدة مجازاً، عسىٰ ولعلّ أن تُمْطِر علىٰ قلبي سحائبُ رحمة الكريم المنان، التي ولا شك أنها تهطل مع استقباله لأحبابه وأوليائه:

وها هي المرثاة:

أي دَمْـعٍ بـه أصـوغ قصيـدَهْ ... بكـت العلـم نـافعـاً والعقيـدَهْ

أي دمـعٍ بـه يخفـف حُـزْنٌ ... قـد تغشـىٰ حجازنـا والسعيـده

يـا لهـول الـوداع والمـوت حـق ... إن قـريبـاً أسبـابُـه أم بعيـده

أَفْجَعَ الخطْبُ نـاديـاً أيُّ مـوت ... جـاء يختـار قطبـه وعميـده

جـاء يختـار جهبـذا وإمـامـاً ... مجمـع الفضـل والخـلال الحميـده

آه لا كـان هـاتِـفٌ قـد نعـاه ... وأتـىٰ حـامـلاً إلينـا بـريـده

قطعـة النـور منـه يبـدو المحيـا ... كـل مـن قـد رآه أمسـىٰ مُـرِيـده

وإذا مـا انبـرىٰ لمحـراب علـم ... حقـق الحـرف بـالسطـور العـديـده

غـامضـاتٌ بـه لعمـري أضحـت ... جُمَـلاً جـدَّ بيِّنـاتٍ مفيـده

كان فرداً في كل خلق نبيل ... فهو شخصية تبدَّت فريده
هو ذاك المشهور نعتاً وإسماً ... بالمعالي وبالسجايا الحميده
كم بذهني الكثير منها ولكن ... ما عساني في وصفها أن أجيده
أخذ العطر من سجاياه ضوعا ... ذاك أنّ الصِّلات كانت وطيده
وتصدىٰ لقادياني زيْغٍ ... ببراهينَ داحضاتٍ سديده
فسعىٰ للإله إذ عاف دنيا ... كم بدت دون ناظريه زهيدة
يا ابن طه لأنت وارث طه ... وقناعاتنا بهذا أكيده
كيف لا والدليل دُورٌ ودُورٌ ... بك بالدين قد تجلت مشيده
يا إماماً ما إن عرفتك إني ... قد عرفت الحياة دنيا جديده
أنت طَودٌ لمن به لاذ يحمي ... من صروف ونائبات شديده
فعسىٰ المعطي الكريم بمحض المنِّ للخير أن يرد عبيده
ويعز بالدين كل بني العرب ... لا أنجح الأعادي مكيده
وكذا مجدنا الذي ضاع مِنَّا ... بالجهالات أن إلينا يعيده
أقعدتنا عن المعالي الدنايا ... شغلتنا جريدة وخريده
ويحل الفقيد جنة عدن ... حيث يحيا بها حياة رغيده

* * *

وتأتي مرثية سيؤن علىٰ لسان أحد أبنائها البررة السيد الفاضل جعفر بن أحمد بن موسىٰ بن عمر الحبشي مقدماً لها بقوله:

هذه أبياتٌ قلْتُها تعزية في فقيد الدعوة المحمدية والسادة العلوية وجميع الأمة الإسلامية، الذي رحل إلىٰ مولاه وتركنا كالنعم بلا راعي في

فلاة، الحبيب الإمام أحمد مشهور بن طه الحداد رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه الجنة دار القرار مع النبي المصطفىٰ المختار وأسلافه الأئمة الأبرار إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

خطب ألمّ بربعنا والنادي	بغياب سيدنا الحبيب الحادي
أعني شهاب الدين ذاك أحمد	وهو ابن مشهور مغيث الصادي
حبر عظيم وهو فرد زمانه	بحر الحقائق عالي الإسناد
فبموته أنهد ركن شامخ	في العلم هداً أيما إهداد
خارت قواي وقد طغىٰ الحزن علىٰ	قلبي وعيني أنكرت لسهادي
قالت تنام وقد غدا قطب الورىٰ	شيخ الشيوخ موطّأً لمهادِ
قلت لهاهيا ارجعي وتذكري	خير الورىٰ المختار في الألحَاد
مذ قد نشأ بدعوة الخلق انتشا	يهدي لسبل الحق بالإرشاد
وبفعله وبقوله وبحاله	فهو المنار، لكل غاو هادي

ما إن له شغل سوىٰ العلم مع التذكير للأخرىٰ بأشرف زاد

وعلىٰ يديه كم رجال أسلموا	فهُمُ الألوف إن رمت للتعداد
يجزيه عنا ربنا عن سعيه	أفضل جزاء والرضا بمعاد
ويحله الفردوسَ معْ آبائه	بجوار طه وجده الحداد
وكذا خليفته ابن زين سيدنا	والأم سلماء وجملة الأجداد
وكذا خديجة والبتول وبعلها	أعني علياً سيد الأمجاد
وكذاك يخلفه ويجعل سره	أبداً دواما مدة الآباد
في أنجاله الغر أعني حامداً	وكذا علي أنعم بذي الأولاد
فهم الخليفة عن أبيهم وُرِّثوا	عنه وفازوا منه بالإمداد

سعـدوا بخـدمتـه وحسـن جـواره ... زمنـاً طـويـلاً سعـي ذي اجهـاد
وكـذا بنـوهـم مـالهـم مـن مُشْبـه ... وأكـرم بعـدنـان فـي الأحفـاد
فلـه مـع الجـد عظيـم رعـايـة ... فبهـا ينـل مـا رام مـن إسعـاد
ولجـده طـربٌ بحسـن حـدائـه ... والحـاضـرون يهـزهـم ذا الحـادي
ثـم الصلاة علىٰ الحبيب محمـد ... والطهـر آلـه وصحبـه الأسـاد
وأسلافنا القوم الصدور جميعهم ... وعلىٰ ابـن زيـن وشيخـه الحـداد
يـا سـادتـي وافـت تعـازي جعفـر ... بفـؤاده لكـم أجـل وداد

وهذه المرثية لأخينا الشيخ محمد أبو بكر باذيب أُلقيت في حفل التأبين الذي أقيم في زاوية الإمام الشافعي بمسجد الإمام النووي في جدة، بحضور جمع من أهل الفضل والمحبين من تلاميذ سيدي ومريديه، وذلك مساء الأربعاء ٨ شعبان ١٤١٦، قَدّم لها بقوله: الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه، الدائم فلا حد لديموميته، قدر الموت علىٰ كل البشر، وجعل موعد لقائهم واجتماعهم يوم المحشر.

ولما كان المسلمون عموماً والعلويون بالخصوص قد رزئوا بوفاة الإمام الكبير والداعية الشهير حبيبنا أحمد مشهور بن طه الحداد، الذي كلم لفراقه الفؤاد، وبكىٰ عليه العباد والزهاد، واضطربت لفقده البلاد، إذ كان رمزاً للدعوة والإمامة والإرشاد.

رحمه الله رحمة الأبرار، ورفع ذكره في الصالحين الأخيار، وجمعنا وإياه في دار القرار مع الحبيب المختار، وقد سطرتُ هذه الأبيات متأثراً بهذا المصاب الفادح كنوع من الوفاء لشيخنا رحمه الله والتماساً لبركاته، واستمداداً من نفحاته، وتقرباً إلىٰ الله بذكر الصالحين فقلت:

الكـونُ ضَـجَّ بمغْـربٍ وبمشْـرق　　حُـزْنـاً علىٰ فقـدان سيـدنـا التقـي
وجـرىٰ لـه مـاء العيـون مسلسـلاً　　كـالنهـر يجـري سـرعـة بتـدفـق
خطْـبٌ ألـمَّ بنـا وعَـمَّ مصَـابُـه　　كـلَّ البـرايـا يـا مـدامِـع أهْـرقـي
واحسـرتـاه علـىٰ حبيـب المسلميـن إمـامنـا ذاك الإمـام المتقـي
وافـاه دَاعـي الله نحْـوَ جنـانـه　　فَمَضىٰ إلىٰ دار الخلود.. وما بقي
فـي هـذه الـدُّنيـا لكُثْـر غُثَـائهـا　　وأحَـبَّ لقيـا الله نعْـمَ الملتقـي
نـاداه داعـي الله: أهـلاً ضيفَنـا　　أهلاً بكم ياصاحب القلب النقي
لا تخْشَ بعد اليوم وَعْكةَ صحّةٍ　　أو علـةً لـن تشتكـي أو تـرتقـي
في جنـة المأوىٰ مُقَامُك فـارْتَدِ　　ثـوبَ الحـريـر وحُلّـة الإستبـرق
يهنـاكـم هـذا مقـام الإصطفـاء　　هـذا مقـام العَـارِف المستـوثِـق
كم من أناس قد ملكْتَ قلوبهم　　وحفظتهـا مـن شـر شيطـان شقـي
كـم سـرنـي ذاك الجمـال إذا بـدا　　من نُور وجهك نُونُ عيني يستقي
أخـلاقُكـم مثـلُ النسيـم إذا سـرىٰ　　إن ناب خطبٌ في حماكم نتقي
قـد كنت ملجـأنَا وكنـت مـلاذنـا　　قد كُنْتَ أرأَفَ من أبينا المشفق
كنـا نـرىٰ فـي وجهكـم نـور الـولايـة والصـلاح وكنـت عـذب المنطـق
فبجـاهـه يـا رب فـاجْبُـرْ كَسْـرَنـا　　وانظـر إلٰهـي للفقيـر المشفـق
يـا ربنـا فـاخلُفْـه فينـا صـالحـاً　　وأفـضْ علينـا مـن عطـاك المغـدق
وعليـه يـا رب الصـلاةُ تعمُّـه　　وكذا السلامُ مع الرسول الأرفق
وعلىٰ ضريح القُطْبِ تنزِلُ رحْمةٌ　　من غيث جُودِ الخالق المتدفق

* * *

ويأتي دَورُ إفريقيا الشرقية التي أحبَّها سيدي وأحبته، فاتخذ منها مهجراً

لأكثر من نصف قرن يتنقل بين أرجائها ويتردد علىٰ مدنها وقراها ونجوعها وغاباتها، داعياً ومرشداً ومجاهداً في سبيل نشر العلم وبثه، وترسيخ العقيدة وتمكينها في النفوس التي استجابت للدعوة، لنستمع لصوتها المتحشرج ينبعثُ رَجْعُ صداه ويتردّد عن بُعْدٍ من خلال صفحات «تسلية الفؤاد، وتضميد جُرُوح الأكباد» ذلك الكتيب المحتوي علىٰ المراثي التي شارك بها نخبةٌ من العلماء والأساتذة والمريدين مشاركة وجدانية ملؤها الحزن، اعترافاً بفضله، وتعبيراً عن مشاعر الأسىٰ، وتأكيد لما يعتمل في قلوبهم من حب للفقيد وما تحمله نفوسهم من تقدير واحترام، ولما تربطهم به رحمه الله من روابط لم تنقطع بمغادرتة لتلك البلاد ولا بوفاته، وإلا لما كان لنبأ وفاته ذلك الوقع الذي عبر عنه أحدهم بلسان حالهم جميعاً بقوله:

لئن فاتنا أن نحمل النعش سائراً — لمثواه عند الله فوق المناكب
فإنا حملنا حبَّه في قلوبنا — وفي خافق الأضلاع وقْعُ النوائب

وكيف تنفصم هذه الروابط وقائلهم يقول في حرقة وتوجع:

فلَكم أسَّسَ المعاهد فينا — فاستنارت قلوبنا بهداها
إن هذي الغناء صنع يديه — إنها نعمة لنا أهداها
أنتجت دونما امتراءٍ فآتت — أكْلَها للجميع طاب جناها

كيف تنفصم هذه الروابط وآثاره ماثلة أمام أعينهم وستظل ماثلةً إلىٰ ما شاء الله، تلك الآثار التي تحدث عنها أحد شعرائهم بقوله:

فكم شجر عندنا غَرست — يداه بلطف فجا مثمرا

يا له من غراس، ويا لها من ثمرات، ويا لها من آثار، لو لم يتحدث

عنها طلابه ومريديه لتحدثت عن نفسها بنفسها، ولعبرعن لسان حاله رحمه الله قول الشاعر:

تلـــك آثـــارنـــا تـــدل علينـــا   فـــانظـــروا بعـــدنـــا إلـــىٰ الآثـــار

وهذه أولىٰ المراثي للعالم الأديب السيد حسن بن أحمد البدوي بن صالح جمل الليل مدير مدرسة بدر الإسلامية بمدينة [لامو] والمدارس التابعة لها:

وَجَـم اللسـانُ فمـا يطيـق كـلامـاً   وطغـىٰ وزاد فمـا يـردّ سـلامـا
وقلـوبُنـا تـاهَـتْ طغـىٰ خفقَـانُهـا   سـاقـت إلـىٰ أكبـادنـا الآلامـا
عَظُـم المصـاب فـلا نقـوم بحملـه   لا نستطيـــع لعشـــره إيـــلامـــا
دُهِيتْ قُوىٰ أجسامنا من عظمه   حتىٰ اشتكىٰ من ذاك دِقُّ سُلاَمىٰ
لـم لا وهـذا الطَّـودُ غـادر أرْضَنـا   وأتـىٰ الكـريـمَ المحسـن العـلاّمـا
لم لا وتلك الشمس دام ضياؤها   فـإذا بنـا صـار الضيـاء ظـلامـا
مـن كـان شهمـاً هـادياً ومقـومـاً   عَلَمـاً أضـاء وطـاول الأعـلامـا
السيـــد المشهـــور فـــاق بسيـــره   فعـلاً وطـاب وحيَّـر الأقـلامـا
هو أحمد المشهور أشهر حاله   أضحـىٰ يقيـم معـارفـاً وسـلامـا
وقد ازدهت منه السواحل كلها   لمـا أتـاهـا نـوَّر الإسـلامـا
ولقـد تمكـن فـي القلـوب محبـةً   بسُلُـوكـه بـل حقَّـق الأحـلامـا
جمـع النفـوس فشـدَّهـا وألانهـا   كـم فـوق دُورٍ ركّـز الأعـلامـا
كم من أناس قد هدوا بطباعه   لمـا رأوه استسلمـوا استسـلامـا
ولـه طِبـاعٌ كـالـزُّلال عُـذُوبـةً   ولـه محـاسـنُ لا يشـوب مـلامـا
حسنت جميع خصاله لا يهتدي   فـي نقـده مهمـا بـدىٰ مـن لامـا

بـالعلـم والتقـوىٰ وكـلٍّ فضيلـة قـل مـاتشـاء فـلا تشـق كُـلامـا
ثـم الصـلاة علـىٰ النبـي وآلـه والصحـب كـل قـد غـدىٰ عَـلاًمـا
مـا قـام منشـدنـا وفـاه بقـولـه وجـم اللسـان فمـا يطيـق كـلامـا

* * *

والمرثاة الثانية للسيد العالم الداعية محمد بن سعيد بن عبد الله البيض مدير مدرستي الغَنّاء الإسلامية والنور الإسلامية [مبروج كينيا]، صدّرها بقوله: قلت هذه المرثاة والأكباد مرضُوضَة، والعيون لا ترقَؤها الدموع، لفداحة ما رزئنا به من وفاة والدنا الإمام فقيد الإسلام والإنسانية، الحبيب سيدي أحمد مشهور بن طه بن علي بن عبدالله بن طه الحداد باعلوي بجده، معزياً بذلك نفسي وإخوتي الأعزة أولاد وأحفاد هذا الإمام الراحل بكافّتهم ومن تعلق بهم من الأحباب والأوِدّاء، قلت ذلك يوم ثاني يوم وفاته مُنْتَصَف رجب ١٤١٦هـ الموافق ١٧/ ٢/ ١٩٩٥م:

ربـاه صبِّـرْنـا فقـد فـدح الـورىٰ بـالـرزء جُلّـى قـد أعـال تصبـرا
ربـاه صبِّـرْنـا متـىٰ مـا استـرجـع المستـرجعـون لكـل مـا قـد قـدرا
فأقضَّت الركن الركين فولولت منـه النفـوس وأولهـت ممـا جـرىٰ
يـا أيهـا المـوت الـزؤام فجعتهـا بـأمـضٍّ مـا تُـرْزىٰ بـه فيمـا عـرىٰ
فـوَّقـتَ صـائبـة السهـام اغتـالـت الشهـم الإمـام أضيـف فـي أم القـرىٰ
دهيـت بقطـب العـارفيـن قلـوبهـم فهمَتْ عيونٌ بالنجيع نفىٰ الكرىٰ؟
يبكـون عِصْمتهـم وسَيّـدَهـم ومـن كـان المـلاذ لكـل طـاريهـم طـرىٰ
ذاك ابن طـه أحمد المشـهور في الأقطار بالإرشـاد يدري من درىٰ

آبـاؤه الحـداد والصيـد الجـدود | إلىٰ المهـاجر مـن تـزكّـوا عنصـرا
أبـراجُـه قيـدون والغنـاء والـوادي | المبـــارك فـــالحجـــاز تخيـــرا
وله المكلا مرتعاً وله السواحل | مهجـــراً ولـــه الكنـــانـــة معبـــرا
رحـلاتـه ميمـونـةٌ قـد أنجحـت | وسخـــاؤه المـــدرار حقـــاً أثمـــرا
أخـــلاقـــه نبـــويـــة وكـــلامـــه | الدر النضيد مفوها حيث انبرىٰ
وحليفـه التـوفيـق فـي حـركـاتـه | وسكـونـه سكـن وتـريـاق سـرىٰ
فمـريـده يشـأىٰ فيقبـس سـره | ونزيله يلقىٰ البشاشة في القرىٰ
نعـم الخليفـة لـلأُوْلىٰ بَنَـوُا العـلا | آثـاره تتـرىٰ وهـاهـي ذي تُـرىٰ
غنَّـاؤه هـي كـاسمهـا فـي (منبـع | الرّو) السعيدة غرسه طاب الثرىٰ
وله مناقب قَطْكَ هذا النزر ما | فـي وسعنـا عـدّ لهـا لـن يحصـرا
والآن إذ رحـل الحبيـبُ فمـن لنـا | أومن يعزّي في المصاب ظَمَىٰ الورىٰ
لكـن لأولاد ابـن طـه الحـق فـي | كل التعازي هم لذلك بالحرىٰ
يـا آل أحمـداً اصبـروا صبـراً كمـا | قـد ينبغـي تجـزوا جـزاء أوفـرا
ورجـاؤنـا أن تخلفـوه وكلكـم | متـــآزرون كمـــا يـــراد وأكثـــرا
وأخوكم ابن البيض يرثي وهو ناءٍ | ســاعــة التــوديــع أمســىٰ مُعــذَرا
يـا رب أعظـم فيـه أجـر جميعنـا | واجعل له الفردوس نزلاً محضرا
ومكرر الصلوات كالتسليم تغشىٰ | المصطفـىٰ وذويـه آســاد الشـرىٰ

❋ ❋ ❋

والمرثاة الثالثة للأستاذ أحمد عمر مبارك آل منصور:

هــل للـزمـانِ ودأبُـه التكـديـرُ | عِلْـمٌ بمـا أجـرىٰ لنـا وشعـورُ
مازلت تسطو يا زمان وتصطفي | الأخيـــار تغـــدر فيهـــم وتجـــور

فمتىٰ يكون لقلبك القاسي انثنىٰ ومتىٰ يكون بطبعك التغيير
كم جوهراً خطفت يداك من الورىٰ واليوم درتهم عليه تغير
فلقد سلبت من الكرام كريمَهم وقضىٰ بسهمك يازمان أميرُ
فيكاد من أسف عليه ومن أسىٰ يأبىٰ علينا الصبر وهو نصير
نبكي علىٰ الحداد ملْءَ جفوننا تبكيه منا أكْبُدٌ وصدور
نبكي علىٰ التقوىٰ ونبكي حلمه نبكي العلوم إلىٰ القبور تسير
نبكي علىٰ الأخلاق نبكي بسمة في وجهه البشاش وهو منير
نبكي الدراية والرواية والهداية والحماية للضعيف تجير
نبكي الشجاعة والكرامة والشهامة والسماحة فيه وهووقور
نبكي المعالي والمكارم فهو مَن في كل ناد مسكه وعبير
هذا الذي تبكي عليه مدارس ومساجد ومكاتب وسطور
هذا الذي تبكي عليه مجامع ومنابر أيامُها وشهور
رُبّي بكل رزانة ورواية وبحكمة والعلم فيه غزير
نشر العلوم وبشر الإسلام طول العمر فهو مبشر ونذير
صقل النفوس جلا القلوب وطهر الأخلاق ينصح بالهدىٰ ويشير
ودعا الخلائق للحقائق فعله هَدْيٌ ونشر فاح منه ونور
وتحمل الإيذاء في أنواعه ونفىٰ المفاسد والزمانُ شرور
وسمت به التقوىٰ عن الدنيا وزينتها وعاش العمر وهو قرير
وعلت به أخلاقه عن كلما يزري وغادر وهومنه طهور
لم ينخدع بزخارف الدنيا ولذتها الدنية والحياة غَرُور
فسل البلاد مشارقاً ومغارباً كم مركز فيها له التعمير

وسل الهداة سل التقاة جميعهم   كم كان في التقوىٰ له التشمير
واليوم غادرنا وهذا الوقت في   فحش فشا والشر فيه كثير
فأجاب دعوة ربه ونداءه   فإلىٰ الكريم رجوعه ومصير
يا آل بيت المصطفىٰ صبراً فقد   أجرىٰ الإله الحكم وهو قدير
صبراً أيا آلَ ابنِ طه أحمد المشهور بالإرشاد وهو جدير
فالله يعظم أجركم وعزاءكم   ويجير من هو بالهدىٰ مشهور
ويعمنا بالأجر فيه كلنا   شركاء فيه صغيرنا وكبير
ثم الصلاة علىٰ النبي وصحبه   والآل من هم أنجم وبدور

* * *

أما المرثاة الرابعة من المراثي الإفريقية المعبرة عن مشاعر الحزن والأسىٰ فهي للسيد عبد القادر بن أحمد ابن الحبيب محمد عدنان الأهدل المدرس بمدرسة [بدر] الإسلامية ببلدة [لامو] نقتطف منها الأبيات التالية قال فيها:

بكائي وحزني في الفراق لسيدي   الجليل النسيب الشهم سهل العريكةِ
وأعني به المشهور أحمد من به   سواحلنا ضاءت بنور البصيرةِ
أقول فقدناكم ونحن بحاجة   إلىٰ ضوئك الباهي وشمس مضيئة؟

* * *

ونفس المشاعر والأحاسيس نجدها في المرثاة الخامسة للأديب الشاعر الأمين محمد الهادي التي استهلها بقوله:

قنصْتَ الردىٰ قنصاً برمْيةِ صائبِ   فخر صريعاً تحت همة طالب

إلىٰ أن قال:

ألم تك في إفريقيا خير من دعا   إلىٰ الله لا تشكو هموم المتاعب

جمعت قلوب الناس فيها على الهدىٰ ... أباعدهم في حبهم كالأ قارب
جموعهم سارت إليك بلهفة ... يسوقهم شوق لخير المواكب
يؤمون مسرىٰ النور فيك لتنجلي ... غشاوتهم بالطالعات الثواقب
كأنهم وراد حوض لأجله ... هفا الناس من ظام اليه وساغب
ألم تك قد عودتهم صوب جودكم ... من الحس والمعنىٰ كدر السحائب

ثم قال:

وقد آن أن ترتاح فالموت حسبه ... بأنا نرىٰ فيه استراحة لاغب
نعاك لنا الناعون قلت رويدكم ... علىٰ مسمعي دوَّىٰ هوي الكواكب
شرقت بدمعي ثم لم أدْرِ مهجتي ... تشظت أم ارتاعت لكبرىٰ النوائب

إلىٰ أن قال:

علىٰ أننا لم ننس قطب زماننا ... وقدوتنا الحداد نور الكواكب
وإنا إلىٰ الله الكريم رجوعنا ... ونعلم أن الموت ضربة لازب
مضت إذ مضىٰ الأخلاق والعلم والتقىٰ ... فلم يبق إلا كل هيمان لاعب
فقد كان عف النفس صافي سريرة ... كريم السجايا بل صفي المشارب
بذكر وفكر ثم طول تلاوة ... ودرس وتعليم وهمة دائب
بشوش لمن يلقاه في كل لحظة ... وإن تنزل الساحات جل المصائب
لقد كان من قوم كرام نموا إلىٰ ... أصول معد من لؤي بن غالب
ومن آل خير الخلق طراً محمد ... ومن آل حداد الفروع الأطايب
تساموا إلىٰ العز المنيف بجدهم ... فمجدهم قد بذَّ كل مغالب
توطدت الأسباب بين جدودنا ... وأجداده من كل سامي المراتب

ثم قال:

لئن فاتنا أن نحمل النعش سائراً ... لِمَثْواهُ عندَ الله فوق المناكب
فإنا حملنا حُبَّه في قلوبنا ... وفي خافق الأضلاع وقْعُ النوائب

* * *

أما المرثاة السادسة فهي للأستاذ سعيد علي حسن مدرس مدرسة الإخلاص الإسلامية في [تمنغوني] وها هي:

جرَحَ القلْبَ نعْيُ من قد تسامىٰ ... في ذرىٰ المجد قدوةً وإماما
جرَحَ القلْبَ رزءُ من قد تزكىٰ ... يافعاً وارتدىٰ العزَّ وساما
قد توارت شمس المعارف عنا ... بعد أن قد هدىٰ إليها الأناما
يا لهول المصاب إذ غاب عنا ... نجل طه الحداد وا إسلاما
الحبيب الحداد نبراسنا الوضاء ... من قد أزاح عنا الظلاما
الحبيب الحداد شامخ مجد ... الحبيب الحداد ملجا اليتامىٰ
قطعة النور ذوالمهابة فردٌ ... في معاليه سابق الأقواما
سيدٌ ملؤه وَقارٌ وحِلم ... وجلال في الخلق عزَّ مقاما
سيدٌ قد حباه ذو العرش جاهاً ... ومقاماً مؤيداً لا يسامىٰ
سيدٌ كَمْ له من العز صرح ... حالف الحق والهدىٰ فاستقاما
سيد طاب في العلا ما بناه ... سيد عاش رائدا مقداما
كم بنىٰ مسجداً لرفع منار الدين ... كم من مدارس قد أقاما
كم دروس أفاد فيها مجداً ... أيقظ الناس حيث كانوا نياما
كان بَحْراً لدىٰ العطاء كريماً ... فهو يهدي إلىٰ الأنام الغماما
كان ليثاً إذا الذّليل تصدىٰ ... وجَسُوراً خاضَ الأمور العظاما

كـان شمْسـاً نضَـارةً وجمـالاً ... كـان للـديـن نـاشـراً وهُمَـامـا
كـان فـي الحَفْـل زينـةً يتـلألأ ... كـان شهمـاً مبجـلاً عـلاّمـا
كـان نجمـاً إذا الليـالـي تـدلـت ... يعبـد الله لا يـذوق المنـامـا
كـان غـوثـاً لمـن أتـىٰ مستغيثـاً ... فعلـىٰ الحـق وطـد الأقـدامـا
نـاصـر الـديـن عـن غـواة إذا مـا ... أرجفـوا صـار [ ] أوحسـامـا
فـإذا فـاه واعظـاً فعلـوم ... الـديـن تبـدو تـوضـح الأحكـامـا
وإذا فـاه واعظـاً فلـذيـذ ... القـول رِيٌّ يبـلُّ منـه الأُوَامـا
وإذا فـاه داعيـاً تحسـب الـدر ... البهـي الثميـن ذاك الكـلامـا
وإذا قـام مـرشـداً فمنـاه ... أن يـرىٰ فـي الـورىٰ دوامـاً وئـامـا
عـاجلتـه المنـون والنـاس عطشـىٰ ... لحيـاض الحـداد يبغـون جـامـا
إنـه الطـود فـي الثبـات عظيـم ... ومنـىٰ المـوت أن يصيـد العظـامـا
هكـذا حـالـه فـاعجـب لحـال ... تـؤثـر الغـر ثـم تبقـي الطغـامـا

* * *

نكتفي بهذا القدر من المرثاة السادسة لننتقل إلىٰ المرثاة السابعة وهي لمدير مدرسة السبق الإسلامية بماليندي السيد جعفر بن محمد بن سعيد البيض التي استهلها بقوله:

المـوت حـق لا مـرد لأمـره ... نـرضـىٰ بـه فـي حلـوه أو مـره؟
المـوت يـأتـي بغتـةً فـي حينـه ... يسْطُـو علـىٰ كـل الأنـام بقهـره
لكنـه اغتـال الإمـام حبيبنـا ... الحـداد وهـو وحيـدنـا فـي دهـره
كنـا نلـوذ بـه لأمـر داهِـمٍ ... فيكـون كـاشِفَـهُ وجـابِـرَ كَسْـره
يـا ليتنـا متنـا وعـاش فقيـدنـا ... عظم المصاب ولا تسل عن خُبْره

حـدادنـا تبكـي عليـه مسـاجـد — عمـارهـا تهفـو لفـائـت سـره

حـدادنـا هـو شمسنـا وسـراجنـا — أودىٰ فصـار الفَجْـعُ غصّـة ذكـره

أعمـالـه تنبيـك عـن إخـلاصـه — تبليغـه، ضحـىٰ بـأغلـىٰ عمـره

وكـلامـه نـور وقـد جمـع النصـائـح والجـواهـر كلهـا فـي دره

متـواضـع وهـو العلـي مقـامـه — بحـر الـوفـا فـي مـده أوجـزره

بسط اليمين يجود وهو مرحب — لنـزيلـه فـي حلـه وممـره

صبـراً بنـي الحـداد إن الـرزء عـم وأجـر كـل مـرزّءٍ فـي صَبْـره

ثـم الصـلاة علـىٰ النبـي وآلـه — والصحـب ثـم فقيـدنـا فـي قبـره

واغفـر إلهـي لابـن طـه جـدنـا — واجعـل جنـان الخلـد خيـر مقـره

ومن المرثاة الثامنة وهي للسيد إسحاق بن محمد بن سعيد البيض المدرس بمدرسة [الغناء] الإسلامية نختار الأبيات التالية:

عينـي تفيـض بـأدمُـعٍ وتـوالـي — مُـذْ آذن الحـدّادُ بـالتَّـرحـال

رحل الحبيب وكان شمْسَ زمانه — فـإذا نهـاراتُ السنـا كليـالـي

أواه من جلل المصاب إذا دهىٰ — فـارتـدت الآفـاق بـالبلبـال

إذ كـان نبـراسـاً لكـلِّ السـالكيـن — طـريقـةَ الأسـلافِ خيـرِ رجـال

جمَـعَ الإمـامـةَ والسيـادةَ والتقـىٰ — وحبـاه مَـولانـا سنـيَّ خصـال

* * *

وننتقل إلىٰ المرثاة التاسعة وهي للأستاذ علي عبد الله علي، المدرس بمدرسة الإخلاص [ثمنغوني] لنختار منها الأبيات التالية:

قـد مسَّنـا خطـبٌ فمـاذا نفعـل — والإئتسـىٰ بنبينـا هـو أمثـل

قـد جـرح القلـب المنـون وإنمـا هــذا قضــاء الله حتْمـاً يقبــل
قـد أذهـل القلـبَ الـرزيئةُ يـا لقـومـي الصبـر فـي جلـل الـرزيئـة أجمـل
أيـن الـذي قـد كـان نـوراً فـي المحـافـل كلهـا وسنـاؤُه لا يـأفُـلُ
أيـن الـذي قـد كـان فينـا معقـلاً عمـا ينـوب مـن الهمـوم ويثقـل
يـا أحمـد الحـداد أنـت مـلاذنـا مني السلام علىٰ ضريحك ينزل

* * *

ونختار الأبيات التالية من المرثاة العاشرة ـ للطالب النجيب في مدرسة الغناء الإسلامية صالح بن محمد البيض، التي قالها وقد لبس ثوب الحداد من هول المصاب منوهاً بما للفقيد من أياد بيضاء لو لم يكن منها إلا مدرسة الغناء الإسلامية لكفىٰ أن تظل ذكراه حية في نفوسهم عامرة بها قلوبهم، وهي:

قد عيل صبري مذ أصيب فؤآدي بــرزيــة فلبســت ثــوب حــداد
مــا إن لهــذا الــرزء مثْـلٌ إنّــه مــوتُ الحبيــب السيــد الحــداد
ذاك الإمـامُ الـركـنُ عـالٍ صيتُـه فــي الخـافقيـن ونخبـة الأجـواد
مـن قـد تخلـق بـالمحـامـد والمفـاخـر أحمـد المشهـور بـالإرشـاد
ما حاد عن سَنَن الرشاد ولا انثنىٰ عــن سيــرةِ الأقطــاب والأوتــاد
بـل لـم يـزل يـرقـىٰ رُقيّـاً بـاهـراً حتــىٰ ازدهــىٰ كــالنيِّـر الـوقـاد
كم قد أشاد من المدارس والمعا هـد والمسـاجـد في ربـوع بـلادي
مـن بينهـا غنـاؤنـا فـاليـوم قـد صارت تنادي: أين ذاك الحادي؟
حقـاً علينـا أن تفيـض دمـوعنـا مـن ذكـر أحمـد خيـرة الأسيـاد

* * *

ومن المرثاة الحادية عشرة للطالب في مدرسة الغناء الإسلامية محمد كريقا قاسم، الأبيات التالية التي تعبر بلسان الحال عما تركه الفقيد الغالي من آثار خالدة ومآثر حميدة في تلك البلاد التي أحبها وأحبته ـ فلنستمع إليها:

رُزءٌ أجلُّ أناخ في ذا العام | بين الوهاد وذروة الأعلام
رُزءٌ فقد أودىٰ إمام فَيْلَقٌ | تذري الدموع عليه بالتّسْجَام
تبكي المدارس والمحافل كلها | بأفول شمس العلم والأحكام
السيد المفضال حداد القلوب | ومرجع السادات والأعلام

* * *

ومن مرثاة الطالب خلفان نجام سالم في مدرسة الغناء الإسلامية وهي المرثاة الثانية عشرة نختار هذه الأبيات وما بث فيها من شكاية وما ذرف فيها من دموع الحزن والألم؛ مطلعها:

إلىٰ الله نشكو انفكاك العرىٰ | ....
فؤادي جريح بهذا المصاب | ونفسي رضَت بما قد جرىٰ
فأبكي بدمع غزير كئيب | فما قد أصاب أطار الكرىٰ
فمن لي بحدادنا أحمد بن طه الذي بالتقىٰ اشتهرا
حميد الثنا خلقه قد علا | كريم سما مجده في الذرىٰ
فكم شجر عندنا غرسَتْ | يداه بلطف فجا مثمرا
وكم قد سقىٰ الناس من مشرب | هنيء وكم مزنه أمطرا
فأسراره من عطايا الإله | ربٌّ كريم عظيم القرىٰ

ومن المرثاة الثالثة عشرة للطالب في مدرسة الغناء الإسلامية محمد علي عثمان بوتي نختار الأبيات التي جاءت بعد المقدمة التي عبر فيها عمّا دهىٰ القلوب من ألم الفاجعة وما غمر النفوس من شجون لتوَاري شمس هذا الإمام وغياب ضيائها فقال:

إن هـذا كَسْـفٌ بغيـر انْجِـلاء — إنـه رحلـةُ الإمـام ابـن طـه
راحـلاً نحـو مقعـد الصدق مـن — حيث نفوس الأبرار تعطىٰ مناها
ورث السـر والإمـامـة عـن — آبـائـه فـي سيـادة قـد حـواهـا
كـان شهمـا وداعيـاً لعبـاد الله — فـي الأرض واغـلاً فـي ربـاهـا
فلكـم أسـس المعـاهـد فينـا — فـاستنـارت قلـوبنـا بهـداهـا
إن هـذي الغنّـا صنـع يـديـه — إنهـا نعمـةٌ لنـا أولاهـا
أنتجـت دونمـا امتـراءٍ فـآتـت — أُكْلَهـا للجميـع طـاب جنـاهـا

❋ ❋ ❋

أمّا المرثاة الرابعة عشرة والأخيرة من المراثي التي احتواها كتيب «تسلية الفوآد وتضميد جروح الأكباد» بين دفتيه فهي للطالب في مدرسة الغناء الإسلامية عبد الله أحمد مغؤمي، يعرب فيها إعراب من ودعه السلو بفقد من بكت لفقده المحافل والمعاهد حزناً علىٰ ما فاتها لغيابه عنها ونختار منها قوله:

هـذا وقـد بكـت المحـافـل كلهـا — إذ آذنـت رحـلاتـه عـن بعـده
وكـذا المعـاهـد للعلـوم بـأسـرهـا — حزناً علىٰ هدي الحبيب وجهده
فهو الكريم ابن الكريم وهكذا — شـرف أتـىٰ مـن جـده عـن جـده
جلسـاتـه تنبيـك عـن سـر العلـوم — وكـم رأينـا مـن عجـائـب زهـده

وللسيد أحمد بدوي جمل الليل وهو من الدعاة العلماء في كينياء المرثية التالية:

رُزئتُ وكم لأيام الربوع ... من الرزء المشتت في الربوع

لِوَقْعَتِه هوىٰ قلبي وعيني ... أسىٰ تبكي دماً بدل الدموع

أهذا حال دنيانا فما أفجع الدنيا لمغتر جزوع

هي الدنيا تكدر كل صفو ... هي الدنيا تفرق في الجموع

فلا دهر يلام بما نعاني ... من الأحزان تودي للنزوع

وما حزني لخل قد يخون المودة للوفيٍّ به الوَلوع

وما حزني لحور أو زهور ... ودور أو قصور أو زروع

وماحزني لفاتنة إذا ما ... نأت أذكَتْ جحيماً في الضلوع

ولكني وجَمْتُ مساءً قالوا ... لقد ذهب الحبيب بلا رجوع

حبيبٌ كل مجْمَعه استفاد ... وإرشاد لمخلوق هلوع

حبيب من بني علوي حريصٌ ... علىٰ ربط الأصول مع الفروع

ينيلك من مباسمه اعتزازاً ... بأنك عند مأمون خشوع

طويلٌ، كاملٌ، في كل بحرٍ ... مديدٍ، وافرٌ، حسن الطلوع

سما، متقاربا، عند ارتجاز ... ولا يجتث من وتد الجموع

خفيف، في تمام الوزن يقفو ... سريعاً، حين يرمل في خشوع

فلا تلقاه في الخلوات إلا ... علىٰ ذكر السجود أو الركوع

ولا تلقاه في الجلوات إلا ... علىٰ علم وحلم في خضوع

وليس إذا الفقير رجاه يوماً ... لنيل الأرب منه بالمنوع

فقيدي أحمد المشهور فخر بن طه السيد البر القنوع

سقيت بني السواحل مثلما قد   سقيت الواد من أصفىٰ النقوع
وقد أرويتنا من كل جَودٍ   كما أشبعتنا كل اليُنُوع
وإذ ودّعتني فرَّ اصطباري   وطال بفَقْده ظمئي وجُوعي
فما كان الحبيبُ سوىٰ سراجٍ   يضيءُ فتختفي كل الشموع
وما كان الحبيب سوىٰ ضياءٍ   من الشمس المنيرة في الربوع
ومن عجب ضريحٌ ضمَّ شمساً   لتبقىٰ عنده دون الرجوع
وأعجب منه أنا نستضيء   بها بالرغم من عدم الطلوع
فصبراً آل حداد فهذا   المصاب يهد أعماق الدروع
وصبراً آل علوي وإن كان   هذا الخطب أثَّر في الوقوع
وصل علىٰ الممجَّد يا إلٰهي   وآلٍ ثمَّ صَحْب والفروع
مع المشهور سيدنا ابن طه   ومن حضر القراءة في الجموع

* * *

والمرثاة التالية كغيرها من المراثي التي مرَّت معنا نجد في محتواها الإحساس العميق بعظم المصاب وما تركه في النفوس من الأسىٰ والحزن والتأثر الذي يصوره لنا في هذه المشاركة الوجدانية السيد الفاضل الأديب صالح محمد علي بدوي مبديًا ما للفقيد الغالي من مآثر حميدة، فيقول:

مجِّد العلم واعْطِهِ التقديرا   ولأعلامه الْزَمِ التوقيرا
وبما شئت حرِّر الوصف فيهم   منصفاً ما استطعته تحريرا
واقترب منهمُ حياةً وموتاً   إن ترد من إمدادهم تعميرا
هم ذرىٰ المجد بالرشاد وفي العرفان نالوا من ربنا التبشيرا
أذهب الله عنهم الرجس حتىٰ   طهروا من بين الورىٰ تطهيرا

وإذا ما قضىٰ الزمان بريب الدهر فاستسلم التقديرا

ودع الكون بالحوادث يجري كيف يهوىٰ ويحكم التدبيرا

إن موت الفقيد رزء به ضاع صوابي وغير التصويرا

وأراه خطباً إذا جدد الدهر صياحاً يجدد التأثيرا

سيدي أحمد بن طه ومن حاز المعالي زادت به تنويرا

كان صدر الأعلام قد سخر المولىٰ له العلم بالتقىٰ تسخيرا

كان يهدي رفقاً لمن يجعل الإسلام ديناً أو يرتجي التذكيرا

كان حِصْناً لنهْج أسلافه لا يرتضي باقتدائه التغييرا

كان بسْطَ اليدين جُوداً ولكن منه يأبىٰ الإسراف والتقتيرا

نال من حظه العلىٰ أحسن الأخلاق ما لا تبدي لها التقصيرا

وله في التأليفِ باعٌ طويل ما يفيض البيان والتقريرا

سل [بقيدون] أهلها حين أضحىٰ يافعاً يكسب العلا تشميرا

سل [بجاوا] غداةَ حطَّ المطايا بثراها لعلمه توفيرا

سل بوادي الأحقاف السادة الغر نحوه تفجيرا

وعن [القاديان] في شرق إفريقيا تصدىٰ يردد التحذيرا

وغداً في أغوارها ينشد الهدي وأمسىٰ يكافح التنصيرا

لم يكن في ارتحاله الأرض الا أن يبث الرشاد والتذكيرا

يا بنيه صبراً به يعظم المولىٰ ثواباً ويجبر

ولنا يحسن الختام وفيما قد دهانا يمدنا التيسيرا

ويحل الفقيد في جنة الخلد ويلقىٰ في رحبها التبشرا

وعليه بعد النبي صلاة يتغشاه فيضها تعطيرا

مع آل والصحب ما قال راث مجد العلم وأعطه التقديرا

ولقد انضمت مدينة [مقديشو] من الصومال إلىٰ مدن كينيا لتشارك دمعةً حزينة علىٰ فقد سيدي رحمه الله، وتعبر عن مشاعر الأسىٰ من خلال أسطر هذه المرثاة لناظمها الأديب الأخ أحمد عثمان محمد الشاشي [المقدشي]، قال:

لهفي عليك أأحمدَ المشهور ... من صيته بين الورىٰ مشهور
حدثت بموتك ثلمة في ديننا ... وعماده المرفوع كاد يغور
وذَوَتْ رياض المكرمات به كما ... ذَبُلَتْ من الخلق الكريم زهور
وعرىٰ كسوف في فضاء الفضل شمس العلم حتىٰ عمها الديجور
وعقولنا حارت ودمْعُ عيوننا ... يومَ ارتحالك فاضَ وهو غزير
وبكت عليك الأرضُ وهي حزينةٌ ... وارتجّت الخضراء وهي تمور
كم من نعاتك يوم دفنك في الثرىٰ ... صعقوا كموسىٰ يوم دك الطور
عجباً لمن حملوا علىٰ أكتافهم ... نعشاً أقلك والمُقَلُّ ثبير
ما كنت أحسب قبل موتك ... أن الجبال الراسيات تسير
كادت جنازتك التي حملتك فوق ... رؤوس من هم شيعوك تطير
شهد الجنازة للصلاة عليك من ... أم القرىٰ جمع هناك غفير
أسفاً علىٰ ما فاتني من أن يكون ... هناك لي مع هؤلاء حضور
يهنيك إذ واراك قبرك ما لقيت ... به وقد زفت إليك الحور
قد غبت عنا إذ دفنت منوراً ... كالنجم في أفق السماء يغور
أكرم بقبر أنت ساكن لحده ... فيه السماحة والتقىٰ والخير
يبكيك محراب إليه سجدت وانسدلت من الليل البهيم ستور
ومنابر طال ارتقاؤك فوقها ... تلقي محاضرة لها تأثير
ومساجد أكثرت فيها الإعتكاف ... وأنت راجي رحمة وذَكور

ومجالس عمرتها بالدرس والطلاب حولك حبذا التعمير

يادهر مالك من سهامك رامياً   أتخال أن ذِهِ القلوب صخورا

أرزأتنا في سيد   حتىٰ أقر بفضله الجمهور

السيد السامي الرفيع مقامه   والعالم العلامة النحرير

زين المحافل نسخة الأسلاف نخبة سادة في حبهم تبصير

أعطاه مولاه العلي ولاية   تنقاد أعيان لها وصدور

أعْظِمْ به حبراً حوىٰ كل الفنون   من العلوم وحظه موفور

منها التصوف والبلاغة والحديث   وغيرها وكذلك التفسير

ولقد حوىٰ من كل فن لُبَّه   ولمن تفلسف في العلوم قشور

آلَ الفقيد علىٰ مصابكم اصبروا   فلكُم علىٰ الصبرالجميل أجور

فالموت حق ما لنا من وكزه   منجاً ولاملجا يقي ويجير

كل امرىء متجرع من كأسه   وبسيفه عمر الورىٰ مبتور

ولنرضين بما قضاه إلهنا   وبما جرىٰ من عنده المقدور

* * *

أما [أوغاندا] وقد شهدت قمة نشاط الدعوة التي اضطلع بها سيدي وصحبه الكرام من الأوغانديين وغيرهم، فقد كان لنبأ وفاته وقعٌ عظيم وحزن بالغ لدىٰ أهلها في عرض البلاد وطولها، ولم يكن عزاء محبيه ومريديه في دمعةٍ حرىٰ تذرفها العيون ،ولا في زفرة أسَىً تنفثها الصدور، ولا في قصائد شعرية تنظمها القرائحُ فكل ذلك دون المصاب الجلل؛ إلا أن يكون من باب العرفان بالجميل أو للتعبير عن صدق مشاعرهم نحو الفقيد وخالص حبهم ومودتهم له.

ولكن عزاءهم أستشِفّه من لسان حالهم وهي تردد مع تعاقب الأيام شعاراتِ دعوته المقرونة بالحكمة والموعظة الحسنة، من فوق المنابر وفي فصول الدراسة في المدارس والمعاهد، فما أعظمها دعوةً وصوتها ينطلق مدوياً ملء الفضاء في اليوم والليلة خمسَ مرات: (الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لاإله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله الا الله).

هذا هو عزاؤهم، وياله من عزاء...

رحم الله فقيدنا الغالي، ونسأل الله العلي القدير أن يتغشاه بوابل المغفرة والرحمة والرضوان، وأن يجمعنا به في مستقر رحمته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إنه سميعٌ مجيبُ الدعاء، آمين آمين.

* * *



الخاتمة

وأخيراً لا أجدني قدمت للقارئ الكريم كل ما كنت أطمح في تقديمه عن رحلة طويلة باستعراض كل وقائعها وأحداثها عبر ما يقارب قرن من الزمن. من سنة ١٣٢٥هـ تقريباً وإلىٰ سنة ١٤١٦هـ. تلك الفترة الزمنية التي عاشها سيدي رحمه الله تعالىٰ بما قدم فيها من أعمال خيرة وذكريات طيبة ومساع حميدة، وأرجو أن تتاح الفرصة المواتية للكتابة عنها بإسهاب في المستقبل إن شاء الله، وخاصة فيما يتعلق بجانب الدعوة التي أصبحت المحور الأساسي في حياته.

وكتابة سير وتراجم العلماء ورجال الدعوة علىٰ الخصوص لا تكون ذات فائدة للقارىء ما لم تكشف له ولو عن البعض من مناهج دعوتهم، وتوضح أمامه حقيقة ما انتدبوا له من القيام ببث العلم ونشر الدعوة والإرشاد، والوعظ والتوجيه، بعيداً عن الاغترار بالمظاهر الخادعة، وبالمعاني اللفظية والكلمات المنمقة والشعارات البراقة التي لا يطلقها ولا يمارسها إلا من لا يهمه أنها قد تخفي في طياتها المعنىٰ المعاكس للحقيقة، وهذا أمر من أخطر الأمور التي تواجه الدعوة ورجالها المخلصين حيثما كانوا وعلىٰ وجه الخصوص حيثما نرىٰ ساحة الدعوة متروكة للفوضىٰ كشرق إفريقيا يتجول فيها هواة ومرتزقة لا همّ لهم إلا الكسب المادي مع تضارب في الاتجاهات وما يترتب علىٰ ذلك من شقاق.. وبلبلة تهز الثقة بهم وتجعل الناس يتساءلون: ترىٰ من المحق ومن المخطي.

لأن مهمة الداعية ومقومات شخصيته تُوجِبُ عليه الاستقامة والتحلي بما يدعو إليه، بحيث تبْرُزُ دعوتُه وآثارها في سِيْرَته قبل أن يدعو إليها بلسانه، كما يتطلب منه أن يكون قوي الحجة، سليم المنطق، ذا مقدرة علىٰ التعبير، حسن التصرف حينما يعرض الدعوة علىٰ مختلف الأفراد والمجتمعات لتصبح بعيدة الأثر في نفوس السامعين، فكم من داع مفلس لا يريد بدعوته وجه الله يغشىٰ المنتديات والمجتمعات ويزاحم الدعاة الناصحين في الدعوة فلا يكون نصيبه إلا إعراض الناس عن دعوته ودعوة أمثاله كما يعرضون عن البضاعة المزجاة.

وهناك الكثير من الدعاة ممن تسوروا محراب الدعوة يحاولون جاهدين لبلوغ مآربهم ربط الظواهر المشاهدة بعضها ببعض دون أن يلحظوا الفروق الأساسية بين مجتمع وآخر فيأتي حكمهم علىٰ الأشياء مبنياً علىٰ الوهم لا علىٰ الحكمة والموعظة الحسنة التي تنتج عنها الحقائق الملموسة والوقائع المحسوسة في محيط الدعوة ومعرفة قربها أو بعدها من المؤثرات المصاحبة لحملات التبشير.

وإدراك التباين في طرق التعبير ووسائلها المختلفة سلباً وإيجاباً شرط ضروري يتحدد معه منهج الدعوة الإسلامية وخصائصها، بالمقارنة إلىٰ الدعوات الأخرىٰ التي وصلَتْ بنَشاطها إلىٰ كلِّ ركن معلوم أو مجهول في العالم، إذا أردنا أن نصل بها نحن إلىٰ كل مكان نستطيع الوصول بها إليه في الوقت الذي نرىٰ فيه ساحة الدعوة الإسلامية خالية تقريباً من الدعاة الحقيقيين القادرين علىٰ حمل أمانتها والوفاء بتبعاتها بإخلاص، فهناك يوجد ملايين من البشر في إفريقيا ما زالوا علىٰ فطرتهم يعيشون حيارىٰ يتلمسون النور في ظلمات بعضها فوق بعض.

وقد رأينا كيف انتشر الإسلام في شرق إفريقيا علىٰ أيدي القلة من الدعاة المحتسبين وأيضاً علىٰ أيدي فئات من التجار مما يبرز لنا مدىٰ القصور من قبل الحكومات والهيئات الإسلامية.

والداعية قدوة، وشرط القدوة تَطابق القول بالعمل والالتزام بتطبيق الإسلام شعائراً وآداباً وقيماً وضوابط للسلوك بحيث يترجم كل ذلك إلىٰ حياة وممارسة.

وحديثنا هنا عن الدعوة والدعاة لم يتناولْ مشاكِلَ الدعوة بصورةٍ عامة وطرق التغلب عليها والوقوف أمام التحديات المناهضة لها، واقتصرنا علىٰ الحد الأدنىٰ لإعطاء فكرةٍ مُوجَزَة عن هذه المنطقة من القارة الإفريقية التي استرْعَتْ اهتمام الكثير من الدارسين، واستحوذت علىٰ أفكار رجال البعثات التبشيرية.

ولعلنا بهذا قد ألقينا ضوءاً كافياً علىٰ ما يعترض الدعوة من مشكلات وما يُجَابهُ الدعاةَ من عقبات، وما يحيطُ بالمجتمعات الإسلامية من أخطار، لكي يسْهُل التعرف عليها والوقوف أمامها والكشف عن أسبابها والنفاذ إلىٰ جذورها حتىٰ لا تتحول البحوث والدراسات عنها إلىٰ مجرد أفكار ونظريات لا تجد لها طريقاً يضعها موضع التطبيق والتنفيذ.

* * *

تقريظ السيّد أحمد بن علوي بن علي الحبشي

قل لحامد حماك الله لا زلت حامد شـاكـراً ذاكـراً لله قـايـم وقـاعـد
قد جمعته بهذا السفر كم من فوايد قد بسطته لنا في العلم خير الموايد
قد حفظته لنا يا صاحبي كم شوارد كم وكم قد لقطته من جواهر فرايد
قد وردته علىٰ منهل أعزّ الموارد منهل العارف المشهور نسل الأماجد
قرة العين للشافع نهار الشدايد مـرّ وقتـه وهـو لله خـاشـع وعـابـد
قد بنىٰ في سبيل الله كم من معابد لـم يـزل فـي سبيـل الله داعٍ وقـايـد
فهو لا شك في ذا العصر أكبر مجاهد كم هدىٰ الله به عاصي وكافر وفاسد
كم خزىٰ الله به كاهن وشيطان مارد له من الأجـر عنـد الله عِـدّة رصـايد
خيرها با يعم نسله وأهله ووالد والقرابـة وجيـرانـه وصـاحب ووارد

والصـلاة علىٰ المخـتار ما حن راعد

كتب ذلك وتطفل بهذه الأبيات الفقير أحمد بن علوي بن علي بن محمد الحبشي عفا الله عنه فضلاً، يا سادتي أسبلوا عليها ذيل الستر ولا تجعلوها كتقريظ بل أبقوها عندكم للذكرىٰ ولدوام الدعاء والاعتناء، ولكم التصرّف في بعض الكلمات وبعض الأبيات، ودمتم، وحُرِّر في ١٧ ربيع الأول سنة ١٤٢٣ .

* * *

تقريظ السيّد الداعية العالم الأديب محمّد بن سعيد البيض باعلوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، وصلاته وسلامه علىٰ أشرف عبده، سيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه من بعده.

قلت في ٢٤ ذي الحجّة سنة ١٤٢١هـ بجدة، وأنا في حلٍّ وترحال، ومع تبلبل البال، قلت مقرظاً لكتاب سيدي وأخي اللوذعي، الشاعر الناثر، الناقد الخبير، حامد ابن والدي وسيدي العلامة الإمام الحبيب أحمد مشهور ابن طه الحداد باعلوي، فقد راقني ما جمعه من مناقبٍ قيمةٍ عن والده الإمام شيخنا ابن طه الحداد، كادت تفوت في الزوايا لو لم تدوَّن، فقام بجهودٍ جبارةٍ مشكورة، ملتقطاً من هنا وهناك، حتىٰ ملأ الوطاب، وأتىٰ بما يشفي العليل، ويروي الغليل، وهو قُلٌّ مِن كُثْرٍ مما فات، ولكنّ الميسورَ لا يسقط بالمعسُور، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خيرَ الجزاء، ووفقه لما يحبه ويرضاه.

قلت هذه الأرجوزةَ اللاميةَ كما جرىٰ به القلم، فإن أصبتُ فبتوفيقِ من الله، وإن هفوتُ فلا غروَ بذلك كما أعلمُ من حالي، والله الموفق للصواب، آمين.

أطلِقْ عِنانَ القلمِ السيّالِ ... واضْطَدْ به الرائقَ في المجالي
وحرِّر الرقيقَ بالإجمالِ ... واشكُر أخاكَ حامداً في الحالِ
فقد أتىٰ بسِحرِه الحلالِ ... فرائِدَ البيان في المجالِ
حالفَهُ التوفيقُ في المقالِ ... فصاغَ عِقدًا فائقَ اللآلي
سِمْطاً حوىٰ مناقبَ المِفضَالِ ... والدِهِ الإمامِ بالتوالي
منتخِباً سا ساغَ في المنالِ ... مختصِراً له بلا إخلالِ
أبرَزَ منها كل دُرٍّ غالي ... في حالِ شيخِنا عظيمِ الحالِ
ذا أحمدُ المشهورُ في الأجيالِ ... وهو ابنُ طَهَ خِيرةِ الرجالِ
مَن جَدُّه الحدادُ سِرُّ الآلِ ... غوثُ العبادِ القطبُ ذو الأحوال
والسيّدُ الهدّارُ في الإدلال ... أقربُ جَدَّيهِ لَهُ مُوالي
فكان وارثاً بلا جِدَالِ ... وقام يدعو الخلقَ لا يبالي
بما يلاقي، شيمةَ الأبدالِ ... حتىٰ أتاهُ النصرُ في المآلِ
ذاكَ ابنُهم جَلَّىٰ لدىٰ الإرقَال ... وكان في الرسوخِ كالجبالِ
لم يَغترِرْ بالجاهِ أو بالمالِ ... بل كَفُّه بَسطٌ لدىٰ الإرْمَالِ
كان إماماً صالِحَ الأعمالِ ... داعيةً في الحلِّ والترحَالِ
ومرشداً بالحالِ والمقالِ ... فسَلْ به الأصقاعَ كالأدغَالِ
تنبئْكَ عن أحوالِهِ الغَوالي ... كم اهتدَىٰ به مِنَ الضَّلالِ
وكم أتىٰ بأعجبِ الخِلالِ ... ديدَنُهُ البِناءُ للمعالي
يعبدُ مولاه بكلِّ حالِ ... حتىٰ ارتقىٰ مرتبةَ الكمالِ
قرَّت به عَيناً ذوو الإقبالِ ... والتقطَ ابنُه النفيسَ العالي

قــدْرَ كفــايــةٍ مــن الطِّــوالِ   جــزاه ربٌّ العــرشِ ذو الجــلالِ
خيـراً وحــازَ أحســنَ الخِصَــالِ   والبيِـضُ أبـدَىٰ الشعـرَ بـارتِجَـالِ
معتــرفــاً لسيّــدي بــالقــالِ   والحمــــدُ لله لــــدَىٰ الكَمَــــالِ
وصَــلِّ يــا ربِّ بــلا انفصــالِ   علىٰ النَّبـيْ والصَّحْـبِ بعـدَ الآلِ

بقلم

محمد بن سعيد بن عبد الله ابن

سعيد بن سالم البيض

الساكن بـ (منبع الرّو) بكينيا ـــ الغنّاء الإسلامية

تقريظ العلّامة السيّد
حسين بن محمّد بن هادي السقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله البر الجواد، الذي اصطفىٰ من عباده من أراد، ووفقه واختصهم وجعلهم هداة ودعاة إلىٰ الله رب العباد، والصلاة والسلام علىٰ سيد الأسياد، سيدنا محمدٍ وآله وصحبه الهداة الأمجاد، صلاة وسلاماً دائمين متكررين أبد الآباد.

أما بعد:

فقد اطلعت علىٰ ما كتبه وجمعه السيد الفاضل الأخ حامد بن أحمد مشهور الحداد من مناقب وسيرة وحياة والده العلامة الداعية الكبير، الذي ضرب المثل الأعلىٰ في مجال الدعوة إلىٰ الله، السائر علىٰ قدم ومنهج أسلافه الأكارم، المتبع لهدي وسنة جده الأعظم سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم، شيخنا الجليل العلامة الحبيب أحمد مشهور بن طه بن علي الحداد أعلىٰ الله في عليين روحه، ونور ضريحه، آمين اللهم آمين.

وقد أحسن المؤلف ـ الأخ حامد ـ صنعاً بما جمعه وكتبه من مناقب وثَبَت والده الداعية الكبير وآثاره العلمية والدعوية النافعة، فقد أمضىٰ المترجم له حياته السعيدة في التعلم والتعليم، والأخذ عن الشيوخ الأكابر،

والارتباط بسلاسل الأسانيد التي يحرص الشيوخ والأسلاف علىٰ الارتباط بها.

وقد هدىٰ الله بالحبيب أحمد الجم الغفير والخلق الكثير، لا سيما في تلك البلاد النائية في أفريقيا الشرقية وغيرها، وكان له في ذلك المجال القِدْحُ المُعَلَّىٰ والمثل الأعلىٰ.

وقد كرّس الحبيب أحمد جهوده للدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو مشروحٌ فيما ذكره المؤلف في هذا السفر الجامع الذي حفظ فيه للأجيال مناقب وسيرة هذا الإمام الداعية الكبير المتحلي بما يدعو الناس إليه من حميد الصفات وعظيم الأخلاق والاتباع للرسول الأعظم الذي وصفه الله تعالىٰ في الكتاب المحكم بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم. فجزىٰ الله المؤلف الكريم علىٰ هذا الجهد المشكور والعمل الصالح المبرور خير الجزاء، وكتب ذلك في سجل حسناته.

وقد عرفتُ الحبيب أحمد مشهور أول مرة عندما أتىٰ لزيارة سيدي الوالد محمد في منزله بمدينة سيون، لا أذكر التاريخ علىٰ وجه التحديد، وكان وصول الحبيب أحمد لزيارة سيدي الوالد مساءً في وقت الشتاء وكان البرد تلك الليلة شديداً وكان معه بعض أولاده وكانوا في سن الصبا، ففرح به سيدي الوالد كثيراً وقال له: مبيتكم الليلة عندنا، فاعتذر الحبيب أحمد لسيدي وأخبره بأنه ينوي أن يعجل وأن يواصل سيره إلىٰ بلده قيدون لأنه بلغه أن والدته مريضة فهو قلق عليها وباله مشغول بمرضها ولا يقدر أن يتأخر بسبب ذلك، فطمنه سيدي الوالد، وقال له: والدتك بخير وستستقبلك

عند وصولك إليها، وهذه الليلة تبيتون عندنا والصبح تتوجهون بضوء النهار. فتطمن الحبيب أحمد بكلام سيدي الوالد وبشارته له بأن والدته بخير وأنها ستستقبله عند وصوله، ووافق علىٰ المبيت، وكانت ليلةً مباركة، وجلسةً خاصة، أخذ الحبائب يتحدثون وينثرون من تلك العلوم، ومن أخبار الأسلاف وما لهم من الأعمال الجليلة والسيرة الحميدة.

وبعد تناول ما تيسر من طعام العشاء ذهب سيدي الوالد إلىٰ غرفته، ونام الحبيب أحمد مع أولاده في الغرفة التي وقعت فيها الجلسة المباركة، وفي صباح اليوم التالي عُقدت جلسة وحضر سيدي الوالد وتناولوا ما تيسر من طعام الصبوح، وكان من العصيدة التي يعدها الحضارمة من الأكلات المفضلة في أيام الشتاء، ومعها شيءٌ من الخبز والقهوة والشاهي، وختمت الجلسة بالفاتحة كالمعتاد.

ثم توجه الحبيب أحمد مشهور علىٰ بركة الله وفي حفظه وأمانه قاصداً بلدة قيدون لزيارة والدته الصالحة والاطمئنان علىٰ صحتها، وأخبر الحبيب أحمد فيما بعد أنه وجد والدته بخير وصحتها طيبة وأنها أشرفت عليه من النافذة عند وصوله وهي تردد كلمات الترحيب، قال الحبيب أحمد: وقد حقق الله ما قاله الوالد محمد، وهكذا كلام الشيوخ العارفين محقق ولا يقصر، رضوان الله عليهم.

ويكاتب الحبيب أحمد مشهور سيدي الوالد من مهجره في إفريقيا، وكتب له مرة مكاتبة وضمنها سؤالاً يدور حول ما جاء في كلام بعض الأسلاف من الحث علىٰ كتم الهوىٰ وما هو الهوىٰ الذي يعنونه؟ مثل قول الشيخ أبي بكر ابن سالم في القصيدة التي عاتب فيها خادمه:

اكتم هوانا إن أردتَ رضانا   واحذر تبوح بسرنا لسوانا

وقول الإمام الحداد:

وكتمي لأسرار الهوىٰ غاية الجهد

فأجابه سيدي الوالد بجواب مطول أذكر أنه كتبه في ورقة كبيرة، وبقيت عند سيدي الوالد نسخة من ذلك الجواب، ولا وجود لها الآن، وقد بحثت عنها فلم أعثر علىٰ شيء، وقد طلبت من أولاد الحبيب أحمد أن يبحثوا بدورهم في كتب وأوراق والدهم الحبيب أحمد، وعسىٰ أن نوفق للعثور علىٰ ذلك. هذه بعض ملامح وشواهد من صِلات الحبيب أحمد بسيدي الوالد وأخذه عنه وارتباطه به.

وعندما أقمت بمدينة جدة بعد وفاة سيدي الوالد رضوان الله عليه، كان الحبيب أحمد مشهور يتردد إليها ويأتي من إفريقيا ويقيم الأيام والأسابيع عند أنجاله الميامين، فكنت أزوره وأتردد إليه، وأحضر مجالسه وأقرأ عليه، وكان يفرح بي ويغمرني بعطفه ووده، وفاءً لشيخه سيدي الوالد، ويذكر لي سيدي الوالد كثيراً ويشير إلىٰ أخذه عنه وارتباطه به.

وفي السنوات الأخيرة من حياة الحبيب أحمد التي استقر فيها بجدة ولم يتمكن من الذهاب إلىٰ إفريقيا بسبب الضعف والشيخوخة كنت أحرص علىٰ حضور مجالسه التي يقيمها في منزله العامر وأزوره كثيراً، وقرأت عليه بعض الكتب، منها رحلة سيدي الوالد إلىٰ مصر والقدس سنة ١٣٤٣هـ المسماة «الرياض الوردية في الرحلة المصرية والقدسية»، ورحلة الوالد إلىٰ الحرمين الشريفين للحجة الأولىٰ سنة ١٣٤٧هـ، ومجموع كلام سيدي الوالد، فكان

ينبسط ويرتاح للقراءة في تلك الكتب، وآخر كتابٍ كنت أقرأ عليه فيه هو كتاب «العهود المحمدية» للإمام عبد الوهاب الشعراني، وهو من الكتب التي يحبها شيوخنا وأسلافنا ولا تزال تُقرأ في مجالسهم المباركة ويوصون بقراءتها، وتوفي الحبيب أحمد والقراءة في أثناء كتاب «العهود» المذكور. وقد قرأت علىٰ سيدي الوالد كتاب العهود المذكور مرتين والحمد لله علىٰ ما من به علينا من رؤية هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه والحمد لله علىٰ نعمة الانتماء إليهم والقراءة عليهم، ونسأله تعالىٰ أن ينفعنا ببركاتهم ونظراتهم، وأن يحققنا باتباعهم، إنه سميع الدعاء.

ومرةً أخرىٰ نقول جزىٰ الله المؤلف الفاضل علىٰ ما بذله من الجهد المشكور في تأليف هذا الكتاب النافع خيرَ الجزاء، وسلامٌ علىٰ عباده الذين اصطفىٰ.

كتبه راجي عفو ربه

في ٢٠/ ٥/ ١٤٢٣هـ

حسين بن محمد بن هادي السقاف

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *